

لِمَا أَشْكَلَ مِنْ تَلْخِيصِ كِتَابِ مُسْلِم

تأليف

الإمام الحافظ أبي العبَّاس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي

٥٧٨ - ٦٥٦ هجرية

الجُزْءُ السَّادِسُ

حَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ وَقَدَّمَ لَهُ

محيي الدين ديب مستو | يوسف علي بديوي
أحمد محمد السيّد | محمود إبراهيم بزّال


دمشق - بيروت




بسم الله الرحمن الرحيم

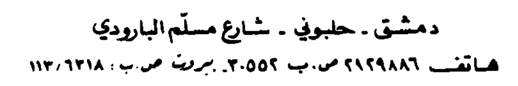
حُقُوقُ الطَّبعِ وَالتَّصْوِيرِ مَحْفُوظَةٌ لِلنَّاشِرَيْنِ

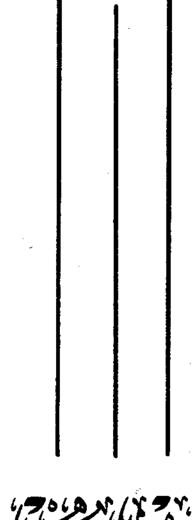
الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م



دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب: ٣١١ - تلفون: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٤٣٥٠٢
بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي
ص.ب: ١١٣/٦٣١٨ تلفون: ٨١٧٨٥٧ - ٢٠٤٤٥٩-٠٣




دمشق - حلبوني - شارع مسلم البارودي
هاتف ٢٢٢٩٨٨٦ ص.ب ٣٠٥٥٢. بيروت ص.ب: ١١٣/٦٣١٨




المفهم
لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم

الفهرس الألفبائي
للكتب الواردة في تلخيص مسلم والمفهم

اسم الكتاب ورقمه	الجزء والصفحة
آداب الأطعمة (٢٧)	٥/ ٢٩٣
الاستسقاء (٦)	٢/ ٣٥٨
الاعتكاف وليلة القدر (١١)	٣/ ٢٤٠
الأدب (٣٠)	٥/ ٤٥٣
الأذكار والدعوات (٣٧)	٧/ ٥
الأشربة (٢٦)	٥/ ٢٤٦
الأضاحي (٢٨)	٥/ ٣٤٧
الأقضية (٢٤)	٥/ ١٤٧
الإمارة والبيعة (١٤)	٤/ ٥
الإيمان (١)	١/ ١٣١
البر والصلة (٣٤)	٦/ ٥٠٨
البيوع (١٨)	٤/ ٣٦٠
التفسير (٤٢)	٧/ ٣١٤
الجمعة (٤)	٢/ ٤٧٨
الجنائز (٨)	٢/ ٥٦٩
الجهاد والسير (١٣)	٣/ ٥١١
الحج (١٢)	٣/ ٢٥٥
الحدود (٢٣)	٥/ ٧٠
ذكر الموت وما بعده (٤٠)	٧/ ١٤٢
الرقاق (٣٨)	٧/ ٦٩
الرقى والطب (٣١)	٥/ ٥٦٣
الرؤيا (٣٢)	٦/ ٥
الزكاة (٩)	٣/ ٥
الزهد (٣٩)	٧/ ١٠٧
الصدقة والهبة والحبس (٢٠)	٤/ ٥٧٨
الصلاة (٣)	٢/ ٥
صلاة العيدين (٥)	٢/ ٥٢٣
الصوم (١٠)	٣/ ١٣٥
الصيد والذبائح (٢٥)	٥/ ٢٠٤
الطلاق (١٦)	٤/ ٢٢٤
الطهارة (٢)	١/ ٤٧٣
العتق (١٧)	٤/ ٣٠٩
العلم (٣٦)	٦/ ٦٨٤
الفتن وأشراط الساعة (٤١)	٧/ ٢٠٦
القدر (٣٥)	٦/ ٦٤٩
القسامة والقصاص والديات (٢٢)	٥/ ٥
كسوف الشمس والقمر (٧)	٢/ ٥٤٩
اللباس (٢٩)	٥/ ٣٨٥
النبوات (٣٣)	٦/ ٤٦
النذور والأيمان (٢١)	٤/ ٦٠٤
النكاح (١٥)	٤/ ٨٠
الوصايا والفرائض (١٩)	٤/ ٥٣٩

(٣٢)
كتاب الرؤيا

(١) باب
الرؤيا الصادقة من الله والحُلْمُ مِن الشيطان
وما يفعل عند رؤية ما يكره

[٢١٧٣] عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سمعت أبا قتادة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا من الله والحُلْمُ من الشَّيطان، فإن رأىٰ أحدكم شيئاً يكرهه فلينفُثْ عن يساره ثلاث مراتٍ، وليتعوذْ بالله

---

(٣٢)
كتاب الرؤيا

[(١) باب: الرؤيا الصادقة من الله والحُلْم من الشيطان وما يفعل عند رؤية ما يكره][(١)]

(قوله: «الرؤيا من الله، والحُلْم من الشيطان») الرؤيا: مصدر رأى في المنام رُؤْيا، على وزن فُعْلى؛ وألفه للتأنيث، ولذلك لم ينصرف. والرؤية: مصدر رأى بعينه في اليقظة رؤيةً. هذا المعروف من لسان العرب، وقال بعض العلماء: إن

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصول، واستدرك من التلخيص.

من شرِّها؛ فإنَّها لن تضرَّه». فقال: إن كنت لأرى الرؤيا أثقل عليَّ من الجبل فما هو إلاَّ أنْ سمعتُ بها الحديث فما أُباليها.

زاد في روايةٍ: «وليتحوّل عن جنبه الذي كان عليه».

الرؤيا قد تجيء بمعنى الرؤية. وحَمَل عليه قولَه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] وقال: إنما يعني بها رؤية النبيِّ ﷺ في الإسراء لِما أراه من عجائب السموات والملكوت، وكان الإسراءُ من أوَّله إلى آخره في اليقظة. وقد ذكرنا هذا في باب الإسراء من كتاب: الإيمان. والحُلْم ـ بضم الحاء، وسكون اللام ـ مصدر حَلَمت ـ بفتح الحاء واللام ـ إذا رأى في منامه رؤيا، وتُجمع على أحلام في القلَّة، وفي الكثرة حلوم، وإنما جُمِع وإن كان مصدراً لاختلاف أنواعه، وهو في الأصل عبارةٌ عما يراه الرائي في منامه حسناً كان أو مكروهاً. وأراد به النبيُّ ﷺ هنا ما يكره، أو ما لا ينتظم، على ما يأتي إن شاء الله تعالى. فأما الحِلْم ـ بكسر الحاء ـ فهو مصدر حَلُم ـ بضم اللام ـ يحلم: إذا صفح وتجاوز حتى صار له ذلك كالغريزة. وتحلَّم: تكلَّف الحلم. والحَلَم ـ بفتح الحاء ـ هو فساد الإهاب من الدباغ، وتثقيبه فيه. يقال منه: حَلِم الأديم ـ بكسر اللام ـ يحلم ـ بفتحها ـ: إذا صار كذلك. وقد اختلف الناسُ في كيفية الرؤيا قديماً وحديثاً، فقال غير المتشرِّعين أقوالاً كثيرة مختلفةً، وصاروا فيها إلى مذاهب مضطربة قد عَرِيَتْ عن البرهان فأشبهت الهذيان. وسببُ ذلك التخليط العظيم: الإعراض عما جاءت به الأنبياءُ من الطريق المستقيم. وبيان ذلك: أن حقيقةَ الرؤيا إنما هي من إدراكات النفس، وقد غيّب عنا عِلْم حقيقتها. وإذا لم يعلم ذلك لعدم الطريق الموصل إليه؛ كان أحرى، وأولى ألا نعلم ما غيِّب عنا من إدراكاتها، بل نقول: إنا لا نعلم حقيقة كثيرٍ مما قد انكشفت لنا جملته من إدراكاتها، كحسّ السمع، والعين، والأذن، وغير ذلك، فإنا إنَّما نعلم منها أموراً جُمليّةً، لا تفصيليَّةً، وأوصافاً لازمةً، أو عرضيةً، لا حقيقيَّةً، وسبيلُ العاقل: ألا يطمعَ في

حقيقة الرؤيا

وفي أخرى: «الرؤيا الصالحة من الله، ورؤيا السُّوء من الشيطان، فمن رأى رؤيا يكره منها شيئاً؛ فلينفث عن يساره، وليتعوذ بالله من

معرفة ما لم يُنْصَبْ له عليه دليلٌ عقليٌّ، ولا حسيٌّ، ولا مركبٌ منهما؛ إلا أن يخبر بذلك صادقٌ، وهو الذي دلَّ الدليلُ القطعيُّ على صدقه، وهم الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ فإنَّهم دلت على صدقهم دلائلُ المعجزات. وإذا كان كذلك: فسبيلُنا أن نُعْرِض عن أحوال المعرضين، ونتشاغل بالبحث عن ذلك في كلام الشَّارع والمتشرِّعين.

مذهب أهل السنة في الرؤيا

قال الإمام أبو عبد الله[1]: المذهبُ الصحيحُ ما عليه أهلُ السُّنَّة؛ وهو: أنَّ الله تعالى يخلقُ في قلب النائم اعتقاداتٍ، كما يخلقها في قلب اليقظان. وهو تبارك اسمه يفعلُ ما يشاء، وما يمنعه مِن فعله نومٌ، ولا يقظةٌ، وكأنه سبحانه جعل هذه الاعتقادات علماً على أمورٍ أُخَر يخلقُها في ثاني حالٍ، أو كان قد خلقها.

وقال غيرُه: إنَّ لِلَّهِ تعالى مَلَكاً مُوكَّلاً يعرضُ المرئيَّات على المحلِّ المدرك من النائم، فيمثِّل له صوراً محسوسةً، فتارةً تكون تلك الصورُ أمثلةً موافقةً لما يقع في الوجود، وتارةً تكون أمثلةً لمعـانٍ معقولةٍ غير محسوسةٍ. وفي الحالتين تكون مبشِّرةً ومنذرةً.

قلـتُ: وهذا مثل الأول في المعنى؛ غير أنه زاد فيه قضية المَلَك، ويحتاجُ في ذلك إلى توقيفٍ من الشرع، إذ يجوز أن يخلقَ اللَّهُ تعالى تلك التمثيلات من غير مَلَكٍ.

وقيل: إن الرؤيا إدراكُ أمثلة منضبطة في التخيل جعلها الله إعلاماً على ما كان، أو يكون. [وهو أشبهها][2]. فإن قيل: كيف يقال إن الرؤيا إدراكٌ مع أن

---

(١) انظر: المعلم بفوائد مسلم (٣/ ١١٥).

(٢) ما بين حاصرتين سقط من (ج ٢).

الشيطان، لا تضرُّه، ولا يخبر بها أحداً، فإنْ رأى رؤيا حسنةً، فلْيُبْشِر ولا يخبر بها إلا من يحب».

رواه أحمد (٥/ ٣١٠)، والبخاريُّ (٣٣٩٢)، ومسلم (٢٢٦١) (٢ و ٣)، وأبو داود (٥٠٢١)، والترمذيُّ (٢٢٧٧)، وابن ماجه (٣٩٠٩).

النوم ضد الإدراك؛ فإنه من الأضداد العامة، كالموت، فلا يجتمعُ معه إدراكٌ؟ فالجواب: أن الجزء المدرك من النائم لم يحلّه النوم، فلم يجتمعْ معه، فقد تكون العينُ نائمة، والقلب يقظان؛ كما قاله النبيُّ ﷺ: «إن عينيَّ تنامان، ولا ينام قلبي»[١]. وإنما قال: منضبطة في التخيُّل؛ لأن الرائي لا يرى في منامه إلا من نوع ما أدركه في اليقظة بحسِّه، غير أنَّه قد تركَّب المتخيَّلات في النوم تركيباً يحصلُ من مجموعها صورةٌ لم يوجدْ لها مثالٌ في الخارج، تكون عَلَماً على أمرٍ نادرٍ، كمن يرى في نومه موجوداً رأسه رأس الإنسان وجسده جسد الفرس مثلاً، وله جناحان، إلى غير ذلك مما يمكن من التركيبات التي لا يوجد مثلُها في الوجود. وإن كانت آحادُ أجزائها في الوجود الخارجي. وإنما قال: جعلها اللَّهُ إعْلاماً على ما كان، أو يكون؛ لأنه يعني به: الرؤيا الصحيحة المنتظمة الواقعة على شروطها على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

أنواع الرؤيا

ثم: إن النبيَّ ﷺ قد ذكر أنواع الرؤيا هنا. وفيما رواه الترمذي من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا ثلاث: فرؤيا حقٌّ، ورؤيا يحدِّثُ المرءُ بها نفسه، ورؤيا تحزين من الشيطان. . .»[٢] وذكر الحديث.

الرؤيا الحق

فرؤيا الحق: هي المنتظمة التي لا تخليط فيها، وقد سمَّاها في رواية أخرى: «الصادقة». وفي أخرى: «الصالحة»، وهي التي يحصلُ بها التنبيهُ على أمرٍ في

---

(١) رواه البخاري (٢٠١٣)، ومسلم (٧٣٦ و ٧٣٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٢٨٠).

[٢١٧٤] وعن جابرٍ، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثاً، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه».

رواه أحمد (٣/ ٣٥٠)، ومسلم (٢٢٦٢) (٥)، وأبو داود (٥٠٢٢)، وابن ماجه (٣٩٠٨).

* * *

اليقظة صحيح، وهي ـ التي إذا صدرتْ من الإنسان الصالح ـ جزءٌ من أجزاء النبوة. أي: خصلة من خصال الأنبياء التي بها يعلمون الوحي من الله تعالى. وأما الثانية: فهي التي تكون عن أحاديث نفسٍ متوالية، وشهواتٍ غالبة، وهموم لازمةٍ، ينام عليها، فيرى ذلك في نومه، فلا التفاتَ إلى هذا، وكذلك الثالثة. فإنها تحزينٌ، وتهويلٌ، وتخويفٌ، يُدْخِل كلَّ ذلك الشيطانُ على الإنسان في نومه ليشوِّش يقظته. وقد يجتمع هذان السببان؛ أعني: هموم النفس، وأُلقيات الشيطان في منامٍ واحدٍ، فتكون أضغاث أحلام لاختلاطها. والضغث: هي القبضة من الحشيش المختلط.

رؤيا أحاديث النفس المتوالية والتحزين والتهويل والتخويف

و (قوله: «الرؤيا من الله») أي: بشرى من الله، أو تحذير وإنذار.

و (قوله: «والحُلْم من الشيطان» يعني به: ما يلقيه مما يهوِّل، أو يخوِّف، أو يُحْزِن به. وهذا النوع هو المأمورُ بالاستعاذة منه؛ لأنه من تخييلات الشيطان وتشويشاته، فإذا استعاذ الرائي منه صادقاً في التجائه إلى الله تعالى، ونفث عن يساره ثلاثاً، وتحوَّل عن جنبه كما أمره النبيُّ ﷺ في هذا الحديث، وصلى[1] أذهب الله عنه ما أصابه، وما يخافه من مكروه ذلك، ولم يصبه منه شيءٌ ببركة صدق الالتجاء إلى الله تعالى، وامتثال أوامر رسوله ﷺ. وعلى هذا فيكون قوله: «فإذا رأى أحدكم ما يكره» إنَّما يعني به: ما يكون سببه الشيطان. وقيل: بل الخبر

التعوّذ من الحُلْم وكيفيته

---

(١) من (م ٢) و (ع).

(٢) بــاب
أصدقكم رؤيا أصدقُكم حديثاً

[٢١٧٥] عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إذا اقترب الزَّمان لم تكذْ رؤيا المسلم تكذبُ، ....

بحكم عمومه يتناول ما يسببه الشيطان، وما لا يسببه مما يكرهه الرائي. ويكون فعل هذه الأمور كلها مانعاً من وقوع ذلك المكروه. كما يقال: إن الدعاء يدفع البلاء، والصَّدقةَ تدفع ميتة السوء. وكل ذلك بقضاء الله تعالى وقَدَره، ولكن الوسائط والأسباب عاديات[١] لا موجودات. وفائدةُ أمره بالتحول عن جنبه الذي كان عليه ليتكامل استيقاظه، وينقطع عن ذلك المنام المكروه. وفائدة الأمر بالصلاة[٢] أن تكمل الرغبة، وتصح الطلبة؛ فإنَّ أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجدٌ.

و (قول أبي سلمة: فما أباليها) أي: ما ألتفتُ إليها، ولا ألقي لها بالاً. أي: لا أخطرها على فكري ثقة بالله تعالى، وبما أمر به رسوله ﷺ.

(٢ و ٣) ومن بــاب: أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً[٣]

معنى تقارب الزمان

(قوله: «إذا اقتربَ الزمانُ لم تكذْ رؤيا المسلم تكذبُ») قيل في اقتراب الزمان قولان:

أحدهما: تقارب الليل والنهار في الاعتدال، وهو الزمان الذي تتفتق فيه الأزهار، وتَيْنعُ فيه الثمار، وموجب صدق الرؤيا في ذلك الزمان اعتدال الأمزجة

---

(١) مفردها: عدوى، وهي: المعونة. وفي (ج ٢): عادات.
(٢) الأمر بالصلاة لم يرد في أحاديث هذا الباب، وإنما في أحاديث الباب الذي يليه.
(٣) شرح المؤلف تحت هذا العنوان ما أشكلَ في أحاديث هذا الباب، وما أشكل في أحاديث الباب الذي يليه، وهو بعنوان: باب الرؤيا الصالحة جزء من أجزاء النبوة.

وأصدقُكم رؤيا أصدقُكم حديثاً، ....

فيه، فلا يكون في المنام أضغاث الأحلام، فإن من مُوجِبات التخليط فيها غلبة بعض الأخلاط على صاحبها.

وثانيهما: أنَّ المرادَ بذلك: آخر الزمان المُقَارِب للقيامة. وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ من طريق معمر عن أيوب عن ابن سيرين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «في آخر الزمان لا تكذبُ رؤيا المؤمن»[١].

قلــتُ: ويعني ـ والله أعلم ـ بآخر الزمان المذكور في هذا الحديث: زمان الطائفة الباقية مع عيسى ـ عليه السلام ـ بعد قتله الدجال المذكور في حديث عبد الله بن عمرٍو الذي قال فيه: «فيبعث الله عيسى ابن مريم، ثم يمكث في الناس سبع سنينَ ليس بين اثنين عداوةٌ، ثم يُرسلُ الله ريحاً باردة من قبل الشام فلا تُبقي على وجه الأرض أحداً في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من خيرٍ أو إيمانٍ إلا قبضته»[٢]، فكان أهل هذا الزمان أحسنَ هذه الأمَّة بعد الصدر المتقدِّم حالاً، وأصدَقهم أقوالاً، وكانت رؤياهم لا تكذب، كما قال ﷺ: «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً»[٣]، وكما قال: «رؤيا الرجل الصالح جزءٌ من النبوة»[٤].

و (قوله: «لم تكدْ تكذبُ») أي: لم تقاربِ الكذبَ، وقد تكلَّمنا على كاد وأخواتها من أفعال المقاربة فيما تقدَّم.

أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً

و (قوله: «أصدقُكم رؤيا أصدقُكم حديثاً») إنما كان ذلك لأنَّ: من كثر صدقه تنوَّر قلبُه، وقوي إدراكُه، فانتقشت فيه المعاني على وجه الصِّحة،

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٦٩)، والترمذي (٢٢٩١).

(٢) رواه أحمد (٢/ ١٦٦)، ومسلم (٢٩٤٠).

(٣) تقدم في التلخيص برقم (٢٨٨٣).

(٤) هو في التلخيص برقم (٢٨٨٥) بلفظ: «رؤيا الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

ورؤيا المسلم جزءٌ من خمسةٍ وأربعين جزءاً من النُّبوَّة، . . . .

والاستقامة، وأيضاً فإنَّ من كان غالبُ حاله الصدق في يقظته استصحبَ ذلك في نومه، فلا يرى إلا صدقاً. وعكس ذلك: الكاذب والمُخلِّط يَفسدُ قلبُه، ويُظلم، فلا يرى إلا تخليطاً وأضغاثاً. هذا غالبُ حال كل واحد من الفريقين، وقد يندرُ فيرى الصادقُ ما لا يصحُّ، ويرى الكاذب ما يصحُّ، لكن ذلك قليل، والأصلُ ما ذكرناه.

رؤيا المسلم والنبوة

و (قوله: «رؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءاً من النبوة»)، وفي حديث عبادة: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً»، وفي روايةٍ عن أبي هريرة: «رؤيا الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً»، [وفي أخرى عنه: «الرؤيا الصالحة»، وفي رواية: «رؤيا الرجل الصالح ستة وأربعون جزءاً من النبوة»][1]. وفي حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «الرؤيا الصالحة جزء من سبعين». وفي غير كتاب مسلمٍ عن ابن عباسٍ: «جزء من أربعين»[2]. وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ: «جزء من سبعة وأربعين»[2]. وفي حديث العباس ـ رضي الله عنه ـ: «من خمسين»[3]، وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ: «من ستة وعشرين»[3]، وعن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ: «من أربعةٍ وأربعين»[3].

قال أبو عبد الله المازري: والأكثر والأصحُّ عند أهل الحديث: «من ستة وأربعين». وحُكي عن بعض الناس: أنه نُزِّل هذا الحديث بهذه الرواية على مدة الوحي للنبيِّ ﷺ، وذلك أنه ﷺ أقام يُوحى إليه ثلاثاً وعشرين سنة، منها ستة أشهر

(١) ما بين حاصرتين ساقط من (م ٢).
(٢) رواهما الطبري كما في الفتح (١٢/ ٣٦٣).
(٣) ذكرها الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢/ ٣٦٣).

. . . .

يُوحى إليه في نومه، وذلك في أوّل أمره[١]. وقد اعترض عليه بأن هذه المدة لم يصحَّ نقل تحديدها، ولا هو معروف، فتقديره تحكُّمٌ.

قلـــتُ: القدرُ الذي اختلف الرواةُ فيه من هذا الحديث أمران:

أحدهما: من أضيفت الرؤيا إليه؛ فتارة سُكِت عنه، وأخرى قيل فيه: المسلم، وفي أخرى: المؤمن، وفي أخرى: الصالح. وهذا الأمر: الخلاف فيه أهون من الخلاف في الأمر الثاني، وذلك: أنه حيث سُكت عنه لم يضرَّ السكوتُ عنه، مع العلم بأن الرؤيا مضافةٌ إلى راءٍ ما، فإذا صُرِّح به في موضع آخر فهو المعنيُّ، وأما حيث نُطِق به فالمراد به واحد وإن اختلفت الألفاظ. وذلك أن الرؤيا لا تكونُ من أجزاء النبوة إلا إذا وقعت من مسلم صادقٍ صالحٍ، وهو الذي يناسب حاله حال النبي ﷺ فأُكرم بنوع مما أكرم به الأنبياء، وهو الاطلاع على شيءٍ من علم الغيب، كما قال النبيُّ ﷺ: «إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصادقة في النوم. يراها الرجل الصالح، أو تُرى له»[٢]، فإن الكافر، والكاذب، والمخلِّط ـ وإن صدقت رؤياهم في بعض الأوقات ـ لا تكون من الوحي، ولا من النبوّة؛ إذ ليس كلُّ من صدق في حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوة. وقد قدَّمنا: أن الكاهن يُخبر بكلمة الحق، وكذلك المنجم قد يحدِس[٣] فيصدق، لكن على الندور والقلّة. وكذلك: الكافر، والفاسق، والكاذب. وقد يرى المنام الحق، ويكون ذلك المنامُ سبباً في شرٍّ يلحقه، أو أمرٍ يناله. إلى غير ذلك من الوجوه المعتبرة

متى تكون الرؤيا من النبوة

قد تصدق رؤيا الكافر والكاذب

---

(١) جاء في كتاب: «المعلم بفوائد مسلم» لأبي عبد الله المازري (٣/ ١١٧) ما يلي: إنه ﷺ أقام يُوحى إليه ثلاثة وعشرين عاماً؛ عشرة بالمدينة، وثلاثة عشر بمكة، وكان قبل ذلك بستة أشهر يرى في المنام ما يلقيه إليه الملك، وذلك نصف سنة، ونصف سنة من ثلاث وعشرين سنة جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة.

(٢) رواه أحمد (١/ ٢١٩)، ومسلم (٤٧٩)، وأبو داود (٨٧٦)، والنسائي (٢/ ١٨٨).

(٣) «يحدس»: أي: يظنّ ويخمّن.

. . . .

المقصودة به. وقد وقعت لبعض الكفار منامات صحيحة صادقة؛ كمنام الملك الذي رأى سبع بقرات، ومنام الفتيين في السجن، ومنام عاتكة[1] عمة رسول الله ﷺ، ونحوه كثير، لكن ذلك قليلٌ بالنسبة إلى مناماتهم المخلَّطة والفاسدة، فهذا هو الأمر الأول.

وأما الأمر الثاني: وهو اختلافُ عدد أجزاء النبوة التي جُعلت رؤيا الرجل الصالح واحداً منها: فاختلفت الروايةُ فيه من ستة وعشرين إلى سبعين، كما قد ذكرناه، وأكثرها في الصحيحين، وكلها مشهور فلا سبيلَ إلى أخذ أحدها، وطرح الباقي، كما قد فعل أبو عبد الله المازري؛ فإنه قد يكون بعض ما ترك أولى مما قَبِلَ إذا بحثنا عن رجال أسانيدها، وربما ترجَّح عند غيره غير ما اختاره هو، فإذاً: الوجه الذي يتعيَّن المصيرُ إليه أن يقال: إن هذه الأحاديثَ ـ وإن اختلفت ألفاظها ـ متفقةٌ على أن الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جزءٌ من أجزاء النبوة. فهذه شهادةٌ صحيحة من النبيِّ ﷺ لها بأنها وحيٌ من الله تعالى، وأنها صادقةٌ لا كذبَ فيها. ولذلك قال مالك وقد قيل له: أيفسِّر الرؤيا كلُّ أحدٍ؟ فقال: أيُلعب بالوحي؟!.

الاعتناء بالرؤيا وتفهُّمها

وإذا كانت هكذا فتعيَّن على الرائي أن يعتنيَ بها، ويسعى في تفهُّمها، ومعرفة تأويلها؛ فإنها إما مُبشِّرة له بخيرٍ، أو محذِّرة له من شرٍّ، فإن أدرك تأويلَها بنفسه، وإلا سأل عنها مَن له أهليَّةُ ذلك، وهو اللبيبُ الحبيب. ولذلك كان النبيُّ ﷺ يقول إذا أصبح: «هل رأى أحدٌ منكم الليلة رؤيا فليقصها؛ أُعبِّرها له؟»[2] فكانوا يقصّون عليه، ويَعْبُرُ. وقد سلك أصحابُه [ذلك المسلك في حياته، وبعد وفاته، وقد كان ﷺ يقتبس][3] الأحكام من منامات أصحابه، كما فعل في رؤيا الأذان، وفي

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٠٧)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٢٨).
(٢) رواه أحمد (٥/ ١٤)، والبخاري (١٣٨٦).
(٣) ما بين حاصرتين سقط من (م ٢) و (م ٣).

. . . .

رؤيا ليلة القدر[١]. وكل ذلك بناءً على أنها وحي صحيح. وإذا تقرَّر هذا فلا يضرُّنا الاضطراب [الذي وقع في عدد تلك الأجزاء مع حصول المقصود من الخير؛ غير أن علماءنا قد راموا إزالةَ ذلك الاضطراب][٢]، وتأوَّلوه تأويلات، فلنذكرها، وننبه على الأقرب منها، وهي أربعٌ:

الأول: ما صار إليه أبو عبد الله. وقد ذكرناه، وما ورد عليه.

المنام الصادق خصلة من خصال النبوة

الثاني: أن المراد بهذا الحديث: أن المنام الصادق خَصْلةٌ من خصال النبوة. كما جاء في الحديث الآخر: «التؤدة، والاقتصاد، وحسن السمت جزء من ستة وعشرين جزءاً من النبوة»[٣]. أي: النبوة مجموع خصالٍ مبلغ أجزائها ستة وعشرون، هذه الثلاثةُ الأشياء جزءٌ واحدٌ منها، وعلى مقتضى هذه التجزئة: كل جزء من الستة والعشرين ثلاثة أشياء في نفسه، فإذا ضربنا ثلاثة في ستة وعشرين صحَّ لنا أن عدد خصال النبوة من حيث آحادها ثمانية وسبعون. ويصحُّ أن يسمَّى كلُّ اثنين من الثمانية والسبعين جزءاً وخَصْلةً، فيكون جميعها بهذا الاعتبار تسعةً وثلاثين جزءاً، ويصحُّ أن يسمَّى كلُّ أربعةٍ منها جزءاً، فيكون مجموعُ أجزائها بهذا الاعتبار تسعةَ عشرَ جزءاً ونصف جزء، فتختلف أسماء العدد المجزَّأ بحسب اختلاف اعتبار الأجزاء، وعلى هذا: فلا يكون اختلافُ أعداد أجزاء النبوَّة في أحاديث الرؤيا المذكورة اضطراباً، وإنَّما هو اختلافُ اعتبار مقادير تلك الأجزاء المذكورة. والله تعالى أعلم.

اختلاف حال الرائي

الثالث: ما أشار إليه الطَّبريُّ؛ وهو: أنَّ هذا الاختلافَ راجعٌ إلى اختلاف حال الرائي. فالمؤمن الصَّالح تكون نسبة رؤياه من ستةٍ وأربعين. وغيرَ الصالح من

---

(١) انظر: صحيح مسلم (١١٦٥) (٢٠٥).
(٢) ما بين حاصرتين سقط من (ع).
(٣) ذكره ابن حجر في فتح الباري (١٢/٣٦٨).

. . . .

سبعين؛ ولهذا لم يشترط في روايةِ السَّبعين في وصف الرائي ما اشترطه في وصفه في رواية: «ستة وأربعين» فإنَّه شرط فيها الصَّلاح في الرائي، وسكت عن اشتراطه في رواية السبعين.

قلــتُ: وهذا فيه بُعْـدٌ لما قدَّمناه من صحَّة احتمال حَمْلِ مطلق الرِّوايات على مقيَّدها، وبما قد رُوي عن ابن عبَّاسٍ: «الرؤيا الصالحة جزء من أربعين»[١]. وسكت فيه عن ذكر وصف الرائي. وكذلك حديث عبد الله بن عَمْرٍو حين ذكر سبعةً وأربعين. وحديث العبَّاس حين ذكر خمسين.

اختلاف طرق الوحي

الرابع: قيل: يحتمل أن تكون هذه التجزئة في طرق الوحي؛ إذ منه ما سُمِع من الله تعالى دون واسطةٍ، كما قال: ﴿مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، ومنه بواسطة المَلَك، كما قال: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١]، ومنه ما يُلْقى في القلب، كما قال: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١] أي: إلهاماً، ثمَّ منه ما يأتيه المَلَكُ على صورته، ومنه ما يأتيه على صورة آدميٍّ يعرفه، ومنه ما يتلقَّاه منه وهو لا يعرفه، ومنه ما يأتيه في مثل صلصلة الجرس، ومنه ما يسمعه من المَلَك قولاً مُفَصَّلاً، إلى غير ذلك من الأحوال التي كانت تختلف على النبيِّ ﷺ في الوحي وحالاته المختلفة، فتكون تلك الحالات إذا عُدِّدَت غايتها انتهت إلى سبعين.

قلــتُ: ولا يخفى ما في هذا الوجه من البُعْدِ والتَّساهل؛ فإنَّ تلك الأعدادَ كلَّها إنَّما هي أجزاءُ النبوَّة، وأكثر هذه الأحوال التي ذكرت هنا ليست من النبوَّة في شيءٍ لكونه يعرف الملك، أو لا يعرفه، أو يأتيه على صورته، أو على غير صورته، ثمَّ مع هذا التكلُّف العظيم لم يقدرْ أن يبلغ عدد ما ذكر إلى ثلاثين[٢].

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٢).

(٢) قراءة ابن كثير وحفص: ﴿رسالته﴾ وما أورده المؤلف هو قراءة الباقين.

. . . .

قلتُ: وأشبه ما ذكر في ذلك: الوجهُ الثاني؛ مع أنَّه لم تَثْلَج النفسُ به، ولا طابَ لها. وقد ظهر لي وجهٌ خامسٌ، وأنا أستخيرُ اللَّهَ في ذكره، وهو: أنَّ النبوَّةَ معناها: أن يُطْلِعَ اللَّهُ مَن يشاء من خلقه على ما يشاء من أحكامه ووحيه إمَّا بالمشافهة، وإمَّا بواسطة مَلَكٍ، أو بإلقاءٍ في القلب، لكن هذا المعنى المسمَّى بالنبوَّة لا يخصُّ اللَّهُ به إلا من خصَّه بصفاتٍ كمال نوعه من المعارف، والعلوم، والفضائل، والآداب، ونزَّهه عن نقائص ذلك. ولذلك قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ[1]﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى لما ذكر الأنبياء: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٤]، وقال لنبيِّه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] فقد حصل من هذا: أنَّ النبوَّةَ لم يخصَّ اللَّهُ بها إلا أكملَ خلقه، وأبعدهم عن النقائص. ثم: إنَّه لمَّا شرفهم بالنبوَّة حصلت لهم بذلك على جميع نوعهم الخصوصيَّة، فلمَّا كانت النبوَّة لا يخصُّ الله بها إلا من حصلتْ له خصالُ الكمال أطلقَ على تلك الخصال: نبوةً، كما قال ﷺ: «التؤدة والاقتصاد، والسَّمت الحسن جزءٌ من النبوة»[2]. أي: مِن خِصال الأنبياء، لكنَّ الأنبياءَ في هذه الخصال متفاضلون، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]، وقال: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فتفاضلهم بحسب ما وُهِبَ لكلٍّ واحدٍ منهم من تلك الصفات، وشُرِّف به من تلك الحالات، وكلٌّ منهم الصدق أعظم صفته في نومه ويقظته، وكانوا تنامُ أعينهم، ولا تنامُ قلوبهم، فنائمهم يقظان، ووحيُهم في النَّوم واليقظةِ سيَّان؛ فمن ناسبَهُمْ في الصِّدق حصل من رؤياه على الحقِّ؛ غير أنَّه لمَّا

معنى النبوة

النبوة لا يخصُّ الله بها إلا أكمل خلقه

الأنبياءُ متفاضلون

---

(١) قرأ ابن كثير وحفص ﴿رسالتَه﴾، وقرأ الباقون: ﴿رسالاتِه﴾.
(٢) سبق تخريجه (ص ١٥).

والرؤيا ثلاثةٌ : بشرى من الله، ورؤيا تحزينٌ من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث المرء به نفسه، ....

كان الأنبياءُ في مقاماتهم وأحوالهم متفاضلين، وكان كذلك أتباعهُم من الصَّادقين؛ وكان أقلَّ خِصال كمال الأنبياء ما إذا اعتُبِر كان ستاً وعشرين جزءاً، وأكثر ما يكون من ذلك سبعين، وبين العددين مراتب مختلفةٌ بحسب ما اختلفتْ ألفاظُ تلك الأحاديث. وعلى هذا: فمن كان من غير الأنبياء في صلاحه وصِدْقه على رتبةٍ تناسبُ كمالَ نبيٍّ من الأنبياء؛ كانت رؤياه جزءاً من نبوة ذلك النبيِّ، وكمالاتُهم متفاضلةٌ كما قرَّرناه، فنسبة أجزاء منامات الصَّادقين متفاوتةٌ على ما فصَّلناه. وبهذا الذي أظهر الله لنا يرتفعُ الاضطراب. والله الموفق للصَّواب.

منامات الصادقين متفاوتة

و (قوله: «والرؤيا ثلاثةٌ: بشرى من الله») أي: مُبَشِّرةٌ بخيرٍ، ومُحذِّرةٌ عن شرٍّ؛ فإنَّ التحذيرَ عن الشرِّ خيرٌ، فتتضمَّنه البشرى. وإنَّما قلنا ذلك هنا لأنَّه قد قال في حديثِ التِّرمذيِّ المتقدِّم: «الرؤيا ثلاثة: «رؤيا من الله» ـ مكان ـ: «بشرى من الله» فأراد بذلك ـ والله أعلم ـ الرؤيا الصادقةَ المبشرةَ والمحذِّرةَ».

أنواع الرؤيا

و (قوله: «ورؤيا تحزين») ويلحق بالرؤيا المحزنةِ المفزعات، المهوِّلات، وأضغاث الأحلام؛ إذ كلُّ ذلك مذمومٌ لأنَّها من آثار الشيطان، وكلُّ ما يُنْسَبُ إليه مذمومٌ.

و (قوله: «ورؤيا ممَّا يُحَدِّثُ المرءُ به نفسه») يدخل فيه ما يلازمه المرءُ في يقظته من الأعمال، والعلوم، والأقوال؛ وما يقوله الأطباء: من أنَّ الرؤيا تكون عن خَلْطٍ غالبٍ على الرائي، فيرى في نومه ما يناسب ذلك الخَلْط؛ فمن يغلب عليه البلغمُ رأى السِّباحة في الماء وما أشبههُ، لمناسبة الماء طبيعة البلغم. ومن غلبت عليه الصفراء رأى النِّيران والصعود في الارتفاع؛ لمناسبة النَّار في الطبيعة طبيعة الصفراء. وهكذا يقولون في بقية الأخلاط، ونحن ننازعهم في موضعين:

أقوال الأطباء في الرؤيا

الردُّ على الأطباء

أحدهما: في أصل تأثير الطبيعة؛ فإن قالوا: إنَّ الطبيعةَ سببٌ عاديٌّ

فإذا رأى أحدُكم ما يكره فليقُم فليصلِّ، ولا يحدِّثْ بها النَّاس» . . . .

والله تعالى هو الفاعل بالحقيقة. وهو مذهبُ المسلمين؛ فهو الحقُّ. وإن قالوا: إنَّ الطبيعة تفعل ذلك بذاتها؛ حكمنا بتكفيرهم، وانتقل الكلامُ إلى علم الكلام.

والثاني: أنَّ من أراد منهم أنَّ الرؤيا لا تكون إلا عن الأخلاط؛ فهو باطلٌ بما قد ثبت عن الصادق فيما ذكرناه من الأحاديث: أنَّ الرؤيا منها ما يكون من الله، وهي المبشِّرة، والمحذِّرة. وهذا من باب الخير، وليس في قوَّة الطبيعة أن تُطْلِعَ على الغيب بالإخبار عن أمورٍ مستقبلةٍ تقعُ في المستقبل على نحو ما اقتضته الرؤيا بالاتفاق بين العقلاء. ومَن أراد منهم: أنَّ الأخلاطَ قد تكون سبباً لبعض المنامات، فقد يسلمُ ذلك على ما قررناه، ثمَّ يبقى نظرٌ آخر؛ وهو أنَّه لو كان ما رتَّبوه صحيحاً للزم عليه ألاَّ يرى من غَلَب عليه خلطٌ من تلك الأخلاط إلا ما يناسبه، ونحن نشاهدُ خلافه، فيرى البلغمي النيران، والصعود في الارتفاعات، وعكس ذلك في الصَّفراوي، فبطل ما قالوه بالمشاهدة، والله وليُّ المعاضدة.

نـدب الصـلاة لمـن رأى رؤيـا يكرهها

و (قوله: «فإذا رأى أحدُكم ما يكره فليقمْ فليصلِّ») ليس هذا مخالفاً لقوله في الرواية الأخرى: «فلينفث عن يساره ثلاثاً، وليتعوَّذ بالله من شرِّها، وليتحوَّل عن جنبه الذي كان عليه» وإنما الأمر بالصلاة زيادةٌ فينبغي أن تزاد على ما في هذه الرواية، فيُفعل الجميع. ويحتمل أن يقال: إنما اقتصر في هذا الموضع على ذِكْر الصلاة وحدها؛ لأنه إذا صلَّى تضمَّن فِعْلُه للصلاة جميعَ تلك الأمور؛ لأنه إذا قام إلى الصلاة تحوَّل عن جنبه، وإذا تمضمض نفث وبصق، وإذا قام إلى الصلاة تعوَّذ ودعا، وتفرغ لله تعالى في ذلك في حالٍ هي أقربُ الأحوال إجابة، كما قدَّمناه، والله تعالى أعلم.

و (قوله: «ولا يخبر بها أحداً»[١]) أي: لا يعلق نفسه بتأويلها؛ إذ لا تأويلَ

---

(١) في التلخيص: ولا يحدث بها الناس.

قال: وأُحبُّ القَيْدَ، وأكره الغُلَّ، والقيد ثَبَاتٌ في الدين. قال أيوب: فلا أدري هو في الحديث، أم قاله ابن سيرين.

رواه أحمد (٢/ ٢٣٣ و ٢٦٩)، والبخاريُّ (٧٠١٧)، ومسلم (٢٢٦٣)، وأبو داود (٥٠١٩)، وابن ماجه (٣٩١٧).

* * *

كراهيةُ الإخبار بالرؤيا السُّوء

لها؛ فإنها من أُلقيات الشيطان التي يقصدُ بها التشويشَ على المؤمن، إما بتحزين، وإما بترويع، أو ما أشبه ذلك. وفعل ما ذكر كافٍ في دَفْع ذلك، ومانعٌ من أن يعودَ الشيطانُ لمثل ذلك، وهذا هو الذي فهمه أبو سلمة من الحديث، والله تعالى أعلم، فقال: إن كنت لأرى الرؤيا أثقل عليَّ من الجبل، فما أباليها. وفي أصل كتاب مسلم قال: كنت أرى الرؤيا أعرى لها[1] غير أني لا أُزَمَّل. أي: تصيبني العُرَوَاءُ، وهي الرِّعدة. وقال في رواية أخرى: إن كنت لأرى الرؤيا فتمرضني غير أني لا أُزَمَّل لها. والتزميل: اللفُّ، والتَّدثير؛ يعني: أنها ما كانت تدومُ عليه فيحتاجَ إلى أن يدَّثَّر، لكنَّه بنفس ما كان يفعل ما أَمَرَ به النبيُّ ﷺ من النفث والتعوُّذ وغيره يزولُ عنه ذلك، ببركة الصدق، والتصديق، والامتثال. وفائدةُ هذا: ألا يشغل الرائي نفسَه بما يكره في نومه، وأن يُعْرِضَ عنه، ولا يلتفت إليه؛ فإنه لا أصلَ له. هذا هو الظاهر من الأحاديث، والله أعلم.

و (قوله: «وأحبُّ القيد، وأكره الغلَّ... إلى آخره») ظاهره: أنه من قول النبي ﷺ غير أن أيوب السختياني هو الذي روى هذا الحديث عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة، وقد أخبر عن نفسه: أنه شكَّ هل هو من قول النبيِّ ﷺ أو من قول ابن سيرين، فلا يعوَّل على ذلك الظاهر؛ غير أن هذا المعنى صحيح في العبارة لأن

---

(١) في صحيح مسلم: منها. ومعنى أعرى منها: أي أحمُّ بخوفي من ظاهرها في معرفتي. يُقال: عُرِي الرجل يُعرى: إذا أصابه عراء، وهو نفض الحمى.

(٣) بـــاب
الرؤيا الصالحة جزءٌ من أجزاء النبوة

[٢١٧٦] عن عبادة بن الصَّامت قال: قال رسول الله ﷺ: «رؤيا المؤمن جزء من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوة».

رواه البخاريُّ (٦٩٨٧)، ومسلم (٢٢٦٤)، وأبو داود (٥٠١٨)، والترمذيُّ (٢٢٧٢).

[٢١٧٧] وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الصالحةُ جزْءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوة».

وفي روايةٍ: «رؤيا الرجل الصالح».

رواه أحمد (٢/ ٣٦٩)، والبخاري (٦٩٨٨) تعليقاً ومسلم (٢٢٦٣).

[٢١٧٨] وعن نافعٍ، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزءٌ من سبعين جزءاً من النبوة».

رواه مسلم (٢٢٦٥)، وابن ماجه (٣٨٩٧).

* * *

القيد في الرجلين، وهو يُثبِّت الإنسان في مكانه، فإذا رآه من هو على حالٍ ما على رجليه كان ذلك دليلاً على ثبوته على تلك الحالة، فإذا رآه من هو من أهل الدين والعلم كان ثباتاً على تلك الحال. ولو رأى المريض قيداً في رجليه لكان ذلك دليلاً على دوام مرضه. وإنما كَرِهَ الغلَّ لأنَّه لا يُجْعَل إلا في الأعناق نكاية، وعقوبةً، وقهراً، وإذلالاً. فيسحب على وجهه، ويجرُّ على قفاه، كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١ ـ ٧٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ [المائدة: ٦٤] و: ﴿جَعَلْنَا

(٤) بــاب
رؤية النبي ﷺ

[٢١٧٩] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني؛ فإنَّ الشيطانَ لا يتمثَّلُ بي».

﴿فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يسٓ: ٨]. وعلى الجملة: فهو مذمومٌ شرعاً وعادةً. فرؤيته في النوم[١] دليلٌ على وقوع حالة سيئة بالرائي تلازمه، ولا ينفك عنها، وقد يكون ذلك في دينه، كواجباتٍ فرَّط فيها، أو معاصٍ ارتكبها، أو ديونٍ، وحقوقٍ لازمة له. وقد يكون ذلك في دنياه من شدائد تصيبه، أو أنكادٍ تلازمه. وبالجملة: فالمعتبر في أعظم أصول العبارة[٢] النظر إلى أحوال الرائي واختلافها، فقد يرى الرائيان شيئاً واحداً، ويدل في حقِّ أحدهما على خلاف ما يدلُّ عليه في حقِّ الآخر.

النظر إلى اختلاف أحوال الرائي

(٤) ومن بــاب: رؤية النبيِّ ﷺ في المنام

لا يتمثل الشيطان بالنبيِّ ﷺ

(قوله ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثَّل بي»، وفي أخرى: «فإن الشيطان لا ينبغي أن يتشبه بي»، وفي أخرى: «لا ينبغي أن يتمثل في صورتي») وفي غير كتاب مسلم: «لا يتكوَّنُني»[٣]. اختلف في معنى هذا الحديث؛ فقالت طائفة من القاصرين: هو على ظاهره، فمن رآه في النوم رأى حقيقته، كما يُرى في اليقظة. وهو قولٌ يُدْرَكُ فسادُه بأوائل العقول؛ فإنه يلزم عليه ألاَّ يراه أحدٌ إلا على صورته التي توفي عليها، ويلزم عليه ألاَّ يراه رائيان في وقت واحدٍ في

---

(١) في (ج ٢): العنق.

(٢) عبر الرؤيا عبراً وعبارة: فسَّرها وأخبر بما يؤول إليه أمرُها.

(٣) قال في «النهاية»: يتكونني: يتشبَّه بي.

. . . .

مكانين، ويلزم عليه أن يحيا الآن، ويخرج من قبره، ويمشي في الناس، ويخاطبهم، ويخاطبونه كحالته الأولى التي كان عليها، ويخلو قبره عنه، وعن جسده، فلا يبقى منه فيه شيء فيزار غير جدث، ويسلَّم على غائبٍ؛ لأنه يُرى في الليل والنهار مع اتصال الأوقات على حقيقته، في غير قبره. وهذه جهالات لا يبوءُ بالتزام شيء منها مَن له أدنى مسكة من المعقول، وملتزمُ شيء من ذلك مختلٌّ مخبول. وقالت طائفةٌ أخرى: إنما معناه: أنْ مَن رآه على صفته التي كان عليها في الدنيا فمنامه ذلك هو الصحيح، ورؤيته له حقٌّ؛ فإن الشيطان لا يتصوَّر بصورته التي كان عليها.

قلـتُ: وهذا يلزمُ منه: أنَّ مَن رآه على غير صفته التي كان عليها في الدنيا لا تكون رؤيته حقاً، ويكون من باب أضغاث الأحلام. ومن المعلوم: أنه يجوزُ أن يُرى في النوم على حالةٍ تخالفُ ما كان عليها في الوجود من الأحوال اللائقة به، ومع ذلك: فتقع تلك الرؤيا حقاً كما إذا رؤي قد ملأ بلدةً، أو داراً بجسمه؛ فإنه يدلُّ على امتلاء تلك البلدة بالحق والشرع، وتلك الدار بالبركة. وكثيراً ما وقع نحو هذا، وأيضاً: فلو تمكّن الشيطان من التمثُّل في شيءٍ مما كان عليه، أو نُسب إليه لما صَدَق مطلقاً قوله: «فإن الشيطان لا يتمثل بي»؛ فإنه إذا تمثَّل ببعض صفاته وأحواله فقد تمثَّل به، فالأولى أن تُنزَّه رؤية النبيِّ ﷺ، أو رؤية شيءٍ من أحواله، أو مما يُنسب إليه عن تمكُّن الشيطان من شيء منه. ونفي جميع ذلك مطلقاً أبلغ في الحرمة، وأليق بالعصمة، وكما عُصِم من الشيطان في يقظته في كل أوقاته؛ كذلك عصم منه [في منامه][1] مع اختلاف حالاته. فالصحيح في معنى هذا الحديث ـ إن شاء الله تعالى ـ أن يقال: إن مقصودَه الشهادةُ منه ﷺ بأن رؤيته في النوم على أيِّ حال كان ليست باطلةً، ولا من أضغاث الأحلام؛ بل هي حقٌّ في

رؤيته ﷺ في النوم على أية حال ليست باطلة

(١) ما بين حاصرتين ليس في (م ٢).

. . . .

نفسها، وإن تصويرَ تلك الصورة، وتمثيل ذلك المثال ليس من قِبَل الشيطان؛ إذ لا سبيل له إلى ذلك، وإنما ذلك مِن قِبَلِ الله تعالى. وهذا مذهبُ القاضي أبي بكر وغيره من المحققين. وقد شهد لذلك قوله ﷺ: «من رآني فقد رآني الحق». أي: الحق الذي قصد إعلام الرائي به، وإذا كانت تلك حقاً فينبغي أن يُبْحَثَ عن تأويلها، ولا يُهْمَل أمرها؛ فإن الله تعالى إنما مثَّل ذلك للرائي بشرىً، فينبسط للخير، أو إنذاراً لينزجر عن الشر. أو تنبيهاً على خيرٍ يحصل له في دينٍ، أو دنيا. والله تعالى أعلم.

تنبيــه: قد قررنا أن المدركَ في المنام أمثلةٌ للمرئيات لا أنفس المرئيات، غير أن تلك الأمثلة تارة تكون مطابقةً لحقيقة المرئيِّ، وقد لا تكون مطابقة. ثم المطابقة قد تظهر في اليقظة على نحو ما أدركت في النوم، كما قد صحَّ عنه ﷺ أنه قال لعائشة: «أُريتُكِ في سَرَقَةٍ[١] من حرير، فإذا هي أنت»[٢] ومعناه: أنه رآها في نومه على نحو ما رآها في يقظته.

رؤيا للمؤلف صادقة

قلــتُ: وقد وقع لي هذا مرات. منها: أني لما وصلت إلى تونس قاصداً إلى الحج سمعت أخباراً سيِّئة عن البلاد المصرية من جهة العدوِّ الذي غلب على دمياط، فعزمت على المقام بتونس إلى أن ينجلي أمر العدو، فأريت في النوم كأني في مسجد النبيِّ ﷺ وأنا جالسٌ قريباً من منبره، وأناس يُسلِّمون على النبيِّ ﷺ، فجاءني بعض من سلَّم عليه، فانتهرني وقال: قُمْ فسلِّمْ على النبيِّ ﷺ، فقمتُ فشرعت في السلام على النبيِّ ﷺ، فاستيقظت، وأنا أسلِّم عليه، فجدَّد اللَّهُ لي عزماً، ويسَّر عليَّ فيما كان قد صعب من أسبابي، وأزال عنِّي ما كنت أتخوَّفه من أمر العدو، وسافرت إلى أن وصلت إلى الإسكندرية عن مدة مقدارها ثلاثون يوماً

(١) أي: في قطعةٍ من جيِّد الحرير، وجمعها: سَرَق.
(٢) رواه أحمد (٦/ ٤١ و ١٢٨ و ١٦١)، والبخاري (٣٨٩٥)، ومسلم (٢٤٣٨).

. . . .

في كتف السلامة، فوجدتها والديار المصرية على أشدّ خوفٍ، وأعظم كربٍ، والعدو قد استفحل أمره، وعظمت شوكته، فلم أكمل في الإسكندرية عشرة أيامٍ حتى كسر اللَّهُ العدو، ومكَّن منه من غير صُنْع أحد من المخلوقين، بل: بلطف أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين[1]. ثم: إن الله تعالى كمَّل عليَّ إحسانه، وإنعامه، وأوصلني بعد حجِّ بيته إلى قبر نبيه ومسجده، فرأيته واللَّهِ في اليقظة على النحو الذي رأيته في المنام من غير زيادة ولا نقصان.

ومنها: أني تزوجت امرأةً، وقبل الدخول بها حُدِّثت عن صفتها ما أوقع في قلبي نُفْرةً، فأريتها في النوم على الصفة التي كانت عليها في بيتها، ثم إني لما اجتمعتُ بها وجدتها هي التي أريتها في النوم. ونحو هذا كثير.

وأما إذا لم يظهر في اليقظة كذلك؛ فيعلم أن المقصود بتلك الصورة معناها لا عينها، وكذلك الحكم إذا خالف ذلك المثال صورة المرئيِّ نفسه إما بزيادة، أو نقصان، أو تغيُّر لون، أو حدوث عيبٍ، أو زيادة عضو، أو عين، أو غير ذلك. والمقصود بذلك أيضاً: التنبيه على معاني تلك الأمور، وإذا تقرر هذا فيجوز أن يُرى النبيُّ ﷺ في النوم على صفته التي كان عليها في الوجود، ويكون من فوائد ذلك: تسكين شَوق الرائي، لكونه مُسْتَهْتَراً[2] بمحبته، وليعمل على مشاهدته وهذا هو الذي أشار إليه النبيُّ ﷺ لمَّا قال: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة». أي: مَن رآني رؤية معظِّمٍ لحرمتي، ومُشْتاقٍ لمشاهدتي؛ وصل إلى رؤية محبوبه، وظفر بكلِّ مطلوبه.

ويجوزُ أن يكونَ مقصودُ ذلك المنام معنى صورته، وهو دينه وشريعته،

---

(١) كانت هذه الأحداث في عام (٦٤٧ هـ) وهو تاريخ دخول الفرنج الصليبيين إلى دمياط وخروجهم. انظر البداية والنهاية (١٣/ ١٧٧).

(٢) أي: مولعاً.

وفي روايةٍ: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة»، أو: «لكأنما رآني في اليقظة؛ لا يتمثَّلُ الشيطانُ بي».

وفي أخرى: «من رآني فقد رأى الحقَّ».

رواه أحمد (٢/ ٢٦١ و ٣٤٢)، والبخاريُّ (٦٩٩٣)، ومسلم (٢٢٦٦) (١٠ و ١١) و (٢٢٦٧) من طريق محمد بن عبد الله بن أخي الزُّهري، وأبو داود (٥١٢٣)، والترمذيُّ (٢٢٨٠)، وابن ماجه (٣٩٠١ و ٣٩٠٤).

فيعبَّر بحسب ما رآه الرائي من زيادة، أو نقصان، أو إساءةٍ، أو إحسانٍ، وكذلك الحكم إذا رأى على خلاف الصورة التي كان عليها مما يجوزُ عليه.

رؤية الله تعالى في النوم

فأما رؤيةُ الله تعالى في النوم: فقد قال القاضي عياض: لم يختلفِ العلماءُ في جواز صحة رؤية الله تعالى في المنام. وإن رئي على صفة لا تليقُ بجلاله من صفات الأجسام؛ يُتحقَّق أن ذلك المرئي غير ذات الله تعالى؛ إذ لا يجوزُ عليه التجسيم، ولا اختلاف الحالات، بخلاف رؤية النبيِّ ﷺ فكانت رؤيته تبارك وتعالى في النوم من باب التمثيل والتخييل. وقال القاضي أبو بكر ـ رحمه الله ـ: رؤيةُ الله تعالى في النوم أوهامٌ وخواطرٌ في القلب بأمثال لا تليقُ به بالحقيقة، ويتعالى سبحانه وتعالى عنها، وهي دلالاتٌ للرائي على أمرٍ مما كان أو يكون، كسائر المرئيات. وقال غيرُه: رؤيةُ الله في المنام حقٌّ وصدقٌ لا كذبَ فيها؛ لا في قولٍ ولا في فعل.

و (قوله[1]: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة»، أو: «لكأنما رآني في اليقظة») هذا شكٌّ من الراوي؛ فإن كان اللفظ الأول هو الصحيح، فتأويلُه ما

---

(١) ورد في جميع النسخ: (ومن باب) والصواب ما أثبتناه ليتناسب السياقُ مع ما ورد في أحاديث هذا الباب في التلخيص.

[٢١٨٠] وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني، فإنه لا ينبغي للشيطان أنْ يتشبَّه بي».

وفي روايةٍ: «أن يتمثَّل في صورتي».

رواه مسلم (٢٢٦٨) (١٢ و ١٣).

* * *

(٥) بـــاب
لا يخبر بتلعب الشيطان به

[٢١٨١] عـن جابـرٍ قـال: جـاء أعـرابـيٌّ إلـى النَّبـيِّ ﷺ فقـال: يا رسول الله! رأيت في المنام كأنَّ رأسي ضُربَ، فتدحْرج، فاشتددْت على أثره. فقال رسول الله ﷺ للأعرابي: «لا تحدِّث الناس بتلعُّب الشيطان بك في منامك». وقال: سمعت النَّبيَّ ﷺ بعدُ يخطب، فقال: «لا يحدِّثنَّ أحدُكم بتلعب الشيطان به في منامه».

ذكرناه. وإن كان الثاني هو الصحيح، فمعناه: أن رؤيته حقٌّ وصدق كما قدمناه. والله تعالى أعلم.

(٥) [ومن بـــاب: لا يخبر بتلعُّب الشيطان به][1]

تأويل قطع الرأس في النوم

(قوله للأعرابيِّ الذي أخبرَه: أنه رأى أنَّ رأسَه قد قُطع: «لا تخبرْ بتلعُّب الشيطانِ بك في منامِك»[2]) دليلٌ على منع أن يخبرَ الإنسانُ بما يراه في منامه مما

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصول، وما أثبتناه استدرك من التلخيص.

(٢) هذه الرواية في صحيح مسلم (٢٢٦٨) (١٤) لم يوردها المؤلف ـ رحمه الله ـ في التلخيص.

وفي روايةٍ: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله! رأيت في المنام كأنّ رأسي قُطِع. قال: فضحك النبي ﷺ. وذكر نحوه.

رواه أحمد (٣/ ٣١٥)، ومسلم (٢٢٦٨) (١٥ و ١٦)، والنّسائيُّ (٩١٢) في اليوم والليلة، وابن ماجه (٣٩١٣).

* * *

يكرهُه، مما يَظنُّ أنه من الشيطان. وقد تقدَّم بيان ذلك. وهذه المنام على مَساق هذا الحديث ليس في ظاهرها ما يدلُّ على أنها من الشيطان؛ غير أنَّ النبيَّ ﷺ علم أنها من الشيطان بطريقٍ آخرَ غير ظاهرها، [فإما أن يكونَ ذكرَ الرائي ما يدلُّ على ذلك، ولم ينقلْه الراوي، وإما أن يكونَ ذلك من باب الوحي وهو الظاهر][1]. وقد ذكرَ أهلُ العلم بالعَبَارة قطعَ الرأس في النوم، وذكروا: أنه يدلُّ على زوال نِعم الرائي، أو سلطانه، أو تغيُّر حاله، أو مفارقة من هو فوقه، فإن كان عبداً دلَّ على عتقه، أو مريضاً فعلى شفائه، أو مِدْياناً فعلى قضاء دينه، أو صرورة[2] فعلى حَجِّه، أو مغموماً فعلى فَرَجه، أو خائفاً فعلى أمنه، إلى غير ذلك مما وسَّعوا القولَ فيه. وقد ذكرَ ابن قتيبة في كتاب: «أصول العَبَارة» أن رجلاً قال: يا رسولَ الله! رأيت فيما يرى النائم كأن رأسي قُطِعَ فجعلتُ أنظرُ إليه بإحدى عينيَّ! فضحكَ النبيُّ ﷺ وقال: «بأيّتهما كنتَ تنظرُ إليه؟» فلبث ما شاء الله ثم قُبِضَ النبيُّ ﷺ فعبَّر النَّاس: أن الرأس كان النبي ﷺ وأن النظرَ إليه كان اتباعَ السُّنَّة.

* * *

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ع).

(٢) يُقال: رجل صرورة؛ للذي لم يحج.

(٦) بــاب
استدعاء العابر ما يعبر، وتعبير من لم يُسأل

[٢١٨٢] عن سمرةَ بن جندبٍ قال: كان النَّبيُّ ﷺ إذا صلى الصُّبح أقبل عليهم بوجهه، فقال: «هل رأى أحدٌ منكم البارحة رؤْيا؟».

رواه أحمد (٥/ ١٤)، والبخاريُّ (١١٤٣)، ومسلم (٢٢٧٥)، والترمذيُّ (٢٢٩٥).

---

(٦) ومن بــاب: استدعاء العابر ما يعبر

(قوله: كان النبيُّ ﷺ إذا صلَّى الصبحَ أقبلَ علينا بوجهه) فيه دليلٌ على أنَّ الإمامَ لا يمكثُ في موضع صلاتِه إذا فرغَ منها، وقد تقدَّم ذلك.

سؤاله ﷺ الصحابة عن رؤياهم

و (قوله: «هل رأى منكم أحدٌ البارحةَ رؤيا؟») إنما كان النبيُّ ﷺ يسألُهم عن ذلك لما كانوا عليه من الصَّلاح، والصِّدق، فكان قد علمَ أن رؤياهم صحيحة، وأنَّها يُستفاد منها الاطلاع على كثير من علم الغيب، وليُبيِّن لهم بالفعل الاعتناءَ بالرؤيا، والتشوُّفَ لفوائدها وليعلِّمَهم كيفيةَ التعبير، وليستكثرَ من الاطلاع على علم الغيب.

و (قوله: «البارحة») يعني به: الليلة البارحة، أي: الذاهبة، اسم فاعلٍ من بَرِح الشيءُ: إذا ذهبَ. ومنه قولهم: بَرِحَ الخفاء، أي: ذهبَ. وإذا دخَلَ حرف النفي على بَرح صار من أخوات كان التي ترفع الاسم، وتنصبُ الخبر. ووقع هذا اللفظ في غير كتاب مسلم: «هل رأى أحدٌ منكم الليلة رؤيا»[١] بدل: «البارحة» واستدلَّ بعض الناس على أنَّ ما بعد طلوع الفجر إلى طُلوع الشمس من الليل[٢] وليس بصحيح؛ لأنه: إنما أشار لليلة البارحة، لا للساعة الحاضرة بدليل هذه

---

(١) سبق تخريجه في التلخيص برقم (٢٨٩٠).
(٢) أي: هو من الليل.

[٢١٨٣] وعـن ابـن عبـاسٍ: أنَّ رسـول الله ﷺ كـان ممـا يقـول لأصحابه: ....

الرواية الصحيحة التي قال فيها: «البارحة». ومعناها: الماضية بالاتفاق، فكأنه قال: الليلة الماضية، أو المنصرمة. ولما كانت قريبةَ الانصرامِ أشارَ إليها، ولما كان هذا معلوماً اكتفي بذكر الليلة عن صفتها، ولما كانت «البارحة» صفة معلومة لليلة استعملَها غير تابعةٍ استعمال الأسماء، وكان الأصلُ الجمع بين التابع والمتبوع، فيقال: الليلة البارحة. لكن ذلك جاز لما ذكرناه.

و (قوله: كان مما يقولُ لأصحابه) قال القاضي أبو الفضل: معنى (مما) ها هنا عندهم: كثيراً ما كان يفعلُ كذا. قال ثابت في مثل هذا: كأنَّه يقول: هذا من شأنه، ودأبه، فجعل (ما) كناية عن ذلك. يُريد: ثم أدغم (من)[1] فقال: مما يقول. وقال غيره: معنى (ما) ها هنا: ربما؛ لأن ربما تأتي للتكثير.

قلـتُ: وهذا كلامٌ جمليٌّ لم يحصل به بيان تفصيليٌّ؛ فإن هذا الكلامَ من السهل جملةً الممتنع تفصيلاً. وبيانه بالإعراب؛ وذلك: أن اسم كان مستتر فيها يعود على النبيِّ ﷺ، وخبرها في الجملة التي بعدهـا، وذلك: أن (ما) من (مما) بمعنى: الذي، وهي مجرورة بـ (من) وصلتها: يقول، والعائد محذوف. وهذا المجرور: خبر المبتدأ الذي هو: من رأى منكم رؤيا؛ فإنه كلام محكيٌّ معمولٌ للقول؛ تقديره: كان رسول الله ﷺ من جملة القول الذي يقوله هذا القول. ويجوز أن تكونَ مصدريةً، ويكون تقديرها: كان النبيُّ ﷺ من جملة قوله: «مَنْ رأى منكم رؤيا» ومَنْ في كلا الوجهين: استفهام محكيٌّ. والله تعالى أعلم. وأبعدُ ما قيل فيها: قول من قال: إن (من) بمعنى: ربما؛ إذ لا يُساعده اللسان، ولا يلتئم مع تكلُّفهِ الكلام.

---

(١) في الأبي (٦/ ٨٧): قال ثابت: معنى (مما) ها هنا: كثير، أي: كثيراً ما كان يقول، أي: شأنه ودأبُه، فجُعلت (ما) كناية عن ذلك، وأدغم فيها (ن) مِن، فقال: مما.

«من رأى منكم رؤيا فليقصَّها أعبُرْها؟». قال: فجاء رجلٌ فقال: يا رسول الله! رأيتُ ظُلةً تنطِفُ السَّمنَ والعسلَ؛ فإذا الناس يتكفَّفون منها بأيديهم، فالمستكثرُ والمستقِلُّ، وأرى سبباً واصلاً من السَّماء إلى الأرض، فأراك أخذتَ به، فعلوتَ، ثم أخذ به رجلٌ من بعدك، فعلا، ثم أخذ به رجلٌ آخر، فعلا، ثم أخذ به رجلٌ آخر فانقطع به ثم وُصِل له فعلا. قال أبو بكر: يا رسول الله! بأبي أنت وأمِّي! واللَّهِ لَتَدَعنِّي فلأَعْبُرها، قال

و (قوله: «فليقصَّها أَعْبُرْها») أي: ليذكر قصتها وليتتبعْ جزئياتِها حتى لا يترك منها شيئاً، مأخوذ من: قصصت الأثرَ: إذا تتبعته. و (أعبرْها) أي: أعتبرْها وأُفسرْها. ومنه قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]. وأصله من عبرتُ النهر: إذا جُزتُ من إحدى عُدْوَتَيْه إلى الأخرى.

و (الظُّلَّة): السَّحابة التي تُظلِّلُ من تحتها. و (تنطف): تقطر. والنُّطفة: القطرة من المائع. و (يتكفَّفون): يأخذون بأكُفِّهم، ويحتمل أن يكون معناه: يأخذون من ذلك كفايتَهم. وهذا أليقُ بقوله: فالمستكثر من ذلك والمستقِلُّ. و (السبب): الحبل.

و (قوله: بأبي أنت وأمي) أي: مَفْدِيٌّ من المكاره والمساوىء.

و (قوله: والله لَتَدعنِّي فلأَعْبُرَها) هذه الفاء: زائدة. و (أَعْبُرَها) منصوب بلام كي، ويصحُّ أن تكون لام الأمر فتجزم، ولا تكونُ لام القسم لما يلزم من فتحها، ومن دخول النون في فعلها.

جواز الحَلِف على الغير

وفيه من الفقه: جواز الحلف على الغير، وإبرار الحالف؛ فإنَّه ﷺ أجابَ طَلِبَتَه، وأبرَّ قسمَه، فقال له: «اعْبُرْ». ويدل على تمكُّن أبي بكرٍ من علم عَبَارة الرؤيا.

ووجه عَبَارة أبي بكرٍ لهذه الرؤيا واضحةٌ، ومناسباتُها واقعةٌ، غير أنَّ

رسول الله ﷺ: «اعْبُرْها»، قال أبو بكر: أمَّا الظُّلَّة فظلة الإسلام، وأمَّا الذي ينطف من السمن والعسل: فالقرآن حلاوته، ولينه، وأمَّا ما يتكفف الناسُ من ذلك: فالمستكثر من القرآن والمستقلُّ. وأمَّا السبب الواصل من السماء إلى الأرض: فالحقُّ الذي أنت عليه؛ تأخذُ به فيعليك الله، ثم يأخذُ به رجل من بعدك، فيعلو به، ثم يأخذ به رجلٌ آخر فيعلو به، ثمَّ يأخذُ به رجلٌ آخر فينقطع به، ثم يوصل له فيعلو به، فأخبرني يا رسول الله بأبي أنت أخطأت أم أصبت؟! قال رسول الله ﷺ: «أصبتَ بعضاً، وأخطأت

النبيَّ ﷺ لما قال له: «أصبتَ بعضاً، وأخطأتَ بعضاً»، ولم يُبيِّن له ما الذي أخطأ فيه. اختلفَ الناس فيه؛ فقيل: معناه: أنه قصَّر في ترك بعض أجزاء الرؤيا غير مفسَّرة؛ وذلك أنه ردَّ شيئين لشيءٍ واحدٍ؛ فإنه ردَّ السَّمنَ والعسلَ للقرآن، ولو ردَّ الحلاوة للقرآن والسَّمنَ للسُّنة، لكان أليقَ، وأنسبَ. وإلى هذا أشار الطحاويُّ.

قلـــتُ: وفي هذا بعدٌ، ويرد عليه مؤاخذات يطولُ تتبعها.

وقال بعضهم: إن المنام يدلُّ على خلع عثمان، لأنه الثالث الذي أخذ بالسبب فانقطعَ به؛ غير أنه لم يُوصل له بِعَوْدِ الخلافة؛ فإنه قُتلَ، وإنما وُصلَ لغيره، وهو عليٌّ ـ رضي الله عنهما ـ.

قلـــتُ: وهذا إنما يصحُّ إذا لم يُرو في الحديث: (له) من (وُصل له) على ما نبَّه عليه القاضي فإنه قال: ليس فيها (له). وإنما هو: (وُصلَ) فقط. وعلى هذا يمكن أن يُنسبَ الخطأ إلى هذا المعنى؛ لأنه تأوَّلَ الوصلَ له وهو لغيره، لكنَّ الرواية الصحيحة والموجود في الأصول التي وقفتُ عليها ثبوت (له)، وعلى هذا فإنما وُصِلَ له بالشهادة والكرامة التي أعدَّها الله تعالى له في الدار الآخرة، وتأوَّلها أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ على الخلافة. والله تعالى أعلم. وبعد هذا فـأقـول: إن تكلُّفَ إبداء ذلك الخطأ الذي سكت عنه النبيُّ ﷺ ولم يعلمْه أبو بكرٍ، ولا مَنْ كان

بعضاً»، قال: فوالله يا رسول الله! لتحدّثنّي بالذي أخطأتُ ـ قال: «لا تُقْسِمْ».

رواه البخاريُّ (٧٠٤٦)، ومسلم (٢٢٦٩)، وأبو داود (٤٦٣٢)، والترمذيُّ (٢٢٩٤)، وابن ماجه (٣٩١٨).

* * *

هناك من أكابر الصحابة وعلمائهم ـ رضي الله عنهم ـ جرأةٌ نستغفرُ الله تعالى منها، وإنما لم يُعيِّنْ ذلك النبيُّ ﷺ أنه ليس من الأحكام التي أُمرَ بتبليغها، ولا أرهقتْ إليه حاجةٌ، ولعلَّه لو عَيَّن ما أخطأ فيه لأفضى ذلك إلى الكلام في الخلافة، ومَنْ تَتمُّ له، ومن لا تتم له، فتنفرُ لذلك نفوسٌ، وتتألَّم قلوبٌ، وتطرأُ منه مفاسدُ، فسدَّ النبيُّ ﷺ ذلك الباب. والله تعالى أعلم بالصواب.

و (قوله ﷺ لأبي بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ: «لا تُقْسِمْ») مع أنه قد أقسم. معناه: لا تعدْ للقسم. ففيه: ما يدلُّ على أن أمرَ النبيِّ ﷺ بإبرار المُقْسِم[1] ليس بواجبٍ، وإنما هو مندوب إليه إذا لم يعارضْه ما هو أولى منه.

* * *

---

(١) في هذا إشارة إلى الحديث الوارد في صحيح مسلم برقم (٢٠٦٩) (٣)، وفيه: «وإبرار القسم أو المُقْسِمِ».

(٧) بـــاب
فيما رأى النبيُّ ﷺ في نومه

[٢١٨٤] عن أنس بن مالكٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ذات ليلةٍ فيما يرى النائم كأنَّا في دار عقبة بن رافعٍ، فأُتِيْنَا برُطَب من رطب ابن طابٍ، فأولتُ الرِّفعةَ لنا في الدنيا والعاقبة في الآخرة، وأنَّ ديننا قد طاب».

رواه مسلم (٢٢٧٠) (١٨).

---

(٧) ومن بـــاب: ما رأى النبيُّ ﷺ في نومه

طـــرق تعبيـــر الرؤيا

حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ هذا وتأويله دليلٌ: على أن تعبير الرؤيا قد تُؤخذ من اشتقاق كلماتها؛ فإنه ﷺ أخذ من عقبة: حسن العاقبة، ومن رافع: الرفعة. ومن رطب بن طاب: لذاذة الدين وكماله. وقد قال علماءُ أهل العبَارة أن لها أربعة طرق:

أحدها: ما يشتق من الأسماء كما ذكرناه آنفاً.

وثانيها: ما يُعتبر مثاله، ويميز شكله كدلالة معلم الكتَّاب على القاضي، والسلطان، وصاحب السجن، ورأس السفينة، وعلى الوصيِّ والوالد.

وثالثها: ما يعبره المعنى المقصود من ذلك الشيء المرئيِّ، كدلالة فِعْل السَّفْر على السَّفَر، وفعل السوق على المعيشة، وفعل الدار على الزوجة والجارية.

ورابعها: التعبير بما تقدم له ذكر في القرآن والسنة أو الشعر، أو كلام العرب وأمثالها. وكلام الناس وأمثالهم، أو خبر معروف، أو كلمة حكمة، وذلك كنحو تعبير الخشب بالمنافق، لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤]، وكتعبير الفأر بفاسقٍ؛ لأنَّه ﷺ سماه: فويسقاً. وكتعبير القارورة بالمرأة؛ لقوله ﷺ: «رفقاً بالقوارير»[١]. يعني: ضَعَفَةَ النساء، وتتبع أمثلة ما ذكر يطول.

---

(١) رواه الحميدي في مسنده (١٢٠٩) بلفظ: «رفقاً قوداً بالقوارير».

[٢١٨٥] وعن عبد الله بن عمر، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «أراني في المنام أتسوَّكُ بسواكٍ، فجذبني رجلان؛ أحدهما أكبرُ من الآخر، فناولتُ السِّواكَ الأصغر مِنْهما، فقيل لي: كبِّر؛ فدفعته إلى الأكبر».

رواه البخاريُّ (٢٤٦)، ومسلم (٢٢٧١) (١٩).

[٢١٨٦] وعن أبي موسى عن النبيِّ ﷺ قال: «رأيتُ في المنام أنِّي أهاجر من مكة إلى أرض بها نخلٌ، فذهبَ وَهَلي إلى أنَّها اليمامة، أو هَجَرُ، فإذا هي المدينة ـ يثرب ـ ....

و (قوله ﷺ: «أريت في المنام أني أهاجر إلى أرضٍ بها نخلٌ») هذا يدلُّ: على أن هذه الرؤيا وقعت له وهو بمكة قبل الهجرة، وأن الله تعالى أطلعه بها على ما يكون من حاله وحال أصحابه يوم أُحُدٍ، وبأنهم يصاب من صدورهم معه، وأن الله تعالى يثبتهم بعد ذلك، ويجمع كلمتهم، ويُقيم أمرهم، ويعزُّ دينهم، وقد كمَّل اللَّهُ تعالى له ذلك بعد بدرٍ الثانية. وهي المرادةُ في هذا الحديث على ما يأتي بيانه ـ إن شاء الله ـ.

رؤيا للنبيِّ ﷺ

و (قوله: «فذهب وَهَلي إلى أنها اليمامة، أو هجر، فإذا هي المدينة») أي: ذهب وهمي وظنِّي. والوَهَلُ ـ بفتح الهاء ـ: ما يقع في خاطر الإنسان، ويهمُّ به. وقد يكون في موضع آخر: الغلط، وليس مراداً هنا بوجهٍ؛ لأنه لم يجزمْ بأنها واحدةٌ منهما، وإنما جوَّز ذلك؛ إذ ليس في المنام ما يدلُّ على التعيين، وإنما أُرِيَ أرضاً ذات نخلٍ، فخطر له ذانك الموضعان، لكونهما من أكثر البلاد نخلاً، ثم إنه لما هاجر إلى المدينة تعيَّنت له تلك الأرض، فأخبر عنها بعد هجرته إليها بقوله: «فإذا هي المدينة».

قد تقع الرؤيا موافقة لظاهرها

ففيه ما يدلُّ: على أن الرؤيا قد تقعُ موافقةً لظاهرها من غير تأويل. وأن الرؤيا قبل وقوعها لا يقطعُ الإنسانُ بتأويلها، وإنما هي: ظنٌّ وحدسٌ؛ إلا فيما كان

ورأيتُ في رؤيا هذه أني هززتُ سيفاً فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحدٍ، ....

منها وحياً للأنبياء، كما وقع لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في قوله لابنه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]؛ فإن ذلك لا يكون إلا عن يقين يحصلُ لهم قطعاً، خلافاً لمن قال من أهل البدع: إن ذلك كان منه ظناً وحسباناً. وهو قولٌ باطلٌ؛ لأنه لم يكن ليقدَم على معصوم الدم ـ قطعاً ـ محبوب شرعاً وطبعاً بمنام لا أصل له ولا تحقيق فيه.

و (قوله: «ورأيت في رؤياي هذه: أني هززتُ سيفاً فانقطع صدره»). هذا نصٌّ في أن رؤيته لدار هجرته، ولهذه الحالة الدالَّة على قضية يوم أحد كانت مناماً واحداً، وقد تأوَّل ﷺ السيف هنا بالقوم الذين كانوا معه، الناصرين له أخذاً من معنى السيف لأنه به يُنتصر[1]، ويُعتضد في اللقاء، كما يعتضد بالأنصار والأولياء. وقد يُتأوَّل على وجوه متعددة في غير هذا الموضع؛ فقد يدلُّ على الولد، والوالد، والعم، والعَصَبة، والزوجة، والسلطان، والحُجَّة القاطعة، وذلك بحسب ما يظهرُ من أحوال الرائي والمرئي، ووقت الرؤيا. وإنما تأوَّل انقطاعَ صدر السَّيف [بقتل من قتل يوم أُحُدٍ؛ لأنهم كانوا معظم صدر عسكره؛ إذ كان فيهم: عمه حمزة، وغيره من أشراف المهاجرين والأنصار، فاقتبس صدر القوم من صدر السيف][2] والقطع الذي رُئي فيه قطع أعمار المقتولين. وهزُّه للسيف: هو حمله إياهم على الجهاد، وحثُّهم عليه. والرواية الصحيحة الفصيحة هي: هززته بزايين، وتاء مثناةٌ من فوق. وقد قاله بعضُ الرواة بزاي واحدة مشدَّدة، وتاء مخففة؛ فيقول: هزَّتُه، وقيل: هي لغة بكر بن وائل.

تأويل السَّيف في الرؤيا

(١) في (ز) و (م ٣): يستنصر.

(٢) ما بين حاصرتين سقط من (ع).

ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين. ورأيتُ أيضاً فيها بقراً، واللَّهُ خيرٌ، فإذا هم النفر من المؤمنين يوم أحد، ....

تأويله ﷺ هزَّه للسيف

و (قوله: «ثم هززته أخرى فعاد أحسنَ ما كان، فإذا هو ما جاء اللَّهُ به من الفتح، واجتماع المؤمنين») يعني به ـ والله أعلم ـ ما صنع اللَّهُ لهم بعد أُحُد، وذلك: أنهم لم ينكلوا عن الجهاد، ولا ضعفوا، ولا استكانوا لما أصابهم يومَ أُحُدٍ، لكن جدَّدوا نياتهم، وقوَّوْا إيمانهم وعَزَماتهم، واجتمعت على ذلك جماعاتُهم، وصحَّت في ذلك رغباتُهم، فخرجوا على ما بهم من الضعف والجراح فغزوا غزوة حمراء الأسد مستظهرين على عدوهم بالقوة والجَلَد، ثم فتح الله تعالى عليهم، ونصرهم في غزوة بني النضير، ثم في غزوة ذات الرِّقاع، ثم لم يزل اللَّهُ تعالى يجمع المؤمنين، ويكثرهم، ويفتح عليهم إلى بدرٍ الثانية، وكانت في شعبان من السنة الرابعة من الهجرة، وبعد تسعة أشهر ونصف شهر من أُحُد، فما فتح الله عليه به في هذه المدة هو المرادُ هنا كما يأتي.

و (قوله: «ورأيتُ فيها أيضاً بقراً، والله خيرٌ») الضمير في (فيها) عائد على الرؤيا المذكورة. والرواية المشهورة برفع (اللَّهُ ـ و ـ خيرٌ) على الابتداء والخبر. أي: ثوابُ الله خيرٌ للنفر المقتولين بالشهادة، ولمن أصيب بهم بأجر المصيبة، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ تقديره: ورأيت واللَّهِ بقراً تُنحر. على إعمال (رأيت) في (بقراً) وعلى خفض اسم الله تعالى على القسم. وهكذا روى الخبرَ ابنُ هشام. وسُمِّيَ ذلك خيراً على جهة التفاؤل.

قلـتُ: والأول أوضح، وأبعد من الاعتراض.

و (قوله: «فإذا هم النفر من المؤمنين يوم أحدٍ») يحتمل أن يكون أخذ النفر من لفظ: بقر ـ مصحفاً ـ؛ إذ لفظهما واحدٌ، وليس بينهما إلا اختلاف النقط، فيكون هذا تنبيهاً على طريق خامسٍ في طريق العَبَارة المتقدمة. ويحتمل أن يكون

وإذا الخير ما جاء الله به من الخير بعدُ، وثواب الصدق الذي آتانا الله بعدَ يوم بدرٍ».

رواه مسلم (٢٢٧٢) (٢٠)، وابن ماجه (٣٩٢١).

أخذ ذلك من أنَّ الرجال المقاتلة في الحرب يشبهون لما معها من أسلحتها التي هي قرونها، ولمدافعتها بها، ومناطحتها بعضاً لبعضٍ بها، وقد كانت العربُ تستعملُ القرونَ في الرماح عند عدم الأسنة. والله تعالى أعلم، وكأن هؤلاء المؤمنين الذين عبر عنهم بالنفر غير المؤمنين بصدر السيف. فكأنَّ أولئك صدر الكتيبة، وهؤلاء مقاتلتها، والكلُّ من خير الشهداء، وأفضل الفضلاء.

و (قوله: «فإذا هو ما جاء الله به من الخير بعد»[1]) هكذا صحَّت الرواية بضم (بعد) على قطعه عن الإضافة. ويعني به ما أصيبوا به يوم أُحُدٍ. والعامل فيه (جاء) و (الخير): هو الذي ذكرناه آنفاً.

و (قوله: «وثواب الصِّدق الذي آتانا الله بَعْدَ يومِ بدرٍ») كذا صحت الرواية: (بعدَ) منصوباً على الظرف المعرب المضاف إلى (يوم بدرٍ)، [والعامل فيه: (آتانا). فهذان أمران مختلفان أوتيهما في وقتين مختلفين. أحدهما: بعد أُحُدٍ، والثاني: بعد بدرٍ][2]؛ مع أنهما مرتَّبان على ما جرى في أحدٍ، فيستحيل أن يكون يوم بدرٍ هنا هو يوم غزوة بدر الكبرى؛ لتقدُّم بدرٍ الكبرى على أُحُدٍ بزمانٍ طويلٍ؛ لأنه ﷺ خرج إلى بدرٍ الأولى في شهر رمضان في السَّنة الثانية من الهجرة. وكانت أُحُدٌ في السنة الثالثة في النصف من شوَّالها، ولذلك قال علماؤنا: إن يوم بدرٍ في هذا الحديث هو يوم بدرٍ الثاني، وكان من أمرها: أنَّ قريشاً لما أصابت في أحدٍ من أصحاب النبيِّ ﷺ ما أصابت، وأخذوا في الرُّجوع نادى أبو سفيان يُسْمِعُ النبيَّ ﷺ

يوم بدر الثانية

---

(١) في التلخيص: وإذا الخير ما جاء الله به من الخير بعد.

(٢) ما بين حاصرتين سقط من (ع).

[٢١٨٧] وعن ابن عباسٍ قال: قدم مُسيلمَةُ الكذَّابُ على عهد رسول الله ﷺ المدينةَ، فجعَل يقول: إنْ جعل لي محمدٌ الأمر من بعده تبعْتُهُ، فقدمها في بشرٍ كثيرٍ من قومه، فأقبل إليه النَّبيُّ ﷺ ومعه ثابت بن

فقال: موعدكم يوم بدرٍ في العام المقبل. فأمر النبيُّ ﷺ بعضَ أصحابه أن يجيبَه بِنَعَم؛ فلمَّا كان العامُ المقبل ـ وهي السنة الرابعة من الهجرة ـ خرج في شعبانها إلى بدرٍ الثانية، فوصل إلى بدرٍ، وأقام هناك ينتظر أبا سفيان، وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى بلغ عُسفان. ثمَّ: إنَّهم غلبهم الخوف، فرجعوا، واعتذروا بأنَّ العامَ عامُ جدبٍ. وكان عذراً محتاجاً إلى عذرٍ، فأخزى اللَّهُ المشركين، ونصر المؤمنين. ثمَّ: إنَّ النبيَّ ﷺ لم يزل منصوراً، وبما يفتح الله عليه مسروراً، إلى أن أظهر اللَّهُ تعالى دينه على الأديان، وأخمد كلمة الكفر والطغيان.

تنبـؤ مُسيلمـة الكذَّاب

و (قول ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ: قدم مسيلمةُ الكذَّاب على عهد رسول الله ﷺ المدينة، فجعل يقول: إنْ جَعَلَ لي محمَّدٌ الأمرَ من بعده تبعتُه). مسيلمة هذا هو: ابن ثُمامة بن كثير بن حبيب بن الحارث بن عبد الحارث بن عثمان بن الحارث بن ذُهْل بن الدُّوْلُ بن حنيفة. قال ابنُ إسحاق: وكان مِن شأنه: أنه تنبأ على عهد رسول الله ﷺ سنة عشرٍ، وكان يشهد: أن لا إلٰهَ إلا الله وأن محمّداً عبده ورسوله، ويزعم: أنَّه شريك معه في نبوَّته. وقال سعيد بن المسيِّب: إنَّه كان قد تسمَّى بالرحمن قبل أن يولد عبد الله بن عبد المطلب ـ أبو النبي ﷺ ـ، وأنَّه قُتِل وهو ابن خمسين ومئة سنة. قال سعيد بن جبير: كان رسول الله ﷺ إذا قال: «بسم الله الرحمن الرَّحيم»؛ قالت قريشٌ: إنَّما يعني: مسيلمة. قال ابن إسحاق: وإنَّه تسارع إليه بنو حنيفة، وإنَّه بعث برجلين من قومه بكتابٍ إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمَّدٍ رسول الله، سلام عليك؛ أما بعد: فإنِّي أُشْرِكْتُ معك في الأمر، فلي نصفُ الأرض، ولك نصفُها، ولكنْ قريش قومٌ لا يعدلون. فلمَّا قرأ رسول الله ﷺ الكتاب؛ قال للرَّسولين: «ما تقولان

قيس بن شمَّاس وفي يـد النبيِّ ﷺ قطعةُ جريدةٍ حتى وقف على مسيلمة

أنتما؟» قالا: نقول ما قال صاحبنا. فقال رسولُ الله ﷺ: «لولا أنَّ الرُّسل لا تُقْتَل لقتلتكما»، ثم كتب رسولُ الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمدٍ رسول الله إلى مسيلمة الكذَّاب، سلامٌ على مَن اتَّبع الهدى، أمَّا بعد: فـ: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]». فلما انتهى الكتاب إليه انكسر بعض الانكسار، وقالت بنو حنيفة: لا نرى محمّداً أقرَّ بشركة صاحبنا في الأمر[١]!

كتابه ﷺ إلى مسيلمة الكذَّاب

قال ابن إسحاق: تنبأ على عهد رسول الله ﷺ مسيلمة، وصاحب صنعاء: الأسود بن عزة العنسيُّ، وطُليحة، وسَجَاح التميمية جاءت إلى مسيلمة فقالت له: ما أوحي إليك؟ قال: أوحي إليَّ: ألم تر إلى ربِّك كيف خلقَ الحُبْلى، أخرج منها نسمةً تسعى بين صفاقٍ وحشـا. قالت: وماذا؟ فقال: ألم تر أنَّ الله خلق [للنساء أفراجاً][٢]، وخلق الرِّجال لهنَّ أزواجاً، فيولج فيهنَّ قُعْساً إيلاجاً، ثمَّ يخرجه إذا استمنى[٣] إخراجاً. فقالت: أشهد أنَّك نبيٌّ! قال: هل لكِ أن أتزوَّجك، فآكل بقومي وقومك العرب؟ فتزوَّجته، فنادى مناديها: ألا إنَّا أصبنا الدِّين في بني حنيفة. ونادى منادي بني حنيفة: ألا إنَّ نبيَّنا تزوج نبيَّتكم. وقالت له: يا أبا ثمامة! ضعْ عن قومي هاتين الطويلتين؛ صلاة الفجر، وصلاة العشاء الآخرة. فخرج مناديه فنادى بذلك. فقال شيخٌ من بني تميم: جزى الله أبا ثمامة عنَّا خيراً، فوالله: لقد كاد ثقلهما علينا يوتغنا[٤] عن ديننا.

خبر زواج مسيلمة بسجاح

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٨٧)، وأبو داود (٢٧٦١).

(٢) كذا في (م ٣) و (ز)، والطبري (٣/ ٢٧٣). وفي (ع) و (ج ٢) و (م ٢): النساء أفواجاً.

(٣) في (ع): شاء.

(٤) «الوَتَغ»: الإثم وفساد الدِّين.

. . . .

قدوم مسيلمة الكذَّاب إلى المدينة

قال غيرُ ابن إسحاق: ولما استفحل أمرُ مسيلمة قَدِم المدينة في بَشَرٍ كثيرٍ، ونزل على عبد الله بن أُبيٍّ، فجاءه النبيُّ ﷺ كما ذكر ابن عباس، وفي غير حديث ابن عباسٍ: أنَّ مسيلمة جاء إلى[١] النبيِّ ﷺ. وفي حديثٍ آخر: أنَّ مسيلمة كان في ظهر القوم، وأنَّ النبيَّ ﷺ سأل عنه.

قلتُ: فيحتمل أن يكون هذا اختلافُ أحوالٍ في قَدْمةٍ واحدةٍ قدمها مسيلمةُ المدينة، وعند بلوغ قدومه للنَّبيِّ ﷺ سأل عنه، ثمَّ بعد ذلك جاء كلُّ واحدٍ منهما إلى الآخر، فاجتمعا بموضع غير موضعيهما. وهذا الاحتمال أقربُ من احتمال أن يكون مسيلمةُ قدم على النبيِّ ﷺ ثلاث مرات.

حال مسيلمة وقومه بعد وفاته ﷺ

ثم إنَّ مسيلمةَ رجع إلى اليمامة على حالته تلك، إلى أن توفِّي رسول الله ﷺ فعظم أمرُ مسيلمة، وأطبق أهلُ اليمامة عليه، وارتدُّوا عن الإسلام، وانضاف إليهم بشرٌ كثير من أهل الردَّة، وقويت شوكتهم، فكاتبهم أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ كتباً كثيرةً يعظهم، ويذكرهم، ويحذرهم، وينذرهم إلى أن بعث لهم كتاباً مع حبيبِ بنِ عبد الله الأنصاريِّ، فقتله مسيلمة، فعند ذلك عزم أبو بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ على قتالهم والمسلمون، فأمر أبو بكر خالدَ بنَ الوليد ـ رضي الله عنهما ـ وتجهز النَّاس، وعقد الراية لخالد، وصاروا إلى اليمامة، فاجتمع لمسيلمة جيشٌ عظيمٌ، وخرج إلى المسلمين، فالتقوا، وكانت بينهم حروبٌ عظيمةٌ لم يُسْمَعْ بمثلها، واستشهد فيها من قُرَّاء القرآن خَلْقٌ كثيرٌ، حتى خاف أبو بكر، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ أن يذهب من القرآن شيءٌ لكثرة مَن قُتِل هناك من القراء، ثم إن الله تعالى ثبَّت المسلمين، وقتل اللَّهُ تعالى مسيلمةَ اللعين على يدي وحشيٍّ قاتل حمزة، ورماه بالحربة التي قتل بها حمزة، ثم دفَّف[٢] عليه رجلٌ من الأنصار،

عزم أبي بكر على قتال مسيلمة وقومه

مقتل مسيلمة الكذاب

---

(١) ليست في (ج ٢).

(٢) أي: جرحه جرحاً مميتاً وأجهز عليه.

أصحابه. قال: «لو سألْتَنِي هذه القطعة ماأعطيتكها، ولن أتعدَّى أمر الله فيك، ولئن أدبرت لَيَعْقِرَنَّك الله، وإني لأراك الذي أريت فيك ما أريت،

فاحتزَّ رأسه، وهزم اللَّهُ جيشَه، وأهلكهم، وفتح اللَّهُ اليمامة، فدخلها خالدٌ ـ رضي الله عنه ـ واستولى على جميع ما حوته من النساء، والولدان، والأموال، وأظهر الله الدين، وجعل العاقبة للمتقين، فالحمد لله الذي صدقنا وعده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيءَ بعده، وإنما جاء النبيُّ ﷺ إلى مسيلمة ليبلغه الدعوة، وليسمع قولَه بالمشافهة.

و (قوله ﷺ: «ولن أتعدَّى أمر الله فيك») كذا في جميع نسخ كتاب مسلم، وفي البخاري[١]: «ولن تعدوَ أمر الله فيك»، وكلاهما صحيح. ومعنى الأول: أن الله تعالى أمر نبيَّه ﷺ أن يغلِّظ القولَ لمسيلمة، وأن يُصرِّح بتكذيبه، وأن يخبره بأنه لا يبلغ أمله فيما[٢] يريده من التشريك في الرسالة، ولا في الأرض، فلم يتعدَّ النبيُّ ﷺ ذلك. إذ قد فعل كل ذلك. ويحتمل أنه يريدُ بالأمر: ما كتب الله [عليه من الشِّقوة، وما وسمه عليه[٣] من الكذب والتكذيب، والأفعال القبيحة. أي: لا أقدر أن أردَّ ما[٤] كتب الله][٥] عليك من ذلك؛ غير أن هذا المعنى أظهر من لفظ البخاري منه من لفظ كتاب مسلم.

من دلائل نبوته ﷺ

و (قوله: «ولئن أدبرتَ ليعقرنك الله») أي: لَيُهْلِكَنَّكَ اللَّهُ بالعقر ـ وهو القتل ـ إن لم تتَّبعني. وكذلك كان كما ذكرناه. فكان هذا من دلائل نبوة محمد نبيِّنا ﷺ وصحة رسالته.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٦١).
(٢) في (ع) و (ج ٢): مما.
(٣) في (ج ٢): به.
(٤) في (م ٢) و (ج ٢): شيئاً.
(٥) ما بين حاصرتين سقط من (ع).

وهذا ثابت يجيبك عنِّي» ثم انصرف عنه، فقال ابن عباس: فسألت عن قول رسول الله ﷺ: «إنك أرى الذي أريتُ فيك ما رأيت، فأخبرني أبو هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «بينما أنا نائم رأيت في يَدَيَّ سوارين من ذهب، فأهمَّني شأنُهما، فَأُوحِيَ إليَّ في المنام: أن انفخهما. فنفختهما، فطارا، ....

ثابت بن قيس خطيب رسول الله

و (قوله ﷺ: «وهذا ثابتٌ يجيبكَ عنِّي») يعني: ثابت بن قيس بن شمَّاس، خطيب رسول الله ﷺ، فكأن النبيَّ ﷺ وجد على مسيلمة في نفسه، فأعرض عنه إعراضَ المحتقر له، المصغِّر لشأنه، وأحال على ثابتٍ لعلمه بأنه يقوم عنه بجواب كل ما يسألونه عنه، إذ كان من أفضل الناس، وأكملهم عقلاً، وأفصحهم لساناً، وكان مع ذلك جَهْوَرِيَّ الصوت، حسن النغمة، فكان يقوم بالحجة، ويبالغ في إيراد الخطبة.

و (قوله: «إني لأراك الذي أريت فيه ما أريت») الرواية أُراك ـ بضم الهمزة ـ؛ بمعنى أظنك، على ما قد حصل لهذه الصيغة من غلبة عُرْف الاستعمال، وقد قرَّرنا: أن أصل (أُرى) من (رأى) بمعنى: علم، أو أبصر، أدخلت عليه همزة التعدية، وبُنِيت لما لم يُسَمَّ فاعلُه، وعلى هذا فيصحُّ أن تكون هنا بمعنى العلم. فيكون معناه: إني لأعلم أنك الذي أريت فيه ما أريت، وهذا أَوْلى بحال النبي ﷺ فإنَّ رُؤياه حقٌّ، وتأويله لا يجوزُ عليه الغلط، بخلاف غيره، والله تعالى أعلم.

و (قوله: «بينا أنا نائمٌ رأيت في يَدَيَّ سوارين من ذهب، فأهمَّني شأنهما») السوار: ما تجعله المرأة في ذراعها مما تتحلَّى به من الذهب والفضة، وفيه ثلاث لغات: كسر السِّين، وضمها، وبهمزة مضمومة، فيقال: أُسوار ويجمع أساورةً، فأما أساورة الفرس فَقُوَّادهم. وإنما أهمَّه شأنهما؛ أعني: السوارين لأنهما من حلية النساء، ومما يحرم على الرجال.

و (قوله: «فأوحي إليَّ: أن انفخهما. فنفختُهما، فطارا») ظاهره: أنَّ هذا

فأوّلتُهما: كذابين يخرجان بعدي. فكان أحدُهما: العنسيَّ صاحب صنعاء، والآخرُ: مسيلمة صاحب اليمامة».

رواه البخاريُّ (٤٣٧٣)، ومسلم (٢٢٧٣ و ٢٢٧٤) (٢١).

[٢١٨٨] وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أنا نائم أتيتُ خزائن الأرض فَوُضِعَ في يدَيَّ أُسْوارين من ذهبٍ، فكبُرا عليَّ،

وحيٌ من جهة المَلَكِ على غالب عادته. ويحتمل أن يكون ذلك إلهاماً.

تأويله ﷺ للسّوارين

و (قوله: «فأوَّلتهما: كذَّابَيْن يخرجان بعدي») أي: يظهران ويغلبان بعد موتي، وإلا فقد كانا موجودين في حياة النبيِّ ﷺ متَّبَعَيْن، وقد دلَّ على هذا قولُه في الرواية الأخرى: «فأوَّلْتُهما الكذَّابَيْن اللذين أنا بينهما». ووجهُ مناسبة هذا التأويل لهذه الرؤيا: أن أهلَ صنعاء وأهلَ اليمامة كانا قد أسلما، وكانا كالسَّاعدين للإسلام، فلما ظهر فيهما هذان الكذَّابان، وتبهرجا لهما بترَّهاتهما، وزخرفا أقوالهما، فانخدع الفريقان بتلك البهرجة، فكان البَلَدان للنبيِّ ﷺ بمنزلة يديه؛ لأنه كان يعتضدُ بهما. والسِّواران فيهما هما: مسيلمة، وصاحب صنعاء بما زخرفا من أقوالهما. ونفخُ النبيِّ ﷺ: هو أن الله أهلكهما على أيدي أهل دينه، كما ذكرناه في شأن مسيلمة. وأما صاحب صنعاء فهو الأسود بن كعب، ويلقَّب بذي حمار؛ وسبب هذا اللقب ـ على ما قاله ابنُ إسحاق ـ: أنه لقيه حمار، فعثر، فسقط لوجهه، فقال: سجد لي الحمار. فارتد عن الإسلام، وادَّعى النبوة، ومخرق على الجهَّال فاتبعوه، وغلب على صنعاء، وأخرج منها المهاجر بن أسد المخزومي، وكان عاملاً لرسول الله ﷺ عليها، وانتشر أمره، وغلب على امرأة مُسْلِمةٍ من الأساورة، فتزوجها فدسَّت إلى قوم من الأساورة: أني قد صنعت سرباً يوصل منه إلى مرقد الأسود فدلَّتهم على ذلك، فدخل منه قومٌ، منهم فيروز الديلمي، وقيس بن مكشوحٍ، فقتلوه، وجاؤوا برأسه إلى رسول الله ﷺ ـ على ما قاله ابنُ إسحاق ـ.

صاحبُ صنعاء وادعاؤه النبوة

مقتل الأسود ابن كعب

وأهمّاني، فأوحي إليّ أن انفخهما، فنفختهما، فذهبا. فأوّلْتُهما الكذابيْنِ اللّذيْن أنا بينهما: صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة».

رواه البخاري (٤٣٧٥)، ومسلم (٢٢٧٤) (٢٢).

* * *

وقال وثيمة[١]: ومنهم من يقول: كان ذلك في خلافة أبي بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ.

قلتُ: وهذا هو الصحيح ـ إن شاء الله تعالى ـ؛ لقوله ﷺ: «يخرجان بعدي» أي: بعد وفاتي، والله أعلم.

* * *

(١) هو وثيمة بن موسى بن الفرات المعروف بالوشاء. مؤرِّخ، له كتاب في «أخبار الردة». توفي سنة (٢٣٧ هـ).

(٣٣)
كـتـاب النبوات وفضائل نبينا محمَّدٍ ﷺ

(١) بـــاب
كونه مختاراً من خيار الناس في
الدنيا وسيّدهم يوم القيامة

[٢١٨٩] عن واثلةَ بنِ الأسقعِ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

رواه أحمد (٤/١٠٧)، ومسلم (٢٢٧٦) (١)، والترمذيّ (٣٦٠٥ و ٣٦٠٦).

---

(٣٣)
كــتــاب الـنبـوّات

[(١) ومـن بــاب: كونه مختاراً من خيار الناس][١]

قد تقدَّم الكلام في النبوة غير ما مرةٍ.

معنى الاصطفاء

و (قوله: «إنَّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل») اصطفى: اختار. وصفوة الشيء: خياره، ووزنه: افتعل، والطاء فيه بدلٌ من التاء لقرب مخرجيهما. ومعنى

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصول، واستدرك من التلخيص.

[٢١٩٠] وعن أبي هريرةِ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ

اختيار الله تعالى لمن شاء مِن خَلْقه: تخصيصه إياه بصفات كمال نوعه، وجعله إياه أصلاً لذلك النوع، وإكرامه له على ما سبق في علمه، ونافذ حكمه من غير وجوب عليه، ولا إجبار، بل على ما قال: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص: ٦٨]. وقد اصطفى الله تعالى من هذا الجنس الحيواني نوعَ بني آدم، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]. ويكفيك من ذلك كله: أن الله تعالى خلق العالم كلَّه لأجله، كما قد صرح بذلك عنه لما قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]. ثم إن الله تعالى اختار من هذا النوع الإنساني مَن جعله مَعْدِن نبوته، ومحلّ رسالته، فأوّلهم: آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ. ثم إن الله تعالى اختار من نطفته نطفة كريمة، فلم يزلْ ينقلها من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة، فكان منها الأنبياء والرسل، كما قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤]. ثم إن الله تعالى اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل وإسحاق كما قال: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [النساء: ١٦٣]، ثم إن الله تعالى اصطفى من ولد إسماعيل كنانة كما ذكرهم النبيُّ ﷺ في هذا الحديث. ثم إن الله تعالى ختمهم بختامهم، وأمَّهم بإمامهم، وشرّفهم بصدر كتيبتهم، وبيت قصيدتهم، شمس ضحاها، هلال ليلتها، درُّ تقاصيرِها[1]، زبرجدِها، وهو محمد ﷺ أخّره عن الأنبياء زماناً، وقدَّمه عليهم رتبةً ومكاناً. جعله اللَّهُ واسطةَ النظام، وكمّل بكماله أولئك الملأ الكرام، وخصَّه مِن بينهم بالمقام المحمود، في اليوم المشهود، فهو شفيعُهم إذا استشفعوا، وقائدهم إذا وفدوا، وخطيبهم إذا

اختيار الأنبياء

(١) جمع تِقْصارة، وهي القلادة.

يوم القيامة، وأوَّلُ من ينشقُّ عنه القبر،..................

جُمِعُوا، وسيِّدهم إذا ذكروا، فاقتبس من الخبر عيونه، فبيده لواء الحمد، تحته آدمُ فمن دون، ويكفيك أُثْرَةً وكرامةً: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة». والسيد: اسم فاعل، من ساد قومه؛ إذا تقدَّمهم بما فيه من خصال الكمال، وبما يوليهم من الإحسان والإفضال، وأصله: سَيْوِد؛ لأن: ألف ساد منقلبة عن واو، بدليل: أن مضارعه يسود، فقلبوا الواو ياءً، وأدغموها في الياء، فقالوا: سيدٌ. وهذا كما فعلوا في: ميِّت. وقد تبين للعقل والعيان ما به كان محمد ﷺ سيد نوع الإنسان.

محمد ﷺ سيِّد ولد آدم

وقد ثبت بصحيح الأخبار ما له من السؤدد في تلك الدار، فمنها أنه قال: «أنا سيد ولد آدم. قال: وتدرون بِمَ ذاك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيدٍ واحدٍ»[١]. وذكر حديث الشفاعة المتقدم. ومضمونه: أن الناس كلهم إذا جمعهم موقفُ القيامة، وطال عليهم، وعظم كربُهم طلبوا مَن يشفع لهم إلى الله تعالى في إراحتهم من موقفهم، فيبدؤون بآدم عليه السلام، فيسألونه الشفاعة، فيقول: نفسي، نفسي، لستُ لها، وهكذا يقول من سُئِلها من الأنبياء، حتى ينتهي الأمرُ إلى سيدنا محمد ﷺ فيقول: «أنا لها». فيقوم في أرفع مقام، ويُخَصُّ بما لا يُحْصَى من المعارف والإلهام، ويُنادى بألطف خطابٍ وأعظم إكرام: يا محمد! قل تسمع، وسَلْ تعطه، واشفعْ تُشَفَّع. وهذا مقامٌ لم ينله أحدٌ من الأنام[٢]، ولا سُمِعَ بمثله لأحدٍ من الملائكة الكرام، فنسأل الله تعالى باسمه العظيم، وبوجهه الكريم أن يحيينا على شريعته، ويُميتنا على ملَّته، ويحشرنا في زمرته، ولا يجعلنا ممن ذيد[٣] عنه، وبُعِد منه.

مضمون حديث الشفاعة

و (قوله: «أنا أوَّل من ينشقُّ عنه القبر») يعني: أنه أوَّل من يعجَّل إحياؤه

---

(١) رواه مسلم (١٩٤).
(٢) في (ز) و (م ٣): الأنبياء.
(٣) أي: طُرِد.

وأوَّلُ شافعٍ، وأوَّلُ مُشفَّعٍ».

رواه مسلم (٢٢٧٨) (٣)، وأبو داود (٤٧٦٣)، والترمذي (٣٦١٥).

مبالغةً في إكرامه، وتخصيصاً له بتعجيل جزيل إنعامه. ويعارض هذا قوله ﷺ في حديث آخر: «أنه أول من يبعث، فيجد موسى متعلِّقاً بساق العرش»[1]. وسيأتي هذا مبيَّناً في باب: ذكر موسى عليه السلام ـ إن شاء الله تعالى ـ.

لا يتقدَّم محمداً ﷺ في الشفاعة أحدٌ

و (قوله: «وأول شافع، وأول مُشفَّع») قد تقدَّم القول في الشفاعة وأقسامها في الإيمان. ومقصودُ هذا الحديث أن يُبيِّنَ أنه لا يتقدَّمُه شافع؛ لا من الملائكة، ولا من النبيِّين، ولا من المؤمنين، في جميع أقسام الشفاعات، على أن الشفاعة العامة لأهل الموقف خاصَّة لا تكون لغيره. وهذه المنزلة أعظمُ المراتب وأشرفُ المناقب، وهذه الخصائص والفضائل التي حدَّث بها النبيُّ ﷺ عن نفسه؛ إنما كان ذلك منه لأنها من جملة ما أُمرَ بتبليغه؛ لما يترتب عليها من وجوب اعتقاد ذلك، وأنه حقٌّ في نفسه، وليُرغِّبَ في الدخول في دينه، وليتمسَّكَ به من دخل فيه، وليعلمَ قدر نعمة الله عليه في أن جعلَه من أمَّةِ مَنْ هذا حالُه، ولتعظُمَ محبَّتُه في قلوب مُتَّبعيه، فتكثرَ أعمالهم، وتطيبَ أحوالهم، فيُحشرون في زمرته، وينالون الحظَّ الأكبرَ من كرامته. وعلى الجملة فيحصُلُ بذلك شرفُ الدنيا، وشرفُ الآخرة؛ لأن شرفَ المتبوع متعدٍّ لشرف التابع على كلِّ حال ـ فإن قيل: كل هذا راجع للاعتقاد، وكيف يحصُل القطعُ بذلك من أخبار الآحاد؟ فالجواب: أن من سمعَ شيئاً من تلك الأمور من النبيِّ ﷺ مشافهةً حصل له العلم بذلك، كما حصلَ للصحابة السامعين منه، ومن لم يشافهْه، فقد يحصُلُ له العلم بذلك من جهة التواتر المعنويّ؛ إذ قد كثرتْ بذلك الظواهر، وأخبارُ الآحاد حتى حصلَ لسامعها العلم القطعيُّ بذلك المراد.

---

(١) رواه مسلم (٢٣٧٣) (١٦٠).

[٢١٩١] وعنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «ما من الأنبياء من نبيٍّ إلا قد أُعْطِيَ من الآيات ما مثلُه آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيته وحْياً أوحى الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرَهُم تابعاً يوم القيامة».

رواه البخاريُّ (٤٩٨١).

* * *

كلُّ رسولٍ أيِّد بمعجزة

و (قوله: «ما من الأنبياء نبيٌّ إلا قد أُعطيَ من الآيات ما مثله آمنَ عليه البشرُ، وإنما كان الذي أوتيتُه وحياً») يعني: أن كلَّ رسولٍ أُيِّد بمعجزةٍ تدلُّ على صحة رسالته، فيظهرُ صدقه، وتثبت حجَّته، كما قد عُلِمَ من أحوالهم؛ بما أخبرنا الله به وبيَّنه عنهم؛ غير أن معجزاتِهم تنقرض بانقراضهم، فلا يبقى منها بعدَهم إلا الإخبارُ بها، وذلك قد يخفى مع توالي الأعصار. ونبيُّنا ﷺ وإن كان قد أُعطي من كل نوعٍ من أنواع معجزات الأنبياء قبلَه، كما قد أوضحناه في كتابنا المسمَّى: بـ (الإعلام بصحة نبوةَ محمد عليه أفضل الصلاة والسلام)؛ لكنَّه فُضِّل على جميعهم بالمعجزة العظمى الباقية ما بقيت الدنيا، وهي: الكتاب العزيز الذي أعجزت السورةُ منه الجِنَّ والإنسَ أيَّ تعجيزٍ، فإعجازُه مشاهدٌ بالعِيَان؛ متجددٌ ما تعاقَبَ الجديدان، فمن ارتابَ الآن في صدق قوله؛ قيل له: فائت بسورةٍ من مثلِه، ولما كانت هذه المعجزة قاطعة الظهور، مستمرةً مدى الدهور، اشترك في معرفتها المتقدِّمون والمتأخرون، واستوى في معرفة صدق محمدٍ ﷺ: السَّابقون واللَّاحقون، فدخل العقلاءُ في دينه دخولاً مُتتابعاً، وحقَّقَ الله تعالى له رجاءَه، فكان أكثرَ الأنبياء تابعاً.

القرآنُ الكريم المعجزة العظمى

* * *

(٢) بـــاب
من شواهد نبوته ﷺ وبركته

[٢١٩٢] عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنِّي لأَعْرِفُ حَجَراً بمكة كان يسلِّمُ عليَّ قبل أن أُبعث؛ إنِّي لأعرفُهُ الآن».

رواه أحمد (٥/ ٨٩)، ومسلم (٢٢٧٧)، والترمذيُّ (٣٦٢٤).

---

(٢) ومن بـــاب: شواهد نبوّة نبينا محمد ﷺ

(قوله: «إني لأعرف حجراً كان يسلِّم عليَّ قبل أن أُبعث») يعني: أنه كان يُسلِّم عليه بالنبوة والرسالة قبل أن يُشافِهه الملكُ بالرسالة. ذكر العلماءُ بسيرة النبيِّ ﷺ وأحواله: أنه كان من لطف الله بنبيِّه ﷺ أن قدَّم له مقدِّمات، وخصَّه ببشائر وكرامات، درَّجَهُ بذلك إلى أطوارٍ؛ لينقطعَ بذلك عن مألوفات الأغمار[١]، ويتأهَّل على تدريجٍ لقبول ما يُلقى إليه، ولتسهيل مشافهة الملك عليه، فكان ﷺ يرى ضياءً وأنواراً، ويسمع تسليماً وكلاماً، ولا يرى أشخاصاً، فيسمع الحجارة والشجر تناديه، ولا يرى أحداً يناجيه؛ إلى أن استوحش من الخَلْق، ففرَّ إلى الحق، فَحُبِّبَتْ إليه الخَلْوة، فكان سببَ هذه الحبوة، مشافهة الملك فقبِل فَمَلَك، وقد قدَّمنا: أن الصحيحَ من مذاهب أئمتنا: أن كلام الجمادات راجعٌ إلى أن الله تعالى يخلقُ فيها أصواتاً مقطعة من غير مخارج؛ يفهم منها ما يفهم من الأصوات الخارجة من مخارج الفم، وذلك ممكنٌ في نفسه. والقدرة القديمة لا قصورَ فيها، فقد أخبر بها الصادق؛ فيجب له التصديق. كيف لا؟ وقد سمع من حَضَر تسبيحَ الحصى في كفِّه، وحنينَ الجذع والمسجدُ قد غصَّ بأهله.

مُقدِّماتُ النبوة لمحمد ﷺ

و (قوله: «إني لأعرفه الآن») يعني: أنه ﷺ كان وقت حدَّثهم بهذا الحديث

---

(١) «الأغمار»: جمع غُمْر، وهو مَن لم يُجرِّب الأمور.

[٢١٩٣] وعن أنس بن مالك قال: رأيتُ رسول الله ﷺ وحانتْ صلاةُ العصر، فالتمس الناس الوَضُوء فلم يجدوه، فأُتِي رسولُ الله ﷺ بوَضُوءٍ، فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده، وأمر النَّاس أن يتوضَّؤوا منه، قال: فرأيتُ الماء ينبع من تحت أصابعه، فتوضّأ النَّاسُ؛ حتَّى توضؤوا من عند آخرهم.

وفي روايةٍ: دعا بماءٍ فأُتي بقدحٍ رَحْراحٍ، فجعل القوم يتوضَّؤون، فَحَزَرْتُ ما بين السِّتين إلى الثمانين، قال: فجعلتُ أنظر إلى الماء ينبع من بين أصابعه.

رواه أحمد (٣/ ١٣٢)، والبخاريُّ (١٦٩)، ومسلم (٢٢٧٩) (٥ و ٤)، والترمذيُّ (٣٦٣١)، والنسائي (١/ ٦٠).

يعرف الحجر معرفةَ مَنْ كان يشاهده. وقيل: إن ذلك الحجر: هو الحجر الأسود، والله أعلم.

و (قوله: أُتي بقدح رحراحٍ) أي: واسع. ويقال: رحرح ـ بغير ألف ـ، وإناءٌ أرحُ، وآنية رحَّاءُ؛ كلُّ ذلك بمعنى الواسع. قال ابنُ الأنباري: ويكون ذلك قصير الجدار.

معجزة نبع الماء من بين أصابعه ﷺ

و (قوله: فرأيت الماء ينبعُ من بين أصابعه) هذه المعجزة تكررت من النبيِّ ﷺ مرات عديدة في مشاهد عظيمة، وجموع كثيرة، بلغتنا بطرق صحيحة من رواية أنس، وعبد الله بن مسعود، وجابرٍ، وعمران بن حصين، وغيرهم ممن يحصل بمجموع أخبارهم العلم القطعيُّ المستفاد من التواتر المعنوي. وبهذا الطريق: حصل لنا العلمُ بأكثر معجزاته الدالة على صدق رسالاته، كما قد ذكرنا جملة ذلك في كتاب «الإعلام». وهذه المعجزة أبلغ من معجزة موسى ـ عليه السلام ـ في نبع الماء من الحجر عند ضربه بالعصا، إذ من المألوف نبعُ الماء من

[٢١٩٤] وعنه: أنَّ نبيَّ الله ﷺ وأصحابه بالزَّوراء، قال: (والزوراء بالمدينة عند السوق والمسجد فيما ثَمَّهْ) دعا بقدحٍ فيه ماء.

وفي رواية: لا يغمر أصابعه، أو قدر ما يواري أصابعه، فوضع كفه فيه، فجعل ينبع مِنْ بين أصابعه، فتوضأ جميعُ أصحابه. قال: قُلت: كم كانوا يا أبا حمزة؟! قال: كانوا زُهاءَ ثلاثمئةٍ.

رواه مسلم (٢٢٧٩) (٦ و ٧).

بعض الحجارة، فأما نَبْعُه من بين عظم ولحم وعصب ودم فشيءٌ لم يُسْمَع بمثله، ولا تُحُدِّث به عن غيره.

و (قوله: كانوا زهاء ثلاثمئة) أي: قدرها. يقال: هم زهاء كذا، ولهاء كذا ـ باللام ـ أي: قدره. وفي الحديث الأول: فحزرت ما بين الستين إلى الثمانين. هذا يدلُّ على أن ذلك كان في موضعين:

أحدهما: بالزوراء. وهي سوقٌ بالمدينة.

والآخر: روي في بعض طرقه ما يدلُّ على أنه كان بغير الزوراء.

من معجزاته ﷺ تكثير الطعام

وقد وقع منه ﷺ مثل هذا في غزوة الحديبية على ما رواه جابر، وفي غزوة بواط من حديث غيره. و (العكة) للسمن، وهي أصغر من القربة. و (الوَسْقُ): ستون صاعاً كما تقدم في الزكاة، ونماء سمن العكة، وشطر وسق الشعير كل ذلك ببركة النبيِّ ﷺ فيما لمسه، أو تناوله، أو تهمَّم به، أو بَرَّك عليه، وكم له منها، وكم! ورفع النماء من ذلك عند العصر والكيل سببه ـ والله أعلم ـ الالتفات بعين الحرص مع معاينة إدرار نعم الله تعالى، ومواهب كراماته، وكثرة بركاته، والغفلة عن الشكر عليها، والثقة بالذي وهبها، والميل إلى الأسباب المعتادة عند مشاهدة خرق العادة، وهذا نحو مما جرى لبني إسرائيل في التيه، لما أُنزل عليهم المنّ

[٢١٩٥] وعن جابرٍ: أنَّ أمَّ مالكٍ كانت تُهدي للنَّبيِّ ﷺ في عكَّةٍ لها سمْناً، فيأتيها بَنُوها، فيسألون الأُدْم، وليس عندهم شيء، فتعْمِدُ إلى الذي كانت تُهدي فيه للنبيِّ ﷺ فتجد فيها سمناً، فما زال يقيم لها أُدْمَ بيتها حتى عصرتْهُ فأتتِ النَّبيَّ ﷺ فقال: «عصرْتيها؟» قالت: نعم، قال: «لو تركتيها ما زال قائماً».

رواه مسلم (٢٢٨٠).

[٢١٩٦] وعنه: أنَّ رجلاً أتى النَّبيَّ ﷺ يستطعمه، فأطعمه شطْرَ وَسْقِ شعيرٍ، فما زال الرَّجلُ يأكل منه وامرأتُه وضيفُهما حتى كَالَه، فأتى النَّبيَّ ﷺ فقال: «لو لم تكِلْه لأكلتم منه ولَقَامَ لكُم».

رواه أحمد (٣/ ٣٣٧ و ٣٤٧)، ومسلم (٢٢٨١).

[٢١٩٧] وعن معاذِ بنِ جبل قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك ....

والسلوى. وقيل لهم: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢]، فأطاعوا حرص النفس، فادخروا للأيام، فخنز اللحم، وفسد الطعام.

موالاة الشكر على النِّعم

و (قوله لصاحبة العكة: «لو تركتيها ما زال قائماً»، ولصاحب الشطر: «لو لم تكله لقام بكم») يستفاد منه: أن من أُدِرَّ عليه رزقٌ، أو أُكْرِم بكرامةٍ، أو لُطِف به في أمرٍ ما، فالمتعيَّن عليه: موالاة[1] الشكر، ورؤية المِنَّة لله تعالى، ولا يحدث مغيِّراً في تلك الحالة، ويتركها على حالها. ومعنى رؤية المِنَّة: أن يعلمَ أن ذلك بمحض فَضْل الله، وكرمه؛ لا بحولنا، ولا بقوتنا، ولا استحقاقنا.

و (قوله: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام تبوك) هي موضعٌ معروف بطريق

(١) ليست في (م ٣) و (ز).

فكان يَجْمَع الصَّلاة؛ فصلَّى الظهر والعصر جميعاً؛ والمغرب والعشاء جميعاً، حتى إذا كان يومٌ آخَرُ أَخَّرَ الصلاة، ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعاً، ثم دخل، ثم خرج بعْد ذلك، فصلّى المغرب والعشاء جميعاً، ثم قال: «إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عينَ تبوك، وإنّكم لن تأتوها حتّى يُضْحِيَ النَّهارُ، فمن جاءها منكم فلا يمسَّ مِنْ مائها شيئاً حتى . . . .

ظهـــورُ معجـزاتـه ﷺ في غزوة تبوك

الشام فيه ماء، وهذه الغزوة: هي آخرُ غزاةٍ غزاها رسولُ الله ﷺ يريدُ غزوَ الروم، فخرج فيها في شهر رجب سنة تسع من الهجرة في حرٍّ شديد لسفرٍ بعيدٍ، وخرج معه أهلُ الصدق من المسلمين، وتخلَّف عنه جميعُ المنافقين، وكانت غزوةً أظهر الله فيها من معجزات نبيه ﷺ وكراماته، ما زاد اللَّهُ المؤمنين به إيماناً، وأقام بذلك على الكافرين حجَّةً وبرهاناً.

و (قوله: فكان يجمع الصلاةَ فصلّى الظهر والعصر جميعاً، والمغرب والعشاء جميعاً) ظاهِرُ هذا المساق أنه أوقع الظهر والعصر في أول الوقت مجموعتين، وكذلك المغرب والعشاء؛ لأنه قال بعد ذلك: (حتى إذا كان يومٌ آخر أخَّر الصلاة، ثم خرج، فصلى الظهر والعصر جميعاً، ثم دخل، ثم خرج بعد ذلك، فصلَّى المغرب والعشاء جميعاً). وظاهره أنه أخَّر الصلاتين إلى آخر وقتهما المشترك. وهو حُجَّةٌ لمالك؛ فإنه يقول بجواز كل ذلك، على تفصيل له في الأفضل من ذلك، كما قدَّمناه، وهو أيضاً حجة للشافعيِّ عليه في اشتراطه في جواز الجمع بين الصلاتين استعجال السير، والشافعي لا يشترطه، وقد تقدَّم كل ذلك في كتاب الصلاة.

و (قوله ﷺ: «إنكم ستأتون غداً ـ إن شاء الله ـ عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يُضْحِيَ النهار») ظاهره: أن هذا منه ﷺ إخبارٌ عن غيبٍ بوحيٍ، ويحتمل غير ذلك.

تكثيرُ الماء في عين تبوك

و (قوله: «فمن جاءها منكم فلا يمسَّ من ماءها شيئاً»). إنما نهاهم عن ذلك

آتي» فجئناها، وقد سبقَنَا إليها رجُلانِ، والعينُ مثلُ الشِّراكِ، تَبِضُّ بشيءٍ من ماءٍ، قال: فسألهما رسولُ الله ﷺ: «هل مَسَسْتُما من مائها شيئاً؟». قالا: نعم، فسبَّهُما النَّبيُّ ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول، قال: ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء، قال: وغَسَلَ

ليظهر انفراده بالمعجزة، وتتحقق نسبتها إليه، واختصاصه بها، فإنه إذا شاركه غيره في مسّ مائها، لم يتمحض اختصاصه بها، ولذلك لما وجد الرجلين عليها؛ أمر أن يُغرف له من مائها، وكأنه كان أراد أن يباشر الماء وهو في موضعه، لكن لما سبقه غيره إليها، جمعوا له من مائها، فغسل فيه يديه ووجهه، ثم أمر أن يعاد ذلك الماء فيها، فلما فعلوا ذلك جاءت العين بماء منهمر، وسُمع له حسٌّ كحسِّ الصواعق.

و (قوله: والعين مثل الشراك تبضُّ بشيءٍ من ماءٍ) الرواية المشهورة[١]: تَبِضُّ، بالضاد المعجمة، أي: تسيلُ بماء قليلٍ رقيقٍ مثل شراك النعل، وقد روي بالصاد المهملة، وكذلك وقع في البخاري، أي: تبرق. يقال: بصَّ يبص بصيصاً، وبص يبص وبيصاً بمعناه. وسبُّ النبيِّ ﷺ السابقَيْن للماء يحتملُ أن يكون: لأنهما كانا منافِقَين قصدا المخالفة، فصادف السبُّ محلَّه. ويحتمل أن كانا غير منافقين، ولم يعلما بنهي النبيِّ ﷺ، ويكون سبُّه لهما لم يصادفْ محلاً، فيكون ذلك لهما رحمةً وزكاةً، كما قاله ﷺ: «اللهم من لعنتُه، أو سببتُه وليس لذلك بأهلٍ، فاجعلْ ذلك له زكاةً، ورحمةً، وقربةً تقرِّبه بها إليك يوم القيامة»[٢].

و (المنهمر): الكثير الانصباب، و (يوشك): يجيء ويسرع. وقد تقدَّم الكلامُ عليها، و (الجنان): البستان من النخل وغيره، سمي بذلك لأنه يُجِنُّ أرضه وما تحته، أي: يستر ذلك.

---

(١) في (م ٢): الصحيحة.

(٢) رواه مسلم (٢٦٠١) (٨٩).

رسول الله ﷺ فيه يديه ووجْهَه، ثم أعاده فيه؛ فجَرَتِ العينُ بماءٍ مُنْهَمرٍ ـ أو قال: غزيرٍ ـ حتى استقى الناس. ثم قال: «يوشِكُ يا معاذُ إنْ طالتْ بِكَ حياةٌ أن ترى ما ها هنا قد مُلِىءَ جِناناً».

رواه أحمد (٥/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨)، ومسلم (٧٠٦) في الفضائل (١٠)، وأبو داود (١٢٠٦)، والترمذيُّ (٥٥٣)، والنسائيُّ (١/ ٢٨٥)، وابن ماجه (١٠٧٠).

[٢١٩٨] وعن أبي حميد قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك، فأتينا واديَ القرى على حديقةٍ لامرأةٍ؛ فقال رسول الله ﷺ: «اخرِصوها»، فخرصْناها، وخَرَصَها رسولُ الله ﷺ عشرة أَوْسُقٍ وقال:

وقد اشتمل هذا الحديث على معجزتين عظيمتين؛ إحداهما: نبع الماء المذكور. والثانية: تعريفه بكثير من علم الغيب؛ فإن تبوك من ذلك الوقت سُكِنَتْ لأجل ذلك الماء، وغُرست بساتين، كما قال النبيُّ ﷺ.

و (قوله ﷺ لأصحابه حين مرَّ على حديقة المرأة: «اخرِصُوها» دليل على جواز الخرص إذا احتيج إليه، وأنه طريق معتبر شرعاً. وخروج ثمرة هذه الحديقة على مقدار ما خرصه رسول الله ﷺ دليلٌ على صحة حدسه، وقوة إدراكه، وإصابته وجه الصواب فيما كان يُحاوله، ولا يُعارَضُ هذا بحديث إبار النخل؛ فإن الله تعالى قد أجرى عادةً ثابتةً متكررةً في إبار النخل لم يعلمها النبيُّ ﷺ، فقال: «ما أرى هذا يغني شيئاً» يعني الإبار، وصَدَق؛ فإن الله تعالى هو الذي يمسكُ الثمرةَ ويطيِّبها إذا شاء؛ لا الإبار، ولا غيره، بخلاف الوصول إلى المقادير بالخرص؛ فإن الغالب فيه من الممارسين له التقريب لا التحقيق. وقد أخبر النبيُّ ﷺ بمقدار ذلك على التحقيق، فَوُجِد كما أخبر، فإن كان هذا منه عن حدْس وتخمينٍ، كان دليلاً: على أنه قد خُصَّ من ذلك بشيءٍ لم يصلْ إليه غيره، وإن كان ذلك بالوحي، كان ذلك من شواهد نبوته ﷺ.

جواز الخَرْص

«أحْصِيها حتى نرجع إليكِ إن شاء الله» وانطلقنا حتى قدمنا تبوك، فقال رسول الله ﷺ: «ستهبُّ عليكم الليلةَ ريحٌ شديدةٌ. فلا يَقُمْ فيها أحدٌ منكم، فمن كان له بعيرٌ فليشدَّ عقالَه». فهبَّتْ ريحٌ شديدةٌ، فقام رجلٌ فحملَتْهُ الرِّيحُ حتى ألقَتْهُ بجبليْ طَيِّءٍ، وجاء رسول ابنِ العَلْماء صاحبِ أيْلَةَ إلى رسول الله ﷺ بكتابٍ، وأهدى لهُ بغْلةً بيضاءَ، فكتب إليه رسول الله ﷺ. ـ في رواية: ببحْرهم ـ. وأهدى له برداً، ثم أَقْبلنا حتى قدمنا واديَ القُرى،

من معجزاته ﷺ الغيبيَّة

و (قوله: «ستهبُّ عليكم ريحٌ شديدة») من المعجزات الغيبية، وهي من الكثرة بحيث لا تحصى، يحصل بمجموعها العلم القطعي بأن النبيَّ ﷺ كان يعلمُ كثيراً من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، أو مَنِ ارتضاه من الرسل فأطلعه الله عليه، والنبيُّ ﷺ قد أطلعه اللَّهُ عليه، فهو رسولٌ من أفضل الرسل.

التوكُّل لا يُناقض التحرُّز

و (قوله: «فلا يَقُمْ فيها أحدٌ، ومن كان له بعيرٌ فليشدَّ عقاله») دليلٌ على الأخذ بالحزم، والحذر في النفوس، والأموال، ومَنْ أهمل شيئاً من الأسباب المعتادة، زاعماً أنه متوكل، فقد غلط؛ فإن التوكل لا يناقض التحرُّز، بل: حقيقتُه لا تتمّ إلا لمن جمع بين الاجتهاد في العمل على سُنَّة الله، وبين التفويض إلى الله تعالى، كما فعل رسولُ الله ﷺ.

وابن العَلماء: هو بفتح العين المهملة وسكون اللام، والمدِّ، وهو تأنيث الأعلم، وهو المشقوق الشفة العليا، والأفلح: هو المشقوق الشفة السفلى. وصاحب أيلة: يعني به: ملكها. وأيلة: بلد معروف بالشام، وإليه تُنسب عَقَبة أيلة.

و (قوله: وأهدى له بغلةً بيضاء) هذه البغلة قبلها النبي ﷺ وبقيت عنده زماناً طويلاً، ولم تكن له بغلةٌ غيرها، وكانت تسمَّى: الدُّلْدُل، وفيه دليلٌ على قبول هدية الكتابيِّ، وقد تقدَّم القولُ فيه، وفي قوله: «هذا جبل يُحبُّنا ونحبُّه» وفي: «طابة».

و (قوله: فكتب له رسولُ الله ﷺ ببحرهم، وأهدى له برداً) البحر هنا: يُراد

فسألَ رسول الله ﷺ المرأةَ عن حديقتها: «كم بَلَغَ ثمرُها؟» فقالتْ: عشْرةَ أوْسُقٍ، فقال رسول الله ﷺ: «إني مسرعٌ، فمن شاء منكم فليسرع معيَ، ومن شاء فليمكثْ» فخرجنا حتى أشرفنا على المدينة، فقال: «هذه طابة، وهذا أُحُدٌ، وهو جبل يُحبُّنا ونحبُّهُ»، ثم قال: «إنَّ خير دور الأنصار دارُ بني النَّجارِ، ثمَّ دارُ بني عبد الأشهل، ....

به البلد، والبحار: القرى، وقد تقدم. وكأن النبيَّ ﷺ أقطعه بعضَ تلك البلاد، كما قد أقطع تميماً الداريَّ ـ رضي الله عنه ـ بلد الخليل ﷺ قبل فتحه. ويظهر من حال ابن العَلْمَاء أنه استشعر، أو عَلِمَ أنَّ النبيَّ ﷺ سيظهر، ويغلب على ما تحت يده هو من البلاد، فسأله أن يقطعه بعضها. والله أعلم. وأما إهداؤه البرد فمكافأة، ومواصلة، واستئلاف ليدخل في دين الإسلام، وكأن النبيَّ ﷺ لم يحضره في ذلك الوقت إلا ذلك البرد. والله أعلم.

جواز تفضيل بعض المعيَّنين على بعضٍ

و (قوله: «إن خير دور الأنصار: دار بني النجار، ثم دار بني عبد الأشهل... الحديث إلى آخره») يدلُّ على: جواز تفضيل بعض المعينين على بعض من غير الأنبياء، وإن سمع[1] ذلك المفضول، وقد تقدَّم القولُ في تفضيل الأنبياء. و (الدُّور) جمع دار، وهو في الأصل: المحلة والمنزل، وعبَّر به هنا عن القبائل، وهذا نحو قوله: أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور[2]، أي: في القبائل والمحلات. وفيه ما يدلُّ على جواز المدح إذا قُصِد به الإخبارُ بالحقِّ، ودَعَتْ إلى ذلك حاجة، وأُمِنَتِ الفتنةُ على الممدوح. وفيه دليلٌ على جواز المنافسة في الخير، والدين، والثواب، كما قال سعد: يا رسول الله ﷺ! خيَّرت دور الأنصار فجعلتنا آخراً. طلب أن يلحقهم بالطبقة الأولى. فأجابه بأن قال: «أو ليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار؟». وإنما يعني بذلك: أن تفضيلهم إنما هو

شروط جواز المدح

جواز المنافسة في الخير

---

(١) في (ج ٢): بلغ.
(٢) رواه أحمد (٦/ ٢٧٩)، وأبو داود (٤٥٥)، والترمذي (٥٩٤)، وابن ماجه (٧٥٩).

ثمَّ دار بني عبد الحارث بن الخزرج، ثمَّ دار بني ساعدة؛ وفي كل دور الأنصار خير». فلَحِقَنا سعدُ بنُ عبادةَ فقال أبو أُسَيْدٍ: ألم تر أنَّ رسول الله ﷺ خيَّر دورَ الأنصار فجعلنا آخراً، فأدرك سعدٌ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله! خيَّرت دور الأنصار فجعلتنا أخراً، فقال: «أو ليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار؟!».

رواه أحمد (٥/ ٤٢٤)، والبخاريّ (١٤٨١)، ومسلم (١٣٩٢) في الفضائل (١١ و ١٢)، وأبو داود (٣٠٧٩).

* * *

بحسب سبقهم إلى الإسلام، وظهور آثارهم فيه، وتلك الأمور وقعتْ في الوجود مرتبةً على حسب ما شاء الله تعالى في الأزل، وإذا كان كذلك لم يتقدَّمْ متأخِّرٌ منهم على منزلته، كما لا يتأخر متقدِّمٌ منهم عن مرتبَته؛ إذ تلك مراتبُ معلومةٌ على قِسَمٍ مقسومةٍ، وقد سبق لسعادتهم القضاء ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٧٤].

و (قوله: «ثم دار بني عبد الحارث») كذا وقع للعذريِّ، والفارسيِّ، وهو وهْمٌ. والصواب: بني الحارث، بإسقاط عبد. والله أعلم.

و (قوله: وجَعَلَنا آخراً) وقع في بعض النسخ آخر بغير تنوينٍ ولا أِلف. جعله غير منصرف، وليس بصحيح الرواية، ولا المعنى؛ إذ لا مانع من صرفه؛ لأن آخراً هنا: هو الذي يقابل: أولاً، وكلاهما مصروفٌ، وهو منصوبٌ على أنه المفعولُ الثاني لجعل؛ لأنه بمعنى: صيَّر، ويحتمل أن يُتأوَّل في معنى جعل: معنى أنزل، فيكون ظرفاً، أي: أنزلتنا منزلاً متأخراً. وعلى الوجهين فلا بد من صرفه، وكذا وجدناه من تقييد المحقِّقين.

و (قوله: «أو ليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار») ويروى: «من الأخيار» وكلاهما صحيح.

(٣) بـــاب

في عصمة الله تعالى لنبيِّه عليه الصلاة والسلام ممن أراد قتله

[٢١٩٩] عن جابرِ بنِ عبدِ الله قال: غزونَا مع رسول الله ﷺ غزوةً قِبَلَ نجدٍ، فأدْرَكَنا رسولُ الله ﷺ في وادٍ كثير العِضَاهِ، فنزل رسولُ الله ﷺ

---

(٣) ومن بـــاب: عصمة النبيِّ ﷺ ممَّن يريد قَتْلَه

(قوله: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قِبَل نجد) النجد: المرتفع من الأرض، والغور: المنخفِض منها، هذا أصلها، ثم قد صارا بحكم العرف اسمين لجهتين مخصوصتين معروفتين. وصحيح الرواية ومشهورها: (نجد) ووقع للعذري: (أحد).

شجاعته ﷺ

و (قوله: فأَدْرَكَنا رسولُ الله ﷺ في وادٍ كثير العضاه) هذا اللفظ ذِكْري فيه: (أدركنا) ـ بفتح الكاف ـ رسولُ الله ﷺ بالرفع على الفاعل ـ وعليه فيكونون قد تقدموه للوادي لمصلحة من مصالحهم ككونهم طليعة، أو صيانةً للنبيِّ ﷺ مما يُخْشَى عليه، وغير ذلك. ويحتمل أن يقيَّد: فأدركْنا رسولَ الله ـ بسكون الكاف ونصب رسولَ على المفعول، فيكون فيه ما يدلُّ على شجاعة رسول الله ﷺ، ويكون كنحو ما اتفق له لما وقع الفزعُ بالمدينة، فركب فرساً، فسبقهم، فاستبرأ الخبر، ثم رجع، فلقي أصحابَه خروجاً، فقال لهم: «لم تراعوا»[١]. والعضاه: كلُّ شجر من شجر البادية له شوك.

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٧١ و ١٨٠)، والبخاري (٢٦٢٧ و ٢٨٢٠)، ومسلم (٢٣٠٧) (٤٩)، وأبو داود (٤٩٨٨)، والترمذي (١٦٨٥).

تحتَ شجرةٍ، فعلَّق سيفَهُ بغصنٍ مِنْ أغصانِها؛ قال: وتفرَّق الناسُ في الوادي يستظلُّونَ بالشَّجرِ. قال: فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ رجلاً أتاني وأنا نائمٌ فأخذَ السَّيفَ، فاستيقظْتُ وهو قائمٌ على رأسي. فلم أشْعُرْ إلا والسَّيفُ صلْتٌ في يده. فقال لي: من يمنعك مِنِّي؟» قال: «قلتُ: الله! ثم قال في

و (قوله: فتفرَّق الناسُ في الوادي يستظلّون) فيه جوازُ افتراق العسكر في النزول إذا أمنوا على أنفسهم، وكأنهم قد أجهدهم التعب والحر، فقالوا[١] مستظلين بالشَّجر.

تركه ﷺ الحراسة توكلاً على الله

و (قوله ﷺ: «إنَّ رجلاً أتاني وأنا نائمٌ فأخذ السَّيف») هذا يدلُّ: على أنَّ النبيَّ ﷺ كان في هذا الوقت لا يحرسه أحدٌ من الناس، بخلاف ما كان عليه في أول أمره؛ فإنَّه كان يُحْرَسُ حتى أنزل اللَّهُ تعالى عليه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فقال لمن كان يحرسه [من الناس][٢]: «اذهبوا فإنَّ الله قد عصمني من الناس»[٣]. فمن ذلك الوقت لم يحرسْه أحدٌ منهم، ثقةً منه بوعد الله، وتوكُّلاً عليه. وفيه: جواز نوم المسافر إذا أمن على نفسه، وأمَّا مع الخوف؛ فالواجب: التحرز والحذر.

و (قوله: «فاستيقظتُ وهو قائمٌ على رأسي والسيفُ صَلْتٌ في يده») روي برفع (صلت) ونصبه. فمن رفعه جعله خبر المبتدأ؛ الذي هو السيف، و (في يده) متعلقٌ به. ومَنْ نصبه؛ جعل الخبر في المجرور، ونصبت صَلْتاً على الحال. أي: مُصْلَتاً. وهو المجرَّدُ مِنْ غمده. والمشهور بفتح الصاد[٤] من: (صلت). وذكر القتبيُّ: أنَّها تكسر في لغةٍ.

و (قول الرجل للنبيِّ ﷺ: من يمنعك منِّي؟!) استفهامٌ مُشْرَبٌ بالنفي؛ كأنَّه

---

(١) من القيلولة.
(٢) ما بين حاصرتين زيادة من (ج ٢).
(٣) رواه الترمذي (٣٠٤٦) وقال: غريب.
(٤) في (ع) و (ز) و (م ٢) و (م ٣): اللام، والمثبت من (ج ٢).

الثانية: من يمنعك مني؟» قال: «قلت: اللَّهُ! قال: «فَشَامَ السَّيفَ، فها هو ذا جالس». ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ.

رواه أحمد (٣/ ٣١١)، والبخاريُّ (٢٩١٠)، ومسلم (٨٤٣) في الفضائل (١٣).

* * *

قال: لا مانع لك منِّي! فلم يُبالِ النبيُّ ﷺ بقوله، ولا عرَّج عليه؛ ثقةً منه بوعد الله وتوكلاً عليه، وعلماً منه: بأنَّه ليس في الوجود فعلٌ إلا للَّهِ تعالى؛ فإنَّه أعلمُ النَّاس بالله تعالى وأشدُّهم له خشيةً. فأجابه بقوله: «الله! ثانيةً، وثالثةً ـ» فلما سمع الرَّجلُ ذلك، وشاهد تلك القوة التي فارق بها عادةَ النَّاس في مثل تلك الحال؛ تحقَّق صِدْقَهُ، وعلم: أنَّهُ لا يصل إليه بضررٍ.

من أعظم معجزاته ﷺ

وهذا من أعظم الخوارق للعادة، فإنَّه عدوٌّ متمكِّنٌ، بيده سيفٌ شاهرٌ، وموتٌ حاضرٌ، ولا حال تغيّرت، ولا روعة حصلت. هذا محالٌ في العادات، فوقوعُه من أبلغ الكرامات، ومع اقتران التحدِّي به يكون من أوضح المعجزات.

و (قوله: فشام السَّيفَ) أي: أغمده [هنا، وهو من الأضداد. يقال: شام السيفَ: جرَّده، وشامَهُ: أغمده][1].

و (قوله: «فها هو ذا جالسٌ») هكذا وجدتُه [بخط شيخنا أبي الصَّبر أيوب في نسخته ووجدته][2] في نسخة أخرى: فشام السيف، ها هو ذا هو جالسٌ بإسقاط الفاء، وزيادة هو، والأول أحسن؛ لأن الفاء رابطةٍ، و (هو) لا يحتاجُ إليها، فهي زائدة. ومعنى هذا الكلام أن النبيَّ ﷺ نبَّه على ذلك الرجل، وأخبر عنه، وأشار

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ج ٢).

(٢) ما بين حاصرتين سقط من (ج ٢).

(٤) بــاب

ذكر بعض كرامات رسول الله ﷺ في حال هجرته وفي غيرها

[٢٢٠٠] عن البراء بن عازبٍ، قال: جاء أبو بكر إلى أبي في منزله؛ فاشترى منه رحْلاً، فقال لعازبٍ: ابعثْ معي ابنك يحملْه معي إلى منزلي. فقال لي أبي: احمله؛ فحملتُه، وخرج أبي معه ينتقد ثمنه، فقال له أبي: يا أبا بكر! حدثني كيف صنعتم ليلة سَرَيْتَ مع رسول الله ﷺ؟ قال: نعم؛ أسرَيْنا ليلتنا كلَّها، حتى قام قائمُ الظهيرة؛ وخلا الطريق فلا يمرُّ فيه أحدٌ؛ حتى رُفعت لنا صخرةٌ طويلةٌ لها ظِلٌّ؛ لم تأت عليه الشمس بعدُ، فنزلنا عندها، فأتيت الصَّخرة، فسوَّيت بيدي مكاناً ينام فيه النبيُّ ﷺ في ظلّها؛

إليه؛ فكأنه قال: تنبَّهوا لهذا الرجل إذ مُنِـعَ ممَّا همَّ به، واستسلم لما يُفْعَلُ فيه، ثم تلافـاه النبيُّ ﷺ بعفوه وحِلْمه، وعاد عليه بعوائده الكريمة وصَفْحه، فلم يعرضْ له على ما كان منه.

(٤) ومن بــاب: ذكر بعض كرامات النبيِّ ﷺ

الرَّحْل للبعير: كالسرج للفرس، والإكاف للحمار. و (سرى) و (أسرى) لغتان، وقد جمع بينهما في هذا الحديث، وهو: سير الليل.

و (قوله: أسرينا ليلتنا كلها حتى قام قائم الظهيرة) أي: اتصل سيرهم من الليل إلى أن قاربوا نصف النهار. و (قائم الظهيرة): هو وهج حرِّها وشدَّته.

و (قوله: رفعت لنا صخرةٌ طويلةٌ) أي: رفعها السراب فرأوها.

ثم بسطت عليه فرْوةً، ثم قلت: يا رسول الله! نَمْ وأنا أنفض لك ما حولك؛ فنام وخرجت أنفض ما حوله، فإذا أنا براعي غنمٍ مقبلٍ بغنمه إلى الصخرة، يريد منها الذي أردنا، فلقيتُه، فقلتُ: لمن أنت يا غلام؟! فقال: لرجلٍ من أهل المدينة. قلت: أفي غنمك لبن؟ قال: نعم. قلت: أفتحلُب لي؟ قال: نعم. فأخذ شاة فقلتُ له: انفُضِ الضَّرع من الشَّعر والتراب

و (قوله: وأنا أنفض لك ما حولك) أي: أنظر وأبحث فيما حولنا هل فيه ما يُكره؟ يقال: إذا تكلَّمت بالليل فاخفض، وإذا تكلَّمت بالنهار فانفض. أي: التفت إلى ما حولك.

و (قوله للراعي: لمن أنت؟ فقال: لرجل من أهل المدينة) يعني بالمدينة هنا: مكة، لوجهين:

أحدهما: أنه إنما كانت هذه القصة في سفر هجرتهم؛ وإن هذا إنما كان في مبدأ سفرهم. ألا ترى قوله: أسرينا ليلتنا إلى أن قام قائم الظهيرة؟! فكأنهم إنما لقوا هذا الراعي بعد ليلة ونصف يوم من خروجهم من الغار. وذكرُ حديث سراقة في نفس هذا الحديث. يدل على أنه كان قريباً من مكة.

وثانيهما: أنه قد روي من طريق أخرى عن البراء أنه قال للراعي: لمن أنت؟ قال: لرجل من أهل مكة، وسماها مدينة؛ لأن كل بلد يسمى مدينة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ [النمل: ٤٨]. ولم يرد به دار الهجرة بالاتفاق، وإنَّما سمِّي البلدُ مدينةً، لأنَّ أهله[1] يدينون لمتوليه أن يطيعون. وقيل: من الدين، وهو الملك. و (الكثبة) من اللبن وغيره: القليل المجتمع منه. و (ارتوى) افتعل من (الريِّ) أي: أعدَّ فيها من الشراب ما يُرْوِي. و (القعب): وعاء من خشب. و (الإداوة) من جلد.

---

(١) في (ع): أهلها.

والقذى ـ قال: فرأيت البراء يضرب بيده على الأخرى ينفض ـ فحلب لي في قعبٍ معه كُثْبَةً من لبنٍ. قال: ومعي إدَاوَةٌ أرْتوي فيها للنَّبيِّ ﷺ ليشربَ منها ويتوضأ. قال: فأتيت النَّبيَّ ﷺ وكرهت أن أُوقِظَهُ من نومه؛ فوافقته استيْقَظ؛ فصببت على اللبن من الماء حتى بَرَدَ أسفلُه. فقلت: يا رسول الله! اشْرب من هذا اللبن. قال: فشرب حتى رضيْتُ؛ ثم قال:

و (قوله: وكرهت أن أوقظه) إنما كره ذلك؛ لأن نومه ذلك كان راحةً من تعبٍ؛ ولأنهم كانوا يتوقعون أنه يُوحى إليه في نومه؛ فإيقاظُه يخاف أن يكون قطعاً للوحي.

و (قوله: فصببتُ على اللَّبن من الماء حتى بَرَدَ أسفلُه) يعني: أنَّه صبَّ على إناء اللبن من الماء ليبرد اللبن؛ فإنَّه يخرجُ من الضَّرع حارّاً، وكان الوقت شديد الحرِّ. وعلى هذا فالمراد بأسفله: أسفل الإناء. ويحتمل أن يكون المرادُ به: أنَّه صبَّ الماءَ في اللبن ومزجه به. وخصَّ أسفل اللَّبن لأنه إذا برد أسفلُه برد أعلاه.

تعليلُ شربه ﷺ اللبن مع علمه بأنَّ الرَّاعي ليس بمالك

وشُرْبُ النبيِّ ﷺ من ذلك اللَّبَنِ مع علمه بأنَّ الرَّاعي ليس بمالكٍ ـ إذْ قد صرَّح الراعي بذلك ـ مشكلٌ؛ إذ الورعُ يقتضي التوقُّف، وقد اختلف فيه على أوجهٍ:

أحدُها: أنَّه علم عين المالك، وأنَّه كان ممن تطيبُ نفسُه بذلك، وقد دلَّ على ذلك: أن أحمد بن حنبل روى هذا الحديث في مسنده، فقال فيه: فقلت: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجلٍ من قريشٍ. فسمَّاه، فعرفتُه.

وثانيها: أنَّ ذلك محمولٌ على ما جرت به عوائد[1] العرب في إباحة ذلك القدر في مثل تلك الحال.

وثالثها: أنَّ من احتاج في سفره، ومرَّ على غنمٍ أو ثمرٍ ـ وقد جاع أو عطش ـ

---

(١) في (ز): عادة.

«ألم يأنِ للرحيل؟» قلت: بلى. قال: فارتحلنا بعد ما زالت الشمس، واتَّبَعَنا سُرَاقَةُ بن مالكٍ. قال: ونحن في جَلَدٍ من الأرض. فقلت: يا رسول الله! أُتينا! فقال: «لا تَحْزَن إنَّ اللَّه معنا» فدعا عليه رسول الله ﷺ فارْتطمتْ فرسُه إلى بطنها، ....

فله أن يسدَّ جوعته، ويروي عطشه منها؛ وإن لم يأذنِ المالك؛ وإن لم ينتهِ الحالُ إلى الضرورة. وإليه ذهب الحسنُ، والزُّهريُّ. والجمهور: على أنَّ ذلك إنَّما يجوز لمن اضطرَّ إلى ذلك.

ورابعها: أنَّ ذلك مال كافرٍ ليس له عهدٌ، فيحلُّ لمن ظفر به.

قلـتُ: وفي هذا بُعْدٌ؛ [لأنَّ تحليلَ الغنائم لم يكن شُرِعَ بعدُ][1] وأشبهها القول[2] الأول والثاني.

و (قوله: ألم يأن للرحيل) أي: قد حان وقته. و (الجَلَدُ من الأرض): الموضع الصُّلب الغليظ منها.

و (قول أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: [أُتينا) أي: وُصل إلينا، وأحيط بنا. ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾ [يونس: ٢٤]. وهذا من أبي بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ][3] التفاتٌ إلى الأسباب العاديَة، ومقتضى الجبلَّة البشرية.

و (قوله ﷺ: «لا تحزنْ إنَّ الله معنا») أي: بالحفظ والنصرة. وهذا منه ﷺ ثقةٌ بالوعد الصادق، وتفويضٌ إلى الواحد الخالق.

و (قوله: ارتطمت فرسُه إلى بطنها) أي: غاصت قوائمُها حتى وصل بطنُها إلى الأرض. يقال: ارتطم الرَّجل في الوحل: إذا ثبت فيه.

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ج ٢).
(٢) زيادة من (ع).
(٣) ما بين حاصرتين سقط من (ع) و (ز).

أُرى. فقال: إني علمتُ أنكما قد دعوتُما عليَّ، فادعوا لي، فاللَّهَ لكُما أن أردَّ عنكما الطَّلب؛ فدعا الله؛ فنَجَا؛ فرَجَعَ لا يَلْقَى أحداً إلاّ قال: قد كفيتكم ما ها هنا، فلا يلقى أحداً إلا ردَّه. قال: ووَفى لنا.

وفي روايةٍ: فلما دنا دعا عليه رسول الله ﷺ فساخ فرسُه في الأرض إلى بطنه؛ ووثب عنه، وقال: يا محمد! قد علمتُ أنَّ هذا عملُك؛ فادع الله أن يخلِّصني مما أنا فيه؛ ولك عليَّ لأُعَمِّينَّ على من ورائي، وهذه كِنانتي فخذ سهماً منها؛ فإنك ستمر على إبلي وغِلماني بمكان كذا وكذا؛ فخذ منها حاجتك. قال: «لا حاجة لي في إبلك». قال: فقدمنا المدينة ليلاً، ....

و (قوله: أُرى) بضم الهمزة، أي: أظنُّ أنها وصل بطنها إلى الأرض.

و (قول سراقة: قد علمتُ أنكما دعوتما عليَّ، فادعُوَا لي) يدل: على ما كان في نفوسهم من تعظيمهم للنبيِّ ﷺ ولأصحابه؛ وإن كانوا مخالفين لهم.

و (قوله: فاللَّهَ لكما أن أردَّ عنكما الطلب) الروايةُ الصحيحةُ: نصب (الله) ولا يجوز غير ذلك؛ لأنه قَسَمٌ حُذِفَ حرفُ جره، فتعدَّى الفعل المَنْويُّ فَنَصَب؛ فكأنه قال: فأقسمُ باللَّهِ لكما عليَّ أن أُعمِّيَ خبركما، وأردّ عنكما من يطلبكما.

إكرام الله له ﷺ بإجابة دعواته

و (قوله: فدعا اللَّهَ فنجا) هذه من بعض دعوات النبيِّ ﷺ المعجَّلة الإجابة، وهي من الكثرة بحيث تفوق الحصر، ويحصل بمجموعها القطع؛ بأن الله تعالى قد أكرم محمداً ﷺ بإجابة دعواته، وأسعفه في كثير من طلباته، وكلُّ ذلك يدل: على مكانته، وصِدْق رسالته.

دخوله ﷺ المدينة مهاجراً يوم الإثنين

و (قوله: فقَدِمنا المدينة ليلاً) يعني: أنهم وصلوا إليها ليلاً؛ إلا أنهم أقاموا خارجاً منها، ثم دخلوها نهاراً، وهذا مُبيَّنٌ في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

فتنازعوا أيُّهم ينزل عليه، فقال: «أنْزِلُ على بني النَّجار أخوالِ عبدِ المطَّلب؛ أُكْرِمُهُم بذلك» فصعد الرِّجال والنِّساء فوق البيوت؛ وتفرق الغِلمان والخدَمُ في الطُّرُق؛ ينادون: يا محمدُ! يا رسول اللَّهِ! يا محمدُ! يا رسول اللَّهِ!.

رواه أحمد (١/ ٢ ـ ٣)، والبخاريُّ (٢٤٣٩)، ومسلم (٢٠٠٩).

وقد أطبق أهلُ السِّير على: أنه دخل المدينة يوم الإثنين، [وأكثرهم يقول][١]: لثنتي عشرة ليلةً خلت من ربيع الأول ضحى ذلك اليوم، وقيل: عند استواء الشمس منه.

نزوله ﷺ على أخواله بالمدينة

و (قوله: «أنْزِلُ على أخوال عبد المطلب») إنما كانت الأنصارُ أخوالَ عبد المطلب؛ لأن أباه هاشماً تزوَّج سلمى بنة زيدِ بن خداشٍ من بني النجار، فولدت له عبد المطلب، فبنو النجار أخوال جدِّ النبيِّ ﷺ فلذلك أكرمهم الله تعالى بنزول نبيِّه عليهم. وقد صحَّ في كتب السِّيَر وغيرها أن النبيَّ ﷺ نزل في قُباء، فأقام فيهم أياماً، وأسَّس مسجدها، ثم خرج منها راكباً ناقته متوجهاً حيث أمره اللَّهُ تعالى، فأدركته الجمعة في بني سالم، فصلاَّها في بطن الوادي، ثم إنه توجَّه إلى دخول المدينة، فتعرضت له ساداتُ قبائلها؛ كلُّهم يعرضُ عليه النزول، ويأخذ بخِطام ناقته وهو يقول: «دعوها، فإنها مأمورة»[٢] فلم تزل ناقته كذلك حتى وصلت إلى دار أبي أيوب فبركت عنده، فنزل النبيُّ ﷺ على أبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ وهذا هو الذي عبّر عنه في هذا الحديث بقوله: فتنازعوا أيهم ينزل عليه، أي: تجاذبوا ذلك، وحرصوا عليه.

استقباله ﷺ بالمدينة

و (قوله: فصعِدَ الرجالُ والنساء فوق البيوت، والغلمان والخدم في الطرق)

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ع).
(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٤٩٥).

[٢٢٠١] وعن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصَّامت قال: خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحيِّ من الأنصار قبل أن يهلكوا؛ وكان أولُ

هذا عطفٌ على المعنى نحو قوله:

يــا لَيْــتَ زَوْجَــكِ قَــدْ غَــدا مُتَقَلِّــداً سَيْفــاً وَرُمْحــا

و:

عَلَفْتُهــا تبنــاً ومــاءً بــارداً[1] ....

لأن الطرق لا يصعد فيها؛ فكأنه قال: وتفرَّق الغلمان والخدم في الطرق، والكل ينادون: يا محمد! يا رسول الله! كلُّ ذلك فرحٌ وسرورٌ بقدوم رسول الله ﷺ

حديث أبي اليَسَر، واسمه: كعب بن عمرو بن عزيبٍ من بني سلمة. شهد العقبة وبدراً، فهو عقبيٌّ، بدريٌّ، وهو الذي أسر العباس بن عبد المطلب يوم بدرٍ، وكان رجلاً قصيراً، والعباس طويل ضخمٌ، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد أعانك عليه مَلَكٌ»[2] وهو الذي انتزع راية المشركين من يد أبي عزيز يوم بدرٍ. شهد صفين مع عليٍّ ـ رضي الله عنهما ـ يُعَدُّ في أهل المدينة، وبها توفِّي سنة خمس وخمسين.

حرص الأنصار على طلب علم الحديث

و (قول عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت: خرجت أنا وأبي نطلبُ العلمَ في هذا الحي من الأنصار، قبل أن يهلكوا) دليلٌ على ما كان عليه أهلُ ذلك الصدر من حرصهم على طلب علم[3] الحديث، والرحلة إلى أهله، والاجتهاد في

---

(١) هذا صدر البيت، وعجزه:

حتى شَتَتْ همالةً عيناها

(٢) رواه أحمد (١/ ٣٥٣).

(٣) في (ز) و (م ٣): حمل.

من لقينا أبا اليَسَر صاحبَ رسول الله ﷺ؛ ومعه غلامٌ له؛ معه ضِمَامةٌ من صُحُفٍ؛ وعلى أبي اليَسَرِ بردةٌ ومَعَافِرِيٌّ؛ وعلى غلامه بردة ومعافري. فقال له أبي: يا عمِّ! إني أرى في وجهك سُفْعَةً من غضبٍ. قال: أجَلْ! كان لي على فلانِ بنِ فلانِ الحراميِّ مالٌ؛ فأتيتُ أهلَه فسلّمتُ، فقلت: ثَمَّ هو؟ قالوا: لا، فخرج عليَّ ابنٌ له جَفْرٌ، فقلت له: أين أبوك؟ قال: سمع صوتك فدخل أريكةَ أمِّي. فقلت: اخرج إليَّ؛ فقد علمت أين أنت؛ فخرج، فقلت: ما حملك على أن اختبأت منِّي؟ قال: أنا! والله أحدِّثك ثم

تحصيله، كلٌّ ذلك منهم سعيٌ في تحقيق الدِّين، وإظهاره، ونقله، وإبلاغه، جدَّد اللَّهُ عليهم الرحمةَ، فلقد سلكوا طريقاً أفضتْ بهم إلى الجنة.

غريب هذا الحديث:

الحي: القبيل. وضِمامةٌ من صُحُفٍ: هو بكسر الضاد بغير ألف، كذا وقع في كتاب مسلم، وصوابه: إضمامةٌ، وهي الإضبارة أيضاً. وجمعهاأضاميم، وكل شيء ضممتَ بعضَه إلى بعض فهو إضمامةٌ. والصحف: جمع صحيفة، وهي الورقة من الكتب، وكل ما انبسط فهو صحيفة. ومنه: صحفة الطعام. والبُرْد: الشملة المخططة، وجمعها: بُرُد وبرود. ومَعافِريٌّ: بفتح الميم، ثوب منسوب إلى معافر، وهي محلة بالفسطاط. [قاله أبو الفرج. وقيل: هو رجل كان يعملها][١]. والسُّفعة: تغيُّر اللون بسواد مُشربٍ بحمرة. قاله الخليل. والجفر من الغلمان: الذي قوي منهم في نفسه، وقوي في أكله. يقال منه: استجفر الصبيُّ: إذا صار كذلك، وأصله في أولاد الغنم، فإذا أتى عليه أربعةُ أشهر، وفُصِل عن أمه، وأَخَذ في الرعي؛ قيل عليه جفر، والأنثى جفرة. والأريكة: واحدة الأرائك، وهي: السرير الذي عليه كِلَّةٌ، وهي: الحَجَلَة.

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ع).

لا أَكْذُبُك! خشيتُ والله أن أحدِّثك فَأكْذِبَكَ؛ وأنْ أعدَك فأُخْلِفَك؛ وكنتُ صاحبَ رسول الله ﷺ؛ وكنتُ والله معسراً. قال: قلتُ: آلله! قال: الله. قلت: آلله. قال: الله. قلت: آلله. قال: الله. قال: فأتى بصحيفته فمحاها بيده. فقال: إن وجدتَ قَضاءً فاقْضِنِي؛ وإلا، فأنت في حلٍّ، فأشْهَدُ بَصَرُ عينيَّ هاتين ـ ووضع إصْبَعَيْهِ على عَيْنيه ـ وسَمْعُ أُذُنيَّ هاتين، ....

تحريم مطالبة المعسر

و (قول المدين: خشيت والله أن أحدثك فأكذبك، وأعدك فأخلفك، وكنتَ صاحب رسول الله ﷺ) كان هذا الغريم صادقاً في حاله؛ مُتَّقياً على دِيْنه؛ محترِماً لأصحاب رسول الله ﷺ، فلما علم منه ربُّ الدَّيْن ذلك كله محا عنه صحيفته، وأنْظَرَه إلى الميسرة، كما قال تعالى(١). وفيه ما يدلُّ على أن ربَّ الدَّين إذا علِم بعُسْرة غريمه، أو ظنَّها حرمتْ عليه مطالبته، وإن لم تثبتْ عسرتُه عند الحاكم.

و (قوله: آلله؟ قال: الله) هو ممدود لأنها همزة الاستفهام دخلت على الهمزة المعوضة من باء القسم.

و (قوله: فأشهد بَصَرُ عينيَّ هاتين، وسَمْعُ أذنيَّ هاتين) هكذا رواية العذري بفتح الصاد، ورفع الراء على المصدر المضاف إلى ما بعده، وكذلك سَمْعُ أذنيَّ بتسكين الميم، ورواهما الطبري بَصُرَ ـ بضم الصاد، وفتح الراء ـ على الفعل الماضي، وعيناي مرفوع على الفاعل، وكذلك: سمع أذناي؛ غير أنه كسر الميم، وكذا عند أبي عليٍّ الغسانيِّ، ورواية الطبريِّ أوضح، وأقلّ كلفة؛ فإن رواية العذري يحتاج فيها إلى إضمار خبرٍ للمبتدأ الذي هو: بَصَرُ. تقديره: بصر عينيَّ حاصلٌ، أو متعلقٌ، ثم إنه بعد هذا يعطف على هذه الجملة الإسمية جملة فعليَّةً التي هي قوله: ووعاه قلبي، والأحسن في عطف الجمل مراعاة المجانسة في المعطوف، والمعطوف عليه، فرواية الطبريِّ أولى.

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾ [البقرة: ٢٨٠].

ووَعاهُ قلبي ـ وأشارَ إلى نياطِ قلبهِ ـ رسُولَ اللَّهِ ﷺ وهو يقول: «من أنْظَرَ مسلماً، أو وضَع عنهُ، أظلَّهُ الله في ظلِّه».

قال: فقلت له أنا: يا عمّ! لو أنك أخذت بُرْدة غلامِك وأعطيتَهُ معافِرِيّك، وأخذت معافريّه، وأعطيته بُرْدَتَك، فكانت عليكَ حُلَّةٌ وعليه حلَّةٌ، فمسح رأسي وقال: اللّهم بارك فيه؛ يابن أخي! بصرُ عينيَّ هاتين، وسمْعُ أُذُنيَّ هاتين، ووعاهُ قلبي هذا ـ وأشار إلى نياط قلبه ـ رسولَ الله ﷺ وهو يقول: «أطعموهُم ممَّا تأكلون، واكسوهم مما تلبَسُون». وكان أنْ أعطيتهُ من متاعِ الدُّنيا أهونَ عليَّ من أن يأخذَ من حسناتي يوم القيامة.

و (قوله: ووعاه قلبي رسولَ الله ﷺ) الضمير في وعاه قلبي عائد على [غير][1] مذكور قبله، فهو مما يفسره الحال والمشاهدة، وأبدل منه رسول الله ﷺ للبيان، فهو بدل الظاهر من المضمر. ونياطُ القلب: هو معلَّقه، ويروى: مناط، وهو موضع تعلقه. وإنظار المعسر: تأخيره إلى أن يوسر، والوضع عنه: إسقاط الدَّين عن ذمته، وقد جمع هو بينهما لهذا المعسر حيث محا عنه الصحيفة، وقال له: إن وجدت قضاءً فاقضِ، وإلا فأنت في حِلٍّ. وقد مضى تفسيرُ الحُلَّة؛ وأنها ثوبان من جنسٍ واحدٍ ليسا بلِفْقَيْن.

حسن معاملة الخدم

و (قوله: «أطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تَلْبَسون») ظاهر هذا: وجوبُ تشريك السيِّد عبدَه في نوع ما يأكله، ويلبَسه، وهو ليس بواجبٍ اتفاقاً، وقد بيَّنَّا ذلك فيما تقدم، لكن خاف أبو اليَسَر أن يكون تَرْكُ ذلك مُنَقِّصاً من حسناته، فسوَّى بينه وبين عبده في اللباس، وكذلك فعل أبو ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ كما تقدم. والاشتمال: الالتفاف بالشملة. وهذا الاشتمالُ الذي اشتمله جابر هو الذي أَذِنَ له فيه النبيُّ ﷺ كما تقدَّم في كتاب: الصلاة؛ وهو أن يضعَ وسط الشملة

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في (ع).

ثم مضينا حتى أتينا جابر بن عبد الله في مسجده، وهو يصلي في ثوبٍ واحدٍ مُشتملاً به، فتخطَّيْتُ القوم حتى جلست بينه وبين القبلة، فقلت: يرحمك الله! أتُصلِّي في ثوبٍ واحدٍ ورداؤُك إلى جنبك؟ قال: فقال بيده في صدري: هكذا، وفرَّق بين أصابعه وقوَّسها: أردتُ أن يدخل عليَّ الأحمقُ مثْلُكَ، فيراني كيف أصنع، فيصنعُ مثله، أتانا رسول الله ﷺ في مسجدنا هذا؛ وفي يده عرجونُ ابن طاب؛ فرأى في قبلة المسجد نُخامَةً فحكَّها بالعرجون؛ ثم أقبل علينا فقال: «أيُّكم يحب أن يعرض الله عنه؟» قال: فخشعنا، قال: «أيكم يحب أن يعرض الله عنه؟» قال: فخشعنا، ثم

على ظهره، ويُخْرِجَها من تحت ضَبْعَيْه، ويخالف بين طرفيها، ويعقدَها على قفاه. ووضعُه يده على صدره إنما كان ليوقظه من غفلته، ويستحضر فهمه.

و (قوله: إنما فعلته ليراني أحمقُ مثلك) إنما شافهه بهذا اللفظ الجافي مقابلةً له على ما صدر منه من الحركة الجافية، والسؤال الذي أورده مورد الإنكار، فلو تلطَّف في السؤال لما سمع هذا المقال. و (العرجون) واحد العراجين: وهي الشماريخ، وتسمى أيضاً: الكباسة. و (رطب ابن طاب): نوع من الرطب. وقد تقدم القول على البزاق في المسجد.

و (قوله: «أيكم يحبُّ أن يُعْرِضَ اللَّهُ عنه») أي: يعامله معاملة المعرض عنه فلا يثيبه إن قلنا: إن البزاق في المسجد مكروه، وإن تنزلنا: على أن البزاقَ في المسجد محرَّمٌ ـ كما تقدم ـ كان الإعراضُ كنايةً عن تعذيبه على ذلك، وترك رحمته إياه في وقت العذاب، والله تعالى أعلم.

و (قوله: فخشعنا) الرواية الصحيحة فيه بالخاء المعجمة. من الخشوع، وهو الخضوع والتذلل. يعني: أنه ظهرت عليهم أحوال المنكسرين الخائفين، ومن قيده بالجيم فقد أبعد؛ إذ ليس هذا موضعُ الجشع؛ لأنه عبارة عن أشد الحرص.

قال: «أيكم يحب أن يعرض الله عنه؟» قلنا: لا أيُّنا يا رسول الله! قال: «فإنَّ أحدكم إذا قام يصلي فإنَّ الله تبارك وتعالى قِبَلَ وجهه، فلا يبصقنّ قِبَل وجهه، ولا عن يمينه، وليبصق عن يساره تحت رجله اليسرى فإنْ عجلت به بادرةٌ فليقل بثوبه: هكذا». ثم طوى ثوبه بعضه على بعضٍ، فقال: «أروني عبيراً»، ثار الفتى من الحيِّ يشتدُّ إلى أهله فجاء بخَلُوقٍ في راحته؛ فأخذه رسول الله ﷺ، فجعله على رأس العُرْجُون، ثمَّ لطخَ به على أثر النُّخامة، فقال جابر: فَمِنْ هناك جعلتم الخلوق في مساجدكم.

وسرنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بطن بُواطٍ وهو يطلب المجْديَّ بن عَمْرو الجُهَني، وكان الناضح يعتقبه منَّا الخمسةُ، والستة، والسبعة، فَدَارت عقبةُ رجلٍ من الأنصار على ناضحٍ له، فأناخه، فركبه؛ ثم بعثه فتلدَّن عليه بعض التَّلدُّنِ، فقال له: شَأْ لعنك الله! فقال رسول الله ﷺ: «من

يقال منه: جَشِع الرجل ـ بكسر الشين ـ وتجشَّع: إذا اشتدَّ حرصه. و (الخَلوق والعَبير): ضروب من الطيب يُجمع بالزعفران. و (ثار الفتى) أي: وثب يجري. و (النخامة والنخاعة): ما يخرج من أقصى الفم. و (بواط): موضعٌ من ناحية رضوى. وكانت هذه الغزوة على رأس سنة من مقدمة المدينة، خرج فيها يطلبُ المجديَّ بن عمرٍو، ثم رجع إلى المدينة، ولم يَلْقَ حرباً. و (تلدَّن): تثبط وتلكأ، ولم ينبعث. و (شَأْ): صوت تزجر به الإبل، و (اللعن): الطرد والبعد. ولما دعا هذا الرجلُ على بعيره باللعنة أجيب، فأُبْعِدَ البعيرُ عنه، وحيل بينه وبينه، وهذا من باب العقوبة في المال لربِّه؛ لا من باب عقوبة ما لا يعقل، وفيه ما يدل: على أن الدعاء في حالة الضجر والغضب قد يُستجاب. و (عشيشية): تصغير عشية على غير قياس، و (يمدر الحوض): يُطيِّنه ويسدُّ خلله ليمسك الماء. و (نزعنا): استقينا. و (السَّجْل) الدلو. و (أفهقناه): ملأناه.

هذا اللاعن بعيره؟» قال: أنا يا رسول الله! قال: «انزل عنه؛ فلا يصحبْنَا ملعونٌ؛ لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعةً يسألُ فيها عطاءٌ فيستجيبُ لكم».

وسرنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كان عُشيْشِيَةٌ، ودنونا ماءً من مياه العرب؛ قال رسول الله ﷺ: «من رجلٌ يتقدّمنا، فيمدرُ الحوض، فيشربُ، ويسقينا؟» قال جابر: فَقُمْتُ فقلت: هذا رجل يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «أيُّ رجل مع جابر؟» فقام جبَّار بن صخر، فانطلقنا إلى البئر فنزعنا في الحوض سَجْلاً أو سجْلَين؛ ثم مدرناه، ثم نزعنا فيه حتى أَفْهَقْناهُ، فكان أول طالعٍ علينا رسولُ الله ﷺ فقال: «أتأذنان؟» قلنا: نعم يا رسول الله! فأشرع ناقته؛ فشربتْ، شَنَقَ لها، فَشَجَتْ، فبالت، ثم عدل بها فأناخها، ثم جاء رسول الله ﷺ إلى الحوض، فتوضأ منه، ثم قمتُ فتوضأتُ من متوضَّأ رسول الله ﷺ، فذهب جبَّار بن صخرٍ يقضي حاجته، فقام رسول الله ﷺ ليصلي، وكانت عليَّ بُرْدَةٌ فذهبت أخالف بين طرفيها، فلم تبلغ لي، وكانت لها ذَباذِبُ، فنكستُها، ثم خالفتُ بين طرفيها، ثم

من حاز شيئاً مـن المبـاح ملكه

و (قوله: «أتأذنان») [دليل على أن من حاز شيئاً من المباح ملكه، وأن الماء المحوز يُملك. وفيه][(١)]: دليلٌ على أنه لا يكتفى في إباحة ملك الغير بالسكوت. بل: لا بد من إذن المالك. و (شنق لها الزمام)، أي: قبضه إليه لتنقطعَ عن الشرب. و (شجَت) ـ مخففة الجيم ـ: قطعت الشرب. يقال: شججت المفازة، أي: قطعتها بالسير. و (الذباذب): الأطراف، سُمِّيت بذلك لتذبذبها، أي: تحركها، وكل شيءٍ معلَّقٍ فحركته: ذبذبته.

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ج ٢).

تواقَصْتُ عليها؛ ثم جئت حتى قُمْتُ عن يسار رسول الله ﷺ فأخذ بيدي فأدارني حتى أقامني عن يمينه؛ ثم جاء جبَّار بن صخر فتوضأ؛ ثم جاء فقام عن يسار رسول الله ﷺ؛ فأخذ بِيَدَينا جميعاً فدَفَعَنَا حتى أقامنا خلفه؛ فجعل رسول الله ﷺ يرمُقُني وأنا لا أشعر، ثم فَطِنْتُ به، فقال: هكذا؛ بيده؛ يعني: شُدَّ وسَطَكَ، فلما فرغ رسولُ الله ﷺ قال: «يا جابر!» قلتُ: لبيك يا رسول الله! قال: «إذا كان واسعاً فخالِفْ بين طرفيْه؛ وإذا كان ضيِّقاً فاشدُدْهُ على حَقْوِكَ».

سرنا مع رسول الله ﷺ؛ وكان قوتُ كلِّ رجلٍ منَّا في كل يوم تَمْرةً، فكان يَمَصُّها ثم يَصُرُّها في ثوبه، وكنا نختبطُ بِقِسِيِّنَا ونأكُلُ؛ حتى قَرِحَتْ أشداقُنا، فأقْسِمُ خطِئَها رجلٌ منَّا يوماً، فانطلقنا به نَنْعَشُهُ، فشهدنا له: أنه لم يُعطَها، فأعطيها، فقام فأخذها.

و (قوله: وتواقَصْتُ) أي: أمسكت عليها بعنقي لئلا تسقط، أي: حنى عليها بعنقه. وقد تقدَّم القولُ على مواقف المأموم مع الإمام، وهذا الحديث يدلُّ: على أن المشروعَ في حقِّ الإمام: إذا قام رجلٌ عن يمينه، ثم جاء آخر أنه يدفعهما خلفه؛ لا يتقدم ويتركهما؛ فإن النبيَّ ﷺ فعل ذلك بجابر وجبَّار ـ رضي الله عنهما ـ. و (الحقْو): معقد الإزار من الوسط، وقد سُمِّي الإزار حَقْواً، كما تقدم في قول أم عطية: فأعطانا حَقْوه، أي: إزاره. و (نختبط): نفتعل، من الخبط، وهو ضرب الورق بالعصا ليسقط. و (القرح): الجراح. و (تقرحت) انجرحت. و (الشدق): جانب الفم.

وهذا الحديث يدلُّ على قوَّة صبرهم، وعظيم جَلَدِهم، وعلى أن اللَّهَ تعالى خَرَق لهم العادةَ إكراماً لهم؛ لأن إمساكَ القوة على السفر، والسيرَ مع الاغتذاء بتمرة في كل يومٍ أمرٌ خارقٌ للعادة، وقد وضح ذلك في الرجل الذي أخطأته التمرة

من كرامات الصحابة

سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيح، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فاتَّبَعْتُهُ بإداوةٍ من ماءٍ، فنظر رسولُ الله ﷺ فلم يَرَ شيئاً يستتر به، فإذا شجرتان بشاطىء الوادي، فانطلق رسولُ الله ﷺ إلى إحداهُما، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «انقادي عليَّ بإذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش؛ الذي يصانع قائده؛ حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصنٍ مِنْ أغصانها. فقال: «انقادي عليَّ بإذن الله» فانقادتْ مَعَهُ كذلك؛ حتى إذا كان بالمَنْصَفِ مما بينهما لأم بينهما ـ يعني: جمعهما ـ فقال: «التئما عليَّ بإذن الله» فالْتأَمَتا.

قال جابرٌ: فخرجتُ أُحْضِرُ مخافة أن يُحِسَّ رسولُ الله ﷺ بقربي فيبتعدَ، فجلستُ أحدِّثُ نفسي؛ فحَانَتْ منِّي لَفتةٌ فإذا أنا برسول الله ﷺ مُقبلاً، وإذا الشجرتانِ قد افترقتا، فقامت كلُّ واحدةٍ منهما على ساقٍ؛ فرأيتُ رسولَ الله ﷺ وقفَ وقفةً؛ فقال برأسه: هكذا ـ وأشار ابن إسماعيل برأسه يميناً وشمالاً ـ ثمَّ أقبلَ، فلما انتهى إليَّ قال: «يا جابر! هل رأيت مقامي؟» قلت: نعم يا رسولَ اللَّهِ! قال: «فانطلقْ إلى الشجرتين فاقطعْ من كلِّ واحدةٍ منهما غُصْناً، فأَقْبِلْ بهما، حتى إذا قُمتَ مقامي فأرسلْ غُصْناً عن يمينكَ وغصناً عن يسارك».

فسقط، ثم إنه لما أعطيها قوي في الحال. والعادةُ قاضيةٌ بأن مَن سقطتْ قواه لا ترجع إليه إلا بعد معالجةٍ وترتيبٍ، واستدامة ذلك على تدريج. (ونَنْعَشُه): نرفعه وندعمه ليقوم، وكأنه سقط من الضعف. وقد فسَّر بعضُ الشارحين ننعشه بـ: نسعى في رفعه بالشهادة له في أنه ما أُعطي التمرة، وما ذكرناه أولى، لأنه قال بعد ذلك: فأُعطِيَها فقام، فيعني: أنه سقط من الضعف، فحاولوا رفعه فلم يقدروا حتى أكل التمرة، فقوي وقام. فتأمّله. و (الأفيح): الواسع المنبطح، و (شاطىء

قال جابر: فقمت، فأخذت حجراً فكسرته وحشرته، فانذلق لي؛ فأتيتُ الشجرتين، فقطعتُ من كلِّ واحدةٍ مِنْهُما غصناً؛ ثم أقبلتُ بهما أجرُّهما حتى قمت مقام رسول الله ﷺ؛ أرسلتُ غصناً عن يميني، وغصناً عن يساري؛ ثُمَّ لحقته فقلت: قد فعلتُ يا رسول الله! فعمَّ ذاك؟! قال: «إنِّي مررتُ بقبرينِ يُعذَّبان، فأحببت بشفاعتي أن يُرفَّه عنهما ما دام الغصنان رَطْبَيْن».

قال: فأتينا العَسْكَرَ. فقال رسولُ الله ﷺ: «يا جابرُ! ناد بوَضُوءٍ». فقلت: ألا وَضوءَ؟ ألا وَضوءَ؟ ألا وَضوءَ؟ قال: قلت: يا رسول الله! ما وجدتُ في الرَّكب من قطرةٍ، وكان رجلٌ من الأنصار يبرِّدُ لرسول الله ﷺ

الوادي): جانبه. و (المخشوش): هو الذي جُعل في أنفه الخِشاش ـ بكسر الخاء ـ: وهو عود، أو وتد ليذل. و (المَنْصَفْ): ملتقى النصفين. وحديث الشجرتين هذا يدلُّ: على أن الله تعالى مكَّن نبيَّهُ ﷺ من انخراق ما شاء من العادات، وأن الجمادات كانت سُخِّرت له، فيتصرَّف فيها كيف شاء، وهذا من أكمل الكرامات، وأعظم الدَّلالات، و (حشرته) ـ بالحاء المهملة ـ: رققته، وحدَّدته، وحكى الأخفش: سهم حشرٌ، وسهامٌ حُشْرٌ، أي: محدَّدَة.

تسخير الجمادات له ﷺ

و (قوله: فعمَّ ذاك؟ [وروي: فلم ذاك؟][1]) هو استفهام، وذاك إشارة إلى ما أمره رسولُ الله ﷺ به من غرس الغصنين. وفيه دليلٌ: على جواز السؤال عن العلل والحكم، وقد تقدَّم القولُ على القبرين المعذَّبين في كتاب: الطهارة. و (الأشجاب): جمع شجب، وهو ما خَلُقَ من الأسقية، وقَدُم، وهي أشدُّ تبريداً للماء من الجُدَد.

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (م ٣) و (ز).

الماء، في أشجابٍ له على حِمارَةٍ من جريدٍ. قال: فقال لي: «انطلق إلى فلانِ بنِ فلانٍ الأنصاريِّ، فانْظُرْ هل في أَشْجَابِه من شيءٍ؟» قال: فانطلقتُ إليه، فنظرتُ فيها فلم أجدْ فيها إلا قطرةً في عزلاء شجبٍ منها، لو أنِّي أُفرِغُه لَشَرِبَهُ يابسُه، فأتيتُ رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله! إني لم أجدْ فيها إلاّ قطرةً في عزلاءِ شجْبٍ منها، لو أنِّي أفرغه لشَرِبَهُ يابِسُهُ. قال: «اذهب فائتني به» فأتيته به؛ فأخذهُ بيدِهِ، فجعل يتكلمُ بشيءٍ لا أدري ما هو؛ ويغمزه بيديه، ثم أعطانيه. فقال: «يا جابر! نادِ بجَفْنَةٍ» فقلت: يا جَفْنَةَ الرَّكبِ! فأُتِيتُ بها تُحمَلُ؛ فوضعتُها بين يديه، فقال رسول الله ﷺ بيده في الجفنة: هكذا؛ فبسطها، وفرَّق بين أصابعه؛ ثُمَّ وضعها في قعرِ الجفْنَةِ، وقال: «خذ يا جابر! فصُبَّ عليَّ؛ وقل: باسم الله». فصببت عليه، وقلت: باسم الله؛ فرأيتُ الماءَ يفورُ من بين أصابعِ رسولِ الله ﷺ؛

و (قوله: على حِمارة من جريد) [صحيح الرواية فيه بكسر الحاء المهملة وتخفيف الميم، وهي جرائد][1] النخل، أو عيدان يُجمع أعلاها بالربط، ويفتح أسفلها، تُعَلَّق فيها الأسقية، وقد رواها بعضُ الرواة: جُمَّارة ـ بجيم مضمومة، وميم مشددة ـ، وفيه بُعْدٌ. و (العزلاء): مخرجُ الماء من الراوية أو القِربة.

و (قوله: لو أني أُفرِغُه لَشَرِبَهُ يابِسُه) أي: لِقلَّته، وأعاد الضميرَ مذكَّراً على معنى العزلاء، لا على لفظها، أراد به المخرج، أو الجلد. يعني: أن الماء كان قليلاً، فلو صبَّه لذهب، ويغمزه: يعضه. والغمز: العضّ والطعن. و (جفنة الركب): هي قصعة كبيرة يستصحبها أصحاب الإبل يأكلون فيها مجتمعين.

و (قوله: فرأيت الماء يفور من بين أصابعه) أي: فجَّر الله تعالى من أصول

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (م ٢).

ثُمَّ فارت الجفنةُ ودارتْ حتى امتلأت؛ فقال: «يا جابر! ناد من كان له حاجةٌ بماء». قال: فأتى الناس، فاستقوا حتى رَوُوا. قال: فقلتُ: هلْ بقي أحدٌ له حاجةٌ؟ فرفعَ رسولُ الله ﷺ يدَهُ من الجفْنَةِ وهي ملأى.

وشكا الناسُ إلى رسول الله ﷺ الجوع، فقال: «عسى الله أنْ يُطعِمَكُم». فأتينا سِيْفَ البحر؛ فزَخرَ البحرُ زخرةً، فألقى دابةً، فأَوْرَيْنا على شِقِّها النَّارَ؛ فاطَّبَخْنَا واشْتَوينا، وأكلنا حتى شَبِعْنَا. قال جابر: فدخلتُ أنا وفلانٌ وفلانٌ، حتَّى عدَّ خمسةً، في حجاجِ عينِها؛ ما يرانا أحدٌ؛ حتى خرجنا، فأخذنا ضِلَعاً من أضلاعه، فقوَّسناه، ثم دعونا بأعظم رجلٍ في الرَّكب، وأعظم جَمَلٍ في الرَّكب، وأعظم كِفْلٍ في الرَّكب، فدَخَلَ تَحْتَهُ ما يطأطىءُ رَأْسَهُ.

رواه مسلم (٣٠٠٦ ـ ٣٠١٤).

* * *

الأصابع الماء، كما يفجره من الحجر، وقد بيَّنَّا أن هذه المعجزةَ أبلغُ من معجزة موسى ـ عليه السلام ـ في نبع الماء من الحجر. و (سيف البحر): ساحله. و (زخر البحر): هاج وارتجَّ. و (أوْرَيْنا): أوقدنا. و (الشق): الجانب. و (حجاج العين) بكسر الحاء وفتحها: هو العظمُ الذي فيه المقلة، وعلى طرفه الأعلى، هو الحاجب. و (يطأطىء رأسه): يخفضه.

* * *

(٥) بـــاب

مَثَل ما بعث به النَّبيّ ﷺ من الهدىٰ والعلم

[٢٢٠٢] عن أبي موسى، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ مَثَل ما بعثني اللَّهُ به من الهدى والعلم كمثل غيثٍ أصاب أرضاً، فكانت منها طائفةٌ طيِّبَةٌ، قَبِلتِ الماء، فأنبتت الكلأ والعُشْبَ الكثير، وكان منها أجادِبُ؛ أمسكت

---

(٥) ومن بـــاب: مَثَلُ ما بُعِثَ به النَّبيُّ ﷺ

(الغيث): المطر. و (الطائفة من الأرض): القطعة منها، ومن الناس: الجماعة. و (الطيِّبة): المنبتة. و (قبلت): لم يختلف رواةُ مسلمٍ في هذا الحرف أنه بالباء بواحدة من القبول؛ أي: شربت الماء فانتفعت به، وقيَّده بعضُ رواة البخاري: قيَّلت ـ بياء مثناة من تحت ـ. وقال الأصيلي: إنه تصحيف، وقال غيرُه: ليس كذلك، ومعناه: جمعت، تقول العرب: تقيَّل الماءُ في الموضع المنخفض: إذا اجتمع فيه.

قلـــتُ: وهذا ليس بشيءٍ؛ لأنه قد ذَكَرَ بعد هذا الطائفةَ الممسكةَ الماء، الجامعةَ له، فعلى ما قاله تكون الطائفتان واحدةً، ويفسد معنى الخبر والتشبيه، وقيل: يكون معنى: قيَّلت: شربت. قال: والقَيْل: شرب نصف النهار، وقيَّلت الإبل: إذا شربت قائلةً.

قلـــتُ: وهذا أيضاً ليس بشيءٍ؛ لأن مقصودَ الحديث لا يخصُّ شربَ القائلة من غيرها. والأظهر: ما قاله الأصيلي. و (الكلأ): المرعى، وهو العشب. والرَّطب: يسمى: الخَلَىٰ. واليابس يسمى: الحشيش.

و (قوله: وكانت منها أجادب) لم أرو هذا إلا بالجيم، والدال المهملة،

. . . .

وهو الصحيح. قال الأصمعي: الأجادبُ من الأرض: ما لا ينبتُ الكلأ. ومعناه: أنها جردة بارزة لا يسترها شيء، وقد رواها بعضُهم أجاذب ـ بالذال المعجمة ـ. وقال بعضُهم: إنما هي أخاذات بالخاء والذال المعجمتين، جمع أخاذة، وهي الماسكة للماء، وقد قال بعضُهم: أحازة ـ بالحاء المهملة والزاي ـ وليس بشيء. وبعضهم قالها: أجارد بالجيم والراد، جمع أجرد، وهو الذي لا نبات فيه.

مثل ما جاء به النبيُّ ﷺ من العلم والدِّين

قلتُ: والصحيح الواضح: الأول روايةً ومعنىً ـ إن شاء الله ـ، ومقصودُ هذا الحديث: ضرب مثلٍ لما جاء به النبيُّ ﷺ من العلم والدِّين، ولمن جاءهم بذلك، فشبَّه ما جاء به بالمطر العام الذي يأتي الناسَ في حال إشرافهم على الهلاك يُحييهم، ويُغيثهم. ثم شبَّه السامعينَ له: بالأرض المختلفة؛ فمنهم: العالم العامل المعلِّم[1]، فهذا بمنزلة الأرض الطيِّبة شربت، فانتفعت في نفسها، وأنبتتْ، فنفعتْ غيرَها. ومنهم الجامعُ للعلم، الحافظُ له، المستغرقُ لزمانه في جمعه ووعيه؛ غير أنه لم يتفرغ للعمل بنوافله، ولا ليتفقه فيما جمعَ، لكنه أدَّاه[2] لغيره كما سمعَه، فهذا بمنزلة الأرض الصُّلبة التي يستقرُّ فيها الماءُ، فينتفعُ الناسُ بذلك الماء، فيشربون ويَسقُون، وهذا القسم: هو الذي قال فيه النبيُّ ﷺ: «نضَّر اللَّهُ امرأً سمعَ مني حديثاً، فبلَّغه غيرَه، فرُبَّ حاملِ فقهٍ إلى من هو أفقه منه، ورُبَّ حاملِ فقهٍ ليس بفَقيه»[3]. لا يُقال: فتشبيه هذا القسم بهذه الأرض التي أمسكتْ على غيرها، ولم تشربْ في نفسها يقتضي ألا تكون عملت بما لزمها من العلم ولا من الدِّين، ومن لم يقم بما وجبَ عليه من أمور الدِّين، فلا يُنسب للعلماء، ولا للمسلمين؛ لأنا نقول: القيامُ بالواجبات ليس خاصّاً بالعلماء. بل: يستوي فيها العلماء،

---

(١) في (م ٣) و (ز): المتعلم.
(٢) في أكثر النسخ: «ودَّاه» وما أثبتناه من (ز) و (م ٣).
(٣) رواه أحمد (١/ ٤٣٧)، والترمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجه (٢٣٢).

الماء؛ فنفع الله بها الناس؛ فشربوا منها، وسقَوا، ورعَوا، وأصاب طائفةً منها أخرى؛ إنما هي قِيعان، لا تُمْسك ماءً، ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فَقُه في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به، فَعَلِم وعلَّم؛ ومثل من لم يرفعْ بذلك رأساً، ولم يقبلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرسلتُ به».

رواه أحمد (٤/ ٣٩٩)، والبخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢) (١٥).

وغيرهم. ومن لم يقم بواجبات علمه كان من الطائفة الثالثة التي لم تشرب، ولم تُمسك؛ لأنَّه لما لم يعمل بما وجبَ عليـه لم ينتفعْ بعلمه؛ ولأنه عاصٍ فلا يصلُحُ للأخذ عنه.

و (قوله: «وأصابَ طائفةً أخرى») هذا مثل للطائفةِ الثالثة التي بلغها الشرعُ فلم تُؤمن، ولم تقبلْ، وشبَّهها بالقيعان. السَّبخة التي لا تقبلُ الماءَ في نفسها وتُفسده على غيرها، فلا يكون منها إنباتٌ، ولا يحصل بما حصل فيها نفعٌ. و (القيعان) جمع قاع، وهو ما انخفض من الأرض، وهو المستنقع أيضاً. وهذا يعمُّ ما يفسد فيه الماء، وما لا يفسدُ، لكنْ مقصودُ الحديث: ما يفسد فيه الماء.

و (قوله: «سَقَوا ورَعَوا») يقال: سقى وأسقى بمعنى واحدٍ. وقيل: سقيته: ناولته ما يشربُ، وأسقيته: جعلت له سقيا. ورعَوا: من الرعي، وقد رويته عن بعض المقيِّدين: زرعوا، من الزرع وكلاهما صحيح.

و (قوله: «فذلك مَثَلُ مَنْ فَقُه في دين اللَّهِ ونفعَه اللَّهُ بما بعثني الله به فعَلِمَ وعلَّم») هذا مثال الطائفة الأولى.

و (قوله: «ومثل مَنْ لم يقبلْ هُدى الله الذي أُرسلتُ به») مثال الطائفة الثالثة، وسكت عن الثانية إمَّا لأنها قد دخلت في الأولى بوجهٍ؛ لأنها قد حصل منها نفعٌ في الدين، وإمَّا لأنَّه أخبر بالأهم فالأهمِّ، وهما الطائفتان المتقابلتان: العليا، والسفلى. والله تعالى أعلم.

[٢٢٠٣] وعنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ مثلي ومثلَ ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه، فقال: يا قوم! إنِّي رأيت الجيش بعينيَّ؛ وإنِّي أنا النذير العُريانُ؛ فالنجاءَ! فأطاعه طائفة من قومه؛ فأدلجوا، فانطلقوا على مُهْلَتِهم؛ وكذَّبت طائفةٌ منهم؛ فأصبحوا مكانهم؛ فصبَّحهم الجيش؛ فأهلكَهُم واجْتَاحهُم؛ فذلك مَثَلُ من أطاعني واتَّبع ما جئتُ به؛ ومثلُ من عصاني وكذَّب ما جئتُ به من الحقِّ».

رواه البخاريُّ (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣) (١٦).

مثله ﷺ في إنذار قومه

و (قوله في الحديث الآخر «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجلٍ أتى قومه، فقال: يا قومِ! إنِّي رأيتُ الجيش بعينيَّ») هذا ضربُ مثلٍ لحالِهِ في الإنذار، ولأحوال السَّامعينَ لإنذاره؛ فإنَّه أنذرَهم بما علمه من عقاب الله، وبما يتخوَّف عليهم من فجأته، فمن صدَّقه نجا، ومن أعرضَ عنه هلكَ. وهذا بخلافِ التمثيل في الحديث الأوَّلِ؛ فإنَّ ذلك بالنسبة إلى تحصيل العلم والانتفاع به، وإلى الإعراض عنه، فهما مثلان مختلفان.

معنى النذير العُرْيان

و (قوله: «وإنِّي أنا النذيرُ العُرْيَانُ») هذا مثل؛ قيل: كان أصله: أنَّ رجلاً مُعيَّناً سلبَه العدو، فانفلتَ منهم، فأنذرَ قومَه عُرياناً. وقيل: كان الرَّجل من العربِ إذا رأى ما يُوجب إنذارَ قومه تجرَّدَ من ثيابه، وأشارَ إليهم ليعلمَهم بما دَهِمَهم، وهذا أشبه، وأليقُ بمقصود الحديث. و (النجاءَ): السرعة، وهو منصوبٌ على المصدر، وهو بالمد، وقيل: بالقصر. حكاه أبو زيدٍ[١]، ولو تكرر لفظه لوجبَ نصبه. و (أدلجوا): ساروا من أول الليل إدلاجاً، والاسم: الدَّلجُ، والدَّلَجةُ ـ بفتح الدال ـ والادِّلاج: الخروج من آخر الليل، والمصدر: الادِّلاج، والاسم: الدُّلجة

---

(١) هو سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري، من أئمة الأدب واللغة في البصرة، توفي سنة ٢١٥ هـ.

[٢٢٠٤] وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّما مَثَلي ومَثَلُ أُمَّتي كمثلِ رجُلٍ استوقد ناراً؛ فجعلت الدَّوابُّ والفراش يقعن فيه؛ فأنا آخذٌ بحُجَزِكم وأنتم تَقحَّمون فيه».

رواه البخاريُّ (٦٤٨٣)، ومسلم (٢٢٨٤) (١٧)، والترمذيُّ (٢٨٧٧).

[٢٢٠٥] وعن جابرٍ مثله، وقال: «وأنتم تفلَّتون من يدي».

رواه مسلم (٢٢٨٥) (١٩).

* * *

ـ بضم الدَّال ـ قال ابن قتيبة: ومن النَّاس من يُجيز الوجهين في كلٍّ واحدٍ منهما، كما يقال: بَرْهةً من الدَّهر، وبُرْهةً. و (اجتاحهم): أهلكهم، واستأصلَهم. يقال: جاحَتْهُم السَّنَةُ، تجوحُهم، جَوْحاً، وجِيَاحَةً. واجتاحتهم، تجتاحُهم، اجتياحةً.

و (قوله: «استوقدَ ناراً») أي: أوقدَها، والسِّين والتَّاء زائدتان. و (الجَنَادِبُ)[1]: جمع جُندَب ـ بفتح الدَّال وضمها ـ وهي: الجرادة. هذا هو المعروف من اللغة. وقال أبو حاتم: الجندب على خلقة الجرادة، له أربعة أجنحةٍ يُصَرِّرُ باللَّيل صرّاً شديداً. و (الفَرَاش) قال الفراء: هو غوغاء الجراد التي تنفرشُ وتتراكب. وقال غيره: هو الطيرُ الذي يتساقطُ في النار وفي السِّراج. قلت: وهذا أشبهُ بما في الحديث. و (الحُجَزُ) جمع حُجْزة، وهي مَعقد الإزار والسراويل. ويُقال: تحاجز القومُ؛ إذا أخذَ بعضُهم بحُجْزة بعض، وإذا أراد الرجل إمساك من يخاف سقوطَه أخذ بذلك الموضع منه. والتقحُّم: هو التهجُّم على الشيء من غير

(١) هذه اللفظة ليست في حديث أبي هريرة الذي أورده في التلخيص، وإنما هي في حديث جابر في صحيح مسلم برقم (٢٢٨٥) (١٩).

(٦) بـــاب
مثل النَّبيِّ ﷺ مع الأنبياء

[٢٢٠٦] عن جابرٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلُ الأنبياء كمثل رجلٍ بنى داراً فأتمَّها وأكملها إلا موضع لبنةٍ؛ فجعل الناس يدخلونها ويتعجَّبون منها، ويقولون: لولا موضعُ اللَّبنة!». قال رسول الله ﷺ: «فأنا موضعُ اللَّبنة؛ جئت فختمتُ الأنبياءَ».

رواه أحمد (٣/ ٣٦١)، والبخاريُّ (٣٥٣٤)، ومسلم (٢٢٨٧) (٢٣)، والترمذيُّ (٢٨٦٦).

[٢٢٠٧] ونحوه عن أبي هريرة، غير أنَّه قال: «فأنا اللَّبنة؛ وأنا خاتم النَّبيين».

رواه أحمد (٢/ ٣٩٨)، والبخاريُّ (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦) (٢٠ ـ ٢٢).

* * *

تروٍّ، ولا تبصُّرٍ، وهذا مثلٌ لاجتهاد نبينا ﷺ في نجاتنا، وحرصِه على تخليصنا من الهلكات التي بين أيدينا، ولجهلنا بقدر ذلك، وغلبة شهواتِنا علينا، وظفر عدوِّنا اللعين بنا؛ حتى صرنا أحقرَ من الفَرَاش والجَنادب، وأذلَّ من الطِّين اللاَّزب.

[(٦) ومن بـــاب: مثل النبيِّ ﷺ مع الأنبياء][(١)]

(قوله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجلٍ بنى داراً، فأتمَّها وأكملها؛ إلا موضع لَبِنَةٍ») اللبنة الطوبة التي يُبنى بها، وفيها لغتان:

---

(١) عنوان هذا الباب ليس في أصول المفهم، واستدركناه من التلخيص.

(٧) بــاب
إذا رحم الله أمةً قبض نبيَّها قبلها

[٢٢٠٨] عن أبي موسى، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله ـ تعالى ـ إذا أراد رحمةَ أمةٍ من عباده، قَبَضَ نبيَّها قبلها، فجعله لها فَرَطاً وسَلَفاً بين يديها، وإذا أراد هلكة أمةٍ عذَّبها ونبيُّها حيّ، فأهلكها وهو ينظر، فأقرَّ عينهُ بهَلَكَتِها حين كذَّبوهُ وعَصَوْا أمْرَهُ».

رواه مسلم (٢٢٨٨) (٢٤).

إحداهما: فتح اللام وكسر الباء، وتجمع: لَبِن، غير أنك تسقط الهاء من الجمع. كنَبِقة ونَبِق.

والثانية: كسر اللام وسكون الباء، وتجمع: لِبَن ـ بكسر اللام وفتح الباء، كسِدْرَةٍ وسِدَرٍ.

محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين

ومقصود هذا المثل: أن يُبيِّن به ﷺ أن الله تعالى ختم به النبيين والمرسلين، وتمَّم به ما سبق في علمه إظهاره من مكارم الأخلاق، وشرائع الرسل، فيه كَمُلَ النظام، وهو ختمُ الأنبياء، والرسل الكرام، صلى الله عليه وعلى آله أفضل صلاة، وسلَّم عليه أبلغ سلام.

(٧) ومن بــاب: إذا أراد الله رحمة أمةٍ قبض نبيَّها قبلها

إنما كان موتُ النبيِّ ﷺ قبل أمته رحمةً لأمته؛ لأن الموجبَ لبقائهم بعده إيمانهم به، واتباعهم لشريعته، ثم إنهم يصابون بموته، فتعظم أجورهم بذلك. إذ لا مصيبة أعظم مِن فقد الأنبياء، فلا أجر أعظم من أجر من أصيب بذلك، ثم يحصل لهم أجر التمسك بشريعته بعده، فتتضاعف الأجور، فتعظم الرحمة، ولهذا

[٢٢٠٩] وعن سهلٍ، قال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «أنا فَرَطُكُمْ على الحَوْض؛ من وَرَدَ شرِب؛ ومن شرب لم يظمأ أبداً. ولَيَرِدَنَّ عليَّ أقوامٌ أعرفهم ويعْرفوني؛ ثم يُحالُ بيني وبينهم».

رواه البخاريُّ (٧٠٥٠)، ومسلم (٢٢٩٠) (٢٦).

[٢٢١٠] ومن حديث أبي سعيد، فيقول: «إنهم منِّــي، فيقال: إنك لا تدري ما عملوا بعدك فأقول: سُحْقــاً، سُحْقاً لمن بدَّل بَعْدي».

رواه البخاري (٧٠٥١)، ومسلم (٢٢٩١).

* * *

قال ﷺ: «حياتي لكم رحمة، ومماتي لكم رحمة»[١]، وأما إذا أهلكها قبله فذلك لا يكون إلا لأنَّهم لم يؤمنوا به، وخالفوه، وعصوا أمره، فإذا استمروا على ذلك من عصيانهم، وتمرُّدهم أبغضهم نبيهم، فربما دعا عليهم فأجاب اللَّهُ دعوتَه فأهلكهم، فأقرَّ عينه فيهم، كما فعل بقوم نوحٍ وغيره من الأنبياء، وقد تقدَّم القولُ في الفَرَط؛ وأنه المتقدم.

قلـــتُ: وحديث أبي موسى: هو من الأربعة عشر حديثاً المنقطعة. الواقعة في كتاب مسلم؛ لأنه قال في أول سنده: حُدِّثتُ عن أبي أسامة، وممن روى عنه: إبراهيم بن سعيد الجوهري. قال: حدثنا أبو أسامة، ثم ذكر السندَ متصلاً إلى أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ.

* * *

---

(١) ذكره الزبيدي في الإتحاف (٩/ ١٧٦ و ١٧٧)، وابن حجر في المطالب العالية (٣٨٥٣)، وابن عدي في الكامل (٣/ ٩٤٥).

(٨) بـــاب
ما خص به النبي ﷺ من الحوض
المورود ومن أنه أعطي مفاتيح خزائن الأرض

[٢٢١١] عن عبدِ الله بن عمرو بنِ العاص قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «حوضي مسيرةُ شهرٍ؛ وزَواياهُ سواءٌ؛ وماؤُه أبيضُ من الوَرِقِ؛ وريحهُ

(٨ و ٩) ومن بـــاب: أحاديث حوض النبيِّ ﷺ وأوانيه(١)

قد تقدَّم القولُ على كثيرٍ من معاني أحاديث هذا الباب في كتاب الطهارة.

خصوصيته ﷺ بالكوثر

ومما يجب على كلِّ مكلَّفٍ أن يعلمه، ويصدِّقَ به: أن الله تعالى قد خصَّ نبيَّه محمداً ﷺ بالكوثر الذي هو الحوض المصرَّح باسمه، وصفته، وشرابه وآنيته في الأحاديث الكثيرة الصحيحة الشهيرة؛ التي يحصل بمجموعها العلم القطعي، واليقين التواتريُّ؛ إذ قد روى ذلك عن النبيِّ ﷺ من الصحابة نيِّفٌ على الثلاثين. في الصحيحين منهم نيِّفٌ على العشرين، وباقيهم في غيرهما، مما صحَّ نقلُه، واشتهرت روايته، ثم قد رواها عن الصحابة من التابعين أمثالُهم، ثم لم تزلْ تلك الأحاديث مع توالي الأعصار، وكثرة الرواة لها في جميع الأقطار، تتوفَّر هممُ الناقلين لها على روايتها وتخليدها في الأمهات، وتدوينها، إلى أن انتهى ذلك إلينا، وقامت به حجةُ الله علينا، فلزمنا الإيمانُ بذلك، والتصديق به، كما أجمع عليه السلف، وأهلُ السنَّة من الخَلَف، وقد أنكرته طائفةٌ من المبتدعة، وأحالوه عن ظاهره، وغلوا في تأويله من غير إحالةٍ عقليَّة، ولا عاديَّة، تلزم من إقراره على ظاهره، ولا منازعة سمعية، ولا نقلية تدعو إلى تأويله، فتأويله تحريفٌ صدر عن عقل سخيفٍ خَرَق به إجماع السلف، وفارق به مذهبَ أئمة الخلف. والحوضُ

---

(١) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان أيضاً ما أشكل في أحاديث باب: في عِظَم حوض النبي ﷺ وكبره. . .

أطيبُ من المِسْك؛ كيزانه كنجوم السَّماء، منْ شَرِبَ منه لم يظمأ بعده أبداً».

قال: وقالت أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ: قال رسولُ الله ﷺ: «إنِّي على الحوض حتى أنظُرَ من يَرِدُ عليَّ منكُم؛ وسيُؤخَذُ أُناسٌ دُوني؛ فأقولُ: يا ربِّ! مِنِّي ومن أمَّتي. فيُقالُ: أما شَعَرْتَ ما عَمِلوا بَعْدَكَ؟ والله! ما بَرِحوا بَعْدَكَ يرجِعُون على أعقابهم».

قال: فكان ابنُ أبي مُلَيكةَ يقول: اللهمَّ إنا نعوذ بك أَنْ نرجع على أعقابنا أو أن نُفتَنَ عن ديننا.

رواه البخاريُّ (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢ و ٢٢٩٣).

مجتمعُ الماء. يقال: استحوض الماء؛ إذا اجتمع. ويُجمع: أحواضاً وحياضاً.

و (قوله: «من شرب منه لم يظمأ أبداً») أي: لم يعطش آخرَ ما عليه[1].

الورود على الحوض بعد النجاة من النار

وظاهِرُ هذا وغيره من الأحاديث: أن الورودَ على هذا الحوض، والشرب منه؛ إنما يكون بعد النجاة مِن النار، وأهوال القيامة؛ لأن الوصول إلى ذلك المحل الشريف، والشرب منه، والوصول إلى موضع يكون فيه النبيُّ ﷺ ولا يمنع عنه، من أعظم الإكرام، وأجلّ الإنعام، ومن انتهى إلى مثل هذا كيف يُعاد إلى حسابٍ، أو يذوق بعد ذلك تنكيلَ خزيٍ وعذابٍ؟! فالقول بذلك أوهى من السراب.

صفات حوضه ﷺ

و (قوله ﷺ: «حوضي مسيرة شهرٍ زواياه سواء») أي: أركانه معتدلة. يعني:

---

(١) أي: لا يظمأ ما دام في الموقف للحساب. وقد ورد هذا التعبير في صحيح مسلم برقم (٢٣٠٠).

. . . .

أن ما بين الأركان متساوٍ، فهو معتدلُ التربيع، وقد اختلفت الألفاظُ الدَّالةُ على مقدار الحوض، كما هو مُبيَّن في الروايات المذكورة في الأصل. وقد ظنَّ بعضُ القاصرين: أن ذلك اضطراب، وليس كذلك، وإنما تحدَّث النبيُّ ﷺ بحديث الحوض مرات عديدة، وذكر فيها تلك الألفاظ المختلفة إشعاراً بأن ذلك تقديرٌ؛ لا تحقيق، وكلها تفيد: أنه كبيرٌ متسعٌ، مُتباعد الجوانب والزوايا، ولعلَّ سببَ ذكره للجهات المختلفة في تقدير الحوض: أن ذلك إنما كان بحسب مَن حضره ممن يعرف تلك الجهات، فيخاطبُ كلَّ قوم بالجهة التي يعرفونها، والله أعلم.

و (قوله: «ماؤه أبيض من الوَرِقِ») جاء أبيض ـ ها هنا ـ في هذا الحديث على الأصل المرفوض[١]، كما قد جاء في قولهم:

. . . . فـأنـتَ أبْيَضُهـم سِـرْبَـالَ طَبَّـاخ[٢]

وكما قد جاء قوله ﷺ: «توافون سبعين أمَّةً أنتم أخيرهم»[٣]. أي: خيرهم، وكما قد جاء عنه ﷺ: «لينتهينَّ أقوامٌ عن وَدْعهم الجمعات»[٤] وكل ذلك جاء مَنْبَهَةً على الأصل المرفوض والمستعمل الفصيح، كما جاء في الرواية الأخرى: «أشد بياضاً من الثلج»[٥]، ولا معنى لقول من قال مِن مُتعسِّفة النحاة: لا يجوزُ التلفظُ بهذه الأصول المرفوضة مع صحَّة هذه الروايات، وشهرة تلك الكلمات.

---

(١) أي: على وزن أفعل التي للتفضيل، وهنا في الألوان مرفوضة هذه الصيغة، ويقال: أشدّ بياضاً.

(٢) هذا عجز بيت لطرفة بن العبد، وصدره:

إذا الرِّجال شَتَوا واشتدَّ أكلهم

(٣) رواه الدارمي (٢/ ٣١٣).

(٤) رواه أحمد (١/ ٣٣٥)، ومسلم (٨٦٥)، والنسائي (٣/ ٨٨).

(٥) رواه مسلم رقم (٢٤٧) (٣٦).

[٢٢١٢] وعن عقبةَ بن عامرٍ: أنَّ رسول الله ﷺ خرج فصلَّى على أهل أُحُدٍ صلاته على الميِّت؛ ثم انصرف إلى المنبر، فقال: «إنِّي فرطٌ لكم؛ وأنا شهيدٌ عليكم؛ وإنِّي، والله لأَنْظُرُ إلى حوضي الآن! وإنِّي قد أُعْطيتُ مفاتيحَ خزائنِ الأرض ـ أو مفاتيح الأرض ـ وإنِّي والله ما أخافُ عليكم أنْ تشركوا بعدي! ولكنْ أخافُ عليكم أن تتنافسوا فيها».

زيارته ﷺ للقبور والدعاء للموتى

و (قول عقبة: إن رسول الله ﷺ خرج فصلى على أهل أُحُدٍ صلاته على الميت، أي: دعا لهم بدعاء الموتى؛ وكأنه ﷺ كان قد استقبل القبلة، ودعا لهم، واستغفر، وهذا كما فعل حيث أمره الله تعالى أن يستغفر لأهل البقيع، فقام عليهم ليلاً، واستغفر لهم ثم انصرف) كما تقدم في الجنائز.

إعطاؤه ﷺ مفاتيح خزائن الأرض

و (قوله: «أعطيت مفاتيح خزائن الأرض») أي: بُشِّر بفتح البلاد، وإظهار الدين، وإعلاء كلمة المسلمين، وتمليكه جميع ما كان في أيدي ملوكها من الصفراء، والبيضاء، والنفائس، والذخائر، فقد ملكه اللَّهُ ديارهم، ورقابهم، وأرضيهم، وأموالهم. كل ذلك وفاءٌ بمضمون: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

دوام الدين واتصال ظهوره إلى قيام الساعة

و (قوله: «إني والله لستُ أخشى عليكم أن تشركوا بعدي») يعني: أنه قد أمن على جملة أصحابه أن يُبدِّلوا دين الإسلام بدين الشرك. ولا يلزم من ذلك ألاَّ يقعَ ذلك من آحادٍ منهم؛ فإن الخبر ـ عن الجملة ـ لا يلزم صدقُه على كلِّ واحدٍ من آحادها دائماً. كيف لا؟! وهو الذي أخبر بأن منهم من يرتدّ بعد موته ﷺ كما جاء نصاً في غير ما موضع من أحاديث الحوض وغيرها، وقد ظهر في الوجود ردَّةُ كثيرٍ ممن صحب النبيَّ ﷺ وصلى معه، وجاهد، ثم كفر بعد موته. وقد تقدَّم قولُ ابن إسحاق وحكايتهُ: أنه لم يبق بعد موت النبيِّ ﷺ مسجد من مساجد المسلمين إلا كان في أهله ردَّةٌ، إلا ما كان من ثلاثة مساجد. وقتالُ أبي بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ لأهل الردة معلومٌ متواترٌ، وإذا كان كذلك فيتعيَّن حَمْلُ هذا الحديث على ما ذكرناه.

وفي روايةٍ: ثم صَعِدَ المنبرَ كالمودِّع للأحياءِ والأموات. فقال: «إني فرطُكُم على الحوضِ، وإنَّ عرضَه كما بين أيْلةَ إلى الجُحْفةِ، إنِّي لست أخشى عليكم أن تُشركوا بعدي، ولكنِّي أخشى عليكم الدُّنيا أنْ تتنافسوا فيها، وتقتتلوا، فَتهلِكُوا، كما هَلَكَ من كانَ قبلَكُمْ».

قال عقبة: فكانتْ آخر ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ على المنبر.

رواه أحمد (٤/ ١٤٩)، والبخاريُّ (١٣٤٤)، ومسلم (٢٢٩٦) (٣٠ و ٣١)، وأبو داود (٣٢٢٣)، والنسائيُّ (٤/ ٦١).

* * *

ويحتمل أن يكون هذا خبراً عن خصوص أصحابه الذين أعلمه اللَّهُ تعالى بمآل حالهم، وأنهم لا يزالون على هدي الإسلام وشرعه إلى أن يَلْقَوا اللَّهَ ورسوله على هديه، إذ قد شهد رسولُ الله ﷺ لكثير منهم بذلك، وشوهدت استقامة أحوالهم حتى توفاهم الله تعالى عليه، ويحتمل أن يحملَ هذا الخبرُ على جميع الأمة، فيكون معناه: الإخبار عن دوام الدين، واتصال ظهوره إلى قيام الساعة، وأنه لا ينقطعُ بغلبة الشرك على جميع أهله، ولا بارتدادهم، كما قد شهد بذلك الكتاب والسنّة وإجماع الأمة. والأول أظهر من الحديث. والله أعلم.

التنافس في الدنيا

و (قوله: «ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تتنافسوا فيها، وتقتتلوا فتهلِكُوا») هذا الذي توقعه النبيُّ ﷺ هو الذي وقع بعده، فعمَّت الفتن، وعظمت المحن، ولم ينجُ منها إلا من عُصم، ولا يزال الهرجُ إلى يوم القيامة، فنسأل اللَّهَ تعالى عاقبةَ خيرٍ وسلامةٍ. وجرباء: صحيح روايته بفتح الجيم وسكون الراء والمدّ، وقد وقعَ عند بعض رواة البخاريّ بالقصر وهو خطأ، وأَذْرُح: بفتح الهمزة، وذال معجمة ساكنة، وراء مضمومة، وحاء مهملة، وهو الصواب. ووقع في رواية العذريّ بالجيم، وهو خطأ، وقد فسَّرهما في الأصل: بأنهما قريتان من قرى الشام بينهما مسيرة ثلاثة أيامٍ، وقال ابن وضّاح في أَذْرُح: أنها فلسطين، وهذا يدل على صحة

(٩) بـــاب
في عظم حوض النبي ﷺ ومقداره وكبره وآنيته

[٢٢١٣] عَنْ حارثةَ: أنَّه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «حوضهُ ما بين صنعاءَ والمدينة».

فقال له المُسْتَوْرِدُ: أَلَمْ تسمعْهُ قال: الأواني؟ قال: لا. قال المستورد: «تُرَى فيه الآنيةُ مِثلَ الكواكبِ».

رواه البخاريُّ (٦٥٩٢)، ومسلم (٢٢٩٨).

[٢٢١٤] وعن ابنِ عمر: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ أمامَكُم حوضاً كما بين جَرْباء وأذْرُح، فيه أباريقُ كنجومِ السَّماء؛ من وَرَدَهُ فشربَ مِنْهُ، لم يظمأْ بعدَها أبداً».

قال عبيدُ الله: فسألته فقال: قريتين بالشام بينهما مسيرةُ ثلاث ليالٍ.

رواه أحمد (٢/ ٢١)، والبخاريُّ (٦٥٧٧)، ومسلم (٢٢٩٩) (٣٤ و ٣٥)، وأبو داود (٤٧٤٥).

[٢٢١٥] وعن أبي ذرٍّ، قال: قلتُ: يا رسول الله! ما آنية الحوض؟ قال: «والذي نفسُ محمدٍ بيده! لآنيَتُه أكثرُ من عددِ نجوم السماءِ وكواكِبِها؛

ما قلناه: إنه كان يُقدِّر الحوض لكل طائفة بما كانت تعرف من مسافاتِ مواضعِها، فيقول هذا لأهل الشام، ويقول لأهل اليمن: من صنعاء إلى عدن، وتارة أخرى يقدِّره بالزمان، فيقولُ مسيرة شهر. وعَمَّان: بفتح العين، وتشديد الميم، وهي قرية من عمل دمشق، وهي من البلقاء، وقد جاء في الترمذيِّ: من عدن إلى عمَّانَ البلقاء، وقيل فيها: عُمَان: بضم العين، وتخفيف الميم وليس بصحيح، وإنما التي هي كذلك: عُمَان التي باليمن؛ بلا خلاف فيها وهي مدينة كبيرة.

ألا في الليلة المظلمةِ المصْحِيةِ آنيةُ الجنّةِ من شرب منها لم يظْمَأْ آخِرَ ما عَلَيْه؛ يَشخُبُ فيه ميزابان من الجنَّة؛ مَنْ شَرِبَ منه لم يظمأْ؛ عرْضُه مثلُ طوله ـ ما بين عمَّان إلى أَيْلَةَ! ماؤُهُ أشدُّ بياضاً من اللَّبَن؛ وأحلى من العسل».

رواه مسلم (٢٣٠٠)، والترمذيُّ (٢٤٤٧).

[٢٢١٦] وعن ثوبان: أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «إنِّي لَبِعُقْرِ حَوْضِي أذودُ النَّاسَ لأهل اليمن؛..............................

و (قوله: «إني لَبِعُقْرِ حَوْضي») هو بضم العين، وسكون القاف، وهو مؤخَّره حيث تقف الإبل إذا وردته، وتُسكَّنُ قافه وتضم، فيقال: عُقْر وعُقُر، كعُسْر وعُسُر، قاله في الصحاح. قال غيره: عَقر الدار: أصلها ـ بفتح العين وقد تُضمُّ ـ.

استحقاق إكرامه ﷺ لأهل المدينة

و (قوله: «أذود الناس لأهل اليمن») يعني: السابقين من أهل اليمن الذين نصرَه الله بهم في حياته، وأظهرَ الدِّين بهم بعد وفاته، وقد تقدَّمَ أن المدينة من اليمن، وأنهم أحقُّ بهذا الإكرام من غيرهم، لما ثبت لهم من سابق النُّصْرة، والأثرة[1]، ولذلك قال للأنصار: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض»[2]. وأذودُ: أدفع؛ فكأنه يطرِّق لهم مبالغةً في إكرامهم حتى يكونوا أوَّلَ شاربٍ، كما يفعلُ بفقراء المهاجرين؛ إذ ينطلقُ بهم إلى الجنة، فيُدخلهمُ الجنَّةَ قبل الناس كلهم، كما قد ثبتَ في الأحاديث، ولا يُظنُّ: أن النبيَّ ﷺ يُلازم المقامَ عند الحوض دائماً، بل: يكونُ عند الحوض تارةً، وعند الميزان أخرى، وعند الصِّراط أخرى، كما قد صحَّ عنه: أن رجلاً قال: أين أجدُكَ يا رسولَ الله يوم القيامة؟ قال: «عند الحوض، فإن لم تجدني، فعند الميزان. فإن لم تجدني: فعند الصراط؛ فإني لا أخطىء هذه

انطلاقه ﷺ بفقراء المهاجرين إلى الجنة

أماكن تواجده ﷺ يوم القيامة

---

(١) «الأثرة»: المكرمة.

(٢) رواه البخاري (٣٧٩٤)، ومسلم (١٠٥٩).

أضربُ بعصايَ حتى يرفضَّ عليهم» فسُئِلَ عن عرضه؛ فقال: «من مقامي إلى عمَّان» وسُئِلَ عن شرابه؛ فقال: «أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل: يَشْخَبُ فيه ميزابان يمدَّانه من الجنَّةِ؛ أحدُهما من ذهبٍ، والآخرُ من وَرِقٍ».

رواه أحمد (٥/ ٢٨٠)، ومسلم (٢٣٠١)، والترمذيُّ (٢٤٤٤)، وابن ماجه (٤٣٠٣).

المواطنَ الثلاث»[(١)]. وكأنه ﷺ لا يفارق أصحابه، ولا أمته في تلك الشدائد سعياً في تخليصهم منها، وشفقة عليهم، ﷺ، ولا حال بيننا وبينه في تلك المواطن!.

و (قوله: «أضرب بعصاي حتى يرفضّ») بالمثناة من تحت، أي: يضرب من أراد من الناس الشربَ من الحوض قبل أهل اليمن، ويدفعهم عنه حتى يصل أهلُ اليمن، فيرفضُّ الحوض عليهم؛ أي: يسيل، يقال: ارفضَّ الدمع: إذا سال.

و (قوله: «يَشْخَبُ فيه ميزابان من الجنة») أي: يسيل، وهو بالشين والخاء المعجمتين، والشَّخب ـ بالفتح في الشين ـ المصدر، وهو السيلان، وبالضم: الاسم. يقال في المثل: شخب في الأرض وشخب في الإناء. وأصل ذلك في الحالب المفرِّط. وفي الرواية الأخرى: «يغت» بالغين المعجمة، وبالمثناة فوق: هي الرواية المشهورة، ومعناه: الصب المتوالي، المتتابع. وأصله: إتباع الشيء الشيء، يعني: أنه يصب دائماً متتابعاً صباً شديداً سريعاً، وقد رواه العذري: يعب ـ بالعين المهملة، وبالموحدة ـ، وكذا ذكره الحربيُّ، وفسره بالعب، وهو شربُ الماء جُرْعة بعد جُرْعة، وروراه ابنُ ماهان: [يثعب ـ بثاء مثلثة قبل العين المهملة ـ ومعناه: تتفجَّر وتسيل، ومنه: وجرحه][(٢)] يثعب دماً.

(١) رواه الترمذي (٢٤٣٣) وقال: حسن غريب.

(٢) ما بين حاصرتين سقط من (ج ٢).

[٢٢١٧] وعن أنسِ بن مالكٍ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «قدْرُ حوضي كما بين أيلةَ وصنعاء من اليمن؛ وإنَّ فيه من الأباريقِ كعددِ نجومِ السَّماء».

وفي روايةٍ: «تُرى فيه أباريقُ الذَّهبِ والفضَّةِ كَعَدَدِ نجوم السَّماء».

رواه أحمد (٣/٢٣٨)، ومسلم (٢٣٠٣) (٣٩ و ٤٣)، وابن ماجه (٤٣٠٥).

[٢٢١٨] وعن جابرِ بن سَمُرَة، عن رسول الله ﷺ قال: «ألا إنِّي فَرَطٌ لكمْ على الحوض؛ وإنْ بُعْدَ ما بين طَرفَيه كما بين صنعاءَ وأَيْلةَ».

رواه مسلم (٢٣٠٥).

* * *

و (قوله: «يَمُدَّانه من الجنة») فصيحه: يَمُدانه بفتح الياء، وضم الميم ثلاثياً من مَدَّ النهرُ، ومدَّه نهرٌ آخر. فأما الرباعي فقولهم: أمددت الجيش بمدد، وقد جاء الرباعي في الأول، ومعناه: الزيادة على الأول فيهما. واخْتُلِجُوا[1]: أُخْرِجُوا من بين الواردين. وأصيحابي: تصغير أصحاب على غير قياس. ولابتا الحوض: جانباه اللذان من خارجه حيث يكون شدة الحر والعطش، وأصل اللاَّبة: الحرَّة؛ وهي أرضٌ ألبستْ حجارة سوداً، ومنه: لابتا المدينة، كما تقدَّم. وسُحْقاً سُحْقاً: بُعْداً بُعْداً. والسحيق: المكان البعيد.

* * *

---

(١) من هنا وحتى نهاية الباب ليست في التلخيص، وإنما شرح لما أشكل من حديث مسلم برقم (٢٣٠٤) عن أنس.

(١٠) بـاب
شجاعة النَّبيِّ ﷺ وإمداده بالملائكة

[٢٢١٩] عن أنس بن مالكٍ، قال: كان رسول الله ﷺ أحسنَ النَّاس؛ وكان أجودَ النَّاس؛ وكان أشجع النَّاس؛ ولقد فَزِعَ أهلُ المدينة ذات ليلةٍ، فانطلق ناسٌ قِبَل الصَّوتِ؛ فتَلَقَّاهُمْ رسولُ الله ﷺ راجعاً؛ وقد سَبَقَهمْ إلى الصَّوت؛ وهو على فرسٍ لأبي طلحة عُرْيٍ ـ في عُنُقِهِ السيفُ وهو يقولُ: «لَمْ تُراعُوا! لم تُراعُوا!». قال: «وجدناه بحراً ـ أو ـ إنَّه لَبَحرٌ». وكان فرساً يُبَطَّأ.

(١٠ و ١١ و ١٢) ومـن بـاب: شجاعة النبيِّ ﷺ وجوده وحُسْن خُلُقه[١]

(قوله: فزع أهل المدينة) أي: ذعروا من عدوٍّ دهمهم، وقد قدمنا أن الفزعَ يقال على أوجهٍ متعددةٍ، و (لم تراعوا)، أي: لم يصبكم روعٌ، أو لا روع عليكم.

و (قوله: وجدناه بحراً) يعني: الفرس. أي: وجدناه يجري كثيراً جرياً متتابعاً كالبحر. وقد تقدَّم: أنَّ أصل البحر: السَّعةُ، والكثرةُ. ويقال: فرَسٌ سحبٌ، وبحرٌ، وسكْبٌ، وفيضٌ، وغمرٌ: إذا كان سريعاً، كثير الجري، شديد العَدْوِ.

و (قوله: وكان فرساً يُبَطَّأ). أي: يُنسب البطءُ إليه، ويعرف به، فلما ركبه رسولُ الله ﷺ أدركته بركتُه، فسابق الجياد، وصار نعم العتاد[٢] والرواية

---

(١) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان ما أشكل أيضاً في باب: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وباب: ما سُئل رسول الله ﷺ شيئاً وقال لا.

(٢) يقال: فرس عتد: شديدٌ، تامُّ الخَلْق، سريع الوثبة، معدٌّ للجري.

قال في روايةٍ: فاستعار النَّبيُّ ﷺ فرساً لأبي طلحة يُقال له: مندوب؛ فرَكِبَهُ فقال: «ما رأينا من فزَعٍ؛ وإنْ وجدناهُ لَبَحْراً».

رواه أحمد (٣/ ١٧١)، والبخاريُّ (٢٦٢٧)، ومسلم (٢٣٠٧) (٤٨ و ٤٩)، وأبو داود (٤٩٨٨)، والترمذيُّ (١٦٨٥).

[٢٢٢٠] وعن سعد بن أبي وقاص، قال: رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شِماله يومَ أحدٍ رجلين عليهما ثيابُ بَياضٍ ما رأيتُهُما

المشهورة: يبطأ بالمثناة تحت والموحدة، من البطء: ضد السرعة، وعند الطبري: ثبطاً، أي: ثقيلاً. وهو بمعنى الأول. والفرس العُري الذي لا سرج عليه، يقال: فرس عري وخيل أعراء. ويقال: رجل عُريان، ورجال عَرايا، وفي هذا الحديث ما يدلُّ على أن النبيَّ ﷺ كان قد جُمع له من جودة ركوب الخيل، والشجاعة، والشهامة، والانتهاض الغائيّ في الحروب، والفروسية وأهوالها، ما لم يكن عند أحدٍ من الناس، ولذلك قال أصحابه عنه: إنه كان أشجعَ الناس، وأجرأ الناس في حال البأس، ولذلك قالوا: إن الشجاع منهم كان الذي يلوذُ بجنابه إذا التحمت الحروب، وناهيك به؛ فإنه ما ولَّى قطُّ منهزماً، ولا تَحَدَّث أحد عنه قطُّ بفِرارٍ.

(إتقانه ﷺ لأمور الحرب) (شجاعته ﷺ)

ومندوب: اسمُ علم لذلك الفرس. وقيل: إنه سُمِّي بذلك لأنه كان يَسْبِق، فيجوز الندب، وهو: الخَطَر[١] الذي يُجعل للسابق، وكأنه إنما حدث له هذا الاسم بعد أن ركبه رسولُ الله ﷺ. وقد ذكر أنه كان لرسول الله فرس يسمى مندوباً، ويحتمل أن يكون هذا الفرس انتقل من مِلْك أبي طلحة إلى ملك النبيِّ ﷺ إما بالهبة، وإما بالابتياع، ويحتمل أن يكون فرساً آخر وافقه في ذلك الاسم. والله أعلم.

(من خيله ﷺ)

و (قول سعد: رأيتُ عن يمين رسول الله ﷺ وعن شمالِه رجلين يوم أحد عليهما ثيابُ بياض، يقاتلان عليه كأشدّ القتال). قال، يعني: جبريل وميكائيل

---

(١) «الخَطَر»: الرِّهان.

قبلُ ولا بعدُ. يعني: جبريل وميكائيل عليهما السلام.

وفي روايةٍ: يقاتلان عنه كأشد القتال؛ ما رأيتهما قبل ولا بعد.

رواه أحمد (١/ ١٧١)، والبخاريُّ (٤٠٥٤)، ومسلم (٢٣٠٦) (٤٦ و ٤٧).

* * *

(١١) بـــاب
كان رسول الله ﷺ أجود الناس
وأحسن الناس خلقاً

[٢٢٢١] عن ابن عباسٍ قال: كان رسول الله ﷺ أجْودَ الناس

ـ صلّى الله عليهما وسلم ـ. رؤية سعدٍ ـ رضي الله عنه ـ لهذين الملكين في ذلك اليوم: كرامةٌ من الله تعالى خصَّه بها، كما قد خصَّ عمران بن حصين بتسليم الملائكة عليه، وأسيد بن حضير برؤية الملائكة الذين تنزلوا لقراءة القرآن، وقتال الملائكة للكفار يوم بدرٍ، ويوم أُحُدٍ لم يخرجْ عن عادة القتال المعتاد بين الناس، ولو أذن اللَّهُ تعالى لملك من أولئك الملائكة بأن يصيحَ صيحة واحدة في عسكر العدوّ لهلكوا في لحظةٍ واحدة، أو لخسف بهم موضعهم، أو أسقطَ عليهم قطعةً من الجبل المطلِّ عليهم، لكن لو كان ذلك: لصار الخبرُ عياناً، والإيمان بالغيب مشاهدةً، فيبطل سرُّ التكليف، فلا يتوجَّه لومٌ، ولا تعنيفٌ، كما قد صرَّح اللَّهُ تعالى بذلك قولاً وذكراً؛ إذ قال: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

كراماتٌ لبعض الصحابة

قتال الملائكة للكفار

و (قوله: إنَّ رسولَ الله ﷺ كان أجودَ الناس) أي: أكثرهم جُوداً وسخاءً. جوده ﷺ

بالخير؛ وكان أجود ما يكونُ في شهر رمضان. إنَّ جبريل عليه السلام كان يلقاه في كل سنة في رمضان حتى ينسلخَ؛ فيَعْرِضُ عليه رسولُ الله ﷺ

هذا هو المعلومُ من خُلُقِه؛ فإنه ما سُئل قطُّ شيئاً فمنعه إذا كان مما يصحُّ بذلُه وإعطاؤه.

الحكمة من زيادة جوده ﷺ في رمضان

و (قوله: وكان أجودَ ما يكون في رمضان) إنما كان ذلك لأوجه:

أحدها: رغبةً في ثواب شهر رمضان، فإنَّ أعمالَ الخير فيه مضاعفةُ الأجر، وليعين الصائمين على صومهم، وليفطرهم، فيحصل له مثل أجورهم كما قال؛ ولأنه كان يلقى فيه جبريلَ لمدارسة القرآن، فكان يتجدد إيمانُه، ويقينه، وتعلو مقاماته، وتظهر عليه بركاته، فيا له من لقاء ما أكرمه! ومن مشهد ما أعظمه! وقيل: إنما كانت عطاياه تكثر في رمضان؛ لأنَّه كان يقدِّم الصدقات بين يدي مناجاة الرسول [١] لقوله تعالى: ﴿إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ [المجادلة: ١٢] وفيه بُعْدٌ، لأنه قد كان نسخ ذلك، ولاستبعاد دخول النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [المجادلة: ١٢]. ولِبُعْد دخول جبريل في قوله تعالى: ﴿إذا ناجيتم الرسول﴾. و (أجود): قيل بالنصب على أنه خبر كان، وفيه بُعْدٌ؛ لأنه يلزم منه: أن يكون خبرُها هو اسمها، وذلك: لا يصح إلا بتأويل بعيد، والرفعُ أولى؛ لأنه يكون مبتدأ مضافاً إلى المصدر، وخبره: في رمضان، وتقديره: أجود أكوانه في رمضان، ويعني بالأكوان: الأحوال [والله أعلم.

لقاء جبريل للنبي ﷺ في رمضان

و (قوله: إن جبريل ﷺ كان يلقاه في كلِّ سنة في رمضان) يصلح الكسر في إن على الابتداء، والفتح فيه][٢] أولى، فيكون تعليلاً لجود النبيِّ ﷺ في رمضان، وكان هذا الوجه أولى. والله أعلم، ولا أذكر الآن كيف قيَّدتُها على مَن قرأتُه عليه.

---

(١) أي: مناجاة الرسول ﷺ جبريلَ عليه السلام.

(٢) ما بين حاصرتين سقط من (ع).

القُرْآنَ؛ فإذا لَقِيهُ جبريلُ كان رسولُ الله ﷺ أجودَ بالخيرِ من الرِّيح المُرْسَلَة.

رواه أحمد (١/ ٣٦٣)، والبخاريُّ (١٩٠٢)، ومسلم (٢٣٠٨) (٥٠).

[٢٢٢٢] وعن أنسٍ؛ قال: لما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة أخذ أبو طلحة بيدي، فانطلق بي إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! إنَّ أنساً غلامٌ كيِّسٌ فَلْيَخْدُمْكَ. قال: فَخَدَمْتُهُ في السَّفَرِ والحَضَرِ؛ والله! ما قال لي لشيءٍ صنعْتُهُ: لِمَ صنعتَ هذا هكذا؟ ولا لشيء لَمْ أصنعهُ: لِمَ لَمْ تصنع هذا هكذا؟.

وفي روايةٍ: والله ما قال لي: أُفاً قَطُّ، ولا عاب عليّ شيئاً قطُّ.

رواه أحمد (٣/ ١٩٥)، والبخاريّ (٦٠٥٨)، ومسلم (٢٣٠٩) (٥١ ـ ٥٣)، وأبو داود (٤٧٧٤).

[٢٢٢٣] وعنه، قال: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً، فأرسلني يوماً لحاجةٍ. فقلت: والله لا أذهب! وفي نفسي أن أذهب لما

و (قوله: كان أجودَ من الريح المرسلة) أي: بالمطر، وفيه جوازُ المبالغة، والإغياء في الكلام. و (أفٍّ) كلمةُ ذمٍّ وتحقيرٍ واستقذار، وأصلُ الأفِّ والتفِّ: وسخ الأظفار، وفيها: عشر لغات: أفّ بغير تنوين بالفتح والضم والكسر، وبالتنوين للتنكير مع الأوجه الثلاثة، وبكسر الهمزة وفتحها، ويقال: أُفِّي وأُفَّه. وفي الصحاح، يقال: كان ذلك على إفِّ ذلك، وإفَّانه ـ بكسرها ـ أي: في حينه، وأوانه.

و (قول أنسٍ: والله لا أذهب! وفي نفسي أن أذهب) هذا القول: صَدَرَ عن

أمرني به نبي الله ﷺ، فخرجت حتى أَمُرَّ على صبيانٍ وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك. فقال: «يا أُنَيس! ذهبت حيث أمرتك؟» قال: قلت: نعم. أنا أذهب يا رسول الله. قال أنس: والله! لقد خدمته تسع سنين؛ ما علمتُه قال لشيءٍ صنعته: لم فعلت كذا وكذا؟ أو لشيء تركته: هلاَّ فعلت كذا وكذا!.

وفي روايةٍ: قال أنس: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين.

رواه مسلم (٢٣٠٩ و ٢٣١٠) (٥٤).

* * *

أنسٍ في حال صغره، وعدم كمال تمييزه؛ إذ لا يصدرُ مثلُه ممن كمل تمييزُه. وذلك: أنه حَلَف بالله على الامتناع من فعل ما أمره به رسولُ الله ﷺ مشافهةً، وهو عازمٌ على فِعْله، فجمع بين مخالفة رسول الله ﷺ وبين الإخبار بامتناعه، والحلفُ بالله على نفي ذلك مع العزم على أنه كان يفعله، وفيه ما فيه، ومع ذلك فلم يلتفتِ النبيُّ ﷺ لشيءٍ من ذلك، ولا عرَّج عليه، ولا أدَّبه. بل: داعبه، وأخذ بقفاه، وهو يضحكُ رِفْقاً به، واستلطافاً له، ثم قال: «يا أنيسُ! اذهب حيث أمرتُك». فقال له: أنا أذهب. وهذا كله مقتضى خُلُقه الكريم، وحِلْمه العظيم. وقد اختلفت الروايات في مدَّة خدمة أنسٍ رسولَ الله ﷺ فقيل: عشر. وقيل: تسع، وذلك بحسب اختلافهم في سَنَةِ مَقْدَمِ النبيِّ ﷺ المدينة. فقال الزُّهري: عن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ وأنا ابنُ عشرٍ، وتوفي وأنا ابن عشرين سنة[1].

خُلُقه وحلمه ﷺ

قلـتُ: فعلى هذا خدمه عشر سنين؛ إن قلنا: أنه خدمه من أول مَقْدَم النبيِّ ﷺ المدينة، ويُحتمل: أن تكون تأخرت خدمتُه عن ذلك سنة فتكون مدة

(١) رواه الحاكم (٣/ ٥٧٣).

(١٢) بـــاب
ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً
وقال: لا . وفي كثرة عطائه

[٢٢٢٤] عن جابر بن عبد الله، قال: ما سئل رسولُ الله ﷺ شيئاً قطُّ فقال: لا .

رواه البخاريُّ (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١) (٥٦).

[٢٢٢٥] وعن أنسٍ، قال: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه. قـال: فجاءه رجلٌ فأعطاهُ غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم! أسلموا؛ فإنَّ محمداً يعطي عطاءً لا يخشى الفَاقَة.

قال أنس: إن كان الرجل ليُسْلِمُ ما يريد إلا الدنيا، فما يُسْلِمُ حتى يكون الإسلامُ أحب إليه من الدنيا وما عليها.

رواه مسلم (٢٣١٢) (٥٧ و ٥٨).

خدمته له: تسع سنين. وقيل: قدم النبيُّ ﷺ وأنس ابن ثماني سنين.

و (قوله: فأعطاه غَنَماً بين جبلين) يعني: ملء ما بين جبلين كانا هنالك، وكان هذا ـ والله أعلم ـ يوم حنين لكثرة مـا كـان هنالك من غنائم الإبل، والبقر، والغنم، والذراري، ولأن هذا الذي أُعطي هذا القَدْرَ كان من المؤلَّفة قلوبُهم، أَلا ترى أنه رجع إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام لأجل العطاء؟.

كثرة الغنائم يوم حنين

و (قوله: إنْ كان الرجل ليسلمُ ما يريدُ إلا الدنيا) يعني: أنهم كان منهم من ينقادُ فيدخلُ في الإسلام لكثرة ما كان يعطي النبيُّ ﷺ من يتألَّفه على الدخول فيه، فيكون قصدُه بالدخول فيه الدنيا، وهذا كان حالُ الطلقاء يوم حنين على ما مَرَّ.

إعطاؤه ﷺ المؤلفة قلوبهم من الغنائم

و (قوله: فما يسلم حتى يكونَ الإسلامُ أحبَّ إليه من الدنيا وما عليها) ظاهرُ

[٢٢٢٦] عن ابن شهاب، قال: غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح ـ فتحِ مكة ـ ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين، فاقتتلوا بحُنين، فنَصَرَ الله دينه والمسلمين، وأعطى رسولُ الله ﷺ يومئذٍ صفوانَ بن أمية مئةً من النَّعم، ثم مئة، ثم مئة.

قال ابن شهاب: حدثني سعيد بن المسيِّب: أنَّ صفوان قال: والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني؛ وإنه لأبغضُ الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى إنَّه لأحبُّ الناسِ إليَّ.

رواه مسلم (٢٣١٣) (٥٩).

[٢٢٢٧] وعن جابربن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو قد جاءنا مالُ البحرين لقد أعطيتك هكذا، وهكذا، وهكذا» وقال بيديه

مساق هذا الكلام أنَّ إسلامَه الأول لم يكن إسلاماً صحيحاً؛ لأنه كان يبتغي به الدنيا، وإنما يصحُّ له الإسلام إذا استقر الإسلامُ بقلبه، فكان آثر عنده، وأحبَّ إليه من الدنيا وما عليها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ [التوبة: ٢٤]. وهذا معنىً صحيح، ولكنه ليس بمقصود الحديث، وإنما مقصودُ أنس من الحديث: أن الرجل كان يدخلُ في دين الإسلام رغبةً في كثرة العطاء؛ فلا يزال يُعطى حتى ينشرحَ صدرُه للإسلام، ويستقر فيه، ويتنور بأنواره، حتى يكون الإسلامُ أحبَّ إليه من الدنيا وما فيها، كما صرَّح بذلك صفوان حيث قال: واللّهِ لقد أعطاني رسولُ الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغضُ الناس إليَّ، فما بَرِح يُعطيني حتى إنه لأحبُّ الناس إليَّ. وهكذا اتفق لمعظم المؤلَّفة قلوبهم.

و (قوله ﷺ لجابرٍ: «لو قد جاءنا مالُ البحرين لأعطيتك هكذا، وهكذا،

جميعاً، فقُبض النبي ﷺ قبل أن يجيء مالُ البحرين، فقَدِمَ على أبي بكر بعدَهُ، فأمَرَ مُنادياً فنادى: من كانت له على النبي ﷺ عِدَةٌ أو دينٌ فليأتِ! فقمت، فقلت: إنَّ نبي الله ﷺ قال: «لو جاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا، وهكذا، وهكذا» فحَثَى أبو بكرٍ مرَّةً، ثم قال لي: عُدَّها، فعددتُها فإذا هي خمسمئة، فقال: خُذْ مِثْلَيها.

رواه أحمد (٣/ ٣٠٧)، والبخاريُّ (٢٥٩٨)، ومسلم (٢٣١٤) (٦٠).

* * *

سخاؤه ﷺ بالمال

وهكذا ـ وقال بيديه جميعاً ـ») هذا يدلُّ على سخاوة نفس النبيِّ ﷺ بالمال، وأنه ما كان لنفسه به تعلُّق؛ فإنه كان لا يعدُّه بعدد، ولا يقدره بمقدار، لا عند أخذه، ولا عند بذله. وهذا منه ﷺ كان وعداً لجابرٍ ـ رضي الله عنه ـ، وكان المعلومُ من خُلُقه الوفاء بالوعد، ولذلك نفَّذه له أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بعد موت النبيِّ ﷺ. وهكذا كان خُلُق أبي بكر، وخلق الخلفاء الأربعة ـ رضي الله عنهم ـ ألا ترى أبا بكر كيف نفَّذ عِدةَ رسول الله ﷺ لجابرٍ بقول جابرٍ، ثمَّ إنَّه دفعها له على نحو ما قال من غير تقدير؟! وأخبارهم في ذلك معروفةٌ، وأحوالهم موصوفةٌ، وكفى بذلك (ما سار مسير المثل)[1] الذي لم يزل يجري على قول عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: يا صفراءُ ويا بيضاءُ غُرِّي غيري.

* * *

---

(١) في (ز) و (م ٣): ما صار مصير.

(١٣) بـــاب
في رَحْمَةِ رسولِ الله ﷺ
للصِّبيانِ والعِيَالِ والرَّقيق

[٢٢٢٨] عَـنْ عـائشـةَ، قـالـت: قَـدِمَ نـاسٌ مـن الأعـراب علـى رسولِ الله ﷺ فقالوا: أتُقبِّلونَ صِبْيَانَكُم؟ فقالوا: نعم، قالوا: لكنَّا والله ما نُقَبِّلُ! فقال رسول الله ﷺ: «وأمْلِكُ أنْ كان اللَّهُ نَزَعَ منكمُ الرَّحْمَةَ؟!».

وفي روايةٍ: «مِنْ قَلْبِكَ».

رواه البخاريُّ (٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٦٦٥).

---

(١٣) ومن بـــاب: رحمة رسول الله ﷺ للصِّبيان والعيال

(قوله: «وأملك أنْ كان الله نزع الرَّحمة من قلبك؟!») كذا وقع هذا اللفظ محذوف همزة الاستفهام، وهي مرادةٌ؛ تقديره: أوَ أملكُ؟ وكذا جاء هذا اللفظُ في البخاريِّ بإثباتها، وهو الأحسنُ؛ لقلة حذف همزة الاستفهام. و (أنْ) مفتوحةٌ، وهي مع الفعل بتأويل المصدر، تقديرها: أوَ أملك كون الله نَزَعَ الرَّحمةَ من قلبك؟! وقد أبعد مَنْ كسرها، ولم تصحَّ روايةُ الكسر. ومعنى الكلام: نفي قدرته ﷺ عن الإتيان بما نزع اللَّهُ من قلبه من الرَّحمة. والرَّحمة في حقِّنا: هي رِقَّةٌ وحُنُوٌّ يجده الإنسانُ في نفسه عند مشاهدة مُبتلى، أو ضعيف، أو صغير، يحمله على الإحسان إليه، واللطف به، والرِّفق، والسعي في كشف ما به. وقد جعل اللَّهُ هذه الرَّحمةَ في الحيوان كلِّه ـ عاقله وغير عاقله ـ فبها تعطف الحيوانات على نوعها، وأولادها، فتحنو عليها، وتلطف بها في حال ضعفها وصغرها. وحكمة هذه الرَّحمة تسخيرُ القوي للضعيف، والكبير للصغير حتى ينحفظَ نوعُه، وتتمَّ مصلحته، وذلك تدبيرُ اللطيف الخبير. وهذه الرحمة التي جعلها الله في القلوب في

معنى الرحمة في حق الإنسان

الرحمة في حق الحيوانات

[٢٢٢٩] وعن أبي هريرة: أنَّ الأقرعَ بنَ حابسٍ، أَبْصَرَ النبيَّ ﷺ يقبِّلُ الحسنَ، فقال: إنَّ لي عشرةً من الولد ما قبَّلتُ واحداً مِنْهُمْ. فقالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّه مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ».

رواه البخاريُّ (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨)، وأبو داود (٥٢١٨)، والترمذيُّ (١٩١١).

هذه الدار، وتحصلُ عنها هذه المصلحةُ العظيمةُ هي رحمةٌ واحدةٌ من مئة رحمة ادَّخرها اللهُ تعالى ليوم القيامة، فيرحم بها عبادَه المؤمنين وقت أهوالها، وشدائدها حتى يُخلِّصَهم منها، ويدخلهم في جنَّته، وكرامته. ولا يفهم من هذا أن: الرحمة التي وصف الحقُّ بها نفسَه هي: رقَّةٌ وحنوٌّ كما هي في حقِّنا؛ لأن ذلك تغيُّر يوجب للمتصف به الحدوث، والله تعالى مُنَزَّه ومُقدَّس عن ذلك، وعن نقيضه الذي هو القسوة، والغِلَظُ، وإنما ذلك راجعٌ في حقِّنا إلى ثمرة تلك الرأفة، وفائدتها، وهي: اللطف بالمبتلى، والضعيف، والإحسان إليه، وكشفُ ما هو فيه من البلاء، فإذاً هي في حقه سبحانه وتعالى من صفات الفِعْل لا من صفات الذات، وهذا كما تقدَّم في غضبه تعالى ورضاه في غير موطنٍ. وإذا تقرر هذا؛ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ تعالى في قلبه هذه الرحمة الحاملة له على الرفق، وكشف ضُرِّ المبتلى، فقد رحمه الله تعالى بذلك في الحال، وجعل ذلك علامةً على رحمته إياه في المآل، ومَن سَلَبَ اللَّهُ ذلك المعنى منه، وابتلاه بنقيض ذلك من القسوة والغِلَظِ، ولم يلطفْ بضعيف، ولا أشفق على مُبتلىً، فقد أشقاه في الحال، وجعل ذلك عَلَماً على شقوته في المآل، نعوذ بالله من ذلك؛ ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن»[١]. وقال: «لا يرحم الله من عباده إلا الرحماء»[٢]. وقال: «لا تُنْزَع

الرحمة في حقِّه تعالى

الرحمة عند الإنسان رحمة من الله تعالى

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٥).

(٢) رواه البخاري (٦٦٥٥)، ومسلم (٩٢٣).

[٢٢٣٠] وعن أنسٍ؛ قال: ما رأيتُ أَحَداً كانَ أرحمَ بالعِيالِ مِنْ رسولِ الله ﷺ. قال: كانَ إبراهيمُ مُسترضعاً له في عوالي المدينةِ، فكان يَنْطَلِقُ ونحنُ مَعَهُ، فيدخلُ البيتَ وإنَّه ليُدَّخَنُ، ....

الرحمة إلا من شقيّ»[1]، وقال: «من لا يرحم لا يرحم»[2].

جواز تقبيل الرجل أولاده

وفي هذه الأحاديث ما يدلُّ على جواز تقبيل الصَّغير على جهة الرحمة والشَّفقة، وكراهة الامتناع من ذلك على جهة الأَنَفَة، وهذه القبلةُ هي على الفم، ويُكره مثلُ ذلك في الكبار؛ إذْ لم يكن ذلك معروفاً في الصَّدر الأول، ولا يدلُّ على شفقةٍ. فأما تقبيلُ الرأس فإكرامٌ عند مَن جرتْ عادتُهم بذلك كالأب والأم،

كراهية تقبيل اليد

وأما تقبيلُ اليد فكَرِهَهُ مالك، ورآه من باب: الكبر، وإذا كان ذلك مكروهاً في اليد كان أحرى في الرِّجْلِ، وقد أجاز تقبيل اليد والرجل بعض الناس، مستدلاً بأن اليهود قبَّلوا يد رسول الله ﷺ ورجليه حين سألوه عن مسائل، فأخبرهم بها[3]، ولا حجة في ذلك؛ لأن النبيَّ ﷺ قد نزَّهه الله عن الكبر، وأَمِنَ ذلك عليه، وليس كذلك غيرُه؛ ولأن ذلك أظهرَ من اليهود تعظيمَه، واعتقادَهم صِدْقَه، فأقرَّهم على ذلك ليتبيَّن للحاضرين ـ بإذلالهم أنفسهم له ـ ما عندهم من معرفتهم بصدقه، وأن كفرَهم بذلك عنادٌ وجحدٌ، ولو فهمت الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ جوازَ تقبيل يده ورجلِه لكانوا أوَّل سابقٍ إلى ذلك، فيفعلون ذلك به دائماً وفي كلِّ وقت، كما كانوا يتبرّكون ببزاقه، ونُخامته[4]، ويدلكون بذلك وجوهَهم، ويتطيَّبون بعَرَقه، ويقتتلون على وَضوئه، ولم يرو قطُّ عن واحد منهم بطريقٍ صحيحٍ أنه قبَّل له يداً ولا رجلاً، فصحَّ ما قلناه، واللَّهُ وليُّ التوفيق.

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٤٢)، والترمذي (١٩٢٤).

(٢) انظر تخريجه في التلخيص برقم (٢٩٣٧).

(٣) رواه ابن ماجه (٣٧٠٥).

(٤) في (ز): نخاعته.

وكان ظئره قَيْناً، فيأخذُهُ فيقبِّلُه، ثم يرجعُ.

قال عمرو: فلما تُوفِّي إبراهيمُ قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ إبراهيمَ ابني مات في الثَّدْي، ....

و (قوله: وكان ظِئْرُه قَيْناً) الظِّئْرُ: أصلُه اسم للمرضعة، ثم قد يقال على زوجها صاحبُ اللَّبَن ذلك. قال الخليل: ويُقال للمذكر والمؤنث. وقال أبو حاتم: الظِّئْرُ من الناس والإبل: إذا عَطَفَتْ على ولد غيرها، والجمع: ظُؤَار. وقال ابن السِّكيت: لم يأت فُعال بضم الفاء جمعاً إلا تُؤام جمع تَوْءَم، وظُؤارٌ جمع ظِئْر، وعُرَاقٌ جمع عَرْقٍ، ورُخالٌ جمع رَخِلٌ[1]، وفُرارٌ جمع فَرِير: وهو ولد الظبية. وغنمٌ رِبابٌ: جمع شاة رُبَّاء. قال ابن ولاد: وهي حديثة عهد بنتاج. وقال ابن الأنباري: تُجمع الظئر: ظُؤَاراً، أظؤراً، ولا يُقال: ظؤرةً. وحكى أبو زيد في جمعه: ظؤرة. قال الهروي: ولا يُجمع على فَعَلةٍ إلا أربعة أحرفٍ: ظِئْرٌ، وظُؤْرة، وصاحبٌ، وصُحْبة، وفارِهٌ وفُرْهةٌ، ورائق وروقةٌ. وفي الصحاح: الظئر ـ مهموز ـ والجمعُ ظؤار على فُعال بالضم. وظؤور وأظآر.

و (القين): الحدَّاد. و (القَيْن): العبد. و (القَيْنة): الأَمَة؛ مغنِّية كانت أو غير مغنِّيةٍ. وقد غلط من ظنها: المغنية فقط. والجمع: القِيان. قال زهير:

رَدَّ القِيَانُ جِمالَ الحيِّ فاحتَمَلُوا ... إلـى الظَّهِيـرة أَمْـرٌ بَيْنهـمْ لَبِـكُ

قلــت: وأصلُ هذه اللفظة من: اقتانَ النبتُ اقتناناً. أي: حسن، واقتانت الروضة: أخذتْ زخرفها، ومنه قيل للماشطة: قينة، ومقينة؛ لأنها تزيِّن النساءَ، شبهت بالأمة؛ لأنها تُصلح البيت وتزينه.

موت إبراهيم ابن النبي ﷺ

و (قوله: «إن إبراهيمَ ابني قد مات في الثَّدي») أي: في حال رضاعه، أي:

---

(١) «الرَّخِلُ»: الأنثى من أولاد الضأن.

وإنَّ له لظئرين يُكَمِّلان رَضَاعَهُ في الجَنَّة».

رواه أحمد (٣/ ١١٢)، ومسلم (٢٣١٦).

[٢٢٣١] وعن جريرِ بن عبدِ الله، قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ لا يَرْحم النَّاس لا يَرْحَمْهُ الله».

رواه أحمد (٤/ ٣٦٢)، والبخاريّ (٦٠١٣)، ومسلم (٢٣١٩).

[٢٢٣٢] وعن أنسِ بنِ مالكٍ، قال: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا صلَّى الغداةَ جاءَ خَدَمُ المدينة بآنيتهم فيها الماءُ، فما يُؤتى بإناءٍ إلا غمس يَدَهُ فيها فربما جاؤُوه في الغداة الباردة فيغمسُ يده فيها.

رواه مسلم (٢٣٢٤).

لم يُكملْ مدَّة رضاعه. قيل: إنه مات وهو ابن ستة عشر شهراً، وهذا القول: أخرجه فَرْط الشفقة والرحمة والحزن.

حُكم من مات من صغار المسلمين

و (قوله: «إنَّ له لظئرين يُكمِّلان رضاعَه في الجنة») هذا يدلُّ على أنَّ حكمَه حكمُ الشهيد؛ فإن الله تعالى قد أجرى عليه رزقَه بعد موته، كما قد [أجرى ذلك على الشهيد][1] حيث قال: : ﴿ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. وعلى هذا: فمن مات من صغار المسلمين بوجهٍ من تلك الوجوه السبعة التي ذكرنا أنها أسبابُ الشهادة كان شهيداً ويُلحق بالشهداء الكبار بفضل الله ورحمته إياهم؛ وإن لم يبلغوا أسنانَهم، ولم يُكلَّفوا تكليفَهم، فمن قُتل من الصغار في الحرب كان حكمه: حكم الكبير فلا يُغسَّلُ، ولا يُصلَّى عليه، ويُدفن بثيابه كما يُفعل بالكبير. وموافقة النبيِّ ﷺ لمن يطلبُ منه غمسَ يده في الماء، وللجارية التي كلَّمته: دليل

---

(١) في (م ٢) و (ع): أخبر بذلك عن الشهداء.

[٢٢٣٣] وعنه، قال: كانَ لرسولِ الله ﷺ حادٍ حسنُ الصوت، فقال له رسول الله ﷺ: «رويدك يا أَنْجَشَةُ! لا تكسِر القَوَارِيرَ!» يعني: ضَعَفَةَ النِّساء.

رواه البخاريُّ (٦٢١١)، ومسلم (٢٢٢٣) (٧٣).

[٢٢٣٤] وعنه: أنَّ امرأةً كان في عَقْلِها شيءٌ. فقالت: يا رسول الله! إنَّ لي إليكَ حاجةً. فقال: «يا أمَّ فلانٍ! انْظُري أيَّ السِّكَكِ شئتِ، حتى أقضيَ حاجتك». فخلا معها في بعض الطُّرُقِ، حتى فَرَغَتْ مِنْ حاجَتها.

رواه أحمد (٣/ ٩٨)، والبخاريُّ (٦٠٧٢)، ومسلم (٢٣٢٦)، وأبو داود (٤٨١٩)، والترمذيُّ (٣٢٤) في الشمائل، وابن ماجه (٤١٧٧).

* * *

حُسن خُلُقه وتواضعه ﷺ

على كمال حسن خلقه وتواضعه. وإسعافٌ منه لمن طلبَ منه ما يجوز طلبُه، وإن شقَّ ذلك عليه، ويحصل لهم أجرٌ على نيَّاتهم، وبركة في أطعماتهم، وقضاء حاجاتهم، وقد كانت الأَمَةُ تأخذ بيده فتنطلقُ به حيث شاءت من المدينة، وهذا كمالٌ لا يعرفه إلا الذي خصَّه به.

و (قوله لأنجشة: «رويدك») أي: رفقَك، وهو منصوب نصبَ المصدر، أي: ارفقْ رفقَكَ.

و (قوله في الأم[1]: «ويحكَ يا أنجشةُ! رويداً سوقَكَ بالقوارير») ويحَ، قال سيبويه: ويحك: زجر لمن أشرفَ على الهلاك. و (ويل): لمن وقع فيه. وقال الفراء: ويح وويس بمعنى: ويل. وقال غيرهما: ويح: كلمة لمن وقع في هلكة لا يستحقها فيُرثى له ويُرحم. وويل بضدِّه: وويس: تصغير.

---

(١) هي في مسلم برقم (٢٣٢٣) (٧١).

(١٤) بـــاب
في شِدَّةِ حياءِ النَّبيِّ ﷺ وكيفيةِ ضَحِكِهِ

[٢٢٣٥] عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، قال: كان رسولُ الله ﷺ أشدَّ حياءً من العَذْراء في خِدْرها، وكان إذا كَرِهَ شيئاً عَرَفْناهُ في وَجْهِه.

رواه أحمد (٣/ ٧١)، والبخاريُّ (٣٥٦٢)، ومسلم (٢٣٢٠) (٦٧)، وابن ماجه (٤١٨٠).

قلـــتُ: وهي كلمات منصوبة بأفعال مقدَّرة لا يُستعمل إظهارها. ويصحُّ أن تكونَ رويداً هنا: اسم فعل أمر. أي: ارود، بمعنى: ارفق. و (سوقَكَ): مفعول به، أو بإسقاط حرف الجر، أي: في سوقك، وقد قال بعض الناس: إن القوارير يُراد بها هنا الإبل، أَمَرَه بالرفق بها لِئَلاَّ يُعنِّف عليها في السير بطيب صوته فيهلكها، وتفسير الراوي أولى من تفسير هذا المتأخر، وقد تقدَّم أن الصحابي قال: يعني به ضعفةَ النساء، وشبَّهَهُنَّ بالقوارير لسرعة تأثُّرهنَّ، ولعدم تجلُّدهنَّ، فخاف عليهن من حثِّ السير وسرعته سقوطَ بعضهن، أو تألُّمهن بكثرة الحركة، والاضطراب الذي يكون عن السرعة والاستعجال. وقيل: إنه خاف عليهن الفتنة، وحسنَ الحَدْو وطيبَه، كما قد قال سليمان بن عبد الملك: يا بني أمية! إياكم والغناء؛ فإنه رُقْيَةُ الزنى؛ فإن كنتم ولا بدَّ فاعليه فجنِّبوه النساء.

(١٤) ومن بـــاب: شدَّة حياء رسول الله ﷺ وحُسْن خُلُقه

معنى الحياء

(الحياء) ـ ممدود ـ: انقباضٌ يجده الإنسانُ من نفسه يحمله على الامتناع من ملابسة ما يُعاب عليه، ويُستقبح منه، ونقيضه الصَّلَبُ: وهو التَّصلُّب في الأمور، وعدم المبالاة بما يُستقبح ويعاب عليه منها، وكلاهما جِبِلِّيٌّ ومكتسب؛ غير أنَّ الناسَ منقسمون في القدر الحاصل منهما، فمن الناس من جُبِل على الكثير من

[٢٢٣٦] عن عبدِ الله بنِ عمرو، قال: لم يكنْ رسول الله ﷺ فاحشاً

الحياء، ومنهم من جُبل على القليل منه، ثم إن أهلَ الكثير من النوعين على مراتب، وكذلك أهل القليل، فقد يكبر أحد النوعين حتى يصير نقيضه كالمعدوم.

شدّة حيائه ﷺ

ثم هذا الجبلِّي سببٌ في تحصيل المكتسب، وقد كان النبيُّ ﷺ قد جُبل من الحياء على الحظِّ الأوفر، والنصيب الأكثر، ولذلك قيل فيه: إنه كان أشد حياءً من العذراء في خدرها، ثم إنه كان يأخذُ نفسَه بالحياء ويستعمله، ويأمر به، ويحضُّ عليه، فيقول: «الحياء من الإيمان»[١]. و «الحياء لا يأتي إلا بخير»[٢]. و «الحياء خير كله»[٣]. ويقول لأصحابه: «استحيوا من الله حق الحياء»[٤]. وكان يُعْرَفُ الحياءُ في وجهه لما يظهر عليه من الخفر والخجل. وكان إذا أراد أن يَعتِب رجلاً معيناً أعرض عنه، ويقول: «ما بال رجال يفعلون كذا»[٥] ومع هذا كله فكان لا يمنعه الحياءُ من حقٍّ يقوله، أو أمر دينيٍّ يفعله، تمسكاً بقول الحق: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. وهذا هو نهايةُ الحياء، وكماله، وحُسْنه، واعتداله؛ فإن من يفرط عليه الحياء حتى يمنعه من الحق فقد ترك الحياءَ من الخالق، واستحيا من الخَلْق[٦]، ومن كان هكذا فقد حُرِم نافعَ الحياء، واتصف بالنفاق والرياء، والحَيَاء من الله هو الأصل والأساس؛ فإن الله تعالى أحقُّ أن يستحيا منه من الناس. و (العذراء): البكر التي لم تنتزع عذرتها. و (الخدر): أصله الهودج، وهو هنا: كناية عن بيتها الذي هي ملازمةٌ له إلى أن تخرج منه إلى

كان حياؤه ﷺ لا يمنعه من حقّ يقوله

الحيَاء من الله هو الأصل والأساس

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٨٤) من حديث أبي بكرة.
(٢) رواه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧)، وأبو داود (٤٧٩٦) من حديث عمران بن حصين.
(٣) أحمد (٤/ ٤٢٦)، ومسلم (٣٧) (٦١).
(٤) رواه الترمذي (٢٤٦٠).
(٥) ذكره الزبيدي في الإتحاف (٧/ ٥٤٢)، وابن عساكر (٣/ ١٤٢).
(٦) في (م ٣): المخلوق.

ولا متفحِّشاً، وقال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ من خياركم أحاسنكم أخلاقاً».

رواه أحمد (٢/ ١٦١)، والبخاريُّ (٣٥٥٩)، ومسلم (٢٣٢١) (٦٨)، والترمذيُّ (١٩٧٥).

بيت زوجها. و (الفاحش): هو المجبولُ على الفحش، وهو: الجفاء في الأقوال والأفعال. و (المتفحش): هو المتعاطي لذلك، والمستعمل له. وقد برَّأ اللَّهُ تعالى نبيَّه ﷺ عن جميع ذلك ونزَّهه؛ فإنه كان رحيماً، رفيقاً، لطيفاً، سمحاً[1]، متواضعاً، طلقاً، بَرّاً، وصولاً، محبوباً؛ لا تقتحمه عين، ولا تمجُّه نفسٌ، ولا يصدر عنه شيءٌ يُكره ﷺ وشرَّف، وكرَّم.

من صفاته ﷺ

و (قوله: «إن من خياركم أحاسنكم أخلاقاً») هو جمع أحسن على وزن أفعل التي للتفضيل، وهي: إن قُرنت بـ (من) كانت للمذكر، والمؤنث، والاثنين، والجمع، بلفظ واحد، وإن لم تقترن بـ (من) وعرفتها بالألف واللام ذكّرت، وأنثت وثنّيت، وجمعت. وإذا أضيفت: ساغ فيها الأمران كما جاء هنا: «أحاسنكم»، وكما قال تعالى: ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وقد قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]. وقد روي هذا الحديث: «أحسنكم» موحّداً.

محمود الأخلاق ومذمومها

و (الأخلاق): جمع خلق، وهي عبارةٌ عن أوصاف الإنسان التي بها يُعامل غيره، ويُخالطه، وهي منقسمةٌ: إلى محمودٍ ومذمومٍ. فالمحمود منها: صفاتُ الأنبياء، والأولياء، والفضلاء، كالصبر عند المكاره، والحِلْم عند الجفاء، وتحمُّل الأذى، والإحسان للنَّاس، والتودُّدِ لهم، والمسارعة في حوائجهم، والرحمة، والشفقة، واللطف في المجادلة، والتثبت في الأمور، ومجانبة المفاسد والشرور.

---

(١) في (م ٣): سهلاً.

[٢٢٣٧] وعن سِمَاكِ بنِ حربٍ، قال: قلتُ لجابرِ بن سَمُرةَ: أكُنْتَ تُجالِسُ رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، كثيراً! كان لا يقومُ من مصلاّهُ الذي يُصَلِّي فيه الصُّبح حتى تَطْلُعَ الشمس، فإذا طلعتْ قام، وكانوايَتَحدَّثُونَ فيأخذونَ في أمرِ الجاهليةِ، فيضحكونَ ويتبسَّمُ ﷺ.

رواه مسلم (٢٣٢٢) (٦٩).

* * *

وعلى الجملة: فاعتدالها: أن تكون مع غيرك على نفسك، فتنصف منها، ولا تنتصف لها، فتعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك. والمذموم منها: نقيض ذلك كلِّه.

وقد جاء هذا الحديثُ في غير كتاب مسلمٍ بزيادةٍ حسنةٍ، فقال: «خياركم أحاسنكم أخلاقاً، الموطَّؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون»[١]. فهذه الخُلقُ، وهؤلاء المتخلقون.

وقد قدَّمنا في غير موضع: أنَّ أصل الخُلُق جبلّةٌ في نوع الإنسان، غير أنَّ الناسَ في ذلك متفاوتون، فمن النَّاس من يغلب عليه بعضُها ويقف عن بعضها، وهذا هو المأمور بالرِّياضة والمجاهدة حتَّى يقوى ضعيفُها، ويعتدل شاذُّها، كما هو مفصَّلٌ في كتب الرياضات.

وقد تقدَّم الكلامُ على كونه ﷺ كان يجلس في مُصلاَّه حتى تطلع الشمس.

* * *

---

(١) رواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه صالح بن بشير المري، وهو ضعيف. (مجمع الزوائد ٨/ ٢١).

(١٥) بـــاب
بُعد النبي ﷺ من الإثم، وقيامه لمحارم الله عز وجل، وصيانته عما كانت عليه الجاهلية من صغره

[٢٢٣٨] عن عروة بن الزبير، عن عائشة زوج النَّبيِّ ﷺ أنَّها قالت: ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسَرهما ما لم يكن إثماً، فإنْ كان إثماً كان أبْعَدَ النَّاس منه، وما انتقم رسولُ الله ﷺ لنفسه إلا أن تُنْتَهَك حرمة الله.

[(١٥) ومن بـــاب: بعد النبيِّ ﷺ من الإثم وقيامه لمحارم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ][١]

من خُلُقه ﷺ اختيار الأيسر

(قول عائشة: ما خيَّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما) تعني: أنَّه كان ﷺ إذا خيَّره أحدٌ في شيئين يجوز له فعل كلِّ واحدٍ منهما، أو عُرِضت عليه مصلحتان؛ مالَ للأيسر[٢] منهما، وترك الأثقل أخذاً بالسُّهولة لنفسه، وتعليماً لأمَّته، فإذا كان في أحد الشيئين إثمٌ تركه، وأخذ الآخر ـ وإن كان الأثقل ـ.

حماية الله له ﷺ من أحوال الجاهلية

وكونه ﷺ سقط إلى الأرض لمَّا جعل إزاره على عنقه؛ يدلُّ: على أنَّ الله تعالى حفظه من صغره، وتولَّى تأديبه بنفسه، ولم يكله في شيءٍ من ذلك لغيره، ولم يزل اللَّهُ يفعل ذلك به حتَّى كرَّه له أحوال الجاهلية، وحماه عنها، حتى لم يجر عليه شيءٌ منها. كل ذلك لطفٌ به، وعطفٌ عليه، وجمعٌ للمحاسن لديه.

صفحه ﷺ عمّن آذاه

و (قولها: ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تُنتهك حرمةُ الله تعالى) يعني: أنَّه كان يصبر على جهل مَن جهل عليه، ويحتمل جفاه، ويصفح عمَّن آذاه في خاصَّة نفسه، كصفحه عمَّن قال: يا محمد! اعدل، فإنَّ هذه قسمةٌ ما أريد بها وجهُ

---

(١) ما بين حاصرتين ليست في الأصول، واستدرك من التلخيص.

(٢) في (م ٣): للأصلح.

رواه أحمد (٦/ ١٦٢)، والبخاريّ (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧) (٧٧)، وأبو داود (٤٧٨٥).

[٢٢٣٩] وعنها، قالت: ما ضَرب رسول الله ﷺ شيئاً قطُّ بيده، ولا امرأةً، ولا خادماً، إلا أن يجاهدَ في سبيل الله.

رواه أحمد (٦/ ٢٢٩)، ومسلم (٢٣٢٨) (٧٩)، وأبو داود (٤٧٨٦).

الله تعالى، وما عدلتَ منذ اليوم! وكصفحه عن الذي جبذ رداءه عليه حتَّى شقَّه، وأثَّر في عنقه. فإنْ قيل: فأذاه انتهاك حرمةٍ من حرم الله، فكيف يترك الانتقامَ لله تعالى فيها؟ وكيف وقد قال الله تعالى: ﴿يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١] فالجواب: أنه ﷺ ترك الانتقام ممَّن آذاه استئلافاً وتركاً لما ينفِّر عن الدخول في دينه، كما قال ﷺ: «لئلا يتحدث النَّاس أنَّ محمَّداً يقتل أصحابه»[١]. وقد قال مالك: كان رسولُ الله ﷺ يعفو عمَّن شتمه، مشيراً إلى ما ذكرنا. وإذا تقرر هذا فمراد عائشة ـ رضي الله عنها ـ بقولها: إلا أن تُنتهكَ حرمةُ الله: الحرمة التي لا ترجع لحقِّ النبي ﷺ كحرمة الله، وحرمة محارمه؛ فإنه كان يقيمُ حدودَ الله على من انتهك شيئاً منها، ولا يعفو عنها، كما قال في حديث السَّارقة: «لو أنَّ فاطمة سرقت لقطعتُ يدها»[٢] لكن ينبغي أن يُفْهَمَ: أنَّ صَفْحَهُ عمَّن آذاه كان مخصوصاً به وبزمانه لما ذكرناه، وأمَّا بعد ذلك فلا يُعْفى عنه بوجهٍ.

إقامته ﷺ لحدود الله

قال القاضي عِياضٌ ـ رحمه الله ـ: أجمع العلماء: على أنَّ مَن سَبَّ النبيَّ ﷺ كفر. واختلفوا؛ هل حكمه حكم المرتدِّ يُستتاب؟ أو حكم الزنديق لا يُستتاب؟ وهل قَتْلُه للكفر أو للحدِّ؟ فجمهورُهم: على أنَّ حُكْمَه حكمُ الزنديق، لا تُقبل

حُكْم من سبّ النبي ﷺ

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨) (٨)، وأبو داود (٤٣٧٣)، والترمذي (١٤٣٠)، والنسائي (٨/ ٧٣ ـ ٧٤)، وابن ماجه (٢٥٤٧).

[٢٢٤٠] وعن جابرِ بنِ عبد الله: أنَّ رسول الله ﷺ كان ينقل معهم الحجارة إلى الكعبة وعليه إزاره. فقال له العبَّاس: يا بن أخي لو حللت إزارك فجعلته على مَنْكِبِكَ دون الحجارة! فجعله على مَنْكِبِه، فسقط مغشياً عليه. قال: قال: فما رؤي بعد ذلك اليوم عُرياناً.

رواه أحمد (٣/ ٣١٠)، والبخاريُّ (٣٦٤)، ومسلم (٣٤٠) (٧٧).

* * *

توبته. وهو مشهورُ مذهب مالكٍ، وقول الشافعيِّ، وأحمد، وإسحاق. ورأوا: أنَّ قَتْلَهُ للحدِّ، ولا ترفعه التوبة، لكن تنفعه عند الله تعالى ولا يسقط حدُّ القتل عنه. وقال أبو حنيفة والثوريُّ: هي كفرٌ وردَّةٌ، وتُقبل توبته إذا تاب. وهي روايةُ الوليد بن مسلمٍ عن مالكٍ.

واختلفوا في الذمِّي إذا سبَّه بغير الوجه الذي به كفر. فعامَّة العلماء: على أنَّه يُقتل لحقِّ النبيِّ ﷺ. وأبو حنيفة، والثوريُّ، والكوفيُّون: لا يرون قتله. قالوا: ما هو عليه من الكفر أشدُّ. واختلف أهلُ المدينة وأصحاب مالكٍ في قَتْلِه إذا سبَّه بالوجه الذي به كفرٌ؛ من تكذيبه، وجَحْد نبوَّته؛ والأصحُّ الأشهر قَتْلُه. واختلفوا في إسلام الكافر بعد سبِّه؛ هل يسقط ذلك القتل عنه أم لا؟ والأشهر عندنا: سقوطه؛ لأنَّ الإسلامَ يجبُّ ما قَبْلَه. وحكى أبو محمَّد بن نصر في درء القتل[1] عنه روايتين.

ويُستفاد من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ ترغيب الحكَّام، وولاة الأمور في الصفح عمَّن جهل عليهم، وجفاهم، والصبر على أذاهم، كما كان النبيُّ ﷺ يفعل، وأنَّ الحاكم لا يحكم لنفسه. وقد أجمع العلماءُ: على أنَّ القاضي لا يحكم لنفسه، ولا لمن لا تجوزُ شهادته له. على ما حكاه عِياضٌ ـ رحمه الله ـ.

القاضي لا يحكم لنفسه

---

(١) في (م ٣): الحدّ.

(١٦) بـــاب

طيب رائحة النَّبي ﷺ وعرقه ولين مسِّه

[٢٢٤١] عن جابر بن سمرة، قال: صلَّيْتُ مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى، ثم خرج إلى أهله وخرجتُ معه، فاستقبله وِلْدانٌ، فجعل يمسح خدَّيْ أحدهم واحداً واحداً. قال: وأما أنا فمسح خدِّي. قال: فوجدت لِيَدِهِ برداً ـ أو ريحاً ـ كأنما أخرجها من جؤنة عطَّارٍ.

رواه مسلم (٢٣٢٩) (٨٠).

(١٦ و ١٧ و ١٨ و ٢٩ و ٢٠ و ٢١) ومن بـــاب: طيب رائحة رسول الله ﷺ وحسن شعره وشيبه وحسن خَلْقِه[١]

(قول جابر ـ رضي الله عنه ـ: صليتُ مع رسول الله ﷺ صلاةَ الأولى) هذا من باب إضافة الاسم إلى صفته، كما قالوا: مسجد الجامع. وقد تقدَّم القولُ فيه، يعني بالصلاة الأولى: صلاة الظهر؛ فإنها أولُ صلاة صلاها جبريلُ بالنبيِّ ﷺ، ويُحتمل أن يريدَ بها صلاة الصبح؛ لأنها أول صلاة النهار.

و (وقوله: فوجدتُ ليده برداً أو ريحاً) هذه (أو) الأولى أن تكون بمعنى الواو لا للشك؛ لأنها لو كانت شكاً، فإذا قدرنا إسقاط (أو ريحاً) لم يستقم تشبيه برودة يده بإخراجها من جُؤنة عطار؛ فإن ذلك إنما هو تشبيهٌ للرائحة، فإذا حملت (أو) على معنى الواو الجامعة استقام التشبيه للرائحة، والإخبار عن وجدان برودة اليد التي تكون عن صحة العضو، ويحتمل أن يريدَ بالبرودة برودة الطيب؛ فإنهم يصفونه

---

(١) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان ما أشكل أيضاً في أحاديث باب: في شعر رسول الله ﷺ، وباب: في شيب رسول الله ﷺ، وباب: في حسن أوصاف النبي ﷺ، وباب: في خاتم النبوة، وباب: كم كان سن رسول الله ﷺ.

[٢٢٤٢] وعن أنس، قال: ما شممتُ عنبراً قطُّ ولا مِسْكاً ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ﷺ، ولا مَسِسْت شيئاً قطُّ ديباجاً ولا حريراً ألين مسّاً من رسول الله ﷺ.

وفي رواية: كان رسول الله ﷺ أزهرَ اللون؛ كأنَّ عرقه اللؤلؤ، إذا مَشَى مَشَى تكفُّؤاً. وذكر نحوه.

بالبرودة، كما قال الشاعر(١):

وتَبْـــرُدُ بَـــرْدَ رِداءِ العَـــرُو سِ في الصَّيْفِ رَقْرَقْتَ فيهِ العَبِيرا

و (الجُؤْنَة): بضم الجيم، وفتح النون: هي سفط يَحْمِلُ فيه العطارُ متاعه. قاله الحربي، وهو مهموز وقد يُسَهَّل، وقال صاحبُ العين: هو سُليلةٌ مستديرة مُغشَّاةٌ أَدَماً.

طيب ريحه ﷺ

و (قوله: ما شممتُ عنبراً، ولا مسكاً، ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ﷺ) هذا يدلُّ على أنه كان طيِّبَ الريح وإن لم يتطيب، ثم إنه كان يستعملُ الطيب، ويعجبه رائحته؛ لأنه كان يناجي الملائكة؛ ولأنه مُستلذٌّ لحس الشمِّ كالحلاوة لحسِّ الذوق؛ ولأنه مُقوٍّ للدماغ، ومحرِّك لشهوة الجماع؛ ولأنه مما يرضي الله تعالى إذا قصد به القربة، والتهيؤ للصلاة.

و (قوله: كان أزهر اللون) يعني: أبيض اللون في صفاء، كما قال في الرواية الأخرى: ليس بالأبيض الأمهق، أي: المتألق البياض الذي صفته تشبه بياض الثلج، والجصِّ.

صفة مشيته ﷺ

و (قوله: إذا مشى مشى تكفؤاً) مهموزاً. قال شمر: أي: مال يميناً وشمالاً. قال الأزهري: هذا خطأ، وهذه صفةُ المختال. ولم تكن صفته ﷺ وإنما معناه: أن

---

(١) هو الأعشى.

رواه أحمد (٣/ ١٠٣)، والبخاريُّ (٦٢٨١)، ومسلم (٢٣٣٠) (٨١ و ٨٢)، والنسائي (٨/ ٢١٨).

[٢٢٤٣] وعنه، قال: دخل علينا النَّبيُّ ﷺ فقالَ عندنا، فعَرِقَ، وجاءت أمِّي بقارورةٍ، فجعلتُ تسْلُتُ العرق فيها، فاستيقظ النَّبيُّ ﷺ فقال: «يا أم سُلَيم! ما هذا الذي تصنعين؟» قالت: هذا عرقُك نجعلُهُ في طيبِنا، وهو من أطْيب الطِّيب.

وفي روايةٍ: أنَّه عليه الصلاة والسلام كان يأتيها، فيقيلُ عندها، فتبسط له نَطْعاً فيقيلُ عليه، وكان كثيرَ العرق، فكانت تجمعُ عَرَقَهُ، فتجعلُهُ في الطِّيب والقوارير، فقال النبي ﷺ: «يا أمَّ سُليم ما هذا؟» قالت: عرقُك أدوفُ به طيبي.

يميل إلى سمته، ويقصد في مشيته، كما قال في الرواية الأخرى: كأنما ينحطُّ من صبب.

قلـــتُ: ويبيِّنه ما قد جاء في رواية ثالثةٍ: يمشي تقلُّعاً.

الدخولُ على المحارم

و (قولها: دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ فقالَ عندنا) أي: نام عندهم في القائلة، وفيه دليلٌ: على دخول الرجل على ذوات محارمه في القائلة، وتبسُّطه معهنَّ، ونومه على فراشهن، وكانت أمُّ سليم ذات محرمٍ له من الرَّضاعة. قاله القاضي عياض.

و (قولها: فجعلتُ أسلتُ[1] العَرَقَ فيها) أي: تجمعه في القارورة، كما قد جاء في الرواية الأخرى. وقولها: أدوف به طيبي ـ بالدال المهملة ـ ثلاثياً، أي: أخلطه، وهكذا صحيحُ الرواية فيه، وهو المشهورُ عند أهل اللغة، وحُكِيَ فيه: الذال المعجمة، ثلاثياً ورباعياً، وقد استوفيناه في كتاب الإيمان.

(١) في صحيح مسلم والتلخيص: فجعلتْ تَسْلُتُ.

وفي أخرى: نرجو بركته لصبياننا. قال: «أصبْت».

رواه أحمد (٣/ ١٣٦)، ومسلم (٢٣٣١) (٨٣ و ٨٤) و (٢٣٣٢) (٥).

[٢٢٤٤] وعن عائشة؛ قالت: إنْ كان ليُنْزَلُ على رسول الله ﷺ في الغداة الباردة، ثم تفيضُ جبهتُهُ عَرَقاً.

رواه أحمد (٦/ ٥٨)، ومسلم (٢٣٣٣) (٨٦).

* * *

(١٧) بـــابٌ
في شَعْرِ رسول الله ﷺ وكيفيته

[٢٢٤٥] عن ابن عباس، قال: كان أهل الكتاب يَسْدُلُون أشعارَهُم، وكان المشركون يَفرُقُون رؤوسهم،......................

سنيّة فرق الشعر

و (قوله: كان أهلُ الكتاب يَسْدلون أشعارهم، وكان المشركون يَفْرُقُون رؤوسهم) قال القاضي: سدلُ الشَّعر: إرساله، والمراد به هنا عند العلماء: إرساله على الجبين واتخاذه كالقُصَّة. يقال: سدل شعره وثوبه: إذا أرسله، ولم يضمَّ جوانبه. والفرق: تفريق الشعر بعضه عن بعض. والفرق: تفريقك بين كل شيئين. قال الحربي: والمفرق: موضع الفرق، والفرق في الشعر سُنَّة؛ لأنه الذي رجع إليه النبيُّ ﷺ. والظاهرُ أنه بوحي، لقول أنس: أنه كان يحبُّ موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيءٍ، فسدل، ثم فَرَق بَعْدُ، فظاهره: أنه لأمر من الله تعالى، حتى جعله بعضُهم نسخاً، وعلى هذا لا يجوزُ السَّدْلُ، ولا اتِّخاذ الناصية والجُمَّة. وقد روي: أن عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ كان إذا انصرف من الجمعة أقام على باب المسجد حَرَساً يجزُّون كلَّ من لم يفرقْ شعره.

وكان رسول الله ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمرْ به ، فسَدَلَ رسولُ الله ﷺ ناصيتَهُ، ثم فرَق بعدُ.

رواه أحمد (٢/ ٢٨٧)، والبخاري (٣٥٥٨)، ومسلم (٢٣٣٦) (٩٠)، وأبو داود (٤١٨٨)، وابن ماجه (٣٦٣٢).

قلتُ: وفيما قاله القاضي ـ رحمه الله ـ وحكاه نظر. بل: الظاهر من مساق الحديث أن السَّدلَ إنما كان يفعلُه لأجل محبته استئلاف أهل الكتاب بموافقتهم، لكنه كان يوافقهم فيما لم يشرّع له فيه، فلما استمروا على عنادهم، ولم ينتفعوا بالموافقة، أحبَّ مخالفتهم أيضاً فيما لم يشرعْ له، فصارت مخالفتهم محبوبةً له لا واجبةً عليه كما كانت موافقتهم.

و (قوله: فيما لم يؤمر» يعني: فيما لم يُطلب منه، والطلب يشملُ الواجبَ والمندوب كما قرَّرناه في الأصول. وأما توهُّم النسخ في هذا، فلا يُلتفت إليه لإمكان الجمع، كما قررناه، وهذا بَعْدَ تسليم أنَّ محبةَ موافقتهم ومخالفتهم حكمٌ شرعي، فإنه يحتمل أن يكون ذلك أمراً مصلحياً، هذا مع أنه لو كان السَّدلُ منسوخاً بوجوب الفرق لصار الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إليه، أو بعضهم، وغايةُ ما روي عنهم: أنه كان منهم من فَرَق، ومنهم من سَدَل، فلم يعبِ السادلُ على الفارق، ولا الفارقُ على السادل، وقد صحَّ عنه ﷺ أنه كان له لِمَّةٌ؛ فإن انفرقت فرقها، وإلا تركها[1]. وهذا يدلُّ على أن هذا كان غالبَ حاله؛ لأن ذلك ذكره مع جملة أوصافه الدائمة، وحِلْيته التي كان موصوفاً معروفاً بها، فالصحيح: أن الفرق مستحبٌّ لا واجب، وهذا الذي اختاره مالك. وهو قولُ جلِّ أهلِ العلم[2]. والله أعلم.

و (قوله: كان يحبُّ موافقةَ أهل الكتاب) قد قلنا: إن ذلك كان في أوَّل أمره

---

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد (٢/ ٢٢).

(٢) في (ع) و (م ٢): المذاهب.

. . . .

عند قدومه على المدينة في الوقت الذي كان يستقبل قبلتهم، وإن ذلك كلَّه كانت حكمته التأنيس لأهل الكتاب حتى يصغوا إلى ما جاء به، فيتبيَّن لهم أنه الحقُّ، والاستئلاف لهم ليدخلوا في الدين، فلما غلبتْ عليهم الشقوة، ولم ينفعْ معهم ذلك نسخ اللَّهُ تعالى استقبالَه قبلتهم بالتوجُّه نحو الكعبة، وأمَرَ النبيُّ ﷺ بمخالفتهم في غير شيء، كقوله: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم»[١]. وذكر أبو عمر في التمهيد عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «اخضبوا وفرقوا، خالفوا اليهود»[٢]. قال: إسناده حسن، ورجاله كلهم ثقات. وكقوله في الحائض: «اصنعوا كل شيءٍ إلا النكاح»[٣]. حتى قالت اليهود: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالَفَنا فيه، فاستقر آخر أمره ﷺ على مخالفتهم فيما لم يحكم عليه فيه بحكم، فإذا ثبت هذا فلا حجَّة في قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ كان ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب. على أن شرعهم شرعٌ لنا[٤]، فتأمَّل ذلك. واختلاف هذه الأحاديث في كيفية شَعْر رسول الله ﷺ إنما هو اختلاف أحوالٍ؛ إذ قد فعل ذلك كله، فقد سدل، وفرَق، وكان شعره لِمَّةً، ووفرةً، وجُمَّة. وقد روى الترمذيُّ من حديث أم هانىء ـ رضي الله عنها ـ قالت: قَدِم رسول الله ﷺ مكة وله أربع غدائر[٥]. قال: هذا حديث حسن صحيح.

مخالفةُ أهل الكتاب

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٤٠)، والبخاري (٣٤٦٢)، ومسلم (٢١٠٣)، وأبو داود (٤٢٠٣)، والنسائي (٨/ ١٣٧).

(٢) رواه ابن عدي في الكامل (٢/ ٦١٤)، وانظر: التمهيد (٦/ ٧٦).

(٣) رواه أحمد (٣/ ١٣١)، ومسلم (٣٠٢)، والترمذي (٢٩٧٧)، والنسائي (١/ ١٥٢)، وابن ماجه (٦٤٤).

(٤) في (ع) و (م ٢): له.

(٥) رواه الترمذي (١٧٨١).

[٢٢٤٦] وعن البراء بن عازبٍ، قال: ما رأيت من ذي لِمَّةٍ في حُلَّةٍ حمراءَ أحسنَ من رسول الله ﷺ؛ شعرهُ يضرِبُ مَنْكِبيْه، بعيد ما بين المَنْكِبَيْنِ، ليس بالطويل ولا بالقصير.

رواه مسلم (٢٣٣٧) (٩٢)، وأبو داود (٤١٨٣)، والترمذيُّ (١٧٢٤)، والنَّسائي (٨/ ١٨٣)، وابن ماجه (٣٥٩٩).

[٢٢٤٧] وعن أنسٍ، قال: كان شَعَرُ رسولِ الله ﷺ شَعَراً رَجِلاً، ليس بالجعْد، ولا السَّبْطِ، بين أذنيه وعاتقه.

وفي أخرى: كان يضرب شَعَرُه مَنْكِبَيْهِ.

وفي أخرى: كان شَعَرُه إلى أنصاف أذنيه.

رواه أحمد (٣/ ١١٨)، والبخاريّ (٥٩٠٣ ـ ٥٩٠٦)، ومسلم (٢٣٣٨) (٩٤ ـ ٩٦)، وأبو داود (٤١٨٥ ـ ٤١٨٦)، والنسائي (٨/ ١٨٣)، وابن ماجه (٣٦٣٤).

* * *

قلتُ: والغدائر: الضفائر. قال امرؤ القيس:

غَدائِره مُسْتَشْزِراتٌ إلى العُلا   تَضِلُّ المدارى[1] في مُثَنّىً ومُرْسَلِ

و (قول البراء ـ رضي الله عنه ـ: ما رأيت من ذي لِمَّةٍ في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ). قال شَمِر: الجُمَّةُ أكثر من الوفرة، والجُمَّة إذا سقطت على المنكبين، والوفرة إلى شحمة الأذن، واللمة التي ألمت بالمنكبين، وقد تقدَّم القولُ في الحلَّة، وفيه دليلٌ على جواز لباس الأحمر، وقد أخطأ من كره لباسه

حكمُ لبس الثياب الملوَّنة

---

(١) في الديوان وشرح المعلقات السبع ص (٥٣): العِقاص.

(١٨) بــاب
في شيب رسول الله ﷺ وخضابه

[٢٢٤٨] عن محمد بن سيرين، قال: سألتُ أنسَ بن مالكٍ: أَخَضَبَ رسول الله ﷺ؟ قال: إنَّه لم ير من الشَّيب إلا قليلاً.

رواه البخاريُّ (٥٨٩٤)، ومسلم (٢٣٤١) (١٠٢).

[٢٢٤٩] وعن ثابتٍ، قال: سئل أنسُ بنُ مالكٍ: أَخَضَبَ رسولُ الله ﷺ؟ قال: لو شئتُ أن أعُدَّ شَمَطَاتٍ كنَّ في رأسه فعلتُ. وقال: لم يختضب. وقد اختضب أبو بكر بالحنَّاء والكَتَم، واختضب عمر بالحنَّاء بحتاً.

رواه أحمد (٣/ ٢٢٧)، والبخاريّ (٥٨٩٥)، ومسلم (٢٣٤١) (١٠٣).

[٢٢٥٠] وعن أنسِ بن مالكٍ، قال: يُكرهُ أن ينتفَ الرجلُ الشعرة البيضاء من رأسه ولحيته. قال: ولم يَخْضِبْ رسولُ الله ﷺ، إنَّما كان البياض في عَنْفَقَتِهِ، وفي الصُّدغين، وفي الرأس نبْذةٌ.

رواه مسلم (٢٣٤١) (١٠٤).

مطلقاً، غير أنه قد يختصُّ بلباسه في بعض الأوقات أهلُ الفسق والدعارة والمجون، فحينئذ يُكره لباسه؛ لأنه إذ ذاك تشبُّهٌ بهم، وقد قال ﷺ: «من تشبَّه بقومٍ فهو منهم»[1]، لكن ليس هذا مخصوصاً بالحمرة، بل هو جارٍ في كل الألوان والأحوال، حتى لو اختص أهلُ الظلم والفسق بشيءٍ مما أصله سُنَّة كالخاتم

(١) رواه أبو داود (٤٠٣١).

[٢٢٥١] وعنه: أنه سئل عن شيب رسول الله ﷺ؟ قال: ما شَانَهُ اللَّهُ بِبَيْضَاءَ.

رواه مسلم (٢٣٤١) (١٠٥).

[٢٢٥٢] وعن أبي جُحَيْفَة، قال: رأيت رسول الله ﷺ هذه منه بيضاء ـ ووضع زُهَيْرٌ بعض أصابعه على عنفقته ـ قيل له: مِثْلُ من أنتَ يومئذٍ؟ قال: أَبْرِي النَّبْلَ وأريشُه.

رواه أحمد (٤/٣٠٨)، ومسلم (٢٣٤٢) (١٠٦).

* * *

(١٩) بـــاب
في حسن أوصاف النبي ﷺ

[٢٢٥٣] عن البَرَاء، قال: كان رسول الله ﷺ رجلاً مَرْبُوعاً، بعيد ما بين المَنْكِبَين، عظيمَ الجُمَّة إلى شحمة أُذنَيه، عليه حُلَّةٌ حمراءُ، ما رأيت شيئاً قطُّ أحسنَ منه ﷺ.

وفي روايةٍ: كانَ أحسنَ النَّاسِ وَجْهاً، وأحسَنَهُ خَلْقاً، لَيْسَ بالطَّويلِ الذاهبِ ولا بالقصير.

والخضاب والفرق لكان ينبغي لأهل الدين ألَّا يتشبهوا بهم؛ مخافةَ الوقوع فيما كرهه الشرعُ من التشبه بأهل الفسق؛ ولأنه قد يظنُّ به من لا يعرفه أنه منهم، فيعتقد ذلك فيه، وينسبه إليهم، فيُظَنُّ به ظنَّ السوء، فيأثم الظانُّ بذلك والمظنون بسبب المعونة عليه.

رسـول الله ﷺ أحسـنُ النـاس

و (قوله: كان أحسنَ الناس وجهاً، وأحسنه خَلْقاً) الروايةُ بتوحيد ضمير وجهاً

روه أحمد (٤/ ٢٩٠)، والبخاريُّ (٣٥٥١)، ومسلم (٢٣٣٧) (٩١)، وأبو داود (٤٠٧٢)، والترمذيّ (٣٦٣٥)، والنسائي (٨/ ١٨٣)، وابن ماجه (٣٥٩٩).

[٢٢٥٤] وعن أبي الطُّفيل، قال: رأيتُ رسول الله ﷺ وما على الأرضِ رجُلٌ رآه غيري. قال: فقلتُ: فكيف رأيتَه؟ قال: كان أبيضَ مَلِيْحاً مُقَصَّداً.

أحسنه، وبفتح الخاء وسكون اللام من خَلْقاً، فأما توحيد الضمير؛ فقال أبو حاتم: العرب تقول: فلان أجمل الناس وأحسنه. يريدون: أحسنهم، ولا يتكلمون به. قال: والنحويون يذهبون به إلى أنه أحسن مَنْ ثمَّة، وأما خَلْقاً: فأراد به: حُسْن الجسم، بدليل قوله بعده: ليس بالطويل الذاهب، ولا بالقصير. وأما في حديث أنس، فروايته: بضم الخاء واللام؛ لأنه يعني به حسن المعاشرة بدليل سياق ما بعده من الحديث.

اعتدال جسمه ﷺ

و (قوله: كان أبيض مليحاً مُقَصَّداً) أبيض: يعني في صفاء، كما جاء أنه كان أزهر، وكما قال: ليس بالأبيض الأمهق. والملاحة: أصلها في العينين كما تقدَّم. والمقصَّدُ: القصد في جسمه وطوله. يعني: أنه لم يكن ضئيل الجسم، ولا ضخمه، ولا طويلاً ذاهباً، ولا قصيراً متردداً، كان وسطاً فيهما.

صفة شعره ﷺ

و (قوله: كان شعره رَجِلاً) أي: ليس بالجَعِد، ولا بالسَّبِط. الرواية في رَجلاً، بفتح الراء وكسر الجيم، وهي المشهورة. وقال الأصمعيُّ: يقال: شعرٌ رَجِلٌ: بفتح الراء وكسر الجيم، ورَجَلٌ: بفتح الجيم، ورَجْل: بسكونها. ثلاث لغات، إذ كان بين السُّبُوطة، والجُعُودة، قال غيره: شعر مرجَّلٌ، أي: مُسرَّح. وكان شعره ﷺ بأصل خِلْقته مُسَرَّحاً[1].

---

(١) في الأصول: مسرح.

قال مسلم: مات أبو الطُّفَيْل سَنَة مئةٍ، وهو آخرُ من ماتَ من أصحاب رسول الله ﷺ.

رواه أحمد (٥/ ٤٥٤)، ومسلم (٢٣٤٠) (٩٨ و ٩٩).

و (قول أنس ـ رضي الله عنه ـ وقد سُئِل عن خِضاب رسول الله ﷺ: لم يختضب من الشيب إلا قليلاً. وفي الرواية الأخرى: لو شئتُ أن أعُدَّ شمطاتٍ كُنَّ في رأسه فعلتُ) ظاهِرُهُ: أنه لم يكن ﷺ يختضب، كما قد نصَّ عليه في بقية الحديث. وبهذا الظاهر أخذ مالك فقال: لم يختضب رسولُ الله ﷺ، وإليه ذهب أبو عمر بن عبد البر، وذهب بعضُ أصحاب الحديث إلى أنه خَضَبَ، متمسِّكين في ذلك بما رواه أبو داود عن أبي رمثة، قال: انطلقتُ مع أبي نحو النبيِّ ﷺ فإذا هو ذو وفرةٍ، وبها ردعٌ من حنَّاء، وعليه بُرْدان أخضران[١]. وروى أبو داود أيضاً عن زيد بن أسلم: أن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ كان يصبغُ لحيته بالصفرة حتى تمتلىء ثيابُه من الصفرة. فقال: إنِّي رأيتُ رسولَ الله ﷺ يصبغ بها، ولم يكن شيءٌ أحبَّ إليه منها، وقد كان يصبغ بها ثيابه كلها حتى عمامته[٢]. ويعتضد هذا بأمره ﷺ بتغيير الشيب، كما قال: «غيِّروا هذا الشيب واجتنبوا السواد»[٣]، وقال: «غَيِّرُوا الشيبَ ولا تشبَّهوا باليهود»[٤] وما كان ﷺ يأمر بشيء إلا كان أول آخذٍ به. ومما يُعْتَضَدُ به لذلك ما رواه البخاري عن عبد الله بن موهب، قال: دخلتُ على أم سلمة، فأخرجتْ لي شعرات من شعر رسول الله ﷺ مخضوباً[٥]. زاد ابن أبي شيبة:

هل اختضب رسول الله ﷺ؟

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٠٦).

(٢) رواه أبو داود (٤٠٦٤).

(٣) رواه أحمد (٣/ ٣١٦)، ومسلم (٢١٠٢) (٧٩)، وأبو داود (٤٢٠٤)، والنسائي (٨/ ١٣٨)، وابن ماجه (٣٦٢٤).

(٤) رواه أحمد (٢/ ٢٦١)، والبخاري (٣٤٦٢)، ومسلم (٢١٠٣)، وأبو داود (٤٢٠٣)، والنسائي (٨/ ١٣٧).

(٥) رواه البخاري (٥٨٩٧).

. . . .

بالحناء والكتم، والإسناد واحد[1]. ومما يعتضد به هؤلاء خضاب الخليفتين ـ رضي الله عنهما ـ فلو علما أن النبيَّ ﷺ لم يختضبْ لما اختضبا، فإنهما ما كانا باللذين يعدلان عن سُنَّته، ولا عن اتباعه، والفَضْل لهؤلاء من أحاديث أنس، وما في معناها بأن الخضابَ لم يكن منه ﷺ دائماً، ولا في كلِّ حال، وإنما كان في بعض الأوقات، فلم يلتفتْ أنسٌ لهذه الأوقات القليلة، وأطلق القول، وأولى من هذا أن يقال: إنه ﷺ لما لم لكن شيبُه كثيراً، وإنما كان في لحيته وصُدْغيه نحو العشرين شعرة بيضاً، لم يكن الخضاب يظهر فيها غالباً، والله تعالى أعلم. وقد اعتذر أصحابُ القول الأول عن حديث أبي رمثة وابن عمر بأن ذلك لم يكن خضاباً بالحناء، وإنما كان تغييراً بالطيب، ولذلك قال ابنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ: كان يصبغ بالصفرة، ولم يقل: بالحناء، وهذه الصفرة هي التي قال عنها أبو رمثة: ردع من حناء؛ لأنه شبَّهها بها، وأما حديث أم سلمة فيحتمل أن يكون ذلك فُعِلَ بشعر رسول الله ﷺ بعده بطيب أو غيره احتراماً وإكراماً. والله أعلم.

والشَّمَطات: جمع شمطة، ويعني بها: الشعرات البيض المخالِطة للشعر الأسود. قال الأصمعي: إذا رأى الرجلُ البياضَ؛ فهو أشمط. وقد شمط. والكَتَم ـ بالتحريك ـ: نبت يُخلط بالوسمة. يُختضب به. قاله في الصحاح. و البحت ـ بالموحدة والحاء المهملة ـ: هو الخالص من الشيء، المنفرد عن غيره. وقال أبو حنيفة اللغوي: الوسمة: الحظر، والعِظْلِمُ، والشبلج، والتَّنومة؛ وكله يُصْبَغ به. والحِنَّاء ممدودة. قال أبو عليٍّ: جمع حِنَّاءة. والكَتَمُ ـ مخفَّفُ التاء ـ: هو المعروف. وأبو عبيد يقولها بالتشديد. ونبْذٌ: الرواية فيه بفتح النون وسكون الباء. أي: شيءٌ قليلٌ متبددٌ. وبعض النَّاس يقوله: نُبَذٌ ـ بضم النون وفتح الباء ـ: جمع نُبْذة، كغرفة وغُرَف، وظُلْمَة وظُلَم. وهذا لا يستقيمُ هنا؛ لأنَّه كان يلزم منه أن

(١) رواه ابن أبي شيبة (٨/ ٢٤٦).

[٢٢٥٥] وعن جابرِ بن سَمُرَة، قال: كان رسولُ الله ﷺ قد شَمِطَ مُقدَّمُ رأسِهِ ولِحيَتِهِ، ....

يكون سَبَبُه نبذاً مجتمعةً في أنفسها، متفرقةً في مواضع عديدةٍ، ويلزم عليه أن يكون سببه كثيراً، فيكون هذا مخالفاً لما قاله أنسٌ في الأحاديث الأخر.

كراهيةُ نتف الشَّيب

وكراهتُه ﷺ نَتْف الشيب إنّما كان لأنَّه وقارٌ، كما قد روى مالك: «أن أوَّل من رأى الشَّيبَ إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ فقال: يا رب! ما هذا؟ فقال: وقار. قال: يا رب زدني وقاراً»[١]، أو لأنَّه نورٌ يوم القيامة، كما روى أبو داود من حديث عمرو بن شعيبٍ عن أبيه، عن جدِّه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تنتفوا الشَّيب! ما من مسلم يشيب شيبةً في الإسلام إلا كانت له نوراً يوم القيامة». وفي أخرى: «إلا كتب الله له حسنةً، وحطَّ عنه خطيئةً»[٢].

كان شيب رسول الله ﷺ يسيراً

و (قول أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ: ما شانه الله بِبَيْضاء) أي: لم يكن شيبُه كثيراً بيّناً حتى تزولَ عنه بهجةُ الشباب، ورونقه، ويلحق بالشيوخ؛ الذين يكون الشيبُ لهم عيباً؛ فإنَّه يدلُّ على ضَعْفهم، ومفارقة قوة الشَّباب ونشاطه. ويحتمل أن يريدَ: أنَّ ما ظهرَ عليه من الشَّيب اليسير زاده ذلك في عين الناظر إليه أُبَّهةً، وتوقيراً، وتعظيماً. و (الشَّيْن): العيب. و (أبري النَّبل): أنحته، و (أريشه): أجعل فيها الريش. ويعني: أنَّه قد كان كبر، وقوي، وعرف. وهذا حالُ المراهق.

و (قوله: قد شَمِطَ مُقَدَّمُ رأسه ولحيته) أي: خالط الشيبُ ذينك الموضعين. ومُقدَّم اللحية: يعني به: العنفقة، كما قال أبو جحيفة: رأيتُ هذه منه بيضاء. يعني: عنفقته. و (مقدَّمه) يعني به: الصُّدغين، كما قال أنسٌ: إنما كان البياض في عنفقته وصُدْغيه. وهذا يدلُّ: على أنَّ قولَ أنسٍ في الرِّواية الأخرى: إنَّه كان في

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٩٢٢).
(٢) رواه أبو داود (٤٢٠٢).

وكان إذا ادَّهَنَ لم يَتَبيَّن، وإذا شَعِثَ رأسُهُ تبيَّنَ، وكان كَثير شعرِ اللِّحيةِ.

فقال رَجُلٌ: وجهُهُ مِثلُ السَّيْفِ؟ قال: لا، بل كان مثلَ الشمسِ والقمرِ، وكان مستديراً..............................

لحية رسول الله ﷺ ورأسه عشرون شعرةً بيضاء، إنَّما كان ذلك منه تقديراً على جهة التقريب والتقليل لا التحقيق.

و (قوله: وكان إذا ادَّهن لم تتبيَّن، وإذا شَعِث تبيَّن) يعني: أنه كان إذا تطيَّب بطيبٍ يكون فيه دهنٌ فيه صفرة خفي شيبُه، وهذه هي الصفرةُ التي رأى عليه ابن عمر، وأبو رمثة. والله أعلم. وشعثُ الرأس: انتفاشُ شعره لعدم تسريحه، وأراد به هنا: إذا لم يتطيَّب.

و (قوله: كان وَجْهُه مثلَ السيف) يحتمل هذا التشبيه وجهين:

أحدهما: أن السيوف كانت عندهم مستحسنةً محبوبةً يتجمَّلون بها، ولا يفارقونها، فشُبِّه وَجْهُ النبيِّ ﷺ به؛ لأنه مُستحسنٌ محبوبٌ يُتجمَّلُ به حين المجالسة، ولا يُسْتَغْنى عنه.

وثانيهما: أنه كان ﷺ أزهر، صافي البياض، يبرق وجهُه، وقد روي: أنه كان يتلألأ وجهه في الجُدُر[1]، فشُبِّه وجهُه بالسيف في صفاء بياضه وبريقه. والله أعلم.

استدارةُ وجه رسول الله ﷺ

و (قوله: لا! بل: مثل الشمس والقمر) هذا نفيٌ لتشبيه وجهه بالسيف، لما في السيف من الطول، فقد يحتمل أن وجهه كان طويلاً، وإنما كان مستديراً في تمام الخلق؛ ولأنه تقصير في التشبيه، فأضرب عن ذلك، وذكر من التشبيه ما هو أوقع، وأبلغ. فقال: بل مثل الشمس والقمر، وهذا التشبيهُ: هو الغايةُ في

---

(١) ذكره ابن الأثير في النهاية (٤/ ٥٥). وانظر: سبل الهدى والرشاد (٢/ ٥٨).

ورأيتُ الخاتَمَ عند كَتِفِهِ مِثلَ بيضةِ الحمامة يُشبهُ جَسَدَهُ.

رواه أحمد (٥/ ٩٠ و ١٠٢)، ومسلم (٢٣٤٤) (١٠٨ و ١٠٩)، والترمذيُّ في الشمائل (٣٨ و ٤٣)، والنسائيّ (٨/ ١٥٠).

الحسن؛ إذ ليس فيما نشاهده من هذه الوجوه أحسن، ولا أرفع، ولا أنفع منهما، وهما اللذان جرتْ عادةُ الشعراء والبلغاء بأن يشبهوا بهما ما يستحسنونه.

و (قوله: وكان كثير شعر اللحية) لا يفهم من هذا أنه كان طويلَها؛ فإنه قد صحَّ أنه كان كثَّ اللحية، أي: كثير شعرها غير طويلة، وكان يُخَلِّل لحيتَه.

خاتم النبوة وصفته

و (قوله: ورأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة الحمامة) الألف واللام في الخاتم لتعريف العهد، أي: خاتم النبوة الذي من علاماته المعروفة له في الكتب السابقة، وفي صدور علماء الملل السالفة، ولذلك لما حصل عند سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ العلم بصفاته، وأحواله، وعلاماته وموضع مبعثه، ودار هجرته، جدَّ في الطلب حتى ظفر بما طلب، ولمَّا لقيه جعل يتأمَّل ظهره، فعلم النبيُّ ﷺ: أنه يريد أن يقف على ما يعرفه من خاتم النبوة، فنزع رداءه من على ظهره، فلما رأى سلمان الخاتم أكبَّ عليه يقبِّله، وهو يقول: أشهدُ أنك رسول الله. وروى الترمذي عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ: أن النبيَّ ﷺ لمَّا خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام، ونزلوا بصومعة راهبٍ كان هنالك، وقد سمِّي في غير هذا الخبر (بحيرا)، فخرج إليهم ذلك الراهب، وكان قبل ذلك لا يخرج إليهم، ولا يلتفت إليهم، فلما خرج جعل يتخلَّلهُم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ فقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال له أشياخٌ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر، ولا شجر إلا خرَّ ساجداً له. ولا يسجدان إلا لنبيٍّ، وإني لأعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروفه مثل التفاحة... وذكر الحديث بطوله، وقال في آخره: حديثٌ حسنٌ

. . . .

غريب[١]. وعلى هذا: فخاتم النبوة معناه: علامةُ نبوَّةِ نبينا محمد ﷺ، وقد اختلفتْ ألفاظُ النقلة في صفة ذلك الخاتم، فروى جابر بن سمرة، وأبو موسى ما ذكرناه آنفاً، وروى السائب بن يزيد: أنه مثل زرِّ الحجلة. وروى عبد الله بن سرجِس: أنه رأى جُمْعاً عليه خِيْلان مثل: الثآليل. وروى الترمذي عن جابر بن سمرة، قال: كان خاتم رسول الله ﷺ، يعني: الذي بين كتفيه غدَّة حمراء مثل بيضة الحمامة، وقال: حسن صحيح[٢].

قلـــتُ: وهذه الكلماتُ كلُّها متقاربةُ المعنى مفيدةٌ: أن خاتم النبوة كان نتوءاً قاتماً أحمر تحت كتفه الأيسر قدره إذا قُلِّل: بيضة الحمامة، وإذا كُثِّر: جَمْع اليد، وقد جاء في البخاري: كان بَضْعةً ناشزة[٣]، أي: مرتفعة.

و (قوله: زِرّ الحجلة) الروايةُ المعروفةُ فيه: زرّ ـ بتقديم الزاي ـ قال أبو الفرج الجوزي: الحجلة بيت كالقبة يُستر بالثياب، ويُجعل له باب من جنسه، فيه زرٌّ وعروة. تُشَدُّ إذا أُغلق. وقال القاضي أبو الفضل: الزرّ: الذي يَعْقِدُ به النساء عُرى أحجالهن كأزرار القميص. والحجلة هنا: واحدة الحجال، وهي ستورٌ ذات سُجوفٍ. وقال غيره: الحجلة: هي الطائر المعروف، وززُّها: بيضتها. كما قال جابر: بيضة الحمامة.

قلـــتُ: والأول: أشهر في الزر، والثاني: أشبه بالمعنى؛ وقد أبعد الخطابيُّ فرواه: رزّ الحجلة بتقديم الراء، أراد: بيضة الحجلة. يقال: أرزتِ الجرادةُ، أي: أدخلت ذنبها في الأرض لتبيض.

قلـــتُ: وهذا لا يُلتفت إليه؛ لأن العرب لا تسمى البيضة رزة، ولا تُؤخذ

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٢٠).

(٢) رواه الترمذي (٣٦٤٤).

(٣) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٥٦٣) وعزاه للترمذي.

. . . .

اللغةُ قياساً. قال القاضي أبو الفضل: وهذا الخاتم هو أثر شقِّ الملكين بين كتفيه.

قلــتُ: هذه غفلةٌ من هذا الإمام؛ فإن الشقَّ إنما كان في صدر النبيِّ ﷺ، وأثره إنما كان خطّاً واضحاً من صدره إلى مراقِّ بطنه، كما هو منصوص عليه في الأحاديث السالفة في كتاب الإيمان من كتاب مسلم، وفي البخاري وغيرهما، ولم يثبتْ قطُّ في روايةٍ صحيحةٍ، ولا حسنةٍ، ولا غريبةٍ أنه بلغ بالشق حتى نفذ من وراء ظهره، ولو قدَّرنا أن ذلك الشقَّ، كان نافذاً إلى ظهره، وأن تلك أثره للزم عليه أن يكون مستطيلاً [من بين كتفيه](١) إلى قطنته؛ لأنه الذي يحاذي الصدر من مسربته إلى مراقِّ بطنه، فهذه غفلةٌ منه ـ رحمه الله ـ. ولعلَّ هذا غلطٌ وقع من بعض الناسخين لكتابه؛ فإنه لم يُسْمَعْ عليه فيما علمتُ. وناغض الكتف: هو ما رقَّ منه ولانَ، سمِّي بذلك لنغوضه، أي: حركته، يقال: نغض رأسَه، أي: حرَّكه. ونغضتُ القناةَ: هززْتُها. ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥١] أي: يحركونها استهزاءً، ويُسمَّى الناغض: الغضروف، وكذا جاء في رواية أخرى.

و (قوله: جُمْعاً عليه خِيلانٌ) هو منصوبٌ على الحال، أي: نظرتُ إلى خاتم النبوة مثل الجُمْع. قال ابنُ قتيبة: هو جُمْع الكفّ. يقال: ضربه بجُمْع كفِّه، إذا جمعها فضربه بها. وهو بالضم، ويقال بكسرها. والخِيْلان: جمع خال، وهي نُقَطٌ سودٌ كانت على الخاتم، شبهها لِسَعتها بالثآليل؛ لا أنها كانت ثآليل، وهي جمع ثؤلول: وهي حبيباتٌ تعلو الجلد.

و (قوله: كان رسولُ الله ﷺ ضليعَ الفم)(٢) فسَّره سِمَاك في الأصل: بأنه

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ز).

(٢) هذا الكلام إلى قوله: منهوس العقبين، هو شرحٌ لما أشكل في الحديث رقم (٢٣٣٩) (٩٧) في صحيح مسلم، ولم يورده الشيخ ـ رحمه الله ـ في التلخيص.

. . . .

عظيم الفم، وهو بمعنى واسع الفم كما قاله ثعلب. والعرب تتمدَّح بسعة الفم، وتكره صغرَه.

صفة فمه ﷺ

قلتُ: وكأنَّهم يتخيَّلون أنَّ سَعة الفم يكون عنها: سَعة الكلام، والفصاحة، وأن ضيقَ الفم يكون عنه قلَّةُ الكلام واللُّكنة، وقد وُصِفَ النبيُّ ﷺ بأنه كان يفتتحُ الكلام ويختمه بأشداقه، أي لِسَعة شِدْقَيْه، وعدم تصنُّعه، ومن هذا المعنى سُمِّي الرجل أشدق.

صفة عينيه ﷺ

و (قوله: أشكلَ العينين) قال أبو عُبيد: الشُّهلة: حمرةٌ في سواد العين، والشُّكلة: حمرة في بياضها، وهو محمودٌ. قال الشاعر:

ولا عَيْبَ فِيهَا غَيْرَ شُكْلَةِ عَيْنِها ... كَذاكَ عِتَاقُ الخَيْلِ شُكْلٌ عُيُونُها

قال صاحب (الأفعال): شَكِلَتِ العينُ: بكسر الكاف، شُكْلةً، وشُكْلاً: إذا خالطَ بياضَها حمرةٌ.

قلتُ: ونحو هذا في الصحاح، وزاد: عينٌ شَكْلاء: بيِّنة الشَّكَل. ورجلٌ أَشكل، ودمٌ أشكل: إذا كان فيه بياض وحمرة، وهذا هو المعروف عند أهل اللغة، فأما ما فسَّره به سِمَاك من أنه طويل شقِّ العين، فغير معروف عندَهم، ولم أقف على من قاله غيره.

و (قوله: منهوس العقبين)[1] يروى بالسين المهملة والمعجمة. قال ابن الأعرابي: يُقال رجل منهوس القدمين، ومنهوش القدمين، أي: قليل لحمهما، كما قال سِمَاك، وهو مأخوذ من النهس والنهش. قال أبو العباس: النهس أخذ بأطراف الأسنان، والنهشُ بالأضراس.

---

(١) في (ز) و (م ٣): القدمين.

[٢٢٥٦] وعن أنسٍ، قال: كانَ رسولُ الله ﷺ ليس بالطَّويل البائنِ، ولا بالقصير، وليس بالأبيضِ الأمْهَق، ولا بالآدَمِ، ولا بالجَعْدِ القَطَطِ، ولا بالسَّبِط، ....

طولُه ﷺ

و (قوله: ليس بالطويل البائن) أي: الذي يُباين الناسَ بزيادة طوله، وهو الذي عبَّر عنه في الرواية الأخرى: (بالمُشَذَّب)، وفي الأخرى: (بالمُمَغَّط)[١] ـ بالعين والغين ـ: أي: المتناهي في الطول، وهو عند العرب: العَشَنَّقُ، والعَشَنَّطُ.

و (قوله: ولا بالقصير المتردِّد[١]) أي: الذي تداخلَ بعضُه في بعضٍ، وهو المسمَّى عند العرب: بحنبل، وأقصر منه: الحنتل. وكلا الطرفين مستقبحٌ عند العرب، وخيرُ الأمور أوساطها. وكذلك كان النبيُّ ﷺ في جميع أحواله.

لون بشرته ﷺ

و (قوله: ليس بالأبيض الأمْهق) أي: الشديد البياض؛ الذي لا يُخالط بياضَه حمرةٌ، ولا غيرُها. والعربُ تكرهه؛ لأنه يُشبه البرصَ.

و (قوله: ليس بالآدَم) أي: الذي تغلبُ سمرتَه السوادُ؛ فإنَّ السُّمرة بياضٌ يميل إلى سوادٍ، والسَّحْمَة ـ بالسين ـ فوقه، ثم الصَّحْمَة ـ بالصَّاد ـ فوقه، وهو غالبُ لون الحبشة، ثم الأُدَمة فوقه، وهو غالبُ ألوان العرب. والنبيُّ ﷺ كان بياضُه مُشْرَباً بحمرة في صفاء، فصدقَ عليه أنه أزهرُ. وأنه مُشْرَبٌ، وهذا اللون: هو أعدلُ الألوان وأحسنُها.

صفة شعره ﷺ

و (قوله: ولا بالجَعْدِ القَطَط) يروى بفتح الطاء وكسرها، وهو الشديد الجعودة الذي لا يطول إلا باليد، وهو حالُ شعور السودان.

و (قوله: ولا بالسَّبِط) يعني المسترسل الذي لا تكسُّر فيه، وهو غالبُ شعور الروم، والرَّجِلُ هو الوسطُ بين ذينِك.

---

(١) رواه الترمذي برقم (٣٦٣٨) عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ.

بعثه الله على رأس أربعين سنةً، فأقام بمكّة عَشْر سنينَ، وبالمدينةِ عَشْرَ سنين، وتوفَّاه الله على رأس ستِّينَ سنةً، وليس في رأسه ولحيته عشرونَ شعرةً بيضاءَ.

وفي رواية: كان أَزْهَرَ.

رواه أحمد (٣/ ٢٤٠)، والبخاريُّ (٣٥٤٨)، ومسلم (٢٣٤٧)، والترمذيُّ (٣٦٢٣).

* * *

سنُّه ﷺ حين بُعث

و (قول أنسٍ: بعثَه الله على رأس أربعين سنةً) يعني: من مولده، أي عند كمالها بعثَه الله رسولاً. وهذا هو أكثرُ الأقوال، وقد جاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه بُعث على رأس ثلاث وأربعين سنة، وهو قول سعيد بن المسيب.

و (قوله: فأقامَ بمكة عَشْراً) يعني: بعد البعث وقبل الهجرة. وهذا مما اختلف فيه. فقيل: عشر، وقيل: ثلاث عشرة، وقيل: خمس عشرة، ولم يُختلف أنه أقامَ بالمدينة عشراً.

سنُّه ﷺ حين توفي

و (قوله: وتوفَّاه الله على رأسِ ستينَ سنة) هذا أحد قولي أنس، وفي الرواية الأخرى عنه: ثلاث وستين. ووافقه على ذلك: عبد الله بن عباس ومعاوية وعائشة، وهو أصحُّ الأقوال، وأصحُّ الروايات على ما ذكره البخاريُّ، وقد ذُكر عن أنس: خمس وستين سنة، وهي الرواية الأخرى عن ابن عباس، ولا خلافَ أنه ﷺ وُلد عام الفيل.

و (قوله: وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء) قد قلنا إن هذا منه تقديرٌ على جهة التقليل، وذكرنا: أن شيبَه كان أكثر من هذا.

و (قول عمرو في الأصل لعروة: كم كانَ رسول الله ﷺ بمكة؟ قال: عَشْراً)

(٢٠) بـــاب
في خاتمِ النُّبُوَّةِ

[٢٢٥٧] عن السائبِ بنِ يزيدَ، قال: ذَهَبَتْ بي خالتي إلى رسولِ الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! إنَّ ابنَ أختي وَجِعٌ! فَمَسَحَ رأسي، ودعا لي بالبركة، ثم توضَّأ فشربتُ من وَضُوئِه، ثم قُمتُ خلفَ ظهرِه، فنظرتُ إلى خاتَمِهِ بين كَتِفيه مِثلُ زرِّ الْحَجَلَةِ.

رواه البخاريُّ (٣٥٤١)، ومسلم (٢٣٤٥)، والترمذيُّ (٣٦٤٣).

[٢٢٥٨] وعن عبد الله بن سَرْجسٍ، قال: رأيتُ النَّبيَّ ﷺ، وأكلتُ معه خُبْزاً ولَحْماً ـ أو قال: ثريداً ـ قال: فقلت له: أَسْتَغْفَرَ لَكَ النبيُّ ﷺ؟ قال: نعم، ولك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

قال: ثم دُرتُ خلفَهُ فنظرتُ إلى خاتَم النُّبوةِ بين كَتِفَيْهِ عند ناغِضِ كَتِفِهِ اليُسْرى جُمْعاً، عليه خيلانٌ، كأمثال الثَّآليلِ.

رواه أحمد (٥/ ٨٢)، ومسلم (٢٣٤٦)، والترمذيُّ في الشمائل (٢٢).

* * *

كذا وقع لبعض الرواة. معناه: كم مُدَّة كونِه وإقامتِه بها؟ أي: بعد المبعث، وقد روي: لبثَ، بمعناه.

و (قوله: فإن ابن عباس يقول: بضع عشرة)[1] قد تقدَّم أن الأشهر في

(١) هذه الفقرة والتي تليها لم ترد في التلخيص، وإنما شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ من خلالها ما ورد في حديث الأم رقم (٢٣٥٠) (١١٦).

(٢١) بـــاب
كم كانَ سِنُّ رسولِ الله ﷺ يوم قُبض؟
وكم أقام بمكة؟

[٢٢٥٩] عن أنسِ بنِ مالكٍ، قال: قُبِضَ رسولُ الله ﷺ وهو ابنُ ثلاثٍ وستين، وأبو بكر وهو ابن ثلاثٍ وستين، وعمرُ وهو ابن ثلاث وستين.

رواه مسلم (٢٣٤٨).

[٢٢٦٠] عن ابن عباسٍ، قال: أقامَ رسولُ الله ﷺ بمكة ثلاثَ عَشْرةَ سنةً يوحىٰ إليه، وبالمدينة عَشْراً، ومات وهو ابن ثلاثٍ وستين سنةً.

رواه أحمد (١/ ٢٤٩)، والبخاريُّ (٣٨٥١)، ومسلم (٢٣٥١) (١١٨)، والترمذيُّ (٣٦٥١) و(٣٦٥٢).

[٢٢٦١] وعنه، أنَّ رسول الله ﷺ توفي وهو ابن خمسٍ وستين.

البضع أنه من الثلاث إلى التسع، فيصلح البضعُ هنا لقول ابن عباس الثلاث عشرة والخمس عشرة، فأنكر عروةُ ذلك.

و(قوله: فغَفَّرَ) من المغفرة، وهي رواية الجلودي، أي: قال غفر الله له. وفي رواية ابن ماهان: فصغَّره من الصغر، أي: أشار إلى أن ابن عباس كان صغيراً في ذلك الوقت، فلم يضبطه لصغره، وقيل: إنه ولد في الشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، وهذا هو المناسب لقول عروة.

و(قوله: إنما أخذه من قول الشاعر) يعني به: قول أبي قيس بن صَرْمَة:

ثَوَى في قُريشٍ بِضْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً ... يُـذَكِّـرُ لَـوْ يَلْقَـى صَـدِيقـاً مُـوَاتِيَـا

وفي روايةٍ: أربعين بُعِثَ لها: خَمْسَ عَشْرَة بمكة. يأمن ويخاف. وعَشْراً مُهَاجَرُه إلى المدينة.

وفي أخرى: أَقَامَ رسولُ الله ﷺ بمكةَ خَمْسَ عَشْرةَ سنةً: يَسْمَعُ الصَّوْتَ، ويرى الضوء سَبْعَ سنين ولا يرى شيئاً، وثمانَ سِنين يُوحَىٰ إليه، وَأَقامَ بالمدينةِ عشراً.

رواه أحمد (١/ ٢١٥)، ومسلم (٢٣٥٣) (١٢١ و ١٢٢ و ١٢٣).

و (قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: خمس عشرة سنة، يأمنُ، ويخاف) يعني: أنه كان في تلك الحال غير مستقلٍّ لإظهار أمره، فكان إذا أخفى أمره تركوه، فأمن على نفسه، وإذا أعلن أمره وأفشاه، بأن يدعوهم إلى الله، ويفتح عليهم، تكالبوا عليه، وهمُّوا بقتله، فيخاف على نفسه إلى أن أخبره الله تعالى بعصمته منهم، فلم يكن يبالي بهم كما قدمناه.

سلام الجمادات عليه ﷺ بمكة

و (قوله: يسمع الصوت، ويرى الضوء سبع سنين) أي: أصوات الملائكة والجمادات والحجارة، فيسلمون عليه بالرسالة، كما خرَّجه الترمذي عن عليٍّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: كنتُ مع النبي ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبلٌ، ولا شجرٌ، إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله. قال: هذا حديث حسن غريب[1]. ويعني بالضوء: نور الملائكة، ويحتملُ أن يكون أنواراً تنوّر بين يديه في أوقات الظلمة، يحجب عنها غيره. ولذلك نقل: أنه كان يُبصر بالليل كما يبصر بالنهار، ويعني: أن هذه الحالة ثبتتْ عليه سبع سنين، ثم بعد ذلك أوحى الله إليه. أي: جاءه الوحي، وشافهه بالخطاب ثماني سنين، وعلى هذا: فكمل له بمكة خمس عشرة سنة.

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٢٦).

[٢٢٦٢] وعن جريرٍ: أنَّه سمع معاوية يخطبُ، فقال: مات رسول الله ﷺ وهو ابنُ ثلاثٍ وستين، وأبو بكرٍ وعمرُ، وأنا ابن ثلاث وستين.

رواه أحمد (٤/ ٩٦ و ٩٧)، ومسلم (٢٣٥٢) (١٢٠)، والترمذيّ (٣٨٥٤).

* * *

و (قول معاوية: مات رسولُ الله ﷺ وهو ابنُ ثلاث وستين سنة، وأبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ) معطوفان على رسول الله ﷺ، ويحتمل أن يُرفعا بالابتداء، وخبرهما محذوف، أي: وهما كذلك.

و (قوله: وابن ثلاث وستين) الواو للحال، فيحتمل أن يريدَ أنه كان وقت توفي رسولُ الله ﷺ ابن ثلاث وستين، ويحتمل أن يكون كذلك وقت حدَّث بهذا الحديث، والحاصل: أنه وصل إلى ثلاث وستين سنة، وقد قيل في هذا: إن معاوية استشعر أنه يوافقهم في السنِّ فيموت وهو ابن ثلاث وستين سنة، وليس بصحيح عند أحدٍ من علماء التاريخ؛ فإن أقلَّ ما قيل في عمره يوم توفي: أنه كان ثمانياً وسبعين سنة، وأكثر ما قيل فيه: ست وثمانون، وقيل: اثنان وثمانون سنة، [وكانت وفاته بدمشق، وبها دُفِن سنة ستين في النصف من رجبها. قال ابن إسحاق: كان معاوية أميراً عشرين سنة][1]، وكان خليفةً عشرين سنةً، وقال غيره: كانت خلافته تسع عشرة سنةً وستة أشهرٍ وثمانية وعشرين يوماً.

* * *

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ع).

(٢٢) بـــاب
عدد أسماء النَّبيِّ ﷺ

[٢٢٦٣] عن جُبَيرِ بن مُطْعم، عن أبيه: أنَّ النبي ﷺ قال: «أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يُمحى بي الكُفر، وأنا الحاشِرُ الذي يُحشر الناسُ على عَقبي، وأنا العاقب»..............................

---

(٢٢) ومن بـــاب: عدد أسماء رسول الله ﷺ

(قوله ﷺ: «أنا محمد، وأنا أحمد») كلاهما مأخوذٌ من الحمد، وقد تكلَّمنا على الحمد في أول الكتاب. فمحمَّد: مفعَّل من حمَّدت الرجل مشدداً: إذا نسبت الحمد إليه، كما يقال: شجَّعت الرجل، وبخَّلته: إذا نسبت ذلك إليه، فهو بمعنى المحمود. والنبيُّ ﷺ أحقُّ الخلق بهذا الاسم؛ فإن الله تعالى قد حمده بما لم يحمد به أحداً من الخلق، وأعطاه من المحامد ما لم يعط مثله أحداً من الخلق، ويُلْهِمُه يوم القيامة من محامده ما لم يلهمه أحداً من الخلق، وقد حمده أهلُ السموات والأرض والدنيا والآخرة، حمداً لم يحمد به أحداً من الخلق، فهو أحمدُ المحمودين، وأحمدُ الحامدين.

من أسمائه ﷺ الماحي

و (قوله: «وأنا الماحي الذي يُمحى بي الكفر») أي: من الأرض التي زويت له، وأُرِي أن مُلْكَ أمته سيبلغه، أو يعني بذلك: أنه محي به معظم الكفر وغالبه بظهور دينه على كل الأديان بالحجج الواضحة، والغلبة العامة الفادحة، كما قد صرَّح به الحقُّ بقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣].

من أسمائه ﷺ الحاشر

و (قوله: «وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي»[1]) الحاشر: اسم

---

(١) في كل أصول المفهم: (قدمي) وما أثبتناه من إكمال إكمال المعلم للأبي، ومن التلخيص، وصحيح مسلم.

والعاقب: الذي ليس بعده نبي.

وفي رواية: «الذي يحشر الناس على قدميّ» وقد سمَّاه الله رؤوفاً رحيماً.

رواه أحمد (٤/ ٨٠)، والبخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤) (١٢٤ و ١٢٥)، والترمذيُّ (٢٨٤٠).

فاعل من حشر، أي: جمع. فيعني به: أنه الذي يُحشر الخلقُ يوم القيامة على أثره، أي: ليس بينه وبين القيامة نبيٌّ آخر؛ ولا أمَّةٌ أخرى، وهذا كما قال: «بُعثت أنا والساعة كهاتين» وقرن بين أصبعيه: السبابة والوسطى[١].

و (قوله في الرواية الأخرى: «على قدمي») قيل فيه: على سابقتي، كما قال تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٣] أي: سابقة خير وإكرام. وقيل: على سُنَّتي. وقيل: بَعْدي. أي: يتبعوني إلى يوم القيامة. وهذا أشبهها؛ لأنه يكون معناه معنى عقبي؛ لأنه وقع موقعه في تلك الرواية، ووجه توسُّعه فيه: كأنه قال: يحشر الناسُ على أثر قدمي، أي: بعدي. والله أعلم.

من أسمائه ﷺ العاقب

و (قوله ﷺ: «وأنا العاقب»، وفي الرواية الأخرى: «المقفّي») ومعناهما واحد، وهو أنه ﷺ آخرُ الأنبياء، وخاتمهم، وأكرم أعقابهم، وأفضل مَن قبلهم. وقفَّاهم، أي: كان بعدهم، واتبع آثارهم. قال ابنُ الأنباري: المقفِّي: المتَّبع للنبيين قبله، يقال: قفوته، أقفوه، وقفيته: إذا تبعته، ومثله: قفته، أقوفه، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الحديد: ٥٧]، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقافية كل شيءٍ: آخره.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٥)، وابن ماجه (٤٠٤٠) من حديث أبي هريرة.

[٢٢٦٤] عن أبي موسى الأشعري، قال: كان رسول الله ﷺ يُسمِّي لنا نفسهُ أسماءً. فقال: «أنا محمد، وأحمدُ، والمُقفِّي، والحاشر، ونبي التَّوبة، ونبي الرحمة».

رواه أحمد (٤/ ٣٩٥)، ومسلم (٢٣٥٥) (١٢٦).

* * *

محمد ﷺ نبيّ التوبة

و (قوله: «ونبيُّ التوبة») أي: الذي تكثر التوبةُ في أمته، وتعمُّ حتى لا يوجد فيما ملكته أمته إلا تائب من الكفر، فيقرب معناه على هذا من (الماحي)؛ إلا أن ذلك يشهدُ بمحو ما ظهر من الكفر، وهذا يشهدُ بصحَّة ما يخفى من توبة أمته منه، ويحتمل أن يكون معناه: أن أمته لما كانت أكثرَ الأمم كانت توبتُهم أكثرَ من توبة غيرهم، ويحتمل أن تكون توبةُ أمته أبلغ حتى يكون التائبُ منهم كمن لم يذنب، ولا يُؤاخذ لا في الدنيا، ولا في الآخرة، ويكون غيرُهم يُؤاخذ في الدنيا؛ وإن لم يؤاخذ في الآخرة، والله أعلم. والذي أحوجَ إلى هذه الأوجه: اختصاصُ نبينا ﷺ بهذا الاسم مع أن كلَّ نبيٍّ جاء بتوبة أمته، فيصدق أنه نبيُّ التوبة، فلا بُدَّ من إبداء مزيَّةٍ لنبينا يختصُّ بها كما بيَّنَّا.

محمد ﷺ نبيّ الرحمة والملحمة

و (قوله: «ونبيُّ الرحمة»، وفي أخرى: «المرحمة»، وفي أخرى: «الملحمة») فأما الرحمة، والمرحمة فكلاهما بمعنىً واحد، وقد تقدَّم أن الرحمةَ إفاضةُ النعم على المحتاجين، والشفقة عليهم، واللطف بهم، وقد أعطى الله نبينا ﷺ وأمته منها ما لم يُعْطِه أحداً من العالمين، ويكفي من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فهو أعظمُ كل رحمة، وأمته القابلة لما جاء به قد حصلت على أعظم حظٍّ من هذه الرحمة، وشفاعتُه يوم القيامة لأهل الموقف أعمُّ كلِّ رحمة، ولأهل الكبائر أجلُّ كلِّ نعمة، وخاتمة ذلك شفاعته في ترفيع منازل أهل الجنَّة. وأما رواية مَن روى: نبيُّ الملحمة: فهذا صحيحٌ في نعته، ومعلومٌ في الكتب القديمة مِن وصفه، فإنه قد جاء فيها: أنه نبيُّ الملاحم،

. . . .

وأنه يجيء بالسيف والانتقام ممن خالفه من جميع الأنام، فمنها ما جاء في صحف حبقوق[١]، قال: جاء الله من التين، وتقدس من فاران، وامتلأت الأرض من تحميد أحمد وتقديسه، وملأ الأرض من هيبته. وفيها أيضاً: تضيء الأرض بنورك، وستنزع في قوسك إغراقاً، وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواءً. ويعني بالتين الجبال التي تنبته، وهي جبال بيت المقدس، ومجيء الله تعالى منها عبارة عن إظهار كلامه الذي هو الإنجيلُ على لسان عيسى عليه السلام. وفاران: مكة، كما قال تعالى في التوراة: إن الله أنزل هاجر وابنها إسماعيل فاران، يعني: مكة بلا خلافٍ بينهم. وفي التوراة قال: قد جاء الله من سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلى من فاران. فمجيئه تعالى من سيناء: كناية عن ظهور موسى عليه السلام بها. وإشراقه من ساعير: وهي جبال الروم من أدوم: كناية عن ظهور عيسى عليه السلام. واستعلاؤه من فاران: كناية عن القهر الذي يقهر به نبيُّنا ﷺ الكفرَ كلَّه بالقتل والقتال. وقال في التوراة: يا موسى! إنِّي أقيم لبني إسرائيل [من إخوتهم نبياً مثلك، أجعل كلامي على فيه، فمن عصاه انتقمتُ منه، وإخوة بني إسرائيل][٢] العرب؛ فإنهم ولد إسماعيل عليه السلام، وهم المعنيون هنا. وقوله: أجعل كلامي على فيه. يعني به: القرآن، والانتقام ممن عصاه: هو القتلُ والقتال الذي جاء به، ومثل هذا كثير. وقد ذكرنا منه مواضع كثيرة جاءت في كتب أنبياء بني إسرائيل في كتاب (الأعلام)[٣].

---

(١) من أنبياء اليهود قبل الجلاء، تنبَّأ في أواخر القرن السابع في مملكة يهوذا، فأنَّب الشعب، وأنذره بمجيء الكلدانيين قصاصاً لهم. ونبوة حبقوق من أسفار العهد القديم. (المنجد).

(٢) ما بين حاصرتين سقط من (م ٢).

(٣) انظر كتاب: «حجة الله على العالمين» (١/ ٨٦) وما بعدها.

. . . .

وقد قال النبيُّ ﷺ: «يا معشر قريش! لقد جئتُكم بالذبح»[١]. وقال: «أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلٰهَ إلا الله، ويؤمنوا بي، وبما جئت به»[٢]، فهو نبي الملحمة التي بسببها عمَّت الرحمة وثبتت المرحمة. وقد تتبَّع القاضي أبو الفضل ما جاء في كتاب الله تعالى، وفي سُنَّة رسوله ﷺ، ومما نقل في الكتب القديمة. وإطلاق الأمَّة أسماءً كثيرةً، وصفاتٍ عديدة للنبيِّ ﷺ صدقت عليه مسمَّياتها، ووجدت فيه معانيها، وعُرِف في كتاب (الشفا في التعريف بحقوق المصطفى). وقد ذكر القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب (الأحكام) من أسماء النبيِّ ﷺ سبعة وستين اسماً، من أرادها وجدها هنالك[٣].

من أسمائه ﷺ رؤوفٌ رحيم

و (قوله: وقد سمَّاه الله رؤوفاً رحيماً) ليس هذا من قول النبي ﷺ بل: من قول غيره، وهو الصحابي، والله أعلم، ألا تراه كيف أخبر عنه بخطاب[٤] الغيبة، ولو كان من قوله ﷺ لقال: وقد سماني الله: رؤوفاً رحيماً. هذا الظاهِرُ، ويحتمل أن يكون ذلك من قوله. وقد يخرج المتكلم من الحضور إلى الغيبة كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢] وفي هذا إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. والرؤوف: الكثير الرأفة. والرحيم: الكثير الرحمة؛ فإنها للمبالغة. وقد جاء في الصحيح: «لي خمسة أسماء»[٥] فحصرها بالعدد، وذكر الأسماء المتقدِّمة. وقد يقال: ما وجهُ تخصيص هذه الأسماء الخمسة بالذكر مع أن أسماءه أكثر من ذلك؟ فيجاب عنه: بأن هذه

---

(١) رواه أبو يعلى (٣٤٣)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (١٥٩).

(٢) رواه أحمد (٣/ ١٩٩)، والبخاري (٣٩٢)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٠٨).

(٣) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٥٤٦).

(٤) في (ز): بلسان.

(٥) رواه البخاري (٣٥٣٢).

(٢٣) بـــاب
كان النبيُّ ﷺ أعلمَ الناس
بالله وأشدَّهم له خشيةً

[٢٢٦٥] عن عائشة، قالت: صَنَعَ رسول الله ﷺ أمراً فترخَّص فيه،

الخمسة الأسماء هي الموجودةُ في الكتب المتقدِّمة، وأعرفُ عند الأمم السالفة، ويُحتمل أن يقالَ: إنه في الوقت الذي أخبر بهذه الأسماء الخمسة لم يكن أوحي إليه في غيرها بشيءٍ، فإن أسماءه إنَّما تلقَّاها من الوحي، ولا يُسمَّى إلا بما سمَّاه اللَّهُ به، وهذا أسدُّ الجوابين إن شاء الله تعالى.

(٢٣) ومن بـــاب: كون النبيِّ ﷺ أعلم الناس بالله وأشدهم له خشية

كان ﷺ أعلمَ الناس بالله

إنما كان النبيُّ ﷺ أعلمَ الناس بالله؛ لما خصَّه اللَّهُ تعالى به في أصل الخِلْقة من كمال الفطنة، وجودة القريحة، وسَداد النظر، وسرعة الإدراك، ولِما رفعَ اللَّهُ عنه مِن موانع الإدراك، وقواطع النظر قبل تمامه، ومَن اجتمعتْ له هذه الأمورُ سهل عليه الوصول إلى العلوم النظرية، وصارت في حقِّه كالضرورية، ثم إن الله تعالى قد أطلعه من علم صفاته وأحكامه، وأحوال العالم كله على ما لم يُطْلع عليه غيره، وهذا كلُّه معلومٌ من حاله ﷺ بالعقل الصريح، والنقل الصحيح، وإذا كان في علمه بالله تعالى أعلم الناس لزم أن يكون أخشى الناس لله تعالى؛ لأن الخشيةَ منبعثةٌ عن العلم، وبحسبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. وقد أشار بعضُ المتصوفة إلى أن علوم الأنبياء ضرورية، وسماها: كشفاً، وهذا كلامٌ فيه إجمالٌ، ويحتاجُ إلى استفصال، فيقال لقائله: إن أردت بكونها ضرورية أنها حاصلةٌ في أصل فطرتهم، وأنهم جُبِلُوا عليها، بحيث

. . . .

لم يستعملوا في شيء منها[١] أفكارهم، ولا حدقوا نحوها بصائرهم، ولا أنظارهم، فهو قولٌ باطل؛ لما يعلم قطعاً أنهم مُكلَّفون بمعرفة الله، ومعرفة صفاته وأحكامه، ومأمورون بها، والضروريُّ لا يكلَّف به؛ لأنه حاصل، والحاصل لا يطلب، ولا يُبتغى؛ ولأن الإنسانَ لا يتمكن مِن ترك ما جُبِل عليه، ولا من فعله، وما كان كذلك لم يقعْ في الشريعة التكليفُ به بالنص والإجماع. وإنما الخلافُ في جوازه عقلاً، وإن أراد به أن تلك العلومَ تصيرُ في حقهم ضرورية بعد تحصيلها بالطرق النظرية، والقيام بالوظائف التكليفية، فتتوالى عليهم تلك العلومُ، فلا يتأتى لهم التشكك فيها، ولا الانفكاك عنها، فنقول: ذلك صحيحٌ في حقِّ الأنبياء قطعاً، وخصوصاً في حق النبيِّ ﷺ كما هو المعلوم من حاله وحالهم ـ صلّى الله عليه وعليهم أجمعين ـ، وأما غيرهم فيجوز أن يكرم اللّهُ تعالى بعضَ أوليائه بشيءٍ من نوعٍ من ذلك، لكن على وجه الندور والقلة، وليس مُطَّرِداً في كُلِّ الأولياء، ومَن فُتِحَ له بشيءٍ من ذلك في بعض الأوقات وبعض المعلومات، ويكون ذلك خَرْقاً للعادات؛ فإن سُنَّة الله تعالى في العلوم النظرية: أنها لا تتوالى، ولا تدوم، ويمكن أن يُتشكَّكَ فيما كان منها معلوماً، هذه سُنَّة الله الجارية، وحكمته الماضية، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً.

تركه ﷺ التشديدَ في الدِّين

و (قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: صنع رسول الله ﷺ أمراً فترخّص فيه) أي: فعل أمراً ترك فيه التشديد لأنَّه رُخِّص له فيه، كما قال في طريق آخر: «ما بالُ رجالٍ يرغبون عما رُخِّص لي فيه»[٢] ولعل هذا من عائشة ـ رضي الله عنها ـ إشارة لحديث النَّفر الذين استقلُّوا عبادةَ النبيِّ ﷺ، فقال أحدهم: أما أنا فأصلِّي ولا أنام، وقال الآخر: وأنا أصوم ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا لا أنكح النساء، فلما بلغ

---

(١) في (م ٣): من ذلك.
(٢) رواه مسلم (٢٣٥٦) (١٢٨).

فبلغ ذلك ناساً من أصحابه، فكأنهم كرهوه وتنزَّهوا عنه، فَبَلَغه ذلك، فقام خطيباً فقال: «ما بالُ رجالٍ بَلَغَهم عنِّي أمرٌ ترخَّصْتُ فيه فكرهُوه وتنزهُوا عنه، فوالله لأنا أعلمُهُم بالله، وأشدُّهُم له خشيةً!».

رواه مسلم (٢٣٥٦) (١٢٧).

* * *

النبيَّ ﷺ ذلك، قال: «وأما أنا فأصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فمن رغب عن سنَّتي فليس مني»[١]. وقد تقدَّم في النكاح.

و (قوله: «ما بالُ رجالٍ بلغهم عني أني ترخَّصت في أمرٍ فكرهوه[٢]، وتنزَّهُوا عنه») هذا منه ﷺ عدولٌ عن مواجهة هؤلاء القوم بالعتاب، وكانوا معينين عنده، لكنَّه فعل ذلك لغلبة الحياء عليه، ولتلطُّفه في التأديب، ولسَتْر المعاتب. وتنزُّه هؤلاء عما ترخَّص فيه النبيُّ ﷺ غَلَطٌ أوقعهم فيه ظنٌّ أن المغفورَ له يُسامح في بعض الأمور، ويسقط عنه بعض التكاليف، والأمر بالعكس لوجهين:

أحدهما: أن المغفورَ له يتعيَّنُ عليه وظيفةُ الشكر، كما قال ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[٣].

الأعلم بالله تعالى هو الأخشى له

وثانيهما: أن الأعلم بالله وبأحكامه: هو الأخشى له، كما قال ﷺ: «إني لأعلمكم بالله تعالى، وأشدكم له خشية» وقال في موضع آخر: «وأعلمكم بما أتقي الله».

النهي عن التنطع في الدِّين

ويستفاد من هذا الحديث النهيُ عن التنطُّع في الدين، وعن الأخذ بالتشديد

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في التلخيص: عني أمر ترخصتُ فيه فكرهوه.

(٣) رواه أحمد (٤/ ٢٥٥)، والبخاري (٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨١٩) (٨٠)، والترمذي (٤١٢)، والنسائي (٣/ ٢١٩)، وابن ماجه (١٤١٩).

(٢٤) بـــاب
وجوب الإذعان لحكم رسول الله ﷺ
والانتهاء عما نهى عنه

[٢٢٦٦] عن عبد الله بن الزُّبير: أنَّ رجلاً من الأنصار خاصَم الزُّبيرَ عنـد رسـول الله ﷺ فـي شِـراج الحـرَّة التـي يسقـون بهـا النخـلَ، فقـال الأنصاريُّ: سرِّح الماءَ يمرُّ. فأَبى عليهم، فاختصموا عند رسول الله ﷺ،

في جميع الأمور، فإن دينَ الله يُسْرٌ، وهو: الحنيفية السَّمحة؛ فإن الله يُحبُّ أن تُؤتى رخصه، كما يُحبُّ أن تؤتى عزائمه. وحاصل الأمر: أنّ الواجبَ التمسك بالاقتداء بهدي النبيِّ ﷺ، فما شدَّد فيه التزمناه على شدَّته، وفعلناه على مشقَّته، وما ترخَّص فيه أخذنا برخصته، وشكَرْنا الله تعالى على تخفيفه ونعمته، ومن رَغِبَ عن هذا، فليس على سُنَّتِه، ولا على منهاج شريعته، وفيه حُجَّة على القول بمشروعية الاقتداء به في جميع أفعاله، كما نقولُه في جميع أحواله، إلا ما دلَّ دليلٌ على: أنه من خصوصياته، وقد أوضحنا هذا في الأصول.

(٢٤) ومن بـــاب: وجوب الإذعان لحكم رسول الله ﷺ

(قوله: إنَّ رجلاً من الأنصار خاصمَ الزبير في شِراج الحرَّة) قيل: إنَّ هذا الرَّجل كان من الأنصار نسَباً، ولم يكن منهم نصرةً وديناً، بل كان منافقاً؛ لما صدر عنه من تهمة رسول الله ﷺ بالجَوْر في الأحكام لأجل قرابته، ولأنَّه لم يرضَ بحكمه، ولأنَّ اللَّهَ تعالى قد أنزل فيه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...الآية﴾ [النساء: ٦٥]. هذا هو الظَّاهر من حاله، ويحتمل: أنَّه لم يكن منافقاً، ولكنْ أصدرَ ذلك منه بادرةُ نفسٍ، وزلَّةُ شيطانٍ، كما قد اتَّفقَ لحاطب بن أبي بلتعة، ولحسَّانَ، ومِسْطح، وحَمْنَة في قضية الإفك، وغيرهم ممَّن

فقال رسول الله ﷺ للزُّبير: «اسق يا زبيرُ؛ ثم أرسل الماء إلى جارك». فغضب الأنصاري، فقال: يا رسول الله! أنْ كانَ ابنَ عمتك؟! فتلوّن وجه نبي الله ﷺ. ثم قال: «يا زبير! اسق، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى

بدرتْ منهم بوادرُ شيطانيَّة، وأهواءُ نفسانية، لكنْ لُطِفَ بهم حتى رجعوا عن الزَّلة، وصحَّت لهم التوبة، ولم يؤاخذوا بالحَوْبة.

و (الشِّراج) ـ بالشين والجيم المعجمتين ـ جمع شَرِجَة، وهي مسيل الماء إلى النَّخل والشَّجر. وإضافتها إلى الحرة لكونها فيها.

خصومةُ الزبير مع رجل من الأنصار

والمخاصمة إنَّما كانت في السَّقي بالماء الذي يسيلُ فيها، وكان الزبيرُ يتقدَّم شَرْبُه على شَرْب الأنصاريِّ، فكان الزبيرُ يُمسكُ الماءَ لحاجتِه، فطلبَ الأنصاريُّ أن يُسرِّحَه له قبل استيفاءِ حاجتِه، فلما ترافعا إلى النبيِّ ﷺ سلكَ النبيُّ ﷺ معهما مسلكَ الصُّلح، فقال له: «اسق يا زبير! ثمَّ أرسلِ الماءَ إلى جارك» أي: تساهلْ في سقيكَ، وعجِّل في إرسال الماء إلى جارك، يحضُّه على المسامحة والتيسير. فلمَّا سمعَ الأنصاريُّ بهذا لم يرضَ بذلك، وغضبَ لأنه كان يريدُ ألا يمسكَ الماءَ أصلاً؛ وعند ذلك نطقَ بالكلمة الجائرة المهلكة الفاقرة، فقال: آنْ كان ابنَ عمتك؟! بمدِّ همزة «أنْ» المفتوحة؛ لأنَّه استفهامٌ على جهة الإنكار. أي: أتحكمُ له عليَّ لأجلِ أنَّه قرابتُك؟! وعند ذلك تلوَّنَ وجهُ رسول الله ﷺ غضباً عليه وتألُّماً من كلمته. ثمَّ إنَّه بعدَ ذلك حكَم للزبير باستيفاء حقِّه، فقال: «اسقِ يا زبير، ثُمَّ أمسكِ[1] الماءَ حتى يرجع إلى الجدْر». وفي غير هذه الرِّواية: فاستوعى للزبير حقَّه[2].

---

(١) كذا في الأصول، وفي التلخيص وصحيح مسلم وغيره: احبسْ.
(٢) هي في البخاري (٢٣٦٢).

الجَذْر». فقال الزبير: والله إني لأحْسِبُ هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. . . ﴾ [النساء: ٦٥].

و (الجَذْر) بفتح الجيم وسكون الدال هي روايتي، ويُجمع: جُدوراً. وهو الأصل. ويعني به: حتى يصلَ الماء إلى أصول النَّخل والشجر، وتأخذَ منه حقَّها. وفي بعض طرقه: حتى يبلغَ الماء إلى الكعبين[١]. فيعني به. ـ والله أعلم ـ: حتى يجتمع الماء في الشَّرِبات. وهي: الحفر التي تُحفر في أصول النَّخل والشَّجر إلى أن تصل من الواقف فيها إلى الكعبين. وقد روي (الجِذْر) بكسر الجيم، وهو الجدار، ويجمع على (جُدُر). ويعني به: جدران الشَّرِبات، فإنها تُرفع حتى تكونَ تشبهُ الجدار. فإن قيل: كيف كان حكم النبيِّ ﷺ للزبير على الأنصاريِّ في حال غضبِه وقد قال ﷺ: «لا يقضي القاضي وهو غضبان؟»[٢].

عصمته ﷺ من الخطأ في التبليغ والأحكام

فالجوابُ: أنَّا قدَّمنا أنَّ هذا النَّهي مُعَلَّلٌ بما يُخافُ على القاضي من التشويش المؤدِّي به إلى الغلط في الحكم، والخطأ فيه، والنَّبيُّ ﷺ معصومٌ من الخطأ في التبليغ والأحكام، بدليل العقل الدَّالِّ على صدقه فيما يُبَلِّغُه عن اللَّه تعالى وفي أحكامه، ولذلك قالوا: أنكتب عنك في الرِّضا والغضب؟ قال: «نعم»[٣]. فدلَّ ذلك: على أنَّ المراد بالحديث: من يجوزُ عليه الخطأ من القضاة، فلم يدخل النَّبيُّ ﷺ في ذلك العموم.

سبب نزول آية ﴿فلا وربك لا يُؤمنون. . .﴾

و (قوله: واللَّهِ إنِّي لأحسبُ هذه الآية نزلتْ في ذلك: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتّى يحكِّموك فيما شجر بينهم﴾) هذا أحدُ ما قيل في سبب نزول هذه الآية.

---

(١) هي في البخاري (٢٣٦٢)، وأبو داود (٣٦٣٩).
(٢) رواه أحمد (١/ ١٥٠)، وأبو داود (٣٥٨٢)، وابن ماجه (٢٣١٠).
(٣) رواه أحمد (٢/ ١٦٢ و ١٩٢ و ٢٠٧ و ٢١٥).

رواه أحمد (٤/ ٤ ـ ٥)، والبخاريُّ (٢٣٥٩)، ومسلم (٢٣٥٧)، وأبو داود (٣٦٣٧)، والترمذيُّ (١٣٦٣)، والنسائيُّ (٨/ ٢٤٥)، وابن ماجه (١٥ و ٢٤٨٠).

وقيل: نزلتْ في رجلين تحاكما إلى النبيِّ ﷺ فحكم على أحدهما فقال له[1]: ارفعني إلى عمر بن الخطاب، وقيل: إلى أبي بكرٍ، وقيل: حكم النبيُّ ﷺ ليهودي على منافق، فلم يرض المنافق، وأتيا عمر بن الخطاب فأخبراه، فقال: أمهلاني حتى أدخل بيتي، فدخل بيته فأخرج السيف، فقتل المنافق، وجاء إلى النبي ﷺ فقال: إنه ردَّ حكمك، فقال له رسول الله ﷺ: «فرّقت بين الحق والباطل»[2]. وقال مجاهد نحوه؛ غير أنه قال: إن المنافق طلب أن يُرَدَّ إلى حكم الكاهن، ولم يذكر قضية قتل عمر بن الخطاب المنافق، وقال الطبريُّ: لا ينكر أن تكون الآية نزلت في الجميع، والله تعالى أعلم.

ما يُكتفى به من الخصوم

وفي هذا الحديث أبواب من الفقه؛ فمنها: الاكتفاء من الخصوم بما يفهم عنه مقصودهم، وألا يكلَّفوا النص على الدعاوي، ولا تحديد المدعى فيه، ولا حَصْره بجميع صفاته، كما قد تنطَّع في ذلك قضاةُ الشافعية. ومنها: إرشاد الحاكم إلى الإصلاح بين الخصوم، فإن اصطلحوا، وإلا استوفي لذي الحق حقّه، وبتَّ الحكم. ومنها: أن الأولى بالماء الجاري: الأول فالأول حتى يستوفي حاجته، وهذا ما لم يكن أصلُه ملكاً للأسفل مختصاً به، فليس للأعلى أن يشربَ منه شيئاً؛ وإن كان يمرُّ عليه. ومنها: الصَّفح عن جفاء الخصوم ما لم يؤدِّ إلى هتك حُرْمة الشّرع، والاستهانة بالأحكام؛ فإن كان ذلك فالأدب، وهذا الذي صدر من خصم

إرشاد الحاكم إلى الإصلاح بين الخصوم

---

(١) ورد في (ز) و (م ٣): (له الآخر) ولا نرى مبرراً لوجود كلمة (الآخر) لأنَّ المعترض هو الذي حكم عليه، وليس الآخر.

(٢) رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه، كما في (الدر المنثور ٢/ ٥٨٥)، وذكر السيوطي رواية أخرى رواها الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول».

[٢٢٦٧] وعن أبي هريرة: أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم.

وفي روايةٍ: «ذروني ما تركتم فإنما هلك من كان قبلكم لكثرة مسائلهم...» الحديث.

رواه أحمد (٢/ ٢٤٧)، ومسلم (١٣٣٧) (١٣٠ و ١٣١)، والترمذيُّ (٢٦٧٩)، والنسائي (٥/ ١١٠ ـ ١١١)، وابن ماجه (١ و ٢).

* * *

الزبير أذىً للنبيِّ ﷺ ولم يقتله النبيُّ ﷺ لما قدَّمناه من عظم حِلْمه وصَفْحه، ولئلا يكون قتله منفراً لغيره عن الدخول في دين الإسلام، فلو صدر اليوم مثلُ هذا من أحدٍ في حقِّ النبيِّ ﷺ لقُتِل قتلةَ زنديق، وقد أشبعنا القولَ في ذلك. ومنها: أن القدرَ الذي يستحقُّ الأعلى من الماء: كفايته، وغاية ذلك: أن يبلغ الماء إلى الكعبين، فقيل: في الشَّرَبَة[1] كما قلنا، وقيل: في أرض الحائط، وفيه بُعْدٌ.

الأولى في الماء الجاري الأول فالأول

و (قوله ﷺ: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه») أي: لا تُقدموا على فِعْل شيءٍ من المنهي عنه، وإن قلَّ؛ لأنه تحصلُ بذلك المخالفة؛ لأن النهي: طلبُ الانكفاف المطلق، والأمر المطلق على النقيض من ذلك؛ لأنه يحصلُ الامتثالُ بفعلِ أقلِّ ما ينطلقُ عليه الاسم المأمور به على أيِّ وجه فُعِلَ، وفي أي زمان فُعِل، ويكفيك من ذلك مثال بقرة بني إسرائيل؛ فإنهم لما أمروا بذبح بقرةٍ، فلو بادروا وذبحوا بقرةً ـ أيَّ بقرةٍ كانت ـ لحصل لهم الامتثال، لكنهم كثَّروا الأسئلة فكثرت أجوبتهم، فقلَّ الموصوف، فعظم الامتحانُ عليهم، فهلكوا، فحذَّر النبيُّ ﷺ أمته عن أن يقعوا في

بم يحصل الامتثال للأمر؟

(١) «الشَّرَبَةُ»: حُوَيْض يُحفر حول النخلة والشجرة يُملأ ماء، فيكون ريَّها.

(٢٥) بـــاب

ترك الإكثار من مساءَلةِ

رسول الله ﷺ توقيراً له واحتراماً

[٢٢٦٨] عن أنسِ بن مالكٍ: أنَّ الناس سألوا النَّبيَّ ﷺ حتى أحفَوه في المسألة. فخرج ذات يومٍ فصعِد المنبر. فقال: «سلوني! لا تسألوني عن شيء إلا بَيَّنْتُهُ لكم». وفي رواية: «ما دمت في مقامي هذا». فلما سمع

مثل ما وقعوا فيه، فلذلك قال: «إنما أهلك الذين قبلكم كثرةُ سؤالهم»[١]، ولذلك قال ﷺ للذي سأله عن تكرار الحج بقوله: أفي كلِّ عام يا رسول الله؟! فقال: «لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم، ذروني ما تركتكم»[٢] وذكر نحو ما تقدَّم، فالواجبُ على هذا الأصل أن على السامع لنهي الشارع الانكفاف مطلقاً، وإذا سمع الأمر: أن يفعل فيه ما يصدق عليه ذلك الأمر، ولا يتنطَّع؛ فيكثر من السؤال، فيحصل على الإصر والأغلال، وقد استوفينا هذا المعنى في الأصول.

(٢٥) ومن بـــاب: ترك الإكثار من مساءلة

رسول الله ﷺ توقيراً له واحتراماً

(قوله: سألوا رسول الله ﷺ حتى أحْفَوه في المسألة) أي: حتى ألحُّوا عليه. يقال: أحفى في المسألة، وألحَّ بمعنىً واحدٍ. وقد أشبعنا القولَ فيه فيما تقدَّم في حديث أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ.

---

(١) رواه أحمد (٢/٢٥٨)، والبخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧)، والنسائي (٥/ ١١٠ و ١١١).

(٢) رواه أحمد (٥/٢١٨)، وأبو داود (١٧٢٢).

ذلك القوم أرمُّوا ورَهِبوا أن يكون بين يدي أمرٍ قد حضر. قال أنس:

تعليل غضبه ﷺ

و (قوله: فلما أُكثِرَ عليه غَضِب) يحتملُ أن يكون غَضَبُ النبيِّ ﷺ من إكثارهم عليه من المسائل؛ فإن ذلك: يقلِّل حرمةَ العالم، ويجرىء على الإقدام عليه، فتذهب أُبهةُ العالِم، ووقاره، فإنه إذا كثرت المسائل: كثرتِ الأجوبة، فحصل جميعُ ما ذكرناه من المفاسد. ويحتمل أنَّ غضبَه بسبب أنه تحقَّق أنَّه كان هنالك من يسأل تعنيتاً وتبكيتاً، قصداً للتعجيز والتنقيص، كما كان يفعلُ المنافقون، واليهود، ويدلُّ على هذا قوله: «سلوني، سلوني[1]، فوالله لا تسألوني عن شيءٍ إلا أخبرتكم به ما دمتُ في مقامي هذا»؛ فإنَّ هذا يصلحُ أن يكون جواباً لمن قصد التعجيز والتبكيت حتى يبطل زعمه[2]، ويظهر خرقه وذمُّه، ويحتمل أن يكون من تلك المسائل ما يكره، كما قال في حديث أبي موسى: سُئِل رسولُ الله ﷺ عن أشياء كرهها، وكما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١]، ويحتمل أن يكون غضبُه لمجموع تلك الأمور كلِّها، والله تعالى أعلم.

و (قوله: فأرمَّ القوم[3]) أي: سكتوا، وأصله من المرمَّة، وهي: الشَّفة، فكأنهم أطبقوا مرمَّاتهم فلم يُحرِّكوها بلفظة.

و (قوله: ورهبوا أن يكون من أمرٍ[4] قد حضر) أي: خافوا أن تقع بهم عقوبةٌ عند غضبه.

---

(١) كذا في جميع أصول المفهم، وقد جاءت في الأم والتلخيص: (سلوني) دون تكرار.
(٢) في (ز): فهمه. وفي (م ٣): وهمه.
(٣) في التلخيص ومسلم: فلما سمع ذلك القوم أرمُّوا.
(٤) في التلخيص ومسلم: بين يدي أمر.

فجعلت ألتفت يميناً وشمالاً؛ فإذا كلُّ رجلٍ لافٌّ رأسَه في ثوبه يبكي،

ما يفعله جهَّال العوامِّ

و (قوله: فجعلتُ ألتفتُ يميناً وشمالاً، فإذا كلُّ إنسانٍ لافٌّ رأسَه في ثوبه يبكي) هذه حالةُ العارفين بالله تعالى، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما تفعله جهّالُ العوامِّ، والمبتدعة الطَّغام من الزعيق والزفير، ومن النهيق الذي يشبه نهاق الحمير. فيقال لمن تعاطى ذلك، وزعم أن ذلك وَجْدٌ وخشوعٌ: إنك لم تبلغ ذلك، أي: تساوي حال رسول الله ﷺ، ولا حال أصحابه في المعرفة بالله تعالى، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله تعالى، والبكاء خوفاً من الله، والوقار حياءً من الله، وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٨] فصدَّر اللَّهُ تعالى الكلامَ في هذه الآية بـ (إنما) الحاصرة لما بعدها، المحققة له؛ فكأنه قال: المؤمنون على التحقيق هم الذين تكون أحوالهم هكذا عند سماع ذكر الله، وتلاوة كتابه، ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم، ولا على طريقتهم، وكذلك قال اللَّهُ تعالى في الآية الأخرى: ﴿۞ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]. فهذا وصفُ حالهم، وحكايةُ مقالهم، فمن كان مُستنّاً فليستنَّ، ومَن تعاطى أحوال المجانين والمجون، فهو من أخسِّهم حالاً، والجنون فنون. فإن قيل: فقد صحَّ عن جماعة من السلف أنهم صرخوا عند سماع القرآن، والمواعظ، فقد روي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع قارئاً يقرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ * مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧ ـ ٨] فصاح صيحةً خرَّ مغشياً عليه، فحمل إلى أهله، فلم يزلْ مريضاً شهراً. وروي أن زرارة بن أوفى قرأ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨] فصُعِق ومات في محرابه. وقرأ صالح المرِّيُّ[1] على أبي جهين[1] فمات[2]، وسمع الشافعي قارئاً يقرأ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ

حال أصحابه ﷺ عند ذكر الله تعالى

---

(١) في (م ٣): صالح المزني على أبي جهيم.
(٢) ليست في (م ٣).

فأنشأ رجلٌ من المسجد ـ كان يُلاحَى فيدعى لغير أبيه ـ فقال: يا نبي الله!

لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥ ـ ٣٦]، فغشي عليه. وسمع عليُّ بن الفضل قارئاً يقرأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] فسقط مغشياً عليه. فالجواب: أين الدرُّ من الصدف، والمسك من الجيف؟ هيهات قياس الملائكة بالحدَّادين، والمحقِّقين بالممخرقين[1]. فإن كنت ـ يا من لُبِّس عليه ـ تدَّعي أنك على نعتهم فمت كموتهم، فتنبَّه لبهرجتك؛ فإن الناقد بصيرٌ، والمحاسب خبير. ثم يقال لمن صرخ في حال خُطبة الجمعة: إن كنت قد ذهب عقلك حال صعقتك، فقد خسرت في صفقتك؛ إذ قد سُلِب عقلك، وذهب فَهْمُك، ولحقتَ بغير المكلَّفين، وصرت كالصبيان، والمجانين، وحُرِمْتَ سماعَ الموعِظة، وشهود الخُطبة. وقد قال مشايخُ الصوفية: مهما كان الواردُ مانعاً من القيام بفرضٍ، ومانعاً من الخير فهو من الشيطان. ثم يلزم مَن ذهب عقله أن ينتقض وضوؤه، فإن صلى بعد تلك الغشية الجمعة ولم يتوضأ، كان كمن يشهد[2] الخُطْبة، ولا صلَّى، فأيُّ صفقةٍ أخسر ممن هذه صفقتُه، وأيُّ مصيبة أعظم ممَّن هذه مصيبته؟ وإن كان وقت صراخه في غفلة فقد تكلَّم في حال الخُطْبة، وشوَّش على الحاضرين سماعها، وأظهر بدعةً في مجتمع الناس، وعرَّضهم لأن يجب عليهم تغييرها، فإن لم يفعلوا عصوا، فقد عصى اللَّهَ من جهاتٍ متعددةٍ، وحمل الناسَ على المعصية، إلى ما ينضافُ إلى ذلك من رياءٍ كامنٍ في القلب، وفِسْقٍ ظاهر على الجوارح. فنسأل اللَّهَ تعالى الوقايةَ من الخذلان، وكفاية أحوال الجهَّال والمجَّان.

و (قوله: ثم أنشأ[3] رجلٌ من المسجد كان يُلاحى فَيُدْعى لغير أبيه) أنشأ: أخذ في الكلام، وشرع فيه، ويُلاحى: يُعيَّرُ ويُذَمُّ؛ بأن يُنْسَبَ إلى غير أبيه، ويُنفى

---

(١) جمع ممخرق، وهو المموِّه.

(٢) في (ع): كمن لم يشهد.

(٣) في التلخيص ومسلم: فأنشأ.

من أبي؟ فقال: «أبوك حُذافةُ» ثم أنشأ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ رسولاً، عائذٌ بالله من سوء الفتن. ....

من أنكحة الجاهلية

عن أبيه ـ وسببُ هذا ما كانت أنكحةُ الجاهلية عليه؛ فإنها كانت على ضروبٍ كما ذكرناه في النكاح، وكان منها: أن المرأة يطؤها جماعة؛ فإذا حملتْ، فولدت دُعي لها كلُّ مَن أصابها، فتُلْحِقُ الولدَ بمن شاءت، فيُلْحَقُ به. فربما يكون الولدُ من خسيس القدر، فلتحقه بكبير القدر، فإذا نفي عمَّن له مقدار، وأُلحق بمن لا مقدار له لحقه من ذلك نقصٌ وعارٌ. وكانوا يسألون رسولَ الله ﷺ عن تحقيق ذلك لينسب لأبيه الحقيقي الذي وُلد من نطفته، وتزول عنه تلك المعرَّة. فسأل هذان الرجلان النبيَّ ﷺ عن تحقيق[١] ذلك، فقال لأحدهما: «أبوك حذافة»، وقال للآخر: «أبوك سالم» فتحقَّق نسبهما، وزالت معرَّتُهما.

و (قول عمر ـ رضي الله عنه ـ: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً) كلامٌ يقتضي إفرادَ الحق بما يجبُ له تعالى من الربوبية، ولرسوله من الرسالة اليقينية، والتسليم لأمرهما، وحكمهما بالكلية، والاعتراف لدين الإسلام بأنَّه أفضل الأديان. وإنما صدَّر عمرُ ـ رضي الله عنه ـ كلامَه بنون الجمع؛ لأنه متكلمٌ عن نفسه، وعن كلِّ مَن حَضَر هنالك من المسلمين.

و (قوله: عائذٌ بالله من سوء[٢] الفتن) كذا صحَّتِ الروايةُ عائذٌ بالرفع. أي: أنا عائذ، أي: مُسْتجير. والفتن: جمع فتنة، وقد تقدَّم: أن أصلها الاختبار، وأنها تنصرفُ على أمور متعددةٍ، ويعني بها هنا: المحن، والمشقات، والعذاب، ولذلك قال: من سوء الفتن، أي: من سيئها ومكروهها. ولما قال ذلك عمر، وضمَّ إلى ذلك قوله: إنا نتوب إلى الله ـ عز وجل ـ. كما جاء في الرواية الأخرى:

---

(١) من (م ٣).

(٢) من التلخيص ومسلم.

فقال رسول الله ﷺ: «لم أر كاليوم قطُّ في الخير والشرِّ. إني صُوِّرتْ لي الجنةُ والنَّار، فرأيتهما دون هذا الحائط.

سكن غَضَبُ رسولِ الله ﷺ[١]. ثم أخذ يُحدِّثهم بما أطلعه الله عليه من أمور الآخرة، فقال: «لم أر كاليوم قطُّ في الخير والشرِّ». هذا الكلامُ محمولٌ على الحقيقة لا التوسع والمجاز فإنه: لا خير مثل خير الجنَّة، ولا شرَّ مثل شرِّ النار. وقطُّ: هي الظرفية الزمانية، وروينا ها هنا مفتوحة القاف، مضمومة الطاء مشدَّدة، وهي إحدى لغاتها، وتقال بالتخفيف، وتقال: بضم القاف على إتباع حركتها لحركة الطاء، وذلك مع التشديد والتخفيف، فأما قَطْ بمعنى حسب فبتخفيف الطاء وسكونها، وقد تزاد عليها نون بعدها. فيقال: قطني، وقد تحذف النون فيقال: قطي، وقد تحذف الياء، فيقال: قطِ، بكسر الطاء، وقد يبدل من الطاء دال مهملة، فيقال: قد، ويقال على تلك الأوجه كلها، كله من الصحاح.

و (قوله: «إني صُوِّرَتْ لي الجنةُ والنار فرأيتهما دون هذا الحائط»، وفي البخاري: «لقد عرضت عليَّ الجنة والنار آنفاً في عرض هذا الحائط»، وفي البخاري في هذا الحديث: «لقد رأيتُ الآن ـ منذ صليتُ بكم الصلاةَ ـ الجنة والنار ممثلتين في قبلة هذا الجدار») ظاهر هذه الروايات ـ وإن اختلفتْ ألفاظها ـ: أنه ﷺ رأى مثال الجنة والنار في الجدار الذي استقبله مُصوَّرتين فيه، وهذا لا إحالة فيه، كما تتمثل المرئيات في الأجسام الصقلية. يبقى أن يقال: فالحائط ليس بصقيل. ويجاب: بأن اشتراط الصقالة في ذلك: ليس بشرط عقلي، بل: عادي، وذلك محل خرق العادة ووقتها، فيجوز أن يمثلها الله فيما ليس بصقيلٍ[٢]، هذا

أطلـع الله رسولَه على الجنة مرتين

---

(١) لم نجد هذه الرواية في صحيح البخاري ولا مسلم ولا عند أحمد، بل هي عند أبي داود في سننه (٢٤٢٥) في سياقٍ غير هذا.

(٢) في هذا إشارة إلى أنَّ رسول الله ﷺ رأى مثال الجنة والنار على الحائط، كما يرى الناسُ في هذا العصر من الصور المتحركة على الشاشات الصغيرة والكبيرة.

وفي روايةٍ: قال رسول الله ﷺ: «أولى! والذي نفس محمد بيده: لقد عُرضت عليَّ الجنة والنار آنِفاً في عُرْض هذا الحائط».

وفي أخرى: فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ...﴾ [المائدة: ١٠١].

رواه أحمد (٣/ ١٦٢)، والبخاري (٩٢)، ومسلم (٢٣٥٩) (١٣٦ و ١٣٧).

على مقتضى ظاهر هذا الحديث، وأما على مقتضى ظاهر أحاديث الكسوف فيكون رآهما حقيقة، ومدَّ يده ليأخذ قِطْفاً من الجنة، ورأى النار وتأخَّر مخافة أن يصيبه لفحها، ورأى فيها فلاناً وفلانةً. وبمجموع الحديثين تحصَّل أنَّ الله تعالى أطلعَ نبيَّه ﷺ على الجنة والنار مرتين:

إحداهما: في صلاة الكسوف إطلاع رؤية كما فصلناه في الكسوف.

وثانيهما: هذه الإطلاعة، وكانت في صلاة الظهر، كما قد جاء في بعض طرق حديث أنس: أنه ﷺ خرج إليهم بعدما زاغت الشمس، فصلَّى بهم الظُّهْرَ، ثم قام فخطب[1]، وذكر نحو ما تقدَّم. وقد نصَّ عليه البخاريُّ كما نقلته عنه آنفاً. وعُرْض الشيء ـ بالضم ـ: جانبه، وصفحه. والعَرْض ـ بالفتح ـ: خلاف الطول.

و (قوله: «أولى») هذه كلمة تهديد ووعيد، وإذا كُرِّرت كان التهديدُ أعظم، كما قال تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤]. وهذا المقام الذي قامَه النبيُّ ﷺ كان مُقاماً هائلاً مَخُوفاً، ولذلك قال أنس في بعض الطرق الواقعة في الأم[2]: بلغَ رسولُ الله ﷺ عن أصحابه شيءٌ، فخطبَ فقال: «عُرضتْ عليَّ الجنَّة والنَّار، فلم أرَ كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمونَ ما أعلمُ لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً».

---

(١) ذكرها مسلم برقم (٢٣٥٩) (١٣٦)، وأصل الحديث في التلخيص برقم (٢٩٧٦).

(٢) انظر صحيح مسلم رقم (٢٣٥٩) (١٣٤).

[٢٢٦٩] وعن أبي موسى، قال: سئل النَّبيُّ ﷺ عن أشياء كرهها، فلما أُكْثِرَ عليه غَضِب. ثم قال للنَّاس: «سلُوني عَمَّ شئتم». فقال رجلٌ: من أبي؟ قال: «أبوك حذافة»، فقام آخر فقال: من أبي يا رسول الله!؟ قال: «أبوك سالم مولى شيبة» فلما رأى عمر ما في وجه رسول الله ﷺ من الغضب قال: يا رسول الله! إنا نتوب إلى الله!.

رواه البخاريُّ (٩٢)، ومسلم (٢٣٦٠) (١٣٨).

قال: فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يومٌ أشدُّ[(١)] منه. قال: غطَّوا رؤوسَهم، ولهم خنين، والرواية المشهورة بالخاء المعجمة، وقد رواه العذريُّ بالحاء المهملة، فالمعجمة: معناها البكاء مع تردُّد الصوت، وقال أبو زيد: الخنين: ضربٌ من الحنين، وهو الشديد من البكاء. وقوله في هذه الرواية: إنه بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيءٌ. أي: عن بعض أصحابه، وذلك أنَّه بلغه ـ والله تعالى أعلم ـ: أن بعضَ من دخل في أصحابه، ولم يتحقَّق إيمانُه: همَّ أن يمتحنَ النبيَّ ﷺ بالأسئلة، ويُكثِرَ عليه منها ليعجزَه، وهذا كان دأبُ المنافقين وغيرهم من المعادين له ولدين الإسلام؛ فإنهم كانوا: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢] ولذلك لمَّا فهم النبيُّ ﷺ ذلك قال لهم في هذا المجلس: «سلوني، سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيءٍ إلا أنبأتكم به!» فكلُّ من سأله في ذلك المقام عن شيءٍ أخبره به ـ أحبَّه أو كرهه ـ، ولذلك أنزلَ الله تعالى في ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١] فأدَّبهم الله تعالى بترك السؤال عما ليس بمهمٍّ، وخصوصاً كما تقدَّم من أحوال الجاهلية التي قد عفا الله عنها، وغفرَها، ولما سمعتِ الصحابةُ

دأبُ المنافقين وغيرهم من المعادين للإسلام

النهيُ عن كثرة الأسئلة

(١) في (م ٢): شرٌّ منه.

[٢٢٧٠] وعن عامر بن سعدٍ؛ عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أعظم المسلمين في المسلمين جُرْماً، من سأل عن شيءٍ لم يُحرَّم على المسلمين فحُرِّم عليهم من أجل مسألته».

رواه أحمد (١/ ١٧٩)، والبخاريُّ (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨) (١٣٢ و ١٣٣)، وأبو داود (٤٦١٠).

* * *

ـ رضي الله عنهم ـ هذا كلَّه انتهت عن سؤال رسول الله ﷺ إلا في أمرٍ لا يجدون منه بُدّاً، ولذلك قال أنس ـ فيما تقدم ـ: نُهينا أن نسألَ رسول الله ﷺ عن شيءٍ، فكان يُعجبنا أن يجيءَ الرجل العاقل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمعُ[1].

و (قوله ﷺ: «إن أعظمَ المسلمين جُرْماً في المسلمين مَن سأل عن شيءٍ لم يُحَرَّمْ على المسلمين فحُرِّم عليهم من أجل مسألته») قال أبو الفرج الجوزيُّ: هذا محمولٌ على أنَّ من سألَ عن الشيء عنتاً وعبثاً، فعُوقِب لسوء قصده بتحريم ما سألَ عنه، والتحريم يعمُّ.

قلــتُ: والجرمُ والجريمة: الذنب. وهذا صريحٌ في أن السؤالَ الذي يكون على هذا الوجه، ويحصلُ للمسلمين عنه هذا الحرجُ: هو من أعظم الذنوب، والله تعالى أعلم.

* * *

---

(١) رواه مسلم (١٢).

(٢٦) بــاب

عِصْمَةِ رسولِ الله ﷺ

عنِ الخطأ فيما يُبَلِّغُه عن الله تعالى

[٢٢٧١] عن موسى بنِ طلحةَ، عن أبيه، قال: مَرَرْتُ معَ رسولِ الله ﷺ بقومٍ على رؤوس النَّخلِ فقال: «ما يصنع هؤلاء؟» فقالوا:

---

(٢٦) ومن بــاب: عصمة رسول الله ﷺ عن الخطأ فيما يبلِّغه عن الله تعالى

معنى هذه الترجمة معلومٌ من حال النبي ﷺ قطعاً بدليل المعجزة، وذلك أن النبي ﷺ لما قال للناس: أنا رسول الله إليكم، أبلغكم ما أرسلني به إليكم من الأحكام والأخبار عن الدار الآخرة وغيرها، وأنا صادق في كل ما أخبركم به عنه، ويشهد لي على ذلك ما أيدني به من المعجزات. ثم وقعت المعجزاتُ مقرونةً بتحدّيه، علمنا على القطع والبتات استحالة الخطأ والغلط عليه فيما بلغه عن الله، إما لأن المعجزة تنزّلت منزلةَ قول الله تعالى لنا: صدق، أو لأنها تدل على أن الله تعالى أراد تصديقَه فيما قاله عنه، دلالةً على قرائن الأحوال، وعلى الوجهين فيحصل العلمُ الضروري بصدقه، بحيث لا يجوزُ عليه شيءٌ من الخطأ في كل ما يبلغه عن الله تعالى بقوله، وأما أمور الدنيا التي لا تعلّق لها بالدِّين فهو فيها واحد من البشر، كما قال: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون»(١)، وكما قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم، وأنا أعلم بدينكم»(٢). وقد تقدم القولُ في الإبار. ويلقّحون مضارع

---

(١) رواه أحمد(١/ ٣٧٩)، وأبو داود(١٠٢٢)، والنسائي(٣/ ٢٨ ـ٢٩)، وابن ماجه (١٢٢١).

(٢) رواه مسلم كما في أحاديث هذا الباب في التلخيص إلى قوله: «بأمر دنياكم».

يُلقِّحونَه، يجعلون الذكر في الأنثى؛ فتَلْقَحُ. فقال رسول الله ﷺ: «ما أظن ذلك يغني شيئاً»، قال: فأُخْبِرُوا بذلك فتركوه، فأُخبِر رسولُ الله ﷺ بذلك، فقال: «إنْ كان ينفعُهُم ذلك فليصنعوه. فإنِّي إنما ظَنَنْتُ ظنّاً، فلا تؤاخذوني بالظَّنِّ، ....

ألقحَ الفحلُ الناقة، والريحُ السحابَ، و: رياحٌ لواقحُ، ولا يقال: ملاقحُ، وهو من النوادر، وقد قيل: الأصلُ فيه: مُلْقِحَةٌ، ولكنها لا تُلْقِحُ إلا وهي في نفسها لاقِحٌ، ويقال: لَقِحَتِ الناقةُ ـ بالكسر ـ لَقَحاً ولَقَاحاً بالفتح، فهي لاقح، واللقاحُ أيضاً ـ بالفتح ـ ما تُلْقَحُ به النخل.

لم يكن ﷺ ممن عانى الزراعة

و (قوله: «ما أظنُّ ذلك يغني شيئاً») يعني به الإبار، إنما قال النبيُّ ﷺ هذا؛ لأنه لم يكن عنده علمٌ باستمرار هذه العادة، فإنه لم يكن ممن عانى الزراعة، ولا الفلاحة، ولا باشر شيئاً من ذلك، فخفيت عليه تلك الحالة، وتمسَّك بالقاعدة الكلِّية المعلومة التي هي: أنه ليس في الوجود ولا في الإمكان فاعل، ولا خالق، ولا مؤثِّر إلا الله تعالى، فإذا نُسِب شيء إلى غيره نسبة التأثير فتلك النسبةُ مجازيَّة عَرَضيَّة لا حقيقية، فصدق قوله ﷺ: «ما أظن ذلك يغني شيئاً» لأن الذي يغني في الأشياء عن الأشياء بالحقيقة هو الله تعالى، غير أنَّ الله تعالى قد أجرى عادتَه بأن سَتَرَ تأثير قدرته في بعض الأشياء بأسباب معتادة، فجعلها مقارنة لها، ومغطّاةً بها ليؤمنَ مَن سبقت له السعادة بالغيب، وليضلّ مَن سبقت له الشقاوة بالجهل، والرَّيب: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

المصالح الدُّنيوية يعرفها من يباشرها

و (قوله: «إنما ظننتُ ظناً فلا تؤاخذوني بالظن»، وقوله في الأخرى: «إنما أنا بشر») هذا كلُّه منه ﷺ اعتذارٌ لمن ضعف عقلُه مخافةَ أن يزيله[1] الشيطان فيكذِّب النبيَّ ﷺ فيكفر، وإلا فما جرى شيءٌ يحتاج فيه إلى عذر، غاية ما جرى:

---

(١) في (م ٢) و (ع): يزله.

ولكن إذا حدّثْتُكُم عن الله شيئاً فخذوا به، فإنِّي لَنْ أكْذِبَ على الله عزَّ وجلَّ».

رواه مسلم (٢٣٦١) (١٣٩).

[٢٢٧٢] وعن رافِعِ بن خَدِيجٍ، قال: قَدِمَ نَبِيُّ الله ﷺ المدينةَ وَهُمْ يأبِرُونَ النَّخل، يقول: يُلَقِّحـون النَّخْلَ. فقال: «ما تصنعون؟» قالوا: كنا نَصْنَعُهُ. قال: «لعلكم لَوْ لَمْ تفعلوا كان خيراً!»، قال: فتركوه. فَنَفَضَتْ ـ أو: فَنَقَصَتْ ـ قال: فذكروا ذلك له؛ فقال: «إنَّما أنا بَشَرٌ إذا أَمَرْتُكُمْ بِشَيءٍ مِنْ دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيءٍ مِنْ رَأْيِـي فإنَّما أنا بشرٌ».

رواه مسلم (٢٣٦٢) (١٤٠).

مصلحة دنيوية، خاصَّة بقومٍ مخصوصين لم يعرفها من لم يباشرها، ولا كان مِن أهلها المباشرين لعملها، وأوضح ما في هذه الألفاظ المعتذر بها في هذه القصَّة قوله: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»، وكأنه قال: وأنا أعلم بأمر دينكم.

وجوب الأخذ عنه ﷺ في كل أحواله

و(قوله: «إذا حدثتكم عن الله فخذوا به») أمرٌ جزمٌ بوجوب الأخذ عنه في كلِّ أحواله: من الغضب والرضا، والمرض والصحة.

لم يجرب عليه ﷺ شيء من الكذب في كل حياته

و(قوله: «فلن أكذب على الله») أي: لا يقع منه فيما يُبلِّغه عن الله كذب، ولا غلط، لا سهواً ولاعمداً، وقد قلنا: إن صدقه في ذلك هو مدلولُ المعجزة، وأما الكذب العمد المحض فلم يقعْ قط منه في خبرٍ من الأخبار، ولا جُرِّب عليه شيءٌ من ذلك منذ أنشأه الله تعالى، وإلى أن توفَّاه الله تعالى، وقد كان في صغره معروفاً بالصدق والأمانة، ومجانبة أهل الكذب، والخيانة، حتى إنه كان يسمى بالصادق الأمين، يشهدُ له بذلك كلُّ من عرفه وإن كان من أعدائه، وقد خالفه.

و(قوله: «إذا أمرتكم بشيءٍ من رأيـي») يعني به في مصالح الدنيا كما دلَّ

[٢٢٧٣] وعن أنسٍ، أنَّ النَّبيّ ﷺ مَرَّ بقومٍ يُلَقِّحُون، فقال: «لَوْ لَمْ تفعلوا لَصَلُحَ»، قال: فخرجَ شِيْصاً، فمرَّ بهم فقال: «ما لِنَخْلِكم؟!» قالوا: قُلْتَ كذا، وكذا. قال: «أنتم أعلمُ بأمر دُنياكُم».

رواه أحمد (٣/ ١٥٢)، ومسلم (٢٣٦٣) (١٤١)، وابن ماجه (٢٤٧١).

* * *

عليه بساطُ هذه القصَّة، ونصُّه على ذلك، ولم يتناول هذا اللفظ ما يحكم فيه باجتهاده إذا تنزلنا على ذلك؛ لأن ذلك أمر دينيٌّ تجبُ عصمته فيه، كما إذا بلَّغه نصّاً؛ إذ كلُّ ذلك تبليغُ شرعه، وبيان حُكْم دينه، وإن اختلفتْ مآخذُ الأحكام، كما قد أوضحناه في الأصول.

محمد ﷺ واحدٌ من البشر

و(قوله: «فإنما أنا بشر») أي: واحد منهم في البشرية، ومساوٍ لهم فيما ليس من الأمور الدينية، وهذه إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، فقد ساوى البشرَ في البشرية، وامتاز عنهم بالخصوصية الإلٰهيَّة التي هي: تبليغُ الأمور الدينية.

و(قوله: فنفضت أو نقصت) ظاهره أنه شكٌّ من بعض الرواة في أيِّ اللفظين. قال: ويحتمل أن يكون (أو) بمعنى الواو. أي: نفضت ثمرها ونقصت في حملها، وقد دلَّ على هذا قولُه في الرواية الأخرى: فخرج شيصاً، وهو البلح الذي لا ينعقدُ نواه، ولا يكون فيه حلاوةٌ إذا أبسر، ويسقط أكثره فيصير حَشَفاً.

* * *

(٢٧) بــاب
كيف كان يأتيه الوحي؟

[٢٢٧٤] عن عائشة: أنَّ الحارث بن هشام سأل النَّبيَّ ﷺ كيف يأتيك الوحيُ؟..

---

(٢٧) ومن بــاب: كيف كان يأتيه الوحي

قد تقدَّم الكلامُ على الوحي لغة.

المراد بالوحي

و (قوله: كيف يأتيك الوحي؟) سؤالٌ عن كيفية تلقِّي النبيِّ ﷺ الوحي عن المَلَك، والمرادُ بالوحي هنا: ما يُلقى للنبيِّ ﷺ من القرآن والأحكام، فأجاب ﷺ بأن ذلك يأتيه على حالتين:

تلقي الملائكة الوحي عن الله تعالى

إحداهما: أن يسمعَ صوتاً شديداً متتابعاً يُشبه صلصلةَ الجرس، وهو الناقوس، أو شبهه، وهو الذي تعلِّقه العربُ في أعناق الإبل لصوته، وقال بعضُ العلماء: وعلى هذا النحو تتلقى الملائكةُ الوحيَ عن الله تعالى، كما جاء في الحديث الصحيح: «إذا قضى اللَّهُ الأمرَ في السماء ضربت الملائكةُ الأرض[(١)] بأجنحتها خَضعاناً لقوله، كأنَّه سلسلةٌ على صَفْوان»[(٢)].

كلام الله تعالى

قلــتُ: والذي عندي في هذا الحديث: أن هذا تشبيهٌ لأصوات خَفْق أجنحة الملائكة، فيعني: أنها متتابعة متلاحقة، لا أن الله تعالى يتكلم بصوت؛ فإن كلامه تعالى ليس بحرفٍ، ولا صوتٍ، كما هو مبرهنٌ عليه في موضعه، فإن أراد هذا القائل: أن كلامَ الله تعالى القائم به صوتٌ يُسْمَعُ بحاسَّة الأذن، فهو غلطٌ فاحشٌ، وما هذا اعتقادُ أهل الحق، وإن أراد: أن الملائكة تسمعُ كلامَ مَلَك آخر يبلِّغهم عن

---

(١) من (م ٣).

(٢) رواه البخاري (٤٧٠١)، وأبو داود (٣٩٨٩)، والترمذي (٣٢٢٣)، وابن ماجه (١٩٤).

قال: «أحياناً يأتيني في مثل صَلْصَلةِ الجرس، وهو أشدُّهُ عليَّ، ....

الله بصوتٍ فصحيحٌ، كما تقرر ذلـك في حقِّ جبريل، فيما كان يبلغه النبيَّ ﷺ.

ما كان يعانيه ﷺ من مشافهة الملك له

و (قوله: «وهو أشدُّه عليَّ») إنما كان أشدَّ عليه لسماعه صوتَ المَلَكِ الذي هو غيرُ معتاد، وربما كان شاهَدَ المَلَك على صُورته التي خُلِقَ عليها، كما أخبر بذلك عن نفسه في غير هذا الموضع، وكان يشتدُّ عليه أيضاً؛ لأنه كان يريدُ أن يحفظَه ويفهمه مع كونه صوتاً متتابعاً مزعجاً، ولذلك كان يتغيَّر لونه[1]، ويتفصَّد عرقاً، ويعتريه مثل حال المحموم، ولولا أن الله تعالى قوَّاه على ذلك، ومكَّنه منه بقدرته لما استطاع شيئاً من ذلك، ولَهَلَك عند مشافهة المَلَك، إذ ليس في قوى البشر المعتادة تحمُّل ذلك بوجهٍ.

تمثل الملك في صورة رجلٍ

والحالة الثانية: وهي أن يتمثلَ له المَلَكُ في صورة رجلٍ، فيكلِّمه بكلامه المعتاد، فلا يجدُ إلى ذلك شيئاً من المشقات، والشدائد، وهذا كما اتَّفق له معه حيث تمثَّل له في صورة الأعرابي، فسأله عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وكما كان يأتيه في صورة دحية بن خليفة، وكانت صورتُه حسنةً، والحاصلُ من هذا الحديث، ومن قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، ومن غير ذلك من الكتاب والسنَّة: أن الله تعالى قد مكَّن الملائكة، والجنَّ من التشكُّل في الصور المختلفة، والتمثيل بها؛ مع أن للنوعين في أنفسهما خِلَقاً خاصة بهما، خلقهما اللَّهُ تعالى عليها، كما قال ﷺ: «لم أر جبريلَ على صورته التي خُلِق عليها غير[2] مرتين»[3]. والبحثُ عن كيفية ذلك التمثيل بحثٌ ليس وراءه تحصيل، والواجبُ التصديقُ بما جاء من ذلك، ومَن أنكر وجودَ الملائكة والجن وتمثُّلهم في الصور فقد كفر.

تمكين الملائكة والجن من التشكل وحكم من أنكر وجودهم

---

(١) في (م ٣) و (ع): وجهه.
(٢) في (م ٣) و (ز): إلا.
(٣) رواه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧).

ثم يفصِمُ عنِّي، وقد وعيتهُ، وأحياناً مَلَكٌ في صورة رجلٍ فَأَعِي ما يقولُ».

رواه أحمد (٦/ ٢٥٧)، والبخاريّ (٢)، ومسلم (٢٣٣٣) (٨٧)، والترمذيّ (٣٦٣٨)، والنسائي (٢/ ١٤٦).

[٢٢٧٥] وعن عبادة بن الصامت، قال: كان نبيُّ الله ﷺ إذا أُنْزِلَ عليه الوحيُ كُرِبَ لذلك، وتربَّد وجهُهُ، ونكَسَ رأسَهُ، ونكَسَ أصحابُهُ

و (قوله: «فيفصم عني، وقد وعيتُ عنه») أي: يذهبُ عني، ويقلع. يقال منه: فصم، وأفصم بالفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. أي: لا انقطاع، والفصم ـ بالفاء ـ: [انصداع من غير بينونة، وبالقاف:][1] انصداعٌ مع بينونة. هذا أصلُهما، ثم قد يتوسَّعُ في كلٍّ واحدٍ منهما. و (وعيت): فهمتُ وحفظت. تقول العرب: وعيتُ العلم ـ ثلاثياً ـ وأوعيتُ المتاعَ في الوعاء ـ رباعيّاً ـ وأصلُهما: من جعلت الشيء في الوعاء، غير أن استعمالهم فرّق بينهما كما قلناه.

الوحي بالرؤيا

وقد اقتصر في هذا الحديث على ذكر طريقي الوحي، ولم يذكر الرؤيا، وهي من الوحي كما تقدم؛ لأنه فهم عن السائل: أنه إنما سأل عن كيفية تلقِّيه الوحي من المَلَك، والله أعلم.

حاله ﷺ وحال أصحابه عند نزول الوحي

و (قوله: كان إذا أنزل عليه الوحي كُرِب لذلك) وجدناه بتقييد من يُوثق بتقييده مبنياً لما لم يُسَمَّ فاعله، أي: أُصيب بالكَرْب، وهو الألم والغمُّ. و (تربَّد وجهه): عَلَتْه رُبْدةٌ وهي: لونٌ بين السواد والغبرة، ومنه قيل للنعام: رُبْدٌ، وجمع ربداء، كحمراء وحُمْرٌ. وتنكيسُ النبيِّ ﷺ رأسه لثقل ما يُلقى عليه، ولشدَّة ما يجده من الكَرْب. وتنكيس أصحابه رؤوسهم عند ذلك استعظامٌ لذلك الأمر، وهيبة له.

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (م ٢).

رؤوسهم، فلما أُتْلِيَ عنه رفع رأسه.

رواه أحمد (٥/ ٣١٧)، ومسلم (٢٣٣٤ و ٢٣٣٥).

[٢٢٧٦] وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيده! ليأتينَّ على أحدِكُمْ يومٌ لا يَرَاني، ثم لأنْ يراني أحبُّ إليه من أهله ومالِهِ معهم».

و (قوله: فلما أُتلي عنه رفع رأسَه) اختلف الرواةُ في هذا الحرف؛ قال القاضي عِياض ـ رحمه الله تعالى ـ: قيَّده شيخُنا أبو عبد الله محمد بن عيسى الجياني بضم الهمزة، وتاء باثنتين من فوقها ساكنة، ولام مكسورة، مثل: أعطي، وعند الفارسي مثله؛ إلا أنه بثاء مثلثة، وعند العذريِّ من طريق شيخه الأسديِّ: بكسر الثاء المثلثة: أُثِلَ مثل: ضُرِبَ. وكان عند شيخنا الحافظ أبي عليٍّ: أُجْلِيَ بالجيم مثل: أُعطِي، وعند ابن ماهان: انجلى بالنون، وكذا رواه البخاريُّ، وهاتان الروايتان لهما وجه، أي: انكشف عنه وذهب، وفُرِّج عنه. يقال: انجلى عنه الغمّ، وأجليته، أي: فرجته فتفرج، وأجلوا عن قتيل، أي: برحوا عنه وتركوه، ورواه البخاري في كتاب الاعتصام: فلما صَعِد الوحي[١]. وهو صحيح، وفي البخاري في سورة سبحان[٢]: فلما نزل الوحي[٣]. وكذا في مسلم في حديث سؤال اليهوديِّ[٤]، وهذا وهم بيِّنٌ، ورواه ابنُ أبي خيثمة: فلما أعلى عنه. أي: نحِّي عنه. كما قال أبو جهل: اعلُ عني، أي: تنحَّ. نقلته من كتاب «مشارق الأنوار» للقاضي.

و (قوله: «والذي نفسُ محمد بيده ليأتينَّ على أحدكم يومٌ لا يراني، ثم لأن

(١) رواه البخاري (٧٢٩٧).
(٢) أي: سورة الإسراء.
(٣) رواه البخاري (٤٧٢١).
(٤) رواه مسلم (٢٧٩٤).

رواه أحمد (٢/ ٣١٣)، والبخاريُّ (٣٥٨٩)، ومسلم (٢٣٦٤) (١٤٢).

* * *

(٢٨) باب
في ذكر عيسى ابن مريم عليهما السلام

[٢٢٧٧] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى النَّاسِ بعيسى ابن مريم ....

تغير الحال على الصحابة بعد وفاته ﷺ

يراني أحبُّ إليه من أهله وماله معهم[1]»[2] كذا صحيحُ الرواية، ومعنى هذا الحديث: إخباره ﷺ بأنه إذا فُقِد تغيَّرتِ الحالُ على أصحابه من عدم مشاهدته، وفقد عظيم فوائدها، ولِما طرأ عليهم من الخلاف والمحن، والفتن. وعلى الجملة: فساعةُ موته اختلفت الآراء، ونجمت الأهواء، وكاد النظام ينحلُّ لولا أن اللَّهَ تبارك وتعالى تداركه بثاني اثنين، وأهل العقد والحلّ، وقد عبَّر الصحابةُ عند مبدأ ذلك التغيُّر لنا بقولهم: ما سوَّينا الترابَ على رسول الله ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا؛ فكلما حصل واحدٌ منهم في كربة من تلك الكرب، ودَّ أنه رأى رسول الله ﷺ بكلِّ ما معه من مال وأهل ونشب، وذلك لتذكره ما فات من بركات مشاهدته، ولما حصل بعده من فساد الأمر، وتغيُّر حالته. والله أعلم.

محمد ﷺ أولى الناس بعيسى ابن مريم عليه السلام

(٢٨) ومن باب: ذكر عيسى عليه السلام

(قوله ﷺ: «أنا أَوْلى النَّاسِ بعيسى ابن مريم») أي: أخَصُّ، وأقربُ، وأقعدُ، كقوله ﷺ: «فَلأَوْلى عصبةٍ»[3] أي: أقربُ، وأحقُّ.

---

(١) في (م ٣): منهم.
(٢) ورد هذا الحديث في صحيح مسلم تحت عنوان: فضل النظر إليه ﷺ.
(٣) رواه مسلم (١٦١٩) (١٥).

في الأولى والآخرة». قالوا: كيف يا رسول الله؟! قال: «الأنبياء إخوةٌ من عَلاَّتٍ، أمَّهاتُهم شتَّى، ودينُهم واحدٌ، وليس بيننا نبيٌّ».

و (قوله: «في الأولى والآخرة») أي: في الدنيا وفي الدار الآخرة.

و (قوله: كيف يا رسولَ الله؟) سؤال عن وجه الأولوية. فقال في الجواب: «الأنبياء إخوةٌ من عَلاَّت، أُمَّهاتم شتَّى، ودينهم واحد، وليس بيني وبينه نبيٌّ»[١]. وفي لفظ آخر: «أولادُ عَلاَّت»[٢]. وفي الصحاح: بنو العَلاَّت: هم أولاد الرجل من نسوة شتَّى، سميت بذلك لأن الذي يتزوجها على أولى كانت قبلها، ثم علَّ من هذه، والعَلَلُ: الشُّرب الثاني. يقال: عَلَلٌ بعد نهلٍ، وعلَّه يعلُّه: إذا سقاه السُّقية الثانية، وقال غيره: سمُّوا بذلك لأنهم أولاد ضرائر، والعَلاَّت الضرائر. وشتَّى: مختلفون، ومنه قوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤]. قال القاضي أبو الفضل عياض: معناه: أن الأنبياء مختلفون في أزمانهم، وبعضهم بعيد الوقت من بعض، فهم أولاد عَلاَّت إذ لم يجمعْهم زمانٌ واحدٌ، كما لم يجمع أولادَ العَلاَّت بطنٌ واحدٌ، وعيسى ـ عليه السلام ـ لما كان قريبَ الزمان منه ﷺ، ولم يكن بينهما نبيٌّ، كانا كأنهما في زمانٍ واحدٍ، فكانا بخلاف غيرهما.

قلــتُ: هذا أشبهُ ما قيل في هذا الحديث، ويستفاد منه: إبطال قول من قال: إنه كان بعد عيسى أنبياء ورسل، فقد قال بعض الناس: إن الحواريِّين كانوا أنبياء، وأنهم أُرسلوا إلى الناس بعد عيسى، وهو قول أكثر النصارى، كما ذكرناه في كتاب (الإعلام).

دين الأنبياء واحدٌ

و (قوله: ودينهم واحدٌ») أي: في[٣] توحيدهم، وأصول أديانهم، وطاعتهم

---

(١) رواه البخاري (٦٧٣٥)، ومسلم (١٦١٥)، وأبو داود (٢٨٩٨)، والترمذي (٢٠٩٩).

(٢) هذه الرواية ليست في التلخيص، وإنما هي في صحيح مسلم برقم (٢٣٦٥) (١٤٣).

(٣) ليست في (ز) و (ع) و (م ٣).

رواه أحمد (٢/٣١٩)، والبخاريُّ (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) (١٤٥).

لله تعالى، واتِّباعهم لشرائعه، والقيام بالحقِّ، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ...﴾ الآية [الشورى: ١٣]، ولم يُرِدْ فروع الشرائع؛ فإنهم مختلفون فيها كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

نخسة الشيطان للمولود

و (قوله: «ما من مولود يُولد إلا نخسَه الشيطانُ فيستهلُّ صارخاً من نَخْسَة الشيطان») يعني به: أول وقت الولادة حين يَستهلُّ أوَّلَ استهلال، بدليل قوله في الرواية الأخرى: «يوم يولد». أي: حين يُولد. والعرب قد تطلق اليومَ وتريد به الوقت والحين. كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. أي: حين يرون، كما تقدَّم في الحديث قبل هذا: «ليأتينَّ على أحدِكُم يومٌ لا يَراني»[1] أي: زمنٌ ووقتٌ، وهو كثير. وكأنَّ النَّخس من الشيطان إشعار منه بالتمكن والتسليط، وحفظ الله تعالى لمريمَ وابنها من نَخْسته تلك التي هي ابتداءالتسليط ـ ببركة إجابة دعوة أُمِّها حين قالت: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]. فاستجابَ الله لها لما حضرها في ذلك الوقت من صدق الالتجاء إلى الله تعالى، وصحة التوكُّل، وأُمُّها هي امرأة عمران، واسمُها حنَّة بنت فاقود، وكانت لما حمَلت نذرت، وأوجبت على نفسها: أن تجعلَ ما تلدُه منزَّهاً منقطعاً للعبادة، لا يشتغل بشيءٍ مما في الوجود، على شريعتهم في الرهبانية، وملازمتهم الكنائسَ، وانقطاعهم فيها إلى الله تعالى بالكلِّية. ولذلك لما ولدتها أنثى قالت: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]، أي: فيما نذرته له من الرهبانيَّة.

---

(١) تقدم في التخليص برقم (٢٩٨٣).

[٢٢٧٨] وعنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما مِنْ مولودٍ يُولد إلا نَخَسَهُ الشيطانُ فيستهلُّ صَارخاً من نَخْسة الشيطان إلاّ ابن مريم وأمَّه»، ثُمَّ

استثناء عيسى عليه السلام وأمّه من نخسة الشيطان

و (قوله: «كل مولود»[١] و «ما من مولود») ظاهرٌ قويٌّ في العموم والإحاطة، ولما استثنى منه مريم وابنها التحق بالنصوص لا سيَّما مع النظر الذي أبديناه، فأفاد هذا: أن الشيطان يَنْخَسُ جميع ولد آدم حتى الأنبياء، والأولياء، إلا مريم وابنها، وإن لم يكن كذا بطلت الخصوصية بهما، ولا يُفهم من هذا أن نخسَ الشيطان يلزم منه إضلالُ المنخوس وإغواؤه؛ فإن ذلك ظنٌّ فاسد، وكم قد تعرَّض الشيطان للأنبياء، والأولياء بأنواع الإفساد، والإغواء، ومع ذلك يعصمُهم الله مما يرومه الشيطان، كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥] هذا مع أن كلَّ واحدٍ من بني آدم قد وُكِّل به قرينُه من الشياطين[١]، كما قال رسول الله ﷺ، وعلى هذا فمريم وابنها ـ وإن عُصما من نَخْسِه ـ فلم يُعصما من ملازمته لهما ومقارنته. وقد خصَّ الله تعالى نبينا ﷺ بخاصِّيَّةٍ كَمُلَ عليه بها إنعامه بأن أعانَه على شيطانه حتَّى صحَّ إسلامه[٢]، فلا يكون عنده شرٌّ، ولا يأمره إلا بخير، وهذه خاصَّة لم يؤتها أحدٌ غيره، لا عيسى، ولا أمُّه. وفي غير كتاب مسلمٍ: «فذهب الشيطان ليطعنَ في خاصرته فطعنَ في الحجاب»[٣] أي: في الحجاب الذي حُجِبَ به عيسى ـ عليه السلام ـ، فإما حجاب مهده، وإما حجاب بيته.

عصمة الأنبياء والأولياء من إغواء الشيطان

ما خص به ﷺ من إسلام شيطانه

و (قوله: «صياح المولود نزغة من الشيطان»[٤]) الرواية المعروفة: نزغةٌ

---

(١) هذه رواية أحمد في مسنده (٢/ ٣١٩).
(٢) رواه أحمد (١/ ٣٨٥)، ومسلم (٢٨١٤).
(٣) رواه أحمد (٢/ ٥٢٣)، والبخاري (٣٢٨٦).
(٤) هذه العبارة من حديث لم يُورده المؤلف في التلخيص، وإنما هو في صحيح مسلم برقم (٢٣٦٧).

قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

وفي روايةٍ: «كُلُّ بني آدم يمسُّه الشيطان يوم وَلَدَتْهُ أُمُّه. إلا مريمَ وابنَها».

رواه أحمد (٢/ ٢٣٣)، والبخاريّ (٣٥٤٨)، ومسلم (٢٣٦٦) (١٤٦ و ١٤٧).

[٢٢٧٩] وعنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأى عيسى ابنُ مريم رجلًا يسرقُ، فقال له عيسى: سَرَقْتَ! قال: كلّا والذي لا إلٰهَ إلا هو! فقال عيسى: آمنتُ بالله وكذَّبتُ نفسي».

رواه أحمد (٢/ ٣١٤)، والبخاريّ (٣٤٤٤)، ومسلم (٢٣٦٨)، والنسائي (٨/ ٢٤٩)، وابن ماجه (٢١٠٢).

* * *

ـ بالنون والزاي ساكنة والغين المعجمة ـ من النزغ: وهو الوسوسة، والإغراء بالفساد، ووقع لبعض الرواة: فزعةٌ ـ بالفاء والعين المهملة ـ: من الفزع.

و (قوله: «رأى عيسى ابن مريم رجلًا يسرقُ فقال: سرقتَ. قال: كلا والذي لا إله إلا هو!») ظاهر قول عيسى لهذا الرجل: سرقتَ أنه خبرٌ عما فعلَ الرجل من السرقة، وكأنَّه حقَّق السرقة عليه؛ لأنه رآه قد أخذ مالاً لغيره من حرز في خفيةٍ، ويُحتمل أن يكونَ مستفهماً له عن تحقيق ذلك، فحذف همزة الاستفهام، وحذفها قليل.

و (قول الرجل: كلا) أي: لا. نفى ذلك، ثم أكَّده باليمين.

و (قول عيسى: «آمنتُ باللّهِ، وكذَّبتُ نفسي») أي: صدَّقت من حلف بالله،

(٢٩) بـــاب
في ذكر إبراهيم عليه السلام

[٢٢٨٠] عن أنسٍ، قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا خيرَ البريَّة! فقال رسول الله ﷺ: «ذاك إبراهيم عليه السلام».

رواه أحمـد (٣/ ١٧٨)، ومسلـم (٢٣٦٩)، وأبـو داود (٤٦٧٢)، والترمذيُّ (٣٣٤٩).

درء الحد بالشبهة

وكذَّبت ما ظهر من ظاهر السَّرقة، فإنه يحتمل: أن يكون الرَّجل أخذ ماله فيه حقٌّ، أو يكون صاحبُه قد أذنَ له في ذلك، ويحتمل أن يكون أخذه ليُقلِّبه، وينظرَ إليه. ويُستفاد من هذا الحديث درء الحد بالشُّبهة.

(٢٩) ومن بـــاب: ذكر إبراهيم عليه السلام

(قوله ﷺ للذي قال له: يا خيرَ البرية: «ذاك إبراهيم») البريَّة: الخلق، وتهمز، ولا تهمز، وقد قرىء بهما، واختلف في اشتقاقها، فقيل: هي مأخوذة من البراء، وهي: التراب. فعلى هذا لا يُهمز. وقيل: هي مأخوذة من برأ الله الخلقَ ـ بالهمز ـ، أي: خلقَهم، وعلى هذا فيهمز، وقد يكون من هذا، وتسهَّل همزتها، كما سهَّلوا همزة خابية، وهي من: خبأت مهموزاً. والبريَّة في الوجهين: فعيلة بمعنى مفعولة، وقد عارضَ هذا الحديث قولَه ﷺ: «أنا سيِّد ولدِ آدم»[1]. وما علم من غير ما موضع من الكتاب والسُّنَّة، وأقوال السلف والأمَّة: أنه أفضل ولد آدم، وقد انفصل عن هذا بوجهين:

تواضعه ﷺ

أحدُهما: أن ذلك من النبيِّ ﷺ على جهة التواضع، وترك التطاول على الأنبياء، كما قال: «أنا سيد ولد آدم يومَ القيامة ولا فخر، وأنا أكرمُ ولد آدم على

(١) رواه أحمد (٤/ ١٠٧)، ومسلم رقم (٢٢٧٦)، والترمذي (٣٦٠٥).

. . . .

ربي يوم القيامة ولا فخر»[١]. وخصوصاً على إبراهيم؛ الذي هو أعظم آبائه وأشرفهم.

منزلته ﷺ عند الله تعالى

وثانيهما: أنه ﷺ قال ذلك قبل أن يعلمَ بمنزلته عند الله تعالى، ثم إنه أُعلم بأنه أكرمُ وأفضلُ، فأخبر به كما أُمر، ألا ترى أنَّه كان في أوّل أمره يسألُ أن يبلغَ درجة إبراهيم من الصلاة عليه والرحمة، والبركة، والخُلَّة، ثم بعدَ ذلك أخبرنا أنَّ الله تعالى قد أوصلَه إلى ذلك لمَّا قال: «إن الله تعالى قد اتخذني خليلاً كما اتَّخذ إبراهيمَ خليلاً»[٢] ثم بعد ذلك زاده الله من فضله، فشرَّفه، وكرَّمه، وفضَّله على جميع خلقه، وقد أُورِد على كل واحدٍ من هذين الوجهين استبعاد. قال: رُدَّ على الأول؛ أن قيل: كيف يصحُّ من الصادق المعصوم أن يُخبرَ عن الشيء بخلاف ما هو عليه لأجل التواضع والأدب؟ والوارد على الثاني: أن ذلك خبرٌ عن أمرٍ وجوديٍّ، والأخبار الوجودية لا يدخلُها النسخ. والجواب عنهما: أن يقال[٣]: إن ذلك ليس إخباراً عن الشيء بخلاف ما هو عليه، فإنَّه تواضع يمنع إطلاق ذلك اللفظ عليه، وتأدُّبٌ مع أبيه بإضافة ذلك اللفظ إليه، ولم يتعرَّض للمعنى، فكأنه قال: لا تطلقوا هذا اللفظ عليَّ، وأطلقوه على أبي إبراهيم أدباً معه، واحتراماً له. ولو صرَّح بهذا لكان صحيحاً غير مستبعد، لا عقلاً، ولا نقلاً، وهذا كما قال: «لا تفضلوني على موسى»[٤]. أي: لا تقولوا: محمد أفضل من موسى مخافة أن يُخيَّل نقص في المفضول، كما قدَّمناه ويأتي. بهذا أظهرَ هذا اللفظ: أن ذلك راجعٌ إلى

الأخبار الوجودية لا يدخلها النسخ

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٢٠) وإسناده ضعيف.

(٢) رواه مسلم (٥٣٢).

(٣) في (م ٢) و (ع): نقول.

(٤) رواه مسلم (٢٣٧٣)، وأبو داود (٤٦٧١)، والترمذي (٣٢٤٠) بلفظ: «لا تخيروني على موسى».

[٢٢٨١] وعن أبي هريرةَ، قال: قال رسول الله ﷺ: «اخْتتن إبراهيم عليه السلام، وهو ابن ثمانين سنةً بالقَدُومِ».

رواه أحمد (٢/ ٣٢٢)، والبخاريُّ (٣٣٥٦)، ومسلم (٢٣٧٠).

منع إطلاق لفظٍ وإباحته، فذلك خبرٌ عن الحكم الشرعي، لا عن المعنى الوجوديِّ، وإذا ثبتَ ذلك جاز رفعُه، ووضعُه، وصحَّ الحكم به، ونسخُه من غير تعرُّض للمعنى، والله أعلم.

سلَّمنا أنه خبر عن أمر وجوديٍّ، لكن لا نُسلِّم أن كلَّ أمر وجوديٍّ لا يتبدَّل، بل: منها ما يتبدَّل، ولا يلزم من تبدُّله تناقض، ولا مُحالٌ، ولا نسخٌ؛ كالإخبار عن الأمور الوضعية. وبيان ذلك: أن معنى كون الإنسان مكرَّماً مفضَّلاً إنما ذلك بحسب ما يُكرَّم به، ويُفضَّل على غيره، ففي وقت يُكرَّم بما يُساوي فيه غيرَه، وفي وقت يُزاد على ذلك الغير، وفي وقتٍ يُكرَّم بشيءٍ لم يكرَّم به أحدٌ، فيقال: غلبه في المنزلة الأولى مكرَّم مقرَّب، وفي الثانية مفضَّل بقيد. وفي الثالثة، مفضَّل مطلقاً، ولا يلزم من ذلك تناقضٌ، ولا نسخٌ، ولا مُحالٌ، وهذا واضحٌ وحسنٌ جداً فاغتبطْ عليه[1]، وشدَّ عليه يداً.

اختتان إبراهيم عليه السلام

و (قوله: «اختتنَ إبراهيمُ عليه السلام بالقدوم، وهو ابن ثمانين سنة») اختلف الرواة في تخفيف دال القدوم وتشديدها، واختلفوا أيضاً في معناها. فالذي عليه أكثرُ الرُّواة التخفيف، ويعني به: آلة النَّجّار، وهو قول أكثر أهل اللغة في آلة النِّجارة. ورواه بعضهم مُشدَّداً. وفسَّره بعض اللغويين: بأنه موضع معروف بالشام، ومنهم من قال: بالسَّرَاة، وحكي عن أبي جعفر اللُّغوي: قدُّوم: المكان مشدَّد، معرفة، لا تدخله الألف واللام، قال: ومن رواه في حديث إبراهيم عليه السلام مخفَّفاً فإنما يعني بها الآلة التي يُنجر بها، وفي الصحاح: القدوم:

---

(١) في (م ٢) و (ع): به.

. . . .

الذي يُنحت به مخفَّفاً. قال ابن السِّكيت: لا تقل: قدُّوم بالتشديد، والجمع: قُدُمٌ. قال الأعشى:

أقَــامَ بِــهِ شَــاهَبُــورُ الجُنُــو دَ حَــوْلَيْــنِ يَضْـرِبُ فِيــهِ القُـدُمْ

وجمع القُدُم: قدائم، مثل: قُلُص وقلائص، والقدوم أيضاً: اسم موضع مخفَّف.

قلــتُ: ويحصل من أقوالهم: أن القدوم إذا أريد به الآلة فهو مخفَّف، وإذا أريد به الموضع ففيه التشديد والتخفيف، ويحتمل أن يُراد بالقدوم في الحديث: الآلة والموضع.

و (قوله: «وهو ابن ثمانين سنة») وفي غير كتاب مسلمٍ: أنه اختتن وهو ابن ثمانين سنة، وعاش مئة وعشرين سنة. قال القاضي عياض ـ رحمه الله ـ: قد جاء هذا الحديث من رواية مالكٍ، والأوزاعي، وفيه: اختتن إبراهيم وهو ابن مئةٍ وعشرين سنة. ثم عاش بعد ذلك ثمانين سنة. إلا أنَّ مالكاً ومن تابعَه وقفوه على أبي هريرة.

إبراهيم عليه السلام أول من اختتن

قلــتُ: قد تقدَّم: أنَّ إبراهيمَ أوَّلُ من اختتن، وأنَّ ذلك لم تزلْ سُنَّة عامَّةً معمولاً بها في ذريته وأهل الأديان المنتمين إلى دينه. وهو حكم التوراة على بني إسرائيل كلِّهم، ولم تزل أنبياء بني إسرائيل يختتنون حتى عيسى عليه السلام، غير أنَّ طوائف من النَّصارى تأوَّلوا ما جاء في التوراة من ذلك، بأنَّ المقصودَ زوال غُلْفة القلب، لا جلدةِ الذَّكر، فتركوا المشروعَ من الخِتَان بضربٍ من الهذيان، وليس هذا بأوَّل جهالاتهم، فكم لهم منها وكم؟! ويكفيك من ذلك: أنَّهم زادوا على أنبيائهم في الفهم، وغلَّطوهم فيما عملوا عليه، وقضوا به من الحكم. وقد أسبغنَا القول في هذا في كتاب الإعلام.

[٢٢٨٢] وعنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لم يكذب إبراهيمُ النَّبيُّ عليه السلام قطُّ إلا ثلاثَ كَذَباتٍ؛ ثِنتَين في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]

تأويل كذبات إبراهيم عليه السلام

و (قوله: «لم يكذب إبراهيمُ النبيُّ ـ عليه السلام ـ قطُّ إلا ثلاثَ كَذَباتٍ، ثنتين في ذات الله: قوله: ﴿إنّي سقيم﴾. وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾. وواحدةً في شأن سَارة») قد تقدَّم الكلامُ على هذه الكذَبات في كتاب الإيمان، وذكرنا هناك: أنها أربعٌ، زيد فيها قوله للكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٧ و ٧٨] ولم يذكرْها في هذا الحديث، مع أنَّه قد جاءَ بلفظ الحصر، فينبغي ألَّا يقال عليها: كَذْبَةٌ في حقِّ إبراهيم؛ إذ قد نَفَاها الرَّسول ﷺ بهذا الحصر، وإنما لم تُعدَّ عليه كذْبَةً وهي أدخلُ في الكذب من هذه الثلاث؛ لأنَّه ـ والله أعلم ـ حين قال ذلك في حال الطفوليَّة، وليست حالَ تكليف، ويقوِّي هذا المعنى قول من حكى عنه ذلك، كما تقدَّم في الإيمان.

تكسير إبراهيم للأصنام

و (قوله: «اثنتين في ذات الله) أي: في الدفع عن وجود الله، وبيان حجَّته على أن المستحقَّ للإلهية هو الله تعالى لا غيره، فاعتذر عمَّا دعوه إليه من الخروج معهم بأنه سقيم، فورَّى بهذا اللفظ، وهو يُريد خلاف ما فهموا عنه ـ كما بيَّناه في الإيمان ـ حتى يخلوَ بالأصنام فيكسرَها، ففعل ذلك، وترك كبيرَ الأصنام لينسبَ إليه كسرَها بذلك[1]، قولاً يقطعهم به، فإنهم لما رجعوا من عيدهم فوجدوا الأصنام مكسَّرة: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩]، فقال بعضهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] وكان هذا الذكر هو قول إبراهيم لهم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧] فلما أحضروه: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢] فأجابهم بقوله:

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٩٢٢) موقوفاً على أبي هريرة بلفظ: «خمس من الفطرة» وأما الزيادة فرواها رزين كما في جامع الأصول (٤/ ٧٧٧).

وواحدةً في شأن سارة فإنَّه قدم أرض جبار ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إنَّ هذا الجبَّار إنْ يعلم أنَّكِ امرأتي يَغْلِبْنِي عليك،....

﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٦٤] أي: رجع بعضهم إلى بعضٍ رجوع المنقطع عن حجَّة المتفطِّن لحجَّة خصمه: ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤] أي: بعبادة من لا ينطق بلفظة، ولا يملك لنفسه لحظة، فكيف ينفعُ عابديه، ويدفع عنهم البأس من لا يردُّ عن رأسه الفأس: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٦٥]. أي: عادوا إلى جهلهم وعنادهم، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥] فقال قاطعاً لما به يهذون، ومفحماً لهم فيما يتقوَّلون: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۞ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦ ـ ٦٧].

و (قوله: «ذات الله») يعني به: وجود الله المنزَّه عن صفات المخلوقات، والمقدَّس عن ذوات المحدثات، وفيه دليلٌ على جواز إطلاق لفظ الذات على وجود الله تعالى، فلا يُلتفت لإنكار من أنكرَ إطلاقه على المتكلِّمين.

و (قوله: «وواحدةٌ في شأن سارة») هذه الواحدة هي من إبراهيم عليه السلام مدافعةٌ عن حكم الله تعالى الذي هو: تحريمُ سارة على الجبَّار، والثنتان المتقدِّمتان مدافعةٌ عن وجود الله تعالى، فافترقا، فلذلك فرَّق في الإخبار بين النوعين.

و (قوله: «إنْ يعلم أنَّكِ امرأتي يغلبْني عليكِ») قيل: إن ذلك الجبَّار كانت سيرته: أنه لا يغلبُ الأخَ على أخته، ولا يظلمُه فيها، وكان يغلبُ الزوجَ على زوجتِه، وعلى هذا يدلُّ مساقُ[1] هذا الحديث، وإلا فما الذي فرَّق بينهما في حقِّ جبارٍ ظالمٍ؟.

---

(١) ليست في (ز) و (م ٣).

فإن سَأَلَكِ فأخبريه أنك أختي، فإنَّك أختي في الإسلام، فإنِّي لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغَيركِ. فلما دخل أرضه رآها بعضُ أهلِ الجبَّار، أتاه فقال له: لَقَدْ قَدِم أرضَكَ امرأةٌ لا ينبغي لها أن تكونَ إلا لَكَ، فأرسل إليْها فأُتِي بها، فقامَ إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة فلمَّا دخلت عليه لم يَتَمالَكْ

و (قوله: «فإنْ سألك فأخبريه: أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام») هذا صحيح ليس فيه من الكذب شيءٌ، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] لكنْ لما كانَ الأسبق للفهم من لفظ الأخوَّة إنما هو أخوَّة النسب، كان من باب المعاريض؛ لأن ظاهرَ اللفظ يُوهم شيئاً، ومُراد المتكلِّم غيره. وقيل عليه كذبٌ توسُّعاً، وأطلقَ النبيُّ ﷺ عليها كذباً؛ لأن الله تعالى قد أعلمَه: أن إبراهيم يُطلق ذلك على نفسه يوم القيامة كما تقدَّم في كتاب الإيمان، وأيضاً: فليُنبِّه بذلك على أن الأنبياء مُنزَّهون عن الكذب الحقيقي؛ لأنَّهم إذا كانوا يَفْرَقُون من مثل هذه المعاريض التي يُجادلون بها عن الله تعالى، وعن دينه، وهي من باب الواجب وتُعَدُّ عليهم؛ كان أحرى وأوْلى أن لا يصدرَ عنهم شيءٌ من الكذب الممنوع، وفي هذا ما يدلُّ على جواز المعاريض والحِيَل في التخلُّص من الظَّلَمة. بل نقول: إنه إذا لم يُخلِّص من الظالم إلا الكذب الصُّرَاح جاز أن يكذبَه، بل: قد يجبُ في بعض الصُّور بالاتفاق بين الفِرَق، ككذبةٍ تنجي نبيّاً، أو ولياً ممن يُريد قتلَه، أو أمناً من المسلمين من عدوهم، وفيه: ما يدل على أنَّ العمل بالأسباب المعتادة التي يُرجى بها دفعُ مَضرَّةٍ، أو جلبُ منفعةٍ لا يقدح في التوكل، خلافاً لما ذهبَ إليه جهَّال المتوكِّلة، وقد تقدَّم كثيرٌ من نحو هذا.

جواز المعاريض والحيل في التخلص من الظالمين العمل بالأسباب لا يقدح بالتوكل

و (قول الجبَّار لسَارة حين قُبِضت يده عنها: ادعي الله لي[1]) يدلُّ على أنَّ هذا الجبَّار كان عنده معرفة بالله تعالى، وبأن لِلَّه مِنْ عباده مَنْ إذا دعاه أجابَه، ومع

---

(١) ليست في التلخيص، ولا في صحيح مسلم. ووردت في جميع نسخ المفهم.

أن بَسَطَ يَدَهُ إليْها. فَقُبِضَتْ يَدُهُ قَبْضَةً شديدةً فقال لها: ادْعِي الله أن يُطْلِق يَدي ولا أضُرُّكِ، ففَعَلَتْ، فعادَ، فقُبِضَتْ أشدَّ من القبضة الأُولى، فقال لها مثل ذلك، ففعلت، فعاد، فقبضت أشدّ من القبضتين الأُولَيَيْن. فقال: ادعي الله أن يُطْلِقَ يدي، فَلَكِ اللَّهَ أنْ لا أضرُّكِ! ففعلت، وأُطْلِقَتْ يدُه. ودعا الذي جاء بها، وقال له: إنك إنما أتيتني بشيطانٍ، ولم تأتني بإنسانٍ، فَأَخْرِجْها من أرْضي، وأَعْطِها هاجَرَ. قال: فأقبَلَتْ تمشي، فلما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف، فقال لها: مَهْيَمْ؟ قالت: خيراً؛ كَفَّ اللَّهُ

ذلك فلم يكن مسلماً؛ لأن إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ قد قال لسارة: «ما أعلمُ على الأرضِ مسلماً غيري وغيرك».

و (قول الجبَّار: لَكِ اللَّهَ ألا أضرُّكِ) الرواية فيه بالنصب، لا يجوز غيره، وهو قَسَمٌ، ومُقْسَمٌ به، ومقسم عليه، وفيه حذف يتبيَّن بالتقدير، وتقدير ذلك: أقسمُ بالله على ألا أضرَّك، فحذف الخافضَ، فتعدَّى الفعل فَنَصَبَ، ثم حُذفَ فعل القسم، وبقي المقسم به ـ وهو الله تعالى ـ منصوباً، وكذلك المقسم عليه وهو: ألا أضرَّك، يعني مفتوح همزة ألا، ويجوز في أضرُّك رفع الراء على أن تكون أن مخففةً من الثقيلة، ويجوز فيه النصب على أن تكون أن الناصبة للفعل المضارع.

و (قول الجبار للذي جاءَه بسارة: إنما أتيتني بشيطان، ولم تأتني بإنسان) كلام يُناقض قوله: ادعي الله لي. فيكون ذمُّه لها عناداً، بَعْد أن ظهَر له كرامتُها على الله. أو إخفاءً لحالها لئلاَّ يُتَحَدَّثَ بما ظهر عليها من الكرامة، فتَعْظم في نفوس الناس وتُتَّبع، فلبَّس على السامع بقوله: إنما أتيتني بشيطان.

و (قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ: مَهْيَمْ) قال الخليل: هي كلمةٌ لأهل اليمن خاصةً. معناها: ما هذا؟ وفي الصحاح: هي كلمةٌ يُستفهم بها، معناها: ما حالكِ؟ وما شأنكِ؟ ونحوَه قال الطبريُّ.

و (قوله: قالت: خيراً) هو منصوب بفعل مضمرٍ. أي: فعل الله خيراً. ثم

يَدَ الفاجر وأخدَمَ خادماً!». قال أبو هريرة: فتلك أمُّكم يا بني ماءِ السماء.

رواه أحمد (٢/٤٠٣ ـ ٤٠٤)، والبخاريُّ (٢٢١٧)، ومسلم (٢٣٧١)، وأبو داود (٢٢١٢).

* * *

فسَّرتِ الخيرَ بقولها: (كَبَتَ[١] اللَّهُ يدَ الفاجرِ، وأخدمَ خادماً). أي: عصمَها الله منه بما أظهرَ من كرامتِها، وأعطاها الله خادماً، وهي: هاجر. ويُقال: آجر ـ بالهمزة يُبدلونها من الهاء ـ وفيه: جواز قبول هدية المشرك، وقد تقدَّم القول فيها.

هاجر أمُّ العرب

و (قول أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: فتلكَ أُمُّكم يا بني ماءِ السَّماء) فتلك: إشارة إلى هاجر، والمُخاطَب: العرب. قال الخطَّابي: سُمُّوا بذلك لانتجاعهم المطرَ، وماءِ السماء للرعي. وقال غيره: سُمُّوا بذلك لخلوص نسبهم، وصفائه. وشبَّهه بماء السماء. قال القاضي أبو الفضل: والأظهر عندي: أن المرادَ به الأنصار. نسبَهم إلى جَدِّهم عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، وكان يُعرف بماء السماء، وهو مشهور. والأنصار كلُّهم بنو حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر المذكور، والله أعلم.

* * *

---

(١) كذا في جميع النسخ، وهي موافقة لرواية البخاري (٢٢١٧) أما في التلخيص وصحيح مسلم: «كفَّ».
ومعنى: كبتَ: أذلَّ وصرف.

(٣٠) بـــاب
في ذكر موسى عليه السلام

[٢٢٨٣] عن أبي هريرةَ، قال: قال رسول الله ﷺ: «كانتْ بَنُو إسرائيل يغتسلون عُرَاةً؛ ينظرُ بعضهم إلى سَـوْءَة بعضٍ، وكان موسى عليه السلام يغتسلُ وحدَه، فقالوا: والله! ما يمنع موسى عليه السلام أن يغتسلَ معنا إلا أنه آدَرُ!. قال: فذهب مرةً يغتسِلُ، فوضع ثَوْبه على حجرٍ،

---

(٣٠) ومــن بــاب: ذكر موسى ـ عليه السلام ـ

معاندة بني إسرائيل

(قوله: «كانت بنو إسرائيل يغتسلـون عراةً، ينظر بعضُهم إلى سوأة بعضٍ») إنما كانت بنو إسرائيل تفعلُ ذلك معاندةً للشرع، ومخالفةً لموسى ـ عليه السلام ـ، وهو من جملة عتوِّهم، وقلَّة مبالاتهم باتباع شرع موسى، ألا ترى أنَّ موسى ـ عليه السلام ـ كان يستترُ عند الغُسْل، فلو كانوا أهل توفيق وعقل اتبعوه، ثم لم يكفـهم مخالفتهم له حتى آذوه بما نسبوا إليه من آفة الأُذرة، فأظهرَ الله تعالى براءَته مما قالوا بطريق خارق للعادة، زيادة في أدلَّة صدق موسى ـ عليه السلام ـ، ومبالغةً في قيام الحجة عليهم، وفي هذا الحديث ما يدلُّ: على أن الله تعالى كمَّل أنبياءَه خَلْقاً وخُلُقاً، ونزَّههم في أوَّل خلقهم من المعايب، والنقائص المنفِّرة عن الاقتداء بهم المبعدة عنهم، ولذلك لم يُسمع أنه كان في الأنبياء والرسل من خَلَقَه الله تعالى أعمى، ولا أعور[١]، ولا أقطع، ولا أبرص، ولا أجذم، ولا غير ذلك من العيوب والآفات التي تكون نقصاً، ووصماً يُوجب لمن اتَّصف بها شيئاً وذمّاً، ومن تصفَّح أخبارَهم، وعلم أحوالَهم علم ذلك على القطع. وقد ذكر القاضي ـ رحمه الله ـ في الشفاء من هذا جملة وافرةً، ولا يُعترض عليها بعمى يعقوب، وبابتلاء أيوب؛ فإن ذلك كان طارئاً عليهم محبَّةً لهم، وليقتدي بهم من ابتلي ببلاء في حالهم

كمال الأنبياء خلقاً وخُلُقاً

---

(١) في (م ٣): ولا أعرج.

ففرَّ الحجر بثوبه. قال: فجمح موسى بأَثَره يقول: ثوبي. حَجَر! ثوبي. حجر! حتى نَظَرَتْ بنو إسرائيل إلى سَوْءَةِ موسى، فقالوا: والله ما بموسى من بأس. فقام الحجرُ بعدُ حتى نُظِرَ إليه. قال: فأخذ ثوبه، فطفق بالحجر ضرباً».

وصبرهم، وفي أن ذلك لم يقطعْهم عن عبادة ربِّهم. ثم إنَّ الله تعالى أظهرَ كرامتهم، ومعجزاتهم بأن أعادَ يعقوب بصيراً عند وصول قميص يُوسف له، وأزالَ عن أيوب جذامَه وبلاءَه عند اغتساله من العين التي أنبعَ الله تعالى له عند رَكْضِه الأرضَ برجله، فكان ذلك زيادة في معجزاتهم، وتمكيناً في كمالهم، ومنزلتهم. والآدر ـ بمد الهمزة ـ: هو ذو الأُدْرة، بضم الهمزة، وسكون الدال، وهي عِظَمُ الخِصْيتين، وانتفاخهما.

تبرئة موسى عليه السلام من الأُدْرَة

و (قوله: «فجمح موسى بأثره») أي: أسرع في مشيه خلفَ الحجر ليأخذ ثوبَه. والجَمُوح من الخيل: هو الذي يركب رأسه في إسراعه، ولا يَثْنيه شيءٌ، وهو عيب فيها، وإنما أطلق على إسراع موسى خلفَ الحجر جماحاً؛ لأنه اشتدَّ خلفَه اشتداداً لا يَثْنيـه شيءٌ عن أخذ ثوبه، وهو مع ذلك يُنادي: ثوبي حجر! ثوبي حجر! كل ذلك استعظام لكشف عورته، فسبقه الحجر إلى أن وصل إلى جمع بني إسرائيل، فنظروا إلى موسى، وكذَّبهم الله في قولهم، وقامت حجَّته عليهم.

و (قول موسى ـ عليه السلام ـ: «ثوبي حجر! ثوبي حجر!») منصوب بفعل مضمر، وحجر مناد مفرد محذوف حرف النداء، وتقدير الكلام: أعطني ثوبي يا حجر! أو: اتركْ ثوبي يا حجر! فحذف الفعل لدلالة الحال عليه. وحُذِفَ حرف النداء هنا استعجالاً للمنادى، وقد جاء في كلام العرب حذف حرف النداء مع النكرة، كما قالوا: اطرقْ كرا، وافتدِ مخنوق، وهو قليل. وإنما نادى موسى ـ عليه السلام ـ الحجر نداء من يعقل؛ لأنه صدر عن الحجر فعل من يعقل، وفي وضع موسى ثوبَه على الحجر، ودخوله في الماء عُرياناً: دليلٌ على جواز ذلك،

حكم الدخول في الماء عُرياناً

قال أبو هريرة: والله! إنه بالحجر نَدَبٌ ستةٌ أو سبعةٌ، ضَرْبُ موسى عليه السلام بالحجر.

وفي رواية: قال أبو هريرة: كان موسى عليه السلام رجلاً حَيِيّاً.

قال: فكان لا يُرى متجرّداً وذكر نحوه. قال: ونزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

رواه أحمد (٢/ ٣١٥)، والبخاريُّ (٢٧٨)، ومسلم (٣٣٩) في الفضائل (١٥٥)، والترمذيّ (٣٢١٩).

وهو مذهب الجمهور. ومنعه ابن أبي ليلى، واحتجَّ بحديث لم يصحَّ، وهو قوله ﷺ: «لا تدخلوا الماء إلا بمئزر؛ فإن للماء عامراً»[١]. قال القاضي: وهو ضعيف عند أهل العلم. وجاء في الأم قال: «فاغتسل عند مُوَيْه»[٢] وهو تصغير ماء، هكذا في رواية العذريِّ، ورواها أكثر الرواة: المَشْرَبة ـ بفتح الميم والراء ـ وأصله: موضع الشرب، وأراد به الماء. والمَشْرَبة ـ بفتحها أيضاً ـ: الأرض اللَّينة، فأما المَشْرَبة التي هي الغرفة فتقال: بفتح الراء وضمها، كما تقدَّم. وطَفِق من أفعال المقاربة، كجعل وأخذ، ويقال: بفتح الفاء وكسرها، والنَّدَب: الأثر وهو بفتح الدال.

---

(١) ذكره الزبيدي في الإتحاف (٢/ ٤٠١)، وهو ضعيف ومخالف كما قال العراقي لما ذهب إليه الأئمة الأربعة وجمهور العلماء من السلف والخلف؛ من جواز كشف العورة في الخلوة في حالة الاغتسال مع إمكان التستر.

(٢) هي في صحيح مسلم في كتاب الفضائل (٤/ ١٨٤٢) رقم (١٥٦).

[٢٢٨٤] وعن أنسِ بن مالكٍ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «مررتُ على موسى ليلةَ أُسريَ بي عند الكثِيْبِ الأحْمَر، وهو قائمٌ يُصلِّي في قبره».

رواه أحمد (٣/ ١٢٠)، ومسلم (٢٣٧٥) (١٦٤)، والنسائي (٣/ ٢١٥ ـ ٢١٦).

* * *

الشهداءُ والأنبياء أحياءٌ يرزقون

و (قوله: مررت على موسى ليلة أُسري بي عند الكثيب الأحمر، وهو يُصلِّي في قبره[(١)]): الكثيب: هو الكوم من الرمل ويجمع كُثُباً، وهذا الكثيب هو بطريق بيت المقدس، كما سيأتي. وهذا الحديث يدلُّ بظاهره على: أنه ﷺ رأى موسى رؤية حقيقية في اليقظة، وأن موسى كان في قبره حياً، يُصلِّي فيه الصلاة التي كان يُصلِّيها في الحياة، وهذا كلُّه ممكن لا إحالة في شيءٍ منه، وقد صحَّ أن الشهداءَ أحياءٌ يرزقون، ووُجد منهم من لم يتغير في قبره من السنين كما ذكَّرناه. وإذا كان هذا في الشهداء كان في الأنبياء أحرى وأولى، فإن قيل: كيف يُصلُّون بعد الموت وليست تلك الحال حال تكليفٍ؟ فالجواب: أن ذلك ليس بحكم التكليف وإنما ذلك بحكمَ الإكرام لهم والتشريف، وذلك أنهم كانوا في الدنيا حبِّبت لهم عبادة الله. والصلاة بحيث كانوا يلازمون ذلك، ثم توفُّوا وهم على ذلك، فشرَّفهم الله تعالى بعد موتهم بأن أبقى عليهم ما كانوا يُحبُّون، وما عُرفوا به، فتكون عبادتهم إلهاميَّة كعبادة الملائكة، لا تكليفية، وقد وقعَ مثل هذا لثابتِ البُنانيِّ ـ رضي الله عنه ـ فإنه حُبِّبت الصلاة إليه حتى كان يقولُ: اللَّهم إن كنت أعطيتَ أحداً يُصلِّي لك في قبره، فأعطني ذلك. فرآه مُلْحِدُه، بعدما سوّى عليه لَحْدَه قائماً يُصلِّي في قبره، وقد دلَّ على صحة ذلك كلِّه قولُ نبيِّنا ﷺ: «يموتُ المرء على ما عاشَ

---

(١) هي رواية مسلم (٢٣٧٥) (١٦٥).

(٣١) بـــاب
قصة موسى مع الخضر عليه السلام

[٢٢٨٥] عن سعيدِ بن جبير، قال: قلت لابن عباس: إنَّ نَوْفاً البِكَالِيَّ يزعم: أنَّ موسى عليه السلام صاحبَ بني إسرائيل ليس هو موسى صاحبَ الخضر، عليه السلام. فقال: كَذَبَ عدوُّ الله، سمعت أُبيَّ بنَ كعبٍ

عليه، ويُحشر على ما مات عليه»(١). وقد جاء في الصحيح: «أن أهلَ الجنَّة يُلهمون التسبيحَ كما تُلهمون النَّفَس»(٢).

(٣١) ومن بـــاب: قصَّة موسى مع الخضر ـ عليهما السلام ـ

من هو نوف البكالي؟

(قوله: إن نَوْفاً البِكَالِيّ) لم يُخْتلف في أن نوفاً هو بفتح النون، وإسكان الواو وفتح الفاء منوَّنة، وأمَّا البِكالي: فروايتي فيه بكسر الباء، وفتح الكاف وتخفيفها على كل من قرأتُه عليه في البخاريِّ ومسلم، وهي المعروفة، وقد ضبطَها الخشني، وأبو بكر بفتح الباء والكاف، وتشديد الكاف، والأوَّل الصَّواب. وبِكَال: بطنٌ من حِمْيَر، وقيل من هَمْدان، وإليهم يُنسب نوف هذا، وهو نوف بن فضالة على ما قاله ابن دريد، وغيره. يكنَّى بأبي زيد، وكان عالماً فاضلاً، وإماماً لأهل دمشق، وقيل: هو ابن امرأة كعب الأحبار، وقيل: ابن أخته.

و (قول ابن عباس: كذبَ عدوُّ الله) قول أصدَره غضبٌ على من يتكلَّم بما لم يصحَّ، فهو إغلاظٌ، وردعٌ، وقد صارَ غيرُ نوفٍ إلى ما قالَه نوفٌ، لكنَّ الصحيح ما قاله ابن عباس على ما حكاه في الحديث.

---

(١) لم نجده بهذا اللفظ، وفي صحيح مسلم (٢٨٧٨) بلفظ: «يُبعث كلُّ عبد على ما مات عليه».
(٢) رواه مسلم (٢٨٣٥) (٢٠).

يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قام موسى عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل: أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم. قال: فعتَب الله عليهِ إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، ....

عتب الله على موسى عليه السلام

و (قوله: «قام موسى خطيباً، فسُئِل أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا[1]، فعَتَب الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلمَ إليه») مساق هذه الرواية هو أكمل ما سيق الحديث عليه فلنبحث فيه، وظاهر هذا اللفظ: أن الذي عَتَب الله تعالى على موسى إنما هو أن قال: أنا أعلم. فأضاف الأعلمية إليه، ولم يقل: الله أعلمُ بمن هو أعلم الناس، فيفوِّض ذلك إلى الله، فيكون هذا من نوع ما عَتَبه النبيُّ ﷺ على لوطٍ ـ عليه السلام ـ حيث قال: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: ٨٠] وسيأتي تكميل هذا المعنى في كتاب التفسير ـ إن شاء الله تعالى ـ. فكان الأوْلى بموسى ـ عليه السلام ـ أن يقول: الله أعلم بمن هو أعلم الناس، لكن لما لم يعلم في زمانه رسولاً آتاه الله كتاباً فيه علم كل شيءٍ وتفصيل الأحكام سواه، قال ذلك حسب ما كان في علمه. لكنَّه تعالى لم يرضَ منه بذلك لكمال معرفتِه بالله تعالى، ولعلوِّ منصبه. وفي بعض طرق البخاري: «أن السائل قال لموسى: هل في الأرض أعلمُ منك؟ قال: لا، فعَتَب الله عليه إذ لم يردَّ العلم إليه.

حسنات الأبرار سيئات المقربين

قلتُ: وهذان اللفظان هما اللذان يتوجَّه العتب على موسى فيهما، وقد رُوي بألفاظ أُخر، يبعد توجّه العتب عليها، فقد رُوي أنه قال: لا أعلم في الأرض خيراً ولا أعلمَ منِّي. وفي أخرى قيل له: هل تعلم أحداً أعلمُ منك؟ فقال: لا. فهذان اللفظان قد نفى فيهما العلم فيما سُئل عنه عن نفسه، وهو حقٌّ صحيح وتبرؤٌ صريحٌ، فكيف يتوجَّه على من قال مثل ذلك عتب، أو ينسب إلى تقصير؟ فالصحيح من حيث المعنى الذي صدر من موسى ـ عليه السلام ـ معنى اللفظين السابقين؛ فإنه جزمَ فيهما بأنه أعلم أهل الأرض، وهذا محلُّ العتب على مثله،

---

(١) في صحيح مسلم والتلخيص: «أنا أعلم».

فأوحى اللَّهُ إليه: أنَّ عبداً من عبادي بمَجْمَع البحرين هو أعلم منك......

فإنه كان الأولى به أن يُفوِّض علم ذلك إلى الله تعالى، وهذا يدلُّ على صحة ما قلناه فيما تقدَّم من أن الذنوبَ المنسوبة إلى الأنبياء المعدَّدة عليهم إنما هي من باب ترك الأولى، وعُوتبوا عليها بحسب مقاديرهم، فإن حسنات الأبرار سيئات المُقرَّبين.

و (قوله تعالى[1]: «إن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلمُ منك»، وفي الرواية الأخرى: «بل عبدُنا الخَضِر»). اسم الخضر: بليا بن مَلْكان على ما قاله بعضُ المفسرين، وسُمِّي الخضر، لأنه كان أينما صلَّى اخضرَّ ما حولَه، وفي الترمذيِّ من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إنما سُمِّي الخضر لأنه جلسَ على فروة بيضاء فاهتزت تحتَه خضراء»[2]. وقال: هذا حديث حسن صحيح.

سبب تسمية الخضر

و (مجمع البحرين): ملقاهما. قال قتادة: هما بحرا فارس والروم. السُّدِّي: هي الكرُّ. والرَّسُّ بأرمينية[3]. أبي: وهما بإفريقية. القرطبي[4]: بطنجة. وحُكي عن ابن عباس: إن بحريْ العلم: الخضر وموسى، وكأنَّ هذا لا يصحُّ عنه، والله أعلم.

(و قوله: «هو أعلمُ منك») أي: بأحكامٍ مفصَّلةٍ، وحكمِ نوازلَ معيَّنةٍ، لا مطلقاً، بدليل قول الخضر لموسى: إنَّك على علمٍ علَّمكه الله لا أعلمُه أنا، وأنا على علمٍ علَّمنيه الله لا تعلمُه أنت. وعلى هذا فيصدق على كلِّ واحدٍ منهما: أنه أعلم من الآخر بالنسبة إلى ما يعلمُه كل واحدٍ منهما، ولا يعلمُه الآخر، فلما سمع موسى هذا تشوَّفت نفسُه الفاضلةُ، وهمَّتُه العالية لتحصيل علم ما لم يعلم، وللقاء

---

(١) أي: ما ورد في حديث الباب بقوله: فأوحى الله إليه.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٥١).

(٣) هذه الأسماء ضبطت من معجم البلدان، لياقوت الحموي.

(٤) هو ابن عبد البر القرطبي المالكي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ.

قال موسى عليه السلام: أيْ رب! كيف لي به؟ فقيلَ له: احمل حوتاً ـ في روايةٍ: مالحاً ـ في مِكْتَلٍ، فحيث تَفْقِدُ الحوت فهو ثَمَّ. فانطلق وانطلق معه فتاه ـ وهو يوشع بن نون ـ فحمل موسى عليه السلام حوتاً في مكتلٍ. وانطلق هو وفتاه يمشيان حتى أتيا الصَّخرة، فرقد موسى عليه السلام وفتاه، فاضطرب الحوت في المكتل، حتى خرج من المكتل،

من قيل فيه: إنه أعلم، فعزم فسأل سؤال الذليل: كيف السبيل؟ فأُمر بالارتحال على كلِّ حالٍ، وقيل له: احمل معك حُوتاً مالحاً في مِكتلٍ، وهو الزِّنبيلُ. فحيث يحيا وتفقده فثَمَّ السَّبيل، فانطلق مع فتاه لما واتاه، مجتهداً طَلِباً قائلاً: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ [الكهف: ٦٠] والحُقُب: بضم الحاء والقاف: الدهر، والجمع أحقاب، وبضم الحاء وسكون القاف، ثمانون سنة، ويقال أكثر من ذلك، والجمع حِقَاب، والحِقبةُ بكسر الحاء، واحدة الحُقُب، وهي: السِّنون. من الصحاح.

الرحلة في طلب العلم

وفيه من الفقه: رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادم، والصَّاحب، واغتنام لقاء الفضلاء، والعلماء، وإن بَعُدَتْ أقطارُهم، وذلك كان دأبُ السَّلف الصالح، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحَظِّ الراجح، وحصلوا على السعي الناجح، فرسخت في العلوم لهم أقدامٌ، وصحَّ لهم من الذكر والأجر أفضل الأقسام. ثم إنَّ موسى أزعجه القلق، فانطلق مغموراً بما عنده من الشوق والحرق، يمشي مع فتاه على الشطِّ، ولا يُبالي بمن حطَّ، لا يجدُ نَصَباً، ولا يُخطىء سبباً. إلى أن أويا إلى الصخرة فناما في ظلِّها. قال بعض المفسرين: وكانت على مجمع البحرين، وعندها ماء الحياة ـ حكى معناها الترمذي عن سفيان بن عيينة ـ فانتضح منه على الحوت فحيي واضطربَ، فخرج من المِكتل يضطرب حتى سقط في الماء، فأمسكَ الله جِرْية الماء عن موضع دخوله حتى كان مثل الطاق، وهو النَّقْب الذي يُدْخَل منه.

ما حلَّ بالحوت عند الصخرة

فسقط في البحر. قال: وأمسك الله عنه جِرْيَة الماء حتى كان مثل الطَّاق، فكان للحوت سَرَباً، وكان لموسى وفتاهُ عجباً، فانطلقا بقية يومهما وليلتهِما، ونسي صاحب موسى أن يُخْبِره، فلما أصبح موسى عليه السلام، قال لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]،

و (قوله: «فكان للحوت سَرَباً»: أي: مسلكاً. عن مجاهد قال قتادة: جمد الماء فصارَ كالسَّرَب.

و (قوله: «وكان لموسى وفتاه عجباً») لما تذكرا، فرجعا، فعجبا من قدرة الله على إحياء الحوت، ومن إمساك جري الماء حتى صارَ بحيث يسلكُ فيه.

و (قوله: «فانطلقا بقية يومهما وليلتهما») يعني: بعد أن قاما من نومهما، ونسيا حوتهما. أي: غفلا عنه، ولم يطلباه لاستعجالهما. وقيل: نسي يُوشع الحوت، وموسى أن يأمره فيه بشيءٍ. وقيل: نسي يُوشع فنسب النسيان إليهما للصحبة، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وعلى هذا القول يدلُّ قوله في الحديث: «ونسيَ صاحبُ موسى أن يخبره» ويظهر منه: أن يوشع أبصرَ ما كان من الحوت ونسيَ أن يخبرَ موسى في ذلك الوقت.

و (قوله: «فلما أصبحَ قال موسى: ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]) هذا يدلُّ على أنهما كانا تزوَّدا، وقيل: كان زادهما الحوت، وكان مُمَلَّحاً.

زاد موسى والفتى

قلتُ: والظاهر من الحديث: أنه إنما حملَ الحوت معه؛ ليكون فقدُه دليلاً على موضع الخَضِر، كما تقدَّم من قوله تعالى لموسى: «احمل معك حوتاً في مكتلٍ، فحيث تفقدُ الحوتَ فهو ثَمَّ». وعلى هذا فيكون تزوَّدَا شيئاً آخرَ غير الحوت. والنَّصَب: التعب والمشقة. وقيل: عنى به هنا: الجوع. وفيه دليل على جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض، وأن ذلك لا يقدح في الرِّضا، ولا في التسليم للقضاء، لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجرٍ ولا تسخُّطٍ.

الإخبار بوجود المرض والألم لا يقدح في الرضا

ـ قال: ولم ينصب موسى حتى جاوز المكان الذي أُمِر به ـ: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣]، قال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا

و (قوله: «ولم ينصبْ حتى جاوزَ المكان الذي أُمر به») أي: لم يجد موسى أَلَم النَّصبِ إلا بعدَ أن جاوزَ موضعَ فقد الحوت، وكأنّ الله تعالى جعلَ وجدان النَّصَبِ بسبب طلب الغداء سَبَب تذكُّرِ ما كان من الحوت. ومن هنا قيل: إن النَّصَب هنا هو الجوع.

و (قوله: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ [الكهف: ٦٣]) هذا قول يُوشع جواباً لموسى، وإخباراً له عما جرى. ومعنى أوينا: انضممنا، وهي هنا: بقصر الهمزة لأنه لازمٌ، وقد تقدَّم ذكر الخلاف في المتعدي في قصره ومدِّه. ونسبة الفتى النسيانَ إلى نفسه نسبةٌ عاديَّة لا حقيقية.

و (قوله: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣]) أنْ مع الفعل بتأويل المصدر، وهو منصوب بدل اشتمال من الضمير في أنسانيه، وهو بدل الظاهر من المضمر، وهذا إنما ذكرَه يُوشع في معرض الاعتذار، وذلك أن في البخاري: أن موسى قال لفتاه: «لا أُكلِّفك إلا أن تُخبرني بحيث يفارقك الحوتُ، فاعتذر بذلك القول» ويعني بذلك: أن الشيطان سبب للنسيان، والغفلة، بما يُورده على القلب من الخوض في غير المعنى المطلوب، ومن المعلوم أن النسيان لا صنعَ فيه للإنسان، وأنه مغلوب عليه، ولذلك لم يؤاخذ اللَّهُ تعالى به، وإنما محلُّ المؤاخذة الإهمال والتفريط. والانصراف عن الأمور المهمة إلى ما ليس بمهمٍّ حتى ينسى المهمَّ، وهذا هو فعل الشيطان المذموم أن يُشغلَ ذِكْرَ الإنسان بما ليس بمهم، ويزيِّنَه له حتى ينصرفَ عن المهم فيذمَّ على ذلك ويُعاقبَ، فيحصلَ مقصود الشيطان من الإنسان.

لا يؤاخذ الله على النسيان

و (قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣]) أي: اتَّخذ الحوتُ

قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]. ـ قال: يقصَّان آثارهما ـ حتى أتيا الصخرة فرأى رجلاً مسجّىً عليه بثوبٍ ـ وفي رواية: مستلقياً على القفا، أو قال: على حلاوة القفا ـ فسلم عليه موسى؛ فقال له الخضر: أنَّى بأرضك السلام، من

طريقه في البحر سرباً، تعجب منه يُوشع، ويتعجَّب به غيرُه ممن شاهده، أو سمع قضيته. و ﴿نبغ﴾: نطلب. و ﴿ارتدا﴾: رجعا. و ﴿قصصاً﴾: تتبُّعاً لآثار طريقهما. و ﴿الصخرة﴾: هي التي كان أَوَيا إليها. و (المسجَّى): المغطَّى. و (مُستلقياً على القفا) أي: مباشراً بظهره وقفاه الأرضَ مستقبلاً بوجهه السماء كهيئة الميت.

و (قوله: «على حلاوة القفا») شكٌّ من بعض الرُّواة. و (حلاوة القفا) يعني بها ـ والله أعلم ـ: أن هذه الضجعة مما تُستحلى؛ لأنها ضجعة استراحة، فكأنه قال: أو حلاوة ضجعة القفا، ويُقال بضم الحاء وفتحها، وحلاءً بالضم والمد، وبه وبالقصر، وكأن هذه الضجعة من الخَضِر كانت بعد تعب عبادة. وآثر هذه الضجعة لما فيها من تردُّد البصر في المخلوقات، ورؤية عجائب السماوات، فكأنَّ الخضر في هذه الضجعة متفرِّغ عن الخليقة مملوء بما لاح له من الحقِّ والحقيقة، ولذلك لما سلَّم عليه موسى ـ عليه السلام ـ كشفَ الثوب عن وجهه، وقال: وعليك السلام، من أنت؟.

و (قوله: «أنَّى بأرضِك السَّلام») معناه: من أين تعرف السلام بهذه الأرض التي أنت فيها؟! وهذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أن ذلك الموضع كان قفراً لم يكن به أحدٌ يصحبه، ولا أنيس فيكلِّمه، ويحتمل أن يكون أهل ذلك الموضع لا يعرفون السلام الذي سلَّم به موسى، إما لأنهم ليسوا على دين موسى، وإما لأنه ليس من كلامهم. و (أنَّى) تأتي بمعنى: حيث، وكيف، وأين، ومتى. حكاه القاضي. وفي هذا من الفقه: تسليم القائم على المضطجع، وهذا القول من الخضر كان بعد أن ردَّ عليه السلام،

أنت؟! قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. وفي رواية: قال: مجيءٌ ما جاء بك! قال: جئتُ لتُعَلِّمَني مما عُلِّمتَ رُشْداً. ....

لا قبله، كما قد ذكرناه، ومساق هذه الرواية يدل: على أن اجتماع موسى ـ عليه السلام ـ بالخضر كان في البرِّ عند الصخرة، وهو ظاهر قوله: «حتى إذا أتى الصخرةَ فرأى رجلاً مسجّىً»، وفي بعض طرق البخاريّ: «حتى أتى الصخرة، فإذا رجلٌ مسجّىً» فعطفه بالفاء المعقبة، وإذا المفاجئة، غير أنه قد ذكرَ البخاريُّ ما يقتضي أنه رآه في كبد البحر، وذلك أنه قال فيها: فوجدَ خَضِراً على طِنْفِسَةٍ خضراء على كبد البحر مسجّىً بثوبه، وجعلَ طرفَه تحت رجليْه، وطرفَه تحت رأسه[١].

اجتماع موسى عليه السلام بالخضر

و (كبد البحر): وسطه. وهذا يدلُّ على أنه اجتمع به في البحر، ويحتمل أن موسى مشى على الماء، وتلاقيا عليه، وهذا لا يُستبعد على موسى والخضر، فإن الذي خُرِق لهما من العادة أكثرُ من هذا وأعظمُ. وعلى هذا فهذه الزيادة تُضمُّ إلى الرواية المتقدمة، ويُجمع بينهما بأن يقال: إن وصولَ موسى للصخرة، واجتماعه مع الخضر كان في زمان متقارب، أو وقتٍ واحدٍ لطيِّ الأرض، وتسخير البحر، والقدرة صالحةٌ، وهذه الحالة خارقةٌ للعادة؛ ولما كان كذلك عبَّر عنها بصيغ التعقيب والاتصال، والله أعلم.

و (قوله: «نعم») هو حرف جواب في الإيجاب، فكأنَّه قال: أنا موسى بني إسرائيل، فهو نصٌّ في الرد على نوفٍ، وعلى من قال بقوله: وهم أكثر اليهود.

و (قوله: «مجيء ما جاء بك») قيّدها ابن ماهان بالهمز والتنوين، وعلى هذا تكون (ما) نكرة صفة لمجيء، وهي التي تكون للتفخيم والتعظيم، كقولهم: لأمرٍ ما تسوَّدَ من تسوَّدَ، ولأمر ما تدرَّعت الدروع. فيكون معناه: مجيءٌ عظيمٌ، وأمرٌ مهمٌّ حملك على أن تركت ما كنت عليه من أمر بني إسرائيل، واقتحمتَ الأسفارَ،

---

(١) هي رواية البخاري المشار إليها في التخريج (٤٧٢٦).

قال: إنّك على علمٍ من علم الله علَّمكَه الله لا أعْلَمُهُ ، وأنا على علم من علم الله علَّمنيه لا تعلمه. ....

وقطعَ المفاوز والقفار. وقد زاد فيه بعض الرواة: «أن الخضر قال له: وعليك السلام، أنى بأرضنا يا نبيَّ بني إسرائيل، أما كان لك فيهم شغلٌ؟! قال: بلى ولكني أُمرت أن أصحبك، مستفيداً منك». فأجاب بجواب المتعلم المسترشد بين يدي العالم المرشد مُلازماً للأدب والحُرْمة، ومعظِّماً لمن شرَّفه الله بالعلم، وأعلى رسمه فقال: جئتُك لتعلمني مما عُلِّمتَ رشداً. قرأه الجماعة بضم الراء وسكون الشين، وقرأه يعقوب وأبو عمرو بالفتح فيهما، وهما لغتان، ويُقال: رَشَد: بالفتح يرشد رُشداً بالضم، ورَشِدَ بالكسر يرشَد رَشداً بالفتح، ومعنى الرشد: الاستقامة في الأمور، وإصابة وجه السَّداد، والصواب فيها، وضده الغيُّ. وهو منصوب على المصدر، ويكون في موضع الحال، ويصحُّ أن يكونَ مفعولاً من أجله، وفيه من الفقه التذلُّل، والتواضع للعالم، وبين يديه، واستئذانه في سؤاله، والمبالغة في احترامه وإعظامه، ومن لم يفعل هكذا فليس على سُنَّة الأنبياء، ولا على هديهم، كما قال نبيُّنا ﷺ: «ليس منا من لم يُجِلَّ كبيرَنا ويرحمْ صغيرَنا ويعرفْ لعالمنا حقَّه»[١].

أدب المتعلم مع العالم

و (قوله: «إنك على علم من علم اللّه علَّمكه الله، لا أعلمُه، وأنا على علم من علم الله علَّمَنِيه لا تعلمُه أنت») ظاهر هذا: أن الخضر كان لا يعلمَ التوراة، ولا ما علمه موسى من الأحكام، وقد جاء هذا الكلام في بعض روايات البخاري بغير هذا اللفظ، وبزيادة فيه؛ فقال: «أما يكفيك أنَّ التوراة بين يديك، وأنَّ الوحيَ يأتيك يا موسى؟ إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمَه، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمَه»[٢].

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٢٣)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٢٢) وصححه، ووافقه الذهبي.
(٢) هي رواية البخاري (٤٧٢٦).

قال له موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٦ ـ ٦٩]، ....

قلــتُ: ولا بعد فيما ظهر من رواية مسلم؛ لأنَّ الخَضِر إن كان نبياً فقد اكتفى بما تعبَّده الله به من الأحكام، وإن كان غير نبيٍّ فليس متعبَّداً بشريعة بني إسرائيل؛ إذ يمكن أن لا يكون منهم. والله أعلم، وسيأتي القول في نبوته. وأما مساق رواية البخاري، فهو مساق حسن لا يَرِدُ عليه من هذا الاستبعاد شيء؛ لأن مقتضاه: أن لكلِّ واحدٍ منهما علماً خاصاً به لا يعلمه الآخر، ويجوز أن يشتركا في علمِ التوراة، وغيرها مما شاء الله أن يشركهما فيه من العلوم، ويظهر لي أن الذي خُصَّ به موسى ـ عليه السلام ـ: العلم بالأحكام، والمصالح الكلِّية التي تنتظم بها مصالح الدنيا؛ لأنه أُرسل إلى عامَّة بني إسرائيل.

و (قول موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ [الكهف: ٦٦]) سؤال ملاطفةٍ، أي: هل يمكن كوني معك حتى أتعلَّمَ منك؟ فأجابه بما يقتضي أن ذلك ممكن لولا المانع الذي من جهتك، وهو عدم صبرك، فقال جازماً في قضيته، لما علمه من حالته: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧] ثم بيَّن وجه عذره عن ذلك بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨]، معناه: إنك لا تصبر عن الإنكار والسؤال، وأنت في ذلك كالمعذور؛ لأنك تشاهد أموراً ظاهرة، ولا تعرف بواطنها وأسرارَها. وانتصبت (خُبْراً) على التمييز المنقول عن الفاعل، وقيل على المصدر الملاقي في المعنى؛ لأن قوله لم تُحط. معناه: لم تُخبرْ، فكأنَّه قال: لم تُخبره خُبْراً، وإليه أشار مجاهد. والخبير بالأمور: هو العالم بخفاياها، وبما يختبر منها.

و (قوله: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩])

قال له الخضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠]، قال: نعم. فانطلق الخضر وموسى يمشيان على ساحل البحر. فمرَّت بهما سفينة، فكلَّماهُم أن يَحملُوهما، فعرفوا الخَضِر فحَمَلُوهما بغير نَوْلٍ، فعَمَدَ الخَضِر إلى لَوحٍ من ألواح السَّفينة فَنَزَعَهُ،

هذا تفويضٌ إلى الله تعالى في الصبر، وجزمٌ بنفي المعصية، وإنما كان منه ذلك؛ لأن الصبرَ أمر مستقبل، ولا يدري كيف يكون حاله فيه، ونفي المعصية معزومٌ عليه حاصلٌ في الحال، فالاستثناء فيه يُنافي العزمَ عليه والله تعالى أعلم. ويُمكن أن يفرَّق بينهما بأن الصبرَ ليس مُكتسباً لنا بخلاف فعل المعصية وتركها، فإن ذلك كلَّه مكتسبٌ لنا.

و (قـولـه: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠]) هذا من الخَضِر تأديبٌ، وإرشادٌ لما يقتضي دوامَ الصُّحبة، ووعدٌ بأنه يُعرِّفه بأسرار ما يراه من العجائب، فلو صبرَ ودَأَبَ لرأى العجبَ، لكنَّه أكثر من الاعتراض، فتعيَّن الفِراق والإعراض.

و (قوله: «فانطلقا[١] يمشيان على ساحل البحر») يعني: الخضر وموسى، ولم يذكر معهما فتى موسى، فدلَّ على أنه لم يكن معهما، أو أنه تخلَّف عنهما، ويحتمل أنه اكتفى بذكر المتبوع عن التابع.

و (قوله: فعرفوا الخَضِر، فحملوهما بغير نَوْل») أي: بغير شيءٍ ناله أصحابُ السفينة منهما. أي: بغير جُعْلٍ، والنَّوْلُ والنَّالُ والنَّيْلُ: العطاء. وفيه ما يدلُّ على قَبُول الرجل الصالح ما يُكرمُه به من يعتقدُ فيه صلاحاً، ما لم يتسبَّب هو بإظهار صلاحه لذلك، فيكون قد أكلَ بدينه وذلك مُحرَّم وربا.

---

(١) في صحيح مسلم والتلخيص: «فانطلق الخضر وموسى يمشيان على ساحل البحر».

فقال له موسى: قومٌ حملُونا بغير نولٍ عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرقَ أهلها. لقد جئت شيئاً إمراً. قال: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٢ ـ ٧٣] ثم خرَجا من السَّفينة، فبيْنما هُما يمشيان

و (قوله: ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧١]) قرأه حمزة والكسائيُّ بالمثناة تحت مفتوحة. وأصلُها بالرفع على أنه فاعل يُغرق، والباقون بمثناةٍ فوق مضمومة. أهلَها: بالنصب، فعلى الأول تكون اللام للمآل، كما قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]. وعليها: فلم يَنسبْ له أنه أراد الإغراق، وعلى القراءة الثانية: تكون اللام: لام كي، ويكون نَسبَ إليه: أنه قصد بفعله ذلك إغراقهم، وحملَه على ذلك فرطُ الشفقة عليهم؛ ولأنهم قد أحسنوا فلا يُقابلون بالإساءة، ولم يقل: لتغرقني؛ لأن الذي غلبت عليه في الحال: فَرْطُ الشفقة عليهم، ومراعاة حقهم.

و (قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]) أي: ضعيف الحجة، يُقال: رجل إمرٌ: أي: ضعيف الرأي ذاهبُه، يحتاج إلى أن يُؤمر، قال معناه أبو عبيد. مجاهد: منكراً. مقاتل: عجباً. الأخفش: يُقال أَمِرَ أَمْرُهُ، يأمر أَمْراً: أي: اشتد، والاسم: الإِمْرُ. قال الراجز:

قَـدْ لَقِـيَ الأَقْـرَانُ مِنِّـي نُكْـرا ... داهِيَـةً دَهْيَـاءَ إِدّاً إِمْـرا

العمل بالمصالح

وفيه من الفقه: العمل بالمصالح؛ إذا تحقق وجهها، وجواز إصلاح كل المال بفساد بعضه.

و (قوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف: ٧٣]) أي: من عهدك، فتكون (ما) مع الفعل بتأويل المصدر. أي: سهوي وغفلتي. وصدقَ، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «كانت الأُولى من موسى نسياناً».

و (قوله: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣]) أي: لا تفندني فيما

على الساحل إذا غُلامٌ يلعب مع الغِلْمانِ، فأخذ الخضرُ برأسه، فاقتَلَعَهُ بيده، فقتله. ـ وفي رواية: فذُعِرَ عندها موسى عليه السلام ذَعْرة مُنْكرةً ـ فقال موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]،

تركته. قاله الضحَّاك. وقال مقاتل: لا تكلِّفني ما لا أقدرُ عليه من التحفُّظ عن السهو.

و (قوله: «فإذا غلامٌ يلعب مع الغلمان») قد تقدم: أن الغلام في الرجال يُقال على من لم يبلغ، وتُقابله الجارية في النساء. قال الكلبيُّ: اسم هذا الغلام: شمعون. وقال الضحَّاك: حيسون. وقال وهب: اسم أبيه سلاس، واسم أمه: رُحمى، وقال ابن عباس: كان شاباً يقطعُ الطريقَ.

قلــتُ: ويظهرُ من كلام ابن عبَّاس هذا: أنه كان بالغاً، وأنه بلغَ سِنَّ التكليف، وليس هذا معروفاً في إطلاق اسم الغلام في اللغة، ومساقُ الحديث يدلُّ على أنه لم يبلغ سِنَّ التكليف، فلعلَّ هذا القول لم يصحَّ عن ابن عباس. بل الصحيح عنه: أنه كان لم يبلغ، كما يأتي.

و (قوله: «فذُعِرَ موسى عندَ هذا ذَعْرَةً شديدة[١]») أي: فزع فزعاً شديداً عند هذه الفِعلة التي هي قتله الغلام، وعند ذلك لم يتمالك موسى أن بادرَ بالإنكار، تاركاً للاعتذار، فقال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤] هذه قراءة العامة[٢]، وقرأه الكوفيون، وابن عامرٍ: (زكيّة) بغير ألف، وتشديد الياء. قال ثعلب: الزكيّة أبلغ. قال أبو عُبيد: الزكية في الدِّين، والزاكية في البدن. قال الكسائي: هما بمعنىً واحدٍ؛ كقاسية وقسيَّة. ابن عباس: مسلمةً. أبو عمرو: التي

---

(١) في التلخيص ومسلم: «منكرة».

(٢) أي: ﴿زاكيةً﴾ كما أوردها المؤلف في الأصول.

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٥]، قال: وهذه

ما حلَّ ذنبها[١]. ابن جبير: يريد على الظاهر.

و (قوله: ﴿بغير نفس﴾) يعني: لم تقتل نفساً فتستحق القتل و (النُّكر): أشدُّ المنكر، وأفحشه، قاله قتادة. وفيه لغتان: ضم الكاف، وسكونها، وقرىء بهما. وهذه بادرةٌ من موسى ترك بها كل ما كان التزم لـه من الصبر، وترك المخالفة؛ لكن حملَه على ذلك: استقباح ظاهر الحال، وتحريم ذلك في شرعه، ولذلك قال النبي ﷺ: «وهذه أشدُّ من الأولى».

و (قوله: «رحمة الله علينا وعلى موسى») قال الراوي: وكان إذا ذكرَ أحداً من الأنبياء بدأ بنفسه. هذا إنما كان يفعله النبيُّ ﷺ في الأدعية وأشباهها، مما يعودُ عليه بالثواب والأجر الأخروي، حرصاً على تحصيل المنازل الرفيعة عند الله تعالى، كما قال في الوسيلة: «إنها درجةٌ في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عبادِ الله، وأرجو أن أكون أنا هو»[٢]. وحاصله: أن القرب من الله تعالى، وثوابَه ليس مما يُؤثر الغير به بل تنبغي المنافسة فيه، والمسابقة إليه، بخلاف أمور الدنيا، وحظوظها؛ فإن الفضل في تركها، وإيثار الغير بما يحوز منها.

المنافسة في القرب من الله تعالى مطلوبةٌ

و (قوله: «ولكنَّه أخذته ذمامةٌ من صَاحبِه») هو بالذال المعجمة مفتوحةً، وهي بمعنى: المذمَّة ـ بفتح الذال وكسرها ـ وهي: الرقة، والعار من ترك الحرمة. يُقال: أخذتني منه مذمَّةٌ ومذِمَّةٌ، وذمامة، بمعناه، وكأنَّه استحيا من تكرار مخالفته، ومما صدرَ عنه من تغليظ الإنكار.

و (قوله: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٥]) إنما

---

(١) في تفسير القرطبي (١١/ ٢١): قال أبو عمر: الزاكية: التي لم تذنب قط، والزكيَّة التي أذنبت ثم تابت.

(٢) رواه أحمد (٢/ ١٦٨)، ومسلم (٣٨٤)، وأبو داود (٥٢٣)، والنسائي (٢/ ٢٥ ـ ٢٦).

أشدُّ من الأولى. ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ۞ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ [الكهف: ٧٦ ـ ٧٧]. ـ وفي روايةٍ: لِئاماً ـ

ذكر (لك) في هذه المرة، ولم يذكرها في الأولى مقابلةً له على قلَّة احترامه في هذه الكرَّة؛ فإنَّ مقابلته بـ (لك) مع كاف خطاب المفرد يُشعر بقلة احترامه. والله أعلم.

و (قوله: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ [الكهف: ٧٦]) هذا القول أبرزه من موسى استحياؤه من كثرة المخالفة، وتهديدُه لنفسه عند معاودتها للاعتراض بالمفارقة.

و (قوله: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦]) أي: قد صرت عندي معذوراً، وقد تقدَّم الفرق بين لدنِّي وعندي، وأن في لدنِّي لغاتٍ، وقرئت من لدُنِي بضم الدال، [وتخفيف النون، وسكون الدال، وإشمامها الضم، وتخفيف النون لأبي بكرٍ عن عاصم، وبضم الدال][1] وتشديد النون، والأولى لنافعٍ والثالثة للباقين.

و (قوله: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ «لئام فـ»: ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧٧]) قال قتادة: القرية أيْلَة. وقيل: أنطاكية. و (لئام) هنا: بخلاء، واللؤم في الأصل: هو البخل مع دناءة الآباء. و (الاستطعام): سؤال الطعام، والمراد به هنا: أنهما سألا الضيافة بدليل قوله تعالى: ﴿فأبوا أن يُضيِّفوهما﴾ فاستحقَّ أهلُ القرية أن يُذمُّوا ويُنسبوا إلى اللؤم كما وصفهم بذلك نبيُّنا ﷺ ويظهر من ذلك: أن الضيافة كانت عليهم واجبةً، وأنَّ الخَضِرَ وموسى إنما سألا ما يجبُ لهما من الضيافة. وهذا هو الأليق بحال الأنبياء والفضلاء، وبعيدٌ أن يُذمَّ من ترك المندوبَ هذا الذمَّ، مع أنه يحتمل أن يقال: إن الضيافة لما كانت من المكارم المعروفة المعتادة عند أهل البوادي، ذُمَّ المتخلف عنها عادةً، كما قد قالوا: (شرُّ

الضيافة وأحكامها

---

(١) ما بين حاصرتين ساقط من (ع).

فطَافا في المجالس فـ ﴿اَسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] يقول: مائِل. ....

القُرى التي تَبْخَل بالقِرى)، ويحتمل أن يكون سؤالهما الضيافة عند حاجتهما إلى ذلك، وقد بيَّنَّا: أن من جاعَ وجبَ عليه أن يطلبَ ما يردُّ به جوعَه، ففيه ما يدلُّ: على جواز المطالبة بالضيافة، كما قال ﷺ: «إذا نزلتم بقومٍ فلم يضيِّفوكم فاطلبوا منهم حقَّ الضيف»[1]. وقد تقدَّم القول في الضيافة وأحكامِها، ويعفو الله عن الحريري؛ فإنَّه تسخَّف في هذه الآية وتمجَّن، فاستدلَّ بها على الكُدْيَةِ[2] والإلحاح فيها؛ وأن ذلك ليس بعيب على فاعله ولا منقصة عليه فقال:

فـإن رُدِدْتَ فَمَـا بـالـردِّ مَنْقَصَـةٌ ... عَلَيكَ قَدْ رُدَّ موسى قَبْلُ والخَضِرُ

هذا لعبٌ بالدِّين، وانسلال عن احترام النبيِّين، فهي: شنشنةٌ أدبيةٌ وهفوة سخافيَّة، ويرحمُ الله السَّلف الصالح فإنهم بالغوا في وصية كل ذي عقلٍ راجح، فقالوا: مهما كنت لاعباً بشيءٍ، فإيَّاك أن تلعبَ بدينك.

النهي عن اللعب بالدين

و (قوله: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف: ٧٧]) الجدار: الحائط. وينقضَّ: يسقط. ووصفُه بالإرادة مجازٌ مستعمل، وقد فسَّره في الحديث بقوله: «يقول: مائل» فكان فيه دليلٌ على وجود المجاز في القرآن، وهو مذهبُ الجمهور، ومما يدلُّ على استعمال ذلك المجاز وشهرته، قول الشاعر:

وجود المجاز في القرآن

يُـرِيـدُ الـرُّمْـحُ صَـدْرَ أَبِـي بَـراءٍ ... وَيَـرْغَـبُ عَـنْ دِمـاءِ بَنِـي عَقِيـلِ

وقال آخـر:

إنَّ دَهْـراً يَلُـفُّ شَمْلِي بِسَلْمى[3] ... لَـزَمـانٌ يَهُـمُّ بـالإحْسـانِ

---

(١) رواه أحمد (٤/١٤٩)، والبخاري (٢٤٦١)، ومسلم (١٧٢٧)، وأبو داود (٣٧٥٢)، والترمذي (١٥٨٩)، وابن ماجه (٣٦٧٦).

(٢) الكُدْية: حرفة السائل المُلِحِّ (الشِّحاذة).

(٣) في اللسان والصحاح: بجُمْل.

قال الْخَضِر بيده: هكذا؛ فأقامه. قال له موسى: قوم أتيناهم فلم يُضَيِّفُونا، ولم يُطْعِمُونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧]، ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، قال رسول الله ﷺ: «يرحمُ اللَّهُ موسى. لودِدتُ أنه كان صَبَرَ حتى يُقَصَّ علينا من أخبارهما». قال: وقال رسولُ الله ﷺ: «كانت الأولى من مُوسى نِسْياناً». قال: وجاء عُصفور حتى وقع على حرف السفينة. ثم نقر في الْبَحر. فقال له الخضر: ما نقص علمي وعِلمُكَ من علم الله إلا مِثْلَ ما نقص هذا العصفورُ من البحر».

وقال آخـــر:

فــي مَهْمَــهٍ فُلِقَــتْ بِــهِ هــامــاتُنَــا فَلْــقَ الفُــؤُوسِ إِذَا أَرَدْنــا نُصُــولا

والنصول هنا: الثبوت في الأرض، من قولهم: نصلَ السَّهم: إذا ثبت في الرَّمِيَّة، فشبَّه وقعَ السيوف على رؤوسهم بوقع الفؤوس في الأرض الشديدة؛ فإن الفأس يقع فيها ويثبت، ولا يكاد يخرج. والمجاز موجود في القرآن والسُّنَّة كما هو موجودٌ في كلام العرب، وقد استوفينا مباحث هذه المسألة في الأصول.

و (قوله: «قال الخضر بيده ـ هكذا ـ فأقامه») يعني به أنه أشار إليه بيده، فقام. فيه دليل على كرامات الأولياء، وكذلك كلُّ ما وصف عن أحوال الخَضِر في هذا الحديث، وكلُّها أمورٌ خارقةٌ للعادة. هذا إذا تنزلنا على أنه وليٌّ لا نبيٌّ، وقد اختلفَ فيه أئمة أهل السُّنَّة. والظاهر من مساق قصته واستقراء أحواله، مع قوله: ﴿وما فَعَلْتُهُ عن أمري﴾ أنه نبيٌّ يوحى إليه بالتكاليف والأحكام، كما أُوحي إلى الأنبياء، غير أنه ليس برسول.

حقيقة الخَضِر

و (قوله: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧]) هذه قراءة ابن كثير، وأبي عمرون ويعقوب(*)، وقراءة غيرهم: ﴿لاتخذت﴾ وهما لغتان بمعنى واحدٍ من

(*) أي: ﴿لَتَخِذْتَ﴾ كما أوردها المؤلف في الأصول.

قال سعيد بن جبير: وكان يقرأ: (وكان أمَامَهُم مَلِكٌ يأخُذُ كُلَّ سفينةٍ

الأخذ، وهذه صدرت من موسى سؤالاً على جهة العرض، لا الاعتراض، فعند ذلك قال له الخضر: ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾ أي: هذا وقت ذلك، بحكم ما شرطتَه على نفسكَ، ثم وعدَه بأن يُخبرَه بحكم تلك الأحكام، فقال: ﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر﴾ القراءة المتواترة بتخفيف السين، جمع مسكين. سمّوا بذلك على جهة الشفقة والترحُّم، وقيل: كانوا فيها أجراء، وروي عن ابن عباس أنه قرأها: مسَّاكين ـ بتشديد السين ـ جمع مسَّاك؛ لإمساكهم السفينة، قيل: كانوا عشرة، خمسة منهم يعملون في البحر، وخمسة منهم زَمْنى[1]، وقد تقدَّم الفرق بينَ المسكين والفقير في كتاب الزكاة.

الخضر والسفينة

و (قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]) وراء في أصلها: بمعنى خلف، فقال بعض المفسرين: إنه كان خلفهم، وكان رجوعهم عليه، والأكثر على أن معنى وراءَ هنا: أمام، وهذا القول أولى لقراءة سعيد: (وكان أمامَهم) ولما يأتي في بقية الحديث، وقال بعضهم: وراء: يكون من الأضداد. قال الشاعر:

أَتَرْجُو بَنُو مَرْوَانَ سَمْعِي وَطَاعَتِي ... وقَــوْمِــي تَمِيــمٌ وَالفَــلاةُ وَرَائِيَــا

أي: أمامي. وأصل هذا: أن كلَّ ما يُوارى عنك فهو وراء، وقيل: اسم هذا المَلِك: هُدَد بن بدد بن جُريج. وقال الكلبيُّ: الجَلَنْدى[2]. والغصْب: أخذ مال الغير على جهة القهر والغلبة والمجاهرة. وقد بيَّن وجهَ الحكمة في خرق السفينة في الرواية الأخرى، بقوله: «فإذا جاءَ الذي يُسَخِّرُها وجدَها منخرقةً فيجاوزها، فأصلحوها بخشبةٍ»، ويحصلُ من هذا: الحضُّ على الصبر في الشدائد، فكم في

الحض على الصبر في الشدائد

---

(١) زَمْنى: من الزَّمانة، وهي العاهة، والمرض الدائم.
(٢) انظر هذه الأسماء في تفسير القرطبي (١١/ ٣٦).

صالحةٍ غصباً)، وكان يقرأُ: (وأما الغلامُ فكان كافراً).

وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: «رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجَّل لرأى العَجَبَ، ولكنَّه أخذَتْهُ من صَاحبه ذمامة. ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن

ضمن ذلك المكروه من الفوائد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

الخضر والغلام

و (قوله: ﴿وأما الغلام﴾ فكان كافراً») هذا حديث مرفوع من رواية أُبيّ، كما قال في الرواية الأخرى: «طُبِعَ يوم طُبعَ كافراً» وقد روي أنَّ أُبيّاً كان يقرأ: (أما الغلام فكان كافراً، وكان أبواه مؤمنين) وهذا محمول على أن أُبيّاً فسَّر، لا أنه قرأ كذلك؛ لأنه لم يثبتها في المصحف، وهو من جُمْلة كَتبَتِهِ. والجمهور على أن هذا الغلام لم يكن بلغ سِنَّ التكليف، وقد ذهب ابن جُبير، إلى أنه بلغ سِنَّ التكليف، وقد حكي ذلك عن ابن عباس كما تقدَّم. والصحيحُ عنه أنه كان صغيراً لم يبلغ كما تقدَّم من كتابه إلى نجدة الحروري، كما ذكرناه في الجهاد، وهذا هو المعروف من اسم الغلام كما قد تقدَّم. وإنما صارَ ابن جُبير إلى ذلك لقوله ﷺ كان كافراً، والكفر والإيمان من صفات المكلَّفين، ولا يُطلق على غير مُكلَّفٍ إلا بحكم التبعية لأبويْه، وأبوا الغلام كانا مؤمنين بالنص، فلا يصدقُ عليه اسم الكافر إلا بالبلوغ، فتعيَّن أن يُصار إليه، وقد يُطلقُ الغلام على الكبير إذا كان قريباً من زمان الغلومية توسُّعاً، وهو موجود في كلام العرب، كما قالت ليلى الأخيلية:

شَفَاها مِنَ الداءِ العُضَالِ الذي بِها ... غُـلامٌ إذا هَـزَّ القَنَـاةَ شَفَـاهـا[1]

وقال صفوان لحسَّان:

تلـقَّ ذُبـابَ السَّيـف عنِّـي فـإنَّنِـي ... غلامٌ إذا هُوجيت لستُ[2] بشاعرِ

---

(١) في اللسان: سقاها.

(٢) في (ع) و (م ٣): ليس بشاعر.

شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦] ولو صبر لرأى العَجَبَ».

قال: وكان إذا ذكر أحداً من الأنبياء بدأ بنفسهِ: «رحمة الله علينا وعلى أخي كذا، رحمة الله علينا».

وقال بعد قوله: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أخذ بثوبه.. قال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ..﴾ [الكهف: ٧٨ ـ ٧٩]. فإذا جاء الذي يُسَخِّرُها وجدها منخرقةً، فتجاوزها، فأصلحوها بخشبةٍ. وأما الغلام فطبع يوم طبع كافراً، وكان أبواه قد عطفا عليه، ....

قلتُ: وما صارَ إليه الجمهور أوْلى تمسُّكاً بحقيقة لفظ الغلام، ولقوله ﷺ: «وأما الغلامُ فطُبع يومَ طُبِعَ كافراً» أي: خُلق قلبُه على صفة قلب الكافر من القَسْوة، والجهل، ومحبَّة الفساد، وضرر العباد، ولقوله: «ولو أدركَ لأرهقَ أبويْه طُغياناً وكفراً» أي: لو بلغ. ولمَّا علمَ الله تعالى ذلك منه، أعلمَ الخضرَ بذلك، وأمرَه بقتله، فيكونُ قتلُه من باب دفع الضرر، كقتل الحيَّات، والسِّباع العادية، لا من باب القتل المترتب على التكليف، وهذا لا إشكالَ على أصول أهل السُّنة فيه؛ فإنَّ الله تعالى الفَعَّال لما يُريد، القادرُ على ما يشاء لا يتوجَّه عليه وجوبٌ، ولا حقٌّ، ولا يثبت عليه لومٌ ولا حكمٌ، وأما على أُصول أهل البدع القائلين بالتحسين والتقبيح العقليين وما يتولَّد على ذلك من الأصول الفاسدة من التجويز، والتعديل، والإيجاب على الله تعالى، فلا يُلتفت إليها، ولا يُعرَّج عليها، لظهور فسادها، كما بيَّناه في الأصول.

و (قوله: «وكان أبواه قد عطفَا عليه») أي: أحبَّاه، وأقبلا عليه بشفقتِهما، وحنوِّهما، فخافَ الخَضِرُ، لمَّا أعلمَه الله تعالى بمآل حاله أنه إن عاشَ لهما حتى

فلو أنه أدرك أرهقهما طغياناً وكفراً: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ . . .﴾ إلى آخر الآية [الكهف: ٨١ و ٨٢].

رواه أحمد (٥/١١٧)، والبخاريُّ (٤٧٢٦)، ومسلم (٢٣٨٠) (١٧٠ ـ ١٧٤)، وأبو داود (٤٧٠٥ ـ ٤٧٠٧)، والترمذي (٣١٤٨).

* * *

يكبرَ ويستقلَّ بنفسه جبلَهما بحكم محبَّتهما له أن يُطيعاه ويُوافقاه على ما يصدرُ عنه من الكفر والفساد، فيكفران بذلك، وهذا معنى قوله: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠] وعلى هذا فيكون: ﴿فخشينا﴾ من كلام الخضر، وهو الذي يشهدُ له مساق الكلام، وهو قول كثيرٍ من المفسرين، وذهبَ بعضهم إلى أنه من كلام الله تعالى؛ وفسَّر ﴿خشينا﴾ بمعنى علمنا، وحكى أن أُبيّاً قرأها: (فعلمَ ربُّكَ). ومعنى يُرهقهما: يُلحق بهما ما يشقُّ عليهما، ويُتعبهما، والطغيان هنا: الزيادة في المفاسد.

و (قوله: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١]) وهذا قول الخضر قطعاً، وهو يشهدُ بأن قوله: ﴿فخشينا﴾ من قوله، و ﴿يبدلهما﴾: قرىء مشدَّداً ومخفَّفاً، وهما لغتان. و ﴿زكاةً﴾: منصوب على التمييز. يعني: نماءً وصلاحاً، وديناً. و ﴿رُحْماً﴾: معطوف على زكاة. أي: رحمة، يُقال: رحمةً، ورُحْماً، وألفه للتأنيث، ومذكَّره رحيم، وقيل: إن الرُّحمى هنا بمعنى: الرَّحم، قرأها ابن عباس، وأوصل رُحْماً أي: رحماً. وحكي عنه: أنهما رزقا جارية ولدت نبيّاً، وقيل: كان من نسلها سبعون نبيّاً، ويُفيد هذا تهوين المصائب بفقد الأولاد؛ وإن كانوا قِطَعاً من الأكباد، ومن سلَّم للقضاء سفرتْ عاقبتُه عن اليد البيضاء.

الخضر والجدار

و (قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ٨٢]) قيل:

....

اسمها أصرم وأُصيرم، وقد تقدَّم: أن اليُتْم في الناس من قبل فقد الأب، وفي غيرهم من الحيوان من قبل الأم.

و (قوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]) أي: تحت الجدار، وظاهر الكنز أنَّه مالٌ مكنوز، أي مجموع. وقال ابن جُبير: كان صُحفَ العلم. وقال ابن عبَّاس: كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن! عجبتُ لمن يُؤمن بالرزق كيف يتعب! عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح! عجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل! عجبتُ لمن يعرف الدنيا وتقليبها بأهلها كيف يطمئن إليها! لا إلٰهَ إلا الله محمد رسول الله.

حفظ الله للصالح في نفسه وولده

و (قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]) قال أهل التفسير: إنَّه كان جدَّهما السابع، وكان يُسمَّى كاسحاً. ففيه ما يدلُّ: على أنَّ الله تعالى يحفظ الصالح في نفسِه وفي ولده وإن بَعُدوا عنه، وقد روي: أنَّ الله تعالى يحفظُ الصالح في سبعةٍ من ذويه. وعلى هذا يدلُّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

و (قوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]) أي: قوتهما وهو ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنةً. واختلف النحويون؛ هل هو واحدٌ على بناء الجمع؛ كأنعم، ولا نظيرَ لهما من لفظهما. وكان سيبويه يقول: هو جمع، واحده: شِدةٌ. قال الجوهري: وهو صحيح في المعنى، لأنَّه يُقال: بلغ الغلامُ شِدَّته. ولكنه لا تجمع فِعْلةٌ على أَفْعُل، وأما أَنْعُمٌ: فهو جمع: نُعْم من قولهم: يومٌ بؤسٌ، ويومٌ نُعْمٌ. وأمَّا قول من قال: واحده شَدٌّ مثل كلبٍ وأكلبٍ؛ فإنَّما هو قياس، كما قالوا في واحد الأبابيل: أَبّول، قياساً على: عَجُولٍ، وليس هو شيءٌ سُمع من العرب. وقد أضاف الخضر ـ عليه السلام ـ قضيَّة استخراج كنز الغلامين لله تعالى، وأضاف عيبَ السفينة إلى نفسِه تنبيهاً على التأدُّب في إطلاق الكلمات

. . . .

على الله تعالى فيُضاف إليه ما يُستحسن منها، ويُطلق عليه، ولا يُضاف ما يُستقبح منها إليه، وهذا كما قاله تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] واقتصرَ عليه، ولم ينسبِ الشَّرَّ إليه، وإن كان بيده الخير والشَّرُّ، والنَّفع والضرُّ؛ إذ هو على كل شيءٍ قدير، وبكلِّ شيءٍ خبير.

و (قوله: «وجاءَ عُصفورٌ حتى وقعَ على حرف السَّفينة، ثم نقر في البحر، فقال الخَضِر: ما نقصَ علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقصَ هذا العصفور من البحر») وحرف السفينة: طرفها. وحرف كلِّ شيءٍ: طرفه، وشفيره، وحدُّه. ومنه حرفُ الجبل: وهو أعلاه المُحدَّد. والحَرْف: واحد حروف التَّهجي. والحرف: الكلمة. والحرف: اللغة، كما تقدَّم. والحرف: النَّاقة الضامرة. والحرف: الجهة الواحدة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١] أي: يعبدُه في الرَّخاء، ولا يعبدُه في الشِّدَّة. والحرف: مأخوذ من الانحراف، وهو الميل.

والعلم ها هنا: بمعنى: المعلوم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي: من معلوماته. وهذا من الخضر ـ عليه السلام ـ تمثيلٌ. أي: معلوماتي ومعلوماتِك في علم الله تعالى لا أثرَ لها، كما أنَّ ما أخذَ هذا العُصفور من البحر لا أثر له بالنسبة إلى ماء البحر. [وإنَّما مثَّل له ذلك بالبحر][1] لأنه أكبرُ ما نشاهده مما بين أيدينا. وهذا نحو مما قاله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩]. وإطلاقُ لفظ النقص هنا تجوُّزٌ قصدَ به التمثيل، والتَّفهم؛ إذ لا نقصَ في علم الله تعالى ولا نهاية لمعلوماته. وقد أورَد البخاريُّ هذا اللفظ من رواية ابن جُريجٍ على لفظٍ أحسنَ مساقاً من هذا وأبعدَ عن الإشكال، فقال: «ما علمي وعلمُك في جنب علم الله إلا

---

(١) ما بين حاصرتين ساقط من (ع).

. . . .

كما أخذَ هذا العُصفور بمنقارِهِ من البحر». وهو مفسِّرٌ للفظ كتاب مسلم[١]. والله تعالى أعلم.

لا مدخل لعقول البشر في أفعاله تعالى

وفي هذا الحديث تنبيهٌ على أصولٍ عظيمةٍ. منها: أنَّ لله تعالى بحكم مِلْكه ومُلْكه أن يفعلَ ما يُريد، ويحكم في خلقه بما يشاء مما ينفعنا، أو يضرُّنا، فلا مدخلَ لعقولنا في أفعاله، ولا معارضة لأحكامه، بل يجبُ علينا الرضا والتسليم؛ فإن إدراكَ العقل لأسرار أحكام الربوبية قاصرٌ سقيم، فلا يتوجَّه عليه في فعله لم؟ وكيف؟ كما لا يتوجَّه عليه في وجوده أين؟ وحيث. ومنها: أن العقلَ لا يُحسِّن، ولا يُقبِّحُ، وأنَّ ذلك راجعٌ إلى الشرع، فما حسَّنه بالثناء عليه فهو حسنٌ، وما قبَّحه بالذمِّ عليه فهو القبيح. ومنها: أنَّ لله تعالى فيما يُجريه حِكَماً وأسراراً راعاها، ومصالحَ راجعةً إلى خلقه اعتبرها. كلُّ ذلك بمشيئته وإرادته من غير وجوبٍ عليه، ولا حكمٍ عقليٍّ يتوجَّه إليه، بل ذلك بحسب ما سبقَ في علمه، ونافذِ حكمه، فما اطلع عليه من تلك الأسرار عُرِفَ، وما لا فالعقل عندَه يقف. وحذارِ من الاعتراض والإنكار! فإنَّ مآلَ ذلك إلى الخيبة وعذاب النَّار. ومنها: أنَّه عالـمٌ بما كانَ، وبما يكون، وبما لا يكون: أنْ لو كان كيف كان يكون. وفوائد هذا الحديث كثيرةٌ، وعلومُه غزيرةٌ، وفيما ذكرناه كفايةٌ. والله الموفق للهداية.

الحسن والقبح شرعيان

حكمة الله فيما يجريه

عموم عِلْم الله تعالى

فضائل موسى عليه السلام

تنبيه على مَغْلَطتيْن: الأولى: وقع لبعض الجهَّال: أنَّ الخضرَ أفضلُ من موسى ـ عليهما السلام ـ متمسِّكاً بهذه القصة، وبما اشتملت عليه. وهذا إنَّما يصدرُ ممَّن قَصُرَ نظرُه على هذه القصة، ولم ينظر في شيءٍ من أحوال موسى ـ عليه السلام ـ ولا فيما خصَّه الله تعالى من الرِّسالة وسماع كلام الله تعالى المُنزَّه عن الحروف والأصوات، وإعطائه التوراة التي فيها علم كلِّ شيءٍ، وأنَّ أنبياءَ بني إسرائيلَ كلَّهم داخلون تحت شريعته، ومُخاطبون بأحكام توراته حتى عيسى

---

(١) انظر رواية البخاري برقم (٤٧٢٦).

. . . .

ـ عليه السلام ـ ألا ترى: أنَّ الله تعالى قال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ . . . ﴾ [المائدة: ٤٤]، والإنجيلُ وإن كان هدىً فليس فيه من الأحكام إلا قليلٌ، ولم يجىء عيسى ـ عليه السلام ـ ناسخاً لأحكام التوراة، بل مُعلِّماً لها، ومبيِّناً أحكامَها، كما قال تعالى حكايةً عنه: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨]. وعلى هذا فهو أمامُهم، وإمامهم، وأعلمُهم، وأفضلُهم. ويكفي من ذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤] وأنَّ موسى من أولي العزم من الرُّسل، وأنَّ أوَّل مَنْ (ينشق عنه القبر)[١] نبيُّنا ﷺ فيجد موسى ـ عليه السلام ـ متعلِّقاً بساق العرش، وأنَّه ليس في محشر يوم القيامة أكثرَ من أمَّته بعد أُمَّة نبيِّنا ﷺ إلى غير ذلك من فضائله. فأمَّا الخَضِرُ ـ عليه السلام ـ فلم يُتَّفقْ على أنَّه نبيٌّ، بل هو أمرٌ مختلفٌ فيه؛ هل هو نبيٌّ أو وليٌّ؟ فإنْ كان نبيّاً فليس برسولٍ بالاتفاق؛ إذ لم يقل أحدٌ: أنَّ الخضرَ ـ عليه السلام ـ أرسل إلى أُمَّةٍ، والرَّسول أفضلُ من نبيٍّ ليس برسولٍ. وإن تنزَّلنا على أنَّه رسولٌ؛ فرسالة موسى أعظمُ، وأُمَّته أكثر، فهو أفضلُ. وإن قلنا: إنَّ الخضرَ كان وليّاً؛ فلا إشكالَ أنَّ النبيَّ أفضلُ من الوليِّ. وهذا أمرٌ مقطوعٌ به عقلاً ونقلاً، والصائرُ إلى خلافه كافرٌ، فإنَّه أمرٌ معلومٌ من الشرائع بالضرورة؛ ولأنَّه واحدٌ من أُمَّة موسى، أو غيره من الأنبياء، ونبيُّ كلِّ أُمَّةٍ أفضلُ منها قطعاً، آحاداً أو جمعاً، وإنما كانت قصة موسى مع الخضر امتحاناً لموسى ليتأدَّبَ ويعتبر، كما قد ابتلي غيرُه من الأنبياء بأنواعٍ من المِحن والبَلاء.

موسى أفضل من الخضر

المَغْلَطة الثانية: ذهبَ قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق يلزم منه هدُّ الأحكام الشرعية، فقالوا: هذه الأحكام الشرعية إنما يُحكم بها على الأغنياء

من مزاعم الزنادقة

(١) في (م ٣): تنشق عنه الأرض.

. . . .

والعامَّة، وأمَّا الأولياء وأهلُ الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص، بل: إنما يُراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويُحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم. قالوا: وذلك لصفاءقلوبهم عن الأكدار، وخلوِّها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربَّانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويَعلمون أحكامَ الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع والكلِّيات، كما اتَّفق للخضر؛ فإنه استغنى بما تجلَّى له من تلك العلوم عمَّا كان عند موسى من تلك الفهوم. وقد جاء فيما ينقلون: استفتِ قلبَك وإن أفتاكَ المُفتون.

أحكامه تعالى لا تعلم إلا بواسطة رسله

قلتُ: وهذا القول زندقة، وكفر يقتل قائلُه، ولا يُستتاب؛ لأنَّه إنكارُ ما عُلم من الشرائع، فإنَّ الله تعالى قد أجرى سُنَّته، وأنفذ حكمته؛ فإن أحكامَه لا تُعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه، وبين خلقه، وهم المبلِّغون عنه رسالاتِه، وكلامَه المُبيِّنون شرائعَه وأحكامَه، اختارهم لذلك وخصَّهم بما هنالك، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] وأمر بطاعتِهم في كل ما جاؤوا به، وأخبر: أن الهدى في طاعتهم، والاقتداء بهم، في غير موضع من كتابه، وعلى ألسنة رسله، كقوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]، وكقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤]، وقال ﷺ: «تركتُ فيكم أمرين لن تضلُّوا ما تمسَّكتم بها، كتابَ الله، وسنَّة نبيِّه»[(١)]. ومثل هذا لا يُحصى كثرةً.

(١) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٨٩٩) بلاغاً، والحاكم في المستدرك (١/ ٩٣) عن أبي هريرة بسند حسن، فيتقوَّى به.

. . . .

وعلى الجملة فقد حصلَ العلمُ القطعيُّ، واليقين الضروريُّ، وإجماع السَّلف، والخلفِ: على ألَّا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يُعرف شيء منها إلا من جهة الرسل الكِرام. فمن قال: إن هناك طريقاً آخر يُعرف بها أمرُه ونهيُه غير الرسل بحيث يُستغنى بها عن الرسل، فهو كافر، يُقتل ولا يُستتاب، ولا يُحتاج معه إلى سؤال ولا جواب، ثم هو قولٌ بإثباتِ أنبياء[1] بعد نبينا ﷺ الذي قد جعله الله خاتم أنبيائه ورسله، فلا نبيَّ بعدَه ولا رسول، وبيان ذلك: أنه من قال: يأخذُ عن قلبه، وإنَّ ما وقعَ فيه هو حكم الله، وأنه يعمل بمقتضاه؛ وإنه لا يحتاج في ذلك إلى كتاب ولا سنَّة، فقد أثبتَ لنفسه خاصَّة النبوَّة؛ فإن هذا نحو مما قاله رسولُ الله ﷺ: «إن روح القدس نفث في رُوْعي»[2] ولقد سمعنا عن بعض المُمْخَرِقين المتظاهرين بالدِّين أنه قال: أنا لا آخُذ عن الموتى، وإنما آخذُ عن الحيِّ الذي لا يموت، وإنما أروي عن قلبي عن ربي، ومثل هذا كثير، فنسألُ اللَّهَ الهداية، والعِصمة، وسلوكَ طريق سلفِ هذه الأمَّة، ولا حولَ ولا قوَّة إلا بالله.

محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين

دعوى باطلة لبعض الممخرقين

* * *

---

(١) في (ع): بنوة.

(٢) ذكره ابن عبد البر في التمهيد (١/ ٢٨٤)، وابن الأثير في جامع الأصول (١٠/ ١١٧) وقال: أخرجه رزين، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٣٢) بـــاب
في وفاة موسى عليه السلام

[٢٢٨٦] عن أبي هريرة، قال: أُرْسِل ملكُ الموتِ إلى موسى عليه السلام، فلما جاءه صكَّه، وفقأ عينه، فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبدٍ لا يُريدُ الموت. قال: فردَّ الله إليه عينه وقال: ارْجعْ إليه، فقُلْ له: يضعُ يده على متن ثور، فله بما غطَّت يدُهُ بكل شعرةٍ سنة، قال: أي رب! ثُمَّ مَهْ؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن. فسأل الله أن يُدنيه من الأرض المقدسة رميةً بحجرٍ. فقال رسول الله ﷺ: «لو كنتُ ثمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر».

وفي روايةٍ: قال: «جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فقال له: أجب ربك. قـال: فلَطَمَ موسى عليه السلام عينَ ملكِ الموت ففقأها». وذكر نحوه.

رواه أحمد (٢/ ٣١٥)، والبخاريُّ (٣٤٠٧)، ومسلم (٢٣٧٢) (١٥٧ و ١٥٨).

* * *

---

(٣٢) ومن بـــاب: وفاة موسى ـ عليه السلام ـ

تـأويـل فـقء مـوسـى عيـن مَلَك الموت

(قوله: «جاء مَلَكُ الموت إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقال: أجبْ ربَّك، فلطم موسى عينَ مَلَك الموت ففقأها، فرجع إلى ربِّه فقال: أرسلتني إلى عبدٍ لا يريدُ الموت») ظاهِرُ هذا الحديث: أن مَلَك الموت تمثّل لموسى في صورةٍ لها عين، وأنه دعاه لقبض روحه، وأنَّ موسى عَرَفَ أنه مَلَكُ الموت، وأنه لطمه بيده على عينه ففقأها، ولما ظهر هذا من هذا الحديث شنّعته الملحدة، وقالوا: إنَّ هذا

. . . .

كلَّه محالٌ، ولا يصحّ، وقد اختلفت أقوالُ علمائنا في تأويل هذا الحديث. فقال بعضُهم: كانت عيناً متخيَّلةً لا حقيقية. ومنهم من قال: هي عينٌ معنويةٌ. وإنما فقأها بالحجَّة، وهذان القولان لا يُلتفت إليهما لظهور فسادهما، وخصوصاً الأول؛ فإنه يؤدي إلى: أن ما يراه الأنبياءُ من صُور الملائكة لا حقيقةَ له، وهو قولٌ باطلٌ بالنصوص المنقولة، والأدلة المعقولة. ومنهم من قال: كان ذلك ابتلاءً وامتحاناً لملك الموت؛ فإن اللَّهَ تعالى يمتحنُ خَلْقه بما شاء. وهذا ليس بجوابٍ؛ فإنه إنما وقع الإشكالُ في صدور سبب هذا الامتحان من موسى، وكيف يجوز وقوع مثل هذا؟ وأشبه ما قيل فيه: ما قاله الشيخُ الإمامُ أبو بكر بن خزيمة؛ وهو أنَّ موسى ـ عليه السلام ـ لم يعرفْ مَلَك الموت، وأنه رأى رجلاً دَخَل منزلَه بغير إذنه يريدُ نفسه، فدافعَ عن نفسه، فلطمَ عينه، ففقأها. وتجبُ المدافعةُ في مثل هذا بكلِّ ممكنٍ. وهذا وَجْهٌ حسن، غير أنَّ هذا اعتُرِضَ عليه بما في الحديث، وهو أنَّ مَلَك الموت لما رجع إلى الله قال: «يا ربِّ! أرسلتني إلى عبدٍ لا يُريدُ الموت»، فلو لم يعرفه موسى ـ وإنما دفعه عن نفسه ـ لما صَدَق هذا القولُ من ملك الموت.

قلــتُ: وقد أظهر لي ذو الطَّـول والإفضــال وَجْهاً حسناً يحسمُ مادَّة الإشكال؛ وهو أنَّ موسى عَرَف مَلَكَ الموت، وأنه جاء ليقبضَ روحه، لكنه جاء مجيءَ الجازم بأنه قد أُمِر بقبض روحه من غير تخيير، وعند موسى ما قد نصَّ عليه نبينا ﷺ من: «أن الله تعالى لا يقبضُ روحَ نبيٍّ حتى يُخيِّره»[1] فلمَّا جاءه على غير الوجه الذي أُعلم به، بادر بشهامته، وقوة نفسه إلى أدب مَلَك الموت، فلطمه فانفقأت عينُه امتحاناً لملك الموت إذ لم يُصَرِّح له بالتخيير، ومما يدلُّ على صحة هذا: أنه لما رجع إليه مَلَكُ الموت، فخيَّره بين الحياة والموت؛ اختار الموتَ واستسلم، وهذا الوجه ـ إن شاء الله ـ أحسن ما قيل فيه وأسْلَمُ، وقد تقدَّم القولُ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٩)، ومسلم (٢٤٤٤) (٨٧).

. . . .

في تمثّل الملائكة في الصُّور المختلفة عقلاً، وثبوت وقوع ذلك نقلاً.

و (قوله: «قال: أي رب! ثم مه؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن») (مه): هي ما الاستفهامية، لما وقف عليها زاد هاء السكت وهي: لغة العرب إذا وقفوا على أسماء الاستفهام، نحو: عمَّه، ولمه، وفيمه، فإذا وصلوا حذفوها. و (فالآن): ظرف زمان غير متمكن، وهو اسمٌ لزمان الحال الذي يكون المتكلم عليها، وهو الزمانُ الفاصلُ بين الماضي والمستقبل، وهذا يدلُّ على: أن موسى لما خيَّره اللّهُ بين الحياة والموت؛ اختار الموتَ شوقاً للقاء الله ـ عز وجل ـ واستعجالاً لما له عند الله من الثواب والخير، واستراحة من الدنيا المكدرة. وهذا كما خُيِّر نبينا ﷺ عند موته، فقال: «اللهم الرفيق الأعلى»[1].

تخيير موسى بين الحياة والموت

و (قوله: «فسأل الله تعالى أن يدنيه من الأرض المقدسة رميةً بحجرٍ») أي: مقدار رمية بحجر، فهو منصوب على أنه ظرف مكان. والأرض المقدسة: هي البيت المقدَّس، وإنما سأل موسى ـ عليه السلام ـ ذلك تبركاً بالكون في تلك البقعة، وليدفن مع مَن فيها من الأنبياء، والأولياء؛ ولأنها أرض المحشر على ما قيل.

و (قوله: «ولو كنت ثمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر») ثمَّ ـ مفتوحة الثاء ـ: اسم يشار به إلى موضع، فأما ثُمَّ ـ بضم الثاء ـ: فحرف عطف. ويعني بالطريق: طريق بيت المقدس، وقد تقدَّم أن النبيَّ ﷺ مرَّ في طريقه إلى بيت المقدس ـ ليلة أسري به ـ بقبر موسى وهو قائم يُصلي فيه، وهذا يدلُّ على أن قبر موسى أخفاه الله تعالى عن الخلق، ولم يجعله مشهوراً عندهم، ولعلَّ ذلك لئلاَّ يُعْبَد، والله أعلم. وقد وقع في الرواية الأخرى: «إلى جانب الطور»

حكمة إخفاء قبر موسى عن الخلق

---

(١) رواه البخاري (٦٥١٠)، ومسلم (٢١٩١).

(٣٣) بـــاب
في ذكر يونس ويوسف وزكريا عليهم السلام

[٢٢٨٧] عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال ـ يعني: الله تبارك وتعالى ـ: «لا ينبغي لعبدٍ ـ وفي روايةٍ: لعبـدي ـ أن يقول: أنا خيرٌ من يونس بن متَّى».

رواه أحمد (٢/ ٤٠٥)، والبخاري (٤٦٣١)، ومسلم (٢٣٧٦)، وأبو داود (٤٦٦٩).

مكان: «الطريق». والطور: الجبل بالسريانية، وقال أيضاً في الرواية الأخرى: «فما تـوارت يدك» مكان: «غطَّت يدك» وهو بمعناه. والتاء فيه زائدةٌ؛ لأن معناه: وارت، والله أعلم.

(٣٣) ومن بـــاب: ذكر يونس ويوسف وزكريا ـ عليهم السلام ـ

(قوله: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خيرٌ من يونس بن متى») أي) لا يصلح، ولا يجوز. و (لعبـدٍ): منوّن مُنكَّر، أي: لعبد من عباد الله، وفي الرواية الأخرى: «لعبدي» بإضافته إلى ياء المتكلم، [وهو الله تعالى في هذه الرواية، فيحتمل أن يُراد به النكرة][1] فتكون إضافته غير محضة، كما قال الشاعر:

وسائلي بمعجزي[2] عن وطني ... ما ضاقَ بي جنابُه ولا نبا

فأدخل ربَّ على سائلي مع أنه مضافٌ إلى ياء المتكلم، فدل على: أنه لم يردْ به سائلاً واحداً، فكأنه قال: ورب سائل، وكذلك الوطن في قوله: عن وطني؛

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة من (ع).

(٢) في (ع): بمزعجي.

. . . .

لأنَّ الجملة التي بعده صفة له، أي: عن وطنٍ لم ينبُ بي جنابه، أي: غير نابٍ. ويصحُّ أن تكون إضافة عبدي محضةً ومعرفةً، ويعني به: عبدي المكرم عندي، كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] أي: عبادي المكرمون عندي، والمشرَّفون لديَّ، وقد شهد لهذا المعنى ما قد روي في كتاب أبي داود في هذا الحديث: «لا ينبغي لنبي أن يقول: أنا خير من يونس»[1] كما قد رُوي أيضاً ما يشهد بتنكير «عبد» في كتاب مسلم: «لا أقول: إن أحداً أفضل من يونس»[2] وعلى هذا فيقيَّد مطلق الرواية الأولى بمقيد هذه الرواية، فيكون معناه: لا ينبغي لعبدٍ نبيٍّ أن يقول: أنا خيرٌ من يونس. وهذا هو الأولى؛ لأنه مَن ليس بنبيٍّ لا يمكنه بوجهٍ أن يقول: أنا أفضل من النبيِّ؛ لأنه من المعلوم الضروري عند المتشرعين: أنَّ درجةَ النبيِّ لا يبلغها وليٌّ، ولا غيرُه، وإنما يمكن ذلك في الأنبياء، لأنهم صلوات الله وسلامه عليهم قد تساووا في النبوة، وتفاضلوا فيما بينهم بما خصّ به بعضهم دون بعض؛ فإن منهم مَن اتخذه اللَّهُ خليلاً، ومنهم من اتخذه حبيباً، ومنهم أولو العزم، ومنهم من كلَّم الله على ما هو المعروف من أحوالهم، وقد قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فإن قيل: إذا كانوا متفاضلين في أنفسهم فكيف ينهي عن التفضيل؟ وكيف لا يقول مَن هو في درجة عليا: أنا خيرٌ من فلان، لمن هو دونه، على جهة الإخبار عن المعنى الصحيح؟ فالجواب: أن مقتضى هذا الحديث المنعُ من إطلاق ذلك اللفظ، لا المنع من اعتقاد معناه أدباً مع يونس، وتحذيراً من أن يُفْهَمَ في يونس نقص من إطلاق ذلك اللفظ. وإنما خُصَّ يونسُ عليه السلام بالذكر في هذا الحديث؛ لأنه لما دعا قومَه للدخول في دينه، فأبطؤوا عليه ضجر، واستعجل بالدعاء عليهم، ووعدهم بالعذاب بعد

تفاضل الأنبياء فيما بينهم

دعوة يونس قومَه للدخول في دينه

(١) رواه أبو داود (٤٦٧٠).

(٢) رواه مسلم (٢٣٧٣).

[٢٢٨٨] وعن ابن عباسٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ما ينبغي لعبدٍ أنْ يقول: أنا خير من يونس بن متَّى. ونَسَبَهُ إلى أبيه».

رواه أحمد (١/ ٢٤٢)، والبخاريّ (٣٤١٣)، ومسلم (٢٣٧٧).

ثلاث، وفرَّ منهم، فرأى قومُه دخاناً، ومقدمات العذاب الذي وعدهم به، فآمنوا به، وصدَّقوه، وتابوا إلى الله تعالى، فردُّوا المظالمَ حتى ردُّوا حجارة مغصوبة كانوا بنوها، ثم إنهم فرقوا بين الأمهات وأولادهم، ودعوا الله تعالى، وضجّوا بالبكاء والعويل، وخرجوا طالبين يونس فلم يجدوه، فلم يزالوا كذلك حتى كشف اللَّهُ عنهم العذاب، ومتَّعهم إلى حين، وهم أهل نينوى من بلاد الموصل على شاطىء دجلة، ثم إن يونس ركب في سفينة فسكنت ولم تَجْرِ، فقال أهلها: فيكم آبق. فقال: أنا هو. فأبوا أن يكون هو الآبق فقارعهم، فخرجت القرعةُ عليه، فرمي في البحر، فالتقمه حوتٌ كبيرٌ، فأقام في بطنه ما شاء الله، وقد اختلف في عدد ذلك من يومٍ إلى أربعين، وهو في تلك المدة يدعو اللَّهَ تعالى، ويُسبِّحه إلى أن عفا اللَّهُ عنه، فلفظه الحوتُ في ساحلٍ لا نبات فيه، وهو كالفرخ، فأنبت اللَّهُ تعالى عليه من حينه شجرة اليقطين، فسترته بورقها. وحكى أهلُ التفسير: أن الله تعالى: قيَّض له أُرْوِيَّة[١] ترضعه إلى أن قوي، فيبست الشجرة، فاغتم لها وتألَّم، فقيل له: أتغتم وتحزن لهلاك شجرةٍ، ولم تغتمّ على هلاك مئة ألف أو يزيدون؟ وقد دلَّ على صحَّة ما ذكر قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ. . .﴾ الآيات إلى آخرها [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٨]، وقد روي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إن للنبوة أثقالاً، وإن يونس تفسَّخ تحتها تفسُّخَ الرُّبَعِ»[٢] أو كما قال.

توبة قوم يونس

التقام الحوتِ يونسَ

مراتب النبوة لا يلحقها أحدٌ من غيرهم

قلــتُ: ولمَّا جرى هذا ليونس عليه السلام، وأطلق الله تعالى عليه: أنه

---

(١) الأنثى من الوعول.

(٢) رواه الحاكم (٢/ ٥٨٤). وانظر: الشفا للقاضي عياض (١/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣).

«تفسخ»: لم يطق مشاقّ الرسالة. «والرُّبَع»: ولد الناقة.

[٢٢٨٩] وعن أبي هريرة، قال: قيل: يا رسول الله! من أكرمُ الناس؟ قال: «أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك! قال: «فيوسف نبيُّ الله بنُ نبيِّ الله بنِ نبيِّ الله بنِ خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك! قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهُم في الجاهلية خيارهُم في الإسلام إذا فَقُهوا».

رواه أحمد (٢/ ٢٥٧)، والبخاريُّ (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨) (١٦٨).

(مليم) أي: أتى بما يُلام عليه. قال الله تعالى على لسان نبيه ﷺ: «لا ينبغي لعبدٍ أن يقول: أنا خيرٌ من يونس»، لأنَّ ذلك يُوهم نقصاً في نبوته، وقدحاً في درجته، وقد بيَّنا أن (لعبدٍ) هنا بمعنى لنبيٍّ، وقد قيل: إنه محمولٌ على غير الأنبياء، ويكون معناه: لا يظنُّ أحدٌ ممن ليس بنبيٍّ ـ وإن بلغ من العلم والفضل والمنازل الرفيعة، والمقامات الشريفة الغاية القصوى ـ أنه يبلغ مرتبة يونس ـ عليه السلام ـ؛ لأن أقل مراتب النبوة لا يلحقها من ليس من الأنبياء، وهذا المعنى صحيح، والذي صدَّرنا به الكلام أحسن منه، والله تعالى أعلم.

و (قول السائل: من أكرم الناس؟) معناه: من أولى بهذا الاسم؟ ولذلك أجابه النبيُّ ﷺ بجواب كُلِّيٍّ، فقال: «أتقاهم» وهذا منتزعٌ مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فلما قالوا: ليس عن هذا نسألك، نزل عن ذلك إلى ما يقابله، وهو الخصوصُ بشخصٍ معيَّنٍ، فقال: يوسف بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيم؛ لأنه نبيٌّ بن نبيٍّ بنِ نبيٍّ [بن نبيٍّ][1]، فإن هذا لم يجتمع لغيره من ولد آدم، فهو أحقُّ الناس المعنيين بهذا الاسم. فلما قالوا: ليس عن هذا نسألك تبين له: أنهم سألوه عمن هو أحقُّ بهذا الاسم من العرب، فأجابهم

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (م ٣).

[٢٢٩٠] وعنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «كان زكرياءُ نجَّاراً».

رواه أحمد (٢/٢٩٦)، ومسلم (٢٣٧٩)، وابن ماجه (٢١٥٠).

* * *

بقوله: «فعن معادن العرب تسألوني؟» أي: عن أكرم أصولها، وقبائلها؟ وقد تقدَّم أن المعدنَ هو مأخوذٌ من عَدَن، أي: أقام، والعَدْن: الإقامة، ولما كانت أصولُ قبائل العرب ثابتةً سميت معادن. ثم قال: «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقُهوا» فمعنى هذا: أن مَن اجتمع له خصالُ شرفٍ زمنَ الجاهلية من: شرف الآباء، ومكارم الأخلاق، وصنائع المعروف، مع شرف دين الإسلام، والتفقه فيه، فهو الأحقُّ بهذا الاسم، وقد تقدَّم أن الكرمَ: كثرةُ الخير والنفع، ولما كان تقوى الله تعالى هو الذي حصل به خيرُ الدنيا والآخرة مُطلقاً كان المتَّصفُ به أحقُّ؛ فإنه أكرم الناس، لكن هذه قضيةٌ عامة، فلما نظر النبيُّ ﷺ فيمن تعيَّن في الوجود بهذه الصفة، ظهر له أن الأنبياءَ أحقُّ بهذا المعنى؛ إذ لا يبلغُ أحدٌ درجتهم، وإن أحقَّهم بذلك مَن كان مُعْرِقاً في النبوة، وليس ذلك إلا ليوسف، كما ذكر. ويخرج منه الردُّ على من قال: إن إخوة يوسف كانوا أنبياء، إذ لو كانوا كذلك لشاركوا يوسف في ذلك المعنى، ثم إنه لما نظر النبيُّ ﷺ بين الأعم والأخص ظهر أن الأحقَّ بذلك المعنى: نوعٌ من الأنواع المتوسطة بين الجنس الأعمِّ، والنوع الأخصِّ، وظهر له أنهم أشرافُ العرب، ورؤساؤهم إذا تفقهوا في الدين، وعلموا وعملوا، فحازوا كلَّ الرتب الفاخرة؛ إذِ اجتمع لهم شرفُ الدنيا والآخرة. وفيه ما يدلُّ على شرف الفقه في الدين، وأن العالم يجوزُ له أن يجيبَ بحسب ما يظهر له، ولا يلزمه أن يستفصلَ السائلَ عن تعيين الاحتمالات، إلا إن خاف على السائل غلطاً، أو سوء فهمٍ، فيستفصله، كما قررناه في الأصول.

(شرف علم الفقه)

و (قوله: «كان زكريا نجاراً») يدل: على شرف النجارة، وعلى أن التحرُّف بالصناعات لا يغضّ من مناصب أهل الفضائل، بل نقول: إن الحرف والصناعات

(شرف حرفة الصناعة)

(٣٤) بـــاب
في قول النبي ﷺ: «لا تُخَيِّرُوا بين الأنبياء»

[٢٢٩١] عن أبي هريرة، قال: بينما يهوديٌّ يَعْرِضُ سِلعَةً له أُعْطِيَ بها شيئاً كرهه ـ أو لم يرضَهُ ـ قال: لا، والذي اصطفى موسى عليه السلام على البَشَر! قال: فسمعه رجل من الأنصار فلَطَمَ وجهه، وقال: تقول:

غير الركيكة زيادة في فضيلة أهل الفضل، يحصل لهم بذلك التواضع في أنفسهم، والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخليّ عن الامتنان الذي هو خيرُ المكاسب، كما قد نصَّ عليه النبيُّ ﷺ حيث قال: «إن خير ما أكل المرء من عمل يده، وإن نبيَّ الله داود كان يأكلُ من عمل يده»[١]. وقد نقل عن كثير من الأنبياء أنهم كانوا يحاولون الأعمال. فأولهم آدم ـ عليه السلام ـ علّمه الله صناعة الحراثة، ونوح ـ عليه السلام ـ علمه الله صناعة النجارة، وداود ـ عليه السلام ـ علّمه الله صناعة الحدادة؛ وقيل: إن موسى ـ عليه السلام ـ كان كاتباً يكتب التوراة بيده، وكلهم قد رعى الغنم كما قال ﷺ وعليهم أجمعين.

أكثـر الأنبيـاء كان لهم مِهَن

(٣٤) ومن بــاب: قول النبيِّ ﷺ: «لا تُخيِّرُوا بين الأنبياء»

أي: لا تقولوا فلانٌ خيرٌ من فلان، وفي الرواية الأخرى: «لا تفضلوا»[٢]، أي: لا تقولوا فلانٌ أفضل من فلان. يُقال: خَيَّر فلان بين فلان وفلان. وفضَّل ـ مشدَّداً ـ: إذا قال ذلك. واختلف العلماء في تأويل هذا الحديث على أقوالٍ، فمنهم من قال: إن هذا كان قبل أن يُوحى إليه بالتفضيل، ويتضمَّن هذا الكلام: أن

حكمـة النهـي عـن التفضيـل بين الأنبياء

---

(١) رواه البخاري (٢٠٧٢).

(٢) وهي الرواية المثبتة في التلخيص، أمَّا رواية: «لا تخيروا» فهي في صحيح مسلم (٢٣٧٣) (١٦٠).

والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر! ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟! قال: فذهب اليهوديُّ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم! إنَّ

الحديثَ معارض لقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ولما في معنى ذلك من الأحاديث، وأن القرآنَ ناسخٌ للمنع من التفضيل، وهذا لا يصحُّ حتى تتحقَّق المعارضة حيث لا يُمكن الجمع بوجهٍ، وحتى يُعْرَف التاريخ، وكلُّ ذلك غير صحيح على ما يأتي، فليس هذا القول بصحيحٍ، ومنهم من قال: إنما قال ذلك النبيُّ ﷺ على جهة التواضع، والأدب مع الأنبياء، وهذا فيه بُعدٌ؛ لأن السبب الذي خرجَ عليه هذا النهي يقتضي خلافَ ذلك، فإنه إنما قال ذلك ردعاً وزجراً للذي فضَّل. ألا ترى أنه قد غضبَ عليه حتى احمرَّ وجهه، ونهى عن ذلك، فدلَّ على أن التفضيلَ يحرمُ. ولو كانَ من باب الأدب والتواضع لَمَا صدرَ منه ذلك. ومنهم من قال: إنما نهى عن الخوض في ذلك؛ لأن ذلك ذريعةٌ إلى الجدال في ذلك، فيؤَدِّي إلى أن يذكرَ منهم ما لا ينبغي أن يذكرَ، ويقلَّ احترامهم عند المماراة، وهذا كما نُهي عنه من الجدال في القرآن والمماراة. ومنهم من قال: مقتضى هذا النهي: إنما هو المنع من تفضيل معيَّنٍ من الأنبياء على مُعيَّن، أو على ما يُقصد به معيَّن، وإن كان اللفظ عامّاً؛ لأن ذلك قد يُفهم منه نقص في المفضول كما بيَّناه، فيما تقدَّم.

قلتُ: ويدلُّ على ذلك: أنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث في الأم: «لا تفضلوني على موسى»[1]، وبدليل قوله: «لا وأقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى»، فإن قيل: فالحديث يدلُّ على خلاف هذا، فإن اليهودي فضَّل موسى على البشر. والمسلم قال: والذي اصطفى محمداً على البشر. وعند ذلك قال النبيُّ ﷺ: «لا تفضلوا بين الأنبياء، ولا تُخيروا بين الأنبياء» فاقتضى ذلك المنع من التفضيل مطلقاً معيناً وغير معين، فالجواب: أن مراد اليهوديِّ كان إذ ذاك أن

---

(١) في صحيح مسلم (٢٣٧٣) (١٦٠): «لا تخيروني على موسى».

لي ذِمَّةً وعهداً، وقال: فلان لَطَمَ وجهي. فقال رسول الله ﷺ: «لم لَطَمْتَ وَجههُ؟».

قال: قال: يا رسول الله: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر وأنت بين أظهرنا! قال: فغضب رسول الله ﷺ حتى عُرف الغضبُ في

يصرِّحَ بأن موسى أفضل من محمَّد، لكنَّه لم يقدر على ذلك خوفاً على نفسه، ألا ترى أن المسلم فهم ذلك عنه، فأجابه بما يقتضي أن محمداً أفضلُ من موسى، غير أنَّه قابل لفظَ اليهودي بمثله، وقد بيَّن ذلك غاية البيان قوله ﷺ: «لا تفضلوني على موسى» فنهاهم عن ذلك، ثم إنا قد وجدنا نبيَّنا ﷺ قال: «أنا أكرمُ ولد آدم على ربِّي»[1]، و «أنا سيد ولد آدم» ولم يذهب أحدٌ من العلماء إلى أن هذا منسوخ، ولا مرجوح.

النهي عن إطلاق لفظ التفضيل بين الأنبياء

قلتُ: وهذا الوجه وإن كان حَسَناً، فأولى منه أن يُحملَ الحديث على ظاهره من منع إطلاق لفظ التفضيل بين الأنبياء، فلا يجوز في المعين فيهم، ولا غيرهم، ولا يُقال: فلان النبي أفضل من الأنبياء كلهم، ولا من فلان، ولا خير، كما هو ظاهر هذا النهي، لما ذُكر من توهُّم النقص في المفضول، وإن كان غير معين؛ ولأنَّ النبوة خصلة واحدةٌ لا تفاضلَ فيها، وإنما تفاضلوا بأمور غيرها كما بيَّناه قبلَ هذا الباب. ثم إن هذا النهي يقتضي منع إطلاق ذلك اللفظ لا منع اعتقاد ذلك المعنى، فإن الله تعالى قد أخبرنا بأن الرسل مُتفاضلون كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وكما قد علمنا أن نبينا ﷺ قد خُصَّ بخصائص من الكرامات والفضائل بما لم يُخصَّ به أحدٌ منهم، ومع ذلك فلا نقول: نبيُّنا خير من الأنبياء، ولا من فلان النبيِّ اجتناباً لما نهى عنه، وتأدُّباً

---

(١) ذكره في الدر المنثور (٦/ ١١٩)، والزبيدي في الإتحاف (١٠/ ٤٩٦) وسبق تخريجه في التلخيص برقم (٢٨٩٨).

وجهه، ثم قال: «لا تُفَضِّلُوا بين أنبياء الله؛ فإنه يُنفَخ في الصُّور فيَصْعَقُ من في السمواتِ ومن في الأرض إلا من شاء اللَّهُ. قال: ثم يُنفَخُ فيه أُخرى فأكونُ أولَ من يُبعث ـ أو: في أول من يبعث ـ»..................

بأدبه، وعملاً باعتقاد ما تضمنه القرآن من التفضيل، ورفعاً لما يُتوهم من المعارضة بين السنَّة والتنزيل.

و (قوله: «إنه يُنفخ في الصور فيَصْعَقُ مَنْ في السموات ومن في الأرض إلا من شاءَ الله») أصل الصَّعق، والصَّعْقة: الصوت الشديد المنكر، كصوت الرعد، وصوت الحمار، وقد يكون معه موت لشدَّته. وهو المراد بقوله: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقد تكون معه غشية، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فإن كان معه نار فهو الصاعقة، والعرب كلُّها تقدم العين على القاف إلا بني تميم؛ فإنهم يُقدِّمون القاف على العين، فيقولون: الصاقعة، حكاها القاضي عياض. وقد اختُلف في المستثنى: مَنْ هو؟ فقيل: الملائكة، وقيل: الأنبياء، وقيل: الشهداء. والصحيح: أنه لم يرد في تعيينهم خبرٌ صحيح، والكل محتملٌ، والله أعلم.

ما هو الصُّور؟

و (الصُّور) قيل: إنه جمع صورة، والصحيح ما قد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الصُّور قرن يُنفخ فيه»[1]. وسيأتي له مزيد بيان. واختُلف في عدد النفخات، فقيل: ثلاثة: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث. وقيل: هما نفختان: نفخة الفزع هي نفخة الصعق؛ لأن الأمرين لازمانِ لها. والله تعالى أعلم.

و (قوله: «ثم يُنفخ فيه أخرى، فأكونُ أوَّلَ من يُبعث، أو: من أول من يُبعث») هذا شكٌّ من الراوي تُزيله الرواية الأخرى التي قال فيها: «فأكونُ أوَّلَ من يفِيق»، وكذلك الحديث المتقدِّم الذي قال فيه: «أنا أوَّلُ من يَنشقُّ عنه القبرُ

---

(١) رواه أحمد (٢/١٢٦)، والترمذي (٣٢٤٤).

وفي روايةٍ: «أول من يُفيقُ ـ من غير شك ـ فإذا موسى آخذٌ بالعرش، فلا أدري أحُوسب بصعقتِهِ يومَ الطُّورِ أو بُعثَ قبلي! ولا أقولُ: إن أحداً أفضلُ من يُونُس بنِ متَّى عليه السلام».

ويُبعث»[1]. يعني به: يحيا بعد موته، وهو الذي عبَّر عنه في الرواية الأخرى بـ (أفيق)، وإن كان المعروف: أن الإفاقة إنما هي من الغشية، والبعث من الموت، لكنهما لتقارب معناهما أطلقَ أحدهما مكان الآخر، ويحتمل أن يُراد بالبعث الإفاقة على ما يأتي بعد هذا إن شاء الله تعالى.

تعلقُ موسى بساق العرش

و (قوله: «فإذا موسى متعلِّق بساق العرش[2]») هذا من موسى تعلُّق فزع لهول المطلع، وكأنه متحرِّمٌ بذلك[3] المحل الشريف، ومتمسك بالفضل المنيف.

و (قوله: «فلا أدري أحوسب بصعقة الطور، أو بُعث قبلي») هذا مشكل بالمعلوم من الأحاديث الدَّالة على أن موسى ـ عليه السلام ـ، قد توفِّي وأن النبيَّ ﷺ قد رآه في قبره، وبأن المعلومَ المتواتر: أنه توفي بعد أن ظهـرَ دينُه، وكثرت أمته، ودُفن بالأرض، ووجه الإشكال: أن نفخة الصَّعْق إنما يموتُ بها من كان حيّاً في هذه الدار، فأما من مات فيستحيلُ أن يموتَ مرة أخرى؛ لأن الحاصلَ لا يُستحصل، ولا يُبتغى؛ وإنما ينفخ في الموتى نفخة البعث، وموسى قد ماتَ، فلا يصحُّ أن يموتَ مرَّة أخرى، ولا يصحُّ أن يكون مستثنىً ممن صُعق؛ لأن المُسْتَثْنَيين أحياء لم يموتوا، ولا يموتون، فلا يصحُّ استثناؤهم من الموتى، وقد

نفخة الصعق

---

(١) سبق تخريجه برقم (٢٨٩٨).

(٢) كذا في أصول المفهم، ولم نجد لفظ: «متعلق بساق العرش» في أي من الكتب الصحاح الستة، وإنما ورد «آخذ بالعرش» و«باطش بجانب العرش»، «متعلق بالعرش».

(٣) في (ع): الحرم.

وفي روايةٍ: «فلا أدري أكان فيمن صُعِقَ فأفَاقَ قبلي أم كان ممن استثنى اللَّهُ عزَّ وجلَّ».

رواه البخاريّ (٣٤١٤)، ومسلم (٢٣٧٣) (١٥٩ و ١٦٠)، وأبو داود (٤٦٧١)، والترمذيُّ (٣٢٤٥).

* * *

رامَ بعضهم الانفصال عن هذا الإشكال، فقال: يحتمل أن يكون موسى ممن لم يمتْ من الأنبياء، وهذا قول باطلٌ بما ذكرناه. قال القاضي عياض: يحتمل أن المراد بهذه الصعقة: صعقة فزعٍ بعد النشر حين تنشق السموات والأرضون، قال: فتستقل الأحاديث والآيات.

قلــتُ: وهذه غفلةٌ عن مساق الحديث؛ فإنه يدلُّ على بطلان ما ذُكر دلالةً واضحةً، فإن النبيَّ ﷺ قال: إنـه حين يخرجُ من القبر فيلقى موسى، وهو متُعلِّق بالعرش، وهذا كان عند نفخة البعث، ثم إن النبيَّ ﷺ عندما يرى موسى يقع له تردُّد في موسى على ظاهر هذا الحديث، هل مات عند نفخة الصَّعْق المتقدمة على نفخة البعث، فيكون قد بُعث قبلَه، أو لم يمت عند نفخة الصَّعْق لأجل الصعقة التي صُعقها على الطور، جعلت له تلك عوضاً من هذه، وعلى هذا فكانَ حيّاً حالةَ نفخة الصَّعق، ولم يُصعق، ولم يمت، وحينئذ يبقى الإشكال إذ لم يحصل عنه انفصال.

حقيقة الموت

قلــتُ: والذي يُزيحه ـ إن شاء الله تعالى ـ أن يُقال: إن الموت ليس بعدم، وإنما هو انتقال من حالٍ إلى حالٍ، وقد ذكرنا ذلك فيما تقدَّم، ويدلُّ على ذلك أن الشهداءَ بعد قتلهم وموتهم أحياءٌ عند ربهم يُرزقون فرحين مستبشرين، فهذه صفات الأحياء في الدُّنيا، وإذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحقَّ وأولى، مع أنه

حقيقة موت الأنبياء

. . . .

قد صحَّ عن النبيِّ ﷺ: «أن الأرض لا تأكلُ أجسادَ الأنبياء»[١]، وأن النبيَّ ﷺ قد اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس، وفي السماء، وخصوصاً بموسى ـ عليه السلام ـ. وقد أخبرنا النبيُّ ﷺ بما يقتضي أن الله تعالى يردّ عليه روحَه حتى يردَّ السلام على كلِّ مَن يُسلِّم عليه[٢]، إلى غير ذلك ممَّا ورد في هذا المعنى، وهو كثيرٌ بحيث يحصلُ من جملته القطعُ بأنَّ موتَ الأنبياء إنما هو راجعٌ إلى أنهم غيِّبوا عنا بحيث لا ندركهم، وإن كانوا موجودين أحياء، وذلك كالحال في الملائكة فإنهم موجودون أحياء، ولا يراهم أحدٌ من نوعنا إلا من خصَّه اللّهُ بكرامة من أوليائه، وإذا تقرَّر أنهم أحياء فهم فيما بين السماء والأرض؛ فإذا نُفخ في الصور نفخةُ الصعق صعق كلُّ مَن في السموات والأرض إلا من شاء الله، فأما صعق غير الأنبياء فموت، وأما صعق الأنبياء، فالأظهر أنه غشيةٌ، فإذا نُفِخ في الصور نفخةُ البعث ممن مات حيي، ومَن غُشي عليه أفاق، ولذلك قال ﷺ: «فأكون أول من يفيق» وهي روايةٌ صحيحة وحسنة. فهذا الذي ظهر لي، والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. وقد تحصَّل مِن هذا الحديث: أنَّ نبينا محمداً ﷺ مُحَقَّقٌ أنه أول من يفيق، وأول من يخرج من قبره قبل الناس كلِّهم، الأنبياء وغيرهم؛ إلا موسى ـ عليه السلام ـ فإنه حصل له فيه تردُّد: هل بُعِث قبله، أو بقي على الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق؟ وعلى أيِّ الحالين كان فهي فضيلةٌ عظيمةٌ لموسى ـ عليه السلام ـ ليست لغيره، والله تعالى أعلم.

الفرق بين صعق الأنبياء وغيرهم

فضيلة عظيمة لموسى عليه السلام

* * *

---

(١) رواه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (٣/ ٩١)، وابن ماجه (١٦٣٦).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٥٢٧)، وأبو داود (٢٠٤١) بلفظ: «ما من أحدٍ يُسلِّم عليَّ إلا ردَّ اللّهُ عليَّ روحي حتى أردَّ عليه السلام».

. . . .

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدِّين، حسبنا اللَّهُ تعالى ونِعْم الوكيل.

علَّقه الفقير إلى الله تعالى محمد بن عيسى بن محمد بن دريك ـ عفا الله عنهم ـ.

نجز الجزء الثالث من المفهم بشرح كتاب مسلم، يتلوه ـ إن شاء الله تعالى ـ كتاب: فضائل الصحابة. والحمد لله.

اللهم يسِّر لنا طريقاً إلى العلم، وتوفيقاً إلى الفهم، وأصلح نيّاتنا فيهما، إنك لما تشاء فعّال، وأنت حسبنا ونعم الوكيل[١].

* * *

(١) قوله: (الحمد لله... ونعم الوكيل) من (ع).

(٣٥) بـــاب
فضائل أبي بكرٍ الصِّدِّيق واستخلافه ـ رضي الله عنه ـ

[٢٢٩٢] عن أبي بكرٍ الصِّدِّيق؛ قال: نَظَرْتُ إلى أَقْدام المشركين على رؤوسنا ونحنُ في الغار؛ فقلتُ: يا رسول الله! لو أنَّ أحَدَهم نظر إلى

---

(٣٥)
ومن بـــاب: فضائل أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ

اسم أبي بكر، لقبه، نسبه

واسمه عبد الله بن عثمانَ بن عامرٍ بن عمر بن كعبٍ بن سعدٍ بن تيمٍ بن مرَّة بن كعب بن لؤي. يجتمعُ نسبُه مع نسب رسول الله ﷺ في مرَّة بن كعب، وسمَّاه رسولُ الله ﷺ بالصِّدِّيق، رواه عنه عليُّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، وسمَّاه بذلك لكثرة تصديقه. ويُسمَّى بعتيق، وفي تسميته بذلك ثلاثةُ أقوال:

أحدها: أن النبيَّ ﷺ قال: «من أراد أن ينظرَ إلى عتيقٍ من النار فلينظرْ إلى أبي بكر»[١] روته عائشة.

والثاني: أنه اسمٌ سمَّته به أمُّه، قاله موسى بن طلحة.

والثالث: أنه سُمِّي به[٢] لجمال وجهه، [قاله الليث بنُ سعد، وقال ابنُ قتيبة: لقَّبه النبيُّ ﷺ بذلك لجمال وجهه][٣].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٤١): رواه أبو يعلى، وفيه صالح بن موسى الطلحي، وهو ضعيف.
(٢) في (م ٤): بذلك.
(٣) ما بين حاصرتين سقط من (ز) و (م ٣).

. . . .

أسماء من أسلم على يديه

وهو أول من أسلم من الرجال، وقد أسلم على يديه من العشرة المشهود لهم بالجنة خمسةٌ: عثمان، وطلحة، والزُّبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقَّاص ـ رضي الله عنهم ـ.

جملة أحاديثه عن رسول الله ﷺ

قال الإمامُ الحافظ أبو الفرج الجوزي: جملةُ ما حُفِظ له من الحديث عن رسول الله ﷺ مئة واثنان وأربعون حديثاً، أخرج له منها في الصَّحيحين ثمانية عشر حديثاً.

قلتُ: ومن المعلوم القطعيِّ، واليقين الضروريِّ أنه حفظ من حديث رسول الله ﷺ ما لم يحفظْ أحدٌ من الصَّحابة، وحصل له[1] من العلم ما لم يحصلْ لأحد منهم؛ لأنه كان الخليلَ المباطن، والصَّفيَّ الملازِم، لم يفارقْه سفراً ولا حَضَراً، ولا ليلاً ولا نهاراً، ولا شدَّةً ولا رخاءً، وإنما لم يتفرَّغْ للحديث، ولا للرواية؛ لأنه اشتغل بالأهمِّ فالأهمِّ؛ ولأنَّ غيره قد قام عنه من الرواية بالمهمِّ، وإذا تقرَّرَ ذلك فاعلمْ: أنَّ الفضائلَ جَمْعُ فضيلة، كرغائب جمع رغيبة، وكبائر جمع كبيرة، وهو كثيرٌ، وأصلُها الخَصْلةُ الجميلةُ التي بها يحصلُ للإنسان شرفٌ، وعلوُّ منزلةٍ وقدر، ثم ذلك الشَّرف، وذلك الفضل إما عند الخَلْق، وإما عند الخالق، فأما الأول: فلا يُلتفتُ إليه إن لم يوصلْ إلى الشرفِ المعتبر عند الخالق. فإذاً: الشَّرفُ المعتبر، والفَضْلُ المطلوبُ على التحقيق، إنما هو الذي هو شرفٌ عند الله تعالى. وإذا تقرر هذا[2] فإذا قلنا إنَّ أحداً من الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ فاضل، فمعناه أن له منزلةً شريفةً عند الله تعالى، وهذا لا يتوصَّلُ إليه بالعقل قطعاً، فلا بدَّ أن يرجعَ ذلك إلى النقل، والنقلُ إنما يُتلقَّى من الرسول ﷺ فإذا أخبرنا

تعريف الفضائل

---

(١) في (ع): عنده.

(٢) في (م ٤): ذلك.

. . . .

الرَّسولُ ﷺ بشيءٍ من ذلك تلقَّيناه بالقبول؛ فإن كان قطعياً حصل لنا العلمُ بذلك، وإن لم يكن قطعياً كان ذلك كسبيل المجتَهَدات على ما تقدَّم، وعلى ما ذكرناه في الأصول، وإذا لم يكن لنا طريقٌ إلى معرفة ذلك إلّا بالخبر، فلا يقطعُ أحدٌ بأن من صدرتْ منه أفعالٌ دينيَّةٌ وخصالٌ محمودةٌ، بأنَّ ذلك قد بلَّغه عند الله منزلةَ الفضل والشَّرف؛ فإن ذلك أمرٌ غيب، والأعمال بالخواتيم، والخاتمة مجهولة، والوقوفُ على المجهول مجهول، لكنَّا إذا رأينا مَن أعانه اللَّهُ على الخير، ويسَّر له أسبابَ الخير رَجَوْنا له حصولَ تلك المنزلةِ عند الله تمسُّكاً بقوله ﷺ: «إذا أراد اللَّهُ بعبدٍ خيراً استعمله في الخير، ووفَّقه لعملٍ صالحٍ»[1]. وبما جاء في الشَّريعة من ذلك، ومَن كان كذلك: فالظَّنُّ أنه لا يخيب، ولا يقطع على[2] المغيب، وإذا تقرَّر هذا

المتفق على فضيلته بعده ﷺ

فالمقطوعُ بفضله، وأفضليته بعد رسول الله ﷺ عند أهل السُّنَّة ـ وهو الذي يقطعُ به من الكتاب والسُّنَّة ـ أبو بكر الصِّدِّيق ثم عمر الفاروق، ولم يختلفْ في ذلك أحدٌ من أئمة السَّلف، ولا الخلف، ولا مبالاةَ بأقوال أهل الشيع، ولا أهل البِدَع، فإنَّهم بين مُكفِّرٍ تُضْرَبُ رقبته، وبين مبتدعٍ مُفسَّق لا تُقبل كلمتُه، وتدحض حُجَّتُه.

وقد اختلف أئمة أهل السُّنَّة[3] في عليٍّ وعثمان ـ رضي الله عنهما ـ فالجمهورُ منهم على تقديم عثمان، وقد رُوي عن مالكٍ أنه توقَّف في ذلك، ورُوي عنه أنه رجع إلى ما عليه الجمهور، وهو الأصحُّ إن شاء الله، والمسألةُ[4] اجتهاديةٌ لا قطعية، ومستندُها الكلِّيُّ أنَّ هؤلاء الأربعة: هم الذين اختارهم اللَّهُ تعالى لخلافة نبيِّه، ولإقامة دينه، فمراتبُهم عنده بحسب ترتيبهم في الخلافة، إلى ما ينضافُ إلى

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٣٥)، والترمذي (٢١٤٢).

(٢) في (م ٤): عن.

(٣) في (ع): السلف.

(٤) في (م ٤): وهذه المسألة.

. . . .

ذلك بما يشهدُ لكلِّ واحدٍ منهم من شهادات النَّبيِّ ﷺ له بذلك تأصيلاً وتفصيلاً، على ما يأتي إن شاء اللَّهُ تعالى. وهذا البابُ بحرٌ لا يُدرك قَعْره، ولا يُنزف غمره، وفيما ذكرناه كفاية، واللَّهُ الموفِّق للهداية.

قصة غار ثور

و (قول أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: نظرتُ إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار) كان من قصته: أنَّ المشركين اجتمعوا لِقَتْل رسول الله ﷺ فبيَّتوه في داره، فأمر عليّاً فرقد على فراشه، وقال له: «إنَّهم لن يضرُّوك»، فخرج عليهم رسولُ الله ﷺ وهم على بابه، فأخذ اللَّهُ أبصارَهُم عنه، ولم يَرَوْهُ، ووضع على رأس كلِّ واحدٍ منهم تُراباً، وانصرف عنهم خارجاً إلى غار ثور، فاختفى[1] فيه، فأقاموا كذلك حتى أخبرهم مُخْبِرٌ؛ أنه قد خرج عليهم، وأنه وَضَع على رؤوسهم التراب، فمدُّوا أيديَهم إلى رؤوسهم فوجدوا التُّراب، فدخلوا الدَّار، فوجدوا عليّاً على الفراش، فلم يتعرَّضوا له، ثم خرجوا في كلِّ وجهٍ يطلبون النبيَّ ﷺ ويقتصُّون أثره بقائفٍ[2] كان معروفاً عندهم، إلى أن وصلوا إلى الغار، فوجدوه قد نسجتْ عليه العنكبوتُ مِن حينه، وفرَّخت فيه الحمامُ بقدرة الله تعالى، فلما رأوا ذلك قالوا: إنَّ هذا الغارَ ما دخله أحدٌ، ثم إنَّهم صَعِدوا إلى[3] أعلى الغار، فحينئذ رأى أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أقدامَهم، فقال بلسان مقاله مُفْصِحاً عن ضَعْف حاله: لو نظر أحدُهم إلى قَدَمَيه أبصرنا، فأجابه مَن تدلَّى فدنا بما يُذْهِبُ عنه الخوف والضَّنى بقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، أي: بالحِفْظ والسَّلامة، والصَّون والكرامة. ثم إن النبيَّ ﷺ أقام في الغار ثلاثة أيامٍ حتى تجهَّز. ومنه هاجر

---

(١) في (م ٤): فأخفي.
(٢) «القائف»: مَن يعرف الآثار ويتتبعها. ومَن يعرف النَّسَب بفراسته ونظره إلى أعضاء المولود.
(٣) في (م ٤): على.

قدميه أبْصَرنا تحت قدميه! فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر! ما ظنُّك باثنين اللَّهُ ثالثُهما».

رواه أحمد (١/ ٤)، والبخاريُّ (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١)، والترمذيُّ (٣٠٩٦).

[٢٢٩٣] وعن أبي سعيدٍ: أنَّ رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: «عَبْدٌ خيَّرهُ الله بين أن يؤتيه زهرة الدُّنيا وبين ما عندَه، فاختار ما عنده». فبكى أبو بكرٍ، وبكى! فقال: فديناك بآبائنا وأمَّهاتِنا! قال: فكان

إلى المدينة، وكلٌّ ذلك من النَّبيِّ ﷺ ثقةٌ بوعد الله تعالى، وتوكُّلٌ، ودليلٌ على خصوصيَّة أبي بكرٍ من الخلَّة، وملازمة الصُّحبة في أوقات الشدَّة بما لم[1] يُسْبَقْ إليه.

و (قوله ﷺ: «عَبْدٌ خيَّره اللَّهُ تعالى بين أن يؤتيه زهرةَ الدُّنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده») هذا قولٌ فيه إبهام، قَصَدَ به النَّبيُّ ﷺ اختبارَ أفهام أصحابه، وكيفية تعلُّق قلوبهم به، فظهر أن أبا بكرٍ كان عنده من ذلك ما لم يكنْ عند أحدٍ منهم، ولمَّا فهم من ذلك ما لم يفهموا بادر بقوله: فَدَيْناك بآبائنا وأمهاتنا، ولذلك قالوا: فكان أبو بكرٍ أَعْلَمَنا. وهذا يدلُّ من أبي بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ على أنَّ قَلْبَه ممتلىءٌ من محبة رسول الله ﷺ ومستغرقٌ عنه، وشديدُ الاعتناء بأموره كلِّها من أقواله وأحواله بحيث لا يشاركه أحدٌ منهم[2] في ذلك. ولما علم النبيُّ ﷺ ذلك منه، وصدر منه في ذلك الوقت ذلك الفهمُ عنه اختصَّه بالخصوصيَّة العُظمى التي لم يظفرْ بمثلها بشريٌّ في الأولى ولا في الآخرة. فقال: «إن أمنَّ النَّاس عليَّ في صُحْبته وماله أبو بكرٍ، ولو كنتُ مُتَّخِذاً خليلاً لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلاً» فقد تضمَّن

امتلاء قلب أبي بكر من محبته ﷺ

---

(١) في (م ٤): ليس.
(٢) من (م ٤).

رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكرٍ أعلَمَنا به. وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ أمَنَّ النَّاس عليَّ في ماله وصحبتِهِ أبو بكرٍ، ولو كنتُ متخذاً خليلاً لاتَّخذْتُ أبا بكرٍ خليلاً، ولكنْ أُخُوَّةُ الإسلام، لا تُبْقَيَنَّ في المسجدِ خوخةٌ إلا خوخةَ أبي بكرٍ!».

رواه أحمد (٣/ ١٨)، والبخاريُّ (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).

هذا الكلام: أنَّ لأبي بكرٍ مِن الفضائل، والحقوق ما لا يشاركه فيها مخلوق. ووَزْنُ أمنّ: أفعل، من المنَّة بمعنى الامتنان، أي: أكثر مِنَّةً، ومعناه: أنَّ أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ له من الحقوق ما لو كانتْ لغيره لامتنَّ بها، وذلك: أنه ـ رضي الله عنه ـ بادر النبيَّ ﷺ بالتَّصْديق، والناسُ كلُّهم مُكذِّبون، وبنفقة الأموال العظيمة، والناسُ يبخلون، وبالملازمة والمصاحبة، والناسُ ينفرون، وهو مع ذلك بانشراح صدره، ورسوخ علمه يعلمُ: أنَّ لله ولرسوله الفضْل والإحسان، والمنَّة والامتنان، لكن النبيّ ﷺ بكرم خُلُقه، وجميل معاشرته اعترف بالفَضْل لمن صَدَر عنه، وشكر الصَّنيعة لمن وُجِدَتْ منه، عملاً بشكر المنعم، لِيَسُنَّ، وليعلِّم، وهذا مثل ما جرى له يوم حُنين مع الأنصار، حيث جَمَعَهُم فذكَّرهم بما لَهُ عليهم من المِنَن، ثم اعترف لهم بما لهم من الفَضْل الجميل الحسن، وقد تقدم في الزَّكاة. وقد ذكر الترمذيُّ من حديث أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه عليها ما خلا أبا بكرٍ؛ فإنَّ له عندنا يداً يكافئه اللَّهُ تعالى بها يوم القيامة، وما نفعني مالُ أحدٍ كما نفعني مالُ أبي بكرٍ...»[1]؛ وذكر الحديث، وقال: هو حسن غريب.

حقوق أبي بكر

و (قوله: «ولو كنتُ متَّخذاً خليلاً، لاتخذت أبا بكرٍ خليلاً») متَّخذاً: اسم فاعل من اتَّخذ، وهو فعلٌ يتعدَّى إلى مفعولين، أحدهما بحرف الجر، فيكون

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٦١).

[٢٢٩٤] وعن عبد الله بن مسعود، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لو كنتُ متخذاً خليلاً لاتَّخذْتُ أبا بكرٍ خليلاً، ولكن أخي وصاحبي، وقد اتّخذَ الله عزَّ وجلَّ صاحِبَكُم خليلاً».

بمعنى: اختار واصْطفى، كما قال: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، وقد سكت هنا عن أحد مفعوليها، وهو الذي دخل عليه حرفُ الجرِّ، فكأنه قال: لو كنتُ متَّخذاً مِن النَّاس خليلاً لاتخذتُ منهم أبا بكرٍ. ولِبَسْط الكلام في ذلك علم النحو، وحاصلُه: أنَّ (اتَّخذ) استعملت على ثلاثةِ أنحاء، أحدها: تتعدَّى لمفعولين بنفسها. وثانيها: تتعدَّى لأحدهما بحرف الجرِّ. وثالثها: تتعدَّى لمفعول واحد، وكلُّ ذلك موجودٌ في القرآن، ومعنى هذا الحديث: أنَّ أبا بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ كان قد تأهَّل لأن يتَّخذه النبيُّ ﷺ خليلاً، لولا المانعُ الذي منع النبيَّ ﷺ وهو أنه لما امتلأ قلبُه بما تخلَّله من معرفة الله تعالى، ومحبَّته، ومُراقبته، حتى كأنه مُزجتْ أجزاءُ قلبه بذلك، لم يتَّسعْ قلبُه لخليلٍ آخر يكون كذلك فيه، وعلى هذا فلا يكون الخليلُ إلا واحداً، ومَن لم ينتهِ إلى ذلك ممن تعلَّق القلبُ به فهو حبيبٌ؛ ولذلك أثبت لأبي بكرٍ وعائشة ـ رضي الله عنهما ـ أنَّهما أحبُّ الناس إليه، ونفى عنهما الخلَّة، وعلى هذا فالخلَّة فوق المحبة، وقد اختلف أربابُ القلوب في ذلك؛ فذهب الجمهور: إلى أنَّ الخلَّةَ أعلى، تمسُّكاً بما ذكرناه، وهو مُتمسَّكٌ قويٌّ ظاهِر، وذهب أبو بكر بن فُورَك[1]: إلى أنَّ المحبة أعلى، واستدلَّ على ذلك: بأن الاسمَ الخاصَّ بمحمدٍ ﷺ: الحبيب، وبإبراهيم: الخليل. ودرجةُ نبيِّنا ﷺ أرفع، فالمحبةُ أرفع. وقد ذكر القاضي عِياض هذه المسألة في كتاب «الشفا»[2] واستوفى فيها البحث، فلْتُنْظَر

لِمَ لم يتخذ ﷺ أحداً خليلاً؟

---

(١) هو محمد بن الحسن بن فُورَك، أبو بكر: واعظ، عالم بالأصول والكلام، من فقهاء الشافعية. من كتبه: «مشكل الحديث وغريبه». توفي سنة (٤٠٦ هـ).

(٢) انظر: الشفا (١/ ٤٠٩ وما بعدها).

وفي روايةٍ: «ألا إنِّي أبرأُ إلى كُلِّ خليلٍ من خِلِّهِ، ولو كنت... وذكر نحوه».

رواه أحمد (١/ ٣٧٧)، ومسلم (٢٣٨٣) (٣ و ٧)، والترمذيُّ (٣٦٥٥)، وابن ماجه (٩٣).

هناك، وقد ذكرنا اختلافَ الناس في الخلة في كتاب الإيمان.

و (قوله: «إلا إني أبرأ إلى كُلِّ خليلٍ من خلَّته») الرواية المعروفة: بكسر الخاء من خلَّة. قال القاضي: والصَّواب ـ إن شاء الله ـ فتحها، والخلَّة، والخلُّ، والمخاللة، والمخالَّة، والخلالة، والخلولة: الإخاء والصَّداقة.

قلتُ: يعني: أن خَلَّة في الأصل: هي مصدر، ومصادر هذا الباب: هي التي ذكروها، وليس فيها ما يقال: بكسر الخاء، فتعين الفتح فيها، ومعنى هذا الكلام: قد جاء بلفظ آخر يفسره فقال: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل». وهذا واضح.

و (قوله: «وقد اتَّخذ اللَّهُ صاحبكم خليلاً» في غير كتاب مسلم: «كما اتخذ إبراهيم خليلاً») وهذا يدلُّ على أنَّ اللَّهَ تعالى بلَّغ درجة نبيِّنا ﷺ في الخلة بإبراهيم ـ عليه السلام ـ غير أنَّه مكَّنه فيها ما لم يمكِّن إبراهيم فيها، بدليل قول إبراهيم: «إنما كنت خليلاً من وراءَ وراءَ»[1] كما تقدَّم في الإيمان.

خوخة أبي بكر

و (قوله: «لا تُبْقَيَنَّ في المسجد خوخةٌ إلا خوخة أبي بكرٍ») الخَوْخَةُ ـ بفتح الخاء المعجمة ـ: بابٌ صغير بين مسكنَيْن، وكان أصحابُ النبيِّ ﷺ قد فتحوا بين مساكنهم وبين المسجد خوخات اغتناماً لملازمة المسجد، وللكون فيه مع النبيِّ ﷺ إذ كان فيه غالباً؛ إلَّا أنه لما كان ذلك يؤدِّي إلى اتخاذ المسجد طريقاً، أَمَرَ النبيُّ ﷺ بسدِّ كلِّ خوخةٍ كانتْ هنالك، واستثنى خوخةَ أبي بكرٍ ـ رضي الله

---

(١) رواه مسلم (١٩٥) (٣٢٩).

[٢٢٩٥] وعن عمرو بن العاص: أنَّ رسول الله ﷺ بعثه على جيشِ ذاتِ السلاسل، فأتيته فقلت: أيُّ الناس أحبُّ إليك؟ قال: «عائشة». قلت: مِنَ الرِّجال؟ قال: «أبوها». قلت: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «عمر». فَعَدَّ رجالاً.

رواه أحمد (٤/٢٠٣)، والبخاريُّ (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤)، والترمذيُّ (٣٨٨٥).

[٢٢٩٦] وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أصبحَ منكُم اليومَ صائماً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فَمَنْ تَبِعَ منكمُ اليومَ جنازةً؟»

عنه ـ إكراماً له، وخُصوصيَّةً به؛ لأنَّهما كانا لا يفترقان غالباً، وقد استدلَّ بهذا الحديث على صحَّة إمامته، واستخلافه للصلاة، وعلى خِلافته بَعْدَه.

و (قوله: مَن أحبَّ الناس إليك[1]؟) هذا السُّؤالُ: أخرجه الحرصُ على معرفة الأحبِّ إليه؛ ليقتديَ به في ذلك، فيحبّ ما أحب؛ فإن المرء مع من أحب.

حبُّه ﷺ لعائشة

و (قوله في الجواب: «عائشة») يدلُّ على جواز ذِكْر مثل ذلك، وأنه لا يُعابُ على مَن ذكره إذا كان المقولُ له من أهل الخير والدِّين، ويقصدُ بذلك مقاصدَ الصَّالحين، وإنما بدأ النبيُّ ﷺ بذكر محبة عائشة أولاً؛ لأنها محبَّةٌ جبلِّيَّة ودينية، وغيرها دينيَّة لا جبلِّية، فسبق الأصليُّ على الطَّارىء.

و (قوله: «ثم أبو بكر[2]، ثم عمر») يدلُّ على: تفاوت ما بينهما في الرُّتبة والفضيلة، وهو يدلُّ على صحَّة ما ذهب إليه أهلُ السُّنَّة.

تفقُّده ﷺ لأحوال أصحابه

و (قوله: «من أصبح منكم اليوم صائماً؟ قال أبو بكر: أنا. . . الحديث) يدلُّ

---

(١) في مسلم والتلخيص: أيّ الناس أحب إليك؟.

(٢) في مسلم والتلخيص: أبوها.

قال أبو بكر: أنا. قال: «فَمَنْ أطعم منكُم اليومَ مسكيناً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فَمَنْ عاد منكم اليوم مريضاً؟» قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله ﷺ: «ما اجْتَمَعْنَ في امرئ إلا دخل الجنَّة».

رواه مسلم (١٠٢٨) في الفضائل (١٢).

[٢٢٩٧] وعنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجلٌ يسوق بقرةً له قد حَمَل عليها؛ التفتت إليه البقرة فقالت: إني لم أُخْلَقْ لِهٰذَا، ولكنِّي إنَّما خُلقتُ للحَرْث». فقال الناس: سبحان الله ـ تعجُّباً وفَزَعاً ـ أبقرةٌ تكلَّمُ؟!

على: ما كان النبيُّ ﷺ عليه من التفقُّد لأحوال أصحابه، وإرشادهم إلى فِعْل الخير على اختلاف أنواعه، وعلى ما كان عليه أبو بكرٍ من الحِرْص على فِعْل جميع أنواع الطَّاعات، وتتبُّعِه أبوابها، واغتنام أوقاتها، وكأنه ما كان له هَمٌّ إلا في طَلَب ذلك، والسَّعي في تحصيل ثوابه.

أعمال صالحة تُدْخِل الجنة

و (قوله: «ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة») ظاهِرُه: أنَّ مَن اجتمع له فِعْلُ هذه الأبواب في يومٍ واحدٍ دخل الجنَّة؛ فإنه قال فيها كلِّها: اليوم، اليوم، ولما أخبره أبو بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ أنه فَعَل تلك الأمورَ كلَّها في ذلك اليوم بشَّره بأنه مِن أهل الجنة لأجل تلك الأمور، والمرجوّ مِن كَرَم الله تعالى أن مَن اجتمعتْ له تلك الأعمالُ في عُمره، وإن لم تجتمعْ في يومٍ واحدٍ أن يُدْخِلَه اللّهُ الجنَّة بفَضْله، ووَعْده الصَّادق.

ما خُلِقت البقرة من أجله

و (قول البقرة للَّذي حَمَل عليها: إنِّي لم أُخْلَقْ لهذا، إنَّما خُلِقْتُ لِلْحَرْث) دليلٌ: على أنَّ البقرةَ لا يُحْمَلُ عليها ولا تُرْكَب، وإنما هي للحرث، وللأكل، والنسل، والرِّسْلِ[1]. وفيه ما يدلُّ على وقوع خَرْق العوائد، على جهة الكرامة، أو

---

(١) أي: اللَّبن.

فقال رسول الله ﷺ: «فإنِّي أُومِنُ به، وأبو بكر، وعمر». فقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «بينا راعٍ في غنمه، عدا عليه الذئبُ فأخذ منها شاةً، فطلبهُ الراعي حتى استنقذها منه، فالتفتَ إليه الذئب، فقال: من لها يوم السَّبُع؛ يوم ليس لها راعٍ غيري؟» فقال الناس: سبحان الله! فقال رسول الله ﷺ: «فإني، أومن بذلك أنا، وأبو بكر، وعمرُ».

رواه أحمد (٢/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦)، والبخاريُّ (٣٤٧١)، ومسلم (٢٣٨٨).

على جهة التَّنبيه لمن أراد اللَّهُ به الاستقامة، وفيه ما يدلُّ على عِلْم النبيِّ ﷺ بصحَّة إيمان أبي بكر، وعُمر، ويقينهما، وأنه كان يُنزلهما منزلةَ نفسه، ويقطعُ على يقينهما، وهذه خصوصيَّةٌ عظيمة، ودرجةٌ[1] رفيعة.

و (قول الذئب: مَن لها يوم السَّبُع) الرِّواية الصَّحيحةُ التي قرأناها وقيَّدناها على مشايخنا بضم الباء لا غير، ومعناه مُفَسَّرٌ بباقي الحديث؛ إذ قال فيه: يوم ليس لها راعٍ غيري، فإنه أبدل (يوم ليس لها راعٍ) من (يوم السَّبُع)، وكأنه قال: مَن يستنقذُ هذه الشَّاةَ يوم ينفرد السَّبُع بها، ولا يكونُ معها راعٍ، ولا يمنعها منه؟! وكأنه ـ والله أعلم ـ يشير إلى نحو مما تقدَّم في الحجِّ مِن حديث أبي هريرة مرفوعاً قال: «يتركون المدينة على خير ما كانت، لا يغشاها إلا العوافي ـ يريدُ السِّباع والطير ـ، ثم يخرجُ راعيان من مُزينة يريدان المدينة، فينعقان بغنمهما، فيجدانها وَحْشاً، حتى إذا بلغا ثنيَّةَ الوداع خرَّا على وجوههما»[2]. فحاصلُ هذا: أنَّ أهلَ المدينة ينجلون عنها، فلا يبقى فيها إلّا السِّباع، ويهلك مَن حولها من الرُّعاة فتبقى الغنمُ متوحشةً منفردة، فتأكلُ الذئابُ ما شاءت، وتتركُ ما شاءت، وهذا لم يُسْمَعْ

من علامات الساعة جلاء أهل المدينة عنها

(١) في (م ٤): منزلة.

(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٣٤)، والبخاري (١٨٧٤)، ومسلم (١٣٨٩) (٤٩٩).

[٢٢٩٨] وعن عائشة، وسئلت: من كان رسول الله ﷺ مستخلفاً لو استخلف؟ قالت: أبو بكر........................

أنَّه وَقَعَ، ولا بُدَّ من وقوعه. وقد قيَّده بعضُ اللُّغويين بسكون الباء، وليست بروايةٍ صحيحة، ولكن اختلف في معنى ذلك على أقوالٍ يطولُ ذِكْرُها، ولا معنى لأكثرها، وأشبهُ ما قيل في ذلك، ما حكاه الحربيُّ: أنَّ سكون الباء لغةٌ فيه، وقرأ الحسن: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ بسكونها [المائدة: ٣].

لم يستخلف ﷺ أحداً

و (قول السائل لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: من كان رسولُ الله ﷺ مُستخلفاً لو استخلف؟) يدلُّ على: أنَّ مِن المعلوم عندهم أنَّ النبيَّ ﷺ لم يستخلفْ أحداً، وكذلك قال عُمر ـ رضي الله عنه ـ لما طُعِن، وقيل له: أَلَا تستخلف؟ فقال: إن أتركهم؛ فقد تركهم رسولُ الله ﷺ، وإن أستخلف فقد استخلفَ أبو بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ وهذا بمحضر من الصحابة، وعليٌّ والعباس ـ رضي الله عنهم ـ ولم ينكرْ أحدٌ منهم على عمر، ولا ذَكَر أحَدٌ من النَّاس نصّاً باستخلافٍ[١] على أحد، فكان ذلك دليلاً على كذبِ مَن ادَّعى شيئاً مِن ذلك، إذ العاداتُ تحيلُ أن يكون عندهم نصٌّ على أحدٍ في ذلك الأمر العظيم المهمّ، فيكتموه، مع تصلُّبهم[٢] في الدِّين، وعدم تقيَّتهم، فإنَّهم كانوا لا تأخذهم في الله لومةُ لائم، وكذلك اتّفق لهم عند موتِ النبيِّ ﷺ فإنهم اجتمعوا لذلك، وتفاوضوا فيه مفاوضةَ مَن لا يتَّقي شيئاً، ولا يخافُ أحداً، حتى قالتِ الأنصارُ: منا أميرٌ، ومنكم أمير، ولم يذكرْ أحدٌ منهم نصّاً، ولا ادَّعى أحدٌ منهم أنه نصَّ عليه، ولو كان عندهم من ذلك شيءٌ لكانوا هم أحقَّ بمعرفته، ونَقْله، ولما اختلفوا في شيءٍ من ذلك. ومِن العجب أَلّا يكون عند أحدٍ من هؤلاء نصٌّ على ذلك، ولا يذكره مع قُرْب العهد، وتوفُّر الدِّين والجدِّ، ودُعاء الحاجة الشَّديدة إلى ذلك، ويأتي بعدهم بأزمانٍ متطاولةٍ، وأوقاتٍ

---

(١) في (ع) و (م ٤): لاستخلاف.

(٢) في (م ٤): فضلهم.

فقيل لها: ثم مَنْ بَعْدَ أبي بكرٍ؟ قالت: عمر. ثم قيل لها: من بعدَ عُمَر؟ قالت: أبو عبيدة بن الجراح.

رواه مسلم (٢٣٨٥).

[٢٢٩٩] وعن جبيرِ بن مُطْعِمٍ: أنَّ امرأةً سألت رسول الله ﷺ شيئاً، فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: يا رسول الله! أرأيت إن جئتُ فلم أجِدْكَ؟ ـ قال أبي: كأنَّها تعني: الموت! ـ قال: «فإن لم تجديني فائتي أبا بكرٍ».

رواه أحمد (٤/ ٨٢)، والبخاريُّ (٣٦٥٩)، ومسلم (٢٣٨٦).

مختلفةٍ، وقِلَّةِ علمٍ، وعَدَم فهم مَن يدَّعي: أن عنده من العلم بالنصِّ على واحدٍ معينٍ ما لم يكن عند أولئك الملأ الكرام، ولا سُمِعَ منهم. هذا محضُ الكذب الذي لا يقبلُه سليمُ العقل؛ لكن غَلَبَةُ التعصُّب والأهواء تُورِّطُ صاحبَها في الظَّلماء، وقد ذهبتِ الشيعةُ على اختلاف فرقها إلى: أنه نصَّ على خلافة عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ وذهبتِ الرَّاوندية إلى أنه نصَّ على خلافة العباس ـ رضي الله عنه ـ واختلق كلٌّ واحدٍ منهما من الكذب، والزُّور، والبهتان ما لا يرضى به مَن في قلبه حبَّةُ خَرْدلٍ مِن الإيمان، وما ذكرناه من عَدَم النَّصِّ على واحدٍ بعينه هو مذهبُ جمهورِ أهل السُّنَّة مِن السَّلف والخَلَف، لا على أبي بكرٍ، ولا غيره، غير أنَّهم استندوا في استحقاق أبي بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ للخلافة إلى أصولٍ كليَّةٍ، وقرائن حالية، ومجموع ظواهر جليَّةٍ حَصَّلَتْ لهم العلم؛ بأنه أحقُّ بالخلافة، وأوْلى بالإمامة، يَعْلم ذلك من استقرأ أخباره، وخصائصه، وسيقعُ التَّنبيهُ على بعضها إن شاء الله تعالى.

ما اعتُمد عليه في استحقاق أبي بكر للخلافة

و (قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ في جواب السَّائل: أبو بكر ثم عمر ثم أبو عبيدة) هذا قالته عن نظرها، وظنِّها، لا أنَّ ذلك كان بنصٍّ عندها عن النَّبيِّ ﷺ، ولعلها استندتْ في عمر وأبي عبيدة لقول أبي بكر يوم السَّقيفة: رضيتُ

[٢٣٠٠] وعن عائشة، قالت: قال لي رسولُ الله ﷺ في مرضه: «ادعي لي أبا بكر أباك، وأخاك حتى أكتب كتاباً، فإنِّي أخاف أن يتمنى

أبو عبيدة أمين هذه الأمة

لكم أَحَدَ هذين الرَّجُلَيْن عمر وأبي عُبيدة. وفي حقِّ أبي عبيدة شهادةُ النبيِّ ﷺ بأنه أمينُ هذه الأمَّة، ولذلك قال عمر ـ رضي الله عنه ـ حين جعل الأمْرَ شُورى: لو أنَّ أبا عبيدة حيٌّ لما تخالجني فيه شكٌّ، فلو سألني ربِّي عنه قلتُ: سمعتُ نبيَّكَ يقول: «لكل أمَّةٍ أمين، وأمينُنا ـ أيتها الأمَّة ـ أبو عبيدة بن الجراح»[١]، ويُفهم من قول عمر وعائشة: جوازُ انعقاد الخلافةِ للفاضل مع وُجُود الأفضل؛ فإنَّ عثمان وعليّاً ـ رضي الله عنهما ـ أفضلُ من أبي عُبيدة ـ رضي الله عنه ـ بالاتفاق، ومع ذلك فقد حَكَما بصحَّة إمامته عليهما ـ أن لو كان حيّاً ـ. وقد اختلفَ العلماءُ في هذه المسألة؛ ومذهبُ الجمهور: أنها تنعقدُ له ـ أعني للمفضول ـ وخالف في ذلك: عباد بن سلمان، والجاحظ، فقالا: لا ينعقدُ للمفضول على الفاضل، ولا يعتدُّ بخلافهما لما ذكرنا في الأصول، والصَّحيح: ما ذَهَبَ إليه الجمهور.

جواز انعقاد الخلافة للفاضل

و (قوله ﷺ للمرأة: «إن لم تجديني فائتي أبا بكر») زعم مَن لا تحقيقَ عنده مِنَ المتأخرين: أن هذا نصٌّ على خلافة أبي بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ وليس كذلك، وإنما يتضمَّن الخبرَ عن أنَّه يكون هو الخليفةُ بعده؛ لكن بأيِّ طريقٍ تنعقدُ له؟ هل بالنصِّ عليه، أو بالاجتهاد؟ هذا هو المطلوب، ولم ينصَّ عليه في الحديث، وكذلك قولُه ﷺ: «ادعي لي أبا بكر أباك، وأخاك حتى أكتبَ كتاباً. . .» الحديث إلى قوله: «يأبى اللّهُ والمؤمنون: إلا أبا بكر» ليس نصّاً في استخلافه، وإنما يدلُّ على إرادة استخلافه، ولم ينصَّ عليه، أَلاَ ترى أنه لم يكتبْ، ولم ينصَّ، والحاصلُ: أنَّ هذه الأحاديثَ ليستْ نصوصاً في ذلك، لكنها ظواهرُ قويَّةٌ إذا انضاف إليها استقراءُ ما في الشَّريعة ممَّا يدلُّ على ذلك المعنى علم استحقاقه

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٣٣)، والبخاري (٧٢٥٥)، ومسلم (٢٤١٩) (٥٣).

مُتمنٍّ ويقول قائل: أنا أَولى به ويأبى اللَّهُ والمؤمنون إلا أبا بكر».

رواه أحمد (٦/ ١٤٤)، والبخاريُّ (٥٦٦٦)، ومسلم (٢٣٨٧).

* * *

للخلافة، وانعقادها له ضرورةٌ شرعيةٌ، والقادحُ في خلافته مقطوعٌ بخطئه، وتفسيقه. وهل يُكفَّرُ أم لا؟ مُخْتَلَفٌ فيه، والأظهرُ: تكفيرُه لمن استقرأ ما في الشَّريعة، مما يدلُّ على استحقاقه لها، وأنه: أحقُّ وأولى بها، سيما وقد انعقدَ إجماعُ الصَّحابة على ذلك، ولم يَبْقَ منهم مُخالِفٌ في شيءٍ ممَّا جرى هنالك.

إجماع الصحابة على خلافة أبي بكر

وفاة أبي بكر

وكانت وفاةُ أبي بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ على ما قاله ابنُ إسحاق: يوم الجمعة لسبع ليالٍ[1] بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة. وقال غيره: إنه مات عشيَّة يوم الإثنين. وقيل: عشية يوم الثلاثاء لثمانٍ بقين من جمادى الآخرة. هذا قولُ أكثرهم. قال ابن إسحاق: وتوفي على رأس سنتين وثلاثة أشهر واثنتي عشرة ليلة من متوفى رسول الله ﷺ وقال غيره: وعشرة أيام. وقيل: وعشرين يوماً. ومكث في خلافته سنتين وثلاثة أشهر إلا خمس ليالٍ. وقيل: وثلاثة أشهر وسبع ليالٍ. واختلف في سبب موته؛ فقال الواقدي: أنه اغتسلَ في يوم باردٍ فَحُمَّ، ومرضَ خمسةَ عشر يوماً. وقال الزُّبير بن بكار: كان به طرفٌ من السِّلِّ. ورُوي عن سلام ابن أبي مطيع: أنه سُمَّ. والله أعلم. وقد تقدَّم: أنه مات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

* * *

(١) في (ع) و (م ٤): لتسع، وفي البداية والنهاية (١٨/٧) لثمان.

(٣٦) بــاب
فضائلِ عمرَ بنِ الخطَّابِ

[٢٣٠١] عن ابن عباسٍ، قال: وُضِع عمر بنُ الخطاب على سريره، فتكنَّفَهُ النَّاسُ يَدعُون ويُثنُون ويُصلُّون عليه قبل أن يُرفعَ، وأنا فيهم. قال:

---

(٣٦) ومن بــاب: فضائل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ

نسب عمر وإسلامه

ويكنَّى: أبا حفصٍ، وهو ابنُ الخطاب بن نفيل بن عبد العزَّى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي، يجتمع نَسَبُه مع نسب رسول الله ﷺ في كعب. أسلم سَنَة ستٍّ من النبوَّة. وقيل: سنة خمسٍ بعد أربعين رجلاً، وإحدى عشرة امرأة. وقيل: بعد ثلاث وثلاثين رجلاً. وقيل: إنه تمام الأربعين. وسُمِّي الفاروقُ؛ لأنه فرَّق بإظهار إسلامه بين الحقِّ والباطل. وقتال الكفار عليه يوم أسلم، ونزل جبريلُ ـ عليه السلام ـ على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! استَبْشَرَ أهلُ السماء بإسلام عمر. حُفِظ له من الحديث خمسمئة وتسعة[1] وثلاثون حديثاً، أخرج له منها في الصحيحين أحدٌ وثمانون حديثاً، توفي ـ رضي الله عنه ـ مقتولاً. قتله أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شُعبة، لثلاثٍ بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، طعنه العلجُ بسكين في يده ذات طرفين، وطَعَن فيه اثني عشر رجلاً، مات منهم تسعة، ثم رمى على العلج رجلٌ من أهل العراق برنساً[2]، فحبسه، فوجأ نفسه، وكانت خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ عشر سنين وستة أشهرٍ، وتوفي وهو ابنُ ثلاثٍ وستين سنةً كما تقدَّم.

تلقيبه بالفاروق

وفاته رضي الله عنه

و (قوله: ووُضِع عمر ـ رضي الله عنه ـ على سريره، فتكنَّفه النَّاس) يعني: بعد موته وتجهيزه للدَّفن. والسَّرير هنا: هو النَّعش، وتكنَّفه النَّاس: أي صاروا

---

(١) في (م ٤): وسبعة.

(٢) «البرنس»: كلُّ ثوبٍ يكون غطاءُ الرأس جزءاً منه مُتَّصلاً به.

فلم يَرُعْني إلا برجلٍ قد أخذ بِمَنْكِبِيْ مِنْ ورائي، فالتفتُّ؛ فإذا هو عليٌّ، فترحَّم على عمر. وقال: ما خَلَّفتَ أحداً أحبَّ إليَّ أن أَلْقَى الله بمثل عَمَلِهِ مِنْكَ، وايمُ الله! إن كنتُ لأظنُّ أنْ يجعَلكَ اللّهُ مع صاحِبَيك، وذلك أنِّي كُنتُ أُكثِّر أسمعُ رسولَ الله ﷺ يقول: «جِئتُ أنا وأبو بكرٍ وعمرُ، ودخلْتُ أنا وأبو بكرٍ وعمر، وخرجتُ أنا وأبو بكرٍ وعُمر» فإنْ كنتُ لأَرْجُو ـ أو: لأَظُنُّ ـ أن يجعلك الله مَعَهُما.

رواه أحمد (١/ ١١٢)، والبخاريُّ (٣٦٧٧)، ومسلم (٢٣٨٩).

[٢٣٠٢] وعن أبي سعيدٍ الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائمٌ رأيتُ الناسَ يُعرضُون وعليهم قُمُصٌ؛ منها ما يبلغُ الثُّدِيَّ، ومنها ما

بكنفَيْه. أي: جانبيه. والكنف والكنيف: الجانب. و (يصلُّون عليه) أي: يترحَّمون عليه. و (لم يَرُعْني) أي: يفزعني فينبهني. وأصلُ الرَّوع: الفَزَع.

وهذا الحديثُ ردٌّ مِن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ على الشِّيعة فيما يتقوّلونه عليه من بُغْضه للشيخين، ونسبته إياهما إلى الجَوْر في الإمامة، وأنَّهما غصباه. وهذا كلُّه كذبٌ وافتراءٌ؛ عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ منه براء. بل المعلومُ مِن حاله معهما تعظيمه ومحبَّته لهما، واعترافه بالفضل لهما عليه وعلى غيره. وحديثه هذا ينصُّ على هذا المعنى، وقد تقدَّم ثناءُ عليٍّ على أبي بكرٍ ـ رضي الله عنهما ـ واعتذاره عن تخلُّفه عن بيعته، وصحَّة مبايعته له، وانقياده له مختاراً طائعاً سرّاً وجهراً، وكذلك فَعَل مع عُمر ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وكلُّ ذلك يُكذِّبُ الشيعة والروافضَ في دعواهم، لكن الأهواء[1] والتعصُّب أعماهم.

ثناء علي على أبي بكر وبيعته له

رؤيا نبوية وتأويلها

و (قوله: «بينا أنا نائم والنَّاس يعرضون عليَّ... الحديث) هؤلاء النَّاس

---

(١) في (ع) و (م ٤): الهوى.

يبلغُ دُون ذلك، ومرَّ عُمر بنُ الخطاب وعليه قَمِيصٌ يَجُرُّه». قالوا: ماذا أوَّلتَ ذلك يا رسول الله؟! قال: «الدِّينَ».

رواه أحمد (٣/ ٨٦)، والبخاريُّ (٢٣)، ومسلم (٢٣٩٠)، والترمذيُّ (٢٢٨٦).

[٢٣٠٣] وعن عبد الله بن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا نائمٌ، إذ رأيتُ قَدَحاً أُتيتُ به، فيه لَبَنٌ، فشربتُ منه حتى إنِّي لأرى الرِّيَّ يجري في أظْفَارِي، ثمَّ أَعْطَيْتُ فَضْلي عُمرَ بنَ الخطاب» قالوا: فما أَوَّلتَ ذلك يا رسول الله؟ قال: «العلمَ».

رواه أحمد (٢/ ٨٣)، والبخاريُّ (٣٦٨١)، ومسلم (٢٣٩١)، والترمذيُّ (٢٢٨٤).

المعروضون على رسول الله ﷺ في النَّوم هم مَنْ دون عمر في الفضيلة، فلم يدخل فيهم أبو بكر، ولو عُرِض أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ عليه في هذه الرواية لكان قميصُه أطول، فإنَّ فَضْلَه أعظم، ومقامه أكبر على ما تقدَّم. وتأويل القميص بالدِّين مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] والعربُ تكني عن الفضل والعفاف بالثياب، كما قال شاعرهم[١]:

ثِيَـابُ بَنِـي عَـوْفٍ طَهـارَىٰ نَقِيَّـةٌ ....[٢]

وقد قال النبيُّ ﷺ لعثمان ـ رضي الله عنه ـ: «إنَّ اللَّهَ سيلبسك قميصاً، فإن أرادوك أن تخلعَه فلا تخلَعْه»[٣]. فعبَّر عن الخلافة بالقميص. وهي استعارةٌ حَسَنَةٌ

---

(١) هو امرؤ القيس.

(٢) عجز البيت: وأوجهُهُم بيضُ المسافرِ غُرَّانُ. كذا في اللسان. وفي الديوان: وأوجههم عند المشاهد غران.

(٣) رواه ابن ماجه (١١٢).

[٢٣٠٤] وعنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أُريتُ كأنِّي أنزعُ بدَلْوِ بَكْرةٍ على قَليبٍ، فجاء أبو بكرٍ فنزعَ ذنوباً أو ذنوبين، فنزع نَزْعاً ضعيفاً، واللَّهُ ـ تبارك وتعالى ـ يغفر له، ....

معروفةٌ. وتأويله ﷺ اللبنَ بالعلم تأويلٌ حسنٌ ظاهر المناسبة؛ وذلك: أنَّ اللبنَ غذاءٌ مُستطابٌ، به صلاحُ الأبدان، ونموُّها من أول فطرتها ونشوئها، خلا عن الأضرار والمفاسد. والعلم كذلك يحصلُ به صلاحُ الأديان والأبدان، ومنافع الدُّنيا والآخرة مع استطابته في نفسه. وقد يدلُّ في التعبير على دوام الحياة؛ إذ به كانت. وقد يدلُّ على الثَّواب؛ لأنَّه مذكورٌ في أنهار الجنَّة.

و (قوله ﷺ: «أُريتُ أنِّي أنزعُ في دلوِ بكرةٍ على قليبٍ») أنزع: أستقي. وأصلُ النَّزع: الجذب. والقليب: البئر غير المطويَّة، وهي التي عبَّر عنها في الرِّواية الأخرى بالحوض. والحوض: مجتمعُ الماء. والبكرة: الخشبةُ المستديرة التي تدورُ بالحبل.

و (قوله: «فجاء أبو بكرٍ فنزعَ ذَنُوباً أو ذَنُوبين فنزعَ وفي نزعه ضَعْفٌ، والله يغفرُ له») الذَّنُوب: الدَّلو، والغربُ أكبرُ منها. وقوله: «ذنوباً أو ذنوبين» هو شكٌّ من بعض الرُّواة، وقد جاء بغير شكٍّ: «ذنوبين» في الرواية الأخرى. وهي أحسن. وهذه الرُّؤيا هي مثالٌ لما فتح اللَّهُ تعالى على يدي النبيِّ ﷺ ويدي الخليفتين بعده من الإسلام والبلاد والفيء، فالنبيُّ ﷺ هو مبدأُ الأمر ومُمَكِّنٌ منه، وأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بعده، غير أنَّ مقدارَ ما فتح اللَّهُ على يديه من بلاد الكفر قليل؛ لأنَّ مُدَّةَ خلافته كانت سنتين وثلاثة أشهر؛ اشتغل في معظمها بقتال أهل الرِّدَّة، ثمَّ لما فرغ منها أَخَذَ في قتال أهل الكُفْر، ففتح[1] في تلك المدَّة بعض العراق وبعض الشَّام، ثمَّ مات ـ رضي الله عنه ـ ففتح الله على يدي عمر ـ رضي الله عنه ـ سائر

الفتوحات في عهد أبي بكر وعمر

---

(١) في (م ٤): ففتحت له.

ثم جاء عمرُ فاستقى، فاستحالت غَرْباً، فلم أرَ عبقرياً من الناس يَفرِي فَرْيَهُ،

البلاد، واتَّسعت خطَّةُ الإسلام (شرقاً وغرباً وشاماً)[1]، وعظمت الفتوحاتُ، وكثرت الخيراتُ والبركاتُ التي نحن فيها حتَّى اليوم. فعبَّر عن سنتي خلافةِ أبي بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ بالذَّنُوبين، وعن قلَّة الفتوحاتِ فيها بالضَّعف، وليس ذلك وهناً في عزيمته، ولا نَقْصاً في فَضْله على ما هو المعروف من همَّته، والموصوف من حالته. وقوله: «والله يغفر له» لا يظنُّ جاهلٌ بحال أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ هذا الاستغفارَ لأبي بكرٍ كان لذنبٍ صَدَر عنه، أو لتقصير حَصَلَ منه؛ إذ ليس في المنام ما يدلُّ على شيءٍ من ذلك، وإنَّما هذا دعامٌ للكلام، وسنادٌ، وصلةٌ، وقد تقدَّم في الحديث: أنَّها كانت كلمةً يقولها المسسلمون: افعل كذا والله يغفر لك. وهذا نحو قولهم: تربت يمينُك، وألَّت! وقاتله الله! ونحو ذلك ممَّا تستعمله العربُ في أضعاف كلامها على ما تقدَّم.

و (قوله: «فاستحالتْ في يده غرباً») أي: الدَّلوُ الصَّغيرة عادتْ في يده دلواً كبيرةً.

و (قوله: «فلم أرَ عبقرياً من النَّاس يفري فريه») قال الأصمعيُّ: سألتُ أبا عمرو بن العلاء عن العبقريِّ فقال: يقال: هذا عبقريُّ قومه، كقولهم: سيِّد قومه وكبيرهم وقويُّهم. قال أبو عبيد: وأصله: أنَّه نسبةٌ إلى أرضٍ تسكنها الجن، فصارت مثلاً لكلِّ منسوبٍ لشيءٍ رفيع. ويقال: بل هي أرضٌ يُعمل فيها الوشي والبرود، يُنسب إليها الوشي العبقريُّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾ [الرحمن: ٧٦] وقال أبو عبيد: العبقريّ: الرجل الذي ليس فوقه شيء. ويفري فَرْيَه: الرواية المشهورةُ بكسر الراء وتشديد الياء، وتُروى بتسكين الراء وتخفيف

---

(١) كذا في (ز) و (م ٣). وفي (ع): شرقاً وعراقاً وشاماً. وفي (م ٤): شرقاً وغرباً وعراقاً وشاماً.

حتى رويَ الناسُ، وضربوا العطنَ».

رواه البخاريُّ (٣٦٨٢)، ومسلم (٢٣٩٣)، والترمذيُّ (٢٢٩٠).

[٢٣٠٥] وفي روايةٍ: «حتى ضرب الناس بعطن».

هذه الرواية من حديث أبي هريرة عند أحمد (٢/٣٦٨)، والبخاريُّ (٧٠٢١)، ومسلم (٢٣٩٢).

[٢٣٠٦] وعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا نائم أُريتُ أنِّي أنزعُ على حوضٍ أسقي النَّاسَ، فجاءني أبو بكرٍ فأخذ الدَّلو من يدي لِيُروِّحَني، فنزع دَلْوَين؛ وفي نزعه ضعفٌ، واللَّهُ يغفر لهُ. فجاء ابنُ الخَطَّاب فأخذ منهُ، فلم أرَ نزع رجلٍ قطُّ أقوى منه حتى تولَّى الناسُ؛ والحوضُ ملآن يَتَفَجَّرُ».

رواه البخاريُّ (٧٠٢٢)، ومسلم (٢٣٩٢) (١٨).

الياء، وأنكر الخليلُ التثقيل، وغلَّط قائله، ومعناه: يعمل عمله، ويقوى قوته، وأصل الفري: القطع. يقال: فلانٌ يفري الفري، أي: يعمل العمل البالغ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]، أي: عظيماً بالغاً في فنّه. يقال: فريت الأديم إذا قطعته على جهة الإصلاح، وأفريته: إذا قطعته على جهة الإفساد.

و (قوله: «حتى روي الناس، وضربوا العطن») رُوي ـ بكسر الواو وفتح الياء ـ: فعل ماضٍ، ومضارعه يروَى ـ بفتح الواو ـ من الرِّيِّ: وهو الامتلاءُ من الشراب، ومعناه: أنهم رووا في أنفسهم. وضربوا العطن؛ أي: رووا إبلهم، وأصله أنهم يسقون الإبل، ثم يعطنونها، أي: يتركونها حول الحياض لتستريح، ثم يعيدون شُرْبَها، يقال منه: عطنت الإبل، فهي عاطنة، وعواطن، وأعطنتها أنا. حكاه ابن الأنباري. وفي الصحاح: عطنت الجلد، أعطنه عطناً، فهو معطون: إذا

[٢٣٠٧] وعن جابر، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «دَخلْتُ الجنَّة فرأيتُ فيها داراً ـ أو قصراً ـ فقلتُ: لمن هذا؟ قالوا: لعمرَ بنِ الخطاب، فأردتُ أن أدخُلَ، فذكرتُ غَيْرتَكَ»، فبَكَى عمرُ وقال: أيْ رسول الله! أو عليكَ يُغارُ؟.

رواه أحمد (٣/ ٣٠٩)، والبخاري (٧٠٢٤)، ومسلم (٢٣٩٤).

ألقيته في الماء والملح والعَلْقى[١] ليتفسخ صوفه ويسترخي، وعَطِنَ الإهابُ ـ بالكسر ـ يَعْطَنُ عَطَناً فهو عَطِنٌ: إذا أنتن وسقط في العطن وقد انعطن. والعَطن والمَعْطِنُ واحِدُ الأعطانِ والمعاطِن، وهي مَبَارِكُ الإبل عند الماء لتشربَ عَلَلاً بعد نهل، وعَطَنَتِ الإبلُ ـ بالفتح ـ تَعْطُن، وتَعْطِن عُطُوناً: إذا رَوِيَتْ ثم بَرَكَتْ، فهي: إبل عَاطِنة، وعَوَاطِنُ، وقد ضَرَب بعطن، أي: بركتْ إبله. قال ابنُ السِّكِّيت: وكذلك تقول: هذا عطن الغنم ومعطنها: لمرابضها حول الماء.

قلــتُ: وقد جاء معنى هذه الرواية مفسراً في الرواية الأخرى التي قال فيها: فجاء عمر فأخذه منِّي، يعني: الدلو، فلم أر نزع رجلٍ قط أقوى منه حتى تولى الناس والحوض ملآنٌ يتفجر. وفي هذه من الزيادة ما يدلُّ على أن عمر ـ رضي الله عنه ـ يُتَوَفَّى ويبقى النصر والفتح بعده متصلاً، وكذلك كان ـ رضي الله عنه ـ.

يبقى الفتح بعد عمر متصلاً

و (قوله في الأصل: «دخلت الجنة فإذا امرأةٌ تتوضَّأ إلى جانب قصرها»[٢]) كذا الرواية الصَّحيحة المعروفة، وقد ذكره ابنُ قتيبة، وقال: امرأة (شوهاء) مكان (تتوضأ)، وفسَّرها بالحسنة. وذكر ثعلب عن ابن الأعرابي: أن الشوهاء: الحسنة والقبيحة، فهو من الأضداد. ووضوء هذه المرأة في الجنة إنما هو لتزداد حُسْناً

---

(١) «العلقى»: نبت.

(٢) هذا القول ورد في رواية أبي هريرة كما في صحيح مسلم (٢٣٩٥) (٢١)، وورد في التلخيص مختصراً برقم (٢٧١٥).

[٢٣٠٨] وفي حديث أبي هريرة: أعليك أغار؟.

رواه أحمد (٢/ ٣٣٩)، والبخاريُّ (٣٢٤٢)، ومسلم (٢٣٩٥)، وابن ماجه (١٠٧).

[٢٣٠٩] وعن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ، قال: استأذنَ عمرُ على رسول الله ﷺ وعنده نساءٌ من قريش يُكلِّمنَهُ ويَسْتكثِرنَه، عاليةً أصْواتُهُنَّ. فلما استأذنَ عمرُ قُمْن يَبْتَدِرْنَ الحجابَ، فأذِنَ له رسولُ الله ﷺ، ورسولُ الله ﷺ يَضحَكُ. فقال عُمر: أضْحكَ اللَّهُ سِنَّكَ يا رسول الله! قال رسول الله ﷺ: «عَجِبْتُ مِنْ هؤلاء اللاتي كُنَّ عندي، فلمَّا سَمِعْنَ صَوتَكَ ابْتَدَرْنَ الحِجابَ». قال عُمر: فأَنْتَ، يا رسول الله! أحقُّ أن يَهَبْنَ. ثم قال عُمر: أَيْ عدوَّاتِ أنفُسِهنَّ اتَهَبْنني ولا تَهَبْنَ رسولَ الله ﷺ؟! فقُلْنَ: نعم؛ أنت أغلظُ وأفظُّ من رسول الله ﷺ. قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي

ونُوراً، لا لتزيل وسخاً، ولا قَذراً؛ إذ الجنة مُنَزَّهةٌ عن ذلك، وهذا كما قال في الحديث الآخر: «أمشاطُهم الذهب، ومجامرهم: الألوَّة»[1] على ما يأتي.

و (قوله: استأذن عمر ـ رضي الله عنه ـ على رسول الله ﷺ ونسوة من قريش يكلّمنه، ويستكثرنه) أي: من مكالمته، ويُحتمل: أنهن يسألنه حوائجَ كثيرة.

و (قوله: «عالية أصواتهن») قيل: يحتملُ أن يكونَ هذا قبل نزول قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، وقيل: يحتملُ أنَّ ارتفاع أصواتهن لكثرتهن، واجتماع كلامهن، لا أنهن رفعن أصواتهن.

قلتُ: ويحتملُ أن يكونَ فيهن مَن كنَّ جهوريات الأصوات، لا يقدرن على خفضها، كما كان ثابتُ بن قيس بن شماس، والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٢٧)، ومسلم (٢٨٣٤) (١٥).

بيده! ما لَقِيَكَ الشيطانُ قطُّ سَالِكاً فجّاً إلا سلك فجّاً غَيْرَ فجِّكَ».

رواه أحمد (١/ ١٧١)، والبخاريُّ (٣٦٨٣)، ومسلم (٢٣٩٦).

[٢٣١٠] وعن عائشة، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يقول: «قد كان يكون في الأمم قبلكم محدَّثُون،.........................

مجانبة الشيطان وهيبته منه

و (قوله: «ما لقيك الشيطانُ قطُّ سالكاً فجّاً إلا سَلَك فجّاً غير فجِّك») الفجُّ: الطريقُ الواسع، وهو أيضاً: الطريقُ بين جبلين، والظَّاهر: بقاءُ هذا اللفظ على ظاهره، ويكون معناه: أنَّ الشيطان يهابه ويُجانبه، لما يعلم من هيبته، وقوَّته في الحقِّ، فيفرُّ منه إذا لقيه، ويكونُ هذا مثل قوله ﷺ في الحديث الآخر: «إنَّ الشيطانَ لَيَفْرَقُ منك يا عمر»[١]. ويعني بالشيطان: جنس الشَّياطين، ويحتملُ أن يكون ذلك مثلاً لِبُعْده عنه، وأنه لا سبيلَ له عليه، والأوَّل أولى.

و (قوله: «قد كان يكون في الأمم قبلكم مُحدَّثون») «كان» الأولى: بمعنى الأمرُ والشَّأن، أي: كان الأمرُ والشأن، وهي نحو ليس في قولهم: ليس خَلَق اللَّهُ مِثْلَه. وتكون الثانيةُ ناقصة، واسمها محدَّثون، وخبرها في المجرور، ويصحُّ أن تكون تامَّةً، وما بعدها أحوال. ومُحدَّثون ـ بفتح الدال ـ هي الرواية اسم مفعول، وقد فسَّر ابنُ وهب المحدَّثين بالملهمين، أي: يُحدَّثون في ضمائرهم بأحاديث صحيحة، هي من نوع الغيب، فيظهر على نحو ما وقع لهم، وهذه كرامةٌ يكرم اللَّهُ تعالى بها من يشاء من صالحي عباده، ومِن هذا النوع ما يقال عليه: فراسةٌ وتوسُّمٌ، كما قد رواه الترمذيُّ من حديث أبي سعيد الخدريِّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اتَّقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظرُ بنور الله» ثم قرأ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥][٢]، وقد تقدَّم القولُ في نحو هذا، وقد قال

الإلهام والفراسة كرامة من الله للصالحين

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٥٣).

(٢) رواه الترمذي (٣١٢٧).

فإنْ يكنْ في أمتي منهمْ أحدٌ؛ فإنَّ عمر بن الخطاب مِنْهُم».

قال ابن وهب: تفسيرُ محدَّثون: مُلْهَمُونَ.

رواه أحمد (٦/ ٥٥)، ومسلم (٢٣٩٨)، والترمذيُّ (٣٦٩٣)، والنسائيُّ في الكبرى (٨١٢٠).

بعضُهم: إنَّ معنى محدَّثين: مُكلَّمون، أي: تكلِّمهم الملائكة.

قلتُ: وهذا راجعٌ لما ذكرته، غير أنَّ ما ذكرته أعمّ، فقد يخلق اللَّهُ تعالى الأحاديثَ بالغيب في القلب ابتداءً من غير واسطة مَلَك، وقال بعضُهم: إنَّ معناه أنهم مصيبون فيما يظنُّونه، وإليه ذهب البخاريُّ، وهذا نحو من الأوَّل، غير أنَّ الأوَّلَ أعمُّ، والله أعلم.

عمر أحدُ المحدَّثين

و (قوله: «فإن يكن في أمتي أحدٌ منهم فعمر»[1]) دليلٌ على قلَّة وقوع هذا وندوره، وعلى أنه ليس المرادُ بالمحدَّثين المصيبين فيما يظنُّون؛ لأنَّ هذا كثيرٌ في العلماء والأئمة الفضلاء، بل: وفي عوام الخلق كثير ممن يقوى حدسُه فتصح إصابتُه فترتفع خصوصيةُ الخبر، وخصوصية عمر ـ رضي الله عنه ـ بذلك، ومعنى هذا الخبر قد تحقَّق، ووُجِد في عمر قطعاً؛ وإن كان النبيُّ ﷺ لم يجزمْ فيه بالوقوع، ولا صرَّح فيه بالأخبار؛ لأنه إنما ذكره بصيغة الاشتراط، وقد دلَّ على وقوع ذلك لعمر حكاياتٌ كثيرةٌ عنه، كقصَّة: الجبل يا سارية[2]، وغيره، وأصحُّ ما يدلُّ على ذلك: شهادة النبيِّ ﷺ له بذلك، كما رواه الترمذي عن ابن عمر مرفوعاً: «إنَّ اللَّهَ جَعَل الحقَّ على لسان عمر وقلبه» وقال ابنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ: ما

---

(١) في صحيح مسلم: «فإن يكن في أمتي منهم أحد فإنَّ عمر بن الخطاب منهم». وما ذكره المصنف ـ رحمه الله ـ هو رواية أحمد والترمذي والنسائي.

(٢) ذكر ابن حجر هذه القصة في الإصابة (٣/ ٥٣) وعزاها للواقدي وسيف بن عمر وغيرهما.

[٢٣١١] وعن ابن عمر، قال: قال عمرُ: وافقت ربي في ثلاث: في مَقَام إبراهيم، وفي الحِجَابِ، وفي أُسَارى بَدْرٍ.

رواه مسلم (٢٣٩٩).

* * *

نزل بالناس أمرٌ قطُّ قالوا فيه، وقال فيه عمر إلا نزل القرآن على نحو ما قال فيه عمر[1]. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. ومن ذلك قول عمر ـ رضي الله عنه ـ: وافقتُ ربِّي في ثلاث... الحديث. وقد ادَّعى هذا الحالَ كثيرٌ من أهل المِحال[2]، لكن تشهدُ بالفضيحة شواهدُ صحيحة.

موافقات عمر ربّه

و (قوله: وافقتُ ربِّي في ثلاثٍ) يعني: أنَّه وقع له في قلبه حديثٌ عن تلك الأمور، فأنزل اللَّهُ تعالى القرآنَ على نحو ما وقع له، وذلك: أنَّه وقع له: أنَّ مقامَ إبراهيم ـ عليه السلام ـ محلٌّ شرَّفه اللَّهُ تعالى وكرَّمه؛ بأن قام فيه إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ للدُّعاء والصَّلوات، وجَعَل فيه آياتٍ بيِّناتٍ، وغفر لمن قام فيه الخطيئات، وأجاب فيه الدَّعوات، وقد تقدَّم في الحجِّ ذِكْرُ الخلاف فيه، وكذلك وقع له شرفُ أزواج النبيِّ ﷺ وعلوُّ مناصبهن، وعظيمُ حُرْمتهن، وأنَّ الذي يناسبُ حالهن: أن يحتجبن عن الأجانب؛ فإن اطلاعهم عليهن ابتذالٌ لهن، ونقصٌ من حرمة النبي ﷺ وحرمتهن، فقال للنبيِّ ﷺ: احجبْ نساءك، فإنَّهنَّ يراهنَّ البَرُّ والفاجِر. وقد استوفينا الكلامَ على هذا في النكاح. ووقع له أيضاً قَتْلُ أسارى بدرٍ، وأشار على النبيِّ ﷺ به، وأشار عليه أبو بكر بالإبقاء والفداء، فمال النبيُّ ﷺ إلى ما قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فأنزل اللَّهُ تعالى القرآنَ على نحو ما وقع لعمر ـ رضي الله عنه ـ في الأمور الثلاثة، فكان ذلك دليلاً قاطعاً على: أنه مُحدَّثٌ

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٨٢).

(٢) «المِحال»: الكيد والمكر.

(٣٧) بـــاب
فضائل عثمان ـ رضي الله عنه ـ

[٢٣١٢] عن عائشة، قالت: كان رسولُ الله ﷺ مضطجعاً في بَيْتي كاشفاً عن فَخِذَيه ـ أو ساقَيْه ـ وفي روايةٍ: وهو مُضطجِعٌ على فراشه لابسٌ مِرْطَ عائشة ـ فاستأذنَ أبو بكرٍ، فأذنَ له وهو على تلك الحال، فتحدَّث، ثم استأذن عمرُ، فأذنَ له، وهو كذلك، فتحدَّث، ثم استأذن عثمانُ، فجلس رسولُ الله ﷺ، وسوّى ثيابَهُ، فتحدَّث، فلمَّا خرج قالت عائشة:

بالحقِّ، مُلْهَم لوجه الصَّواب، وقد تقدَّم القولُ في الصلاة على عبد الله بن أبي، وفي قضية بدرٍ في الجهاد.

(٣٧) ومـن بــاب: فضائل عثمان ـ رضي الله عنه ـ

اسمه وكنيته ولقبه

وهو عثمان بن عفان بن أبي العاصي بن أميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيٍّ، يُكْنى أبا عمرو، وأبا عبد الله، وأبا ليلى بأولادٍ وُلِدوا له، وأشهر كناه: أبو عمرو، ولُقِّب بذي النُّورين؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ زوَّجه ابنتيه: رُقية، وأم كلثوم واحدة بعد أخرى، وقال ﷺ: «لو كانت عندي أخرى لزوَّجتها له»[١]. أسلم قديماً قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم، وهاجر إلى أرض الحبشة، وإلى المدينة، ولما خرج رسولُ الله ﷺ إلى بدر خلَّفه على ابنته رُقَيَّة يُمرِّضها، وضَرَبَ له رسولُ الله ﷺ بسهمه، وأجْره، فكان كمن شهدها، وقيل: كان هو في نفسه مريضاً بالجدري، وبايع عنه رسولُ الله ﷺ بيده في يده في بيعة الرضوان، وقال: «هذه لعثمان»[٢]، وكان النبيُّ ﷺ قد وجَّهه إلى أهل مكة ليكلِّمهم في أن يُخلُّوا بين

إسلامه وهجرته

---

(١) رواه ابن سعد في طبقاته (٨/٣٨)، والشجرة النبوية لابن عبد الهادي ص (٥٦).
(٢) رواه أحمد (٢/١٠١ و ١٢٠)، والبخاري (٣٦٩٨).

دخل أبو بكر فلم تهتشَّ له ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهتشَّ له ولم تُباله، ثم دخل عثمان فَجَلَسْتَ وسوَّيت ثيابك! فقال: «ألا أَسْتَحْيِيْ مِنْ رجلٍ تَسْتَحْيِيْ منه الملائكةُ».

وفي روايةٍ: فقالت عائشة: ما لي لم أرَكَ فَزِعْتَ لأبي بكرٍ وعمرَ كما فَزِعْتَ لعثمان؟! قال رسول الله ﷺ: «إنَّ عثمانَ رجلٌ حَيِيٌّ، وإنِّي خشيتُ إنْ أذنتُ له على تلك الحال ألا يَبْلُغ إليَّ في حاجته».

رواه أحمد (٦/ ١٥٥ و ١٦٧)، ومسلم (٢٤٠١ و ٢٤٠٢).

النبيِّ ﷺ وبين العُمرة، فأرجف بأنَّ قريشاً قتلته فبايع النبيِّ أصحابه بسبب ذلك. وفي بقاء النبيِّ ﷺ منكشف الفخذ حتى اطَّلع عليه أبو بكر وعمر دليلٌ على أنَّ الفخذَ ليس بعورة، وقد تقدَّم الكلام فيه، وفيه دليلٌ على جواز معاشرة كلِّ واحدٍ من الأصحاب بحسب حاله. ألَا ترى انبساطه، واسترساله مع العمرين على الحالة التي كان عليها مع أهله، لم يُغيِّر منها شيئاً، ثم إنَّه لما دخل عثمانُ ـ رضي الله عنه ـ غيَّر تلك التي كان عليها، فغطَّى فخذيه، وتهيَّأ له، ثم لمَّا سُئِل عن ذلك، قال: «إن عثمان رجلٌ حَيِيٌّ، وإنِّي خشيتُ إن أذنتُ له على تلك الحال ألّا يبلغ إليَّ في حاجته». وفي الرواية الأخرى: «ألَا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة»؟! أي: حياء التوقير والإجلال، وتلك منقبةٌ عظيمة، وخصوصيَّةٌ شريفة ليستْ لغيره، أعرض قتلةُ عثمان عنها، ولم يعرِّجوا عليها.

حُسْن معاشرته ﷺ لأصحابه

استحياؤه ﷺ من عثمان

و (قولها: دخل أبو بكر فلم تهتشَّ له، ولم تُباله) يُروى: تهتشّ بالتاء باثنتين من فوقها، ويروى بحذفها، وفتح الهاء، وهو من الهشاشة، وهي الخفَّةُ والاهتزازُ والنشاط عند لقاء مَن يفرح بلقائه. يقال: هشَّ وبشَّ، وتبشبش: كلُّها بمعنىً. ولم تباله: أي: لم تعتنِ بأمره، وأصله من البال، وهو الاحتفالُ بالشيء، والاعتناءُ به، والفكر فيه. يقول: جعلته من بالي وفكري، وهو المعبَّر عنه في الرواية الأخرى

[٢٣١٣] وعن أبي موسى الأشعريِّ: أنَّه توضَّأ في بيته ثُمَّ خرج. فقال: لألزمنَّ رسولَ الله ﷺ، ولأكونَنَّ معه يومي هذا. قال: فجاء المسْجِدَ، فسأل عن النَّبيِّ ﷺ فقالوا: خرج وجَّه ها هنا. قال: فخرجتُ على إثْرِهِ أسأل عنه؛ حتى دخل بئر أريس. قال: فجلستُ عند الباب ـ وبابُها مِنْ جَريدٍ ـ حتَّى قضى رسولُ الله ﷺ حاجتَهُ وتوضَّأ، فقمتُ إليه؛ فإذا هو قد جلسَ على بئرِ أريسٍ. وتوسَّط قُفَّها، وكَشَفَ عن ساقَيْهِ، ودلَّاهُما في البئر، قال: فسلَّمتُ عليه، ثُمَّ انصرفْتُ فجَلسْتُ عند الباب، فقلتُ: لأكونَنَّ بوّابَ رسولِ الله ﷺ اليومَ، فجاء أبو بكرٍ، فدفع الباب؛ فقلت: من هذا؟ فقال: أبو بكرٍ. فقلت: على رِسْلِكَ. قال: ثُمَّ ذهبتُ، فقلت: يا رسولَ الله! هذا أبو بكرٍ يستأذِنُ. فقال: «ائذَنْ له، وبشِّره بالجنة». قال: فأقبلتُ حتَّى قلتُ لأبي بكرٍ: ادْخُلْ؛ ورسولُ الله ﷺ يُبَشِّرُكَ

بقولها: لم أرك فزعتَ له، أي: لم تُقْبِلْ عليه، ولم تتفرغْ له.

و (قوله: خرج وجَّه ها هنا) الرواية المشهورة: وجَّه بفتح الجيم مشدَّدة على أنه فعل ماضٍ، وضبطه أبو بحرٍ: وجْه ـ بسكون الجيم ـ على أن يكون ظرفاً، والعاملُ فيه خرج، أي: خرج في هذه الجهة.

و (قوله: فإذا قد جلس على بئر أريس، وتوسَّط قُفَّها، وكَشَفَ عن ساقيه، ودلَّاهما في البئر) والقُفُّ ـ بضم القاف ـ: أصله: الغليظ من الأرض، قاله ابنُ دريد وغيره، وعلى هذا: القفّ: الذي يتمكن الجماعة أن يجلسوا عليه، ويدلوا أرجلهم في البئر، وهو جانبُهاالمرتفعُ عن الأرض، وكلُّ ما قيل فيه خلاف هذا فيه بُعْدٌ، ولا يناسبُ مساقَ الحديث.

و (قوله: على رِسلك) هو بكسر الراء، وهو المعروف، ويقال بفتحها، أي: اسكنْ وارفق، كما يقال: على هينتك.

بالجنّة! قال: فدخل أبو بكرٍ، فجلس عن يمين رسولِ الله ﷺ معه في القُفّ، ودلَّى رجليه في البئر؛ كما صَنَعَ النبي ﷺ، وكشف عن ساقيه. ثُمَّ رجعتُ فجلستُ، وقد تركت أخي يتوضأ ويَلْحقُني، فقلت: إنْ يردِ الله بفلانٍ ـ يُريد أخاهُ ـ خيراً يأتِ بهِ؛ فإذا إنسانٌ يُحرِّك البابَ. فقلتُ: من هذا؟ فقال: عمر بن الخطاب. فقلت: على رِسْلكَ، ثم جئتُ إلى رسول الله ﷺ فسلَّمْتُ عليه، وقلت: هذا عُمر يستأذنُ. فقال: «ائْذنْ له وبشِّره بالجنة». فجئتُ عمر، فقلت: أذِنَ، ويبَشرُكَ رسولُ الله ﷺ بالجنَّة! قال: فدخل، فجلس مع رسول الله ﷺ في القُفِّ عن يَسارِهِ، ودلَّى رِجْلَيه في البئر. ثم رجعتُ، فجلستُ، فقلتُ: إنْ يُردِ اللَّهُ بفلانٍ خيراً ـ يعني أخاه ـ يأتِ به، فجاء إنسانٌ، فحرَّك البابَ. فقلت: من هذا؟ فقال: عثمان ابنُ عفَّان. فقلت: على رِسْلِك. قال: وجئتُ النَّبيَّ ﷺ فأخبرته فقال: «ائذن له وبشِّره بالجنَّة؛ مع بلوى تُصِيبه». قال: فجئتُ، فقلت: ادخُل؛

و (قوله: فجلس وِجاهه) هو بكسر الواو، ويقال بضمها، أي: مقابله وقبالته، وهذا الحديثُ نصٌّ في أنَّ أبا بكر وعمر وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ في الجنة، وقد جاءت أحاديثُ كثيرةٌ صحيحةٌ وحسنة يفيدُ مجموعُها القطعُ بأنَّ الخلفاءَ الأربعةَ مقطوعٌ لهم بأنهم من أهل الجنة.

لخلفاء الأربعة من أهل الجنة

و (قوله: على بلوى تُصيبه) هذا من النَّبيِّ ﷺ إعلامٌ لعثمان ـ رضي الله عنه ـ بما يُصيبه من البلاء والمحنة في حال خِلافته، وقد جاء من الأخبار ما يدلُّ على تفصيل ما يجري عليه من القتل وغيره، فمن ذلك ما خرَّجه الترمذي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «يا عثمانُ! لعلَّ الله يقمِّصك قميصاً؛ فإن أرادوك على خَلْعه فلا تخلعْه لهم»[1]. وقال: حديثٌ حسنٌ غريب. وفيه عن

إخباره ﷺ بما يصيب عثمان من بلاء

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٠٥).

ويُبشركَ رسولُ الله ﷺ بالجنة، مع بلوى تُصيبُكَ! ـ وفي روايةٍ: فقال:

ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: ذكر رسولُ الله ﷺ فتنةً، فقال: «يُقتل فيها مظلوماً» لعثمان ـ رضي الله عنه ـ وقال: حديث حسن غريب(١). وروى أبو عمر ابن عبد البرِّ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «ادعوا لي بعضَ أصحابي» فقلت: أبو بكر؟ فقال: «لا»، فقلت: فعمر؟ فقال: «لا»، قالت: قلت: ابن عمك عليّاً؟ فقال: «لا»، فقلتُ له: عثمان؟ فقال: «نعم»، فلما جاءه، فقال لي بيده، فتنحَّيت، فجعل رسولُ الله ﷺ يُسَارُّه، ولونُ عثمانَ يتغيَّر، فلما كان يومُ الدار وحُصِر قيل له: أَلَا نقاتل عنك؟ قال: لا، إنَّ رسولَ الله ﷺ عهد إليَّ عهداً وأنا صابرٌ عليه(٢). فهذه الأحاديثُ وغيرها مما يطولُ تتبُّعه: تدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ أخبره بتفصيل ما جرى عليه، وأنه سلَّم نفسَه لما علم من أنَّ ذلك قَدَرٌ سَبَق وقضاءٌ وَجَب، ولذلك مَنَع كلَّ مَن أراد القتالَ دُونه، والدفع عنه ـ ممَّن كان معه في الدار، وفي المدينة ـ من نصرته. وتفصيل كيفية قتله، وما جرى لهم معه مذكورٌ في التواريخ. وجملة الأمر أن قوماً من أهل مصر وغيرهم غَلَبَ عليهم الجهلُ، والهوى، والتعصُّب، فنقموا عليه أموراً أكثرها كذب، وسائرها له فيها أوجهٌ من المعاذير، وليس فيها شيءٌ يُوجب خَلْعَه، ولا قَتْلَه، فتحزَّبوا، واجتمعوا بالمدينة، وحاصروه في داره، فقيل: شهران، وقيل: تسعة وأربعون يوماً، وهو في كلِّ ذلك يعظهم، ويذكِّرهم بحقوقه، ويتنصَّل ممَّا نسبوه إليه، ويعتذرُ منه، ويصرِّح بالتوبة، ويحتجُّ عليهم بحجج صحيحة لا مخلص لهم عنها، ولا جوابَ عليها، لكن أعمتهم الأهواءُ ليغلبَ القضاء، فدخلوا عليه وقتلوه مظلوماً كما شهد له النبيُّ ﷺ وجماعةُ أهل السنَّة، وألقي على مزبلة، فأقام فيها ثلاثة أيام لم يقدرْ أحدٌ على دفنه حتى جاء جماعةٌ بالليل خفية، وحملوه على لوحٍ، وصلَّوا عليه،

فتنة عثمان

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٠٨).

(٢) رواه أحمد (١/٥٨ و ٦٩)، والترمذي (٣٧١١)، وابن ماجه (١١٣).

اللَّهمَّ صَبْراً والله المستعان! ـ قال: فدخل فَوَجَد القفَّ قَد مُلِيءَ، ....

وَدُفِن في موضع من البقيع يُسمَّى: (حوش كوكب)، وكان مما حبَّسه هو، وزاده في البقيع، وكان إذا مرَّ فيه يقول: يُدفن فيك رجلٌ صالحٌ، فكان هو المدفونُ فيه، وعُمِّي قبرُه لئلا يُعْرَف، وقد نَسَب أهلُ الشام قتله إلى عليٍّ ـ رضي الله عنهما ـ وهي نسبةُ كذبٍ وباطلٍ، فقد صحَّ عنه: أنه كان في المسجد، وقت دُخِل عليه في الدار، ولما بلغه ذلك قال لقتلته: تباً لكم آخر الدهر، ثم إنَّه قد تبرأ من ذلك، وأقسم عليه، وقال: من تبرأ من دين عثمان، فقد تبرأ من الإيمان، والله ما أعنتُ على قتله، ولا أمرت، ولا رضيتُ. لكنَّه لم يقدرْ على المدافعة بنفسه. وقد كان عثمانُ مَنَعَهُمْ من ذلك. وكان مقتلُ عثمان في أوسط أيام التشريق على ما قاله أبو عثمان النهدي. قال ابنُ إسحاق: على رأس إحدى عشرة سنة، وأحد عشر شهراً، واثنين وعشرين يوماً من مقتل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ وعلى رأس خمس وعشرين سنة من متوفى رسول الله ﷺ. وقال الواقديُّ: قُتِل يوم الجمعة لثمان ليالٍ خلت من ذي الحجة؛ يوم التروية سنة خمس وثلاثين، وقيل: لليلتين بقيتا من ذي الحجة. قال ابنُ إسحاق: وبُويع له بالخلافة يوم السبت غرَّة محرم سنة أربع وعشرين؛ بعد دَفْن عمر بثلاثة أيام، فكانت خلافتُه إحدى عشرةَ سنة إلا أياماً اختلف فيها على ما بيَّنّاه. وقد كان انتهى من الفَضْل، والعلم، والعبادة إلى الغاية القصوى، كان يصومُ الدهر، ويقومُ الليلَ يقرأُ القرآن كلَّه في ركعة الوتر! وروى الترمذيُّ[1] عن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: كنَّا نقولُ ورسولُ الله ﷺ حيٌّ: أبو بكر وعمر وعثمان، وقال فيه: حديث صحيح حسن، وقد شهد له رسولُ الله ﷺ بأنه شهيد، ومِن أهل الجنة، وقَتَلَتُه مُخْطِئون قطعاً، وقد قَدِمُوا على ما قدموا عليه.

موقف علي من قتل عثمان

فضل عثمان وعِلْمه وعبادته

و (قول عثمان: اللهم صبراً والله المستعان) أي: اللهم صبِّرني صبراً، وأعنِّي

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٠٧).

فجلس وُجاهَهُمْ من الشقِّ الآخر.

قال شَريكٌ: فقال سعيد بن المسيب: فأولتها قُبُورَهُم.

رواه أحمد (٤/ ٣٩٣ و ٤٠٦ ـ ٤٠٧)، والبخاريُّ (٣٦٩٣ و ٣٦٩٥ و ٦٢١٦)، ومسلم (٢٤٠٣) (٢٨ و ٢٩)، والترمذيُّ (٣٧١٠).

* * *

(٣٨) بـــاب
فضائل عليِّ بنِ أبي طالبٍ ـ رضي الله عنه ـ

[٢٣١٤] عن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ لِعَليٍّ: «أنت منِّي بمنزلةِ هارونَ مِنْ موسى؛ إلا أنَّه: لا نبيَّ بَعْدِي».

على ما قدَّرتَ عليَّ، فيه: استسلامٌ لأمر الله تعالى، ورضـا بما قدَّره الله تعالى.

و (قوله: فجلس وجاههم من الشقِّ الآخر) الشق: الجانب. يعني: أنه جلس في مقابلة النبيِّ ﷺ وأبي بكر وعمر.

و (قول سعيد: فأوَّلت ذلك قُبُورَهُم) هذا من سعيد من باب الفراسة، ومن باب ما يقعُ في قلوب المحدَّثين الذين قدَّمنا ذِكْرَهُم لا من باب تأويل الرؤيا إذ كان ذلك في اليقظة، وذلك أنه لما حدَّث بكيفية جلوس الثلاثة في جهة واحدة من القُفِّ، وعثمان في مُقابلتهم وقع في قلبه: أن ذلك كان إشعاراً بكيفيَّة دفنهم، كما كان. واللَّهُ تعالى أعلم.

(٣٨) ومن بـــاب: فضائل عليٍّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ

اسمه ونسبه وكنيته

هو عليُّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عمِّ رسول الله ﷺ ويكنى: أبا الحسن، واسم أبي طالب: عبد مناف، وقيل: اسمه كنيته، واسم

رواه أحمد (١/ ١٨٥)، والبخاريُّ (٣٧٠٦)، ومسلم (٢٤٠٤) (٣٠)، والترمذيُّ (٣٧٢٤).

هاشم عمرو، وسمِّي هاشماً؛ لأنه أوَّل من هشم الثريد، وأمُّ عليٍّ فاطمةُ بنت أسد ابن هاشم، وهي أوَّل هاشمية ولدت لهاشمي، توفيت مُسْلِمةً قبل الهجرة، وقيل: إنها هاجرت، وكان علي أصغر ولد أبي طالب، كان أصغر من جعفر بعشر سنين، وكان جعفر أصغر من عقيل بعشر سنين. وكان عقيل أصغر من طالب بعشر سنين.

أول من أسلم من الرجال

وروي عن سلمان وأبي ذر والمقداد وخباب وجابر وأبي سعيد الخدري وزيد بن أرقم أن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أول من أسلم ـ يعنون من الرجال ـ وإلا فقد اتفق الجمهور على أن أول من أسلم وأطاع النبيَّ ﷺ خديجة بنت خويلد، وقد تقدَّم مَن قال: إنَّ أولَ من أسلم أبو بكر ـ رضي الله عنهم ـ.

أول من يرد الحوض: عليٌّ

وقد روى أبو عمر بن عبد البرِّ عن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «أوَّلُكم وارداً على الحوض أولكم إسلاماً: علي بن أبي طالب»[1]. قيل: أسلم وهو ابنُ سبع سنين، وقيل: ابن ثمان. وقيل: ابن عشرٍ، وقيل: ابن ثلاث عشرة. وقيل: ابن خمس عشرة. وقيل: ابن ثمان عشرة. وروى سلمة بن كهيل عن حبة بن جوين العرني قال: سمعتُ علياً ـ رضي الله عنه ـ يقول:

عليٌّ أول من صلى مع رسول الله

أنا أوَّل مَن صلَّى مع رسول الله ﷺ، ولقد عبدتُ الله قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأمة خمس سنين. وروي عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: مكثتُ مع رسول الله كذا وكذا، لا يصلي معه أحدٌ غيري إلا خديجة، وأجمعوا: على أنه ـ رضي الله عنه ـ صلى إلى القبلتين، وأنه شهد بدراً وأُحُداً، ومشاهدَ رسول الله ﷺ كلها، إلا غزوة تبوك، فإن النبيَّ ﷺ أَمَره أن يتخلَّفَ في أهله، وقال له: «أَمَا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى»؟ وزوَّجه رسولُ الله ﷺ سيِّدةَ نساء أهل الجنة

مشاهده مع رسول الله

زواجه بفاطمة -

---

(١) ذكره صاحب تنزيه الشريعة (١/ ٣٧٧)، واللآلىء (١/ ١٦٩)، والموضوعات (١/ ٣٤٧). وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح.

. . . .

فاطمة، وآخى بينه وبينه، وقال ﷺ: «لا يحبُّه إلا مؤمنٌ، ولا يبغِضُه إلا منافقٌ»[١]. وقال فيه النبيُّ ﷺ: «إنَّه يحبُّه الله ورسوله، وإنَّه يحبُّ الله ورسوله».

ما خُصَّ به علي رضي الله عنه

وكان ـ رضي الله عنه ـ قد خُصَّ من العلم، والشَّجاعة، والحلم، والزُّهد، والورع، ومكارم الأخلاق ما لا يسعه كتابٌ، ولا يحويه حصر حسابٍ. بويع له بالخلافة يوم مقتل عثمان، واجتمع على بيعته أهلُ الحلِّ والعقد من المهاجرين والأنصار؛ إلا نفراً منهم، فلم يكرههم، وسُئِل عنهم فقال: أولئك قومٌ خذلوا الحقَّ، ولم يعضدوا الباطل. وتخلَّف عن بيعته معاوية ومَن معه من أهل الشام، وجرتْ عند ذلك خُطُوبٌ لا يمكن حَصْرُها، والتحمت حروبٌ لم يُسْمَعْ في المسلمين بمثلها، ولم تزلْ ألويته[٢] منصورةً عاليةً على الفئة الباغية إلى أن جرتْ قضيةُ التحكيم، وخدع فيها ذو القلب السَّليم، وحينئذٍ خرجتِ الخوارج، فكفَّروه وكُلَّ مَنْ معه، وقالوا: حكَّمتَ الرجالَ في دِيْنِ الله، والله تعالى يقول: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام: ٥٧]، ثم اجتمعوا وشقُّوا عصا المسلمين، ونصبوا راية الخلاف، وسفكوا الدِّماء، وقطعوا السبيل، فخرج إليهم عليٌّ بمن معه، ورام رجوعَهم فأبوا إلا القتال، فقاتلهم بالنَّهروان، فقتلهم واستأصل جميعهم، ولم ينجُ منهم إلا اليسير، وقد تقدَّم قولُه ﷺ: «يقتلهم أولى الطائفتين بالحقِّ»[٣]. ثم انتدب إليه رجلٌ من بقايا الخوارج يقال له: عبد الرحمن بن ملجم. قال الزُّبيري: كان من حمير فأصاب دماءً فيهم؛ فلجأ إلى مُرادٍ؛ فنسب إليهم، فدخل (على عليٍّ)[٤] في

(مباحث الهامش: مبايعة عليّ بالخلافة — موقف الخوارج من عليّ — مقتل عليّ رضي الله عنه)

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخه (٤/ ١٣١) باللفظ المذكور. ورواه الترمذي (٣٧٣٦)، والنسائي (٨/ ١١٦) بلفظ: «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق».

(٢) في (م ٤): فتنته.

(٣) رواه مسلم (١٠٦٤) (١٤٩).

(٤) في (ز) و (م ٣): عليه.

. . . .

مسجده بالكوفة. فقتله ليلة الجمعة [وقيل: في صلاة صبحها][١]، وقيل: لإحدى عشرة ليلةً خلتْ من رمضان. [وقيل: لثلاث عشرة. وقيل: لثمان عشرة. وقيل: في أوَّل ليلةٍ من العشر الآخر من رمضان][٢] سنة أربعين. واختلف في موضع قبره اختلافاً كثيراً يدلُّ على عدم العلم به، وأنَّه مجهولٌ. وكذلك اختلف في سنِّه يوم قُتِل. فقيل: ابن سبع وخمسين إلى خمس وستين سنة. وكانت مُدَّةُ خلافته أربع سنين وستَّة أشهر، وستَّةُ أيام. وقيل: ثلاثة. وقيل: أربعة عشر يوماً. فأُخِذ عبدُ الرحمن بن ملجم، فقُتِل أشقى هذه الأمة. وكان عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ إذا رآه يقول:

مدة خلافة عليّ

أريـدُ حَيَـاتَـهُ ويُـرِيـدُ قَتْلِـي عَـذِيـرَكَ مِـنْ خَلِيْلِـكَ مِـنْ مُـرادِ[٣]

وكان يقولُ: ما يمنع أشقاها، أو: ما ينتظر أشقاها أن يخضبَ هذه من هذا، واللَّهِ ليخضبنَّ هذه من دم هذا ـ ويشيرُ إلى لحيته ورأسه ـ خضاب دمٍ، لا خضاب حنَّاء ولا عبير.

وقد روى النَّسائيُّ وغيره من حديث عمَّار بن ياسر ـ رضي الله عنهما ـ عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه قال لعليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: «أشقى الناس الذي عَقَر النَّاقة، والذي يضربك على هذا ووضع يده على رأسه ـ حتى يخضِّب هذه ـ»[٤]. يعني: لحيته.

جملة ما روى عليّ من الأحاديث النبوية

وتأخر موته ـ رضي الله عنه، ولا رضي عن قاتله ـ عن ضَرْبه نحو الثَّلاثة الأيام. جملةُ ما حفظ له عن رسول الله ﷺ خمسمئة حديثٍ وسبعةٌ وثلاثون حديثاً،

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة في (ع) و (م ٤).

(٢) ما بين حاصرتين سقط من (ع).

(٣) البيت لعمرو بن معدي كرب. ورُوي أيضاً: أريد حِباءه. (الطبري ٣/ ٣٦٥).

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٥٣١)، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه والبغوي وأبو نعيم في الدلائل.

[٢٣١٥] وعنه، قال: أمر معاويةُ بنُ أبي سفيانَ سَعْداً فقال: ما منعك أن تسبَّ أبا التُّراب؟! فقال: أمَّا ما ذَكَرْتُ ثلاثاً قالهنَّ له رسول الله ﷺ فلن أَسُبَّهُ، لأن تكون لي واحدةٌ مِنهنَّ أَحَبُّ إليَّ من حُمْرِ النَّعَم، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لَهُ، ـ وخَلَّفه في بعض مَغَازيه، فقال له عليٌّ: يا رسول الله! خلَّفتني مع النساء والصبيان؟ ـ فقال له رسول الله ﷺ:

مثل أحاديث عمر ـ رضي الله عنهما ـ أخرج له منها في الصحيحين أربعة وأربعون حديثاً.

براءة عليّ من قتل عثمان

و (قول معاوية لسعد بن أبي وقاص: ما منعك أن تسبَّ أبا ترابٍ) يدل: على أنَّ مقدم بني أميَّة كانوا يسبُّون عليّاً وينتقصونه، وذلك كان منهم لما وقر في أنفسهم من أنَّه أعان على قَتْل عثمان، وأنَّه أسلمه لمن قتله، بناءً منهم على أنَّه كان بالمدينة، وأنَّه كان متمكناً من نُصرته. وكلُّ ذلك ظنٌّ كذبٌ، وتأويلٌ باطلٌ غطَّى التعصُّبُ منه وَجْهَ الصَّواب. وقد قدمنا: أنَّ عليّاً ـ رضي الله عنه ـ أقسم بالله: أنَّه ما قتله، ولا مالأ على قتله، ولا رَضِيَهُ. ولم يقلْ أحدٌ من النَّقلة[1] قطُّ، ولا سُمع من أحد: أنَّ عليّاً كان مع القتلة، ولا أنَّه دَخَلَ معهم الدَّار عليه. وأمَّا تَرْكُ نصرته؛ فعثمان ـ رضي الله عنه ـ أسلم نفسه، ومَنَع من نُصرته، كما ذكرناه في بابه. وممَّا تشبَّثوا به: أنَّهم نسبوا عليّاً إلى ترك أخذ القصاص من قتلة عثمان، وإلى أنَّه منعهم منهم، وأنّه قام دونهم. وكلُّ ذلك أقوالٌ كاذبةٌ أنتجتْ ظنوناً غيرَ صائبةٍ، ترتَّب عليها ذلك البلاء كما سبق به القضاء.

استخلاف علي على المدينة

و (قوله: في بعض مغازيه) قد قلنا: إنَّها كانت غزوة تبوك خلَّفه النبيُّ ﷺ في أهله، واستخلفه على المدينة، فيما قيل. ولمَّا صعب على عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ تخلُّفه عن رسول الله ﷺ وشقَّ عليه، سكَّنه النبيُّ ﷺ وآنسه بقوله: «أَمَا ترضى أن

---

(١) في (م ٤): أهل العلم.

. . . .

تكون منِّي بمنزلة هارون من موسى؟» وذلك: أنَّ موسى ـ عليه السلام ـ لما عزم على الذهاب لِما وعده اللَّهُ به من المناجاة قال لهارون: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وقد استدلَّ بهذا الحديث الرَّوافض، والإمامية، وسائر فرق الشِّيعة: على أنَّ النبيَّ ﷺ استخلف علياً ـ رضي الله عنه ـ على جميع الأمَّة. فأمَّا الرَّوافضُ فقد كفَّروا الصَّحابة كلَّهم؛ لأنَّهم عندهم تركوا العملَ بالحقِّ الذي هو النَّصُّ على استخلاف عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ واستخلفوا غيره بالاجتهاد. ومنهم مَن كفَّر علياً ـ رضي الله عنه ـ لأنَّه لم يطلب[1] حقَّه. وهؤلاء لا يشكُّ في كفرهم؛ لأنَّ من كفَّر الأمَّةَ كلَّها والصَّدْرَ الأول؛ فقد أبطل نَقْلَ الشريعة، وهَدَم الإسلام. وأمَّا غيرهم من الفرق فلم يرتكبْ أحدٌ منهم هذه المقالةَ الشَّنعاء القبيحة القصعاء[2]، ومن ارتكبها منهم ألحقناه بمن تقدَّم في التكفير ومأواه جهنَّم وبئس المصير، وعلى الجملة فلا حُجَّة لأحدٍ منهم في هذا الحديث، فإنَّ النبي ﷺ إنما استنابه في أمرٍ خاصٍّ وفي وقتٍ خاصٍّ، كما استناب موسى هارون ـ عليهما السلام ـ في وقتٍ خاصٍّ، فلما رجع موسى ـ عليه السلام ـ من مناجاته، عاد هارون إلى أول حالاته، على أنه قد كان هارون شُرك مع موسى في أصل الرِّسالة، فلا تكون لهم فيما راموه[3] دلالةٌ. وغايةُ هذا الحديث أن يدلَّ على أنَّ النبيَّ ﷺ إنَّما استخلف علياً ـ رضي الله عنه ـ على المدينة فقط، فلمَّا رجع النبيُّ ﷺ من تبوك قعد مقعده، وعاد عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ إلى ما كان عليه قبل. وهذا كما استخلف رسولُ الله ﷺ على المدينة ابنَ أمِّ مكتومٍ وغيرَه، ولا يلزمُ من ذلك استخلافه دائماً بالاتفاق.

---

(١) في (م ٤): يقم بطلب.

(٢) في (م ٤): الغضَّاء.

(٣) في (م ٤): فلا يكون لهم فيه على ما راموه.

«أَمَا ترضَى أَنْ تكون مِنِّي بمنزلة هارون من موسى، إلا أنَّه لا نُبُوَّة بعدي». وسمعتُهُ يقول يوم خيبر: «لأُعْطِينَّ الرايةَ رجُلاً يُحبُّ الله ورسولَهُ، ويحبُّه اللَّهُ ورسولُهُ». قال: فتطاولنا لها فقال: «ادعوا لي عليّاً» فأُتيَ به أرمَدَ، فبَصَقَ في عينيه، ودَفَعَ الراية إليه، ففتح الله عليه. ولما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ . . .﴾ [آل عمران: ٦١] دعا رسولُ الله ﷺ عَليّاً، وفاطمة، وحَسَناً، وحُسَيناً فقال: «اللهمَّ! هؤلاء أهلي».

رواه أحمد (١/ ١٨٢)، والبخاريُّ (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤) (٣٢).

[٢٣١٦] وعن سهلِ بن سعدٍ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال يوم خيبرَ: «لأُعطِيَنَّ هذه الرايةَ رجلاً يفتحُ الله على يديه يُحبُّ الله ورسوله، ويحبُّه اللَّهُ

ما ادّعاه غُلاة الرافضة في عليّ

و (قوله: «غير أنَّه لا نبيَّ بعدي») إنَّما قاله النبيُّ ﷺ تحذيراً ممَّا وقعتْ فيه طائفةٌ من غُلاة الرَّافضة؛ فإنهم قالوا: إنَّ علياً نبيٌّ يوحَى إليه. وقد تناهى بعضُهم في الغلوِّ إلى أن صار في عليٍّ إلى ما صارت إليه النصارى في المسيح، فقالوا: إنَّه الإله. وقد حرق عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ مَن قال ذلك، فافتتن بذلك جماعةٌ منهم، وزادهم ضلالاً، وقالوا: الآن تحقَّقنا: أنَّه الله؛ لأنَّه لا يُعذِّب بالنَّار إلا الله. وهذه كلُّها أقوالُ عوامَّ، جُهَّالٍ، سُخفاء العقول، لا يُبالي أحدُهم بما يقول، فلا ينفعُ معهم البرهان، لكن السَّيف والسِّنان.

من دلائل نبوته ﷺ

و (قوله: «لأُعْطِيَنَّ الرَّايةَ رجلاً يفتحُ اللَّهُ على يديه، يحبُّ اللَّهَ ورسوله») الكلامُ إلى آخره فيه دليلان على صحة نبوَّة نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ وهي: إخبارُه عن فتح خيبر، ووقوعه على نحو ما أخبر. وبرء رمد عين عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ على[1]

---

(١) ليست في (م ٤).

ورَسُولُه». قال: فبات النَّاس يدوكون ليلتهم أيُّهمْ يُعْطاها. فلما أصبح الناس غَدَوْا على رسول الله ﷺ كُلُّهُمْ يرجون أن يُعْطاها. فقال: «أين عليُّ بنُ أبي طالبٍ؟» فقالوا: هو، يا رسول الله! يشتكي عينيه! قال: «فأرسلوا إليه». فأُتيَ به، فبَصَقَ رسولُ الله ﷺ في عينيه، ودعا له، فبرأ حتى كأنْ لم يكُن به وَجَعٌ، فأعطاه الراية، فقال عليٌّ: يا رسول الله! أُقاتِلُهُمْ حتى يكونوا مِثْلَنا؟! قال: «انفُذْ على رِسْلِكَ، حتى تنزلَ بسَاحتهم، ....

فور دعاء النبيِّ ﷺ. وفي غير كتاب مسلمٍ: أنَّه ﷺ مسح على عيني عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ ورقاه. وفيه مِن الفِقْه: جواز المدح بالحقِّ إذا لم تخش على الممدوح فتنةً. وقد تقدَّم القولُ في محبَّة الله. وفيه ما يدلُّ: على أنَّ الأولى بدفع الرَّاية إليه من اجتمع له الرئاسة، والشجاعة، وكمال العقل.

و (قوله: فبات النَّاس يدوكون ليلتهم أيُّهم يُعْطاها) أي: يتفاوضون بحيث اختلطت أقوالهم[1] فيمن يعطاها. يقال: بات القوم يدوكون دوكاً. أي: في اختلاطٍ ودورانٍ، ووقعوا في دوكة ـ بفتح الدَّال وضمها ـ وإنما فعلوا ذلك حرصاً على نيل هذه الرُّتبة الشَّريفة، والمنزلة الرَّفيعة؛ التي لا شيء أشرف منها.

و (قول عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟) معناه: حتى يدخلوا في ديننا فيصيروا مثلنا فيه.

و (قوله: «انفذ على رسلك حتى تنزلَ بساحتهم») أي: امض لوجهك مُترفِّقاً مُتثبِّتاً. وقد جاء مفسَّراً في روايةٍ أخرى قال فيه: «امش ولا تلتفت» وقد تقدَّم القولُ في «رِسْلك». والسَّاحة: الناحية.

---

(١) في (م ٣) و (ز): أحوالهم.

ثُمَّ ادعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حقِّ الله فيه، فوالله! لأن يَهْدي اللَّهُ بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم».

رواه أحمد (٥/ ٣٣٣)، والبخاريُّ (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦)، وأبو داود (٣٦٦١).

و (قوله: «ثمَّ ادْعُهم إلى الإسلام، وأعلمهم[١] بما يجبُ عليهم من حقِّ الله فيه») هذه الدَّعوة قبل القتال؛ التي تقدَّم القولُ فيها في الجهاد، وقد فسَّرها في الرواية الأخرى في الأمِّ قال: فصرخ عليٌّ: يا رسول الله! على ماذا أقاتلُ النَّاس؟ قال: «قاتِلْهم حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله، وأنَّ محمَّداً رسول الله، فإذا فعلوا فقد منعوا منا دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها، وحسابُهم على الله» فهذا هو حقُّ الله المذكور في الرواية المتقدِّمة.

الحضّ على تعليم العلم

و (قوله: «فوالله لأن يهدي اللَّهُ بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مِن حُمْرِ النَّعم») حضٌّ عظيمٌ على تعليم العلم وبثِّه في الناس، وعلى الوعظ والتذكير بالدار الآخرة والخير، وهذا كما قال ﷺ في الحديث الآخر: «إن اللَّهَ وملائكته يصلُّون على معلِّمي الناس الخير»[٢]. والهداية: الدَّلالة والإرشاد. والنَّعم: هي الإبلُ، وحُمْرُها هي خيارها حُسْناً وقوة ونَفاسةً؛ لأنها أفضلُ عند العرب، ويعني به ـ والله أعلم ـ أن ثوابَ تعليم رجلٍ واحدٍ، وإرشاده للخير أعظمُ من ثواب هذه الإبل النَّفيسة لو كانت لك فتصدَّقت بها؛ لأن ثوابَ تلك الصَّدقة ينقطعُ بموتها، وثواب العلم والهدى لا ينقطعُ إلى يوم القيامة، كما قال ﷺ: «إذا مات الإنسانُ انقطع عملُه إلا من ثلاثة»، فذكر منها: «علم ينتفع به»[٣]. وفي نوم عليٍّ ـ رضي الله

حُكم النوم في المسجد

---

(١) في صحيح مسلم والتلخيص: وأخبرهم.

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٢٤): رواه الطبراني في الكبير، وفيه القاسم أبو عبد الرحمن، وثقه البخاري، وضعَّفه أحمد.

(٣) رواه أحمد (٢/ ٣٧٢)، ومسلم (١٦٣١)، والترمذي (١٣٧٦)، والنسائي (٦/ ٢٥١).

[٢٣١٧] وعنه، قال: استُعْمِلَ على المدينةِ رجُلٌ من آل مَرْوانَ. قال: فَدَعا سهلَ بنَ سعدٍ، فأمَرَه أن يَشْتِمَ علياً، قال: فأبى سهلٌ، فقال له: أما إذْ أبَيْتَ فقل: لعن الله أبا التُّراب! فقال سهلٌ: ما كان لعليٍّ اسمٌ أحبُّ إليه من أبي التُّراب، وإنْ كان ليفرَحُ إذا دُعي بها. فقال له: أخبرنا

عنه ـ في المسجد، وإقرار النبيِّ ﷺ له على ذلك: دليلٌ على جواز ذلك للمتأهِّل الذي له منزل، وبه قال بعضُ أهلِ العلم، وكرهه مالك من غير ضرورة، وأجازه للغرباء؛ لأنهم في حاجة وضرورة، وقد تقدَّم ذلك في كتاب الصلاة. ومَسْحُ النبيِّ ﷺ جَنْبَ عليٍّ من التراب، وهو يقول: «قم أبا التراب، قم أبا التراب» دليلٌ على محبته له، وشفقته عليه، ولُطْفه به، ولذلك كان ذلك الاسم أحبَّ إلى عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ من كلِّ ما يُدْعى به، فيا عجباً من بني أمية كيف صيَّروا الفضائل رذائل، والمناقب معايب، لكن غلبة الأهواء تعوّض الظُّلمة من الضِّياء، وقد ذكر أبو عمر بن عبد البرّ بإسناده إلى ضرار الصُّدَائي: وقال له معاوية: صفْ لي علياً، فقال: اعفني يا أمير المؤمنين! قال: صفه. قال: أمَا إذ ولا بُدَّ من وصفه، فكان ـ والله ـ بعيدَ المدى، شديدَ القُوى، يقول فَصْلاً، ويحكم عدلاً، يتفجَّر العلمُ من جوانبه، وتنطقُ الحكمةُ من نواحيه، يستوحشُ من الدنيا وزهرتها، ويأنس من الليل ووحشته، وكان غزير الدَّمعة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطَّعام ما خشن، كان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، ويفتينا إذا استفتيناه، ونحن ـ والله ـ مع تقريبه إيانا، وقُرْبه منا لا نكاد نكلمه هيبةً له، يعظِّمُ أهل الدِّين، ويُقرِّب المساكين، لا يطمعُ القويُّ في باطله، ولا ييْأسُ الضَّعيف من عدله، وأشهدُ لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليلُ سدولَهُ، وغارتْ نجومُه، قابضاً على لحيته يتملل تململ السَّليم[1]، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا غرِّي غيري،

محبته ﷺ لعليّ

وصف ضرار الصدائي لعليّ

---

(١) «السليم»: اللديغ، والجريح الذي أشرف على الهلاك، كأنهم يتفاءلون له بالسلامة.

عن قِصَّته، لِـمَ سُمِّي أبا تُراب؟! قال: جاء رسولُ الله ﷺ بيت فاطمة، فلم يجد علياً في البيت، فقال: «أين ابن عمِّكِ؟» فقالت: كان بيني وبينه شيءٌ، فَغاضَبَنِي، فخرج، فلم يَقِلْ عِنْدِي! فقال رسول الله ﷺ لإنسان: «انظر أين هو؟» فجاء، فقال: يا رسول الله! هو في المسجد راقدٌ. فجاءه رسول الله ﷺ وهو مُضطجِعٌ. قد سَقَط رداءُه عن شِقِّهِ. فأَصَابَهُ تُرابٌ. فجعل رسولُ الله ﷺ يَمْسَحُهُ عنه ويقول: «قُمْ أبا التُّرابِ! قم أبا التُّرابِ».

رواه البخاريُّ (٦٢٨٠)، ومسلم (٢٤٠٩).

* * *

ألي تعرَّضتِ؟ أم إليَّ تشوَّفْتِ، هيهات هيهات! قد بتتُّكِ ثلاثاً لا رجعةَ فيها، فعمرُكِ قصير، وخَطَرُكِ قليل، آهٍ من قلَّة الزاد، وبُعْد السفر، ووحشة الطريق! فبكى معاوية، وقال: رحم الله أبا حسن! كان والله كذلك، كيف حُزْنُك عليه يا ضرار؟ قال: حزن من ذُبح واحدُها في حجرها.

اعتراف معاوية بفضل علي

قلــتُ: وهذا الحديثُ: يدلُّ على معرفة معاوية بفضل عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ ومنزلته، وعظيم حقِّه، ومكانته، وعند ذلك يبعد على معاوية أن يُصرِّح بلعنه وسبِّه؛ لما كان معاوية موصوفاً به من الفضل والدِّين، والحلم، وكرم الأخلاق، وما يُروى عنه من ذلك فأكثره كذبٌ لا يصحّ. وأصحُّ ما فيها قوله لسعد بن أبي وقاص: ما يمنعك أن تسبَّ أبا التراب؟ وهذا ليس بتصريح بالسَّبِّ، وإنما هو سؤال عن سبب امتناعه ليستخرج من عنده من ذلك، أو من نقيضه، كما قد ظهر من جوابه، ولما سمع ذلك معاوية سكت، وأذعن، وعرف الحقَّ لمستحقه، ولو سلَّمنا: أنَّ ذلك من معاوية حمل على السَّب، فإنه يحتملُ أن يكون طلب منه أن يسبَّه بتقصير في اجتهاد، في إسلام عثمان لقاتليه، أو في إقدامه على الحرب والقتال للمسلمين، وما أشبه ذلك مما يمكن أن يقصر بمثله من أهل الفضل، وأما

(٣٩) بـــاب
فضائل سعدِ بن أبي وقَّاصٍ

[٢٣١٨] عن عائشةَ، قالت: سَهِرَ رسولُ الله ﷺ مَقْدَمَهُ المدينةَ ليلةً؛ فقال: «لَيْتَ رجلاً صالحاً مِنْ أصحابي يحرُسُني الليلة!». قالت:

التصريحُ باللَّعن، وركيك القول، كما قد اقتحمه جهَّالُ بني أمية وسفلتهم، فحاش معاوية منه، ومن كان على مثل حاله من الصحبة، والدِّين، والفضل، والحلم، والعلم، والله تعالى أعلم.

(٣٩) ومن بـــاب: فضائل سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ

اسمه ونسبه وكنيته

واسمه: مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرَّة، يكنى: أبا إسحاق، أسلم قديماً، وهو ابنُ سبع عشرة سنة، وقال: مكثتُ ثلاثة أيام، وأنا ثلثُ الإسلام، وقال: أنا أول من رمى بسهم في سبيل الله، شهد المشاهدَ كلها مع رسول الله ﷺ وولِّي الولايات العظيمة من قبل عمر وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ. وهو أحدُ أصحاب الشُّورى، وأحدُ المشهود لهم بالجنة. توفي في قصره بالعقيق على عشرة أميال من المدينة، وصلَّى عليه مروان بن الحكم، ومروان إذ ذاك والي المدينة، ثم صلى عليه أزواجُ النبيِّ ﷺ ودُخِل بجنازته في المسجد، فصلَّين عليه في حجرهنَّ، وكُفِّن في جبة صوفٍ، لقي المشركين فيها يوم بدرٍ، فوصَّى أن يُكفَّن فيها، ودُفِن بالبقيع سنة خمس وخمسين، ويقال سنة خمسين، وهو ابنُ بضع وسبعين سنة، ويقال: ابن اثنين وثمانين، ورُوي عنه من الحديث مئتان وسبعون، أُخرج له منها في الصَّحيحين ثمانية وثلاثون.

أول من رمى بسهم في سبيل الله

وفاة سعد

تحصّنه ﷺ وحذره

و (قوله: أرقَ[1] رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلةً) أي: سهر عند أول

---

(١) في التلخيص: سهر، وفي صحيح مسلم روايتان الأولى: أرق، والثانية: سهر.

فَبَيْنا نحن كذلك سمعنا خشخشَةَ سِلاحٍ، فقال: «من هذا؟!» قال: سعدُ بن أبي وقاصٍ. فقال له رسول الله ﷺ: «ما جاء بك؟!» قال: وَقَعَ في نَفَسِي خوفٌ على رسول الله ﷺ فجئتُ أحرُسُهُ. فَدَعَا لهُ رسولُ الله ﷺ، ثمَّ نام.

رواه أحمد (٦/ ١٤١)، والبخاريُّ (٢٨٨٥)، ومسلم (٢٤١٠) (٣٩ و ٤٠)، والترمذيّ (٣٧٥٦)، والنسائيُّ في الكبرى (٨٦٦٧).

قدومه على المدينة في ليلةٍ من الليالي، فقال: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة». قيل: كان هذا من النبيِّ ﷺ في أول الأمر، قبل أن ينزلَ عليه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

قلـتُ: ويحتملُ أن يُقالَ: إنَّ قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ليس فيه ما يناقض احتراسه من الناس، ولا ما يمنعه، كما أن إخبارَ الله تعالى عن نصره، وإظهاره لدينه ليس فيه ما يمنعُ الأمر بالقتال، وإعداد العَدَد والعُدَد، والأخذ بالجدِّ والحزم، والحذر، وسِرُّ ذلك: أنَّ هذه أخبارٌ عن عاقب الحال، ومآله، لكن هل تحصل تلك العاقبةُ عن سبب معتاد، أو غير سبب؟ لم يتعرض ذلك الأخبار له، فليبحثْ عنه في موضع آخر، ولما بحثتُ عن ذلك وجدتُ الشريعةَ طافحةً بالأمر له ولغيره بالتحصُّن، وأَخْذ الحذر ومدافعتهم بالقتل والقتـال، وإعداد الأسلحة والآلات، وقد عمل النبيُّ ﷺ بذلك، وأخذ به، فلا تعارُضُ في ذلك، واللَّهُ الموفق لفهم ما هنالك. وخشخشة السِّلاح وقعقعته: صوتُ ضرب بعضه في بعض.

و (قول سعدٍ: وقع في نفسي خوفٌ على رسول الله ﷺ فجئتُ أحرسه) دليلٌ على مكانة نبيِّنا ﷺ وكرامته على الله، فإنه قَضَى أمنيته، وحقَّق في الحين طلبته.

سعـد محـدّث مُلهَم

وفيه دليلٌ على أن سعداً ـ رضي الله عنه ـ من عباد الله الصَّالحين المحدَّثين الملهمين، وتخصيصُه بهذه الحالة كلِّها، وبدعاء رسول الله ﷺ له من أعظم

[٢٣١٩] وعن سعدٍ، قال: كان رجلٌ من المشركين قد أَحْرَقَ المسلمين؛ فقال له النَّبيُّ ﷺ: «ارْمِ فِدَاكَ أبي وأمي!»، قال: فنزعتُ له بِسَهْمٍ ليس فيه نَصْلٌ، فأَصَبْتُ جَنْبَهُ، فسقط، فانكشَفَتْ عورتُهُ، فضَحِكَ رسولُ الله ﷺ حتى نظرتُ إلى نواجذه.

رواه البخاريُّ (٤٠٥٥)، ومسلم (٢٤١٢).

[٢٣٢٠] وعنه: أنَّه نزلتْ فيه آياتٌ من القرآن. قال: حَلَفَتْ أُمُّ سعدٍ

الفضائل، وأشرف المناقب، وكذلك جَمْعُ رسول الله ﷺ له أبويه، وفداؤه بهما خاصَّةٌ مِن خصائصه؛ إذ لم يُرْوَ، ولا سُمِع أنَّ النبيَّ ﷺ فدى أحداً من الناس بأبويه جميعاً غير سعد هذا[١]، وغير ما يأتي في حديث ابن الزبير، وقد تقدَّم أن النَّواجذَ آخر الأضراس، وأنها تقال على الضواحك، وأنها المعنيَّة في هذا الحديث، فإنها هي التي يمكنُ أن ينظر إليها غالباً في حال الضحك، وكان ﷺ جلّ ضحكه ضحكه ﷺ التبسُّم، فإذا استغرب[٢]، فغايةُ ما يظهر منه ضواحكه مع ندور ذلك منه وقِلَّته.

و (قوله: كان رجلٌ من المشركين قد أحرق في المسلمين) أي: أصاب منهم كثيراً، وآلمهم، حتى كأنه فعل فيهم ما تفعله النار من الإحراق.

و (قوله: فنزعت له بسهمٍ ليس فيه نصل) أي: رميتُه بسهم لا حديدة فيه، وقد تقدَّم: أن أصلَ النَّزع: الجذب والجبذ، وكان ضحك النبيِّ ﷺ بإصابة العدو سروراً، لا بانكشاف العورة، فإنه المنزَّهُ عن ذلك.

و (قوله: فأصبتُ جنبه) بالجيم والنون، كذا لأكثر الرواة، وكذا رؤيته، وقيَّده القاضي الشهيد حبَّته ـ بالحاء المهملة والموحدة ـ يعني به: حبة قلبه، وفيه بُعْدٌ.

---

(١) انظر صحيح مسلم (٢٤١٢).

(٢) «استغرب الرجل في الضحك»: بالغ فيه. وكأنه من الغَرْب: البُعْد.

أَلَّا تُكَلِّمَهُ أبداً حتى يَكْفُرَ بدينه؛ ولا تأكُلَ؛ ولا تَشْرَبَ! قالتْ: زَعَمْتَ أنَّ الله وصَّاك بوالديك؛ وأنا أمُّك؛ وأنا آمُرُكَ بهذا! قال: مَكَثَتْ ثلاثاً حتى غُشِيَ عليها من الجَهْد. وفي روايةٍ قال: فكانوا إذا أرادوا أن يُطعموها شجروا فاها بعصاً، ثم أوجروها، فقام ابنٌ لها يُقال لهُ عُمَارةُ، فَسقاها، فجعلتْ تَدْعو على سعدٍ؛ فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى . . .﴾ [العنكبوت: ٨]، وفيها: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

قال: وأصاب رسولُ الله ﷺ غَنيمةً عظيمةً؛ فإذا فيها سيفٌ؛ فأخذْتُهُ، فأَتيْتُ به الرسول ﷺ، فقلتُ: نَفِّلْنِي هذا السَّيفَ، فأنا مَنْ قَدْ عَلِمتَ حَالَهُ! فقال: «رُدَّهُ من حيثُ أخذتَهُ!». فانطلقتُ؛ حتى إذا أردتُ أن

و (قوله: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها بعصاً ثم أوجروها) ـ بالشين والجيم ـ أي: فتحوا فمها، وأدخلوا فيه العصا؛ لئلا تغلقه حتى يوجروها الغذاء. والوَجُور: ـ بفتح الواو ـ ما يُصَبُّ في وسط الفم، واللَّدود ـ بفتح اللام ـ: ما يُصَبُّ من جانب الفم. ويقال: وجرته، وأوجرته ـ ثلاثياً ورباعياً ـ وقد رواه بعضُهم: شحُوا فاها ـ بحاء مهملة، وواو من غير راء ـ وهو قريبٌ من الأوّل، أي: وسَّعوه بالفتح، والشَّحْوُ: التوسُّع في المشي، والدابة الشحواء: الواسعة الخطو. ويقال: شحا فاه، وشحا فوه ـ معدىً ولازماً ـ أي: فتحه، ووصية الله تعالى بمبرَّة الوالدين المشركين، والإحسان إليهما وإن كانا كافرين، وحريصين على حمل الولد على الكفر. ويدلُّ دلالةً قاطعة على عظيم حرمة الآباء، وتأكُّد حقوقهم.

عظيم حرمة الآباء

و (قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان: ١٥]) أي: إن حاولاك[1] على الشرك والكفر، فلا تطعهما؛ وإن بالغا في

---

(١) في (ز) و (م ٣): جادلاك.

أُلقيَهُ في القَبَضِ لامتني نفسي، فرجَعْتُ إليه، فقلت: أعطنيه! قال: فشَدَّ لي صَوتهُ: «رُدَّهُ من حيثُ أخذْتَهُ». قال: فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ...﴾ [الأنفال: ١].

قال: ومَرِضْتُ فأرسلتُ إلى النَّبيِّ ﷺ فأتاني؛ فقلت: دعني أَقْسِمْ مالي حيث شئتُ! قال: فأبى. قلتُ: فالنصفَ! قال: فأبى. قلت: فالثُلُثَ، قال: فسكَتَ. فكَانَ بعدُ الثلثُ جائزاً.

قال: وأَتَيتُ على نفرٍ من الأنصار والمهاجرين، فقالوا: تَعَال نُطْعِمْك ونسقيك خَمْراً ـ وذلك قَبْلَ أن تُحرَّمَ الخمر ـ قال: فأتيتُهُم في حَشٍّ ـ والحشُّ: البستانُ ـ فإذا رأسُ جَزُورٍ مَشْوِيٌّ عندَهُم، وَزِقٌّ من خمرٍ. قال: فأكلتُ، وشربتُ معهم. قال: فَذُكِرَتِ الأنصارُ والمُهاجِرون عندَهُمْ، فقُلتُ: المُهاجِرُونَ خَيرٌ من الأنصار، قال: فأخَذَ رجلٌ أحد لَحْيَـيِ الرَّأسِ، فضربني فجرحَ بأنفي». ـ وفي روايةٍ: ففزره ـ وكان أنفُ سعدٍ مَفْزُوراً ـ فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فأخبرتُهُ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ فيَّ ـ يعني:

ذلك، وأتعبا أنفسهما فيه؛ فإن الشرك بالله تعالى باطلٌ ليس له حقيقةٌ فتعلم، كما قال تعالى: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]. والقَبَضُ ـ بفتح الباء ـ: اسم لما يُقبض، وكذلك هو هنا، والقَبْض بسكونها: مصدر قبضت. وقد تقدَّم في الجهاد الكلامُ على قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: ١]، وفي الوصايا على وصيَّة سعدٍ، وما يتعلَّق بها. والحُشُّ: بستان النخل، ويقال: بضم الحاء وفتحها، ويُجمع على حشَّان، وقد يكنى بالحش عن موضع الخلاء، لأنهم كانوا يقضون حاجتهم في البساتين، وحائش النخل: جماعة النخل.

و (قوله: فغزره، وكان أنفُه مغزوراً) هو بتقديم الزاي مخفَّفةً، أي: شقَّه،

نفسه ـ شأنَ الخمْر: ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [المائدة: ٩٠].

في الفضائل (٤٣ و ٤٤)، والترمذيُّ (٣١٨٨).

[٢٣٢١] وعنه؛ قال: كنَّا مع النَّبيِّ ﷺ ستةَ نفرٍ؛ فقال المشركون للنَّبيِّ ﷺ: اطرُدْ هؤلاء لا يجْترِؤون عَلَيْنا. قال: وكنتُ أنا، وابنُ مسعودٍ، ورجلٌ مِن هُذَيْلٍ، وبلالٌ، ورجُلانِ لَسْتُ أسمِّيهِما، فوقَع في نفسِ رسولِ الله ﷺ ما شاء اللَّهُ أنْ يقَعَ، فحدَّث نَفسَهُ، فأنزل الله عز وجل:

والمفزور: المشقوق، ولَحْيُ الجمل ـ بفتح اللام ـ: هو أَحَدُ فكَّي فمه، وهما: لحيان، أعلى وأسفل، والذي يمكن أن يؤخذ ويضرب به: هو الأسفل، وقد تقدَّم القولُ في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ ﴾ الآية [المائدة: ٩٠] في الأشربة.

أنفة المشركين من مجالسة ضعفاء المسلمين

و (قول المشركين للنبيِّ ﷺ: اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا) كان هؤلاء المشركون أشرافَ قومهم، وقيل: كان منهم: عُيينة بن حصن، والأقرع بن جابس، أنِفُوا من مجالسة ضعفاء أصحاب النبيِّ ﷺ كصهيب، وسلمان، وعمار، وبلال، وسالم، ومِهْجَع، وسعد هذا، وابن مسعود، وغيرهم ممن كان على مثل حالهم استصغاراً لهم، وكِبْراً عليهم، واستقـذاراً لهم؛ فإنهم قالوا: يُؤذوننا بريحهم، وفي بعض كتب التفسير أنهم لما عرضوا ذلك على النبي ﷺ أبى، فقالوا له: اجعلْ لنا يوماً ولهم يوماً، وطلبوا أن يكتبَ لهم بذلك، فهمَّ النبيُّ ﷺ بذلك، ودعا عليّاً ليكتب، فقام الفقراءُ، وجلسوا ناحية، فأنزل الله تعالى الآية.

قلـتُ: ولهذا أشار سعد بقوله: فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع. وكان النبيُّ ﷺ إنما مال إلى ذلك طمعاً في إسلامهم، وإسلام قومهم، ورأى أنَّ ذلك لا يفوتُ أصحابه شيئاً، ولا ينقصُ لهم قدراً، فمال إليه، فأنزل

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢].

رواه مسلم (٢٤١٣) (٤٦)، والنسائيُّ في الكبرى (١١١٦٣)، وابن ماجه (٤١٢٨).

* * *

اللَّهُ تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنفال: ٥٢]، فنهاه عما همَّ به من الطرد، لا أنه أوقع الطرد، ووَصَفَ أولئك بأحسن أوصافهم، وأمره أن يصبرَ نفسه معهم بقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ [الكهف: ٢٨]، فكان رسولُ الله ﷺ إذا رآهم بعد ذلك يقول: «مرحباً بقوم عاتبني الله فيهم»[1] وإذا جالسهم لم يقمْ عنهم حتى يكونوا هم الذين يبدؤون بالقيام.

ما نُهي ﷺ عنه من طرد ضعاف المؤمنين من حوله

و (قوله: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾) قيل معناه: يدعون ربَّهم بالغداة بطلب التوفيق والتيسير، وبالعشي: قيل معناه: بطلب العفو عن التقصير، وقيل معناه: يذكرون الله بعد صلاة الصبح، وصلاة العصر. وقيل: يصلُّون الصُّبح والعصر، وقال ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يصلون الصلوات الخمس، وقال يحيى بن أبي كثير: هو مجالسُ الفقه بالغداة والعشي، وقيل يعني به: دوام أعمالهم وعباداتهم، وإنما خصَّ طرفي النهار بالذِّكر؛ لأن من عمل في وقت الشغل كان في وقت الفراغ من الشغل أعمل.

و (قوله: ﴿يريدون وجهه﴾) أي: يخلصون في عباداتهم وأعمالهم لله تعالى. ويتوجهون إليه بذلك لا لغيره، ويصحُّ أن يقال: يقصدون بأعمالهم رؤية وجهه الكريم، أي: وجوده المنزَّه المقدَّس عن صفات المخلوقين.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٨١) وعزاه لابن جرير والطبراني وابن مردويه بلفظ: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم».

(٤٠) بـــاب
فضائل طلحة بنِ عبيد الله والزّبير بنِ العوَّام
وأبي عُبيدة بنِ الجراح ـ رضي الله عنهم ـ

[٢٣٢٢] عن أبي عثمانَ، قال: لم يَبْقَ مع رسولِ الله ﷺ في بعضِ تلك الأيّامِ الّتي قاتل فيهنَّ رسولُ الله ﷺ، غيرُ طلحةَ وسعدٍ، عن حديثهما.

رواه البخاريُّ (٣٧٢٢ و ٣٧٢٣)، ومسلم (٢٤١٤).

و (قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢]) أي: من جزائهم، ولا كفاية رزقهم، أي: جزاؤهم ورزقهم، وجزاؤك ورزقك على الله تعالى، لا على غيره، فكأنَّه يقول: وإذا كان الأمرُ كذلك: فأقبلْ عليهم وجالسْهم، ولا تطردهم مراعاةً لحقِّ مَن ليس على مثل حالهم في الدِّين، والفضل. فإن فعلتَ كنت ظالماً، وحاشاه من وقوع ذلك منه، وإنما هذا بيانٌ للأحكام، ولئلا يقعَ مثلُ ذلك من غيره من أهل الإسلام. وهذا نحو قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقد علم اللَّهُ منه: أنه لا يشرك، ولا يحبط عمله.

و (قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]) نصب بالفاء في جواب النفي، وقد تقدَّم: أن الظلمَ أصلُه وَضْعُ الشيء في غير موضعه، ويحصل من فوائد الآية والحديث: النهي عن أن يُعظَّم أحدٌ لجاهه، وأثوابه، وعن أن يُحتقر أحدٌ لخموله، ورثاثة أثوابه.

ميزان التعظيم والتحقير

(٤٠) ومــن بــاب: فضائل طلحة بن عبيد الله. . .

اسم طلحة ونسبه

مشاهده مع رسول الله

طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي. شهد مع رسول الله ﷺ المشاهدَ كلَّها إلا بدراً؛ فإن رسولَ الله ﷺ كان بعثه

. . . .

وسعيد بن زيد يتجسَّسان خبرَ عير قريش، فلقيا رسولَ الله ﷺ منصرفه من بدرٍ، فضرب لهما رسولُ الله ﷺ بسهمهما وأجرهما، فكانا كمن شهدها، وسمَّاه رسولُ الله ﷺ يومئذ: طلحة الخير، ويوم ذات العشيرة: طلحة الفياض، ويوم حُنين: طلحة الجود. وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد، ووقى النبيَّ ﷺ بيده فشلَّت أصبعاه، وجرح يومئذ أربعاً وعشرين جراحة، وهو أحدُ العشرة المشهود لهم بالجنَّة. وجملة ما روي عنه من الحديث: ثمانية وثلاثون حديثاً، أخرج له منها في الصحيحين سبعة، وقُتل يوم الجمل، وكان يوم الخميس لعشرٍ خلون من جُمادى الآخرة سنة ستٍّ وثلاثين، ويقال: إن سهماً غَرِباً[1] أتاه فوقع في حلقه فقال: بسم الله ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] ويقال: إن مروان بن الحكم قتله. ودُفِن بالبصرة، وهو ابنُ ستين سنة، وقيل: ابن اثنتين وستين سنة، وقيل: ابن أربع.

دفاعه عن رسول الله يوم أحد

جملة ما روى من الحديث

وأما الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ فيكنى أبا عبد الله بولده عبد الله؛ لأنه كان أكبر أولاده، وهو الزُّبيرُ بن العوام بن خويلد بن أسدِ بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، أمُّه: صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ أسلمتْ وأسلم الزُّبير، وهو ابنُ ثمان سنين، وقيل: ابن ست عشرة سنة، فعذَّبه عمُّه بالدّخان لكي يرجعَ عن الإسلام فلم يفعل. هاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين، ولم يتخلَّفْ عن غزوةٍ غزاها رسولُ الله ﷺ، وهو أوَّلُ مَن سلَّ سيفاً في سبيل الله، وكان عليه يومَ بدرٍ رَيْطةٌ[2] صفراء قد اعتجر بها، وكان على الميمنة فنزلت الملائكةُ على سيماه، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد، وبايعه على الموت، فقُتِل يوم الجمل، وهو ابنُ خمس وسبعين سنة. وقيل: خمس وستين. وقيل: بضع وخمسون. قتله

اسم الزبير ونسبه وكنيته وإسلامه

هجرته إلى الحبشة

نزول الملائكة يوم بدر على سيماه

---

(١) هو السهم الذي لا يُعرف راميه.

(٢) «ريطة»: هي الملاءة كلها نسج واحد وقطعة واحدة. وكل ثوب لين رقيق.

. . . .

ابن جرموز، وكان من[1] أصحاب عليٍّ، فأخبر عليٌّ بذلك فقال: بشِّر قاتل ابن صفية بالنار. وهو أحدُ العشرة المشهود لهم بالجنة، وروي عنه من الحديث مثل ما روي عن طلحة، وله في الصَّحيحين مثل ما له سواء.

اسم أبي عبيدة ونسبه

وأما أبو عبيدة ـ رضي الله عنه ـ فاسمه: عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال ابن أهيب بن ضبَّة بن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، أسلم قديماً مع عثمان بن عفان ـ رضي الله عنهما ـ وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وشهد بدراً، والمشاهد كلَّها، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد، ونزع يومئذ بثَنِيَّتيه الحَلَقتين اللتين دخلتا في وجنتي رسول الله ﷺ فوقعت ثنيتاه، فكان أهتم[2]، وكان من أحسن الناس هتماً، يزينه هتمه، وهو أحدُ العشرة المشهود لهم بالجنة، وولي فتح الشام وحروبها، ومات في طاعون عمواس بالأردن، وقُبِر ببيسان وهو ابنُ ثمان وخمسين سنة.

هجرته ومشاهده

وفاته

و (قول أبي عثمان النهدي: لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهن رسولُ الله ﷺ غير طلحة وسعد) يعني بذلك: يوم أُحُد، وقد قدَّمنا: أن طلحة ثبت يومئذ، ووقى النبيَّ ﷺ بيده فشُلَّت أصبعاه، وجرح يومئذٍ أربعاً وعشرين جراحة.

و (قوله: عن حديثهما) هذا من قول الراوي عن أبي عثمان، وهو: المعتمر ابن سليمان، ويعني به: أن أبا عثمان إنما حدَّث بثبوت طلحة وسعدٍ عنهما، لا أنه شاهَدَ هو ثبوتهما، فإنه تابعي لا صحابيٌّ، ولا أنه حدَّث بذلك عن غيرهما، بل عنهما. هما حدَّثاه بذلك. واتفق لطلحة في ذلك اليوم أنَّ النبيَّ ﷺ أثقل بالجراح، وكان عليه درعان، فنهض ليصعدَ على صخرة كانتْ هنالك، فلم يستطعْ، فحنى

(١) في (ع) و (م ٤): في.
(٢) «أهتم»: تكسَّرت ثناياه من أطرافها أو من أصولها.

[٢٣٢٣] وعن جابرِ بنِ عبد الله، قال: نَدَبَ رسولُ الله ﷺ النَّاس يومَ الخندق؛ فانتَدبَ الزُّبيرُ، ثم نَدَبَهُمْ، فانْتَدَبَ الزُّبير. ثم ندبهم، فانتدب الزُّبير. فقال النَّبيُّ ﷺ: «لكلِّ نَبِيٍّ حواريٌّ، وحواريَّ الزُّبَيْرُ».

رواه أحمد (٣/ ٣١٤)، والبخاريُّ (٢٨٤٦)، ومسلم (٢٤١٥)، والنسائيُّ في الكبرى (٨٢١١)، وابن ماجه (١٢٢).

[٢٣٢٤] وعن عبد الله بن الزُّبير، قال: كنتُ أنا وعمرُ بنُ أبي سلمة يوم الخندق، مع النِّسوةِ في أُطُمِ حسَّانَ؛ فكان يطأطىء لي مرةً فأنظرُ، وأطأطىء له مرةً فينظُر، فكنت أعرف أبي إذا مرَّ علي فرسِه في السِّلاح إلى

طلحةُ ظهرَه لاصِقاً بالأرض حتى صَعِد النبيُّ ﷺ على ظهره حتى رقي على الصخرة، فقال النبيُّ ﷺ: «أوجب طلحة»[1]، أي: أوجب له ذلك الفعلُ الثوابَ الجزيل عند الله، والمنزلةَ الشريفة. وروى جابرٌ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «من سرَّه أن ينظرَ إلى شهيدٍ يمشي على وجه الأرض، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله»[2]. وقال النبيُّ ﷺ: «طلحة بن عبيد الله ممن قضى نحبه»[3] أي: ممن وفَّى بنذره، وقام بواجباته.

ثناؤه ﷺ على طلحة

و (قوله: نَدَب رسولُ الله ﷺ الناسَ فانتدب الزُّبير) أي: رغَّبهم في الجهاد، وحضَّهم عليه، فأجاب الزبيرُ ثلاثَ مرات، وعند ذلك قال له النبيُّ ﷺ: «لكل نبيٍّ حواريٌّ، وحواريَّ الزُّبير». أي: خاصَّتي، والمفضَّل عندي، وناصري، وقد تقدَّم إيعابُ القول فيه في الإيمان. والأُطُم: بضم الهمزة، والطاء المهملة: هو الحِصْن، ويُجمع: آطـام، بمدِّ الهمزة، ويكسرها. مثل: آكام وإكام.

الزبير حواري رسول الله

(١) رواه أحمد (١/ ١٦٥)، والترمذي (١٦٩٢).
(٢) رواه الترمذي (٣٧٣٩)، وابن ماجه (١٢٥).
(٣) رواه الترمذي: (٣٧٤٠)، وابن ماجه (١٢٦ و ١٢٧).

بني قُريظة. قال: فذكرتُ ذلك لأبي؛ فقال: ورأيتَني يا بُنيَّ؟! قلتُ: نعم! قال: أما والله! لقد جَمَعَ لي رسولُ الله ﷺ يومئذٍ، أبويه فقال: «فِدَاكَ أبي وأمِّي».

رواه أحمد (١/ ١٦٤)، والبخاريُّ (٣٧٢٠)، ومسلم (٢٤١٦)، والترمذيُّ (٣٧٤٣)، وابن ماجه (١٢٣).

[٢٣٢٥] وعن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ كان على حِرَاءٍ؛ هو وأبو بكرٍ، وعمُر، وعثمانُ، وعليٌّ، وطَلَحةُ، والزبير؛ فتحرَّكت الصَّخرةُ، فقال رسول الله ﷺ: «اهدأ؛ فما عليك إلا نبيٌّ، أو صِدِّيقٌ، أو شهيدٌ».

مَن جمع له ﷺ أبويه

و (قوله: لقد جمع لي رسولُ الله ﷺ أبويه يومئذ فقال: «فِداكَ أبي وأمي») هو بفتح الفاء والقصر، فعل ماضٍ، فإن كَسَرْتَ مَدَدْتَ، وهذا الحديث يدلُّ على: أنَّ النبيَّ ﷺ جَمَع أبويه لغير سعد بن أبي وقاص، وحينئذ يشكلُ بما رواه الترمذي من قول عليٍّ: إن رسول الله ﷺ ما جمع أبويه لأحد إلا لسعدٍ، وقال له يوم أحد: «فداك أبي وأمي»(١). ويرتفعُ الإشكالُ بأن يقال: إنَّ علياً أخبر بما في علمه، ويُحتمل أن يريدَ به أنه لم يقلْ ذلك في يوم أُحُدٍ لأحدٍ غيره، والله تعالى أعلم. وحِراء: جبل بمكة، وهو بكسر الحاء ممدود، ويُذكَّر فيصرف، ويُؤنَّث فلا يصرف، وقد أخطأ مَن فتح حاءه، ومن قصره.

و (قوله: فتحركت الصخرة، فقال: «اهدأ فما عليك») كذا صحَّ هذا اللفظ هنا بسكون الهمزة على أنه أمرٌ من «هدأ» المذكر، وعليك: بفتح كاف خطاب المذكر، مع أنه افتتح الكلام بذكر الصخرة، فكان حقُّ خطابها أن يقال: اهدئي، فما عليكِ، فتُخاطبُ خطابَ المؤنَّث، لكنَّه لما كانت تلك الصخرة جبلاً خاطبَها خطابَ المذكر، وقد تقدَّم مثل هذا كثيراً.

و (قوله: «فما عليكَ إلا نبيٌّ، أو صِدِّيق، أو شهيد») بأو التي هي للتقسيم

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٢٩ و ٣٧٥٣).

وفي روايةٍ: فتحرَّك الجبل؛ فقال رسول الله ﷺ: «اسكُنْ حِراءُ؛ فما عليك إلا نبيٌّ أو صِدِّيقٌ، أو شهيدٌ». وعليه النبيُّ ﷺ، وأبو بكرٍ، وعمرُ، وعثمانُ، وعليٌّ، وطلحةُ، والزبيرُ، وسعد ابن أبي وقاص.

رواه أحمد (٢/ ٤١٩)، ومسلم (٢٤١٧)، والترمذيُّ (٣٦٩٦).

[٢٣٢٦] وعن عروةَ بن الزبير، قال: قالت لي عائشةُ: كان أبوك من الذين استجابوا لله والرسولِ من بعد ما أصابهمُ القرحُ.

رواه البخاريُّ (٤٠٧٧)، ومسلم (٢٤١٨) (٥٢).

والتنويع، فالنبيُّ: رسول الله ﷺ، والصِّدِّيق: أبو بكر، والشهيد: من بقي ـ رضي الله عنهم ـ، وهذا من دلائل صحة نبوّة رسول الله ﷺ فإن هؤلاء كلَّهم قُتلوا شهداء. فأما عمر: فقتلَه العِلْج، وأما عثمان فقُتل مظلوماً، وعليٌّ: غيلةً، وأما طلحةُ والزُّبير: فقُتِلا يومَ الجمل منصرفيْن عنه تاركين له، وأما أبو عبيدة فمات بالطَّاعون، والموتُ فيه شهادة.

من دلائل نبوته ﷺ

و (قول عائشة لعروةَ: كان أبوكَ من الذين استجابوا للّه والرسول من بعد ما أصابَهم القَرْحُ) استجابوا: أجابوا، والسين والتاء: زائدتان. كما قال الشاعر:

وَدَاعٍ دَعا يا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدَا فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ

أي: لم يجبْه. والقَرْح: الجِراح. وإشارة عائشة إلى ما جرى في غزوة حمراء الأسد، وهو موضعٌ على نحو ثمانية أميال من المدينة، وكان من حديثها: أن النبيَّ ﷺ لما رجع إلى المدينة من أُحد بمَن بقي مِن أصحابه، وأكثرُهم جريح، وقد بلغَ منهم الجَهْد، والمشقَّة نهايته، أمرهم بالخروج في أثر العدوّ مُرهباً لهم، وقال: «لا يخرجنَّ إلا مَن كان شهدَ أُحداً»[1] فخرجوا على ما بهم من الضعف

غزوة حمراء الأسد

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة (٢/ ١٠١).

[٢٣٢٧] وعن أنسِ بن مالكٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ لكل أمةٍ أميناً. وإنَّ أمِينَنا ـ أيَّتُها الأُمَّةُ ـ أبو عبيدةَ بنُ الجراح».

والجِراح، وربما كان فيهم المثقل بالجراح لا يستطيعُ المشيَ، ولا يجدُ مركوباً، فربَّما يُحمل على الأعناق، كلُّ ذلك امتثالٌ لأمر رسول الله ﷺ ورغبةٌ في الجهاد والشهادة حتى وصلوا إلى حمراءِ الأسد، فلقيهم نُعَيم بن مسعود، فأخبرَهم: أن أبا سفيان بنَ حربٍ، ومن معه من قريش قد جمعوا جموعَهم، وأجمعوا رأيَهم على أن يرجعوا إلى المدينة، فيستأصلوا أهلَها، فقالوا ما أخبرنا الله به عنهم: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وبينا قريشٌ قد أجمعوا على ذلك، إذ جاءَهم معبدُ الخزاعيّ، وكانت خُزَاعةُ حلفاءَ النبيِّ ﷺ وعَيْبة نُصْحه، وكان قد رأى حالَ أصحاب النبيّ ﷺ وما هم عليه، ولما رأى عزمَ قريشٍ على الرجوع، واستئصالِ أهل المدينة حملَه خوفُ ذلك، وخالصُ نُصْحِه للنبيِّ ﷺ وأصحابِه على أن خوَّفَ قريشاً بأن قال لهم: إني قد تركتُ محمداً وأصحابَه بحمراء الأسد في جيش عظيم، قد اجتمع له كلُّ من تخلَّف عنه، وهم قد تحرَّقوا عليكم، وكأنهم قد أدركوكم، فالنَّجاء النَّجاء، وأنشدَهم شعراً[1] يُعظِّم فيه جيش محمّدٍ ﷺ ويُكثِّرهم، وهو مذكورٌ في كتب السير، فقذفَ الله في قلوبهم الرُّعب، ورجعوا إلى مكّة مُسرعين خائفين، ورجعَ النبيَّ ﷺ في أصحابه إلى المدينة مأجوراً منصوراً، كما قال تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] يعني به نُعيم بن مسعود الذي خوَّف أصحاب النبي ﷺ، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ...﴾ يعني به: قريشاً.

أبو عبيدة أمين هذه الأمة

و (قوله ﷺ: «إن لكلِّ أمَّةٍ أميناً وأمينُنا ـ أيتها الأمة ـ أبو عُبيدة بن الجراح») الأمانة: ضد الخيانة، وهي عبارة عن: قُوّة الرجل على القيام بحفظ ما يُوكل إلى

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٠٣).

رواه أحمد (٣/ ١٣٣)، والبخاريُّ (٤٣٨٢)، ومسلم (٢٤١٩) (٥٣).

حفظه، ويُخلَّى بينَه وبينَه. وهي مأخوذة من قولهم: ناقةٌ أمونٌ، أي: قويّة على الحمل والسير، فكأنَّ الأمينَ هو الذي يُوثق به في حفظ ما يُوكل إلى أمانته حتى يُؤدِّيه لقوّته على ذلك. وكان أبو عبيدة قد خصَّه الله تعالى من هذا الحظِّ الأكبر، والنصيب الأكثر، بحيث شهد له بذلك المعصومُ، وصارَ له ذلك الاسمَ، والعلمَ المعلوم، وقد ظهر ذلك من حاله للعيان حتى استوى في معرفته كلُّ إنسانٍ، وذلك أنَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ لما قدمَ الشام مُتفقِّداً أحوالَ الناس والأمراء، ودخل منازلَهم، وبحث عنهم أرادَ أن يدخلَ منزلَ أبي عبيدة، وهو أميرٌ على الشام، قد فُتحت عليه بلادُه وترادفت عليه فتوحاته، وخيراتُه، واجتمعت له كنوزه، وأموالُه، فلما كلَّمه عمر ـ رضي الله عنه ـ في ذلك، قال له: يا أمير المؤمنين! والله لئن دخلتَ منزلي لتعصرنَّ عينيْكَ، فلما دخل منزلَه لم يجد فيه شيئاً يردُّ البصرَ أكثر من سلاحه وأداة رحل بعيره، فبكى عمر ـ رضي الله عنه ـ وقال: صدقَ رسول الله ﷺ: «أنت أمينُ هذه الأمّة»، أو كما قال، وكان النبيُّ ﷺ قد أخبر عن كلِّ واحدٍ من أعيان أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ بما غلبَ عليه من أوصافه، وإن كانوا كلُّهم فضلاء، علماء، حكماء، مختارين لمختار، فقال ﷺ فيما رواه الترمذي من حديث أنس بن مالكٍ: «أرحمُ أمتي بأمتي: أبو بكر، وأشدُّهم في أمر الله: عمر، وأصدقُهم حياءً: عثمان، وأعلمُهم بالحلال والحرام: معاذ، وأفرضُهم: زيد، وأقرؤُهم: أُبيّ، ولكلِّ أمَّةٍ أمين. وأمينُ هذه الأمَّة: أبو عُبيدة»[1]. ومن حديث عبد الله بن عمرو: «ما أظلَّتِ الخضراءُ، ولا أقلَّتِ الغبراءُ أصدقَ لهجةً من أبي ذرٍّ»[2].

و (قوله: «أيتها الأُمَّة») هو منادى محذوف حرف النداء. والأَمَّة: نعته

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٩٠ و ٣٧٩١). (٢) رواه الترمذي (٣٨٠١ و ٣٨٠٢).

[٢٣٢٨] وعنه: أنَّ أهل اليمن قَدِمُوا على رسول الله ﷺ فقالوا: ابْعَثْ معنا رجلاً يُعلِّمنا السُّنَّة والإسلامَ. قال: فأخذ بيد أبي عُبَيْدَة، فقال: «هذا أمين هذه الأُمَّةِ».

رواه مسلم (٢٤١٩) (٥٤).

[٢٣٢٩] وعن حذيفة، قال: جاء أهلُ نجران إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله! ابعث إلينا رجلاً أميناً. فقال: «لأَبْعَثَنَّ إليكُم رجلاً أميناً حقَّ أمين». قال: فاستشرف لها الناس. قال: فبعث أبا عبيدة بنَ الجرَّاح.

رواه أحمد (٥/ ٣٨٥)، والبخاريُّ (٣٧٤٥)، ومسلم (٢٤٢٠) (٥٥)، والترمذيُّ (٣٧٩٦)، وابن ماجه (١٣٥).

* * *

مرفوعاً، والأفصحُ: نصبُها على الاختصاص، وحكى سيبويه: اللهم اغفر لنا أيتها العِصَابة بالنصب.

و (قوله: «لأبعثنَّ إليكم رجلاً أميناً حقَّ أمين») هو بنصب (حقَّ أمين) على أنه مصدر مضاف، وهو في موضع الصِّفة تقديرُه أميناً مُحَقَّقاً في أمانته.

و (قوله: فاستشرفَ لها الناس) أي: تشوَّفوا، وتعرَّضوا لمن هو الموجَّه معهم، وكلُّهم يحرصُ على أن يكونَ هو المَعنِيَّ؛ إذ كلُّ واحد منهم أمين.

* * *

(٤١) بـــاب
فضائل الحسن والحسين

[٢٣٣٠] عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال لحسن: «اللَّهُمَّ إنِّي أُحِبُّه: فَأَحِبَّهُ، وأَحْبِبْ مَنْ يُحِبُّهُ».

رواه أحمد (٢/ ٢٤٩)، ومسلم (٢٤٢١) (٥٦)، وابن ماجه (١٤٢).

---

(٤١) ومن بـــاب: فضائل الحسن والحسين
ابني علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم ـ

تسميتهما وأمهما: فاطمة بنت رسول الله ﷺ، يُكنى الحسن: أبا محمد، والحسين: أبا عبد الله. وُلد الحسنُ في النصف من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة. هذا أصحُّ ما قيل في ذلك، وولد الحسين لخمس خلون من شعبان سنة أربع من الهجرة. وقيل: سنة ثلاث، هذا قولُ الواقدي. وقال: علقتْ به فاطمةُ ـ رضي الله عنها ـ بعد مولد الحسن بخمسين ليلة، ومات الحسن مسموماً في ربيع الأول من سنة خمسين بعدما مضى من خلافة معاوية عشر سنين. وقيل: بل مات سنة إحدى وخمسين، ودُفِن ببقيع الغرقد إلى جانب قبر أمه، وصلَّى عليه سعيد بن العاص، وكان أميرَالمدينة، قدَّمه الحسينُ، وقال: لولا أنَّها سُنَّة لما قدَّمتك، وقد كان وصَّى أن يدفن مع رسول الله ﷺ، إن أذنتْ في ذلك عائشة فأذنتْ في ذلك، ومنع من ذلك مروان، وبنو أمية، وروى أبو عمر بإسناده إلى عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: لما ولد الحسن جاءه رسولُ الله ﷺ فقال: «أروني ابني، ما سمَّيتموه؟» قلت: حرباً. قال: «بل هو: حسن». فلما وُلد الحسين، قال: «أروني ابني، ما سميتموه؟»، قلت: حرباً. قال: «بل هو: حسين». فلما ولد الثالث، قال: «أروني ابني، ما سمّيتموه؟» قلت: حرباً. قال: «بل هو: مُحَسِّن»[١]. وعقَّ

---

(١) رواه أحمد (١/ ٩٨ و ١١٨)، والبزار (١٩٩٧)، والحاكم (٣/ ١٦٥)، وابن حبان (٦٩٥٨).

[٢٣٣١] وعنه، قال: خرجتُ مع رسولِ الله ﷺ في طائفةٍ من

النبيُّ ﷺ عن كلِّ واحدٍ من الحسن والحسين يوم سابعه بكبش كبش، وأمر أن يحلق كل واحدٍ منهما، وأن يتصدَّق بوزن شعرهما فضة[١]. وقال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: كان الحسينُ ـ رضي الله عنه ـ أشبه الناس برسول الله ﷺ ما بين الصدر إلى الرأس، والحسن أشبه الناس للنبيِّ ﷺ ما كان أسفل من ذلك[٢]. وتواردت الآثارُ الصِّحاح عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال في الحسن: «إنَّ ابني هذا سيِّدٌ، وعسى اللَّهُ أن يبقيَه حتى يصلحَ به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[٣]. ولا أسود ممن سوَّده رسولُ الله ﷺ، وشهد له بذلك، وكان حليماً، وَرِعاً، فاضلاً، دعاه ورعُه وفَضْلُه إلى أن تَرَكَ المُلْكَ والدُّنيا رغبةً فيما عند الله. ومما يدلُّ على صحة ذلك وعلى صدق النبيِّ ﷺ، وصحة نبوته ما قد اشتهر من حال الحسن، وتواتر من قضيَّة خلافته، وإصلاحه بين المسلمين، وذلك: أنه لما قُتِل عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ بايعه أكثرُ من أربعين ألفاً، وكثيرٌ ممن تخلَّف عن أبيه، وممن نكث بيعتَه، فبقي نحو سبعة أشهر خليفةً بالعراق، وما وراءها من خراسان، ثم سار إلى معاوية في أهل الحجاز والعراق، وما وراءها من خراسان، ثم سار إليه معاوية في أهل الشام، فلما تراءى الجمعان بموضع يقالُ له: مَسْكَن، من أرض السواد بناحية الأنبار، كره الحسنُ القتالَ لِعِلْمه أن إحدى الطَّائفتين لا تَغْلبُ حتى يهلكَ أكثر الأخرى، فيهلك المسلمون، فسلَّم الأمرَ لمعاوية على شروط شرطها عليه، منها: أن يكون الأمرُ له من بعد معاوية، فالتزم كلَّ ذلك معاوية، واجتمع الناسُ على بيعته في النصف من جمادى الأولى من سنة إحدى وأربعين. هذا أصحُّ ما قيل في ذلك، ولمَّا فعل ذلك الحسنُ عتب عليه أصحابُه، ولاموه على ذلك؛ حتى قال له بعضُ أصحابه: يا عار

(هوامش: شبه الحسن والحسين برسول الله — صفات الحسن — خلافة الحسن — تسليم الحسن الأمر لمعاوية)

---

(١) رواه الحاكم (٤/ ٢٣٧)، والبيهقي (٩/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠)، وأبو يعلى (٤٥٢١).
(٢) رواه الترمذي (٣٧٧٩).
(٣) رواه أحمد (٥/ ٤٩)، والبزار (٢٦٣٩)، والطبراني (٢٥٩١)، وابن حبان (٦٩٦٤).

. . . .

المؤمنين! فقال: العارُ خيرٌ من النار. وقال له شيخٌ من أهل الكوفة يكنى أبا عامر لما قدمها: السلام عليك يا مُذِلَّ المؤمنين، فقال له: لا تقلْ ذلك يا أبا عامر! فإني لم أذلَّ المؤمنين، ولكنِّي كرهت أن أقتلهم في طلب المُلْك، فقد ظهر ما قاله سيِّد المرسلين من أن الحسنَ سيِّدٌ، وأن اللَّهَ أصلحَ به بين فئتين من المسلمين، لكن خُشِي من طول عمره فسُمَّ فمات من فوره، ونقل الثقات: أنه لما سُمَّ لفظ قطعاً من كبده، وحينئذ قال: لقد سُقيتُ السمَّ ثلاث مرات لم أسق مثل هذه المرة، فقال له الحسين: يا أخي من سقاك؟ قال: وما تريدُ إليه؟ أتريدُ أن تقتله؟ قال: نعم. قال: لئن كان الذي أظنُّ؛ فالله أشد نقمة، ولئن كان غيره فما أحب أن يُقْتَلَ بي بريء.

وفاته رضي الله عنه

ولما ورد البريدُ بموته على معاوية قال: يا عجباً من الحسن شرب شربةً من عسل بماء رومة فقضى نحبه.

وأما الحسينُ ـ رضي الله عنه ـ، فكان فاضلاً، ديِّناً، كثير الصَّوم، والصَّلاة، والحج، قال مصعب الزبيري: حجَّ الحسينُ خمساً وعشرين حجَّةً ماشياً، وقد قال النبيُّ ﷺ فيه وفي الحسن: «إنَّهما سيِّدا شباب أهل الجنة»[1]. وقال: «هما ريحانتاي من الدنيا»[2]. وكان النبيُّ ﷺ إذا رآهما هشَّ لهما، وربما أخذهما، كما روى أبو داود: أنهما دخلا المسجدَ وهو يخطبُ ﷺ فقطع خُطبته ونزل فأخذهما، وصَعِد بهما، وقال: «رأيتُ هذين، فلم أصبرْ»[3]؛ وكان يقولُ فيهما: «اللهم إني أحبهما فأحبَّهما، وأَحِبَّ من يحبُّهما»[4]. وقُتِلَ ـ رحمه الله، ولا رحم قاتله ـ يوم الجمعة لعشر خلون من محرَّم سنة إحدى وستين بموضع يقال له: كربلاء، بقرب موضع يقال له: الطفُّ بقرب من الكوفة. قال أهلُ التواريخ: لما مات معاوية،

هما ما قاله ﷺ في الحسن والحسين

مقتل الحسين

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣)، والترمذي (٣٧٦٨).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٨٥)، والبخاري (٣٧٥٣)، والترمذي (٣٧٧٠).

(٣) رواه أبو داود (١١٠٩).

(٤) رواه الترمذي (٣٧٦٩).

. . . .

وأفضتِ الخلافةُ إلى يزيد، وذلك في سنة ستين، وردتْ بيعتُه على الوليد بن عتبة بالمدينة ليأخذ البيعةَ على أهلها، أرسل إلى الحسين بن عليٍّ، وإلى عبد الله بن الزبير ليلاً فأُتي بهما فقال: بايعا. فقالا: مثلُنا لا يبايعُ سِرّاً، ولكنَّا نبايعُ على رؤوس الناس إذا أصبحنا، فرجعا إلى بيوتهما، وخرجا من ليلتهما إلى مكَّة، وذلك ليلة الأحد لليلتين بقيتا من رجب، فأقام الحسينُ بمكة شعبان ورمضان وشوالاً وذا القعدة، ثم خرج يوم التروية يريد الكوفة، فبعث عبيدُ الله بن زياد خيلاً لقتل الحسين، وأمَّر عليهم عمر بن سعدٍ، فأدركه بكربلاء فقُتِل الحسين، وقُتِل معه من ولده وإخوته وأهل بيته ثلاثة وعشرون رجلاً، وسُبي نساؤه، وذلك في يوم عاشوراء من السنة المذكورة. وكان من قضاء الله تعالى وتعجيل عقوبته لعبيد الله ابن زياد: أن قُتِل يوم عاشوراء سنة سبع وستين. قتله إبراهيمُ بن الأشتر في الحرب، وبعث برأسه إلى المختار، وبعث به المختارُ إلى ابن الزبير، فبعث به إلى عليِّ بن حسين. واختلف في سِنِّ الحسين يوم قُتِل. فقيل: سبع وخمسون. وقيل: ثمان. وقيل: أربع. وقال جعفر بن محمد: توفي عليُّ بن أبي طالب وهو ابنُ ثمانٍ وخمسين. وقُتِل الحسين وهو ابن ثمان وخمسين، وتوفي علي بن الحسين، وهو ابنُ ثمان وخمسين، وتوفي محمد بن عليٍّ، وهو ابن ثمان وخمسين. قال سفيان: قال لي جعفر بن محمد، وأنا بهذه السنة في ثمان وخمسين، وتوفي فيها ـ رحمة الله عليهم أجمعين ـ. وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: رأيتُ النبيَّ ﷺ فيما يرى النائم نصف النهار، وهو قائمٌ أشعثَ، أغبرَ، بيده قارورة فيها دم، فقلت: بأبي أنت وأمِّي يا رسول الله! ما هذا؟ قال: هذا دم الحسين، لم أزل ألقطه منذ اليوم، فَوُجِد قد قُتِل في ذلك اليوم. وأما الحسن فكان سنه يوم مات ستاً وأربعين سنة، وقيل: سبعاً وأربعين سنة[1]. وروى الحسن عن النبيِّ ﷺ [حديث

ما رواه الحسن والحسين عن رسول الله

---

(١) انظره في «ذخائر العقبى» للطبري ص (١٤٨).

النَّهار؛ لا يُكلِّمني ولا أُكلِّمُهُ؛ حتَّى جاءَ سُوقَ بني قَيْنُقَاع، ثم انصرف حتى أتى خِبَاءَ فاطمةَ فقال: «أَثَمَّ لُكَعُ؟ أَثَمَّ لُكَعُ؟» حتى جاء ـ يعني: حسناً ـ

الدعاء في القنوت. وقوله: «إنَّا آل محمد لا تحلُّ لنا الصدقة»[١]. وروى الحسين عن النبي ﷺ][٢]: «مِن حُسْن إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه»[٣]. وقوله ﷺ في ابن صائد: «اختلفتم وأنا بين أظهركم؟ فأنتم بعدي أشدُّ اختلافاً».

و (قوله: حتى أتى خِباء فاطمة) أي: بيتها، وأصلُ الخباء: ما يُخبأ فيه، وقد صار بحكم العُرْف العربيِّ عبارةً عن بيوت الأعراب.

و (قوله ﷺ للحسن: «أَثَمَّ لُكَع؟») يعني به: الصغير، وهي لغة بني تميم، وسئل ابن جريرعن اللكع، فقال: هو الصغير في لغتنا، وأصل هذه الكلمة: أنها تُستعمل للتحقير، والتجهيل، واللكع: العبد الوغد، والقليل العقل، ويقال للأنثى: لكعاء، ويُعدل به في النداء إلى لَكاعِ، وقد تقدم القولُ فيه. ويُحتمل أن يكون النبيُّ ﷺ مُمازِحاً بذلك اللفظ، ومُؤْنِساً كما يقول الرجلُ لابنه الصَّغير: تعالَ يا كُليب، وكما قالت العربية لابنها وهي تُرَقِّصه: حُزُقَّة عيْن بقّة[٤]. والسِّخاب: خيطٌ فيه خرز يُنظم، ويُجعل في عنق الصِّبيان، والسِّخاب مأخوذ من السخب، وهو اختلاطُ الأصوات، وارتفاعها، وكأنَّ هذه الخرزات لها أصواتٌ مختلفة عند احتكاك بعضها مع البعض، وقيل: السِّخاب من القلائد: ما اتُّخِذ من القرنفل، والمسك، والعود وشبهه، دون الجوهر. وفيه من الفقه: المحافظةُ على النظافة، وعلى تحسين الصِّغار، وتزيينهم، وخصوصاً عند لقاء من يُعظَّم ويُحترم.

تحسين الصغار وتزيينهم

---

(١) رواه عبد الرزاق (٤٩٨٤)، والطبراني (٢٧٠٨)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٦٤).

(٢) ما بين حاصرتين سقط من (ع).

(٣) رواه الترمذي (٢٣١٧)، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٠٣).

(٤) في اللسان مادة (حزق). وفي كلامهم: (حُزُقَّةٌ حُزُقَّةْ، تَرَقَّ عين بَقَّهْ). الحزقة: الضعيف يقارب خطوه. تَرَقَّ: بمعنى اصعد. عَيْنُ بَقَّة: كناية عن صغر العين.

فظنَنَّا أنَّه إنما تحبسه أمُّه لأنْ تُغَسِّلَهُ، وتُلْبِسهُ سِخَاباً، فلم يلبثْ أن جاء يسعى، حتى اعتنق كلُّ واحدٍ منهما صاحبه، فقال رسول الله ﷺ: «اللهُمَّ إنِّي أحبُّهُ؛ فأحبَّه، وأحبَّ مَنْ يحبُّه».

رواه أحمد (٢/ ٣٣١)، والبخاريُّ (٢١٢٢)، ومسلم (٢٤٢١) (٥٧)، وابن ماجه (١٤٣).

[٢٣٣٢] وعن البراء، قال: رأيتُ رسول الله ﷺ واضعاً الحسنَ بنَ عليٍّ على عاتقه وهو يقول: «اللهم إنِّي أحبُّه فأحبَّهُ».

رواه أحمد (٤/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤) و (٤/ ٢٩٢)، والبخاريُّ (٣٧٤٩)، ومسلم (٢٤٢٢) (٥٩)، والترمذيّ (٣٧٨٣).

حُكم المعانقة عند السلام

و (قوله: حتى اعتنق كلُّ واحدٍ منهما صاحبه) فيه ما يدلُّ على تواضع النبيِّ ﷺ ورحمته بالصِّغار، وإكرامه ومحبَّته للحسن، ولا خلافَ ـ فيما أحسب ـ في جواز عِناق الصِّغار كما فَعَل النبي ﷺ، وإنما اختلف في عناق الكبير في حالة السلام، وكرهه مالك، وأجازه سفيان بن عُيينة، وغيره، واحتجَّ سفيان على مالك في ذلك بعناق النبيِّ ﷺ جعفراً لما قدم عليه، فقال مالك: ذلك مخصوصٌ بجعفر. وقال سفيان: ما يخصُّ جعفراً يعمّنا، فسكت مالك، ويدلُّ سكوتُ مالكٍ على أنه ظهر له ما قاله سُفيان من جواز ذلك. قال القاضي عِياض: وهو الحقُّ حتى يدلَّ دليلٌ على تخصيص جعفر بذلك. والعاتق: ما بين المنكب إلى العنق، وقيل: هو موضعُ الرِّداء من المنكب. وفيه من الفقه ما يدلُّ على: جواز حَمْل الصِّبيان، وتَرْك التعمُّق في التحفظ مما يكونُ منهم من المخاط والبول، وغير ذلك، فلا يُجتنبُ من ذلك إلا ما ظهرتْ عينه، أو تحقق، أو تفاحش، وكان النبيُّ ﷺ وأصحابُه يعملون على مقتضى الحنيفيَّة السَّمحة، فيمشون حفاةً في الطِّين، ويجلسون بالأرض، وتكون عليهم الثيابُ الوسخة التي ليستْ بنجسة،

جواز حَمْل الصبيان

[٢٣٣٣] وعن إياسٍ عن أبيه، قال: لقد قُدْتُ بنبيِّ الله ﷺ والحسنِ والحُسَيْنِ، بَغْلَتَهُ الشَّهْباءَ. حتى أدخلْتُهمُ حُجْرَةَ النَّبيِّ ﷺ، هذا قُدَّامَهُ، وهذا خلفه.

رواه مسلم (٢٤٢٣)، والترمذيّ (٢٧٧٥).

* * *

(٤٢) بـــاب

فضائل أهل البيت ـ رضي الله عنهم ـ

[٢٣٣٤] عن عائشةَ، قالت: خرج النَّبيُّ ﷺ غداةً وعليه مِرْطٌ مُرَحَّلٌ

ويلعقـون أصـابعَهـم، والقصعةَ عنـد الأكـل، ولا يعيبـون شيئاً مـن ذلـك، ولا يتوسوسون فيه، وكلُّ ذلك ردٌّ على غلاة متوسوسة الصوفية اليوم؛ فإنَّهم يُبالغون في نظافة الظَّواهر والثياب، وبواطنُهم وسخةٌ خَراب.

التحذير من الوسوسة

و (قوله: لقد قدتُ برسول الله ﷺ والحسنِ والحسينِ بغلته) هذا يدلُّ على جواز ركوب ثلاثةٍ على دابَّةٍ؛ لكن إذا لم يثقلوها، وقد روي عن عليٍّ وغيره: كراهة ذلك، ورُوي في ذلك نهيٌ عن النبيِّ ﷺ لكن محله ـ والله تعالى أعلم ـ على ما إذا أثقلها وفَدَحها[١].

(٤٢) ومن بـــاب: فضائل أهل البيت

(قوله: مرط مُرَحَّل) المِرط: الكساء، وجمعه: مُروط. والمرحَّل: يُروى بالحاء يعني: فيه صور الرِّحال، ويُروى بالجيم، أي: فيه صور الرجال، أو صور

---

(١) «فدحها»: أي أثقلها.

من شعرٍ أسودَ، فجاء الحسنُ بنُ عليٍّ فأدخله، ثم جاء الحسينُ فدخل معه، ثم جاءت فاطمةُ فأدخلها، ثم جاء عليٌّ فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

رواه مسلم (٢٤٢٤) (٦١).

[٢٣٣٥] وعن يزيدَ بنِ حيَّانَ، قال: انطلقتُ أنا وحصينُ بن سَبْرَةَ وعُمر بنُ مُسْلمٍ إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيتَ يا زيدُ خيراً كثيراً؛ رأيتَ رسولَ الله ﷺ، وسمعتَ حديثه، وغزوت معه، وصلَّيتَ خلفه، لقد لقيت يا زيدُ خيراً كثيراً! حدِّثْنا يا زيدُ ما سمعتَ من رسول الله ﷺ!.

المراجل، وهي: القدور، يقال: ثوب مراجل، أو ثوب مرجَّل: هذا قولُ الشارحين.

قلتُ: ويظهرُ لي أنَّ المرجَّل هنا: يُراد به الممشوط خمَلُه وزُبْرُه[1]. قال امرؤ القيس:

خَرَجْتُ بِهَا أَمْشِي[2] تَجُرُّ وَرَاءَنا عَلَى أَثَرَيْنا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ

وهذا أولى؛ لأن النبيَّ ﷺ كيف يلبسُ الثوبَ الذي فيه صورُ الرِّجال؟ مع أنه قد نهى عن الصور، وهَتَك السِّترَ الذي كانتْ فيه، وغضب عند رؤيته، كما تقدَّم في اللباس. وقراءةُ النبيِّ ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] دليلٌ على: أنَّ أهلَ البيت المعنيون[3] في

طهارة أهل البيت

---

(١) «الزُّبر»: الشَّعر المجتمع للفحل وغيره.
(٢) في (ز): خرجتَ بها تمشي... مُرجَّلِ.
(٣) كذا في كل النسخ.

قال: يا بن أخي! والله لقد كَبِرتْ سِنِّي، وقَدُم عهْدي، ونسيتُ بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ، فما حدّثتكم فاقبلوا، وما لا فلا تُكلِّفُونِيهِ! ثم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماءٍ يُدْعى خُمّاً بين مكة والمدينة، فحَمِدَ الله وأثنى عليه، ووعَظَ، وذكَّر، ثم قال: «أما بعدُ أَلَا أيُّها النَّاس! إنَّما أنا بشرٌ يُوشك أن يأتيني رسولُ ربي فأُجيب، وأنا تاركٌ فيكم ثَقَلَيْن، أوَّلهما كتاب الله فيه الهُدى والنور، فخذوا بكتاب الله،

الآية: هم المغطَّوْن بذلك المرط في ذلك الوقت. والرجس: اسم لكلِّ ما يُستقذر. قاله الأزهريُّ. والمراد بالرِّجس الذي أُذهب عن أهل البيت: هو مستخبثُ الخُلُق المذمومة، والأحوال الرَّكيكة، وطهارتهم: عبارةٌ عن تجنُّبهم ذلك، واتِّصافهم بالأخلاق الكريمة، والأحوال الشريفة. /

و (قوله: قام فينا رسولُ الله ﷺ خطيباً بماء يدعى خُمّاً) هو بضم الخاء المعجمة، وهو موضعٌ معروفٌ، وهو الذي أكثرتِ الشيعةُ وأهلُ الأهواء فيه من الكذب على رسول الله ﷺ في استخلافه علياً، ووصيَّته إياه، ولم يصحَّ من ذلك كلِّه شيءٌ إلَّا هذا الحديث.

و (قوله: «وأنا تاركٌ فيكم ثَقَلين») يعني: كتاب الله وأهل بيته. قال ثعلب: سمَّاهما ثقلين؛ لأن الأخذَ بهما، والعملَ بهما ثقيل، والعرب تقول لكلِّ شيءٍ خطيرٍ نفيسٍ: ثقيل.

قلــتُ: وذلك لحرمة الشَّيء النَّفيس، [وصعوبة روم الوصول إليه، فكأنه ﷺ إنما سمَّى كتابَ الله، وأهل بيته: ثقلين لنفاستهما، وعظم حرمتهما][١]، وصعوبة القيام بحقِّهما.

و (قوله في كتاب الله: «هو حبلُ الله») أي: عهد الله الذي عهده لعباده، حبلُ الله: كتابُه

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ع).

واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغَّب فيه. ثم قال: «وأهلُ بيتي، أُذكِّركُمُ اللَّهَ في أهلِ بيتي! أذكِّركم اللَّهَ في أهل بيتي! أذكِّركم اللَّهَ في أهل بيتي!». فقال له حصين: ومن أهلُ بيته يا زيد؟! أليس نساؤُهُ من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته. ولكن: أهلُ بيته من حُرِمَ الصدقة بعده؟ قال: ومن هُم؟ قال: هُمْ آلُ عليٍّ، وآل عقيل، وآلُ جعفر، وآلُ عبَّاسٍ. قال: كل هؤلاء حُرِم الصدقة؟ قال: نعَم.

وسَبَبه القويّ الذي مَن تمسَّك به وَصَلَ إلى مقصوده، وقد ذكر هذا المعنى بأشبع من هذا فيما تقدَّم.

و (قوله: «وأهل بيتي، أُذكِّركم الله في أهل بيتي ـ ثلاثاً ـ») هذه الوصية،

وجوب احترام آل النبي

وهذا التأكيدُ العظيم يقتضي: وجوبَ احترام آل[1] النبيِّ ﷺ وأهل بيته، وإبرارهم، وتوقيرهم، ومحبتهم وجوب الفروض المؤكدة التي لا عُذرَ لأحدٍ في التخلُّف عنها. هذا مع ما عُلِم من خصوصيَّتهم بالنبيِّ ﷺ وبأنَّهم جزءٌ منه، فإنَّهم أصولُه التي نشأ منها، وفروعه التي تنشأ عنه، كما قال ﷺ: «فاطمةُ بَضْعةٌ مني يُريبني ما يُريبها»[2]، ومع ذلك فقابل بنو أمية عظيمَ هذه الحقوق بالمخالفة والعقوق،

موقف بني أمية من آل البيت

فسفكوا من أهل البيت دماءهم، وسبوا نساءهم، وأسروا صغارهم، وخربوا ديارهم، وجحدوا شرفهم، وفضلهم، واستباحوا سبَّهم، ولعنهم، فخالفوا رسولَ الله ﷺ في وصيته، وقابلوه بنقيض مقصوده وأمنيته، فواخجلهم إذا وقفوا بين يديه! ويا فضيحتهم يوم يعرضون عليه!.

و (قوله: مَنْ أهلُ بيته؟ أليس نساؤه مِن أهل بيته؟) هذا سؤالُ من تمسَّك

---

(١) ليست في (ز).

(٢) رواه أحمد (٣٢٨/٤)، والبخاري (٥٢٧٨)، ومسلم (٢٤٤٩) (٩٣)، وأبو داود (٢٠٧١)، والترمذي (٣٨٦٧)، وابن ماجه (١٩٩٨).

وفي روايةٍ: «كتاب الله: هو حبل الله، من اتَّبَعَهُ كان على الهدى، ومن تركه كان على ضَلالةٍ»، وفيها: فقلنا: ومن أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا، وايم الله! إنّ المرأة تكون مع الرجل العصْرَ من الدهر، ثم يُطَلِّقُها فتَرجعُ إلى أبيها وقومها. أهلُ بيته أصلهُ وعَصَبتهُ الذين حُرِمُوا الصدقَةَ بعدَهُ.

رواه أحمد (٣/ ١٤ و ١٧)، ومسلم (٢٤٠٨) (٣٦ و ٣٧).

* * *

بظاهر لفظ البيت، فإنَّ الزوجةَ: هي أصلُ بيت الرجل، إذ هي: التي تعمره، وتُلازمه، وتقومُ بمصالحه، وكذلك إجابة زيدٍ بأن قال: نساؤه من أهل بيته. أي: بيته المحسوس، وليس هو المرادُ هنا، ولذلك قال في الرواية الأخرى في جواب السائل: لا! أي: ليس نساؤه من أهل بيته، المعنى هنا: لكن هم أصلُه وعصبته، ثم عيَّنهم بأنهم: هم الذين حُرِموا الصدقة. أي الذين تحرمُ عليهم الصدقات الشرعية على الخلاف الذي ذكرناه في كتاب: الزكاة، وقد عيَّنهم زيدٌ تعييناً يرتفعُ معه الإشكال، فقال: هم آل عليٍّ، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس ـ رضي الله عنهم ـ فقيل له: أكلَّ هؤلاء حرم الصَّدقة؟ قال: نعم. وقد ذهب بعضُ المتأولين في هذا اللفظ إلى أنَّ مرادَ زيدٍ به: الذين منعهم خلفاء بني أمية صدقة النبيِّ ﷺ بما كان خصَّه اللَّهُ تعالى به التي كانت تقسم عليهم أيام الخلفاء الأربعة. وهذا فيه بُعْدٌ، فالأول أظهر.

من هم أهل البيت؟

* * *

(٤٣) بـــاب
فضائل زيدِ بن حارثةَ وأسامةَ بن زيدٍ

[٢٣٣٦] عن ابن عمر، أنَّه كان يقول: ما كنا ندعو زيدَ بن حارثةَ إلا زيْداً بن محمدٍ. حتى نزل في القرآن: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥].

---

(٤٣) ومن بـــاب: فضائل زيد بن حارثة بن شرحبيل ابن كعب الكلبي مولى رسول الله ﷺ

كنيته وأصله وإسلامه

ويُكنى: أبا أسامة بابنه أسامة بن زيدٍ، وكان أصابه سباءٌ في الجاهلية فاشتراه حكيم بن حزام لخديجةَ بنت خُويلد ـ رضي اللَّهُ عنها ـ فوهبته للنبيِّ ﷺ وذلك قبل النبوَّة بمكة، وزيدٌ ابنُ ثماني سنين، فأعتقه، وتبنَّاه النبيُّ ﷺ فكان يطوفُ به على حِلَق قريشٍ ويقول: «هذا ابني وارثاً، وموروثاً»[1] ـ يشهدهم على ذلك ـ. وذكر عن الزُّهريِّ: أنَّه قال: ما علمتُ أحداً أسلم قبل زيدٍ. ورُوي عن الزُّهريِّ من وجوهٍ: أنَّ أوَّلَ من أسلم خديجة. وقُتِل زيدٌ بمؤتة من أرض الشام سنة ثمانٍ من الهجرة، وكان النبيُّ ﷺ أمَّره في تلك الغزاة، وقال: «إن قُتِل زيدٌ فجعفر، فإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة»[2] فقتل الثلاثة في تلك الغزاة، ولمَّا أتى رسولَ الله ﷺ نعيُ زيدٍ، وجعفرٍ بكى، وقال: «أخواي، ومؤنساي، ومحدِّثاي»[3].

استشهاده بمؤتة

التبني ونسخه

و (قوله: ما كنَّا ندعو زيد بن حارثة إلا زيدَ ابن محمّد) كان التبنِّي معمولاً به في الجاهلية والإسلام، يُتوارث به، ويُتناصر؛ إلى أن نسخَ الله ذلك كلَّه بقوله: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥] أي: أعدلُ. فرفعَ الله تعالى

---

(١) انظر: الإصابة (٣/ ٢٥).

(٢) رواه أبو داود (٢٦٢٧).

(٣) ذكره ابن الأثير في الاستيعاب (٢/ ٢٨٤).

رواه أحمد (٢/ ٧٧)، والبخاريُّ (٤٧٨٢)، ومسلم (٢٤٢٥)، والترمذي (٣٢٠٩).

حكم التبنِّي، ومنعَ من إطلاق لفظه، وأرشدَ بقوله إلى الأَوْلى والأعدل أن يُنسب الرَّجلُ إلى أبيه نسباً، ولو نُسب إلى أبيه من التبنِّي؛ فإن كان على جهة الخطأ ـ وهو أن يسبقَ اللسان إلى ذلك من غير قصدٍ ـ فلا إثمَ، ولا مؤاخذةَ، لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٥] أي: لا إثمَ فيه، ولا يجري هذا المجرى إطلاق ما غلبَ عليه اسم التبنِّي، كالحال في المقداد بن عمرو؛ فإنَّه قد غلبَ عليه نسبُ التبنِّي، فلا يكادُ يُعرف إلا بالمقداد بن الأسود، فإنَّ الأسودَ بن عبد يغوث كان قد تبنَّاه في الجاهلية، وعُرف به، فلمّا نزلتِ الآية قال المقداد: أنا ابنُ عمرو، ومع ذلك فبقي ذلك الإطلاق عليه، ولم يُسمع فيمن مضى من عصَّى[1] مُطْلِقَ ذلك عليه؛ وإن كان متعمداً. وليس[2] كذلك الحال في زيد بن حارثة؛ فإنَّه لا يجوزُ أن يُقالَ فيه: زيدَ بن محمَّد، فإن قاله أحدٌ متعمِّداً عَصَى، لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥] أي: فعليكم فيه الجناحُ. والله تعالى أعلم. ولذلك قال بعده: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥] أي: غفوراً للعمد ورحيماً برفع إثم الخطأ.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] أي: انسبوهم إليهم، ولذلك عدَّاه باللام، ولو كان الدُّعاء بمعنى: النداء لعدَّاه بالباء.

و (قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]) فانسبوهم إليكم نسبة الأخوَّة الدينيَّة التي قال الله فيها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] والمولويَّة التي قال فيها: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]. وقد تقدَّم: أنَّه يُقال: مولى على المُعْتِق، والمُعْتَق، وابن العمِّ، والنَّاصر.

---

(١) «عصَّى»: اعتبره عاصياً لله.

(٢) ساقطة من (ع) و (م ٤).

[٢٣٣٧] وعنه؛ قال: بعث رسولُ الله ﷺ بَعْثاً. وأمَّر عليهم أسامةَ ابن زيدٍ، فطعن النّاس في إمرته، فقام رسول الله ﷺ فقال: «إنْ تطعنوا في إمْرَتِه؛ فقد كنتم تطعنون في إمْرة أبيه من قبل، وايْمُ الله! إنْ كان لخليقاً

خروج أسامة أميراً على الجيش

و (قوله: بعثَ رسول الله ﷺ بَعْثاً، وأمَّر عليهم أسامةَ بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ) هذا البعثُ ـ والله تعالى أعلم ـ هو الذي جهَّزه رسولُ الله ﷺ مع أسامة، وأمَّره عليهم، وأمرَه أن يغزوَ أُبنى، وهي القرية التي هي عند مؤتة ـ الموضع الذي قُتل فيه زيدٌ أبو أسامة ـ فأمرَه أن يأخذَ بثأر أبيه. وطعن من في قلبه ريبٌ في إمارته؛ من حيث: أنَّه من الموالي، ومن حيث: إنَّه كان صغيرَ السِّنِّ؛ لأنَّه كان إذ ذاك ابنَ ثماني عشرة سنةً، فماتَ النبيُّ ﷺ وقد برزَ هذا البعثُ عن المدينة، ولم ينفصل بعدُ عنها، فنفَّذَه أبو بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ بعد موت رسول الله ﷺ.

و (قوله: «إن تطعنوا في إمرته؛ فقد كنتم طعنتم في إمرة أبيه قبل») هذا خطابٌ منه ﷺ لمن وقع له ذلك الطعن، لكنه على كريم خُلُقه لم يُعيِّنهم ستراً لهم؛ إذ مَعْتبتُه كانت كذلك، كما تقدَّم، وكان الطَّعن في إمارة زيدٍ من حيث أنَّه كان مولىً، فشهد النبيُّ ﷺ لأسامة وأبيه ـ رضي الله عنهما ـ بأنَّهما صالحان للإمارة، لما يعلم من أهليَّتهما لها، وأنَّ كونهما موليَيْن لا يغضُّ من مناصبهما، ولا يقدحُ في أهليَّتهما للإمارة. ولا خلاف أعلمُ في جواز إمارة المولى والمفضول، وقد تقدَّم القولُ في استخلاف المفضول. و (الإمرة) رويناها بالكسر بمعنى: الولاية، وقال أبو عُبيد: يُقال: لك عليَّ أمرةٌ مطاعةٌ ـ بفتح الهمزة ـ وكذلك حكاه القتبي، وهي واحدة الأمر.

شهادته ﷺ في صلاحية أسامة وزيد بالإمارة

قلتُ: وهذا على قياس: جَلسة، وجِلسة ـ بالفتح للمصدر والكسر للهيئة ـ.

والخليقُ، والحريُّ، والقَمِنُ، والحقيقُ: كلُّها بمعنىً واحدٍ.

للإِمْرَةِ، وإن كان لمن أحبِّ النَّاس إليَّ، وإنَّ هذا لمن أحبِّ النَّاس إليَّ بَعدَه».

و (قوله: «وإن كان لمن أحبِّ النَّاس إليَّ») (إنْ) عند البصريين مخففةٌ من الثقيلة، واللاَّم الداخلة بعدها هي المفرقة بين (إنْ) المخففة وبين (إنْ) الشرطية. وعند الكوفيين: (إن) نافية، واللام بمعنى: إلا. وهذا نحو قوله[1]:

شَلَّتْ[2] يَمِينُكَ إنْ قَتَلْتَ لَمُسْلِماً حَلَّتْ عَلَيْكَ عقوبةُ المُتَعَمِّدِ

تقديرها عند البصريين: إنَّك قتلت مسلماً. وعند الكوفيين: ما قتلت إلا مسلماً. وهذا من رسول الله ﷺ خبرٌ عن محبَّته [لزيدٍ ـ رضي الله عنه ـ ثمَّ أخبرَ عن محبَّته][3] لأسامة فقال: «وإنَّ هذا من أحبِّ الناس إليَّ بعده». فكان أسامةُ الحِبَّ ابن الحِبِّ. وبذلك كان يُدعى. ورضي الله عن عمر بن الخطَّاب؛ لقد قامَ بالحقِّ، وعرفَه لأهله، وذلك: أنَّه فرضَ لأسامةَ في العَطاء خمسة آلافٍ، ولابنه عبد الله ألفين. فقال له عبدُ الله: فضَّلت عليَّ أسامةَ، وقد شهدتُ ما لم يشهدْ؟! فقال ـ رضي الله عنه ـ: إنَّ أسامةَ كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ منك وأبوه كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من أبيكَ. ففضَّل محبوبَ رسول الله ﷺ على محبوبه، وهكذا يجبُ أن يُحَبَّ ما أحبَّ رسولُ الله ﷺ ويُبغضَ ما أبغضَ، وقد قابل مروانُ هذا الحبَّ الواجبَ بنقيضه، وذلك: أنَّه مرَّ بأسامةَ بن زيد وهو يُصلِّي عند باب بيت رسول الله ﷺ فقال له مروان: إنَّما أردتَ أن يُرى مكانُك فقد رأينا مكانَك، فعل الله بك وفعل ـ قولاً قبيحاً ـ فقال له أسامة: إنَّك آذيتني، وإنَّك فاحشٌ متفحِّشٌ،

محبته ﷺ لزيد وأسامة

---

(١) البيت لعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل القرشية العدوية، ترثي زوجها الزبير بن العوَّام رضي الله عنه، وتدعو على عمرو بن جرموز قاتله.

(٢) شلَّت: بفتح الشين، وأصل الفعل شلِلَت، ومن يقوله بضم الشين فقد أخطأ.

(٣) ما بين حاصرتين ساقط من (م ٤).

زاد في أخرى: «فأوصيكم به فإنَّه من صالحيكم».

رواه أحمد (٢/ ١١٠)، والبخاريُّ (٦٦٢٧)، ومسلم (٢٤٢٦) (٦٣ و ٦٤)، والترمذيُّ بإثر حديث (٣٨١٦).

* * *

وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ اللَّه يُبغضُ الفاحشَ المتفحّش»[(١)]. فانظر ما بين الفعلين، وقس ما بين الرَّجلين، فلقد آذى بنو أمية رسولَ الله ﷺ في أحبابه، وناقضُوه في مَحابّه.

تنبيـــه: روى موسى بن عقبة عن سالم، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أحبُّ الناس إليَّ أسامة» فما حاشا فاطمة ولا غيرَها. وهذا يُعارضُه ما تقدَّم من قوله ﷺ: «إنَّ أحبَّ الناس إليَّ عائشة، ومن الرِّجال أبوها»[(٢)] ويرتفع التَّعارض من وجهين؛ أحدُهما: أن الأحاديث الصحيحة المشهورة إنما جاءت في حُبّه لأسامة بـ(مِن) التي للتبعيض، كما قد نصَّ عليه بقوله ﷺ: «إنه لمن أحبِّ النَّاس إليَّ». وقد رواه هشام بن عروة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أسامة بن زيد أحبُّ النَّاس إليَّ» أو «من أحبِّ الناس إليَّ»[(٣)] فعلى هذا يُحتمل أن يكونَ النبيُّ ﷺ قال: «إنَّ من أحبِّ الناس إليَّ أسامة» فأسقطَها بعض الرواة.

محبّتـــه ﷺ للآخـريـن للمعـانـي

والوجه الثاني: على تسليم أن صحيحَ الرواية بغير من فيرتفع التعارضُ بأنَّ كلَّ واحدٍ من هؤلاء أحبُّ بالنسبة إلى عالمه، وبيان ذلك: أنه ﷺ ما كان يُحبُّ هؤلاء من حيث الصورة الظاهرة؛ فإن أسامة كان أسودَ أفطسَ، وإنما كان يُحبُّهم من حيث المعاني، والخصائص التي كانوا موصوفين بها، فكان أبو بكر ـ رضي الله

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٠٢)، وابن حبان (٥٦٩٤) الإحسان.

(٢) تقدم تخريجه في التلخيص برقم (٢٧٠٢).

(٣) ذكره ابن الأثير في «أسد الغابة» (١/ ٧٩) عن ابن عمر.

(٤٤) بـــاب
فضائل عبد الله بن جعفر

[٢٣٣٨] عن مُوَرِّقٍ العِجْليِّ، عن عبدِ الله بن جعفرٍ؛ قال: كان

عنه ـ أحبَّ إليه من حيث إنه كان له من أهلية النِّيابة عنه، والخلافة في أمته ما لم يكن لغيره، وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ أحبَّ النساء إليه من حيث أنَّ لها من العلم والفضيلة ما استحقَّت به أن تفضلَ على سائر النساء، كما فضَّل الثريدَ على سائر الطعام. وكان أسامةُ ـ رضي الله عنه ـ أيضاً أحبَّ إليه من حيث إنه كان قد خُصَّ بفضائلَ ومناقبَ استحقَّ بها أن يكونَ أحبَّ الموالي إليه، فإنه أفضلُهم وأجلُّهم، ولذلك قال ﷺ: «أوصيكم به خيراً فإنه من صالحيكم»، فأكّد الوصية به، ونبَّه على الموجب لذلك، وهو ما يعلممُه من صَلاحه وفضله، وقد ظهرَ ذلك عليه؛ فإنه لم يدخلْ في شيءٍ من الفتن فسلَّمه الله تعالى من تلك المِحن، إلى أن تُوفِّيَ في خلافة معاوية سنة سبع وخمسين، وقيل: سنة أربع وخمسين ـ رضي الله عنه ـ.

وفاة أسامة رضي الله عنه

(٤٤) ومـن بـــاب: فضائل عبد الله بن جعفر
ابن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ

كنيته وولادته ووفاته

يُكنى: أبا جعفر، وأمُّه: أسماء بنت عميس، ولدته بأرض الحبشة، وهو أولُ مولودٍ من المسلمين وُلِد بها، وتوفي بالمدينة سنة ثمانين، وهو ابنُ تسعين سنة، وكان عبدُ الله كريماً جواداً، طريفاً، حليماً، عفيفاً، سخياً، يُسمَّى: بحر الجود. يُقال: إنه لم يكن في الإسلام أسخى منه، وعُوتب في ذلك فقال: إن الله عوَّدني عادة، وعوَّدت الناسَ عادةً، وأنا أخافُ إن قطعتُها قُطِعتْ عني. وأخباره في الجود شهيرة، وفضائله كثيرة، وجُملة ما روى عن رسول الله ﷺ خمسةٌ وعشرون حديثاً. أخرج له منها في الصحيحين حديثان.

أخلاقه وصفاته

جملة ما روى عن رسول الله

رسول الله ﷺ إذا قَدِم من سفرٍ تُلُقِّي بصبيانِ أهلِ بيته. قال: وإنَّه قَدِمَ من سفرٍ فسُبِق بي إليه، فحملني بين يديه، ثُمَّ جِيءَ بأحدِ ابْنيْ فاطمةَ، فأرْدَفَه خلفه. قال: فأدخلنا المدينة، ثلاثةً على دابَّةٍ.

رواه أحمد (٤/ ٥)، ومسلم (٢٤٢٨) (٦٦ و ٦٧)، وأبو داود (٢٥٦٦)، وابن ماجه (٣٧٧٣).

[٢٣٣٩] وعنه؛ قال: أردفني رسولُ الله ﷺ ذاتَ يومٍ خلفه. فأسرَّ إليَّ حديثاً. لا أُحدِّثُ به أحداً من النَّاس.

رواه مسلم (٢٤٢٩) (٦٨)، وأبو داود (٢٥٢٩).

* * *

و (قوله: كان رسولُ الله ﷺ إذا قدِم من سفرٍ تُلُقِّيَ بصبيان أهل بيته) إنما كانوا يتلقونه بصبيان بيته لما يعلمونه من محبَّته لهم، ومن تعلق قلبه بهم، ولفرط فرح الصغار برؤيته، ولتنالهم بوادرُ بركته.

محبته ﷺ لصبيان آل بيته

و (قوله: فَسُبِق بي إليه، فحملني بين يديه) يدلُّ على: أن عبد الله بن جعفر من أهل البيت الذين أذهب اللَّهُ عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، ويدلُّ على: محبة النبيِّ ﷺ لعبد الله بن جعفر وعلى شدة تهمُّمه به، وإكرامه له، وكان ﷺ يخصُّ ولد جعفر بزيادة احترام وإكرام جَبْراً لهم، وشفقةً عليهم؛ إذ كان أبوهم جعفر قُتِل بمؤتة شهيداً ـ رضي الله عنه ـ، وقد تقدَّم القولُ على ركوب ثلاثةٍ على دابَّةٍ.

محبته ﷺ لعبد الله بن جعفر

و (قوله: أردفني رسولُ الله ﷺ خلفه ذات يومٍ فأسرَّ إليَّ حديثاً لا أُحدِّث به أحداً) دليلٌ على: عُلوِّ مكانته عند النبيِّ ﷺ وكمال فضله، وأهليته لأن يتَّخذه النبيُّ ﷺ موضعَ سرِّه، وهذه أهليَّةٌ شريفة، وفضيلةٌ منيفة.

علوّ مكانته عند رسول الله

(٤٥) بـــاب
فضائل خديجة بنت خويلد

[٢٣٤٠] عن عليٍّ، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجةُ بنتُ خُوَيْلد».

رواه البخاريُّ (٣٨١٥)، ومسلم (٢٤٣٠)، والترمذيّ (٣٨٧٧).

---

(٤٥) ومن بـــاب: فضائل خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزَّى بن قصي القرشية الأسدية ـ رضي الله عنها ـ

زواجه ﷺ من خديجة

كانت تُدعى في الجاهلية: الطاهرة، تزوَّجها رسولُ الله ﷺ قبل النبوة ثيِّباً بعد زوجين: أبي هالة؛ هند بن النباش التميمي، فولدت له هنداً، وعتيق بن عائذ المخزومي، ثم تزوَّجها رسولُ الله ﷺ وهي بنت أربعين سنة، وأقامتْ معه أربعاً وعشرين سنة، وتوفيت وهي بنت أربع وستين سنة وستة أشهر، وكان رسولُ الله ﷺ إذ تزوج خديجةَ ابن إحدى وعشرين سنة. وقيل: ابن خمس وعشرين سنة وهو الأكثر. وقيل: ابن ثلاثين. وأجمع أهلُ النقل: أنها ولدت له أربع بنات كلّهن أدركن الإسلام، وأسلمن، وهاجرن: زينب، وفاطمة، ورقية، وأم كلثوم. وأجمعوا أنها ولدت له ابناً يُسمَّى: القاسم، وبه كان يكنى، واختلفوا هل ولدت له ذكراً غير القاسم؟ فقيل: لم تلد له ذكراً غيره. وقيل: ولدتْ له ثلاثةَ ذكور: عبد الله، والطيب، والطاهر. وقيل: بل ولدت له: عبد الله؛ والطيب والطاهر: اسمان له. والخلاف في ذلك كثير، والله تعالى أعلم. ومات القاسمُ بمكة صغيراً. قيل: إنه بلغ إلى أن مشى، وقيل: لم يعشْ إلا أياماً يسيرةً، ولم يكن للنبيِّ ﷺ ولد من غير خديجة إلا إبراهيم، ولدته ماريةُ القبطية بالمدينة، وبها توفي وهو رضيع، ومات بناتُ النبيِّ ﷺ كلهن قبل موته إلا فاطمة؛ فإنها توفيت بعده بستة أشهر، وكانت خديجة ـ رضي الله عنها ـ امرأةً شريفةً عاقلة فاضلة حازمة ذات

أولاده ﷺ من خديجة

أخلاق خديجة وصفاتها

. . . .

مال، وقد تقدَّم أنها أول مَن آمن بالنبيِّ ﷺ وأنه ﷺ نُبِّىء يوم الإثنين فصلّت آخر ذلك اليوم، وكانت عوناً للنبيِّ ﷺ على حاله كله، ورِدءاً له تثبِّتُه على أمره، وتصدِّقه فيما يقوله، وتصبِّره على ما يلقى من قومه من الأذى والتكذيب، وسلَّم عليها جبريلُ ـ عليه السلام ـ وبشَّرها بالجنة، وروي من طرق صحيحة أنه ﷺ قال فيما رواه عنه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «خير نساء العالمين أربعٌ: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة ـ رضي الله عنهن ـ»[(١)]. ومن حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبيِّ ﷺ: «أفضلُ نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»[(٢)]. وفي طريق آخر عنه: «سيدةُ نساء أهل الجنة بعد مريم: فاطمة وخديجة»[(٣)]. وكان النبيُّ ﷺ يحبها ويقول: «رُزِقْتُ حبها»[(٤)]؛ ولم يتزوج عليها إلى أن ماتت. قيل: كانت وفاتها قبل مهاجر النبيِّ ﷺ إلى المدينة بسبع سنين. وقيل: بخمس سنين. وقيل: بأربع. وقيل: بثلاث، وهو أصحُّها، وأشهرها ـ إن شاء الله تعالى ـ وتوفيت هي وأبو طالب ـ عم رسول الله ﷺ ـ في سنة واحدة. قيل: كان بينهما ثلاثة أيام، وتوفيت في رمضان، ودُفنت بالحجون.

خيـر نسـاء العالمين أربع

وفـاتهـا رضي الله عنها

و (قوله: «خيرُ نسائها: مريم ابنة عمران») هذا الضميرُ عائد على غير مذكور؛ لكنه تفسِّره الحالُ والمشاهدةُ، يعني به: الدنيا، وفي رواية: وأشار وكيعٌ

---

(١) رواه ابن حبان (٢٢٢٢/ موارد)، وأحمد في فضائل الصحابة (١٣٢٥)، والترمذي (٣٨٨٨) من حديث أنس.

(٢) رواه أحمد (١/ ٢٩٣)، والحاكم (٣/ ١٦٠)، وانظر الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٢٣).

(٣) كذا ورد في الأصول: (سيدة) بالإفراد، وذكر بعد مريم: فاطمة وخديجة. وفي سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ١١٧)، والاستيعاب على هامش الإصابة (٤/ ٢٨٦) وَرَد ذِكر ثالثة هي: امرأة فرعون.

(٤) انظر: صحيح مسلم (٢٤٣٠) (٦٩).

[٢٣٤١] وعن أبي هريرة، قال: أتى جبريلُ النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله! هذه خديجة قد أَتَتْك؛ معها إناء فيه إدامٌ، أو طعام، أو شراب،

مريم خير نساء الدنيا

إلى السماء والأرض ـ يريدُ الدُّنيا ـ كأنه يفسر ذلك الضمير؛ فكأنه قال: خير نساء الدنيا: مريم بنت عمران. وهذا نحو حديث ابن عباس المتقدِّم، الذي قال فيه: «خيرُ نساء العالمين: مريم». ويشهد لهذه الأحاديث في تفضيل مريم: قولُ الله تعالى حكايةً عن قول الملائكة لها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

فظاهرُ القرآن والأحاديث يقتضي: أنَّ مريم أفضلُ من جميع نساء العالم، من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة، ويعتضد هذا الظاهر: بأنها صدِّيقة ونبيَّة بلَّغتها الملائكةُ الوحيَ عن الله تعالى بالتكليف، والإخبار، والبشارة، وغير ذلك؛ كما بلَّغته سائر الأنبياء، فهي إذاً نبيَّة، وهذا أولى مِن قول مَن قال: إنها غير نبيَّة، وإذا ثبت ذلك، ولم يُسمع في الصحيح أن في النساء نبيَّةً غيرها فهي أفضلُ من كل النساء الأولين والآخرين؛ إذ النبيُّ أفضلُ من الولي بالإجماع، وعلى هذا فهي أفضلُ مطلقاً، ثم بعدها في الفضيلة فاطمة، ثم خديجة، ثم آسية، وكذلك رواه موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «سيدة نساء العالمين: مريم، وفاطمة، ثم خديجة، ثم آسية»[١] وهذا حديث حسن، رافعٌ لإشكال هذه الأحاديث، فأما من يرى: أن مريم صدِّيقة وليست بنبيَّة فلهم في تأويل هذه الأحاديث طريقان:

أحدهما: أن معناها أن كلَّ واحدةٍ من أولئك النساء الأربع خيرُ عالم زمانها، وسيِّدة وقتها.

وثانيهما: أن هؤلاء النساء الأربع من أفضل نساء العالم؛ وإن كنَّ في

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط والكبير بنحوه. انظر: مجمع الزوائد (٩/ ٢٠١).

فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها عزَّ وجل، ومنِّي، وبشِّرها ببيتٍ في الجنة من قصبٍ لا صخبَ فيه ولا نصب.

رواه البخاري (٣٨٢٠)، ومسلم (٢٤٣٢).

[٢٣٤٢] وعن عبد الله بن أبي أوفى، عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه بشَّر خديجة ببيتٍ في الجنَّة من قصبٍ لا صخبَ فيه ولا نصبَ.

رواه البخاريُّ (٣٨١٩)، ومسلم (٢٤٣٣).

أنفسهن على مزايا متفاوتة، ورُتَبٍ مُتفاضلة، وما ذكرناه: أوضح وأسلم.

و (قوله: «بشِّر خديجة ببيتٍ في الجنة من قصب، لا صخب فيه، ولا نصب») قال الهروي وغيرُه: القصبُ ـ هنا ـ اللؤلؤ المجوَّف المستطيل، والبيت: هو القصر.

ما أعدّه الله لخديجة في الجنة

قلتُ: وهذا نحو قوله ﷺ في الحديث الآخر: «إن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة مجوَّفة عرضُها ستون ميلاً»[١]، [وفي لفظ آخر: «من دُرَّةٍ بيضاء طولها ستون ميلاً»][٢] سيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ. والصخب: اختلاطُ الأصوات، ويقال: بالسين والصاد، والنصب: التعب والمشقة. ويقال: نُصْبٌ، ونَصَبٌ، كحُزْنٌ وحَزَنٌ. أي: لا يصيبها ذلك؛ لأن الجنة مُنزَّهةٌ عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨] وقيل: معناه أنَّ هذا البيت خالصٌ لها، لا تنازُعَ فيه فيصخب عليها فيه، وذلك مِن فَضْل الله تعالى عليها لا بنصبها في العبادة، ولا اجتهادها في ذلك. وإبلاغ المَلَكِ لها: أنَّ اللَّهَ يقرأُ عليها السَّلام؛ فضيلةٌ عظيمة، وخصوصيَّةٌ شريفة لم يُسْمَعْ بمثلها لمن ليس بنبيٍّ إلا لعائشة ـ رضي الله عنها ـ على ما يأتي.

(١) رواه أحمد (٤/ ٤١١)، والبخاري (٤٨٧٩)، ومسلم (٢٨٤٨) (٢٤).
(٢) ما بين حاصرتين سقط من (ز).

[٢٣٤٣] وعن عائشة، قالت: ما غِرْتُ على امرأةٍ ما غِرْتُ على خديجةَ ـ ولقد هلكتْ قبلَ أن يتزوَّجني بثلاثِ سنين ـ لما كنْتُ أسمعُه يَذْكُرها، ولقد أَمَرهُ ربُّه عزَّ وجلَّ أن يبشرها ببيتٍ من قصبٍ في الجنة، وإنْ كان لَيَذْبَحُ الشَّاة ثم يُهديها إلى خَلائلها.

زاد في أخرى: قالت عائشةُ: فَأَغْضَبْتُه يوماً، فقلت: خديجة؟ قال رسول الله ﷺ: «إنِّي رزقت حُبَّها».

رواه أحمد (٦/ ٢٧٩)، والبخاريُّ (٣٨١٦)، ومسلم (٢٤٣٥) (٧٤ و ٧٥)، والترمذيُّ (٣٨٨٥ و ٣٨٨٦)، وابن ماجه (١٩٩٧).

[٢٣٤٤] وعنها، قالت: استأذنَتْ هالةُ بنت خويلد؛ أُختُ خديجة على رسول الله ﷺ، فعَرفَ استئذانَ خديجة، فارتاح لذلك، فقال: «اللهمَّ هالةُ بنت خويلد!» فَغِرْتُ، ....

غَيرة عائشة على رسول الله من خديجة

و (قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ما غِرْتُ على امرأةٍ ما غِرْتُ على خديجة، لِما كنت أسمعُه يَذْكُرُها) أي: يمدحُها ويُثني عليها، ويَذْكُر فضائلها، وذلك لفرط محبَّته إيَّاها، ولما اتصل له من الخير بسببها، وفي بيتها، ومن أحبَّ شيئاً أكثر من ذِكره؛ ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «إني رُزقتُ حبها»، وكونه ﷺ يُهدي لخلائل خديجة: دليلٌ على كرم خُلُقه، وحُسْن عهده، ولذلك كان يرتاحُ لهالة بنت خويلد إذا رآها، وينهض[١] إكراماً لها، وسروراً بها.

حُسْن عهده ﷺ

و (قولها: فعرف استئذان خديجةَ) أي تذكر ـ عند استئذان هالة ـ خديجة، وكأن نَغْمة هالة كانت تشبه نَغْمةَ خديجة، وأصلُ هذا كلِّه: أنَّ من أحبَّ محبوباً أحبَّ محبوباته، وما يتعلَّق به وما يشبهه.

و (قوله: «اللهم! هالة») يجوزُ في هالة الرفع على خبر الابتداء، أي: هذه

---

(١) في (ع): يهشُّ.

فقلتُ: وما تذكر من عجوزٍ من عجائز قريش، حمراء الشِّدْقَيْن، هلكت في الدهر، فأبدلك الله خيراً منها!.

رواه مسلم (٢٤٣٧) (٧٨).

هالة فأكرمها وأحسن إليها. والنَّصْبُ على إضمار فعل، أي: أَكْرِمْ هالة واحفظها، وما أشبه ذلك من التقدير الذي يليقُ بالمعنى.

تغاضيه ﷺ عما كان يصدر من عائشة من الغيرة

و (قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش... الحديث) قولٌ أخرجه من عائشة فرط الغَيرة، وخفَّة الشباب، والدَّلال، ولذلك لم ينكرْ عليها النبيُّ ﷺ شيئاً مما قالت، وقد أخذ بعضُ العلماء مِن هذا الحديث أن الغَيْرى لا تُؤاخذ بما يصدرُ عنها في حال غَيْرتها، وليس ذلك أَخْذاً صحيحاً؛ لأن الغَيْرةَ هنا جزءُ السبب، لا كلّ السَّبب، وذلك أن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ اجتمع فيها تلك الأمورُ الثلاثة: الغيرةُ والشبابُ ـ ولعل ذلك كان قبل بلوغها ـ، والدَّلال، وذلك أنها: كانت أحبَّ نسائه إليه بعد خديجة، فإحالةُ الصَّفح عنها على بعض هذه الأمور تحكُّم، لا يقال: إنما يصحُّ إسنادُ الصَّفح إلى الغَيرةِ؛ لأنها هي التي نصَّتْ عليها عائشةُ فقالت: فغرتُ؛ لأنا نقولُ: لو سلمنا أن غيرتَها وحدها أخرجتْ منها ذلك القولَ لما لزِم أن تكون غيرتُها وحدها هي الموجبةُ للصَّفح عنها، بل: يحتملُ: أن تكونَ الغيرةُ وحدها، ويحتملُ: أن تعتبرَ باقي الأوصاف، لا سيما ولم ينص النبيُّ ﷺ على المسقِط ما هو، فبقي الأمرُ مُحتمِلاً للأمرين، فلا تكون فيه حُجَّةٌ على ذلك، والله تعالى أعلم.

و قولها: حمراء الشِّدقين) قيل معناه: أنها بيضاء الشدقين، والعرب تُسمِّي الأبيض: أحمر، كراهة في اسم البياض؛ لأنه يشبه البرص، وهذا كما قاله النبيُّ ﷺ لعائشة: «يا حميراء لا تأكلي الطين؛ فإنه يذهب بهاء الوجه»[1] يعني: يا بيضاء.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ٣٣). وفيه يحيى بن هاشم. قال يحيى: هو =

[٢٣٤٥] وعنها، قالت: لم يتزوج النَّبيُّ ﷺ على خديجة حتى ماتت.

رواه مسلم (٢٤٣٦) (٧٧).

* * *

قلتُ: وهذا فيه بُعْدٌ في هذا الموضع، فلو كان الأمرُ كذلك لقالت عائشة بدل: حمراء الشدقين: بيضاء الشدقين؛ فإنه كان يكون أبلغَ في التقبيح، وعائشةُ إنما ذكرتْ هذا الكلامَ تقبيحاً لمحاسن خديجة وتزهيداً فيها، وإنما معنى هذا عندي ـ والله أعلم ـ أنها نَسَبَتْها إلى حمراء الشِّدقين من الكبر، وذلك: أنَّ من جاوز سِنَّ الكهولة، ولحقَ سنَّ الشَّيخوخة، وكان قوياً في بَدَنه صحيحاً غَلَبَ على لونه الحمرةُ المائلة إلى السُّمرة، والله تعالى أعلم.

و (قولها: قد أبدلكَ اللَّهُ خيراً منها) تعني بخير: أجمل وأشبَّ ـ وتعني نفسها ـ، لا أنها خيرٌ منها عند الله، وعند رسوله؛ لما تقدَّم مِنَ الأحاديث التي ذكرناها في صَدْر الكلام، وكَوْنُه ﷺ لم يتزوَّجْ على خديجة إلى أن ماتتْ: يدلُّ على عظيم قَدْرِها عنده، ومحبَّته لها، وعلى فَضْل خديجة أيضاً؛ لأنَّها اختصَّت برسول الله ﷺ ولم يشارِكْها فيه أحدٌ صيانةً لقلبها من التَّغيير والغَيْرة، ومن مناكدة[١] الضرة.

لم يتزوج ﷺ على خديجة مدة حياتها

* * *

= دجَّال هذه الأمة. وقال ابن عدي: كان يضع الحديث. قال العقيلي: ليس لهذا الحديث أصل، ولا يُحفظ من وجهٍ يثبت.

(١) في (ز): مكابدة.

(٤٦) بـــاب
فضائل عائشة زوج النبي ﷺ
ومريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون

[٢٣٤٦] عن عائشة، أنَّها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أُريتُكِ في

---

(٤٦) ومن بـــاب: فضائل عائشة بنة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ

كنيتها وزواجها بالنبي ﷺ

تكنى: بأم عبد الله ـ ابن الزبير، وهو ابن أختها: أسماء ـ أباح لها النبيُّ ﷺ أن تكتنيَ به. تزوَّجها النبيُّ ﷺ بمكة بعد موت خديجة وقبل الهجرة بثلاث سنين، وهو أولى ما قيل في ذلك، وهي بنت ست سنين. وابتنى بها بالمدينة، وهي بنتُ تسع سنين. وقال ابنُ شهاب: إن رسولَ الله ﷺ تزوَّج بها في شوال قبل الهجرةِ بثلاث سنين، وأعرس بها في المدينة في شوال على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجره إلى المدينة، وقد روي عنها أنها قالت: تزوَّجني رسولُ الله ﷺ، وأنا بنتُ ستّ، وبنى بي وأنا بنت تسع، وقُبض عني، وأنا بنتُ ثماني عشرة[1]. وتوفيت سنة ثمان وخمسين ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من رمضان، وأمرت أن تُدفن ليلاً، فدُفنت بعد الوتر بالبقيع، وصلَّى عليها أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ. ونزل في قبرها خمسة: عبد الله وعروة ابنا الزبير، والقاسم ومحمد ابنا محمد بن أبي بكر، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، وكانت فاضلة، عالمة، كاملة. قال مسروق: رأيتُ مشيخةَ أصحابِ رسول الله ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض، وقال عطاء: كانت عائشةُ أفقهَ الناس، وأحسن الناس رأياً في العامَّة، وقال عروة: ما رأيتُ أحداً أعلمَ بفقه، ولا طِبٍّ، ولا شعرٍ من عائشة، وقال أبو الزناد: ما رأيتُ أحداً أروى لشعرٍ من عروة، فقيل له: ما أرواك يا أبا عبد الله! قال: وما

أخلاق عائشة وصفاتها

---

(١) رواه مسلم (١٤٢٢) (٧٢).

المنام ثلاثَ ليالٍ جاءني بكِ المَلَكُ في سَرَقَةٍ من حريرٍ فيقولُ: هذه امرأتك، فأكشِفُ عن وجهِكِ، فإذا أنتِ هِيَ، فأقولُ: إنْ يكُ من عند الله يُمْضِه».

رواه البخاريُّ (٣٨٩٥)، ومسلم (٢٤٣٨)، والترمذيّ (٣٨٧٥).

روايتي في رواية عائشة؟! ما كان ينزل بها شيءٌ إلا أنشدتْ فيه شعراً. قال الزهري: لو جُمع علمُ عائشة إلى علم أزواج النبيِّ ﷺ وعلم جميع النساء لكان علمُ عائشة أفضل. وجملةُ ما روتْ عن النبيِّ ﷺ ألفا حديث، ومئتا حديث، وعشرة أحاديث. أُخرج منها في الصحيحين ثلاثمئة إلا ثلاثة أحاديث.

جملة مروياتها عن رسول الله

و (قوله: «جاءني بكِ الملكُ في سَرَقَةٍ من حرير، فيقول: هذه امرأتك»): السَّرَقة ـ بفتح الراء ـ: واحدة السَّرق، وهي شقَقُ الحرير البيض. وقيل: الجيد من الحرير. وقال أبو عُبيد: وأحسنها فارسيُّه، وأصلها سَرَهْ، وهو: الجيِّد. وأنشد غير أبي عبيد للعجاج:

ونَسَجَتْ لَوَامِعُ الحَرُورِ سَبَائِباً كَسَرَقِ الحَرِيرِ

والسَّبائب ـ بالهمز والباء ـ: هي ما رقَّ من الثياب والخُمُر، ونحوها. قال المهلَّب: السَّرَقَةُ: كالكِلَّة والبرقع، والأول: هو المعروف، وفيه دليلٌ على أنَّ للرؤيا مَلَكاً يمثل الصُّور في النوم، كما قد حكيناه عن بعض العلماء.

للرؤيا ملك يمثّل الصور

و (قوله: «إن يك من عند الله يُمْضِه») ظاهِرُه: الشكُّ في صحة هذه الرُّؤيا، فإن كان هذا منه ﷺ قبل النبوة، فلا إشكالَ فيه؛ لأن حكمَهُ حُكْمُ البشر، وأما إن كان بعد النبوة فهو مشكل؛ إذ رؤيا الأنبياء وحيٌ كما تقدَّم، والوحيُ لا يُشَكُّ فيه، وقد انفصل عن هذا: بأن قيل: إن شكَّه لم يكن في صحة أصل الرُّؤيا، وإنَّ ذلك من الله، ولكن في كون هذه الرؤيا على ظاهرها، فلا تحتاجُ إلى تعبير، أو في كونها امرأته في الدُّنيا، أو في الآخرة. وقيل: لم يكن عنده شكٌّ في ذلك، بل:

[٢٣٤٧] وعنها، قالت: قال لي رسولُ الله ﷺ: «إنِّي لأعلمُ إذا كنتِ عنِّي راضيةً، وإذا كنتِ عليَّ غَضْبى». قالت: فقلت: ومن أين تعرف ذلك؟ قال: «أمَّا إذا كنتِ عنِّي راضيةً، فإنَّك تقولين: لا وربِّ محمَّدٍ؛ وإذا كنت غضبى، قلت: لا وربِّ إبراهيم»، قالت: قلت: أجل! والله يا رسول الله! ما أهجرُ إلا اسمْك.

محققاً له، لكنه أتى به على صورة الشك، وهو غير مراد، كما قال الشاعر:

أيا ظَبْيَةَ الوَعْساءِ بَيْنَ حَلاجِلٍ وبَيْنَ النَّقا آنْتِ أَمْ أمُّ سَالِمِ؟

وهذا نوعٌ من أنواع البلاغة معروفٌ عند أهلها يسمى: تجاهل العارف، وقد سمِّي مزج الشك باليقين، ونحو منه قولُه تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١] فإنه ﷺ لم يشكَّ في شيء من ذلك، لكن أتى به على التقدير لا التحقيق.

و (قوله: «فإذا هي أنتِ») أي: إنه رآها في النوم كما رآها في اليقظة، فكان المرادُ بالرُّؤيا ظاهرها.

و (قوله: «إني لأعلم إذا كنتِ عليَّ راضية، وإذا كنتِ عليَّ غضبى») غَضَبُ عائشةَ على النبيِّ ﷺ للأسباب التي ذكرناها في حديث خديجة، أو لبعضها، والغالب: أنها كانت للغَيْرة التي لا تتمالكُ المرأةُ فيها[١]. قال القاضي عِياض: يُعْفَى عن النساء في كثير من الأحكام لأجل الغَيْرة، حتى قد ذهب مالكٌ وغيرُه من علماء المدينةِ إلى إسقاطِ الحدِّ عن المرأة إذا رَمَتْ زوجها بالزِّنى.

غَيرة النساء

و (قولها: أجل والله ما أهجر إلا اسمك). أجل: يعني: نعم. وتعني بذلك

---

(١) في (م ٤): معها.

رواه أحمد (٦/ ٦١ و ٢١٣)، والبخاريُّ (٥٢٢٨)، ومسلم (٢٤٣٩).

[٢٣٤٨] وعنها، قالت: كنتُ ألعبُ بالبنات ـ وهنَّ اللُّعَبُ ـ في بيت رسول الله ﷺ. قالت: وكانتْ تأتيني صَواحبي فكنَّ يَنْقَمِعْنَ من رسول الله ﷺ. قالت: فكان رسولُ الله ﷺ يُسَرِّبُهنَّ إليَّ.

رواه أحمد (٦/ ١٦٦)، والبخاريُّ (٦١٣٠)، ومسلم (٢٤٤٠)، وأبو داود (٤٩٣١)، والنسائي (٦/ ١٣١)، وابن ماجه (١٩٨٢).

قلبُ عائشة مغمورٌ بمحبته ﷺ

أنها، وإن أعرضتْ عن ذِكر اسمه في حالة غَضَبها، فقلبُها مغمورٌ بمحبته ﷺ لم يتغيَّرْ منها شيء. وفي هذا ما يدلُّ على ما كانا عليه من صفاء المحبة وحُسْن العشرة، وفيه ما يدلُّ على: أنَّ الاسمَ غير المسمّى، وهي مسألةٌ اختلفَ فيها أهلُ اللسان والمتكلمون، وللكلام فيها مواضعُ أُخَر.

حُكْم لُعَب البنات

و(قولها: كنت ألعبُ بالبنات ـ وهُنَّ اللُّعَب ـ في بيت رسول الله ﷺ) اللُّعَبُ: جمع لُعْبة، وهو ما يُلْعَبُ به. والبنات: جمع بنت، وهُنَّ الجواري، وأضيفت اللُّعَب للبنات لأنهنَّ هُنَّ اللواتي يصنعنها، ويلعبن بها، وقد تقدَّم القولُ في جواز ذلك، وفي فائدته، وأنه مُستثنى من الصُّور الممنوعة؛ لأن ذلك من باب تدريب النساء من صِغَرهن على النَّظر لأنفسهن وبيُوتهن، وقد أجاز العلماءُ بيعهنَّ وشراءهن غير مالك فإنه كره ذلك، وحَمَلَه بعضُ أصحابه على كراهية الاكتساب بذلك.

و(قولها: فكُنَّ ينقمعن من رسول الله ﷺ) تعني: صواحبها كنَّ ينقبضن ويستترن بالبيت حياءً من رسول الله ﷺ وهيبة له.

و(قولها: وكان يُسرِّبهنَّ إليَّ) أي: يُرسلهن إليها، ويسكِّنهنَّ، ويؤنسهنَّ

[٢٣٤٩] وعن عروة، عن عائشة: أنَّ النَّاس كانوا يتحرَّونَ بهَدايَاهُم يوم عائشةَ؛ يبتغون بذلك مرضاةَ رسولِ الله ﷺ.

رواه البخاريُّ (٢٥٨٠)، ومسلم (٢٤٤١)، والترمذيُّ (٣٨٧٩)، والنسائيُّ (٧/ ٦٩).

[٢٣٥٠] وعنها، قالت: أرسلَ أزواجُ النَّبيِّ ﷺ فاطمةَ بنتَ رسولِ الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فاستأذنتْ عليه وهو مُضْطَجِعٌ معي في مِرْطي، فأَذِن لَها، فقالت: يا رسول الله! إنَّ أزواجك أرسلنني إليك يَسْأَلْنكَ العدلَ في ابنة أبي قحافة ـ وأنا ساكتة ـ قالت: فقال لها رسول الله ﷺ: «أيْ بُنَيَّةُ! ألستِ تُحبِّين ما أحبُّ؟» فقالت: بلى. قال: «أحبي هذه» قالت: فقامت فاطمةُ حين سمعتْ ذلك من رسولِ الله ﷺ، فرَجَعَتْ إلى أزواج رسول الله ﷺ؛ فأخْبَرَتْهُنَّ بالذي قالت؛ وبالذي قال لها رسول الله ﷺ. فقُلْنَ لها: ما نُراكِ أَغْنَيْتِ عنَّا من شيءٍ، فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقُولي له: إنَّ أزواجَكَ يَنْشُدْنَكَ العدلَ في ابنة أبي قُحافة! فقالت فاطمة: والله لا أكلِّمه فيها أبداً! قالت عائشة: فأرسل أزواجُ

حتى يزولَ عنهن ما كان أصابهنَّ منه، فيرجعن يلعبن معها كما كنَّ. ودخول فاطمة وزينب على رسول الله ﷺ وهو مع عائشة في مِرْطها: دليلٌ على جواز مثل ذلك؛ إذ ليس فيه كشفُ عورة، ولا ما يُستقبح على مَن فعل ذلك مع خاصَّته وأهله.
وطَلَبُ أزواجِ النبيِّ ﷺ منه العدل بينهن وبين عائشة ـ رضي الله عنها ـ ليس على معنى أنه جارَ عليهن، فمنعهن حقاً هوَ لَهنَّ؛ لأنه ﷺ مُنزَّهٌ عن ذلك؛ ولأنه لم يكن العدلُ بينهن واجباً عليه كما قدَّمناه في كتاب: النكاح. لكن صَدَر ذلك منهن بمقتضى الغَيْرة والحِرْص على أن يكونَ لهن مثلُ ما كان لعائشة ـ رضي الله عنها ـ من إهداء الناس له إذا كان في بيوتهن، فكأنَّهُنَّ أردْنَ أن يأمرَ مَن أراد أن يهديَ له شيئاً ألَّا يتحرى يومَ عائشة ـ رضي الله عنها ـ، ولذلك قال: وكان الناسُ يتحرَّون

النَّبيِّ ﷺ زينبَ بنتَ جحشٍ ـ زوج النبي ﷺ، وهي التي كانت تساميني منهنَّ في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أرَ امرأةً قطُّ خيراً في الدين مِنْ زينبَ؛ وأتقى لله؛ وأصدقَ حديثاً، وأوصلَ للرَّحم، وأعظمَ صدقةً، وأشدَّ ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدَّقُ به، وتقرَّبُ به إلى الله تعالى، ما عدا سَوْرةً من حِدَّةٍ كانت فيها، تسرعُ منها الفَيْئَةَ ـ قالت: فاستأذنتْ على

بهداياهم يوم عائشة، ويحتمل أن يقال: إنهن طلبن منه أن يسوِّي بينهن في الحبِّ؛ ولذلك قال ﷺ لفاطمة ـ رضي الله عنها ـ: «ألستِ تُحبِّين من أُحِبُّ؟» قالت: بلى. قال: «فأحبِّي هذه» وكلا الأمرين لا يجب العدل فيه بين النساء. أما الهدية فلا تطلب من المهدي، فلا يتعيَّن لها وقت، وأما الحبُّ: فغيرُ داخلٍ تحت قدرة الإنسان ولا كسبه.

الحبُّ غير داخل تحت قدرة الإنسان وكسبه

و (قولها: وهي التي تساميني في المنزلة عند رسول الله ﷺ) تعني: زينب. وتساميني، أي: تطاولني وترافعني، وهو مأخوذٌ من السُّموِّ، وهو العلو والرفعة. تعني: أنها كانت تتعاطى أن يكون لها من الحُظوة والمنزلة عند رسول الله ﷺ مثل ما كان لعائشة عنده، وقيل: إنه مأخوذٌ من قولهم: سامه حظّه خسف، أي: كلفه ما يشق عليه ويذله، وفيه بعد من جهة اللسان والمعنى.

من فضائل زينب

و (قولها: ولم أر امرأة خيراً في الدين من زينب... الكلام إلى قولها... ولا أشدَّ ابتذالاً لنفسها في العمل) الابتذال: مصدر ابتذل من البِذْلة، وهي الامتهان بالعمل والخِدْمة، فكانت تعمل زينب ـ رضي الله عنها ـ بيديْها عملَ النساء من الغزل والنسيج، وغير ذلك مما جرت عادة النساء بعمله، والكسب به، وكانت تتصدق بذلك، وتصل به ذوي رحمها، وهي التي كانت أطولَهن يداً بالعمل والصَّدقة، وهي التي قال النبيُّ ﷺ: «أسرعُكُنَّ لحاقاً بي أطولُكُنَّ يداً» وسيأتي. وفيه ما يدلُّ على جواز صدقة المرأة مما تكسبُه في بيت زوجها من غير أمره.

و (قولها: ما عدا سَوْرَةً من حِدَّةٍ كانت فيها، تُسرع منها الفيئة) ما عدا

رسول الله ﷺ ـ ورسولُ الله ﷺ مع عائشة في مِرْطِها، على الحال التي دخلت فاطمة عليها وهُو بها ـ فأذِنَ لها رسولُ الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله! إنَّ أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة. قالت: ثم وقعت بي، فاستطالت عليَّ، وأنا أرْقُبُ رسول الله ﷺ، وأرقُبُ طَرْفَهُ؛ هل يأذنُ لي فيها. قالت: فلم تبرح زينبُ حتى عَرَفتُ أنَّ رسول الله ﷺ لا يَكْرَه أنْ أنتصِر. قالت: فلمَّا وقعتُ بها لم أنْشَبْها حين أنْحَيْتُ عليها. . . . .

وما خلا: من صيغ الاستثناء، وهما مع «ما» فعلان ينصبان ما بعدَهما في المشهور والأفصح. ومع عدم «ما» يخفضان ما بعدَهما؛ لأنهما حرفان من حروف الخفض على الأعرف الأشهر، والسَّوْرة ـ بفتح السين ـ: الشِّدَّة، والثورَان، ومنه: سَوْرَةُ الشراب، أي: قوته وحِدَّته. أي: يعتريها ما يعتري الشارب من الشراب، ويروى هذا الحرف: ما عدا سَوْرَةَ حَدٍّ ـ بفتح الحاء من غير تاء تأنيث ـ أي: سرعة غضب. والفيئة: الرجوع، ولأجل هذه الحِدَّة، وقعت بعائشة، واستطالت عليها، أي: أكثرت عليها من القول والعتب، وعائشة ـ رضي الله عنها ـ ساكتة تنتظرُ الإذن من رسول الله ﷺ في الانتصار، فلما علمت أنه لا يكـره ذلك من قرائن أحواله انتصرتْ لنفسها فجاوبتها، وردَّت عليها قولَها حتى أفحمتَها، وكانت زينبُ لما بدأتها بالعتب واللَّوم، كانت كأنها ظالمةٌ، فجاز لعائشة أن تنتصرَ، لقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١].

و (قولها: وقعت فـيَّ) هو مأخوذ من الوقيعة التي هي: معركة الحرب، وقيل: هو مأخوذ من الوقع، وهو ألم الرِّجل من المشي، ومنه قولهم: كل الحِذَا يحتذي الحافي الوَقِع ـ بكسر القاف ـ.

و (قولها: فلم أَنْشَب أن أَنحيتُ عليها) كذا الرواية الثابتة هنا بالنون والحاء المهملة، والياء باثنتين من تحتها، ومعناه: إني أصبت منها بالذمِّ ما يُؤلمها،

قالت: فقال رسول الله ﷺ ـ وتبسَّم ـ: «إنَّها ابنةُ أبي بكرٍ!».

وفي روايةٍ: فلم أنشبها أن أثْخَنْتُهَا غَلَبَةً.

رواه أحمد (٦/ ٨٨)، والبخاريُّ (٢٥٨١)، ومسلم (٢٤٤٢)، والنسائي (٧/ ٦٤ ـ ٦٦).

[٢٣٥١] وعنها؛ قالت: إنْ كان رسول الله ﷺ ليتفقَّد؛ يقول: «أين أنا اليوم؟ أين أنا غداً؟» استبطاءً ليوم عائشة. قالت: فلما كان يومي قَبَضَهُ اللَّهُ بين سَحْري ونَحْري.

فكأنها أصابت منها مقتلاً. وفي الصحاح: أنحيت على حلقه بالسكين؛ أي: عَرَضْتُ، وحينئذ يرجع معنى هذه الرواية لمعنى الرواية الأخرى التي هي: أثخنتها، أي: أثقلتُها بجراح الكَلِم. وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤]، أي: أثقلتموهم بالجراح، أو أكثرتم فيهم القتل، ولم أَنْشَبْها، أي: لم أُمهلها، ولم أتلبَّث حتى أوقعتُ بها، وأصله: من نشبَ بالشيء، أو في الشيء إذا نَشِبَ به، واحتبس فيه أو بسببه.

أصل عائشة الكريم

و (قوله: «إنها ابنة أبي بكرٍ») تنبيه على أصلها الكريم الذي نشأت عنه، واكتسبت الجزالة والبلاغة، والفضيلة منه، وطيبُ الفروع بطيب عُروقها، وغذاؤُها من عروقها. كما قال:

طِيبُ الفُرُوعِ مِنَ الأُصُولِ وَلَمْ يُرَ ... فَـرْعٌ يَطِيـبُ وَأَصْلُـهُ الـزَّقُّـومُ

ففيه مدح عائشة وأبيها ـ رضي الله عنهما ـ.

و (قولها: فلما كان يومَ تُوفي[1]؛ قبضَه الله بين سَحْري ونحري) الرواية

---

(١) كذا في الأصول، وفي التلخيص وصحيح مسلم: فلما كان يومي قبضه أن...».

رواه أحمد ((٦/ ٤٨))، والبخاريُّ (٥٢١٧)، ومسلم (٢٤٤٣) (٨٤).

[٢٣٥٢] وعنها؛ أنَّها سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت، وهو مُستَنِدٌ إلى صدرها، وأصْغَتْ إليه وهو يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني! وألحقني بالرفيق».

رواه أحمد (٦/ ٢٣١)، والبخاريُّ (٤٤٤٠)، ومسلم (٢٤٤٤) (٨٥)، والترمذيُّ (٣٤٩٦).

[٢٣٥٣] وعنها؛ قالت: كان رسول الله ﷺ يقول وهو صحيح: «إنَّه لم يُقبضْ نبيٌّ قطُّ حتى يرى مَقْعَدَهُ من الجنَّة، ثم يُخَيَّر». قالت عائشة: فلما نزل برسول الله ﷺ ورأسهُ على فخذي؛ غُشيَ عليه ساعةً، ثم أَفَاقَ.

الصحيحة: سَحْري بسينٍ مفتوحة غير معجمة، والسَّحْر: الرئة، والنَّحر: أعلى الصدر. وأرادت أنه ﷺ توفي وهو مستندٌ إلى موضع سَحْرها، وهو الصدر، كما جاء في الرواية الأخرى: وهو مستند إلى صدرها. وحُكي عن عمارة بن عقيل بن بلال أنه قال: إنما هو شَجْري ـ بالشين المعجمة والجيم ـ وشبَّك بين أصابعه. وأومأ إلى أنها ضمَّته إلى صدرها مشبِّكة يديْها عليه. وقد تقدَّم القول في الرفيق، وأن الأولى فيه: أنه الذي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]، وتخيير الله للأنبياء عند الموت مبالغةٌ في إكرامهم، وفي ترفيع مراتبهم[١] عند الله تعالى، وليستخرج منهم شدَّة شوقهم، ومحبَّتهم له تعالى، ولما عنده. وقد تقدَّم من هذا شيءٌ في باب ذكر موسى ـ عليه السلام ـ.

---

(١) في (ع) و (م ٤): مكانتهم.

فأشخص بصره إلى السّقفِ. ثم قال: «اللهمَّ الرفيقَ الأعلى». قالت عائشة: قلت: إذاً لا يختارنا. قالت عائشة: وعَرَفتُ الحديث الذي كان يُحدثُنا به وهو صحيح في قوله: «إنه لم يُقبَضْ نبيٌّ قطُّ حتى يرى مَقْعَدَه من الجنة ثم يُخيَّر». قالت عائشة: فكانت تلك آخِرُ كَلِمَةٍ تكلَّم بها رسول الله ﷺ قوله: «اللهمَّ! الرفيقَ الأعلى».

رواه أحمد (٦/ ٨٩)، ومسلم (٢٤٤٤) (٨٧).

[٢٣٥٤] وعنها؛ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا خرج أقرع بين نسائه، فَطارَت القرعةُ على عائشةَ وحفصةَ، فخرجنا معه جميعاً. وكان رسول الله ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة؛ يتحدث معها. فقالت حفصةُ

و (قولها: فأشخصَ بصرَه) أي: حدَّد نظرَه إلى سقف البيت كما تفعلُ الموتى.

القرعة بين الزوجات في السفر

و (قولها: كان رسول الله ﷺ إذا خرجَ أقرعَ بين نسائه) تعني: إذا خرجَ إلى سفر، وإنما كان النبيُّ ﷺ يفعلُ ذلك مبالغة في تطييب قلوبهن إذ لم يكن القَسْم عليه واجباً على الخلاف المتقدِّم، وليست القرعة في هذا واجبةً عند مالكٍ؛ لأنه قد يكونُ لبعض النِّساء من الغَنَاء في السفر والمنفعة، والصلاحية ما لا يكون لغيرها. فتتعين الصَّالحةُ لذلك، ولأن من وقعت القرعةُ عليها لا تُجبر على السفر مع الزوج إلى الغزو والتجارة، وما أشبه ذلك، وإنما القرعة بينهنَّ من باب تحسين العشرة إذا أردن ذلك، وكنَّ صالحاتٍ له، وقال أبو حنيفة بإيجاب القرعة في هذا، وهو أحد قولي الشافعي ومالك أخذاً بظاهر هذا الحديث.

سيرةُ ﷺ مع زوجاته

و (قولها: وكان رسول الله ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة ـ رضي الله عنها ـ) ظاهره: أنه لم يكن يقسم بين عائشة وحفصة في المسير والحديث، وأنَّ ذلك كان مع عائشة دائماً دون حفصة، ولذلك تحيَّلت حفصةُ حتى سارَ وتحدَّث

لعائشةَ: ألا تركبين الليلة بعيري وأركب بعيرك، فتنظرين وأنظرُ؟ قالت: بلى. فركبتْ عائشة على بعير حفصة، وركبتْ حفصةُ على بعير عائشةَ،

معها، فيحتمل أن هذا القدر [لا يجبُ القَسْم فيه إذ الطريق ليس محلَّ خَلْوة، ولا يحصل لها به اختصاص، ويحتمل أن يقال: إن القدر][1] الذي يقع به التسامح من السير والحديث مع إحداهما هو الشيء اليسير، كما يَفعل في الحَضَر، فإنه يتحدَّث ويسأل وينظر في مصلحة بيت التي لا يكون في يومها، ولكنْ لا يُكثر من ذلك، ولا يُطيله، وعلى هذا فيكون النبيُّ ﷺ إنما أدام ذلك؛ لأن أصل القسْم لم يكن عليه واجباً، والله أعلم.

ولم يختلف الفقهاء في أن الحاضرة لا تُحاسب المسافرة فيما مضى لها مع زوجها في السفر، وكذلك لا يختلفون في: أنه يقسم بين الزوجات في السفر كما يقسم بينهن في الحضر. وقد ذكرنا الاحتمال الذي في السير والحديث، وقول حفصة لعائشة ـ رضي الله عنهما ـ: ألا تركبين بعيري، وأركبُ بعيرك فتنظرين وأنظر. حيلة منها تمت لها على عائشة لصغر سنِّ عائشة، وسلامة صدرها عن المكر والحيل، إذ لم تجرِّب الأمورَ بعدُ، ولا دَرْك[2] على حفصة فيما فعلت من جهة أنها أخذتْ حقاً هو لعائشة؛ لأن السير والحديث؛ إن لم يدخل في القسم فهي وعائشة فيه سواء، فأرادت حفصةُ أن يكونَ لها: حظٌّ من الحديث والسير معه، وإن كان ذلك واجباً فقد توصَّلت إلى ما كان لها، وإنما يكون عليها الدَّرْك من حيث إنها خالفت مراد النبيِّ ﷺ في حديثه، فقد يُريد أن يُحدِّث عائشة حديثاً يُسِرُّ به إليها، أو يختصّ بها فتسمعه حفصة، وهذا لا يجوز بالاتفاق، لكن حملَها على اقتحام ذلك الغَيْرة التي تورث صاحبها الدَّهَشَ والحَيْرة.

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ع).
(٢) أي: لا تبعة عليها.

فجاءَ رسول الله ﷺ إلى جَمل عائشة، وعليه حفصة، فسلَّم ثم سار معها، حتى نزلوا، فافتقدته عائشة فَغارتْ، فلمَّا نزلوا؛ جعلت تجعلُ رجلها بين الإذْخِر وتقول: يا ربِّ! سلِّط عليَّ عقرباً أو حيَّة تَلْدغُني! رسُولُك؛ ولا أستطيع أن أقولَ له شيئاً.

رواه أحمد (٦/ ١١٤)، والبخاريُّ (٥٢١١)، ومسلم (٢٤٤٥)، وابن ماجه (١٩٤٠) مختصراً.

[٢٣٥٥] وعن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمَل من الرِّجال كثيرٌ، ولم يكمُل من النساء غيرُ مريمَ بنتِ عمرانَ وآسيةَ امرأةِ فرعون، وإنَّ فضل عائشة على النِّساء كفضل الثَّريد على سائر الطعام».

رواه أحمد (٤/ ٣٩٤)، والبخاريُّ (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١)، والنسائيُّ (٧/ ٦٨).

و (قول عائشة: يا رب سلِّط عليَّ عقرباً يلدغني) دعاءٌ منها على نفسها بعقوبةٍ لما لحقها من النَّدم على ما فعلت، ولما تمَّ عليها من الحيلة، ولما حصل لها من الغَيْرة، وهو دعاءٌ باللسان غيرُ مراد بالقلب.

و (قولها: رسولكَ، ولا أستطيع أن أقول له شيئاً) ظاهره: أنَّ النبيَّ ﷺ لم يعرف القصة، وإنما تمَّتْ لحفصة حيلتُها عليها، والله أعلم، مع أنه يحتملُ أن يكون النبيُّ ﷺ عَلِم ذلك بالوحي أو بالقرائن، وتغافل عمَّا جرى من ذلك إذ لم يجر منهما شيءٌ يترتَّبُ عليه حُكم، ولا يتعلَّق به إثمٌ، والله تعالى أعلم. ورسولكَ: منصوب بإضمار فعل تقديره: انظر رسولك، ويجوز الرفعُ على الابتداء، وإضمار الخبر.

كمال مريم وآسية من

و (قوله: «كَمَل من الرجال كثير، ولم يكملْ من النساء غير مريم وآسية») الكمال: هو التَّناهي والتَّمام، ويُقال في ماضيه كمل بفتح الميم وضمها، ويكمُل النساء

[٢٣٥٦] عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشُ! هذا جبريلُ يقرأُ عليكِ السَّلام» . . . .

في مضارعه بالضم، وكمالُ كلِّ شيء بحسبه، والكمالُ المطلق: إنما هو لله تعالى خاصة، ولا شك أنَّ أكملَ نوع الإنسان: الأنبياء، ثم تليهم الأولياء، ويعني بهم: الصِّدِّيقين والشهداء الصالحين. وإذا تقرَّر هذا، فقد قيل: إنَّ الكمالَ المذكورَ في الحديث، يعني به: النبوة، فيلزم أن تكون مريم وآسية نبيَّتَين، وقد قيل بذلك، والصحيح: أن مريم نبيَّة؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى أوحى إليها بواسطة الملَك، كما أوحى إلى سائر النَّبيين، وأما آسية، فلم يرِدْ ما يدلُّ على نبوتها دلالة واضحة. بل: على صدِّيقيَّتها وفضيلتها. فلو صحَّتْ لها نبوَّتها لما كان في الحديث إشكال. فإنه يكونُ معناه: أنَّ الأنبياءَ في الرجال كثير، وليس في النساء نبيٌّ إلا هاتين المرأتين. ومَن عداهما مِن فُضلاء النساء صِدِّيقات لا نبيَّات، وحينئذ يصحُّ أن تكونا أفضلَ نساء العالمين، والأولى أن يقال: إنَّ الكمالَ المذكورَ في الحديث ليس مقصوراً على كمال الأنبياء، بل يندرجُ معه كمالُ الأولياء، فيكون معنى الحديث: إنَّ نوعي الكمال وُجِد في الرجال كثيراً، ولم يوجدْ منه في النساء المتقدِّمات على زمانه ﷺ أكمل من هاتين المرأتين، ولم يتعرَّض النبي ﷺ في هذا الحديث لأحدٍ من نساء زمانه، إلا لعائشة خاصَّة؛ فإنه فضَّلها على سائر النساء، ويُستثنى منهن الأربع المذكورات في الأحاديث المتقدمة، وهُنَّ: مريم بنت عمران، وخديجة، وفاطمة، وآسية؛ فإنهنَّ أفضلُ من عائشة، بدليل الأحاديث المتقدمة في باب خديجة، وبهذا يصحُّ الجمعُ، ويرتفع التعارضُ إن شاء الله تعالى. وإنما كان الثريدُ أفضلَ الأطعمة ليسارة مؤنته، وسُهولة إساغته، وعظيم بركته؛ ولأنه كان جلَّ أطعمتهم، والَّذها بالنسبة إليهم ولعوائدهم، وأما غيرهم فقد يكون غير الثريد عنده أطيب وأفضل، وذلك بحسب العوائد في الأطعمة، والله تعالى أعلم.

سلام جبريل على عائشة

و (قوله: «إن جبريل يقرأ عليكِ السلام») يقال: أقرأته السلام، وهو يقرئكِ

فقالت: وعليه السلام ورحمة الله. قالت: وهو يرى ما لا أَرَى.

رواه البخاريُّ (٣٢١٧)، ومسلم (٢٤٤٧/٢) (٩١)، والترمذيُّ (٣٨٨١)، والنسائيّ (٧/ ٧٠).

* * *

(٤٧) بـــابُ
ذكرِ حديثِ أمِّ زَرْعٍ

[٢٣٥٧] عن عائشة، أنَّها قالت: جلس إحدى عشرةَ امرأةً. فتعاهدْن، وتعاقدْن أن لا يكتُمْنَ مِنْ أَخْبارِ أزواجِهنَّ شيئاً. قالت الأولى: زوجي لحمُ جملٍ غثٌّ، على رأس جبلٍ وَعْرٍ، لا سهلٌ فيرتقى، ولا سمينٌ

السلام ـ رباعياً ـ فبضم ياء المضارعة منه، فإذا قلت: يَقْرأ عليك السلام ـ كان مفتوح عين مضارعه ـ؛ لأنه ثلاثي، وهذه فضيلةٌ عظيمةٌ لعائشة، غير أنَّ ما ذُكِر من تسليم الله عز وجل على خديجة أعظم؛ لأنَّ ذلك سلامٌ منَ الله، وهذا سلامٌ من جبريل.

و (قولها: وعليه السلام ورحمة الله) حُجَّةٌ لمن اختار أن يكون ردُّ السَّلام هكذا، وإليه ذهب ابنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

(٤٧) ومـن بـــاب: حديث أم زرع

الصَّحيح في هذا الحديث: أنه كلُّه من قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلا قول النبيِّ ﷺ لها: «كنتُ لك كأبي زرع لأم زرع». هذا هو المتَّفقُ عليه عند أهل التَّصحيح. وقد رواه سعيد بن مسلم المديني، عن هشام بن عروة، عن أخيه عبد الله، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال لي رسولُ الله ﷺ: «كنتُ لكِ كأبي زرعٍ

. . . .

لأم زرع». ثم أنشأ يُحدِّث بحديث أم زرع وصواحبها، قال: اجتمع إحدى عشرة امرأة. . . وذكر الحديث. فتوهَّم بعضُ الناس: أنَّ هذا الحديث كلُّه مرفوعٌ إلى النبيِّ ﷺ، فنَسَبَهُ إليه، وجَعَلَهُ من قوله. وهو وَهْم محضٌ؛ فإن القائل: ثم أنشأ يُحدِّث؛ هو هشام يُخبر بذلك، عن أخيه، عن أبيه: أنه أنشأ بعد ذلك القول المتقدِّم: يُحدِّث بالحديث.

و (قولها: جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهَدْنَ، وتعاقَدْنَ أَلَّا يكتمن من أخبار أزواجهنَّ شيئاً) هكذا صحيحُ الرِّواية ومشهورُها، وعند الطبريِّ: جلسن إحدى عشرة امرأة، بالنون التي هي علامةُ المؤنث على لغة مَن قال: أكلوني البراغيث، وعليها قوله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل، وملائكة بالنهار»[1]. وقد حُمِل عليها قولُه تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنبياء: ٣]، وقوله: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ٧١]، وعليها قول الشاعر[2]:

وَلٰكِنْ دِيَافِيٌّ أَبُوهُ وأُمُّهُ ... بِحَوْرَانَ يَعْصِرْنَ السَّلِيطَ أَقَارِبُه

وقد تكلَّف بعضُ النحويين ردَّ هذه اللغة إلى اللغة [الفصيحة، وهي أَلَّا تلحق هذه العلامة في الفعل إذا تقدَّم الأسماء، وردَّ هذه اللغة][3]، ولا معنى لهذا كله، ولا يُحتاج إليه؛ إذ قد صحَّت هذه اللغةُ نقلاً واستعمالاً، ثم إنها جاريةٌ على قياس إلحاق علامة تأنيث الفاعل بالفعل على ما تحقَّق بعلم النحو.

و (قول الأولى: زوجي لحمُ جمل غَثٌّ على رأس جبل وَعْرٍ ـ في غير كتاب مسلم: وعث ـ لا سهل فيُرتقى، ولا سمين فيُنْتَقَل ـ وفي غير كتاب مسلم: فيُنْتَقَى

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣١٢)، ومسلم (٦٣٢).

(٢) هو الفرزدق.

(٣) ما بين حاصرتين سقط من (ع).

فيُنْتَقَلُ. قالت الثانية: زوجي لا أَبُثُّ خبره، إنِّي أخافُ أن لا أَذَرَهُ، إنْ أذكُرْهُ أذكُرْ عُجَرَهُ وبُجَرَهُ. ....

بدل: فيُنْتَقَل ـ) الروايةُ الصَّحيحةُ بخفض غثٍّ على الصِّفة للجمل، وقد قيَّده بعضُهم بالرَّفع على الصِّفة لِلَّحم، والغثُّ: الشَّديد الهزال، الذي يُستغـثُّ [من هزاله، أي: يُستترك ويُستكره، مأخوذٌ من غثَّ الجرحُ غثاً وغثيثاً][1] إذا سال منه المِدَّة[2] والقيح، واستغث صاحبه. والوعث من الجبال: الصَّعب المرتقى لوعوثته، وهو أن يكون بحيث توحلُ فيه الأقدام، فلا يكادُ يتخلَّصُ منه. وقد فسَّرَتْهُ بقولها: لا سهلٌ فيرتقى، أي: لا يصعدُ فيه لصعوبته. وينتقل: من الانتقال، أي: هذا الجمل لهزالته لا ينقله أحدٌ زهداً فيه، ولكونه بموضع لا يتخلَّص منه، ويُنتقى، أي: لا نقيّ له، والنقيّ: المخ. يقال منه: نقوت العظم، ونقيته، وانتقيته، إذا استخرجتُ مخَّه. قال الخطَّابي: وصفتْ زوجَها بسوء الخُلُق، وقلَّة الخير، ومَنْع الرّفد، وبالأذى في المعاشرة.

و (قول الثانية: زوجي لا أبثُّ خبره، إنِّي أخافُ ألَّا أذره؛ إن أذكره، أذكر عُجَرَه وبُجَرَه) بثُّ الخبر: نَشْرُه وإظْهارُهُ. ومعنى أذره: أدعه، ولم تستعملِ العربُ مِن هذين الفعلين إلَّا مضارعهما، فلا يقال منهما: فعل ولا أفعل، ولا فاعل، ولا فعلى. استغنوا عن ذلك بـ(ترك) غير أنه قد سُمع: ودع، وودع، وهو قليل، والعُجَر: جمع عُجْرَة، والبُجَر: جمع بُجْرَةٍ. تعني بذلك: عيوبه. قال الأصمعيُّ في تفسير قول عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: أشكو إلى الله عُجَرِي وبُجَرِي، أي: همومي وأحزاني، وأصل البُجَر: العروق المنعقدة في البطن خاصَّة، وقال ابنُ الأعرابي: العُجَرة: نفخةٌ في الظهر، فإذا كانت في السُّرَّة فهي: البُجْرة، ثم يُنْقَلان إلى الهموم والأحزان، والضمير في خَبَرْه، وفي أَذَرَهُ: على الزوج، وكذلك هو ظاهر الضميرين

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ز).

(٢) «المِدَّة»: القيح.

قالت الثالثة: زوجي العَشَنَّقُ، إن أَنْطِقْ أُطلَّقْ، وإن أسكُتْ أُعَلَّق. قالت الرابعة: زوجي كَلَيْلِ تِهامَةَ، لا حَرٌّ، ولا قُرٌّ، ولا مَخافَةَ، ولا سَآمَةَ. ....

في عجره وبجره. وتعني: أنها إن وصفتْ حالَ زوجها ذكرتْ عيوبه، وإن فعلت ذلك خافتْ من فراقه، وهي تكرهُ فراقه للعُلَق التي بينهما. وعلى هذا فتكون (لا) التي في أن «لا أذره» زائدة، كما زيدتْ في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢]. ويحتملُ أن يقال: «لا» ليست بزائدة، وإنها تخاف ألا تتركه معها مُمْسِكاً لها في صحبتها. وقيل: إنَّ الضميرَ في عجره وبجره عائدٌ إلى الخبر، تعني: أنَّ حديثَه حديثٌ طويلٌ، فيه عقد لو تحدَّثُ به، لكنها لم تتحدَّث به لخوفها، ولم تسكتْ عن حال زوجِها بالجملة للعَقْد الذي جعلتْ على نفسها، لكنها أومأتْ إلى شيءٍ مِن ذلك، وعلى القول الأوّل: صرَّحتْ بأنَّ له أموراً تُعاب.

و (قول الثالثة: زوجي العشنَّق؛ إن أنطقْ أُطلَّق، وإن أسكتْ أُعَلَّق) العشنَّقُ: الطويلُ الخارجُ بطوله إلى الحدِّ المستكره، ويُقال أيضاً عليه: العشنَّط ـ بالطاء ـ تقولُ: ليس عنده أكثر من طولٍ بلا نفع، فهو منظرٌ بلا مخبر، إن ذكرتُ عيوبه طلَّقني، وإن سكتُّ عن ذلك؛ تركني مُعلَّقةً، لا أيِّماً، ولا ذات زوج، كما قال تعالى: ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩].

و (قول الرابعة: زوجي كلَيْلِ تِهامة؛ لا حرٌّ، ولا قرٌّ) هو مَدَحٌ منها لزوجها؛ لأنها ضربتْ له مثلاً بلَيل تهامة؛ لأنه معتدلٌ؛ إذ ليس فيه حرٌّ يؤذي، ولا بردٌ يُرْدِي. وكذلك كان زوجُها. والقرُّ: البرد.

و (قولها: ولا مخافة، ولا سآمة) أي: لا أخافُ منه أذىً، وليس فيه سآمة أي: قلال. والرواية المشهورة: فتح ما بعد (لا) وبناء ما بعدها معها، وقد رواه أبو عبيد برفع ما بعدها وتنوينه في المواضع كلِّها على الابتداء وإضمار الخبر، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وكنحو

قالت الخامسة: زوجي إنْ دَخَلَ فَهِدَ، وإنْ خرج أَسِدَ، ولا يَسْأَلُ عمّا عَهِدَ.
قالت السادسة: زوجي إنْ أكل لفَّ، وإن شرب اشتفَّ، وإن اضطجع التفّ، ولا يولِجِ الكفَّ لِيَعْلَمَ البَثَّ . . . .

قوله: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فإنه يجوزُ فتحهما ورفعهما، وفتح الأول، ورفع الثاني، وعكس ذلك، وبسطُ ذلك في كتب النحو.

و (قول الخامسة: زوجي إن دخل فَهِدَ، وإن خرج أَسِدَ، ولا يسألُ عمَّا عهد) الرواية فَهِد وأَسِد ـ بكسر العين وفتح اللام ـ على أنهما فعلان ماضيان مأخوذان من اسم الفهد والأسد، تريد أن حاله إذا دخل بيته نام نومَ الفهد، تصفه بكثرة النَّوم. يُقال في المثل: هذا أنوم من فهد، وأما إذا خَرَجَ للحرب، فيفعل فعل الأسد تصفه بالشجاعة. يقال: أَسِدَ الرجلُ واستأسد إذا تشجَّع، وقال إسماعيلُ بن أبي أويس: إن دخل فَهِد، أي: وثب عليَّ كما يثبُ الفهد، فيحتملُ أن تريدَ بذلك ضَرْبها، أو المبادرة لجماعها.

قلــتُ: والأول أظهر.

و (قولها: ولا يسأل عمَّا عهد) أي: لا يبحثُ عمَّا له من مالٍ ولا طعامٍ في بيته، فيحتملُ أن يكونَ ذلك عن كرم نفس، وحُسْن خُلُق فيكون مدحاً، ويُحتملُ أن يكون ذلك عن غفلة وقلَّة مبالاةٍ فيكون ذمّاً.

و (قول السادسة: زوجي إن أكل لفَّ، وإن شرب اشتفَّ) تصفُه بكثرة الأكل مع التَّخليط في المأكول، فهو يلفُّ كلَّ ما يجدُه من الأطعمة، ويشربُ كلَّ ما يجدُه من الأشربة. يقال: اشتفَّ ما في الإناء إذا شرب ما فيه، من الشفافة وهي: البقية، وهذا وصفُ ذمٍّ.

و (قولها: وإذا[١] اضطجع التفَّ) تعني: أنه ينام وحده مُلتفّاً في ثوبه،

---

(١) في مسلم والتلخيص: وإن.

قالت السابعة: زوجي غَيَايَاءُ ـ أو عياياءُ ـ طَبَاقَاءُ، ....

فيحتملُ أن يكونَ ذلك منه إعراضاً عنها، إذ لا أَرَبَ له فيها، فهي لذلك كئيبةٌ حزينة، ويناسبه قولُها بعده: ولا يُولج الكفَّ ليعلمَ البَثَّ، أي: لا يمدُّ يده إليَّ ليعلم ما أنا عليه من الحزن لإعراضه عنها فيزيله. ويحتمل أنه: إنما يفعلُ ذلك فشلاً وعجزاً؛ فإن هذه نومةُ العجزان الكسلان، وعلى هذا فيجتمع فيه: أنَّه أكولٌ، شروبٌ، نؤومٌ، لا رغبةَ له في شيءٍ غير ذلك. واختلف في معنى قولها: ولا يُولج الكفَّ ليعلمَ البثَّ، فأشار ابنُ الأعرابي إلى الأول، فإنه قال: إنَّما أرادت أنه إذا رقد التفّ في ناحية من البيت، ولم يضاجعني ليعلَم ما عندي من محبَّتي لقربه. ولا بثَّ لها إلا محبَّتُها الدنوّ منه، فسمَّتْهُ ذلك بثّاً؛ لأنَّ البثَّ من جهته يكون. قال أبو عبيد: أحسبُ أنها كان بجسدها عيب، فكان لا يُدْخِلُ يَدَهُ في ثوبها كرماً، وقال غيرُه: لا يمسُّ عورتها، لأن ذلك قد يشقُّ عليها في بعض الأوقات، ولذلك قال ﷺ في الحديث: «حتى تستحدَّ المُغِيبَة»[1]، وقال أحمد بن عبيد: معناه: لا يتفقَّد أموري فيعلم ما أكرهه فيزيلَه، يقال: ما أدخل يده في هذا الأمر، أي: لم يتفقَّدْه.

قلـتُ: وقولُ ابن الأعرابي: أشبهها، وما ذكرته أنسبها، وعلى هذه الأقوال كلِّها فحديثها كلُّه ذمٌّ، وأما على قول أبي عبيد، فإنها تكون قد مدحته بالإعراض والتَّغافل عن الاطلاع على ما يُحْزِنها من عيب جسدها، وقد استبعد ابن قتيبة أن تكون تذمُّه بالوصفين المتقدمين وتمدحه بثالث.

قلـتُ: وهذا لا بُعْدَ فيه، فإنهنَّ تعاقدن ألَّا يكتمن من أحوال أزواجهن شيئاً، فمنهن مَن كان زوجُها مذمومَ الأحوال كلِّها، ومنهن مَن كان زوجُها ممدوحَ الأوصاف كلِّها، ومنهم من جَمَع الأمرين، فأخبرتْ كلُّ واحدةٍ بما علمتْ.

و (قول السَّابعة: زوجي غَيَاياء ـ أو عَيَاياء ـ طباقاء) الروايةُ التي لا يُعْرَفُ

---

(١) رواه البخاري (٥٢٤٥)، ومسلم (٧١٥). (١٨١) في كتاب الإمارة.

كلٌّ داءٍ له دَاء، ....

غيرها بالعين المهملة، وغياياء: بالغين المعجمة، و «أو» للشك، وهو شكٌّ وقع مِن بعض الرُّواة، وقد أنكر أبو عبيد وغيره الغينَ المعجمة، وقالوا: صوابُه: عياياء. وقالوا: هو العنِّين: وهو الذي تغلبُه مباضعةُ النساء، وكذلك هو في الإبل التي لا تضربُ ولا تلقح.

قلــتُ: ويظهر من كلام هؤلاء الأئمة: أنهم قَصَروا عياياء على الذي يعجزُ عن الجماع والضّراب، والصَّحيحُ من اللسان: أنه يُقال على ذلك، وعلى مَن لم يقمْ بأموره. ففي الصِّحاح: يقال جمل عياياء؛ أي: لم يهتدِ إلى الضّراب، ورجل عياياء: إذا أعيا بالأمر والمنطق، وعلى هذا فتكون هذه المرأةُ قد وصفته بكلِّ ذلك، وأما إنكارُ غياياء فليس بصحيح. قال القاضي أبو الفضل: وقد يظهر له وَجْهٌ حَسَن، ولا سيما أكثر الرُّواة أثبتوه، ولم يشكُّوا فيه، وهو أن يكونَ مأخوذاً من الغياية، وهو كلُّ ما أظلَّ الإنسانَ فوق رأسه، فكأنه غُطِّي عليه وسُتِرت أمورُه، ويكون من الغي: وهو الانهماك في الشر، أو الغي: وهي الخيبة. قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] أي: خيبة. والمعروف في الطّباقاء: أنه بمعنى: العياياء؛ وهو الذي تنطبقُ عليه الأمور، وأنشد الجوهري قولَ جميل بن مَعْمَرٍ:

طَبَاقَاءُ لَمْ يَشْهَدْ خُصُوماً ولَمْ يَقُدْ رِكَاباً إِلَى أَكْوَارِها حينَ تُعْكَفُ[١]

قال: ويُروى عياياء، وهو بمعنى واحدٍ. قال القاضي: وحكى أبو عليٍّ ـ وأظن البغدادي ـ عن بعضهم أنه قال: الثقيل الصَّدر؛ الذي ينطبق صدره على صدر المرأة عند الحاجة إليها، وهو من مذامِّ الرجال. وقال الجاحظ: عياياء، طباقاء: أخبرت عن جهله بإتيان النساء، وعيِّه، وعجزه، وأنه إذا سقط عليها انطبقَ عليها، والنساء يكرهنَ صدور الرجال على صدورهنَّ.

و (قولها: كلُّ داء له داء) أي: هو موصوف بجميع الأدواء مع عِيِّه وعجزِه.

(١) انظر: الصحاح (٤/١٥١٢).

شَجَّكِ أو فَلَّكِ، أو جمع كلّاً لك. قالت الثامنة: زوجي: الريح ريح زَرْنَبٍ، والمسُّ مسُّ أرنبٍ. قالت التاسعة: زوجي رفيعُ العِمادِ ، طويل النِّجاد،

و (قولها: شجَّكِ، أو فلَّكِ، أو جمع كلّاً لكِ) الشجاج: الجراح في الرأس، وتعني بفلَّكِ: أي أثّر في جسدك بالضرب، مأخوذ من فلَّ السيف فلولاً إذا تثلَّم، وقيل معناه: كسر أسنانَها، و (أو) هنا للتقسيم، تعني: أنه في وقت يضربُها فيشجُّ رأسها، وفي وقت يؤثر في جسدها، وفي آخر يجمعُ كلَّ ذلك عليها.

و (قول الثامنة: الرِّيح ريح زرنب، والمسّ مَسّ أرنب) الأرنب: واحد الأرانب. تعني به: أنه ليِّن الجسد عند المَسِّ، ناعمُه كمسِّ جلد الأرنب، ويُحتمل: أن يُكنى بذلك عن طيب خلقه، وحسن معاشرته. والزَّرْنب: بتقديم الزاي على الراء: ضرب من النبات طَيِّب الرائحة، ووزنه: فعلل. وأنشدوا:

يا بأبي أنت وفوكِ الأشنب ... كأنَّما ذرَّ عليه الزَّرنب
أو زنجبيلٌ عاتقٌ مُطيَّب

وظاهره: أنها أرادت: أن تستعملَ الطِّيب كثيراً تظرُّفاً ونظافة، ويُحتمل أن تكني بذلك عن طيب الثناء له، أو عن طيب حديثه، وحسن معاشرته.

و (قول التاسعة: زوجي رفيعُ العماد، طويلُ النِّجاد) وظاهره: أنها وصفته بطول البيت وعلوِّه؛ فإنَّ بيوت الأشراف والكرماء كذلك، فإنهم يُعْلونها، ويَضربونها في المواضع المرتفعة ليقصدَهم الطارقون والمعتفون[1]، وبيوت غيرهم: قصار، وربما هُجي بذلك فقيل:

قِصارُ البيوتِ لا تُرى صهواتُها ... من اللُّؤمِ حشَّامُون عندَ الشدائد

وقيل: كنَّت بذلك عن شرفه ورفعة قدره. والنِّجاد: حَمَالة السيف، تُريد: أنه طويلُ القامة، كما قال شاعرهم:

---

(١) المُعتفون: جمع عاف ومُعتفٍ، الأضياف وطلاب المعروف. (اللسان) مادة: عفى.

عظيم الرَّماد، قريب البيت من النادي. قالت العاشرة: زوجي مالكٌ؛ فما مالكٌ؟ مالكٌ خيرٌ من ذلك، ....

قَصُـرَتْ حَمـائِلُـهُ عَلَيْـهِ فَقَلَصَـتْ وَلَقَـدْ تَمَطَّـطَ بَيْنَهـا فَـأَطَـالَهـا

وكانت العرب تتمادح بالطول وتذمُّ بالقِصَر، وذلك موجود في أشعارهم.

و (قولها: عظيم الرَّماد) تعني: أن نار قِراه للأضياف لا تُطفأ، فرمادُ ناره كثير عظيم، كما قال:

مَتَى تَـأْتِـهِ تَعْشُـو إلَـى ضَـوْءِ نـارِهِ تَجِـدْ حَطَبـاً جَـزْلاً ونَـاراً تَـأَجَّجـا

وقال آخر:

لَــهُ نَــارٌ تُشَــبُّ عَلَــى يَفَــاعٍ إِذَا النِّيــرَانُ أُلْبِسَــتِ القِنَــاعَــا

و (قولها: قريب البيت من النادي) النادي، والنديُّ، والمنتدى: مجلس القوم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ [العلق: ١٧]. أي: أهل مجلسه. تصفه بالشرف والسؤدد في قومه، فهم إذا تشاوروا، أو تفاوضوا في أمرٍ أتوه فجلسوا قريباً من بيته، فاعتمدوا على رأيه، وامتثلوا أمره. ويُحتمل أن تريد: أن النادي إذا أتوْه لم يصعب عليهم لقاؤه أي: لا يحتجبُ عنهم، ولا يتباعد منهم، بل: يقرب منهم، ويتلقَّاهم مُرحِّباً بهم، ومُبادراً لإكرامهم. ومقتضى حديثها: أنها وصفته بالسيادة والكرم، وحسن الخلق، وطيب المعاشرة.

و (قول العاشرة: زوجي مالك، وما مالك؟) هذا تعظيم لزوجها، وهذا على نحو قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧] و ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۞ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ ـ ٢].

و (قولها: مالكٌ خيرٌ من ذلك) أي: هو أجلُّ من أن أصفَه لشهرة فضله، وكثرة خيره.

له إبلٌ كثيراتُ المَبارِك، قليلاتُ المَسَارح، إذا سَمِعْنَ صوت المِزْهَرِ أيْقَنَّ أنهنَّ هَوَالِكُ. قالت الحادية عشرة: زوجي أبُو زَرْعٍ؛ فما أبو زرع؟ أَنَاسَ من حُليٍّ أُذُنَيَّ، وَملأَ من شَحمٍ عضُدَيَّ، . . . .

و (قولها: له إبلٌ كثيرات المَبَارك، قليلاتُ المَسَارح) مَبَارك الإبل: مواضع بروكها. واحدُها: مَبْرك، ومَسَارِحُها: مواضع رعيها، واحدها مَسْرح، واختلف في معناه على ثلاثة أقوال: أحدُها: أنه أكثر بروكَها وأقلَّ تسريحَها مخافة أن ينزلَ به ضيف وهي غائبةٌ، ذكره أبو عُبيد، والثاني: أنها إذا بركت كانت كثيرة لتوفُّر عددها، وإذا سرحت كانت قليلة لكثرة ما يجزرُ منها للضيفان. قاله ابن أبي أويس. وثالثها: أنها إذا بركت كانت كثيرة لكثرة من ينضمُّ إليها ممن يلتمسُ لحمها ولبنها، وإذا سرحت كانت قليلة لقلة من ينضم إليها منهم.

و (قولها: إذا سمعنَ صوت المِزْهر أيقنَّ أنهنَّ هوالك) المِزهر ـ بكسر الميم ـ: هو عود الغِناء، وهو معروف عند العرب ومذكور في أشعارها، وقد أخطأ من قال: إنه مُزْهِر بضم الميم وكسر الهاء، وفسَّره: بموقد النار في الرواية والمعنى. أما الرواية: فلا يصحُّ منها إلا ما ذكرناه، وهو كسر الميم، وفتح الهاء، وأما المعنى؛ فقيل فيه قولان؛ أحدهما: أنه يتلقَّى ضيفانَه بالغِناء مبالغةً في الترحيب والإكرام، وإظهار الفرح. والثاني: أنه يأتي ضيفانَه بالشراب والغِناء، فإذا سمعتِ الإبلُ صوتَ المِزْهر والغِناء أيقنَّ بنحرهنَّ للأضياف، وكلا القولين: أمدح، ومعناهما أوضح.

و (قول الحادية عشرة: أناس من حُليٍّ أذنيّ) تريد: حلّاني قِرَطَةً وشُنُوفاً تنوسُ بأذنيّ، أي: تتحرك، والنَّوْسُ: حركة كل شيء متدلٍّ، يقال فيه: ناسَ ينوسُ نَوْساً، وأناسَه غيرَه إناسةً، وسُمِّي ملكُ اليمن ذا نُواس؛ لضفيرتين كانتا له تنوسان على عاتقه.

و (قولها: ملأ من شحم عَضُدَيَّ) أي: سمَّنني بالإحسان، وكثرة المأكل،

وبجَّحني فَبَجَحَتْ إليَّ نَفْسي، وجَدنِي في أهلِ غُنيمةٍ بشقٍّ ، فجعلني في أهلِ صَهيلٍ وأطيطٍ، ودائسٍ ومُنَقٍّ، ....

وخصَّت العضدين؛ لأنهما إذا سمنا سَمِنَ جميع الجسد.

و (قولها: فبجّحني فبجحت إليَّ نفسي) الرواية المعروفة: فبجَحت؛ بفتح الجيم والحاء وسكون تاء الفرق، وإليَّ مشدد الياء، وتكون «نفسي» فاعلة بجحت وقد رواه أبو عُبيد فَبَجُحْتُ، بضم الجيم، وسكون الحاء وتاء مضمومة، هي ضمير المتكلم الفاعل، وإلى ساكنة: حرف جر، نفسي: مجرورة، ومعنى: بجحني: فرَّحني ورفعني، ففرحتُ، وترفَّعتُ. يُقال: فلان يتبجَّح بكذا، أي: يترفَّع ويفتخر، قال الشاعر وهو الراعي:

وَما الفَقْرُ مِنْ أَرْضِ العَشِيرَةِ سَاقَنا إِلَيْـكِ وَلٰكِنَّـا بِقُـرْبِـكِ نَبْجَـحُ

أي: نترفَّع، ونفتخر.

و (قولها: وجدني في أهل غنيمة بشِقّ) الأكثر الأعرف في الرواية بكسر الشين، وقد ذكره أبو عبيد بفتح الشين. قال: والمحدِّثون يقولونه بالكسر، والفتح الصواب، وهو موضع. وقال ابنُ الأنباري: هو بالفتح والكسر، واختلف الذين كسروه، فمنهم من قال: هو شقّ جبلٍ، أي: غنمهم قليلة، ومنهم من قال: هو الجهدُ والمشقَّة. كما قال تعالى: ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧].

و (قولها: فجعلني في أهل صهيل وأطيط) الصهيل: حمحمة الخيل، والأطيط: صوت الرَّحْل والإبل من ثقل أحمالها. يقال: لا آتيك ما أطَّت الإبل، وكذلك صوت الجوف من الجَوَى[1].

و (قولها: ودائسٍ ومُنَقٍّ) دائس: اسم فاعل من داس الطعام يدوسه دياسة فانداس هو، والموضع: مداسة. والمدوس: ما يداس به، أي: يدقّ ويُدْرَس،

---

(١) «الجوى»: الحرقة وشدة الوجد من عشق أو حُزْن. وكل داءٍ في الجوف.

فعنده أقول فلا أُقبَّحُ، وأرقُد فأتصبَّحُ ، وأشرَبُ فأتَقَنَّحُ. أمُّ أبي زرعٍ، فما أمُّ أبي زرعٍ؟ عكومُها رَدَاحٌ، ....

ويقال: داس الشيءَ برجله يدوسه دوساً إذا وطئه. ومُنَقٍّ: صحيح الرواية فيه بضم الميم وفتح النون: اسم فاعل من نقى الطعام والشيء ينقيه تنقية، فهو مُنَق. يعني: أن لهم زرعاً يُداس وينقى، وقاله ابنُ أبي أويس بكسر النون، قال: وهو نقيق أصوات المواشي والأنعام.

قلتُ: وهذا ليس بشيءٍ؛ لأنه لا يقال لشيءٍ من ذلك: نق، وإنما يقال: نق العقرب والضفدع والدجاجة، وقد يقال: نق الهر، وهو قليل، ولذلك قال النيسابوري: تريدُ الدجاج، وهو بعيد؛ لأنَّ الدجاج لا تمتدحُ بها العرب، ولا تذكرُها في الأموال، ومقصودُ قولها هذا: أنها كانت في قومٍ ضعفاء فقراء، فنقلها إلى قومٍ أغنياء أقوياء.

و (قولها: فعنده أقول فلا أُقبَّح) أي: لا يُعاب لها قول، ولا يرد بل يستحسن ويمتثل.

و (قولها: وأرقد فأتصبَّح) أي: أديم النومَ إلى الصَّباح، لا يوقظها أحدٌ؛ لأنها مُكرَّمة، مكفيَّةُ الخدمة والعمل.

و (قولها: فأتقَنَّح) يروى بالميم والنون مكانها. والروايتان معروفتان، غير أن أبا عبيد لم يعرفْ رواية النون، فأما أتقمح ـ بالميم ـ فمعناه: أتروَّى حتى أمجَّ الشراب من الرِّيِّ. يقال: ناقةٌ قامح، وإبل قماح: إذا رفعتْ رؤوسها عند الشَّراب، ونحو قوله تعالى: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يسٓ: ٨]. وأما بالنون فمعناه: الزيادة على الشرب بعد الريِّ. يقال: قنحت من الشراب، أقنح قنحاً إذا شربتُ بعد الرِّيِّ، وقال ابنُ السِّكِّيت: معناه أقطع الشربَ وأشربُ قليلاً قليلاً.

و (قولها: عكومُها رداح) العكوم: جمع عكم، وهو العِدْلُ. ورداح:

وبيتُها فَسَاحٌ. ابنُ أبي زرع، فما ابنُ أبي زرع؟ مضْجَعُهُ كمَسلِّ شَطْبَةٍ، وتُشْبِعه ذِرَاعُ الجفرةِ. بنتُ أبي زرعٍ، فما بنتُ أبي زرعٍ، طوعُ أبيها، وطوعُ أمِّها، وملءُ كسائِها، وصُفْر ردائِها، . . . .

مملوءة من الأمتعة، تعني: أنها كثيرةُ القماش والأثاث. ويقال: امرأة رداح؛ إذا كانت عظيمةَ الكفل.

و (قولها: وبيتها فساح) أي: واسع. يقال: بيت فسيح، وفساح، وظاهره: أنه فسيحُ الفِناء، ويحتملُ أن يكون كنايةً عمّا يُفعل فيه من الخير، والمعروف.

و (قولها: مضجعه كَمَسلِّ شطبة) الشَّطبة: هي بفتح الشين، وأصلها ما شطب من جريد النخل، وذلك: أنه يُشَقُّ منه قضبان دقاق تُنسج منها الحصر. وقال ابنُ الأعرابي وغيرُه: الشطبة هنا: السيف يُسَلُّ من غمده.

و (قولها: وتشبعه ذراع الجفرة) وهي: الأنثى من ولد المعز، والذكر: جفرٌ، وإذا أتى على ولد المعز أربعة أشهر، وفُصِل عن أمه، وأخذ في الرعي قيل عليه: جفر. مَدَحَتْهُ بقلَّة أكله، وقلَّة لحمه، وهما وصفان ممدوحان. قال الشاعر:

تَكْفِيهِ حُزَّةُ فِلْذٍ إنْ أَلَمَّ بِهَا ... مِنَ الشِّواءِ ويُرْوِي شُرْبَهُ الْغُمَرُ

و (قولها: ملء كسائها) أي: ممتلئة الجسم.

و (قولها: صفر ردائها)[1] أي: خاليته، والصفر: الشيء الفارغ. قال الهروي: أي: ضامرة البطن، والرداء ينتهي إلى البطن. وقال غيره: يريد أنها خفيفةُ أعلى البدن، وهو موضعُ الرداء ممتلئة أسفله، وهو موضعُ الكساء والأزرة، ويؤيده قولُها في بعض روايات الحديث: مِلْءُ إزارها. قال القاضي: والأولى: أنه أراد:

---

(١) هذه العبارة ليست في التلخيص، وقد وردت في مسلم برواية أخرى.

وغيظ جارتها. ....

أن امتلاء منكبيها، وقيام نهديها يرفضان الرداء عن أعلى جسدها[١]، فهو لا يمسُّه كالفارغ منها بخلاف أسفلها، كما قال الشاعر:

أَبَتِ الرَّوادِفُ وَالثُّدِيُّ لِقُمْصِها مَسَّ البُطُونِ وَأَنْ تَمَسَّ ظُهُورا

و (قولها: وغيظ جارتها) تريد أن ضرتها يغيظها ما تراه من حسنها، وجمالها، وعفافها.

و (قولها: وعقر جارتها[٢]) الرواية الصحيحة: بعين مهملة مفتوحة، وقاف من العقر، وهو الجرح، أو الهلاك. تعني: أنَّ ضَرَّتها[٣] تموتُ من أجلها حسداً وغيظاً، أو ينعقر قلبها، وفي قولها: ملء كسائها، وصفر ردائها، وغيظ جارتها دليلٌ لسيبويه: على صحة ما أجازه من قول: مررتُ برجلٍ حَسَنٍ وجهه، وهو ردٌّ على المبرّد والزجّاج؛ فإنهما مَنَعا ذلك، وعلَّل الزجاجي المنع بإضافة الشيء إلى نفسه، وخطَّأ سيبويه في إجازة ذلك، وقال: إنما أجازه سيبويه وحده، وقد أخطأ الزجاجيُّ في هذا النقل في مواضع، أخطأ في المنع، وأخطأ في التعليل، وفي تخطئته سيبويه، وفي قوله: إنه لم يقلْ به غيرُ سيبويه. وقد قال أبو الحسن بن خروف: أنَّه قال به طائفةٌ لا يحصون، وفي قوله: إنَّ جميعَ النَّاس خطَّؤوا سيبويه؛ وليس بصحيح. وكيف يخطأ باللسان من تمسَّك بالسَّماع بالصحيح، كما جاء في هذا الحديث المتَّفق على صحته. وقد جاء عن بعض الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ في وصف النبيِّ ﷺ فقال: شَثَنٌ أصابعه[٤]، وقد اتفق أهل اللسان على صحة قول الشاعر:

(١) في (ز): صدرها.
(٢) هذه العبارة ليست في التلخيص، وإنما جاءت في روايةٍ إثر حديث الباب، في صحيح مسلم.
(٣) في (ز): جارتها.
(٤) «الشَّثن»: الغليظ الأصابع من الكفَّين والقدمين.

جاريةُ أبي زرع، فما جاريةُ أبي زرعٍ؟ لا تَبُثُّ حديثَنا تبثيثاً، ولا تُنَقِّثُ مِيرتَنا تَنْقِيثاً، ولا تملأُ بيتنا تعشيشاً. ....

أَمِنْ دِمْنتين عرَّج الركبُ فيهما بحقل الرُّخامى قد عفا طللاهُما
أقامَتْ عَلَى رَبْعَيهِما جارَتا صَفاً كُميتا الأعالي جونتا مُصطلاهما

وقد تعسَّف المانعُ في تأويل هذا السَّماع بما تمجُّه الأسماع، ولتفصيل ذلك مبسوطات النحو، ومن تمسَّك بالسماع فردُّ حُجَّته لا يُستطاع.

و(قولها: لا تبثُّ حديثَنا تبثيثاً) يُروى بالباء بواحدة، من البث: وهو الإظهارُ والإشاعةُ، فتصفها بكتمان ما تسمعُه من الحديث، وهذا يدلُّ على عقلها، وأمانتها، ويُروى بالنون، وهو بمعنى الأول. يقال: نثَّ الحديث إذا أنثاه، وفي الصحاح: بث الخبر، وأبثَّه: إذا أفشاه، ونثَّه بالنون ينثّه بالضم كذلك، وأنشد:

إذا جاوَزَ الاثنين سرٌّ فإنَّهُ بِنَثٍّ وتَكْثِير الوُشَاةِ قَمِينُ

و (قولها: ولا تنقِّث ميرتنا تنقيثاً) أصل التنقيث: الإسراع. يقال: خرجتُ أنقث ـ بالضم ـ أي: أسرع السير، وكذلك أنتقث. والميرة: ما يمتارُ من موضع إلى موضع من الأطعمة، وأرادت: أنها أمينةٌ على حفظ طعامنا وحافظة له.

و (قولها: ولا تملأُ بيتَنا تعشيشاً) يُروى هذا بالعين المهملة والمعجمة، فعلى المهملة فسَّره الخطابي بأنها لا تفسد الطعام المخبوز، بل تتعهده بأن تُطعمنا منه أولاً فأولاً، وتلاه على هذا التفسير المازري، وهذا إنما يتمشَّى على رواية مَن رواه: ولا تفسد ميرتنا تعشيشاً. وأما على رواية ما صح هنا من قولها: ولا تملأ، فلا يستقيم، وإنما معناه: أنها تتعهَّد بيتها بالنظافة والكَنْس، ولا تترك كناسةً في البيت، حتى يصير كعش الطائر، وأما روايةُ الغين المعجمة فهو من الغش والخيانة. أي: لا تخوننا في شيءٍ من ذلك، ولا تترك النصيحةَ في صَنْعة. والأوطاب: جمع وطبٍ، وهو من الجموع النادرة، فإن (فَعْلاً) في الصحيح قياسه

قالت: خرج أبو زرعٍ والأوطابُ تُمْخَضُ، فلقي امرأةً معها ولدان لها كالفهدين، يَلْعَبان من تحتِ خَصْرِهَا برُمَّانتَين، فطلَّقني ونكحها. فنكحتُ بعده رجلاً سَرِيّاً، رَكِبَ شَرِيّاً، وأخذ خطِّيّاً، وأراح عليَّ نَعَماً ثَرِيّاً، وأعطاني من كل رائحة زَوْجاً؛ ....

أن يأتي في القلة على أفعلٍ، وفي الكثرة على فُعُول، وفِعَال، وهي: أسقيةُ اللبن، وتُمْخَض: تُحَرَّك ليخرجَ زبدها.

و (قولها: يلعبان من تحت خصرها برمّانتين) قال ابن أبي أويسٍ: تعني بالرمانتين: ثدييها. قال أبو عبيد: ليس هذا موضعه، وإنما معناه: أنها عظيمة الكَفَل، فهي إذا استلقتْ صار بينها وبين الأرض فجوةٌ يجري فيها الرُّمان، قال القاضي: وما أنكره أبو عبيد أظهر وأشبه، لا سيما وقد روي: من تحت صدرها، ومن تحت درعها، ولأن العادة لم تجر برمي الصبيان الرمان تحت أصلاب أمهاتهم، ولا باستلقاء النساء كذلك، حتى يشاهد ذلك منهن الرجال، والأشبه: أنهما رمانتا الثَّديين، شبَّههما بذلك لنهودهما، ودلَّ على ذلك صِغَرُ سِنّها.

و (قولها: فنكحتُ بعده رجلاً سرياً، ركب شرياً، وأخذ خطياً، وأراح عليَّ نَعَماً ثرياً) السري ـ بالسين المهملة ـ: هو السيِّدُ الشريف، ومنه قولُه تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤] على قول الحسن، وسراةُ كلّ شيءٍ: خيارُه، وسروات النّاس: كبراؤهم، وحكى يعقوب فيها الشين المعجمة، وركب شَرِيّاً، أي: فرساً سريعاً. يُقال: استشرى الفرس؛ إذا لجَّ في سيره ومضى فيه، وقال يعقوب: فرس شريٌّ: خيارٌ، وهو بالمعجمة لا غير. والخطيُّ: الرمح؛ منسوب إلى موضع بالبحرين يقال له: الخط. والنَّعَم: الإبل. وثرياً: كثيرة كالثرى، وهو التراب. وأراحها: أتى بها إلى مراحها، وهو موضعُ مبيتها.

و (قولها: وأعطاني من كلِّ رائحة زوجاً) رائحة ـ بالراء ـ: هو اسمُ فاعل من

قال: فكُلِي أمَّ زرعٍ، ومِيرِي أهْلَكِ، فلو جَمَعْتُ كُلَّ شيءٍ أعطاني ما بَلَغَ أصْغَرَ آنِيَةِ أبي زرعٍ. قالت عائشة: قال لي رسولُ الله ﷺ: «كنت لك كأبي زرعٍ لأُمِّ زرعٍ».

راح، تعني: أنه أعطاها من كلِّ صنف من الإبل، والغنم، والبقر. والزَّوجُ: الصِّنف[1]، كما قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة: ٧]. وقد يُراد بالزوج: اثنان. يقال فرد وزوج، وزوج المرأة: بعلها، وهي زوجٌ لـه. وقد جاء زوجُه، ويقال: هما زوجان للاثنين، وهما زوج، كما يقال: هما سيّان، وهما سواء، قاله الجوهري. وقال غيره: ولا يوضع الزوجُ على الاثنين أبداً. قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥]، وقد رويت هذه الكلمة: ذابحة بالذال المعجمة، من الذبح، وتكون فاعلة بمعنى مفعولة. كـ ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٧] أي: مرضية. يعني: أنه أعطاها من كلِّ شيءٍ يُذبح.

و (قوله: فكلي أمّ زرع، ومِيْري أَهْلَكِ) أباح لها أن تأكلَ ما شاءت من طعامه، وأن تبعث منه بما شاءت لأهلها، مبالغة في إكرامها، وفي الاحتفال بها، ومع ذلك كلِّه، فكانت أحوالُه كلُّها عندها محتقرةً بالنسبة إلى أبي زرع، ولذلك قالتْ: فلو جمعتُ كلَّ شيءٍ أعطاني ما بلغ أصغر ابنة أبي زرع، وسَبَبُ ذلك: أن أبا زرع كان الحبيب الأول. كما قال الشاعر[2]:

نقِّلْ فؤادَكَ حيث شئتَ من الهوى ... مــا الحــبُّ إلا للحبيــبِ الأوَّلِ

و (قوله ﷺ لعائشة: «كنتُ لك كأبي زرع لأم زرع») تطييبٌ لقلبها، ومبالغةٌ في حُسْن عشرتها، ومعناه: أنا لك، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠] أي: أنتم، ويمكن بقاؤها على ظاهرها، أي: كنتُ لكِ في علم الله

---

(١) في (ز): الضعف.
(٢) هو أبو تمام.

وفي روايةٍ؛ قال: عياياء طَبَاقاء ـ ولم يَشُكَّ ـ وقال: قليلاتُ المَسارِحِ. وقال: وصفر ردائها، وخيرُ نسائها، وعَقْرُ جارتِها. وقال: ولا تنقُثُ مِيرتَنا تنقيثاً. وقال: وأعطاني من كل ذابحةٍ زوجاً.

رواه البخاريُّ (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨).

* * *

السَّابق، ويمكن أن تكون ممَّا أُرِيدَ بها الدوامُ، كما قال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤].

ما في حديث أم زرع من أحكام وفوائد

وحديثُ أمِّ زرعٍ هذا؛ فيه أحكامٌ، منها: جوازُ محادثة الأهل، ومباسطتهن بما لا ممنوعَ فيه. وفيه: جوازُ إعلام الزوج زوجته بمحبته إياها بالقول إذا لم يؤدِّ ذلك إلى مفسدةٍ في حاله بحيث تهجره، وتتجرَّأ عليه. وفيه: ما يدلُّ على أن ذِكْرَ عُيوب مَن ليس بمعيَّن لا يكون غيبة، وفيه جوازُ الانبساط بذكر طُرَفِ الأخبار، ومُسْتطابات الأحاديث، وتنشيط النفوس بذلك، وجواز ذِكْر محاسن الرجال للنِّساء، ولكن إذا كانوا مجهولين بخلاف المعيَّن، فإنَّ ذلك هو المنهيُّ عنه بقوله ﷺ: «لا تصفِ المرأةُ المرأةَ لزوجها حتى كأنه ينظرُ إليها»[1]. وفيه: ما يدلُّ على جواز الكلام بالألفاظ الغريبة والأسجاع، وأن ذلك لا يُكره، وإنما يُكره تكلُّف ذلك في الدُّعاء.

* * *

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٠/ ١٧٣)، وانظر: التمهيد (٤/ ٦٥).

(٤٨) بـــاب
فضائل فاطمة بِنْتِ النبيِّ ﷺ

[٢٣٥٨] عن المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمَةَ: أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ على المنبر، وهو يقول: «إنَّ بني هاشم بن المغيرة استأذنوني أن يُنْكِحوا ابنتهم عليَّ بن أبي طالبٍ، فلا آذنُ لهم، ثمَّ لا آذنُ لهم، ثم لا آذن لهم؛ إلا أن

---

(٤٨) ومن بـــاب: فضائل فاطمة ـ رضي الله عنها ـ
بنت رسول الله ﷺ

فاطمة أصغر بنات الرسول ﷺ

سيِّدةُ نساء العالمين ـ رضي الله عنها ـ وقد اختلف في أصغر بنات رسول الله ﷺ قال أبو عمر: والذي تسكنُ النفسُ إليه: أن زينبَ هي الأولى، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ولدت لرسول الله ﷺ سَنَةَ إحدى وأربعين مِن مولده ﷺ وتزوَّجها عليٌّ ـ رضي الله عنهما ـ بعد وقعة أُحُد. وقيل: بعد أن ابتنى النبيُّ ﷺ بعائشة ـ رضي الله عنها ـ بأربعة أشهر ونصف شهر، وبنى بها عليٌّ بعد تزويجها بسبعة[1] أشهر ونصف، وكان سِنُّها يوم تزوَّجها ـ رضي الله عنهما ـ خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصف، وسِنُّ عليٍّ يومئذ: إحدى وعشرون سنة وستة أشهر، وولدت له الحسن والحسين، وأم كلثوم، وزينب، وتوفيت بعد رسول الله ﷺ بيسير. قيل: بثمانية أشهر. وقيل: بستة أشهر. وقيل: بثلاثة أشهر. وقيل: بسبعين يوماً. وقيل: بمئة يوم. وهي أحبُّ بناتِ رسول الله ﷺ إليه، وأكرمهن عنده، وسيدة نساء أهل الجنة على ما تقدَّم في باب خديجة. وكان رسولُ الله ﷺ إذا قدم من سفر يبدأ بالمسجد فيصلِّي فيه، ثم يبدأُ ببيتِ فاطمة، فيسألُ عنها، ثم يدورُ على سائر نِسائه، إكراماً لها، واعتناءً بها، وهي أوَّلُ مَن سُتِر

زواجها من علي رضي الله عنهما

أولاد فاطمة

ما كان يفعله ﷺ إذا قدم من سفر

---

(١) في (ز): بستة.

يحِبَّ ابنُ أبي طالبٍ أن يُطَلِّق ابنتي ويَنْكح ابنتهم، فإنَّما ابنَتي بَضْعةٌ مِنِّي، يَريبُني مَا رَابَها، ويؤذيني ما آذاها!».

وفاتها وتجهيزها ودفنها

نعشُها في الإسلام، وذلك أنها لما احتضرت قالت لأسماء بنت عُميس: إني قد استقبحتُ ما يُفعَلُ بالنساء؛ إنه يُطْرَحُ على المرأة الثوبُ يصفها، فقالت أسماء: يا بنة رسول الله ألا أريكِ شيئاً رأيتُه في الحبشة؟! فدعت بجرائد رطبةٍ، فَحَنَتْها، ثم طرحتْ عليها ثوباً، فقالت فاطمةُ: ما أحسنَ هذا وأجمله! تُعرف به المرأةُ من الرجل، فإذا أنا متُّ، فاغسليني أنت وعليٌّ، ولا تُدْخِلي أحداً. فلما تُوفِّيتْ جاءت عائشةُ لتدخل، فقالت أسماء: لا تدخلي. فشكتْ إلى أبي بكر فقالت: إنَّ هذه الخثعميَّة[1] تحولُ بيننا وبين بنت رسول الله ﷺ، وقد جعلتْ لها مثل هودج العروس، فجاء أبو بكر فوقف على الباب، فقال: يا أسماءُ! ما حَمَلَكِ على أن منعتِ أزواجَ النبيِّ ﷺ يدخلنَ على بنت رسول الله ﷺ، وجعلتِ لها مثلَ هودج العروس؟ فقالت: أمرتني ألَّا يدخل عليها أحد، وأريتها هذا الذي صنعتُ، فأمرتني أن أصنعَ ذلك بها. قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: اصنعي ما أَمَرَتْكِ، ثم انصرف. وغسَّلها عليٌّ، وأشارتْ أن يدفنها ليلاً، وصلَّى عليها العباس، ونزل في قبرها هو وعليٌّ والفضل، وتوفِّيتْ وهي بنتُ ثلاثين سنة، وقيل: بنت خمس وثلاثين.

و (قوله ﷺ: «إنَّ فاطمة بَضْعَةٌ مني يَرِيبني ما رابها») البَضْعةُ ـ بفتح الباء ـ: القطْعةُ من اللحم، وتُجمع بِضاع، كقصعة وقِصاع، وهي مأخوذةٌ من البَضْع، وهو القطع، وقد سمَّاها في الرواية الأخرى: مُضْغة، وهي قَدْرُ ما يمضغُها الماضغ، ويعني بذلك: أنَّها كالجزء منه يُؤلمه ما آلمها. و «يَريبني ما رابها»: أي يشقُّ عليَّ ويُؤْلمني. يقال: رابني فلان: إذا رأيتَ منه ما تكرهُه ـ ثلاثياً ـ والاسم منه: الرِّيبة.

---

(١) في (ز): الحبشية.

وفي روايةٍ: أن عليَّ بن أبي طالب خطب بنت أبي جهلٍ؛ وعنده فاطمةُ بنتُ النبي ﷺ فلمَّا سمعتْ بذلك فاطمةُ أتتِ النَّبيَّ ﷺ فقالتْ له: إنَّ قَوْمَكَ يتحدثُون أنَّك لا تَغْضَبُ لبناتِكَ، وهذا عليٌّ ناكحاً ابنةَ أبي جهلٍ! قال المِسْوَرُ: فقام النَّبيُّ ﷺ.

وفي روايةٍ: يخطب الناس في ذلك على منبره هذا، وأنا يومئذٍ محتلمٌ فسمعته حين تَشهَّدَ، قال: «أما بعدُ. فإنِّي أنكَحتُ أبا العاص بن الرّبيع، فحدَّثني، فصَدَقني».

وفي روايةٍ: «ووعدني، وإنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ مُضغةٌ منِّي، وإنَّما أكره أن يفتنوها».

وفي روايةٍ: «في دينها، وإنِّي لست أحرِّم حلالاً، ولا أحلُّ حراماً.

وهُذيل تقولُ فيه: أرابني ـ رباعياً ـ والمشهور: أن أراب: إنما هو بمعنى صار ذا ريبةٍ، فهو مريب، وارتابَ بمعنى شكَّ، والرَّيب: الشك.

و (قولها: هذا عليٌّ ناكحاً ابنة أبي جهل) كذا الرواية: ناكحاً بالنَّصب على الحال؛ لأنَّ الكلامَ قبله مُستقلٌّ بنفسه؛ لأنَّ قولها: هذا عليٌّ، كقولك: هذا زيد، لكن رفعه أحسن لو روي؛ لأنه هو المقصودُ بالإفادة، وعليٌّ توطئةٌ له.

مَنْعُه ﷺ عليّاً الجمع بين فاطمة وبنت أبي جهل

و (قوله ﷺ: «لا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن») تأكيدٌ لمنع الجمع بين فاطمة، وبين ابنة أبي جهلٍ، لما خاف النبيُّ ﷺ على فاطمة مِن الفِتنةِ من أجل الغَيْرة، ولما توقَّع من مُناكدة هذه الضَّرَّة؛ لأنَّ عداوة الآباء قد تؤثِّر في الأبناء.

الحكم بالتحليل والتحريم من الله تعالى

و (قوله: «وإني لستُ أحرِّم حلالاً، ولا أُحِلُّ حراماً») صريحٌ في أن الحكمَ بالتحليل والتحريم من الله تعالى، وإنما الرسول مُبلِّغ، ويُستدلُّ به في منع اجتهاد النبيِّ ﷺ في الأحكام، ومِنْ مَنْعِ جواز تفويض الأحكام إلى النبيِّ ﷺ ولا حُجَّة فيه؛ لأنَّ اجتهادَ المجتهد لا يُوجِبَ الأحكام، ولا يُنشئها، وإنما هو مُظْهِر لها،

وإنَّها والله! لا تجتمعُ بنتُ رسولِ الله وبنتُ عدوِّ الله عند رجل واحدٍ أبداً».
قال: فترك عليٌّ الخِطْبَةَ.

رواه أحمد (٤/ ٣٢٨)، والبخاريّ (٥٢٣٠)، ومسلم (٢٤٤٩) (٩٣ ـ ٩٦)، وأبو داود (٢٠٧١)، والترمذيُّ (٣٨٦٧)، وابن ماجه (١٩٩٨).

كما أوضحناه في الأصول. ويُفيد هذا: أن حُكْم الله على عليٍّ، وعلى غيره التَّخيير في نكاح ما طاب له من النساء إلى الأربع، ولكن النبيَّ ﷺ إنَّما مَنَعَ علياً من ذلك لِما خاف على ابنته من المفسدة في دِيْنها من ضَرر عداوةِ تَسْري إليها، فتتأذَّى في نفسها، فيتأذَّى النبيُّ ﷺ بسببها، وأذى النبي ﷺ حرام، فيحرمُ ما يُؤدِّي إليه. ففيه القولُ بسد الذَّرائع، وإعمال المصالح، وأنَّ حُرْمَةَ النبيِّ ﷺ أعظمُ من حُرمة غَيره، وتظهر فائدةُ ذلك: بأن مَن فَعَل منَّا فعلاً يجوزُ له فعله لا يُمْنَعُ منه، وإن تأذَّى بذلك الفعل غيره، وليس ذلك حالُنا مع النبيِّ ﷺ بل يحرمُ علينا مطلقاً فِعْلُ كلِّ شيءٍ يتأذَّى به النبيُّ ﷺ؛ وإن كان في أصله مُباحاً، لكنَّه إن أدَّى إلى أذى النبيِّ ﷺ ارتفعتِ الإباحةُ، ولزم التَّحريم. وفيه: ما يدلُّ على جواز غضب الرَّجل لابنته وولده وحرمه، وعلى الحرص في دفع ما يُؤدِّي لضررهم؛ إذا كان ذلك بوجهٍ جائز، وفيه ما يدلُّ على جواز خُطبة الإمام الناس وجَمْعهم لأمر يَحْدُثُ.

القول بسدّ الذرائع وإعمال المصالح

و (قوله: «واللَّهِ! لا تجتمع ابنةُ نبيِّ الله وابنة عدوِّ الله عند رجلٍ واحدٍ أبداً») دليلٌ على: أنَّ الأصلَ أنَّ وَلَدَ الحبيبِ حبيب، وولد العدو عدوٌّ، إلى أن يتيقن خلافُ ذلك، وقد استنبط بعضُ الفقهاء مِن هذا مَنْعَ نكاح الأَمَة على الحرَّة، وليس بصحيح؛ لأنه يلزمُ منه مَنْعُ نكاح الحُرَّة الكتابية على المسلمة، ومنع نكاح ابنة المرتدّ على مَن ليس أبوها كذلك، ولا قائلَ به فيما أعلم. فدلَّ ذلك على أنَّ ذلك الحُكْمَ مخصوصٌ بابنة أبي جهل وفاطمة ـ رضي الله عنها ـ.

و (قوله: فترك عليٌّ الخِطْبة) يعني: لابنة أبي جهلٍ وغيرها، ولم يتزوَّج عليها، ولا تسرَّى حتى ماتت ـ رضي الله عنها ـ.

[٢٣٥٩] وعن عائشة، قالت: كنَّ أزواجُ النبيِّ ﷺ عنده، لم يُغادِرْ منهنَّ واحدةٌ، فأقْبَلتْ فاطمةُ تَمْشي ـ ما تُخطىءُ مِشيَتُها مشيةَ رسول الله ﷺ

من هو أبو العاص؟

و (قوله ﷺ: «إنَّ أبا العاص بن الربيع حدَّثني فَصَدَقني، ووعدني فوفى لي[(١)]») أبو العاص هذا: هو زوجُ ابنة رسول الله ﷺ زينب ـ رضي الله عنها ـ واسمه: لقيط ـ على الأكثر ـ. وقيل: هشيم[(٢)] بن الربيع بن عبد العُزَّى بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمُّه هالة بنت خويلد أخت خديجة لأبيها، وكان النبيُّ ﷺ قد أنكحه زينب، وهي أكبرُ بناته وذلك بمكة فأحسن عُشْرتها، وكان مُحِبّاً لها، وأرادتْ منه قريش أن يطلِّقها فأبى، فشكر له النبيُّ ﷺ ذلك، ثم إنَّه حَضَر مع المشركين ببدرٍ فأُسِر، وحُمِل إلى المدينة، فبعثتْ فيه زينبُ قلادتها، فَرُدَّت عليها، وأُطلق لها، وكان وَعَدَ النبيَّ ﷺ أن يرسلها إليه ففعل، وهاجرتْ زينب، وبقي هو بمكَّة على شِرْكِهِ إلى أن خرج في عِيْرٍ لقريش تاجراً، وذلك قُبيل الفتح بيسير، فعرض لتلك العير زيدُ بن حارثة في سرية من المسلمين من أصحاب رسول الله ﷺ فأخذها، وأفلت أبو العاص هارباً إلى أن جاء إلى المدينة، فاستجار بزينب فأجارته، وكلَّم النبيُّ ﷺ الناسَ في ردِّ جميع ما أُخِذ من تلك السَّرية، ففعلوا، وقال: إنه يردُّ أموالَ قريش، ويسلم، ففعل ذلك، فلذلك شكره النبيُّ ﷺ وقال: «حدَّثني فصدقني، ووعدني فوفى لي».

و (قول عائشة: كُنَّ أزواجُ النبيِّ ﷺ عنده لم يغادرْ منهن واحدةٌ) أي: لم يترك، ولم يغفلْ عن واحدة منهن، وهذا كان لما اشتدَّ مرضُه، ومُرِّض في بيت عائشة. والسِّرار: السرُّ. يقال: سارره يساره سرّاً، وسراراً، ومُسارَّة. وبكاءُ فاطمة في أول مرَّة كان حزناً على النبيِّ ﷺ لما أعلمها بقرب أَجَله، وضحكُها ثانية

---

(١) قوله: فوفى لي، رواية لمسلم برقم (٢٤٤٩) (٩٥).

(٢) في (ز): مهيم. وفي (م ٤): مهشم. وذكر ابن الأثير في أسد الغابة الاسمين: هشيم ومهشم.

شيئاً ـ فلمَّا رآها رَحَّب بها، فقال: «مرحباً بابنتي!» ثُمَّ أجلَسَها عن يمينه ـ أو عن شماله ـ ثم سارَّها، فبكت بكاءً شديداً، فلمّا رأى جَزَعَها سارَّها الثانية فضَحِكتْ. فقلتُ لَهَا: خَصَّكِ رسولُ الله ﷺ مِنْ بينِ نِسائِهِ بالسِّرارِ، ثُمَّ أنتِ تبْكِينَ! فلمَّا قام رسولُ الله ﷺ سَألْتُها: ما قال لكِ رسولُ الله ﷺ؟ قالتْ: ما كنتُ أُفشِي على رسولِ الله ﷺ سِرَّهُ. قالت: فلمَّا تُوفِّيَ رسول الله ﷺ قُلتُ: عزمتُ عليكِ بما لي عليك من الحقِّ لَمَا حدَّثْتِني ما قال لكِ رسولُ الله ﷺ! فقالت: أمَّا الآن فنَعَمْ! أمَّا حين سارَّني في المرة الأولى؛ فأخبرني: أنَّ جبريل كان يُعارضُهُ القرآنَ في كل سنةٍ مرَّةً، وإنَّه عارضه الآن مرتين: «وإنِّي لا أُرَى الأجَلَ إلَّا قدِ اقترب، فاتقي الله واصْبِري، فإنَّه نِعم السلفُ أنا لك!». قالتْ: فبَكَيْتُ بُكائي الذي رأيتِ، فلمَّا رأى جَزَعي سارَّني الثانية، فقال: «يا فاطمة! أما تَرْضَيْ أن تكوني سيِّدَة نساء المؤمنين ـ أو سيدةَ نساء هذه الأمةِ ـ؟» قالت: فضَحِكتُ ضَحِكي الذي رأيتِ.

وزاد في روايةٍ: «وإنَّكِ أولُ أهلِ بيتي لُحُوقاً بي».

رواه أحمد (٦/ ٨٢)، والبخاريُّ (٦٢٨٥ ـ ٦٢٨٦)، ومسلم (٢٤٥٠) (٩٨ ـ ٩٩).

* * *

فرحاً بما بشّرها به من السلامة من هذه الدار، ولقُرْب الاجتماع به، وبالفوز بما لها عند الله من الكرامة، وكفى بذلك: أن قال لها: إنها سيدة نساء أهل الجنة، وقد تقدَّم الكلامُ على هذا في باب: خديجة. وكونه ﷺ كان جبريل يعارضُه كل سنة مرَّةً؛ يدلُّ على استحباب عرض القرآن على الشيوخ ولو مرَّة في السَّنَة، ولما عارضه جبريلُ القرآنَ في آخر سنةٍ مرتين استدلَّ النبيُّ ﷺ بذلك على قُرْب أَجَله من

استحباب عرض القرآن على العلماء

(٤٩) بـــاب
فضائل أمِّ سلمة وزينب زوجي النَّبي ﷺ

[٢٣٦٠] عن أبي عثمانَ، عن سلمانَ، قال: لا تكُونَنَّ ـ إن

حيثُ مخالفةُ العادة المتقدِّمة، والله تعالى أعلم. وكان النبيُّ ﷺ كثر عليه الوحيُ في السنة التي توفي فيها حتى كمَّل اللَّهُ من أمره ووحيه ما شاء أن يكمله.

(٤٩) ومن بـــاب: فضائل أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي ﷺ

اسمها ونسبها

واسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، واسم أبيها: حذيفة، يُعرف بزاد الراكب، وكان أحدَ أجواد العرب المشهورين بالكرم، وكانت قبل النبيِّ ﷺ تحت أبي سلمة بن عبد الأسد، وأسلمت هي وزوجها، وكان أوَّلَ من هاجر إلى أرض الحبشة، ويُقال: إن أم سلمة أول ظعينة قدمت المدينة مُهاجرةً. قال أبو عمر: تزوَّج بها رسولُ الله ﷺ بعد سنتين من الهجرة، بعد وقعة بدرٍ، وعقدَ عليها في شوال، وابتنى بها في شوال. قال أبو محمد ـ عبد الله بن علي الرُّشاطي ـ: [هذا وهم شنيع][1]، وذلك: أن زوجَها أبا سلمة شهدَ أُحداً، وكانت أُحدٌ في شوال سنة ثلاثٍ، فجرح فيها جُرْحاً اندملَ، ثم انتقض به فتوفي منه لثلاثٍ خلونَ من جمادى الآخرة سنة أربع، وانقضت عِدَّةُ أم سلمة منه في شوال سنة أربع، وبنى بها عند انقضائها. قال: وقد ذكرَ أبو عمر هذا في صدر الكتاب، وجاء به على الصَّواب.

زواجه ﷺ من أم سلمة

وفاتها

وتوفيت أم سلمة في أول خلافة يزيد بن معاوية سنة ستين. وقيل: توفيت في شهر رمضان، أو شوال سنة تسع وخمسين، وصلَّى عليها أبو هريرة، وقيل: سعيد بن زيد، ودُفنت بالبقيع.

نسب زينب بنت جحش

وأما زينب فهي ابنة جحش بن رِئاب بن يعمر بن صَبِرة بن مرة بن كبير بن

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ز).

استطعت ـ أوّل من يدخُلُ السوقَ، ولا آخِرَ من يخرُجُ منها؛ فإنَّها معركةُ

غنم بن دُودان بن أسد بن خزيمة، وهي التي كانت تُسامي عائشة في المنزلة عند رسول الله ﷺ وقد أثنت عليها عائشة بأوصافها الحسنة المذكورة في باب عائشة[١]، وكانت تفخر على أزواج النبيِّ ﷺ فتقول لهنَّ: أنكحكنَّ أولياؤكنَّ، وإن الله أنكحني بنبيّه ﷺ من فوق سبع سموات، تعني بذلك قوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] توفيت سنة عشرين في خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ، وفي هذا العام استفتحت مصر. وقيل: توفيت سنة إحدى وعشرين، وفيها فُتحت الإسكندرية، وكانت زينب هذه أوَّلَ أزواجه اللاَّئي توفي عنهن لحاقاً به، وكان للنبيِّ ﷺ زوجة أخرى تُسمَّى زينب بنت خزيمة الهلالية، وتُدعى أُمَّ المساكين لحنوِّها عليهم، وهي من بني عامر، تزوجها النبيُّ ﷺ سنة ثلاث، ولم تلبث عنده إلا يسيراً شهرين أو ثلاثة، وتوفيت في حياة النبيِّ ﷺ وكانت قبلَه تحت عبد الله بن جحش، قُتل عنها يوم أحد.

فخرها على أزواجه ﷺ

وفاتها

زينب بنت خزيمة زوجة رسول الله

و (قول سلمان: لا تكونن إن استطعت أول من تدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها، فإنها معركة الشيطان). كذا روى مسلم هذا الحديث موقوفاً على سلمان من قوله. وقد رواه أبو بكر البزار مرفوعاً للنبيِّ ﷺ من طريق صحيح، وهو الذي يليق بمَساق الخبر؛ لأن معناه ليس مما يُدركُ بالرأي والقياس، وإنما يُدرك بالوحي، وأخرجه الإمام أبو بكر البرقاني في كتابه مسنداً عن أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من رواية عاصم بن أبي عثمان النَّهدي عن سلمان. قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكنْ أوَّلَ مَنْ يدخلُ السُّوقَ، ولا آخرَ من يخرجُ منها؛ فإنها معركة الشيطان، فيها باضَ الشيطان وفرَّخ»[٢]. والمعركة: موضع القتال، سمِّي بذلك لتعارك الأبطال فيه، ومصارعة بعضهم بعضاً، فشبَّه

السوق معركة الشيطان

---

(١) انظر الحديث في التلخيص (٢٤٥٦).

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٧٧) وقال: رواه الطبراني في الكبير.

الشيطان، وبها يَنْصِبُ رايته. قال: وأُنبئتُ أنَّ جبريل ـ عليه السلامُ ـ أتى نبيَّ الله ﷺ وعنده أمُّ سلَمَة. قال: فَجَعَل يتحدثُ، ثم قام، فقال نبيُّ الله ﷺ لأمِّ سلمة: «من هذا؟» أو كما قال. قالت: هذا دِحْيَةُ. قال: فقالتْ أمُّ سلمة: ايمُ الله! ما حَسِبتُهُ إلا إيّاهُ؛ حتى سمعتُ خطبة النَّبيِّ ﷺ يخبرُ خبرنا. أو كما قال. قال: فقلتُ لأبي عثمان: مِمَّنْ سمِعتَ هذا؟ قال: مِن أسامة بن زيدٍ.

رواه مسلم (٢٤٥١).

السوقَ، وفعل الشيطان بأهلها ونيله منهم بما يحملهم عليه من المكر، والخديعة، والتساهُل في البيوع الفاسدة والكذب، والأيمان الكاذبة، واختلاط الأصوات، وغير ذلك بمعركة الحرب، وبمن يُصرع فيها.

و (قوله: وبها ينصب رايته) إعلام بإقامته في الأسواق، وجمع أعوانه إليه فيها.

ويُفيد هذا الحديث: أن الأسواق إذا كانت موطنَ الشياطين ومواضعَ لهلاك الناس، فينبغي للإنسان ألا يدخلها إلا بحكم الضرورة، ولذلك قال: لا تكوننَّ إن استطعت أول من يدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها؛ ولأن من كان أول داخلٍ فيها أو آخر خارجٍ منها كان ممن استحوذَ عليه الشيطان، وصرفه عن أمور دينه، وجعل همَّه السوقَ، وما يُعمل فيها فأهلكَه. فحقٌّ من ابتلاه الله بالسوق أن يخطرَ بباله: أنه قد دخل محلَّ الشيطان، ومحلَّ جنوده، وأنه إن أقام هنالك هلكَ، ومن كانت هذه حالُه اقتصرَ منه على قدر ضرورته، وتحرَّز من سُوءِ عاقبته، وبليَّته. وقد تقدَّم القول في تمثل الملائكة والجنِّ في الصور المختلفة، وأن لهم في أنفسهم صوراً خلقهم الله تعالى عليها، وأن الإيمان بذلك كله واجبٌ لما دلَّ عليه من السمع الصادق، وكان دحيةُ بن خليفة رجلاً حسنَ الصورة، فلذلك تمثَّل بصورته جبريلُ ـ عليه السلام ـ وهو دحية بن خليفة بن فروةَ الكلبيُّ، وكان من كبار

التعريف بدحية الكلبي

[٢٣٦١] وعن عائشةَ أمِّ المؤمنين، قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «أسرعُكُنَّ لَحَاقاً بي، أطْوَلُكُنَّ يداً». قالت: فَكُن يتطاولن أيَّتُهُنَّ أطولُ يداً. قالت: فكانت أطولَنا يداً زَيْنَبُ؛ لأنها كانت تعمل بيديها وتصدَّقُ.

رواه أحمد (٦/ ١٢١)، والبخاريُّ (١٤٢٠)، ومسلم (٢٤٥٢)، والنسائيُّ (٥/ ٦٦).

* * *

الصحابة، لم يشهد بدراً، شهد أُحداً وما بعدها، وبقي إلى خلافة معاوية، وأرسلَه رسول الله ﷺ إلى قيصرَ في سنة ستٌّ من الهجرة فآمنَ قيصرُ، وأبت بطارقتُه أن تؤمنَ، فأخبرَ دحيةُ بذلك النبيَّ ﷺ فقال: «ثَبَتَ ملكُه»[(١)].

زينب بنت جحش أكثر أزواجه ﷺ صدقةً

و (قوله ﷺ: «أسرعُكُنَّ لحاقاً بي أطولُكُنَّ يداً») هذا خطاب منه لزوجاته خاصَّة، ألا ترى أنه قال لفاطمة ـ رضي الله عنها ـ: «أنت أوَّلُ أهل بيتي لحوقاً بي»[(٢)]، وكانت زينب أوَّلَ أزواجه وفاةً بعده، وفاطمةُ أوَّلَ أهل بيته وفاةً، ولم يُرد باللَّحاق به الموت فقط، بل: الموت والكون معه في الجنة والكرامة. و (تطاول أزواجِه بأيديهنَّ) مقايسة أيديهن بعضهنَّ ببعض؛ لأنهنَّ حملن الطول على أصله وحقيقته، ولم يكن مقصود النبيِّ ﷺ ذلك، وإنما كانَ مقصوده: طول اليد بإعطاء الصدقات، وفعل المعروف، وبيَّن ذلك أنه: لما كانت زينبُ أكثر أزواجه فعلاً للمعروف والصَّدقات كانت أوَّلهنَّ موتاً، فظهرَ صدقُه، وصحَّ قوله ﷺ.

* * *

---

(١) رواه البيهقي في الدلائل (٦/ ٣٢٥).

(٢) انظر الحديث في التلخيص (٢٤٦٥).

(٥٠) بـــاب
فضائل أمِّ أيمن مولاة النَّبيِّ ﷺ
وأمِّ سُلَيْم؛ أم أنس بن مالك

[٢٣٦٢] عن أنسٍ؛ قال: انطلق رسولُ الله ﷺ إلى أمِّ أيمن، وانطلقتُ معه، فناوَلَتْهُ إناءً فيه شَرَابٌ. قال: فلا أدْري أصَادَفَتْهُ صائماً أو لمْ يُرِدْهُ، فَجَعَلَتْ تَصْخَبُ عليه وتَذَمَّرُ عليه.

رواه مسلم (٢٤٥٣).

[٢٣٦٣] وعنه؛ قال: قال أبو بكرٍ بعد وفاة رسول الله ﷺ لعُمَر: انطلق بنا إلى أُمِّ أيمن نزورُها؛ كما كان رسول الله ﷺ يزورُها، فلمَّا انتهينا إليها بَكَتْ، فقالا لها: ما يُبْكيكِ؟ ما عند الله خيرٌ لرسوله ﷺ، فقالت: ما

---

(٥٠) ومن بـــاب: فضائل أم أيمن ـ رضي الله عنها ـ

اسمها ونسبها وكنيتها

واسمها: بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصين بن مالك بن سلمة بن عمرو بن النعمان، كُنِّيت بابنها أيمن بن عبيد الحبشي، تزوجت بعد عبيد زيدَ بن حارثة، فولدت له أسامةَ بنَ زيد، كانت لأمِّ رسول الله ﷺ ثم صارتْ له بالميراث، وكان ﷺ يقول: «أمُّ أيمن أمِّي بعد أمي»[1]، وكان ﷺ يُكْرِمُها ويبرُّها مَبَرَّة الأم، ويُكثر زيارتها، وكان ﷺ عندها كالولد، ولذلك كانت تصخبُ عليه، أي: ترفعُ صوتها عليه. وتذمر؛ أي: تغضبُ وتضجر فِعْل الوالدة بولدها، وقال الأصمعي: تذمَّر الرجلُ: إذا تغضَّب، وتكلَّم أثناء ذلك، وقال غيره: تذمَّر الرجلُ: إذا لام نفسه. وزيارةُ النبيِّ ﷺ وأبي بكر، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ لها دليلٌ على فضلها، ومعرفتهم بحقها، وفيه دليل على زيارة النساء في جماعة.

إكرامه ﷺ أم أيمن

فضل أم أيمن

---

(١) ذكره ابنُ الأثير في الاستيعاب (٧/ ٣٠٣).

أبكي أن لا أكونَ أعلمُ أنَّ ما عند الله خيرٌ لرسوله ﷺ ولكنْ أبكي أنَّ الوحْيَ قد انقطع من السَّماء! فَهَيَّجَتْهُما على البُكاء، فجعلا يبكيان معها.

رواه مسلم (٢٤٥٤)، وابن ماجه (١٦٣٥).

[٢٣٦٤] وعنه؛ قال: كان النَّبيُّ ﷺ لا يدخلُ على أحدٍ من النِّساءِ إلَّا على أزواجه، إلا أمِّ سُلَيم؛ فإنَّه كان يدخل عليها؛ فقيل له في ذلك! فقال: «إني أَرْحَمُها. قُتِلَ أخوها معي».

رواه مسلم (٢٤٥٥).

و (قول أم أيمن ـ رضي الله عنها ـ: أبكي أن الوحيَ قد انقطع من السَّماء) «أن» مفتوحة؛ لأنها معمولةٌ لأبكي بإسقاط حرف الجر، تقديره: أبكي لأن، أو: من أجل أن، تعني: أنَّ الوحيَ لما انقطعَ بعد رسول الله ﷺ عمل الناسُ بآرائهم، فاختلفتْ مذاهبُهم، فوقع التنازعُ والفِتَنُ، وعظمت المصائبُ والمحن، ولذلك نجم بعده ﷺ النِّفاق، وفشا الارتدادُ والشِّقاق، ولولا أنَّ اللَّهَ تعالى تدارك الدِّينَ بثاني اثنين لما بقي منه أثرٌ ولا عين.

و (قول أنس ـ رضي الله عنه ـ: كان رسولُ الله ﷺ لا يدخلُ على النساء [إلا على أزواجه إلا أمِّ سليم) إنما كان النبيُّ ﷺ لا يدخل على النساء][1] عملاً بما شرع من المنع من الخلوة بهن، وليقتدى به في ذلك، ومخافة أن يقذفَ الشيطانُ في قلب أحدٍ من المسلمين شرّاً فيهلك، كما قال في حديث صفيَّة المتقدِّم، ولئلا يجدَ المنافقون، وأهلُ الزَّيغ مقالاً، وإنما خصَّ أمَّ سليم بالدُّخول عندها لأنها كانت منه ذات محرمٍ بالرَّضاع كما تقدَّم، وليجبر قلبَها من فجعتها بأخيها، إذ كان

تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ع).

[٢٣٦٥] وعنه؛ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «دَخَلْتُ الجنَّةَ فسمعتُ خَشْفَةً!

قد قُتِل معه في بعض حروبه، وأظنُّه يوم أُحُد[١]، ولما علم النبيُّ ﷺ من فَضْلها، كما دلَّ عليه رؤيةُ النبيِّ ﷺ إيَّاها في الجنة، وأمُّ سليم هذه هي: ابنةُ ملحان بن زيد بن حرام من بني النجَّار، وهي: أمُّ أنس بن مالك بن النَّضر، كانت أسلمتْ مع قومها، فغضب مالكٌ لذلك، فخرج إلى الشام فهلك هنالك كافراً، وقيل: قُتِل، ثم خطبها بعده أبو طلحة، وهو على شِرْكه، فَأَبَتْ حتى يُسْلِم، وقالت: لا أريدُ منه صَداقاً إلا الإسلام، فأسلم وتزوَّجها، وحَسُنَ إسلامُه. فولدت له غلاماً كان قد أُعْجِب به فمات صغيراً، ويقال: إنه أبو عُمير صاحب النُّغير، وكان أبو طلحة غائباً حين مات، فغطَّته أمُّ سُليم، فجاء أبو طلحة، فسأل عنه، فكتمت موته، ثم إنها تصنَّعتْ له فأصاب منها، ثم أعلمته بموته، فشقَّ ذلك عليه، ثم إنه أتى النَّبيَّ ﷺ فأخبره، فدعا لهما النبيُّ ﷺ وقال: «بارك اللَّهُ لكما في غابر ليلتكما»[٢] كما ذكر في الأصل، فبورك لهما بسبب تلك الدَّعوة، وولدت له: عبد الله بن أبي طلحة، وهو والدُ إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة الفقيه، وإخوته كانوا عشرة كلّهم حَمَلَ عنه العلم، وإسحاق هو شيخُ مالك، واختلف في اسم أمِّ سليم. فقيل: سهلة. وقيل: رملة. وقيل: مليكة. وهي الغميصاء المذكورة في الحديث، ويقال: الرُّميصاء، وقيل: إنْ بالراء هي: أم حرام أختها، وخالة أنس، والغميصاء: مأخوذ من الغمص، وهو ما سال من قذى العين عند البكاء والمرض، يُقال بالصاد والسين، والرمص ـ بالراء ـ: ما تجمَّد منه، قاله يعقوب وغيره. وكانت أمُّ سليم من عقلاء النساء وفضلائهن، شهدتْ مع رسول الله ﷺ أُحُداً وحُنيناً، ردت عن النبيِّ ﷺ أحاديث، خرج لها في الصحيحين أربعة أحاديث.

نسب أم سليم — زواجها من أبي طلحة — اسم أم سليم — مشاهدها وروايـاتها للحديث

و (قوله: «دخلتُ الجنة فسمعتُ خَشْفة») هي بفتح الخاء وسكون الشين

أم سليم من المبشرات بالجنة

---

(١) الصحيح: أنه شهد بدراً واحداً، وقُتِل يوم بئر معونة. (أسد الغابة ١/ ٤٧٣).

(٢) انظره في التلخيص برقم (٢٤٧٣).

قلتُ: من هذا؟ قالوا: هذه الغُمَيْصَاءُ بنتُ مِلْحَانَ؛ أمُّ أنسِ بن مَالكٍ».

رواه مسلم (٢٤٥٦).

[٢٣٦٦] وعن جابرِ بنِ عبد الله: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أُرِيتُ الجنَّة فرأيتُ امرأة أبي طلحةَ، ثم سمعتُ خشخشةً أمامي؛ فإذا بلالٌ».

رواه مسلم (٢٤٥٧).

* * *

(٥١) بـــاب
فضائل أبي طلحة الأنصاريّ

[٢٣٦٧] عن أنسٍ قال: مات ابنٌ لأبي طلحة من أم سليم. فقالت لأهلها: لا تُحدِّثوا أبا طلحة بابنِهِ حتى أكون أنا أحدِّثه. قال: فجاءَ فقرَّبَتْ إليه عَشاءً. فأكل، وشَرِبَ. قال: ثُم تصنَّعتْ له أحسنَ ما كان تصنَّعُ قبل

المعجمتين، وهي صوتُ المشي، ويقال: خشخشة، كما جاء في الرواية الأخرى، وأصل الخشخشة: صوتُ الشيء اليابس يَحُكُّ بعضُه بعضاً، ويتراجع، وكان هذا الدخولُ في الجنة من النبيِّ ﷺ في النوم، كما قاله في حديث بلال المتقدِّم، ورؤياه حقٌّ، فهي ـ رضي الله عنها ـ من أهل الجنة.

(٥١) ومن بـــاب: فضائل أبي طلحة ـ رضي الله عنه ـ

اسمه ونسبه ومشاهده

هو زيد بن سهل من بني النجار، شهد المشاهدَ كلَّها، وكان أحد الرُّماةِ المذكورين من الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ، وكان من الأبطال، قَتَلَ يوم حُنين عشرين، وأخذ أسلابهم، وكان أبو طلحة يتطاولُ بصدره يوم أُحُد يقي

ذلك، فوقع بها. فلمَّا رأتْ أنه قد شبع وأصاب منها؛ قالتْ: يا أبا طلحة! أَرَأَيْتَ لو أنّ قوماً أعارُوا عاريتهُم أهلَ بيتٍ، فطلبوا عاريتهم. ألهُم أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالتْ: فاحتسِب ابنَك! فغضب، وقال: تركتني حتى تلطَّختُ، ثم أخبرتني بابني! فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لكما في غابر ليلتكما»، قال: فحملتْ. قال: فكان رسولُ الله ﷺ في سَفَرٍ وهِيَ معه، وكان رسولُ الله ﷺ، إذا أتى المدينة من سفرٍ، لا يطرُقُها طُرُوقاً، فدَنَوا من المدينة. فضربها المخاضُ. فاحتُبس عليها أبو طلحة، وانْطَلَق رسولُ الله ﷺ. قال: يقول أبو طلحةَ: إنَّك لتَعْلَمُ، يا ربِّ! إنّه يُعجبني أن أخرُجَ مع رسولك إذا خرج، وأدخُلَ معه إذا دخل، وقد احتُبستُ بما تَرَى!

رسولَ الله ﷺ من النَّبل، ويقول: صدري دون صدرك، ونفسي لنفسك الفِداء، ووجهي لوجهك الوِقاء، وكان ﷺ يقول: «لَصَوْتُ أبي طلحة في الجيش خيرٌ من مئة رجل»[1]. واختلف في وقت وفاته فقيل: سنة إحدى وثلاثين. وقيل: سنة أربع وثلاثين، وصلى عليه عثمان بن عفان، وروى حماد بن سلمة عن ثابت البُناني، وعلي بن زيدٍ عن أنس: أنَّ أبا طلحة سَرَدَ الصَّوم[2] بعد رسول الله ﷺ أربعين سنة، وأنه ركب البحر، فمات فدفن في جزيرة، وقال المدائني: مات أبو طلحة سنة إحدى وخمسين، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك. روى عن رسول الله ﷺ ستَّةً وعشرين حديثاً، أخرج له منها في الصَّحيحين أربعةُ أحاديث. وفاته

و (قوله: «بارك الله لكما في غابر ليلتكما») أي: في ماضيها، وقد تقدَّم: أنَّ غبر من الأضداد. يقال: غبر الشيء: إذا ذهب، وغبر: إذا بقي. وصنيع أمِّ سليم،

(١) رواه أحمد (٣/ ١١١).

(٢) سرد الصوم: والاه وتابعه.

قال: تقولُ أم سُلَيم: يا أبا طلحة! ما أجدُ الذي كنتُ أجدُ، انطلِقْ! فانطلَقنا. قال: وضَرَبَها المخاضُ حين قَدِمَا، فولَدتْ غُلاماً، فَقَالَت لي أُمي: يا أنسُ! لا يُرضعُهُ أحدٌ حتى تغدوَ به على رسول الله ﷺ، فلما أصبح احتملتُهُ، فانطَلَقْتُ به إلى رسول الله ﷺ. قال: فصادفْتُهُ ومعه مِيْسَمٌ، فلمّا رآني قال: «لعلَّ أُمَّ سُليم وَلَدتْ؟» فقلت: نعم. فوضع الميسمَ. قال: وجئتُ به فوضعْتُه في حَجْرِه. قال: ودعا رسولُ الله ﷺ بِعجوةٍ من عجوة المدينة فلاكَها في فيه حتى ذَابَت، ثم قَذَفها في فِـي الصَّبيِّ، فجعل الصبيُّ يَتَلمَّظُها. قال: فقال رسولُ الله ﷺ: «انظرُوا إلى حُبِّ الأنصار التمرَ!». قال: فَمَسَح وجهَهُ وسمّاهُ: عبدَ الله.

رواه أحمد (٣/ ١٨٨)، والبخاريُّ (٦١٢٩ و ٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٤٤) في فضائل الصحابة (١٠٧)، وأبو داود (٤٩٦٩)، والترمذيُّ (٣٣٣ و ١٩٨٩)، وابن ماجه (٣٧٢٠).

* * *

من فضائل أبي طلحة

ووعظها له يدلُّ على كمال عَقْلها وفَضْلها وعلمها. وملازمة أبي طلحة للكون مع رسول الله ﷺ في سفره وحَضَره، ومدخله ومخرجه: دليلٌ على كمال محبته للنبيِّ ﷺ وصِدْق رغبته في الجهاد، والخير وتحصيل العلم. ورَفْع وَجَع المخاض ـ وهو الولادةُ ـ عن أمّ سليم عند دعاء أبي طلحة دليلٌ على كرامات الأولياء، وإجابة دعواتهم، وأن أبا طلحة وأم سليم منهم. والطّروق: هو المجيء بالليل. والميسم: المكوى الذي تُوسَمُ به الإبل، أي: تُعَلَّم. وفي هذا الحديث أحكامٌ واضحةٌ قد تقدَّم التَّنبيهُ على أكثرها.

* * *

(٥٢) بـــاب
فضائل بلال بن رباح

[٢٣٦٨] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ لبلالٍ صلاةَ

---

(٥٢) ومن بـــاب: فضائل بلال بن رباح ـ رضي الله عنه ـ

نسب بلال وأصله

وتُسمَّى أمُّه: حمامة، واختلف في كنيته، فقيل: أبو عبد الله، وقيل: أبو عبد الكريم، وقيل: أبو عبد الرحمن، وقيل: أبو عمرو، وكان حبشياً. قال ابن إسحاق؛ كان بلالٌ لبعض بني جُمَح مُوَلَّداً من مولّديهم، وقيل من مُولَّدي مكة، وقيل: من مولَّدي السّراة، وقال ابنُ مسعود: أول من أظهر الإسلام رسولُ الله ﷺ وأبو بكرٍ، وعمَّار، وأمه سميَّة، وصُهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسولُ الله ﷺ فمنعه اللَّهُ بعمه، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، وألبسوهم أدراعَ الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسانٌ إلا وأتاهم على ما أرادوه منه إلا بلالاً؛ فإنه هانت عليه نفسُه في الله تعالى، وهان على قومه فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شِعاب مكَّة، وهو يقول: أَحَد، أَحَد، وفي رواية: وجعلوا الحبلَ في عُنُقه، وقال سعيد بن المسيِّب: كان بلال شحيحاً على دينه، وكان يُعَذَّب على دِيْنه، فإذا أراد المشركون أن يقاربَهُم قال: الله، الله. فاشتراه أبو بكر بخمس أَواق، وقيل: بسبع. وقيل: بتسع، فأعتقه، فكان يؤذِّن لرسول الله ﷺ، فلما مات النبيُّ ﷺ أراد أن يروحَ إلى الشام، فقال له أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: بل تكون عندي، فقال: إن كنتَ أعتقتني لنفسك فاحْبِسْني، وإن كنتَ أعتقتني لله فذرني أذهب إليه، فقال: اذهبْ، فذهب إلى الشام، فكان بها حتى مات ـ رضي الله عنه ـ.

أوَّلُ من أظهر الإسلام

أذانُ بلال لرسول الله ﷺ وأبي بكر

قلــتُ: وظاهِرُ هذا: أنَّه لم يُؤَذِّنْ لأبي بكرٍ، وقد ذكر ابنُ أبي شيبة عن حسين بن عليٍّ عن شيخ يقال له: الحفصي، عن أبيه، عن جده قال: أذَّن بلالٌ حياةَ رسول الله ﷺ ثم أذَّن لأبي بكرٍ حياته، ولم يؤذِّنْ في زمان عُمر، فقال له

الغداةِ: «يا بلالُ! حدِّثْني بأرجى عَمَلٍ عملتَه عندك في الإسلام مَنفَعَةً، فإنِّي سمعتُ الليلةَ خَشْف نَعْلَيْكَ بين يديَّ في الجنةِ». قال بلالٌ: ما عَمِلتُ عَمَلاً في الإسلام أرجى عندي منفعةً من أنّي لا أَتطهَّرُ طُهوراً تامّاً في ساعةِ

عمر: ما منعك أن تُؤَذِّن؟ قال: إني أذنتُ لرسول الله ﷺ حتى قُبِض، وأذَّنْتُ لأبي بكر - رضي الله عنه - حتى قُبِض؛ لأنه كان وليَّ نعمتي، وقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يا بلالُ ليس عملٌ أفضلَ من الجهاد في سبيل الله»[1]. فخرج فجاهد. ويقال: إنه أذَّن لعمَر - رضي الله عنه - إذ دخل الشام، فبكى عمر، وبكى المسلمون. وكان بلالٌ خازناً لرسول الله ﷺ وقال عمر: أبو بكر سيدنا، وأعتق بلالاً سيِّدنا. وتوفي بلال بدمشق، ودُفِن عند الباب الصغير بمقبرتها سنة عشرين، وهو ابنُ ثلاث وستين سنة، وقيل: سنة إحدى وعشرين، وهو ابنُ سبعين.

سبقُ بلالٍ إلى الجنة

و (قول النبيِّ ﷺ لبلال: «حدِّثْني بأرجى عملٍ عملتَه[2] في الإسلام منفعةً») هذا السُّؤالُ إنما أخرجه من النبيِّ ﷺ ما اطَّلع عليه من كرامة بلالٍ - رضي الله عنه - بكونه أمامه في الجنة، فسأله عن العمل الذي لازمه حتى أوصله إلى ذلك. وقد جاء هذا الحديثُ في كتاب الترمذي بأوضح من هذا من حديث بُريدة بن الحُصَيْب، قال: أصبح رسولُ الله ﷺ فدعا بلالاً، فقال: «يا بلالُ! بِمَ سبقتني إلى الجنة؟ فما دخلتُ الجنَّة قطُّ إلا سمعتُ خَشْخَشتك أمامي، دخلتُ البارحةَ الجنَّةَ فسمعتُ خَشْخَشَتَكَ أمامي...» وذكر الحديث. فقال بلال: يا رسول الله! ما أذَّنْتُ قطُّ إلَّا صلَّيتُ ركعتين، ولا أصابني حَدَثٌ قطُّ إلا توضَّأْتُ عنده، ورأيتُ أن لله تعالى عليَّ ركعتين، فقال رسولُ الله ﷺ: «بهما». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح[3]، فلنبحثْ في هذا الحديث.

---

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٢٠٩٣٥) وعزاه لعبد بن حميد.
(٢) في أصول التلخيص وصحيح مسلم: عملته عندك...
(٣) رواه الترمذي (٣٦٨٩).

من ليلٍ ولا نهارٍ؛ إلا صلَّيْتُ بذلك الطُّهُورِ ما كَتَبَ اللَّهُ لي أنْ أُصَلِّيَ».

رواه أحمد (٢/ ٣٣٣)، والبخاريُّ (١١٤٩)، ومسلم (٢٤٥٨).

* * *

و (قوله: «بم سبقتني إلى الجنة؟») لا يفهم من هذا أن بلالاً يدخل الجنة قبل النبيِّ ﷺ؛ فإن ذلك ممنوعٌ بما قد علم من أن النبي ﷺ هو السابقُ إلى الجنة، وبما قد تقدَّم أنَّه «أوَّلُ من يستفتحُ بابَ الجنة، فيقول الخازن: بكَ أُمِرْتُ، لا أفتحُ لأحدٍ قبلك»[1] وإنما هذه رؤيا منام أفادتْ أنَّ بلالاً من أهل الجنة، وأنه يكونُ فيها مع النبيِّ ﷺ ومن مُلازميه، وهذا كما قال في الغميصاء: «سمعتُ خشخشتك أمامي» وقد لا يبعد أن يُقالَ في أسبقية بلال أنها أسبقية الخادم بين يدي مخدومه، والله تعالى أعلم.

فضلُ ملازمة النوافل

وفيه ما يدلُّ على أنَّ استدامةَ بعض النوافل، وملازمتها في أوقات وأحوال فيه فضلٌ عظيم، وأجرٌ كبير، وإن كان النبيُّ ﷺ لم يَدُمْ عليها، ولا لازمها، ولا اشتهر العملُ بها عند أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ، وأن ذلك لا يُنكر على من لازمه ما لم يعتقدْ أن ذلك سُنَّة راتبة له ولغيره، وهذا هو الذي مَنَعَهُ مالكٌ حتى كره اختصاصَ شيءٍ من الأيام، أو الأوقات بشيءٍ من العبادات، من الصَّوم، والصلاة، والأذكار، والدعوات، إلا أن يُعيِّنَه الشارعُ، ويدومَ عليه، فأما لو دام الإنسانُ على شيءٍ من ذلك في خاصَّة نفسه، ولم يعتقدْ شيئاً من ذلك، كما فعله بلال في ملازمة الركعتين عند كلِّ أذان، وفي ملازمة الطهارة دائماً، لكان ذلك يُفضي بفاعله إلى نعيمٍ مقيم، وثوابٍ عظيم.

و (قوله ﷺ: «بهما») أي: بسبب ثوابِ فِعْل ذينك الأمرين وصلتَ إلى ما رأيتُ من كونك معي في الجنة.

---

(١) رواه مسلم (١٩٧).

(٥٣) بـــاب
فضائل عبد الله بن مسعود

[٢٣٦٩] عن علقمة، عن عبد الله، قال: لمَّا نزلت هذه الآية:

إتيـان القُـرَب كاملة

و (قوله ﷺ: «حَدِّثني بأرجى عملٍ عملته») أي: بعمل يكون رجاؤك بثوابه أكثر، ونفسك به أوثق. وفيه تنبيهٌ على: أنَّ العاملَ لشيءٍ من القُرَب ينبغي له أن يأتيَ بها على أكمل وجوهها ليعظمَ رجاؤه في قبولها، وفي فضل الله عليها، فيُحْسِنُ ظنَّه بالله تعالى؛ فإن اللَّهَ تعالى عند ظنِّ عبده به، ويتَّضح لك هذا بمَثَلٍ ـ ولله المثل الأعلى ـ أن الإنسانَ إذا أراد أن يتقرب إلى بعض ملوك الدنيا بهديَّة أو تُحْفةٍ، فإن أتى بها على أكمل وجوهها وأحسن حالاتها، قوي رجاؤه في قبولها، وحَسُن ظنُّه في إيصاله إلى ثوابها، لا سيما إذا كان المُهْدَى له موصوفاً بالفضل والكرم، وإن انتقص شيءٌ من ثوابها ضعف رجاؤه للثواب، وقد يتوقَّع الردَّ، لا سيما إذا علم أن المهدى له غنيٌّ عنها، فأما لو أتى بها واضحةَ النُّقصان؛ لكان ذلك من أوضح الخسران؛ إذ قد صار المهدى له كالمستصغَر المهان.

(٥٣) ومن بـــاب: فضائل عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ

نسبه، وسبب إسلامه

هـو ابن غافل بن حبيب بن شمخ بن مازن بن مخزوم الهذلي، يُكنى: أبا عبد الرحمن، وأمُّه: أم عبد بنت عبد ودّ الهذلية أيضاً، أسلم قديماً وكان سبب إسلامه: أنه كان يرعى غنماً لعقبة بن أبي مُعَيْط، فمرَّ به رسولُ الله ﷺ فقال: «يا غلام! هل من لبن؟» قال: نعم! ولكني مُؤْتَمَنٌ. قال: «فهل من شاةٍ حائلٍ لم ينز عليها الفحل؟» فأتيتهُ بشاةٍ شصوص[1]، فمسح ضرعها، فنزل اللبن، فحلب في إناء وشرب وسقى أبا بكرٍ، ثم قال للضرع: «اقلص» فقلص، فقلت: يا رسول الله!

---

(١) : أي: لا لبن لها.

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ . . . ﴾ إلى آخر الآية [المائدة: ٩٣] قال رسولُ الله ﷺ: «قيل لي: أنتَ منهم».

رواه مسلم (٢٤٥٩) (١٠٩).

علَّمني من هذا القول. فقال: «رحمك الله، إنك غُلَيِّمٌ معلَّمٌ»[١] فأسلم وضمَّه رسول الله ﷺ إليه. فكان يلجُ عليه، ويُلبسه نعلَه، ويمشي أمامَه ومعه، ويستره إذا اغتسلَ، ويُوقظه إذا نام، وقال له: «إذنك عليَّ أن يُرفع الحجابُ، وأن تسمعَ سِوَادي حتى أنهاكَ»[٢] وكان يُعرف في الصحابة بصاحب السِّرار، والسِّواد، والسِّواك، هاجر هجرتين إلى أرض الحبشة، ثم من مكة إلى المدينة، قاله الجوزيُّ. وصلَّى القبلتين، وشهدَ مع رسول الله ﷺ مشاهدَه كلَّها، وكان يُشبَّه في هديه وسَمْته برسول الله ﷺ، وشهدَ له رسول الله ﷺ بالجنة، وشهدَ له كبراءُ أصحابِ رسول الله ﷺ؛ بأنه من أعلمهم بكتاب الله قراءةً وعلماً، وفضائلُه كثيرة. توفِّي بالمدينة سنة ثنتين وثلاثين، ودُفن بالبقيع، وصلَّى عليه عثمان، وقيل: بل صلَّى عليه عمَّار، وقيل: بل صلَّى عليه الزبيرُ ليلاً بوصيته، ولم يُعلمْ عثمانَ بذلك، فعاتب عثمان الزبيرَ على ذلك، والله أعلم. روى عن رسول الله ﷺ ثمانمئة حديث، وثمانيةً وأربعين حديثاً، أُخرِجَ له منها في الصحيحين: مئة وعشرون حديثاً.

ملازمته للنبي، وفضائله

وفاته، والصلاة عليه

و (قوله: لما نزلت: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ . . . ﴾ الآية [المائدة: ٩٣] قد ذكرنا سببَ نزول الآية، وتكلَّمنا على معناها في الأشربة.

و (قوله ﷺ: «قيل لي: أنت منهم») الخطاب لابن مسعود، أي: أُوحي إليَّ

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٧٩).

(٢) رواه أحمد (١/ ٤٠٤)، ومسلم (٢١٦٩).

[٢٣٧٠] وعن أبي موسى، قال: قدمت أنا وأخي من اليمن، فكنَّا حيناً وما نَرى ابنَ مسعود وأُمَّه إلا مِنْ أهل بيت النبي ﷺ من كثرة دخُولِهم ولُزُومهِم لَهُ.

رواه البخاريُّ (٣٧٦٣)، ومسلم (٢٤٦٠) (١١٠)، والترمذي (٣٨٠٨).

[٢٣٧١] وعن أبي الأحوص، قال: كُنَّا في دار أبي موسى مع نَفَرٍ من أصحاب عبد الله، وهم ينظرون في مُصْحفٍ، فقامَ عبدُ الله، فقال أبو مسعود: ما أعلمُ رسول الله ﷺ تَركَ بعده أعلم بما أنزلَ الله من هذا القائم. فقال أبو موسى: أما لئن قلتَ ذاكَ؛ لقد كان يشهدُ إذا غِبْنا......

أنكَ يابنَ مسعودٍ من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهذه تزكيةٌ عظيمة، ودرجةٌ رفيعة، قلَّ من ظَفِرَ بمثلها.

و (قول أبي موسى: مكثنا حيناً وما نرى ابنَ مسعود وأمَّه إلا من أهل بيت رسول الله ﷺ) هذا يدلُّ على صحَّة ما ذكرنا: من أنَّ رسولَ الله ﷺ ضمَّه إليه، واختصَّه بخدمته[١] وملازمته، وذلك لما رأى من صلاحيته لقبول العلم وتحصيله له، ولذلك قال له أول ما لقيه: «إنك غُلَيِّمٌ معلَّم»[٢]، وفي رواية أخرى: «لَقِنٌ مُفْهَم» أي: أنت صالح لأن تُعلَّم فتَعْلم، وتُلَقَّن فتفهم، ولما رأى النبيُّ ﷺ ذلك ضمَّه لنفسه، وجعله في عداد أهل بيته فلازمَه حَضَراً وسفراً، وليلاً ونهاراً ليتعلَّمَ منه، وينقلَ عنه.

و (قول أبي موسى: كان يشهد إذا غبنا) أي: يحضر مع رسول الله ﷺ إذا غاب الناس عنه.

---

(١) في (ز): بحديثه.

(٢) رواه أحمد (١/ ٤٦٢).

ويُؤذَنُ له إذا حُجِبْنا.

رواه مسلم (٢٤٦١) (١١٣).

[٢٣٧٢] وعن عبد الله، أنَّه قال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١] ....

و (قوله: ويُؤذن له إذا حُجِبْنَا) يعني: أنه كان النبيُّ ﷺ يأذن له في الوقت الذي يحجبُ عنه الناس، وذلك في الوقت الذي كان فيه مشتغلاً بخاصَّته.

و (قول عبد الله: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]... الحديث إلى آخره). قال القاضي أبو الفضل: هذا الحديث في الأم مختصر مبتور إنما ذكر منه أطرافاً لا تشرح مقصدَ الحديث، وبيانُه في سياقٍ آخر، ذكره ابنُ أبي خيثمة بسنده إلى أبي وائلٍ، وهو شقيق راوي الحديث في الأمِّ. قال: لما أمر في المصاحف بما أمر، يعني: أمر عثمانُ بتحريقها ما عدا المصحف المجتمع عليه، الذي وجَّه منه النسخ إلى الآفاق، ورأى هو والصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ: أنَّ بقاءَ تلك المصاحف يُدْخِل اللبسَ والاختلافَ، ذكر ابنُ مسعود الغلول، وتلا الآية، ثم قال: غلُّوا المصاحف إني غالٌّ مصحفي، فمن استطاع أن يغلَّ مصحفه فليفعل، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، ثم قال: على قراءة من تأمرني أن أقرأ؟ على قراءة زيد بن ثابت؟ لقد أخذت القرآن من فِيْ رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة، وزيد بن ثابت له ذؤابتان يلعب مع الغلمان، وفي أخرى: صبيٌّ من الصبيان[1]، فتمام هذا الحديث يظهر كلامَ عبد الله.

تمسُّك ابن مسعود بمصحفه وقراءته

قلـتُ: (وقوله غلُّوا مصاحفكم... إلى آخره) أي: اكتموها ولا تسلموها، والتزموها إلى أن تلقوا اللَّهَ تعالى بها، كما يفعل من غلَّ شيئاً فإنه يأتي به يوم

---

(١) ذكره ابن أبي داود في كتاب المصاحف (ص ٢٢).

ثم قال: على قراءةِ مَنْ تأمُرُوني أن أقرأ؟ فَلَقَدْ قرأتُ على رسول الله ﷺ بِضْعاً وسبعين سُوْرَةً، ....

القيامة، ويحمله، وكان هذا رأياً منه انفرد به عن الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ ولم يوافقه أحدٌ منهم عليه، فإنه كتم مصحفه، ولم يظهره، ولم يقدر عثمـان ولا غيره عليه أن يظهره، وانتشرت المصاحفُ التي كتبها عثمان، واجتمع عليها الصحابةُ في الآفاق، وقرأ المسلمون عليها، وترك مصحف عبد الله، وخفي إلى أن وُجِد في خزائن بني عبيد بمصر عند انقراض دولتهم، وابتداء دولة المعز، فأَمَر بإحراقه قاضي القضاة بها صدر الدين على ما سمعناه من بعض مشايخنا، فأُحرق.

و (قوله: على قراءة من تأمرني أن أقرأ؟) إنكارٌ منه على من يأمره بترك قراءته، ورجوعه إلى قراءة زيد مع أنه سابق له إلى حِفْظ القرآن وإلى أخذه عن رسول الله ﷺ، فصعب عليه أن يترك قراءةَ قرأها على رسول الله ﷺ ويقرأ بما قرأه زيدٌ أو غيره، فتمسَّك بمصحفه وقراءته، وخفي عليه الوجهُ الذي ظهرَ لجميع الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ من المصلحة التي هي من أعظم ما حفظ الله بها القرآن عن الاختلاف المخلِّ به، والتغيير بالزِّيادة والنُّقصان. وقد تقدَّم القول في الأحرف السبعة، وفي كيفية الأمر بذلك، وكان من أعظم الأمور على عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنَّ الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ لما عزموا على كتب المصحف بلغة قريش عيَّنوا لذلك أربعةً لم يكن منهم: ابن مسعود، فكتبوه على لغة قريش، ولم يُعرِّجوا على ابن مسعود مع أنه أسبقهم لحفْظ القرآن، ومِن أعلمهم به، كما شهدوا له بذلك، غير أنَّه ـ رضي الله عنه ـ كان هُذلياً كما تقدم، وكانت قراءتُه على لغتهم، وبينها وبين لغة قريشٍ تباينٌ عظيم، فلذلك لم يُدْخِلُوه معهم، والله تعالى أعلم.

سبب استبعاد ابن مسعود عن لجنة كتب المصحف

قلـتُ: قد تقدَّم أنَّ أصلَ البِضع ما بين الثلاثة إلى التسعة، وذكر اشتقاقه، والخلاف فيه. والحَلَق: بفتح الحاء واللام: جمع حَلَقة بفتح الحاء واللام على

ولقد عَلِم أصحابُ رسول الله ﷺ أنِّي أعلمهمْ بكتابِ الله ، ولو أعلَمُ أنَّ أحداً أعلم منِّي لَرحَلْتُ إليه. قال شقيقٌ: فجلسْتُ في حَلَقِ أصحاب محمَّدٍ ﷺ، فما سمعتُ أحداً يَرُدُّ ذلِكَ عليه، ولا يعيبُه.

رواه مسلم (٢٤٦٢) (١١٤).

[٢٣٧٣] وعنه؛ قال: والذي لا إله غيره! ما مِن كتابِ الله سورةٌ إلا أنا أعْلمُ حيث نَزَلَتْ، وما من آيةٍ إلا أنا أعلم فيما أُنزلتْ. ولو أعلمُ أحداً هو أعلمُ بكتابِ اللَّهِ منِّي؛ تبلُغُهُ الإبلُ، لَرَكِبْتُ إليه.

رواه مسلم (٢٤٦٣) (١١٥).

[٢٣٧٤] وعن مسروقٍ، قال: كُنَّا نأتي عبد الله بنَ عمرو فنتحدث إليه، فذكَرْنا يوماً عبد الله بن مسعودٍ. فقال: لقد ذكرتم رجلاً لا أزال أحبُّه

ما حكاه يونس عن أبي عمرو بن العلاء، وقال أبو عمرو الشيباني: ليس في الكلام حلقة بالتحريك إلا في قولهم: هؤلاء قوم حَلَقة، للذين يحلقون الشعر، جمع حالق، وقال الجوهري: الحَلْقَة للدروع ـ بالسكون ـ وكذلك حَلْقَة الباب، وحَلْقَة القوم، والجمع: الحَلَق على غير قياس.

علمُ ابن مسعود بأسباب النزول وتاريخه

و (قوله: لقد علم أصحابُ رسول الله ﷺ أني أعلمهم بكتاب الله) يعني: أنه أعلمهم بأسباب نزوله، ومواقع أحكامه، بدليل قوله في الرواية الأخرى: ما من كتاب الله سورة إلا وأنا أعلمُ حيث نزلتْ، وما من آيةٍ إلا وأعلم فيما أُنزلتْ. وسَبَبُ ذلك: ملازمته للنبي ﷺ ومباطنته إيَّاه سفراً وحَضَراً كما قدَّمنا. وأما في القراءة فأُبيٌّ أقرأُ منه، بدليل قول النبيِّ ﷺ: «أقرؤكم أُبي»[1] والخطابُ للصَّحابة كلِّهم.

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٨٤)، والترمذي (٣٧٩٠)، وابن ماجه (١٥٥).

بعدَ شيءٍ سمِعتُهُ من رسول الله ﷺ. سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «خذوا القرآن مِن أربعة نفرٍ: من ابن أم عبدٍ ـ فَبَدَأ بِهِ ـ ومُعاذِ بن جبلٍ، وأُبَيِّ بن كعبٍ، وسالمٍ مولى أبي حُذيفة».

أئمة القرّاء من الصحابة

و (قوله ﷺ: «خذوا القرآن من أربعة: من ابن أم عبد») فبدأ به، ليس فيه دليلٌ على أنه أقرأُ مِن أبيٍّ، فإنه قد بيَّن ﷺ بالنص الجليِّ: أن أُبيّاً أقرأُ منه ومِن غيره، فيحتمل أن يقال: إن الموجبَ لابتدائه اختصاصه به، وملازمته إياه، وحضوره في ذهنه، لا أنه أقرأ الأربعة. والله تعالى أعلم. وهذا كلُّه بناءً على: أن المقدَّم من المعطوفات له مزيَّةٌ على المتأخر، وفيه نظرٌ قد تقدَّم في الطهارة وفي الحج. وتخصيص هؤلاء الأربعة بالذكر دون غيرهم ممن حفظ القرآن من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وهم عَدَدٌ كثير كما يأتي؛ لأنَّ هؤلاء الأربعة هم الذين تفرغوا لإقراء القرآن وتعليمه دون غيرهم ممن اشتغل بغير ذلك من العلوم، أو العبادات، أو الجهاد، وغير ذلك؛ ويحتملُ أن يكونَ ذلك من النبيِّ ﷺ لأنه عَلِم أنَّهم هم الذين ينتصبون لتعليم الناس القرآنَ بعده، وليؤخذَ عنهم؛ فأحال عليهم لِما علم من مآل أمرهم، كما قد أظهر الموجود من حالهم؛ إذ هم أئمةُ القرَّاء، وإليهم تنتهي في الغالب أسانيدُ الفضلاء، والله أعلم.

من فضائل معاذ بن جبل

ومعاذ المذكور في الحديث: هو معاذ بن جبل بن أوس الأنصاريُّ الخزرجيُّ، يُكنى: أبا عبد الرحمن، قيل: بولدٍ كان له كبر إلى أن قاتل مع أبيه في اليرموك، ومات بالطاعون قبل أبيه بأيام، على ما ذكره محمد بن عبد الله الأزدي البصري في «فتوح الشام» وغيره. وقال الواقدي: إنه لم يُولدْ لمعاذ قطُّ، وقاله المدائني. أسلم معاذ وهو ابنُ ثماني عشرة سنة، وشهد العقبةَ مع السَّبعين، وشهد بدراً، وجميع المشاهد، وولّاه رسولُ الله ﷺ على عَمَل من أعمال اليمن، وخرج معه النبيُّ ﷺ مُودِّعاً ماشياً، ومعاذ راكباً، منعه مِن أن ينزل، وقال فيه ﷺ:

وفي روايةٍ: ثنّى بأبيٍّ وأخر معاذاً.

رواه أحمد (٢/ ١٩٠)، والبخاري (٣٨٠٨)، ومسلم (٢٤٦٤) (١١٦ و ١١٧)، والترمذيُّ (٣٨١٠).

* * *

«أعلمكم بالحلال والحرام معاذ»[١]. وقال: «إنه يسبق العلماء يوم القيامة رتوة[٢] بحجر»[٣]، وقال فيه ابنُ مسعود: إنه كان أُمَّةً قانتاً لله، وقال: الأمة: هو الذي يُعلِّم الناسَ الخيرَ، والقانت: هو المطيعُ لله عز وجل، وكان عابداً، مجتهداً، ورعاً، مُحقِّقاً، كان له امرأتان، فإذا كان يوم إحداهما: لم يشرب من بيت الأخرى، وماتتا بالطاعون في وقتٍ واحد، فحفر لهما حفرة فَأَسْهَم بينهما أيتهما يُقدَّم في القبر، وكان مُجاب الدعوة. ولما كان طاعونُ عمواس ـ وعمواس قرية من قرى الشام، وكأنها إنما نسب الطاعون إليها؛ لأنه أول ما نزل فيها ـ فقال بعضُ الناس: هذا عذابٌ، فبلغ ذلك معاذاً فأنكر ذلك، وخطب فقال: أيها الناس! إن هذا الوجعَ رحمةٌ بكم ودعوةُ نبيكم، وموتُ الصالحين قبلكم. اللهم آتِ آلَ معاذ من هذه الرحمة النَّصيبَ الأوفى. فما أمسى حت طُعِن ابنُه عبد الرحمن، وماتت زوجتاه، ثم طُعن من الغد من دَفْن ولده، فاشتدَّ وَجَعُه فمات منه، وذلك في سنة سبع عشرة، وقيل: سنة ثمان عشرة، وسِنُّه يومئذ ثمان وثلاثون سنة، وقيل: ثلاث وثلاثون سنة، روي عنه من الحديث: مئة حديث، وسبعة وخمسون حديثاً، أُخرج له منها في الصحيحين ستة أحاديث.

وفاة معاذ في طاعون عمواس

وسالم المذكور في الحديث، هو سالم بن معقل، مولى أبي حذيفة بن عتبة ابن ربيعة، يكنى سالم: أبا عبد الله، وكان مِن أهل فارس من اصطخر، وكان من

من فضائل سالم بن معقل

---

(١) هو الحديث السابق.

(٢) «الرتوة»: الرمية.

(٣) رواه أحمد (١/ ١٨). وانظر: أسد الغابة (٥/ ١٩٦).

(٥٤) بـــاب
فضائل أُبَـيِّ بنُ كَعبٍ

[٢٣٧٥] عن أنسٍ، قال: جَمع القرآن، على عهد رسول الله ﷺ أربعةٌ ـ كُلُّهم مِنَ الأنصار ـ: مُعاذُ بن جبلٍ، وأُبَيُّ بن كعبٍ، وزيدُ بن

فُضلاء الموالي، ومن خيار الصَّحابة وكبرائهم، وهو معدودٌ في المهاجرين؛ لأنَّه لمَّا أعتقته مولاتُه زَوْج أبي حذيفة، وهي عمرةُ بنت يعار. وقيل: سلمى، وقيل: غير ذلك، تولى أبا حذيفة فتبنَّاه أبو حذيفة، وهو أيضاً معدودٌ في الأنصار؛ لعتق مولاته المذكورة له وهي أنصارية، وهو معدودٌ في القرّاء، قيل: إنه هاجر مع عمر ابن الخطاب ونفر من الصحابة من مكة ـ رضي الله عنهم ـ، فكان يؤمُّهم؛ لأنه كان أكثرَهُم قرآناً، وكان يؤمُّ المهاجرين بقُباء فيهم عمر بن الخطاب، شهد سالم بدراً وقُتِل يوم اليمامة ومولاه أبو حذيفة. فوجد رأسُ أحدهما عند رجلي الآخر، وذلك سنة اثنتي عشرة.

(٥٤) ومن بـــاب: فضائل أبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ

نســب أبـيّ وإسلامه ومشاهده

هو ابن قيس بن عبيد بن زيد بن النجار الخزرجي ـ رضي الله عنه ـ أسلم قديماً، وشهد العقبة الثانية، وبايع النبيَّ ﷺ فيها، ثم شهد بدراً، وجميعَ المشاهد، وهو أوَّلُ مَن كتب الوحي لرسول الله ﷺ وكان من فقهاء الصحابة وقُرَّائهم ـ رضي الله عنهم ـ وكفى بذلك أن الله تعالى: أمر نبيَّه ﷺ أن يقرأ عليه القرآن، وقد بيَّنَّا وَجْهَ ذلك فيما تقدَّم، وقد تقدَّم قولُه ﷺ: «أقرؤكم أُبيّ» وقال فيه عمرُ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: إنه سيِّدُ المسلمين، وتوفي في خلافة عمر على الأكثر. قيل: سنة تسع عشرة، وقيل: سنة عشرين، وقيل: سنة اثنتين وعشرين، وقد قيل: إنه مات في خلافة عثمان سنة اثنتين وثلاثين. وجملة ما روي عنه عن رسول الله ﷺ مئة حديث وأربعة وستون حديثاً، أخرج له منها في الصحيحين ثلاثة عشر.

وفاة أبيّ

من جمع القــرآن علــى عهده ﷺ

و (قول أنس ـ رضي الله عنه ـ: جَمَعَ القرآنَ على عهد رسول الله ﷺ أربعةٌ

....

من الأنصار: معاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. قد استشكل ظاهِرَ هذا الحديث كثيرٌ من الناس حتى ظنوا أنه مما يطرق الطعن والقدح في تواتر القرآن، وهذا إنما نشأ ممن يظن أن لهذا الحديث دليلَ خطاب؛ فإنه لا يتمُّ له ذلك حتى يقولَ بتخصيص هؤلاء الأربعة بالذِّكر يدلُّ على أنه لم يجمعه أحدٌ غيرهم، فمن ينفي القولُ بدليل الخطاب قد سلم من ذلك، ومن[1] يقول به فأكثرهم يقول: إن أسماء الأعداء لا دليلَ خطاب لها، فإنها تجري مجرى الألقاب، والألقابُ لا دليلَ خطاب لها باتفاق أئمةِ أهل الأُصُول. ولا يُلتفتُ لقول الدقاق في ذلك فإنه واضح الفساد كما بيناه في الأصول، ولئن سلَّمنا أن لأسماء الأعداد دليلَ خطابٍ، فدليلُ الخطاب إنما يُصار إليه إذا لم يعارضْه منطوقٌ به، وإنه أضعفُ وجوه الأدلة عند القائلين به، وهنا أمران هما أولى منه ـ بالاتفاق ـ:

أحدهما: النقل الصحيح.

والثاني: ما يعلم من ضرورة العادة.

فأما النقل فقد ذكر القاضي أبو بكر وغيره جماعةً من أصحاب رسول الله ﷺ جَمَعُوا القرآنَ على عهد رسول الله ﷺ منهم: الخلفاءُ الأربعة، وابن مسعود، وسالم مولى أبي حُذيفة. وقد سمَّى أبو عبد الله المازري منهم خمسة عشر. وقد تواترتِ الأخبارُ بأنه قُتِل يوم اليمامة سبعون ممن جَمَعَ القرآن، [وكان ذلك في سنة وفاة النبيِّ ﷺ وأول سنيِّ خلافه أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ، وإذا قُتِل في جيشٍ واحد سبعون ممَّن جمع القرآن][2] فالذين بقوا في ذلك الجيش منهم لم يقتلوا أكثر من أولئك أضعافاً. وإذا كان ذلك في جيش واحدٍ فانظر كم بقي في مُدن الإسلام ـ إذ ذاك ـ وفي عساكر أخر من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ممن جَمَع القرآن. فيظهر

---

(١) في (ز): والذي.

(٢) ما بين حاصرتين سقط من (م ٤).

. . . .

من هذا: أنَّ الذين جمعوا القرآنَ على عهد رسول الله ﷺ لا يُحْصيهم أحد، ولا يضبطهم عدد.

وأما الثاني وهو العادة: وذلك أنها تقتضي أن يجتمعَ العدد الكثيرُ، والجمُّ[1] الغفير على حِفْظه ونَقْله، وذلك أن القرآنَ على نظم عجيب، وأسلوب غريب، مخالف لأساليب كلامهم في نثرهم ونظمهم مع ما تضمَّنه من العلوم والأحكام، ومعرفة الحلال والحرام، والقَصَص والأخبار، والتبشير والإنذار، والنبيُّ ﷺ مع ذلك يُشيعه في الناس، ويشافه به البلغاء الأكياس، وما كان هذا سبيلُه فالعادةُ تقتضي: أن تتوفَّر الدواعي على حِفْظ جميعه، والوقوف على ما تضمنه من أنواع حِكَمه وبدائعه، ومحاسن آدابه وشرائعه، ويحيلُ انفراد الآحاد بحفظه كما يحيل انفرادهم بنقله، فقد ظهر من هذه المباحث العجاب أنَّ ذلك الحديثَ ليس له دليلُ خطاب، فإن قيل: فإذا لم يكن له دليلُ خطاب فلأي شيء خصَّ هؤلاء الأربعة بالذكر دون غيرهم؟ فالجواب من أوجه:

أحدها: أنه يحتملُ إن يكون ذلك لتعلُّق غَرَض المتكلم بهم دون غيرهم كالحال في ذكر الألقاب.

وثانيها: لحضور هؤلاء الأربعة في ذهنه دون غيرهم.

وثالثها: أن هؤلاء الأربعة قد اشتهروا بذلك في ذلك الوقت دون غيرهم ممن يحفظ جميعه.

ورابعها: لأن أنساً سمع من هؤلاء الأربعة إخبارهم عن أنفسهم أنهم جمعوا القرآن، ولم يَسْمَعْ مثل ذلك من غيرهم، وكلُّ ذلك محتمل، والله تعالى أعلم.

---

(١) في (ز): الجمع.

ثابت، وأبو زيد. قال قتادة: قلتُ لأنس: مَنْ أبو زيدٍ؟ قال: أحدُ عُمُومتي.

رواه أحمد (٣/ ٢٧٧)، والبخاريُّ (٣٨١٠)، ومسلم (٢٤٦٥) (١١٩ و ١٢٠)، والترمذيُّ (٣٧٩٤).

[٢٣٧٦] وعنه؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ لأبيِّ بن كعبٍ: «إنَّ الله أمَرَني أنْ أقرأ عليك: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾»، قال: وسَمَّاني!؟ قال: «نعم». قال: فبَكَى.

رواه أحمد (٣/ ١٣٠)، والبخاريُّ (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩) في فضائل الصحابة (١٢٢)، والترمذيُّ (٣٧٩٢)، والنسائيُّ في الكبرى (١١٦٩١).

* * *

أبو زيد: اسمه ونسبه ووفاته

و (قول قتادة: قلت لأنسٍ: من أبو زيد؟ قال: أحد عُمومتي) أبو زيد هذا هو سعيدُ بن عبيد بن النعمان الأوسي من بني عمرو بن عوف، يُعرف بسعدٍ القارىء، توفي شهيداً بالقادسية سنة خمس عشرة. قال أبو عمر: هذا قولُ أهل الكوفة، وخالفهم غيرُهم، فقال أبو زيد: هذا هو قيسُ بن السكن الخزرجي من بني عديٍّ بن النجار بدريٌّ. قال ابنُ شهاب: قُتِل أبو زيد قيس بن السَّكن الخزرجي[١] يوم جِسْر أبي عبيد على رأس خمس عشرة. وقد تقدَّم القولُ على حديث قراءة النبيِّ ﷺ على أبيٍّ ـ رضي الله عنه ـ في كتاب الصَّلاة في باب: ترتيل القراءة وكيفية الأداء.

---

(١) ليست في (ز) ولا (م ٤).

(٥٥) بــاب
فضائل سعد بن معاذ

[٢٣٧٧] عن جابرِ بن عبد الله، قال: قال رسولُ الله ﷺ ـ وجنازةُ سعدِ بن معاذٍ بين أيديهم ـ: «اهتزَّ لها عرشُ الرَّحمنِ».

وفي روايةٍ: «اهتَز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ».

---

(٥٥) ومن بــاب: فضائل سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ

اسمه ونسبه وإسلامه

هو ابن النعمان بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل الخزرجي الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ أسلم بالمدينة بين العقبة الأولى والثانية على يدي مصعب بن عمير، وشهد بدراً وأُحُداً، ورُمي يوم الخندق بسهم، فعاش شهراً، ثم انتقض جرحُه فمات منه. توفي سنة خمس من الهجرة، وقد تقدَّم حديثه في حكمه في بني قريظة، وقوله ﷺ للحاضرين من أصحابه: «قوموا إلى سيدكم»[(١)]، وقالت عائشة

فضل سعد

ـ رضي الله عنها ـ: كان في بني عبد الأشهل ثلاثة، لم يكن بعد النبيِّ ﷺ من المسلمين أحدٌ أفضل منهم: سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وعبَّاد بن بشر، تعني: من الأنصار، والله أعلم. وقال ابنُ عباس: قال سعد بن معاذ: ثلاثةٌ أنا فيهن رجلٌ كما ينبغي، وما سوى ذلك فأنا رجلٌ من المسلمين. ما سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثاً إلا علمتُ أنه حقٌّ من الله، ولا دخلت في صلاةٍ قطُّ فشغلتُ نفسي بغيرها حتى قضيتُها، ولا كنتُ في جنازة قطُّ فحدَّثت نفسي بغير ما تقول، وما يُقال لها حتى أنصرفَ عنها.

اهتزاز عرش الرحمن لجنازة سعد

و (قوله: «اهتز عرش الرحمن لجنازة سعد بن معاذ») حَمَل بعضُ العلماء

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٢٢ و ٧١)، والبخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨) (٦٤)، وأبو داود (٥٢١٥ و ٥٢١٦).

رواه أحمد (٣/ ٢٩٦) و (٣/ ٣١٦)، ، والبخاريُّ (٣٨٠٣)، ومسلم (٢٤٦٦) (١٢٣ و ١٢٤)، والترمذي (٣٨٤٨)، وابن ماجه (١٥٨).

[٢٣٧٨] وعن البراء قال: أُهْدِيت لرسولِ الله ﷺ حُلَّةُ حريرٍ؛ فجَعَل

هذا الحديثَ على ظاهره من الاهتزاز والحركة، وقال: هذا ممكن؛ لأنَّ العرشَ جِسْمٌ، وهو قابلٌ للحركة والسُّكون، والقدرة صالحة، وكانت حركته عَلَماً على فضله، وحمله آخرون على حملة العرش، وحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه، ويكون الاهتزازُ منهم استبشاراً بقدوم رُوحه الطيِّبة، وفَرَحاً به، وحمله آخرون على تعظيم شأن وفاته، وتفخيمه على عادة العرب في تعظيمها الأشياء، والإغياء في ذلك، فيقولون: قامت القيامةُ لموت فلان، وأظلمتِ الأرضُ، وما شاكل ذلك ممَّا انمقصودُ به التعظيمُ والتفخيمُ لا التَّحقيق، وإليه صار الحربيُّ. وكلُّ هذا مُنزَّلٌ على: أنَّ العرش هو المنسوبُ لله تعالى في قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وهو ظاهِرُ قوله: «اهتز عرشُ الرحمن لموت سعد». وقد روي عن ابن عمر: أن العرشَ هنا سرير الموت. قال القاضي: وكذلك جاء في حديث البراء في الصحيح: «اهتزَّ السَّرير»[1] وتأوَّله الهرويُّ: فَرِح بحمله عليه.

و (قوله: أُهديت لرسول الله ﷺ حلَّةُ حرير) كذا جاء في حديث البراء: حلَّة بالحاء المهملة واللام، وفي حديث أنس: أن أُكَيْدر دُومة الجندل أهدى لرسول الله ﷺ جُبَّة من سُندس[2]. وهذه أوجه وأصوب؛ لأن الحلة لا تكون عند العرب ثوباً واحداً، وإنما هي لباس ثوبين، يحلُّ أحدُهما على الآخر، وأن الثوب الفرد لا يُسمَّى حلةٌ. وقد جاء في السِّير أنها: قباء من ديباج مُخوَّصٌ بالذهب، وقد تقدَّم الكلامُ على لبس الحرير في اللباس. وأُكَيْدر: بضم الهمزة وفتح الكاف

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري برقم (٣٨٠٣).

(٢) رواه الترمذي (١٧٢٣)، والنسائي (٨/ ١٩٩).

أصحابهُ يَلمِسُونها ويَعْجَبُون من لِينِها. فقال: «أتعجبونَ من لِينِ هذهِ؟! لَمناديلُ سعدِ بن مُعاذٍ في الجنَّة خيرٌ منها وألْيَـنُ».

رواه أحمـد (٤/ ٣٠٢)، والبخـاريّ (٣٨٠٢)، ومسلـم (٢٤٦٨) (١٢٦)، والترمذي (٣٨٤٧)، وابن ماجه (١٥٧).

* * *

وياء التصغير بعدها: تصغير: أكدر، والكدرة: لونٌ بين السَّواد والبياض، وهو الأغبر، وهو: أكيدر بن عبد الملك الكندي. ودومة: بفتح الدال وضمها، وأنكر ابنُ دريد الفتح، وقال: أهل اللغة يقولونه بالضم، والمحدِّثون بالفتح، وهو خطأ، وقال: ودومة الجندل: مجتمعه ومستداره، وهو من بلاد الشام قُرب تبوك، كان أكيدر ملكها، وكان خالد بن الوليد قد أسره في غزوة تبوك وسلبه قباءً من ديباج مُخَوَّصاً بالذهب. فأمَّنَه النبيُّ ﷺ وردَّه إلى موضعه، وضرب عليه الجزية.

ثياب سعد في الجنة

و (قوله: «لمناديلُ سعد بن معاذ في الجنة خيرٌ منها وألين») هذه إشارةٌ إلى أدنى ثياب سعد؛ لأنَّ المناديلَ إنما هي مُمتهنةٌ متخذةٌ لمسح الأيدي بها من الدَّنس والوسخ، وإذا كان هذا حالُ المنديل، فما ظنُّك بالعِمامة والحلة؟! ولا يظنُّ أنَّ طعامَ الجنة وشرابَها فيهما ما يدنس يدَ المتناول حتى يحتاجَ إلى منديل؛ فإنَّ هذا ظنُّ مَن لا يعرف الجنَّة ولا طعامها ولا شرابها؛ إذ قد نزَّه اللّٰهُ الجنـة عن ذلك كلِّه وإنما ذلك إخبارٌ بأنَّ الله أعدَّ في الجنة كلَّ ما كان يُحتاجُ إليه في الدُّنيا، لكن هي على حالةٍ هي أعلى وأشرف، فأعدَّ فيها أمشاطاً، ومجامر، وأُلُوَّةَ، ومناديل، وأسواقاً وغير ذلك مما تعارفناه في الدُّنيا، وإن لم نحتجْ له في الجنة إتماماً للنعمة، وإكمالاً للمنَّة.

* * *

(٥٦) بـــاب
فضائل أبي دُجَانَة؛ سِمَاك بن خَرَشة، وعبد الله بن عمرو بن حرام

[٢٣٧٩] عن أنسٍ: أنَّ رسول الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أُحُدٍ، فقال: «مَنْ يأخذُ منِّي هذا؟» فبَسطُوا أيديَهُم، كُلُّ إنسانٍ منهم يقولُ: أنا، أنا. قال: «فمن يأخُذُهُ بحقِّهِ؟» فأَحْجَم القوم، فقال سماكُ بن خَرَشة ـ أبو دجانة ـ: أنا آخذه بحقّه. قال: فأخذه، ففَلَقَ به هامَ المشركين.

رواه مسلم (٢٤٧٠).

---

(٥٦) ومن بـــاب: فضائل أبي دجانة ـ رضي الله عنه ـ

اسمه ونسبه ومشاهده

هو سماك بن خَرَشة بني لوذان الخزرجي الأنصاريُّ، وهو مشهورٌ بكنيته، شهد بدراً وأُحُداً، ودَافَع عن رسول الله ﷺ يومئذ هو ومصعب بن عُمير، وكثرتْ فيه الجراحة، وقُتِل مصعب، وكان أبو دُجانة أَحَدَ الشجعان، له المقاماتُ المحمودة مع رسول الله ﷺ في مغازيه. استشهد يوم اليمامة، وقال أنس: رمى أبو دُجانة

استشهاده

بنفسه في الحديقة، فانكسرت رِجْلُه، فقَاتَل حتى قُتِل، وقيل: إنه شارك وَحْشِيّاً في قَتْل مسيلمة، وقد قيل: إنه عاش حتى شهد مع عليٍّ صفّين، والله تعالى أعلم. قال أبو عمر: إسنادُ حديثه في الحرز المنسوب إليه فيه ضعف.

شجاعته

و (قوله ﷺ: «من يأخذُ منِّي هذا السَّيف بحقِّه؟») يعني بالحق هنا: أنه يقاتل بذلك السيف إلى أن يفتح اللَّهُ تعالى على المسلمين أو يموت، فلما سمعوا هذا أحجموا، أي: تأخَّروا، يُقال: أحجم وأجحم بتقديم الحاء وتأخيرها. فأخذه أبو دجانة وقام بشرطه، ووفى بحقه. و (هام المشركين) مخفَّفاً، يعني: رؤوسهم. قال:

نضـربُ بـالسُّيـوفِ رؤوسَ قـومٍ أَزَلْنـا هـامَهُـنَّ عـن المقيـل

المقيل: أصول الأعناق.

. . . .

أبو جابر: اسمه ونسبه ومشاهده ووفاته

وأما أبو جابر، فهو عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن كعب بن غنم[١] ابن كعب بن سَلِمَةِ الأنصاري السلمي، وهو أحدُ النقباء، شهد العقبة وبدراً، وقُتِل يوم أُحُدٍ، ومُثِّل به، وروى بقي بن مَخْلَدٍ عن جابرٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: لقيني رسولُ الله ﷺ فقال: «يا جابر! ما لي أراك منكساً مهتماً[٢]؟» قلت: يا رسول الله! استشهد أبي وترك عيالاً، وعليه دَيْن. قال: أفلا أبشرِّك بما لقي اللَّهُ ـ عز وجل ـ به أباك»؟ قلت: بلى يا رسول الله! قال: «إنَّ اللَّهَ عز وجل أحيا أباك، وكلَّمه كِفاحاً، وما كلَّم أحداً قطُّ إلا من وراء حجاب، فقال له: يا عبدي تمنَّ أعطك! قال: يا رب! تردّني إلى الدنيا فأُقتل فيك ثانية فأبلِّغ من ورائي» فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ... ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٩][٣].

ما خُصَّ به أبو جابر من الفضل

قلـتُ: وقد تضمَّن هذا الحديثُ فضيلةً عظيمةً لعبد الله لم يُسْمَعْ بمثلها لغيره، وهي: أنَّ اللَّهَ تعالى كلَّمه مُشافهةً بغير حجاب حَجَبه به. ولا واسطة قبل يوم القيامة، ولم يفعل اللَّهُ تعالى ذلك مع غيره في هذه الدَّار، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ [الشورى: ٥١]. وكما قال رسولُ الله ﷺ في هذا الحديث: «وما كلَّم الله أحداً قطُّ إلا من وراء حجاب». وظاهرُ هذه الآية، وهذا الحديث: أنَّ الله تعالى لم يفعلْ هذا في هذه الدَّار لحيٍّ ولا لميت، إلا لعبد الله هذا خاصَّةً، فيلزمُ على هذا العموم: أنه قد خصَّ من ذلك بما لم يخصَّ به أحدٌ من الأنبياء. وهذا مشكلٌ بالمعلوم من ضرورة الشَّرع، ومِن إجماع المسلمين على: أنَّ درجةَ الأنبياء وفضيلتهم أعظمُ من درجة الشهداء والأولياء كما تقدَّم، فَوَجْهُ التَّلفيق: أنَّ

---

(١) في (ع): عثمان، وهو خطأ، انظر: أسد الغابة (١/ ٣٠٧).
(٢) في (ز): مغتماً.
(٣) رواه الترمذي (٣٠١٠)، وابن ماجه (٢٨٠٠).

[٢٣٨٠] وعن جابر بن عبد الله، قال: لمَّا كان يومُ أحدٍ جيءَ بأبي مُسَجًّى، وقد مُثِّلَ به. قال: فأردتُ أن أرفع الثَّوب، فنهاني قومي، ثم أردت أن أرفع الثوبَ، فنهاني قومي، فرفعه رسولُ الله ﷺ ـ أو: أمر به فرُفِعَ ـ فسمع صوتَ باكيةٍ أو صائحةٍ، فقال: مَنْ هذه؟ فقالوا: ابنة عمرو ـ أو أخت عمرو ـ فقال: «ولِمَ تبكي؟ فما زالت الملائكةُ تُظِلُّهُ بأجنحتها حتى رُفِعَ!».

قوله ﷺ: «وما كلَّم اللَّهُ أحداً إلا مِن وراء حجاب» إنما يعني به ـ والله أعلم ـ: أنه ما كلَّم أحداً من الشهداء، وممَّن ليس بنبيٍّ بعد موته، وقيل: يوم القيامة، إلا عبدالله، ولم يرِدْ به الأنبياء، ولا أراد بعد يوم القيامة، لما قد علم أيضاً من الكتاب والسنة، وإجماع أهل السُّنَّة من: أنَّ المؤمنين يَرَوْنَ الله تعالى في الجنة، ويُكلِّمهم بغير حجاب، ولا واسطة. وأمَّا الآية: فإنما مقصودُها حَصْرُ أنواع الوحي الواصل إلى الأنبياء من الله تعالى، فمنه: ما يقذفهُ اللَّهُ تعالى في قلب النبيِّ، ووِرعه، ومنه: ما يُسْمِعه الله تعالى للنبيِّ مع كون ذلك النبيِّ محجوباً عن رؤية الله تعالى، ومنه: ما يبلِّغه له المَلَك، وحاصلها: الإعلامُ بأنَّ اللَّهَ تعالى لم يَرَهُ أحدٌ من البشر في هذه الدَّار؛ نبيّاً كان أو غير نبيٍّ، ويشهد لهذا قولُه ﷺ في الصحيح: «اعلموا أنه لا يرى أحدٌ ربَّه حتى يموت»[1]، وقد تقدَّم الخلافُ في رؤية نبينا محمد ﷺ لربِّه، والصحيحُ أنه لم يأت قاطعٌ بذلك، والأصلُ: بقاءُ ما ذكرناه على ما أصَّلناه، والله تعالى أعلم.

أنواع الوحي للأنبياء

و (قوله: وجيء بأبي مُسجّىً، وقد مُثِّل به) أي: مُغطّى بثوبٍ ومُثِّل به، أي: جُدِع أنفه وأذناه. فَعَل ذلك به المشركون.

تمثيل المشركين بأبي جابر

و (قوله: «ولِمَ تبكي؟») كذا صحّتِ الروايةُ بـ(لِمَ) التي للاستفهام، تبكي

---

(١) ذكره الحافظ في فتح الباري (١/ ١٢٠).

رواه أحمد (٣/ ٢٩٨)، والبخاري (٤٠٨٠)، ومسلم (٢٤٧١) (١٢٩)، والنسائيُّ (٤/ ١٢).

* * *

(٥٧) باب
فضائل جُلَيْبِيب

[٢٣٨١] عن أبي برزة: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان في مغزىً له، فأفاء الله عليه، فقال لأصحابه: «هل تفقدون من أحدٍ؟» قالوا: نعم؛ فلاناً وفلاناً

بغير نون؛ لأنَّه استفهامٌ لمخاطبٍ عن فعل غائبه، ولو خاطبها بالاستفهام خطابَ الحاضرة، لقال: ولم تبكين؟ بإثبات النون، وكذلك جاء في رواية أخرى: «أولا تَبكيه؟ ما زالت الملائكة تظلُّه بأجنحتها»[1] هو إخبارٌ عن غائبة، ولو كان خطاب الحاضرة لقال: تبكينه، أو لا تبكينه بنون فعل الواحدة المخاطبة، ويعني بهذا الكلام: أنَّ عبد الله مكرَّمٌ عند الملائكة سواءٌ بُكِي عليه، أو لم يُبْكَ، وكون الملائكة تظلُّه بأجنحتها إنَّما ذلك لاجتماعهم عليه، وتراحمهم على مبادرة لقائه، والصُّعود بروحه الكريمة الطيبة، ولتبشِّره بما له عند الله تعالى من الكرامة والدَّرجة الرفيعة، والله تعالى أعلم.

تكريم الملائكة لأبي جابر

(٥٧) ومن باب: فضائل جليبيب ـ رضي الله عنه ـ

وكان رجلاً من ثعلبة، وكان حليفاً في الأنصار، قال ابنُ سعد: سمعتُ من يذكر ذلك. روى أنس بن مالك قال: كان رجلٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ يُقال له: جُليبيب، وكان في وجهه دمامة، فعرض عليه رسولُ الله ﷺ التزويج فقال: إذن

تزويجه ﷺ جليبيب

---

(١) انظر: صحيح مسلم برقم (٢٤٧١) (١٣٠).

وفلاناً. ثمَّ قال: «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نعم، فلاناً وفلاناً. ثم قال: «هل تفقدون من أحدٍ؟» قالوا: لا. قال: «لكنِّي أفقِدُ جُلَيْبِيباً، فاطلبوه». فطُلِب في القتلى، فوجدُوهُ إلى جَنْبِ سبعةٍ قد قتلهم. ثم قتلوه، فأتاه النَّبيُّ ﷺ فوقف عليه، فقال: «قَتل سبعة، ثم قتلوه، هذا منِّي وأنا

تجدَني كاسداً يا رسولَ الله! فقال: «إنك عند الله لستَ بكاسدٍ»[(١)]. وفي غير كتاب مسلمٍ من حديث أبي برزة في تزويج جُليبيب: أن رسولَ الله ﷺ قال لرجلٍ من الأنصار: «يا فلان زوِّجني ابنتك»، قال: نعم، ونعمة عين، قال: «إني لستُ لنفسي أريدها»، قال: فلمن؟ قال: «لجُليبيب»، قال: حتى أستأمرَ أمَّها، فأتاها وأخبرها بذلك، فقالت: حلقى، ألجُليبيب؟! لا لَعَمْرُ الله، لا أُزوِّج جُليبيباً، فلما قام أبوها ليأتي رسولَ الله ﷺ قالت الفتاةُ مِن خِدْرِها لأبويها: مَن خطبني إليكما؟ قالا: رسول الله ﷺ، قالت: أفتردَّان على رسول الله أمره؟! ادفعاني إلى رسول الله ﷺ فإنه لن يُضيِّعني، فذهب أبوها للنبيِّ ﷺ فأخبره بذلك، وقال: شأنُكَ بها؛ فزوَّجها جُليبيباً، ودعا لهما النبيُّ ﷺ فقال: «اللهم صُبَّ عليهما الرزقَ صبّاً صبّاً، ولا تجعلْ عيشَهما كدّاً كدّاً»[(٢)] ثم ذكر باقي الحديث على ما في كتاب مسلم.

و (قوله: كان رسولُ الله ﷺ في مغزىً له) أي: في غزوة.

و (قوله: «هل تفقدون أحداً؟») هذا الاستفهامُ ليس مقصوده استعلام كونهم فقدوا أحداً ممن يعزّ عليهم فَقْده؛ إذ ذاك كان معلوماً له بالمشاهدة؛ وإنما مقصودُه التَّنويهُ والتَّفخيم بمن لم يحفلوا به، ولا التفتوا إليه، لكونه كان غامِضاً في الناس،

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٣٦)، وأبو يعلى (٣٣٤٣)، وعبد الرزاق في المصنف (١٠٣٣٣). وانظر: مجمع الزوائد (٩/ ٣٦٨).

(٢) ذكره ابن الأثير في الاستيعاب (١/ ٣٤٨).

منه، هذا منِّي وأنا منه». قال: فوضعه على ساعِدَيه، ليس له إلّا ساعِدَا النَّبيّ ﷺ. قال: فحُفِرَ له ووُضِع في قبره. ولم يذكر غَسْلاً.

رواه أحمد (٤/ ٤٢١)، ومسلم (٢٤٧٢)، والنسائي في الكبرى (٨٢٤٦).

* * *

(٥٨) بـــاب
فضائل أبي ذرٍّ الغفاريّ

[٢٣٨٢] عن عبد الله بن الصَّامت، قال: قال أبو ذرٍّ: خرجنا من قومنا غِفَار، وكانوا يُحِلُّون الشهر الحرام، فخرجت أنا وأخي أُنيس وأُمُّنا، فنزلنا على خالٍ لنا، فأكرَمَنا خالنا، وأحسن إلينا، فحسدَنَا قومُه، فقالوا:

ولكون كل واحدٍ منهم أُصيب بقريبه أو حبيبه، فكان مشغولاً بمصابه لم يتفرَّغْ منه إلى غيره، ولما أطلع اللَّهُ نبيَّه ﷺ على ما كان من حال جُلَيبيب مِن قتله السَّبعة الذين وُجِدوا إلى جَنَبه، نوَّه باسمه، وعرَّف بقدره، فقال: «لكنِّي أفقدُ جُليبيباً» أي: فَقْدُه أعظمُ مِن فقد كلٍّ من فقد، والمصاب به أشدّ، ثم إنه أقبلَ بإكرامه عليه، ووسَّده ساعديه مبالغةً في كرامته، ولتناله بركةُ ملامسته. وجُلَيبيب: تصغير جلباب، سُمِّي به الرجل.

(استشهاده رضي الله عنه)

(٥٨) ومن بـــاب: فضائل أبي ذرٍّ الغفاري ـ رضي الله عنه ـ

(اسمه ونسبه)

(أبو ذر من السابقين إلى الإسلام)

واسمه: جندب ـ على الأصح والأكثر ـ ابن جنادة بن قيس بن عمرو بن مليل ابن حرام بن غفار، وغفار بن كنانة بن مدركة بن إلياس بن قصي بن نزار. هو من كبار الصحابة ـ رضي الله عنه وعنهم ـ، قديم الإسلام، يقال: أسلم بعد أربعة

. . . .

فكان خامساً، ثم انصرف إلى بلاد قومه، فأقام بها حتى قدم على النبيِّ ﷺ عام الحديبية، بعد أن مضت بدر، وأحد، والخندق، ويدلُّ على كيفية إسلامه، وتفصيل أحواله: حديثه المذكور في الأصل، وكان قد غلب عليه التعبُّد والزُّهد، وكان يعتقدُ أن: جميع ما فضل عن الحاجة كنز وإمساكه حرام، ودخل الشام بعد موت النبيِّ ﷺ فوقع بينه وبين معاوية نزاعٌ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ . . .﴾ الآية [التوبة: ٣٤]، فشكاه معاوية إلى عثمان، فأقدمه عثمان المدينة، فقدمها، فزهد أبو ذرٍّ في كلِّ ما بأيديهم، واستأذن عثمانَ في سُكنى الرَّبَذَة، فأذن له، وقد كان رسولُ الله ﷺ أذنَ له في البدو، فأقام بالرَّبَذَة في موضعٍ منقطعٍ إلى أن مات بها سنة اثنتين وثلاثين على ما قاله ابنُ إسحاق، وصلى عليه عبد الله بن مسعود منصرفه من الكوفة في ركب، ولم يوجدْ له شيءٌ يُكفَّن فيه، فكفَّنه رجلٌ من أولئك الركب في ثوبٍ من غَزْل أمه، وكان قد وصَّى ألَّا يكفنه أحدٌ وَلِيَ شيئاً من الأعمال السلطانية، وخبره بذلك معروف. روى عن رسول الله ﷺ مئتي حديث وواحداً وثمانين حديثاً. أخرج له منها في الصَّحيحين ثلاثةٌ وثلاثون حديثاً.

وفاته

رواياته عن رسول الله ﷺ

غريب حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ:

الشنة: السقاء البالي، والشنان: الأسقية، واحدها شنٌّ، وكلّ جلدٍ بالٍ: فهو شنٌّ. ويقال للقربة البالية: شنَّة، وهي أشدُّ تبريداً للماء من الجدد.

و (قوله: ما أنى للرجل) أي: ما كان، يقال: أنى وآن بمعنى واحد، و (تقفوه): تتبعه.

و (قوله: لأصرخنَّ بها) أي: بكلمة التوحيد (بين ظهرانيهم): يعني المشركين بمكة.

إنَّك إذا خرجتَ عن أهلك خَالف إليهم أُنيسٌ، فجاء خالُنا فنثا علينا الذي قيل له. فقلت: أمَّا ما مضى من معروفِكَ فَقَدْ كدَّرتَهُ، ولا جِماع لك فيما بعدُ، فقرَّبْنا صِرمَتنا، فاحْتَمَلْنا عليها، وتغطّىٰ خالُنا ثوبَهُ فجعل يبكي، فانطَلَقْنا حتَّى نزلنا بحضرة مكَّة. فنافَرَ أُنيسٌ عن صِرْمَتِنا وعن مِثْلِها، فأتيا الكاهِنَ فخيَّر أنيساً، فأتانا أُنيسٌ بِصِرْمَتِنا ومثلِها معها. قال: وقد صلَّيتُ يا بن أخي! قبل أن أَلْقَى رسولَ الله ﷺ بثلاثِ سنين، قلتُ: لمن؟ قال:

و (قوله: فنثا علينا خالنا الذي قيل له) أي: أظهر لنا بالقول، يقال: النثى ـ بتقديم النون، والقصر ـ في الشر والكلام القبيح، وإذا قدّمت الثاء ومَدَدت فهو الكلامُ الحسنُ الجميل.

و (قوله: لا جِمَاع لك) أي: لا اجتماع يبقى بيننا. و (الصِّرْمَةُ): القطعةُ من الإبل، نحو الثلاثين، وقد تكون الصِّرمة في غير هذا: القطعة من النخل، والصّرم: القطع.

و (قوله: فنافر أنيسٌ عن صِرْمتنا، وعن مثلها) أي: التزم أنَّ مَن قُضي له بالغلبة أخذ ذلك، قال أبو عبيد: المنافرة: أن يفتخرَ الرجلان كلٌّ واحد منهما على صاحبه، ثم يُحكِّما رجلاً بينهما، والنافر: الغالب، والمنفور: المغلوب. يُقال: نَفَرَه، يَنْفِرُه، ويَنْفُرُهُ نَفْراً: إذا غلب عليه.

و (قوله: فَأَتَيا الكاهن فخيَّر أُنيساً) أي: غلبه، وقضى له، وكانت منافرته في الشعر: أيهما أشعر؟.

و (قوله: وقد صلَّيت قبل أن ألقى رسولَ الله ﷺ) هذا إلهامٌ للقلوب الطَّاهرة، ومُقتضى العقول السَّليمة[1]؛ فإنها توفِّق للصواب، وتُلهم للرّشد.

---

(١) في (ز): السامية.

لله، قلتُ: فأين توَجَّهُ قال: أتوجَّهُ حيث يوجِّهُني ربي، أصلِّي عِشاءً حتى إذا كان من آخر الليل أُلقِيتُ كأني خِفَاءٌ، حتى تعلُوني الشَّمسُ. فقال أُنَيسٌ: إنَّ لي حاجةً بمكةَ فاكفني، فانطلق أُنيس حتى أتى مكة، فرَاث عَليَّ، ثم جاء، فقلتُ: ما صنعتَ؟ قال: لقيتُ رجلاً بمكة على دينك يزعم أنَّ الله أرسله! قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، ساحر، كاهن، ـ وكان أنيس أحد الشعراء ـ قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشِّعر فما يلتئم على لسان أحدٍ

و (قوله: أُلقِيت كأني خِفَاءٌ) الرواية في أُلقِيت بضم الهمزة وكسر القاف مبنياً لما لم يُسَمَّ فاعله. والخِفاء: بكسر الخاء والمد: هو الغطاء؛ وكل شيء غطيته بكساءٍ، أو ثوبٍ، فذلك الغطاء خِفاءٌ، ويُجمع أخفية، قاله أبو عبيد. وقال ابنُ دريد: الخِفاء: كساء يُطرح على السّقاء.

و (قوله: فراث عليَّ) أي: أبطأ.

و (قوله: وضعتُ قوله على أقراء الشعر) قال ابنُ قتيبة: يريدُ أنواعه، وطُرُقه، واحدها قَرْءٌ. فيقال: هذا الشعرُ على قَرء هذا.

و (قوله: فتضعَّفتُ رجلاً) أي: رأيته ضعيفاً، فعلمتُ أنه لا ينالني بمكروه، ولا يرتابُ بمقصدي.

و (قوله: كأني نُصُب أحمر) أي: قمتُ كأني لجريان دمي من الجراحة التي أُصِبْتُ بها أَحَدَ الأنصاب، وهي الحجارةُ التي كانوا يذبحون عليها فتحمر بالدماء. فأما زمزم، فقال ابنُ فارس: هو من قولهم: زمزمت الناقةَ؛ إذا جعلت لها زماماً تحبسها به، وذلك أنَّ جبريلَ ـ عليه السلام ـ لما هَمَز الأرضَ بمقاديم جناحيه، ففاض الماء زمَّتْها هاجرُ فسُمِّيت: زمزم.

و (قوله: ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر) كذا الرواية الصحيحة أقراء:

بعدي أنَّه شعرٌ، واللَّهِ! إنَّه لصادق وإنَّهم لكاذبون. قال: قلت: فاكفني حتى أذهب فأنظرَ.

وفي رواية: قال: نعم، وكنْ على حذرٍ من أهل مكَّة، فإنهم قد شَنِفُوا له وتجهَّموا، قال: فأتيتُ مكَّة، فتضعَّفتُ رجلاً منهم، فقلتُ: أين هذا الذي تدعونه الصابىء؟ فأشار إليَّ، فقال: الصابىءَ! فمال عليَّ أهلُ الوادي بكل مَدَرةٍ وعظمٍ، حتى خررتُ مغشيّاً عليَّ. قال: فارتفعت حين ارتفعتُ كأنِّي نُصُبٌ أحمر. قال: فأتيتُ زمزم فغسلتُ عنِّي الدماء، وشربتُ من مائها، ولقد لبثت يا بن أخي! ثلاثين، بين ليلةٍ ويوم ما كان لي طعام إلَّا ماءُ زمزم. فسمنتُ حتى تكسَّرت عُكَنُ بَطني. وما وجدتُ على كبدي سَخْفَةَ جُوعٍ. . . . .

بالراء، جمع قَرْءٍ على ما تقدم، وقيَّده العذري: أقواء بالواو، ورواه بعضُهم بالواو وكسر الهمزة. قال القاضي: لا وَجْهَ له.

و (قوله: فما يلتئم على لسان أحدٍ بَعْدي أنه شعر) هكذا الرواية عند جميع الشيوخ. بعدي: بالباء بواحدة، والعين المهملة: بمعنى غيري. يُقال: ما فعل هذا أحدٌ بعدك، أي: غيرك. كما يقال ذلك في (دون) وهو كثيرٌ فيها. ومعنى الكلام: أنه لما اعْتَبَرَ القرآنَ بأنواع الشعر تبيَّن له ليس من أنواعه، ثم قطع: بأنه لا يصحُّ لأحدٍ أن يقول: إنه شعر، ووقع في بعض النُّسخ: يَقْري بفتح الياء. قال القاضي: وهو جيد، وأحسن منه: يُقري بضمها، وهو ممَّا تقدَّم، يقال: أقرأتُ في الشعر، وهذا الشعر على قَرْءٍ هذا، وقرؤه: أي قافيته، وجمعها: أقراء. وفي بعض النسخ أيضاً (على لسانِ أحدٍ يُعزى إلى شعر) أي: يُنسب إليه، ويُوصف به. وللرِّوايات كلّها وَجْه.

و (قوله: فما وجدت على كبدي سَخْفَةَ جوع) قال الأصمعي: السخفة:

قال: فبينا أهل مكة في ليلة قمراءَ إِضْحِيانَ؛ إذ ضُرِب على أصمختهم، فما يطوفُ بالبيت أحدٌ، وامرأتان منهم تدعوان إسافاً ونائلة. قال: فأتتا عليَّ في طوافهما، فقلتُ: أنْكِحا أَحَدَهُما الآخر. قال: فما تناهتا عن قولهما. قال: فأتتا عليَّ، فقلتُ: هَنٌ مثلُ الخشبة ـ غير أنيّ.................

الخفَّة، ولا أَحْسِبُ قولهم: سخيف إلا من هذا.

و (قوله: في ليلة قمراء إِضْحِيان) القمراء: المقمرة، وهي التي يكونُ فيها قمر، ويُسمَّى الهلالُ قمراً من أول الليلة الثالثة إلى أن يصيرَ بدراً، ثم إذا أخذ في النَّقص عاد عليه اسمُ القمر، وإضحيان ـ بكسر الهمزة والضاد المعجمة ـ: معناه كثير ضوء قمرها. قال ابن قتيبة: ويقال ليلة إضحيانٌ، وإضحيانة، وضحيانة[1]: إذا كانت مضيئة.

و (قوله: ضُرِبَ على أصمختهم) أي: ناموا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١] أي: أنمناهم. الأصمخة: جمع صِماخ، وهو خُرْق الأذن، وهو بالصاد، وقد أخطأ من قاله: بالسين. وإساف ونائلة: صنمان، وقد تقدَّم ذكرهما في كتاب الحج، وقد روى ابن أبي نجيح: أن إسافاً ونائلة كانا رجلاً وامرأة حجَّا من الشام، فقبَّلَها وهما يطوفان فمُسخا حجرين، فلم يزالا في المسجد حتى جاء الإسلام، فأُخرجا منه.

و (قوله: فما تناهتا عن قولهما) أي: ما رجعتا عنه.

و (قوله: هَنٌ مِثْل الخَشبة) يعني به الذكر، وقد تقدَّم أن: هناً كناية عن النكرات، وأراد بذكره هنا سبَّ إسافٍ ونائلة، وهو تقبيحٌ، كقوله أولاً: أَنْكِحا أحدَهما الآخر.

---

(١) ليست في (م ٤).

لا أكْني ـ فانطَلَقَتا تُولولان، وتقولان: لَو كان ها هنا أحد من أنفارِنَا! قال: فاستقبلَهُما رسولُ الله ﷺ وأبو بكر وهما هابطتان. قال: «ما لَكُما؟» قالتا: الصابىءُ بين الكعبة وأستارها. قال: «ما قال لكما؟» قالتا: إنه قال لنا كلمة تملأُ الفم، وجاء رسول الله ﷺ حتى استلم الحجر، ثم طاف بالبيت هو وصاحبُه. ثمَّ صلَّى، فلمّا قضى صلاته (قال أبو ذر): فكنتُ أوَّلَ من حيّاه بتحية الإسلام. قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله! فقال: «وعليك ورحمة الله»، ثم قال: «من أنت؟»، قال: قلت: من غِفار. قال: فأهوى بيده فوضع أصابِعَه على جبهته، فقلت في نفسي: كرِه أن انتميتُ إلى غفار، فذهبتُ آخذ بيده، فَقَدَعَنِي صاحبُه، وكان أعلمَ به منِّي، ثم رفع رأسه، فقال: «متى كنت ها هنا؟» قال: قد كنت ها هنا منذ ثلاثين؛ بين ليلة ويوم. قال: فمن كان يطعمك؟ قال: قلتُ: ما كان لي طعامٌ إلا ماءُ

و (قوله: تولولان) أي: تدعوان بالويل، وترفعان بذلك أصواتهما.

و (قولهما: لو كان أحدٌ من أنفارنا) أي: من قومنا، وهو جمع نفر، والنَّفَر: ما بين الثلاثة إلى العشرة، وجواب لو محذوف، أي: لنصرنا عليكَ ونحوه.

و (قولهما: الصابىء) أي: الخارج عن دين قومه، ويُهمز، ولا يُهمز، وقد قُرِىء بهما.

و (قولهما: قال كلمة تملأ الفم) أي: عظيمة، حتى كأن الفم يضيقُ عنها.

و (قوله: فكنت أوَّلَ من حيَّاه بتحيَّة الإسلام) يعني به: السلام عليك يا رسولَ الله، وظاهره: أنه أُلهمَ النُّطقَ بتلك الكلمة إذ لم يكن سمعَها قبلَ ذلك، وعلمُه بكونه أوَّلَ من حيَّاه: يحتملُ أن يكون إلهاماً، ويحتمل أن يكون علمَه بغير ذلك بالاستقراء، ثم أُخبرَ عنه، والله تعالى أعلم.

و (قوله: فَقَدَعَنِي صاحبُه) أي: كفَّني ومنعني. يُقال: قَدَعْتُ الرَّجلَ،

زمزم، فسمِنْتُ حتى تكسَّرتْ عُكَنُ بطني، وما أجد على كبدي سَخْفَة جوعٍ. قال: «إنَّها مباركة، إنَّها طَعَام طُعْمٍ». فقال أبو بكر: يا رسول الله! ائذنْ لي في طعامه الليلة، فانطلق رسولُ الله ﷺ وأبو بكرٍ، وانطلقتُ معهما، ففتحَ أبو بكرٍ باباً، فجعل يقبض لنا من زبيب الطائف، فكان ذلك

وأقدعتُه: إذا كففتُه، ومنه قول الحسن: اقدعوا هذه الأنفس، فإنَّها طُلَعَةٌ[1]، وهو بالدال المهملة.

و (قوله: «إنها طعامُ طُعْمٍ») أي: يُشبع منه، ويَردُّ الجوعَ. الرواية فيه: طعامُ طعمٍ بالإضافة، والطعام: اسم لما يتطعَّم، فكأنه قال: طعامُ إشباعٍ، أو طعام يُشبع، فأضافه إلى صفته، هذا على معنى ما قاله ابنُ شميل، فإنه قال: يُقال: إنَّ هذا لَطَعَامُ طُعمٍ، أي: يُطعم من أكله، أي: يَشبعُ منه الإنسان، وما يُطعم أكلُ هذا الطعام، أي: ما يُشبعَ منه، غير أنه قد قال الجوهري: الطُّعْمُ بالضم: الطعام، وبالفتح: ما يُشتهى منه. قال: قال أبو خراش:

أَرُدُّ شُجـاعَ البَـطـنِ لَـوْ تَعْلَمِينَـهُ ... ويُؤْثَرُ غيري من عيالكِ بالطُّعْمِ

وأغْتَبِـقُ المـاءَ القَـرَاحَ فَـأَنْتَهِـي ... إذا الـزَّادُ أَمْسَـى لِلْمُـزَلَّـج ذَا طَعْـمِ

قال: فأراد بالأول الطعام وبالثاني ما يُشتهى.

قلـتُ: وعلى هذا فلا تصحُّ الإضافة من جهة المعنى؛ فإنه يكون كقولك: طعامُ طعامٍ، ولا يصحُّ؛ لأنه إضافة الشيء إلى نفسه، وإنما يستقيمُ معنى الحديث على ما حكاه ابن شُميل، ويحصلُ من قولهما: أن طُعْماً تُستعمل بمعنى الاسم، كما قاله الجوهري، وبمعنى الصفة، كما قاله ابن شُميل. والله تعالى أعلم.

وقد روى أبو داود الطيالسي من حديث أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ

---

(١) نفسٌ طُلَعَة: كثيرة التطلع إلى الشيء.

أوّلَ طعامٍ أكلتُه بها، ثم غَبَرْتُ ما غَبرتُ، ثم أتيتُ رسول الله ﷺ فقال: «إنَّه قد وُجِّهَتْ لي أرضٌ ذاتُ نخلٍ؛ لا أُراها إلا يثربَ؛ فهل أنت مُبلِّغٌ عنِّي

في زمزم: «إنَّها مباركةٌ، وهي طعامُ طُعْمٍ، وشفاء سُقْم»[١] أي: طعام من جوع، وشفاءٌ من سُقم.

بركة ماء زمزم

و (قوله في هذا الحديث: «إنها مباركة») أي: إنها تظهر بركتها على من صحَّ صدقه، وحسنت فيها نيته، كما قد روى العقيلي أبو جعفر من حديث أبي الزبير عن جابرٍ: أن النبيَّ ﷺ قال: «ماءُ زمزمَ لما شُرِبَ له»[٢]. فينبغي أن يتبرَّك بها، ويحسنَ النية في شربها، ويحمل من مائها، فقد روى الترمذي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أنها كانت تحملُ من ماء زمزم، وتخبرُ أنَّ رسول الله ﷺ كان يحملُه[٣]. قال: حديث حسن غريب.

و (قوله: ثم غَبَرْتُ ما غَبَرْتُ) أي: بقيت ما بقيت، وقد تقدَّم: أن غبر من الأضداد.

و (قوله: «وقد وُجِّهتُ إلى أرضٍ ذاتِ نخل») أي: ذُهبَ بي إلى تلك الجهة وأُريتها.

اسم المدينة قديماً

و (قوله: «لا أراها إلا يثرب») هذا كان اسم المدينة قديماً حتى قدمها النبيُّ ﷺ، فكره أن تُسمَّى يثربَ؛ لأنه: مأخوذ من التثريب، وهو اللَّوْم والتقبيح، وسمَّاها (طابة)، وقد تقدَّم هذا في الحج، وأيماء بن رحضة يروى بفتح الهمزة وكسرها، ورحضة بفتح الحاء المهملة، والضاد المعجمة.

---

(١) مسند الطيالسي (٦١).
(٢) رواه العقيلي في كتاب «الضعفاء الكبير» (٢/٣٠٣)، وفي إسناده عبد الله بن المؤمل، ضعيف.
(٣) رواه الترمذي في الحج (٩٦٣).

قومك عسى الله أن ينفعهم بك ويأجُرَك فيهم؟». فأتيتُ أُنيساً فقال: ما صنعتَ؟ قلت: صنعتُ أنِّي قد أسلمتُ وصدَّقْتُ. قال: ما بي رغبةٌ عن دينك، فإنِّي قد أسلمتُ وصدَّقت، فأتينا أمَّنا، فقالت: ما بي رغبةٌ عن دينكما؛ فإنِّي قد أسلمتُ وصدَّقتُ، فاحْتَمَلْنا حتى أتينا قومنا غفاراً، فأسلم نصفهُم، وكان يؤمُّهم إيماءُ بن رَحَضةَ الغِفاريُّ، وكان سيِّدَهُم. وقال نِصْفُهم: إذا قدم رسولُ الله ﷺ المدينة أسلمنا، فقدم رسولُ الله ﷺ المدينة، فأسلم نصفُهم الباقي. وجاءت أسلمُ، فقالوا: يا رسول الله! إخوتُنا نُسْلِمُ على الذي أسلَمُوا عليه، فأسلموا، فقال رسول الله ﷺ: «غِفَارُ غَفَرَ الله لها، وأَسْلَمُ سالمها الله».

إسلام قبيلتي غفار وأَسْلم

و (قوله: «غِفَار، غفرَ الله لها، وأسلم سالمَها الله») [إنما دعا النبيُّ ﷺ لهاتين القبيلتين][1]؛ لأنهما: أسلمتا طَوْعاً من غير قتال، ولا إكراه، ويُحتمل أن يكون ذلك خبراً عما فعلَ الله بهاتين القبيلتين من المغفرة، والمسالمة لهما. وكيف ما كان فقد حصلَ لهما: فخرُ السابق، وأجرُ اللاَّحق، وفيه مراعاة التجنيس في الألفاظ.

و (قوله: إنهم قد شَنِفُوا له، وتَجَهَّمُوا)[2] أي: أبغضوه، وعبسوا في وجهه، والشَّنَفُ: البغض، ويُقال: رجل جهم الوجه: إذا كان غليظه منعقده؛ كأنه يعبس وجهَه لكلِّ أحدٍ.

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ع).

(٢) هذه العبارة لم ترد في التلخيص، وإنما جاءت في صحيح مسلم في رواية من روايات هذا الحديث. انظر صحيح مسلم (٤: ١٩٢٣).

وفي روايةٍ: قال: فتنافرا إلى رجلٍ من الكُهَّان. قال: فلم يزلْ أخي أنيسٌ يمدَحُه حتى غَلَبَهُ. قال: فأخذْنَا صِرْمَتَه فضممناها إلى صِرمَتِنا، وفيها أيضاً: قال: فجاءَ النَّبيُّ ﷺ فطاف بالبيت وصلَّى ركعتين خلف المَقَام. وفيها بعد «بتحية الإسلام» قال: قلت: السلام عليك يا رسول الله! قال: «وعليك السلام من أنت؟». وفيها: فقال أبو بكرٍ: أتْحِفْني بضِيَافَتِه الليلةَ.

رواه أحمد (٥/ ١٧٤)، ومسلم (٢٤٧٣).

[٢٣٨٣] وعن ابن عباسٍ، قال: لما بلغ أبا ذرٍّ مبعثُ النَّبيِّ ﷺ بمكةَ قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي علم هذا الرجل؛ الذي يزعم: أنَّه يأتيه الخبرُ من السّماء، واسمع من قوله، ثم ائتني، فانطَلَق الآخر حتى قدم مكة، وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال: رأيتهُ يأمرُ بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشعر، فقال: ما شفيتَني فيما أردتُ، فتزوّدَ وحمل شنَّةً له، فيها ماءٌ. حتى قدم مكة، فأتى المسجد فالتمس النَّبيَّ ﷺ ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه ـ يعني الليل ـ فاضطجع فَرَآه

و (قوله: فلم يزل أخي أُنيس يمدحُه حتى غلبَه) كذا في رواية السَّجْزيِّ وغيره، وهي واضحة. أي: لم يزل ينشدُ شعراً يقتضي المدحَ، حتى حكم له الكاهنُ بالغلبة على الآخر، وأنه أشعرُ منه، وكأن هذا الكاهن كان شاعراً فقضى بينهما بذلك، وفي رواية العذري: فلم يزل أخي أُنيس يمدحه ويثني عليه مكان: حتى غلبه. قال: فأخذنا صِرْمَتَه، فَضَمَمْناها إلى صِرمتنا، والرواية الأولى أولى؛ لأنها أفادت معنىً مناسباً، به التأم الكلام بما بعده، وهو أنه إنما أخذ صِرْمَته؛ لأنَّ الكاهن قضى له بالغلبة؛ ولأن قوله: ويثني عليه مكرر؛ لأنه قد فُهم ذلك من قوله: يمدحه، فحَمْلُ الكلام على فائدة جديدة أولى. وإنما ذكر هذا المعنى ليُبيِّنَ: أن أخاه أُنيساً كان شاعراً مُفْلِقاً مُجيداً، بحيث يُحكم له بغلبة الشعراء، ومن

عليٌّ، فعرف أنه غريبٌ، فلما رآه تَبِعَهُ، فلم يسأل واحِدٌ منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح ثم احتمل قُرْبَتَه وزاده إلى المسجد، فظلَّ ذلك اليوم؛ ولا يرى النبيّ ﷺ؛ حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمرّ به عليٌّ. فقال: ما أَنَى للرَّجل أن يعلم منزله؟ فأقامه، فذهب به معه، ولا يسأل واحدٌ منهما صاحبه عن شيءٍ؛ حتى إذا كان يومُ الثالث فَعَل مثلَ ذلك، فأقامه عليٌّ معه، ثم قال له: ألا تُحدِّثُني؟ ما الذي أقدمَكَ هذا البلدَ؟ قال: إنْ أعطيتني عهداً وميثاقاً لتُرشدَنِّي فعلتُ، ففعل، فأخبره، فقال: فإنه حقٌّ، وإنَّه رسولُ الله ﷺ، فإذا أصبحت فاتَّبِعْني. فإنِّي إنْ رأيتُ شيئاً أخاف عليك قمتُ كأني أُريقُ الماء، فإنْ مضيتُ فاتَّبعني حتى تدخُل مَدْخَلي، ففعل، فانطلق يقفُوهُ، حتى دخل على النَّبيِّ ﷺ، ودخل معه، فسمع من قوله، وأسلم مكانه، فقال له النبيّ ﷺ: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري»، فقال: والذي نفسي بيده! لأَصْرُخنَّ بِها بين ظهرانيهم. فخرج،

كان هكذا عُلِمَ أنه عالم بالشعر وأنواعه. فلما كان كذلك وسمعَ القرآنَ علم قطعاً: أنه ليس بشعرٍ، ولذلك قال: لقد وضعتُه على أنواع الشعر فلم يلتئم، فكانت هذه شهادة بأنه ليس بشعر، ولا أنه ﷺ شاعر، فكان ذلك تكذيباً لمن زعمَه من جهَّال الكفَّار، ومن المعاندين الفُجَّار.

قلـــتُ: وقد ظهرَ بين حديث عبد الله بن الصامت، وبين حديث عبد الله بن عباس تباعد واختلاف في موضع من حديث أبي ذرٍّ هذا بحيث يبعد الجمعُ بينهما فيه. وذلك: أنّ في حديث ابنِ الصامت: أن أبا ذرٍّ لقيَ النبيَّ ﷺ أوّلَ ما لقيَه ليلاً، وهو يطوفُ بالكعبة، فأسلمَ إذ ذاك بعد أن أقام ثلاثين بينَ يوم وليلة، ولا زادَ له، وإنما اغتذى بماء زمزم. وفي حديث ابن عباس: إنه كان له قُربة وزاد، وأن عليّاً ـ رضي الله عنه ـ أضافَه ثلاث ليالٍ، ثم أدخلَه على النبيِّ ﷺ في بيته، فأسلمَ، ثم خرجَ يصرخُ بكلمتيْ الإسلام. وكلُّ ذلك من السندين صحيح، فالله أعلم أيُّ

حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنَّ محمداً رسولُ الله. وثار القوم، فضربوه حتى أضجعوه، فأتى العبَّاس فأكبَّ عليه، فقال: ويلَكُمْ! ألستم تعلمون أنَّه من غفارٍ، وأنَّ طريق تُجّارِكُم إلى الشام عليهم، فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد بمثلها، وثاروا إليه فضربوه، فأكبَّ عليه العباس فأنقذه.

رواه أحمد (٤/ ١١٤)، والبخاريُّ (٣٨٦١)، ومسلم (٢٤٧٤).

* * *

(٥٩) بـــاب
فضائل جرير بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ

[٢٣٨٤] [عن جريرٍ] قال: ما حَجَبني رسولُ الله ﷺ منذ أسلمتُ، ولا رآني إلا ضَحِكَ.

المتنين الواقع، ويُحتمل أن يقال: إن أبا ذر لما لقي النبي ﷺ حول الكعبة وأسلم، لم يعلم به إذ ذاك عليٌّ؛ إذ لم يكن معه، ثم إن أبا ذر بقي مستقراً بحاله، إلى أن استتبعه عليٌّ ثم أدخله على النبي ﷺ فجدَّد إسلامَه، فظنَّ الراوي: أن ذلك أوَّلَ إسلامه، وفي هذا الاحتمال بُدٌّ، والله أعلم بحقيقة ذلك. ولم أر من الشارحين لهذا الحديث من يُنبّه لهذا التعارض، ولا لهذا التأويل.

(٥٩) ومن بـــاب: فضائل جرير بن عبد الله البجلي ـ رضي الله عنه ـ

نسبه وصفاته وإسلامه

وبجيلة من ولد أنمار بن نزار بن معدٍّ بن عدنانٍ. واختلف في بجيلة؛ هل هو أب، أو أمٌّ نُسِبت القبيلةُ إليها. وجرير هذا: هو سيِّدُ بجيلة، ويُكنى: أبا عمرو، وقال له عمر ـ رضي الله عنه ـ: ما زلتَ سيداً في الجاهلية والإسلام، وقال فيه

وفي روايةٍ: إلّا تبسَّم في وجهي، ولقد شكوت إليه أني لا أثبتُ على الخيل؛ فضرب بيده في صدري وقال: «اللهم! ثبِّته، واجعله هَادِياً مهديّاً».

رواه البخاريُّ (٤٣٥٦)، ومسلم (٢٤٧٥) (١٣٤ و ١٣٥).

رسولُ الله ﷺ حين أقبل وافِداً: «يطلعُ عليكم خيرُ ذي يمنٍ، كأنَّ على وجهه مسحةُ مَلَك» فطلع جرير[١]. وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول فيه: جرير بن عبد الله يوسف هذه الأمَّة، وفيه قال رسولُ الله ﷺ: «إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه»[٢]. أسلم قبل موت النبيِّ ﷺ بأربعين يوماً، نزل جرير الكوفة بعد موت النبيِّ ﷺ واتَّخذ بها داراً، ثم تحوَّل إلى قرقيسيا، ومات بها سنة أربع وخمسين، وقيل: سنة إحدى وخمسين، وقيل: مات بالسَّراة في ولاية الضحَّاك بن قيس على الكوفة لمعاوية. روى عن رسول الله ﷺ مئة حديث، أخرج له في الصحيحين خمسة عشر حديثاً.

رواياته عن رسول الله ﷺ

و (قوله: ما حجبني رسولُ الله ﷺ منذ أسلمت) يعني: أنه ﷺ ما كان يحتجبُ منه، بل بنفس ما يعلم النبيُّ ﷺ باستئذانه ترك كلَّ ما يكون فيه، وأذن له[٣]، مبادراً لذلك مبالغةً في إكرامه، ولا يفهم مِن هذا أن جريراً كان يدخلُ على النبيِّ ﷺ بيته من غير إذن؛ فإن ذلك لا يصحُّ لحرمة بيت النبيِّ ﷺ ولما يقضي ذلك إليه من الاطلاع على ما لا يجوز، من عورات البيوت.

إكرامه ﷺ لجرير

و (قوله: ولا رآني إلا ضحك في وجهي) هذا منه ﷺ فَرَح به، وبشاشة للقائه، وإعجابٌ برؤيته؛ فإنه كان من كملة الرجال خَلْقاً، وخُلُقاً.

جرير من كملة الرجال

و (قوله: وكنت لا أثبتُ على الخيل) يعني: أنه كان يسقط، أو يخاف

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٦٠ ـ ٣٦٤)، والحميدي في مسنده (٨٠٠).

(٢) رواه الحاكم (٤/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).

(٣) أي: بمجرد ما يعلم ﷺ استئذان جرير، يترك كلَّ شيء، ويأذن له فوراً، ويستقبله.

[٢٣٨٥] وعنه؛ قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «يا جريرُ! ألا تُريحُني من ذي الْخَلَصَةِ؟ ـ بيت لخثعم كان يدعى كعبة اليمانية ـ، وفي روايةٍ: الكعبة الشَّاميَّة». قال: فنفرتُ في خمسين ومئةِ فارسٍ، وكنتُ لا أثبتُ على الخيل، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فضرب يده في صدري فقال: «اللهم ثَبِّتْه، واجعله هادياً مهدياً». قال: فانطلق فحرَّقَها بالنَّار، ثم بعث جريرٌ إلى رسول الله ﷺ رجُلاً يُبشِّره. يُكْنَى أبا أرْطاةَ، ـ منَّا ـ فأتى رسولَ الله ﷺ فقال له: ما جئتُك حتى تَركْناها كأنَّها جَمَلٌ أجرَبُ، فبرَّك رسولُ الله ﷺ على خيل أَحْمَسَ ورجالِها ـ خمس مرّاتٍ ـ.

وفي أخرى: قال: فدعا لنا ولأَحْمَسَ.

رواه مسلم (٢٤٧٦) (١٣٧).

* * *

دعاؤه ﷺ لجرير

السُّقوط مِن على ظهورها حالةَ إجرائها، فدعا له النبيُّ ﷺ بأكثر مما طلب بالثبوت مطلقاً، وبأن يجعله هادياً لغيره ومهدياً في نفسه. فكان كلُّ ذلك، وظهر عليه جميعُ ما دعا له به، وأوّل ذلك: أنه نفر في خمسين ومئة فارسٍ لذي الخلصة فحرقها، وعمل فيها عملاً لا يعمله خمسةُ آلاف، وبعثه رسولُ الله ﷺ لذي الكلاع، وذي رُعَيْن، وله المقامات المشهورة. وذو الخَلَصة ـ بفتح اللام ـ: بيت بَنَتْه خثعم تعظمه، وتطوف به، وتنحر عنده، تشبهه ببيت مكة، وتسمِّيه العرب[١]: الكعبة اليمانية والشامية[٢]، وقد كانت العرب فعلت مثلَ هذا بيوتاً كثيرة، قد تقدَّم

ذو الخلصة

(١) ساقطة من (ز).

(٢) جاء في اللسان أن ذا الخَلَصة كان يسمى بالكعبة اليمانية التي كانت باليمن. وقال النووي في شرح صحيح مسلم: في الكلام إيهام، والمراد أنَّ ذا الخَلَصة كانوا يسمُّونها الكعبة اليمانية، وكانت الكعبة الكريمة التي بمكة تُسمَّى الكعبة الشامية، ففرَّقوا بينهما للتمييز.

(٦٠) بـــاب
فضائل عبد الله بن عباسٍ وعبد الله بن عمر

[٢٣٨٦] عن ابن عباسٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أتى الخلاء، فوضعتُ له

ذكرها، فأمر النبيُّ ﷺ بهدمها كلِّها، وتحريقها، فكان ذلك، ومحا اللَّهُ الباطل، وأحقَّ الحقَّ بكلماته.

(٦٠) ومن بــاب: فضائل عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ

نسبه وولادته ووفاته

ابن عبدالمطلب بن هاشمٍ، يُكنى: أبا العباس. وُلدبالشِّعب. وبنو هاشم محصورون فيه، قبل خروجهم منه بيسير، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، واختلف في سِنِّه، يوم[١] موت النبي، فقيل: عشر سنين، وقيل: خمس عشرة، رواه سعيد بن جُبير عنه، وقيل: كان ابنَ ثلاث عشرة سنة، وقال ابن عباس: إنه كان في حَجَّة الوداع قد ناهز الاحتلام، ومات عبدُ الله بالطائف سنة ثمان وستين في أيام ابن الزبير؛ لأنه أخرجه من مكة، وتوفي ابنُ عباس وهو ابنُ سبعين سنة، وقيل: ابن إحدى وسبعين، وقيل: ابن أربع وسبعين، وصلى عليه محمد ابن الحنفية، وقال: اليوم مات ربانيُّ هذه الأمَّة، وضَرَب على قبره فسطاطاً، ويروى عن مجاهد عنه أنه قال: رأيتُ جبريلَ عند النبيِّ ﷺ مرَّتين، ودعا لي رسول الله ﷺ بالحكمة مرتين، وقال ابنُ مسعود ـ رضي الله عنه ـ فيه: نِعْمَ ترجمانُ القرآن ابنُ عباس، وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يقول: فتى الكهول، لسانٌ سؤول، وقلبٌ عقول. وقال مسروق: كنتُ إذا رأيتُ ابنَ عباس قلت: أجمل الناس. وإذا تكلَّم قلت: أفصح الناس، وإذا تحدَّث قلت: أعلم الناس، وكان يسمى البحر: لغزارة علمه، والحبر: لاتساع حفظه، ونفوذ فهمه، وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يُقرِّبه، ويُدنيه لجودة فهمه،

ميزاته وشمائله

---

(١) في (ز): وقت، وفي (م ٤): قبل.

وَضُوءاً، فلمَّا خرج قال: «مَنْ وضع هذا؟» قالوا: ابن عباسٍ. قال: «اللهُمَّ فقِّهْه».

رواه أحمد (١/ ٣٢٧)، والبخاريُّ (١٤٣)، ومسلم (٢٤٧٧).

جملة مروياته عنه ﷺ

وحسن تأنِّيه، وجملة ما روى عن رسول الله ﷺ ألف حديث وستمئة وستين، أخرج له في الصحيحين متنا حديث وأربعة وثلاثون حديثاً.

دعاؤه ﷺ لابن عباس

و (قوله ﷺ: «اللهم فقهه») هنا انتهى حديثُ مسلم، وقال البخاري: «اللهم فقِّهه في الدين»، وفي رواية قال: ضمني رسولُ الله ﷺ وقال: «اللهم علمه الكتاب»[١]، قال أبو عمر: وفي بعض الروايات: «اللهم فقهه في الدين وعلِّمه التأويل»[٢]. قال: وفي حديث آخر: «اللهم بارك فيه وانشر منه، واجعله من عبادك الصالحين»[٣]، وفي حديث آخر: «اللهم زِدْه عِلْماً وفِقْهاً»[٤]. قال: وكلها حديث صحيح.

ظهور بركاته ﷺ على ابن عباس

قلـتُ: وقد ظهرتْ عليه بركاتُ هذه الدَّعوات، فاشتهرت علومه وفضائله، وعمّت خيراتُه وفواضله، فارتحل طلابُ العلم إليه، وازدحموا عليه، ورجعوا عند اختلافهم لقوله، وعوّلوا على نظره ورأيه. قال يزيد بن الأصم: خرج معاوية حاجاً معه ابن عباس فكان لمعاوية موكب، ولابن عباس موكب ممَّن يطلبُ العلم. وقال عمرو بن دينار: ما رأيتُ مجلساً أجمعَ لكل خيرٍ من مجلس ابن عباس، الحلال، والحرام، والعربية، والأنساب، والشعر. وقال عبيد الله بن عبد الله: ما رأيت أحداً كان أعلم بالسنة ولا أجلّ رأياً، ولا أثقب نظراً من ابن عباس

---

(١) رواه البخاري (٧٥).
(٢) رواه أحمد (١/ ٣٢٨ و ٣٣٥).
(٣) رواه الحاكم (١/ ٤٠٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣١٥).
(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٣٨)، والحلية (١/ ٣١٤ و ٣١٥).

. . . .

ـ رضي الله عنه ـ. ولقد كان عمر ـ رضي الله عنه ـ يعدّه للمعضلات مع اجتهاد عمر ونظره للمسلمين، وكان قد عمي في آخر عمره، فأنشد في ذلك:

إن يأخذِ اللَّهُ مِنْ عينيَّ نُورَهُما فَفِي لِسانِي وقَلْبي مِنْهُما نُورُ
قَلْبي ذَكِيٌّ وعَقْلي غيْرُ ذِي دَخَلٍ وفي فَمي صَارِمٌ كَالسَّيْفِ مَأْثُورُ

وروي أن طائراً[١] أبيض خرج من قبره، فتأوَّلوه: علمه خرج إلى الناس، ويقال: بل دخل قبرَه طائرٌ أبيض، فقيل: إنه بصره في التأويل، وقال أبو الزبير: مات ابنُ عباس بالطائف، فجاء طائرٌ أبيض فدخل في نعشه حين حُمل، فما رُؤي خارجاً منه، وفضائله أكثر من أن تحصى.

عبدالله بن عمر: نسبه، إسلامه، هجرته، مشاهده

وأما عبدالله بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ، ويكنى: أبا عبدالرحمن، فإنه أسلم صغيراً لم يبلغ الحلم مع أبيه، وهاجر إلى المدينة قبل أبيه، وأول مشاهده: الخندق. لم يشهد بدراً، ولا أُحُداً لصغره؛ فإنه عُرض على رسول الله ﷺ يوم أُحُد، وهو ابنُ أربع عشرة سنة فلم يجزه، وأجازه يوم الخندق، وهذا هو الصحيح إن شاء الله تعالى، وشهد الحديبية، وبايع رسولَ الله ﷺ وقيل: إنه أولُ من بايع، وكان مِن أهل العلم والورع، وكان كثير الاتّباع لرسول الله ﷺ شديد التحري والاحتياط، والتوقي في فتواه، وكان لا يتخلَّفُ عن السرايا على عهد رسول الله ﷺ. ثم كان بعد موته ﷺ مُولَعاً بالحجِّ، وكان من أعلم النَّاس بمناسكه، وكان قد أشكلتْ عليه حروبُ عليٍّ لورعه، فقعدَ عنه، وندم على ذلك حين حضرته الوفاة، روي عنه من أوجهٍ أنه قال: ما آسى[٢] على شيءٍ فاتني إلا تركي لقتال الفئة الباغية مع عليِّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ. وقال جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ: ما منا أحد إلا مالت له الدنيا، ومال إليها ما خلا عمر

فَضْله

(١) ليست في (ز).
(٢) في (ز): أسفي.

[٢٣٨٧] وعن ابن عمر، قال: رأيتُ في المنام كأنَّ في يدي قطعةَ إستبرقٍ، وليس مكانٌ أريد من الجنة إلا طارت إليه. قال: فقصصتُهُ على حفصةَ، فقصَّتْهُ حفصةُ على النَّبيِّ ﷺ. فقال النَّبيُّ ﷺ: «أرى عبد الله رجلاً صالحاً».

رواه مسلم (٢٤٧٨).

وابنه عبد الله. وقال ميمون بن مهران: ما رأينا أورع من ابن عمر، ولا أعلم من ابن عباس. وروى ابن وهبٍ عن مالك قال: بلغ عبدُ الله بن عمر ستاً وثمانين سنة، وأفتى في الإسلام ستين سنة، ونشر نافعٌ عنه علماً جمّاً، وروى ابنُ الماجشون: أن مروان بن الحكم دخل في نفرٍ على عبد الله بن عمر بعدما قُتِل عثمان ـ رضي الله عنه ـ فعزموا عليه أن يبايعوه. قال: كيف لي بالناس؟ قال: تقاتلهم، فقال: والله! لو اجتمع عليَّ أهل الأرض إلا أهل فدك، ما قاتلتهم، قال: فخرجوا من عنده ومروان يقول:

إنِّـي أَرَى فِتْنَـةً تَغْلـي مَـرَاجِلُهـا ... والمُلْكُ بَعْدَ أَبِي لَيْلى[1] لِمَنْ غَلَبا

وفاة عبد الله بن عمر

مات ابنُ عمر بمكة سنة ثلاث وسبعين، وذلك بعد قتل ابن الزبير بثلاثة أشهر، أو نحوها، وقيل: ستة أشهر، ودُفِن بذي طوى في مقبرة المهاجرين، وكان سببُ موته: أن الحجاجَ أمر رجلاً فسمَّ زُجَّ رمحه فزحمه، فوضع الزّجّ في ظهر قدمه، فمرض منها فمات ـ رحمه الله ـ حكاه أبو عمر، وجملةُ ما روى عن

جملة مروياته عن رسول الله

رسول الله ﷺ ألفا حديث، وستمئة وثلاثون حديثاً، أخرج له منها في الصحيحين مئة حديث وثمانون.

و (قوله: رأيت في المنام كأنَّ في يدي قطعة إستبرق) قد تقدَّم الكلامُ أن الإستبرق: ما غلظ من الدِّيباج، وكأن هذه القطعةَ مثالٌ لعمل صالحٍ يعمله يتقرَّبُ

---

(١) «أبو ليلى»: هو معاوية بن يزيد بن معاوية. تاريخ الطبري (٥/ ٥٠٠).

[٢٣٨٨] وعنه؛ قال: كان الرَّجلُ في حياة رسول الله ﷺ، إذا رأى رؤيا، قصَّها على رسول الله ﷺ، فتمنَّيتُ أن أرى رؤيا أقصُّها على النَّبيِّ ﷺ. قال: وكنت غلاماً شاباً عَزَباً، وكنتُ أنامُ في المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فرأيتُ في النَّوم كأنَّ ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النَّار، فإذا هي مطويَّةٌ كطيِّ البئر، وإذا لها قرنان كقرني البئر، وإذا فيها ناسٌ قد عرفتُهُم، فجعلتُ أقول: أعوذ بالله من النَّار! أعوذ بالله من النَّار! أعوذ بالله من النار! قال: فلقيهما مَلَكٌ فقال لي: لَمْ تُرَعْ، فقصصتُها على حفصة، فقصّتها حفصة على رسول الله ﷺ. فقال النَّبيُّ ﷺ: «نعم الرَّجُلُ عبدُ الله لو كان يَقُومُ من الليل». فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً.

رواه أحمد (٢/١٤٦)، والبخاريُّ (١١٢١)، ومسلم (٢٤٧٩)، وابن ماجه (٣٩١٩).

* * *

به إلى الله تعالى، ويقدِّمه بين يديه: يرشده ثوابه إلى أي موضع شاء من الجنة، ولذلك قال له النبيُّ ﷺ: «أرى عبدَ الله رجلاً صالحاً» وهذه شهادةٌ من النبيِّ ﷺ لعبد الله بالصَّلاح. ووجدتُ بخطِّ شيخنا أبي الصبر أيوب مقيداً: أرى ـ بفتح الراء والهمزة ـ فيكون مبنياً للفاعل، ويكون من رؤية القلب، فيكون علماً. ويجوزُ أن يكون همزتُه مضمومةً، فتكون ظناً صادقاً؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ معصومٌ في ظنِّه كما هو في علمه.

شهادته ﷺ لابن عمر بالصلاح

و (قوله: وكنت شاباً عَزَباً أنامُ في المسجد) دليلٌ على جواز النوم في المسجد لمن احتاجَ إلى ذلك. والقرنان: منارتان تُبنيان على جانبي البئر، يُجعل عليها الخشبةُ التي تعلق عليها البكرة. والبئر: المطوية بالحجارة، وهي الرسُّ أيضاً، فإن لم تُطو: فهي القليبُ والركي. ولم ترع: أي لم تفزع، والروع: الفزع، وإنما

(٦١) بـــاب

فضائل أنس بن مالك

[٢٣٨٩] عن أمّ سُليم: أنَّها قالت: يا رسول الله! خادِمُك أنس؛ ادعُ

فهم النبيّ ﷺ من رؤية عبد الله للنار، أنه ممدوح؛ لأنَّه عُرِض على النار، ثم عوفي منها، وقيل له: لا روع عليك، وهذا إنما هو لصلاحه، وما هو عليه من الخير، غير أنه لم يكن يقومُ من الليل، إذ لو كان ذلك ما عُرِض على النار ولا رآها، ثم: إنه حصل لعبد الله ـ رضي الله عنه ـ من تلك الرؤية يقينُ مشاهدةِ النار والاحتراز منها، والتنبيه على أن قيامَ الليل ممَّا يُتَّقى به النار، ولذلك لم يتركْ قيامَ الليل بعد ذلك ـ رضي الله عنه ـ.

تهجّد ابن عمر رضي الله عنه

(٦١) ومن بـــاب: فضائل أنس بن مالك بن النضر ـ رضي الله عنه ـ

نسبه وكنيته

ابن ضمضم بن زيد النّجاري، خادم رسول الله ﷺ يُكنى: أبا حمزة، يُروى عنه أنه قال: كنَّاني رسولُ الله ﷺ ببقلةٍ كنت أجتنيها[1]. وأمه: أم سليم بنت ملحان. كان سِنُّ أنس لما قدم النبيُّ ﷺ المدينة عشرَ سنين، وقيل: ثماني سنين، وتوفي رسولُ الله ﷺ وأنسٌ ابن عشرين سنة، وشهد بدراً، وتوفي في قصره بالطفِّ على فرسخين من البصرة سنة إحدى وتسعين، وقيل: ثلاث وتسعين، وقيل: سنة اثنتين وتسعين، قال أبو عمر: وهو آخر من مات بالبصرة من أصحاب رسول الله ﷺ وما أعلم أحداً فمن مات بعده ممن رأى رسولَ الله ﷺ إلا أبا الطفيل. واختلف في سِنِّ أنس يوم توفي، فقيل: مئة سنة إلا سنة واحدة، وقيل: إنه ولد له ثمانون ولداً؛ منهم: ثمانية وسبعون ذكراً وابنتان، وتوفي قبله من ولده لصلبه وولد ولده نحو المئة؛ وكلُّ ذلك من تعميره وكثرة نسله ببركة دعوة

وفاته

أنس آخر مَن مات بالبصرة من الصحابة

---

(١) رواه الترمذي (٣٨٢٩).

الله له! فقال: «اللهم أكثر ماله وولده، وبارِكْ له فيما أعطيته».

رواه البخاريُّ (٦٣٧٨)، ومسلم (٢٤٨٠) (١٤١)، والترمذي (٣٨٢٩).

[٢٣٩٠] وعن أنسٍ، قال: جاءت بي أمِّي: أمُّ أنسٍ إلى رسول الله ﷺ، وقد أَزَّرَتْني بنصف خمارِها وردَّتْني بنصفه، فقالت: يا رسول الله! هذا أُنيس، ابني؛ أتيت به يخدمُك؛ فادعُ الله له، فقال: «اللهمّ أكثر ماله وولده». قال أنس: فوالله إنَّ مالي لكثيرٌ، وإنَّ ولدي وولد ولدي ليتعَادُّون على نحو المئة اليومَ.

وفي روايةٍ: فدعا لي ثلاث دعوات. قد رأيت منها اثنتين في الدنيا، وأنا أرجو الثالثة في الآخرة.

رواه أحمد (٣/ ١٩٤)، ومسلم (٢٤٨١)(١٤٣) و (١٤٤).

النبيِّ ﷺ كما يأتي في الأم، وجملة ما روى عن رسول الله ﷺ من الحديث: ألفا حديث ومئتا حديث، وستة وثمانون حديثاً، أخرج له في الصَّحيحين ثلاثمئة حديث، وثمانية عشر حديثاً.

جملة مروياته عن رسول الله

وفي الصحابة رجلٌ آخر اسمه أنس بن مالك، ويُكْنى: أبا أمية القشيري، وقيل: الكعبي، وكعب أخو قشير، ولم يسندْ عن النبيِّ ﷺ سوى قوله: «إن الله وضع عن المسافر الصومَ وشطر الصلاة»[1]. وقيل: روى ثلاثةَ أحاديث لم يقعْ له في الصَّحيحين شيءٌ.

---

(١) رواه أبو داود (٢٤٠٨)، والترمذي (٧١٥)، والنسائي (٤/ ١٨٠ ـ ١٨٢)، وابن ماجه (١٦٦٧).

[٢٣٩١] وعن أنسٍ، قال: أتى عليَّ رسول الله ﷺ وأنا ألعبُ مع الغِلْمان. قال: فسلَّم علينا، فبعثني إلى حاجةٍ، فأبطأت على أمِّي، فلما

إباحة الاستكثار من المال والولد

و (قوله ﷺ: «اللهم أكثرْ مالَه وولده») يدلُّ على إباحة الاستكثار من المال، والولد، والعيال، لكن إذا لم يشغلْ ذلك عن الله تعالى، ولا عن القيام بحقوقه، لكن: لما كانت سلامةُ الدين مع ذلك بادرة، والفتن والآفات غالية، تعيَّن التقلُّلُ من ذلك الفِرار مما هنالك، ولولا دعوةُ النبيِّ ﷺ لأنس ـ رضي الله عنه ـ بالبركة لخيفَ عليه من الإكثار الهلكة، ألَا ترى: أن اللَّهَ تعالى قد حذَّرنا من آفات الأموال، والأولاد، ونبَّه على المفاسد الناشئة من ذلك فقال: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وصدَّر الكلامَ بإنما الحاصرة المحققة، فكأنه قال: لا تكون الأموالُ والأولادُ إلاّ فتنة، يعني: في الغالب. ثم قال بعد[1] ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، ووجهُ عداوتهما: أن محبَّتهما موجبةٌ لانصراف القلوب إليهما، والسعي في تحصيل أغراضهما، واشتغالهما بما غلب عليهما من ذلك عما يجبُ عليهما من حقوق الله تعالى، ومع غلبة ذلك تذهبُ الأديان، ويعمُّ الخسران، فأيُّ عداوةٍ أعظمُ من عداوة ممن يدمِّر دينك هذا الدمار، ويورثك عقوبة النار؟! ولذلك قال تعالى، وهو أصدق القائلين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال أربابُ القلوب والفهوم: ما يشغلك من أهلٍ ومالٍ، فهو عليك مشؤوم.

عدم التضييق على الصغار

و (قول أنس ـ رضي الله عنه ـ: أتى عليَّ رسولُ الله ﷺ وأنا ألعبُ مع الغلمان) دليلٌ على: تخلية الصِّغار ودواعيهم من اللعب والانبساط، ولا نُضيِّق عليهم بالمنع ممَّا لا مفسدةَ فيه.

السلام على الصبيان

و (قوله: فسلَّم علينا) فيه دليلٌ: على مشروعية السَّلام على الصِّبيان،

---

(١) كذا في الأصول، والصحيح أن هذه الآية قبل تلك التي ذكرها أولاً.

جئتُ قالت: ما حبسك؟ قلت: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة! قالت: ما حاجته؟ قلتُ: إنها سرٌّ. قالت: لا تُحدِّثَنَّ بسرِّ رسول الله ﷺ أحداً! قال أنسٌ: والله! لو حَدَّثتُ به أحداً لحدثتُك به يا ثابت!.

رواه أحمد (٣/ ١٠٩)، ومسلم (٢٤٨٢) (١٤٥).

* * *

(٦٢) بـــاب
فضائل عبد الله بن سلاَم

[٢٣٩٢] عن سعدِ بن أبي وقَّاصٍ قال: ما سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لِحَيٍّ يمشي: إنَّه في الجنة، إلا لعبدِ الله بن سلامٍ.

رواه أحمـــد (١/ ١٦٩)، والبخـــاريُّ (٣٨١٢)، ومسلـــم (٢٤٨٣) (١٤٧).

وفائدته: تعليمهم السلام، وتمرينهم على فِعْله، وإفشاؤه في الصِّغار كما يُفْشَى في الكبار. وكتمانُ أنس سرَّ رسول الله ﷺ عن أمه دليلٌ: على كمال عقله، وفضله، وعلمه مع صغر سِنِّه، وذلك فَضْلُ الله يُؤتيه من يشاء.

(٦٢) ومن بـــاب: فضائل عبد الله بن سلام

نسبه وإسلامه ووفاته

ابن الحارث الإسرائيليِّ ثم الأنصاريِّ، وهو من ولد يوسف بن يعقوب، وكان اسمُه في الجاهلية: الحصين، فسمّاه رسولُ الله ﷺ عبد الله، وتوفِّي في خلافة معاوية سنة ثلاث وأربعين، أسلم إذ قدم النبيُّ ﷺ المدينة، وجملة ما روى عن رسول الله ﷺ خمسة وعشرون حديثاً. أخرج له في الصَّحيحين حديثان، وقد تقدم اختلافُ اللغويين في: حَلَقة؛ هل يقال بسكون اللام، أو بفتحها.

[٢٣٩٣] عن خَرَشة بن الحرَّةِ قال: كنتُ جالساً في حَلَقةٍ في مسجد المدينة. قال: وفيها شيخٌ حسنُ الهيئة، وهو عبدُ الله بنُ سلامٍ. قال: فجعل يحدِّثُهم حديثاً حسناً. قال: فلمَّا قام؛ قال القوم: من سرَّه أن ينظر إلى رجلٍ من أهل الجنَّة فلينظرْ إلى هذا! قال: فقلتُ: واللَّه! لأَتْبَعنَّه فلأعلمنَّ مكان بيته! قال: فتَبِعْتُه، فانطلق حتى كاد أن يخرج من المدينة، ثم دخل منزله. قال: فاستأذنتُ عليه فأذِنَ لي، فقال: ما حاجَتُك يا بن أخي؟ قال: فقلت له: سمعتُ القوم يقولون لك لمَّا قُمْتَ: من سرَّه أن ينظر إلى رجلٍ من أهل الجنَّة فلينظرْ إلى هذا، فأعجبني أنْ أكونَ معك! قال: الله أعلمُ بأهل الجنَّة، وسأحدثك ممَّ قالوا ذلك: إنِّي بينما أنا نائم إذ أتاني رجلٌ فقال لي: قُمْ، فأخذ بيدي، فانطلقتُ معه. قال: فإذا أنا بِجَوادَّ عن شِمَالي. قال: فأخذتُ لآخذ فيها؛ فقال لي: لا تأخذْ فيها فإنَّها طُرُقُ أصحاب الشِّمال. قال: فإذا جَوادُّ منهجٌ عن يميني. فقال لي: خذ ها هنا، قال: فأتى جبلاً، فقال لي: اصعَدْ. قال: فجعلتُ إذا أردتُ أن أصعد خررتُ على اَسْتِي. قال: حتى فعلتُ ذلك مراراً. قال: ثم انطلق بي حتى أتى بي عموداً؛ رأسُه في السماء وأسفلُه في الأرض، في أعلاه حَلْقَةٌ، فقال لي: اصعدْ فوق هذا. قال: قلتُ: كيف أصعد هذا ورأسه في السماء؟ قال: فأخذ بيدي فزجل بي، قال: فإذا أنا متعلقٌ بالحَلْقة، فضَرَب العمودَ

و (قوله: فإذا جوادُّ منهجٌ) الجوادُّ: جمع جادة مشدّد الدال؛ وهي: الطريق، ومنهج مرفوع على الصفة، أي: جوادُّ ذوات منهج، أي: استقامة ووضوح، والمنهج: الطريق الواضح، وكذلك: المنهاج، والنهج، وأنهج الطريق: أي استبان ووضح، ونهجته أنا: أوضحته، ويقال أيضاً: نهجت الطريقَ إذا سلكته.

و (قوله: فزجلَ بي) تُروى بالجيم، وبالحاء المهملة، فبالجيم: معناه:

فخرَّ قال: وبقيت متعلقاً بالحَلْقَة حتى أصبحتُ فأتيتُ النبيَّ ﷺ، فقصصتها عليه، فقال: «أما الطُّرق التي رأيتَ عن يسارك فهي طرقُ أصحاب الشِّمال»، قال: «وأما الطُّرق التي رأيتَ عن يمينك فهي طرقُ أصحاب اليمين، وأمَّا الجبل فهو منزل الشهداء، ولن تناله، وأمَّا العمود فهو عمودُ الإسلام، وأما العُروةُ فهي عروةُ الإسلام، ولن تزال متمسِّكاً بها حتَّى تموت».

رمى، يقال: لعن الله أمّاً زجلت به، والزجل: إرسال الحمام، والمزجل: المزراق[1]؛ لأنه يُرمى به، فأما زحل: فمعناه تنحَّى وتباعد. يقال: زحل عن مكانه حولاً، وتزحَّل: تنحَّى وتباعد، فهو زَحِلٌ، وزحيل. ورواية الجيم أولى، وأوضح. والعروة: الشيء المتعلَّق به حبلاً كان أو غيره. ومنه: عروة القميص والدلو، وقال بعضُهم: أصلُه من عروته: إذا ألممت به متعلّقاً، واعتراه الهمُّ: تعلَّق به، وقيل: من العروة: وهي شجرةٌ تبقى على الجدب، سُمِّيت بذلك؛ لأن الإبلَ تتعلَّقُ بها إلى زمان الخصب، وتجمع العروة: عُرَى. والوثقى: الوثيقة، أي: القوية التي لا انقطاعَ فيها، ولا ضعف، وقد أضاف العروةَ هنا إلى صفتها فقال: عروة الوثقى، كما قالوا: مسجد الجامع، وصلاة الأولى. وإخباره ﷺ عن عبد الله أنه لا ينالُ الشهادة، وأنه لا يزالُ على الإسلام حتى يموت، خبران عن غيب، وقعا على نحو ما أخبر؛ فإن عبد الله مات بالمدينة ملازماً للأحوال المستقيمة، فكان ذلك مِن دلائل صِدْق رسول الله ﷺ. والنضرة[2] ـ بالضاد

---

(١) «المزراق»: الرمح القصير.

(٢) لم يرد في التلخيص، ولا في الأم كلمة (النضرة) المشروحة هنا، وإنما وردت في الحديث كلمة (خضرتها). ولعلَّ كلمة الخضرة: هي المقصودة هنا؛ لأنَّ من معانيها: النعمة، ولعلَّ ما ورد في المفهم تصحيف.

وذكر أيضاً من حديث قيس بن عبادة نحوه، وهذا أتمُّ إلا أنَّ في حديث قيس قال: رأيتني في روضةٍ. وذكر سعتها، وعشبها، وخضرتها، ووسطَ الروضة عمودٌ من حديدٍ أسفلُه في الأرض، وأعلاه في السَّماء، وفي أعلاه عروةٌ فقيل لي: ارْقَه! فقلت: لا أستطيع! فجاءني مِنْصَفٌ ـ قال ابن عون: والمنصف: الخادم ـ فقال بثيابي من خلفي ـ وصف أنَّه رفعه من خلفه بيده ـ فرقِيْتُ حتى كنت في أعلى العمود، فأخذتُ بالعروة، فقيل لي: استمسك، فقد استيقظتُ وإنَّها لفي يدي فقصصتها على النَّبيِّ ﷺ فقال: «تلك الروضةُ: الإسلامُ، وذلك العمودُ عمودُ الإسلام، وتلك العروةُ عروةُ الوثقى، فأنت على الإسلام حتى تموت».

رواه أحمد (٥/ ٤٥٢)، والبخاريُّ (٣٨١٣)، ومسلم (٢٤٨٤) (١٤٨ و ١٥٠)، وابن ماجه (٣٩٢٠).

* * *

المعجمة ـ: النعمة، وقد تقدم، ووسط: رويناه بفتح السين وسكونها، وقد تقدَّم أنَّ الفتح للاسم، والسكون للظرف، وكلُّ موضع صلح فيه: (بين)، فهو وسْط بالسكون، وإن لم يصلح فيه، فهو بالتحريك. قال الجوهري: وربما سُكِّن. وليس بالوجه. (ورَقِيت)ـ بكسر القاف ـ في الماضي، وفتحها في المضارع، بمعنى صَعِدت وارتفعت. فأما رقَيت ـ بفتح القاف ـ فهو من الرُّقية. والمِنْصف ـ بكسر الميم ـ: الخادم، قاله ابنُ عون. وقال الأصمعي: والجمع مناصف.

* * *

(٦٣) بـــاب
فضائل حسان بن ثابت

[٢٣٩٤] عن أبي هريرة: أنَّ عمر مرَّ بحسانَ وهو يُنشِد الشعر في المسجد، فلَحَظ إليه، فقال: قد كنت أُنشِد وفيه من هو خيرٌ منك! ثم

---

(٦٣) ومن بـــاب: فضائل حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ

نسب حسَّان وكنيته

ابن المنذر بن عمرو بن النجار الأنصاري، يُكنى: أبا الوليد، وقيل: أبا عبد الرحمن، وقيل: أبا الحسام. ويقال له: شاعر رسول الله ﷺ. روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أنها وصفتْ رسولَ الله ﷺ فقالت: كان والله كما قال شاعرُه حسان بن ثابت:

متى يَبْدُ في الدَّاجِي البَهِيم جَبِينُهُ   يَلُحْ مِثْلَ مِصْبَاحِ الدُّجَى المُتَوَقِّدِ
فَمَنْ كَانَ أَوْ مَنْ قَدْ يَكُونُ كَأَحْمَدٍ   نِظَـامٌ لِحَـقٍّ أَوْ نَكَـالٌ لِمُلْحِـدِ[1]

شاعريةُ حسَّان

قال أبو عبيد: فَضَل حسانُ الشعراءَ بثلاث: كان شاعرَ الأنصار في الجاهلية، وشاعرَ النَّبيِّ ﷺ في النبوّة، وشاعرَ اليمن كلِّها في الإسلام. وقال أيضاً: أجمعت العربُ على: أنَّ أشعرَ أهل المدر: حسان بن ثابت. وقال أبو عبيد، وأبو عمرو بن العلاء: حسان أشعر أهل الحضر. وقال الأصمعي: حسان أحدُ فحول الشعراء، فقال له أبو حاتم: تأتي له أشعارٌ ليِّنة! فقال الأصمعي: نُسبت له وليست له، ولا تصح عنه. ورُوي عنه أنه قال: الشعر نَكِدٌ يقوى في الشر ويسهلُ، فإذا دخل في الخير ضعف، هذا حسَّان فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط. وقيل لحسان: لانَ شِعْرُكَ، أو هَرِمَ شِعْرُك في الإسلام يا أبا الحسام! فقال: إن الإسلامَ يحجزُ عن الكذب، يعني: أن الشعر لا يجوِّده إلا الإفراطُ والتزيُّن في الكذب، والإسلامُ قد منع ذلك، فقلَّ ما يَجُود شِعْرُ من يتقي الكذب. وتوفي حسان قبل

وفاةُ حسَّان

---

(١) انظر: أسد الغابة (٢/ ٥)، وديوان حسان (١/ ٤٦٥).

التفت إلى أبي هريرة فقال: أَنْشُدُكَ اللهَ! أسمعتَ رسول الله ﷺ يقول: «أَجِبْ عنِّي، اللهم أيِّده بروح القُدُسِ؟!» قال: اللهم! نعم.

رواه أحمد (٥/ ٢٢٢)، والبخاريُّ (٣٢١٢)، ومسلم (٢٤٨٥) (١٥١)، والنسائي (٢/ ٤٨).

الأربعين في خلافة عليٍّ ـ رضي الله عنهما ـ وقيل: سنة خمسين، وقيل: سنة أربع وخمسين، ولم يختلفوا أنه عاش مئةً وعشرين سنة، منها: ستون في الجاهلية، وستون في الإسلام، وكذلك عاش أبوه وجَدُّه، وأدرك النابغة الذبياني والأعشى، وأنشدهما من شعره، فكلاهما استجاد شعره، وقال: إنك شاعر.

حكم إنشاد الشعر في المسجد

و (قوله: إنَّ عمر مرَّ بحسان وهو ينشدُ الشعرَ في المسجد، فلحظ إليه) أي: أومأ إليه بعينيه: أن اسكت، وهذا يدلُّ على أن عمر ـ رضي الله عنه ـ كان يكرهُ إنشادَ الشعر في المسجد، وكان قد بنى رحبةً خارج المسجد، وقال: من أراد أن يلغط أو ينشد شعراً فليخرجْ إلى هذه الرحبة. وقد اختلف في ذلك، فمن مانع مطلقاً، ومن مُجيز مطلقاً، والأولى التفصيل. وهو أن يُنْظَر إلى الشعر، فإن كان ممَّا يقتضي الثناءَ على الله تعالى أو على رسوله ﷺ أو الذَّبَّ عنهما، كما كان شعر حسان، أو يتضمن الحضَّ على الخير، فهو حسن في المساجد وغيرها، وما لم يكن كذلك لم يجز؛ لأن الشعرَ في الغالب لا يخلو عن الفواحش والكذب، والتَّزيين بالباطل، ولو سلم من ذلك فأقلُّ ما فيه: اللغو، والهذر، والمساجدُ منزَّهةٌ عن ذلك، لقوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ ﴾ [النور: ٣٦]، ولقوله ﷺ: «إنَّ هذه المساجدَ لا يصلحُ فيها شيءٌ من كلام الناس، إنما هي لذكر الله، والصَّلاة، وقراءة القرآن»[١] وقد تقدَّم هذا المعنى.

نصرة حسَّان لرسول الله ﷺ بالشعر

و (قوله ﷺ لحسان: «أجب عني، اللهم أيِّده بروح القدس») إنما قال

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٩١)، ومسلم (٢٨٥) (١٠٠) بلفظ: «إن هذه المساجد لا تصلح =

[٢٣٩٥] وعن البراء بن عازبٍ، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت: «اهْجُهُم ـ أو: هَاجِهِمْ ـ وجبريلُ معك».

رواه أحمد (٤/ ٣٠٢)، والبخاريُّ (٤١٢٣)، ومسلم (٢٤٨٦) (١٥٣).

النبيُّ ﷺ ذلك؛ لأنَّ نفراً من قريش كانوا يهجون النبيَّ ﷺ وأصحابه، منهم: عبد الله بن الزِّبْعرى، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاص، وضرار بن الخطاب، وقيل لعليٍّ: اهجُ عنا القوم الذين يهجوننا، فقال: إن أذنَ لي رسولُ الله ﷺ فعلتُ، فأعلم بذلك رسول الله ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ علياً ليس عنده ما يُراد من ذلك»، ثم قال: «ما يمنع القوم الذين نصروا رسولَ الله أن ينصروه بألسنتهم؟». فقال حسان: أنا لها؟ وأخذ طرف لسانه، وقال: واللّهِ ما يسرُّني به مِقْوَلٌ ما بين بصرى وصنعاء[(١)].

وكان طويلَ اللسان، يضربُ بلسانه أرنبةَ أنفه، وكان له ناصيةٌ يسدلها بين عينيه، فقال رسولُ الله ﷺ: «كيف تهجوهم وأنا منهم؟ وكيف تهجو أبا سفيان، وهو ابنُ عمي؟»، فقال: والله لأسُلَّنَّك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين. فقال: «ائت أبا بكر؛ فإنه أعلمُ بأنساب القومِ منك». فكان يمضي لأبي بكرٍ لِيَقِفَهُ على أنسابهم، وكان يقول: كفَّ عن فلان وفلانة، واذكر فلاناً، وفلانة. فجعل حسان يهجوهم، فلما سمعتْ قريشٌ شعرَ حسان قالوا: إن هذا الشعر ما غاب عنه ابنُ أبي قحافة[(٢)]. فقال حسان:

= لشيء من هذا البول ولا القذر إنما...». وورواه أحمد (٥/ ٤٤٧ و ٤٤٨)، ومسلم (٥٣٧) (٣٣)، والنسائي (١/ ٢٥٩) بلفظ: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس...».

(١) ذكره الأصبهاني في الأغاني (٤/ ١٣٧). و «مقول»: لسان.

(٢) المصدر السابق (٤/ ١٣٨ ـ ١٣٩).

[٢٣٩٦] وعن مسروقٍ، قال: دخلت على عائشة وعندها حسانُ بنُ ثابتٍ يُنْشِدُها شعراً يشبِّب بأبياتٍ له؛ فقال:

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بِرِيْبَةٍ ... وتُصْبِحُ غَرْثَى من لُحُومِ الغوافِلِ

أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ أَنَّ مُحَمَّداً ... هُوَ الغُصْنُ ذُو الأَفْنَانِ لا الوَاحِدُ الْوَغْدُ
ومَالَكَ فِيهِمْ مَحْتِدٌ يَعْرِفُونَهُ ... فَدُونَكَ فَالْصَقْ مِثْلَ مَا لَصِقَ الْقَرْدُ
وإنِ سَنَامَ المَجْدِ فِي آلِ هَاشِمٍ ... بَنُو بِنْتِ مَخْزُومٍ وَوَالِدُكَ الْعَبْدُ
وَمَنْ وَلَدَتْ أَبْنَاءُ زُهْرَةَ مِنْهُمُ ... كِرَامٌ وَلَمْ يَقْرَبْ عَجَائِزَكَ المَجْدُ
وَلَسْتَ كَعَبَّاسٍ وَلا كَابْنِ أُمِّهِ ... وَلٰكِنْ لَئِيمٌ لا يَقُومُ لَهُ زَنْدُ
وَإِنْ امْرَأً كَانَتْ سُمَيَّةُ أُمَّهُ ... وسَمْرَاءَ مَغْمُوزٌ إِذَا بَلَغَ الجَهْدُ
وَأَنْتَ هَجِينٌ نِيطَ فِي آلِ هَاشِمٍ ... كَمَا نِيطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ القَدَحُ الْفَرْدُ

الأفنان: الأغصان، واحدها: فنن. والوغد: الدنيء من الرجال، والمَحْتِد: الأصل. ودونك: ظرف قُصد به الإغراء، والمغرى به محذوف تقديره: فدونك مَحْتِدَكَ فالصق به، والعرب تغري بـ (عليك) و (إليك) و (دونك). وسنام المجد: أرْفَعُه، والمجد: الشرف. قال أبو عمر: بنت مخزوم هي فاطمة بنت عمرو بن عابد بن عمران بن مخزوم، وهي: أم أبي طالب، وعبدالله، والزبير، بني عبد المطلب.

و (قوله: ومن ولدت أبناء زهرة منهم) يعني: حمزة وصفيَّة، أمُّهما: هالة ابنة أُهيب بن عبد مناف بن زهرة، والعباس: هو ابن عبد المطلب، وابن أمه: شقيقه ضرار بن عبد المطلب، أمهما نسيبة: امرأة من النمر بن قاسط. وسميَّة: أم أبي سفيان، وسمراء: أم أبيه. واللؤم: اسم للبخل، ودناءة الأفعال والآباء. والمغموز: المعيب المطعون فيه، والهجين: من كانت أمُّه دنيَّة، والمقرف: من

. . . .

كان أبوه دنياً. ونيط: ألصق وعلق، والقدح: يعني به: قدح الراكب الذي يكون تعليقه بعد إكمال وقر البعير؛ لأنه لا يحفل به. ومنه الحديث: «لا تجعلوني كقدح الراكب»(١).

و (قوله ﷺ: «اللهم أيِّده بروح القدس») أيِّدْه: قوِّه، والأيد: القوة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] أي: بقوة، وروح القدس: هو جبريل ـ عليه السلام ـ، كما قال في الرواية الأخرى: «اهجهم، أو هاجهم، وجبريل معك» أي: بالإلهام، والتذكير، والمعونة.

و (قول حسان:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ وتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الغَوافِلِ)

مدح حَسَّان لعائشة

حصان: عفيفة، وقد تقدَّم القولُ في وجوه الإحصان. ورزان: كاملة الوقار والعقل. يقال: رزن الرجل رزانة، فهو رزين: إذا كان وقوراً، وامرأة رزان. وغرثى: من الغرث، وهو الجوع، يقال: رجل غرثان، وامرأة غرثى، كعطشان وعطشى. والغوافل جمع تكسير غافلة، يعني: أنهن غافلات عمَّا رُمِين به من الفاحشة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النور: ٢٣]، ويعني حَسَّان بهذا البيت: أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ في غاية العفَّة، والنَّزاهة عن أن تُزَنَّ بريبةٍ، أي: تُتَّهم بها. ثم وَصَفها بكمال العقل والوقار، والورع المانع لها من أن تتكلَّم بعرض غافلة، وشبَّهها بالغرثى؛ لأنَّ بعض الغوافل

---

(١) قال السخاوي (ص ٢٢١ ـ ٢٢٢). رواه عبد بن حُميد، والبزار في مسنديهما، وعبد الرزاق في جامعه، وابن أبي عاصم في الصلاة، والتيمي في الترغيب، والطبراني، والبيهقي في الشعب، والضياء، وأبو نعيم في الحلية. ومن طريقه الديلمي. كلهم من طريق موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف. والحديث غريب. وانظره في: جلاء الأفهام (ص ٧٨ ـ ٧٩)، وفي جامع الأصول (٤/ ١٥٥).

فقالت عائشة: لكنَّك لَسْتَ كذلك! قال مسروقٌ: فقلت لها: لِمَ تأذنين له يدخُلُ عليك؛ وقد قال الله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟ [النور: ١١].

فقالت: وأيُّ عذابٍ أشدُّ من العمى، فقالت: إنَّه كان ينافح ـ أو: يُهَاجي ـ عن رسول الله ﷺ.

رواه البخاريُّ (٤٧٥٦)، ومسلم (٢٤٨٨).

قد كان هو آذاها فما تكلَّمتْ فيها، وهي: حَمْنَةُ بنت جحش، فكأنها كانت بحيث تنتصرُ ممن آذاها، بأن تقابِلَها بما يؤذيها، لكن حجزها عن ذلك دينُها، وعقلُها، ووَرَعُها.

تبرئة عائشة لحسّان

و (قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ لحسان ـ رضي الله عنه ـ: لكنَّك لست كذلك) تعني: أنه لم يصبحْ غرثان من لحوم الغوافل، وظاهِرُ هذا الحديث: أنَّ حسان كان ممَّن تكلَّم بالإفك، وقد جاء ذلك نصّاً في حديث الإفك الطويل، الذي يأتي فيه: أن الذين تكلَّموا بالإفك: مسطحٌ، وحسانٌ، وحمنة، وعبد الله[1] بن أُبيّ ابن سلول، غير أنه: قد حكى أبو عمر: أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قد برَّأت حسَّانَ من الفِرية، وقالت: إنه لم يقلْ شيئاً، وقد أنكر حسانُ أن يكون قد قال مِن ذلك شيئاً في البيت الثاني الذي ذكره متصلاً بالبيت المذكور آنفاً، فقال:

فَإنْ كَانَ مَا قَدْ قِيلَ عَنِّي قُلْتُه فَلاَ رَفَعَتْ سَوْطي إِلَيَّ أَنَامِلِي

فيحتمل أن يقال: إنَّ حسان يعني: أن يكونَ قال ذلك نصّاً وتصريحاً، ويكون قد عرَّض بذلك، وأومأ إليه، فنُسِب ذلك إليه، والله أعلم، وقد اختلف الناسُ فيه، هل خاضَ في الإفك أم لا؟ وهل جُلِد الحدَّ أم لا؟ فالله أعلم أيُّ ذلك كان.

و (قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: وأيُّ عذابٍ أشدُّ من العمى؟) ظاهِرُهُ يدلُّ

(١) في (م ٤): عدو الله.

[٢٣٩٧] وعن عائشةَ، قالت: قال حسان: يا رسول الله! ائذن لي في أبي سفيان! قال: «كيف بِقَرابتي منه؟» قال: والذي أكرَمَكَ! لأَسُلَّنَّك منهم كما تُسَلُّ الشعرةُ من العجين. فقال:

وإنَّ سنَامَ المجد مِنْ آلِ هاشمٍ   بَنُو بِنْتِ مَخْزُومٍ ووالِدُكَ العَبْدُ

قصيدته هذه.

رواه مسلم (٢٤٨٩).

[٢٣٩٨] وعنها، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «اهج قريشاً؛ فإنَّه أشدُّ عليها من رشْقٍ بالنَّبْلِ». فأرسل إلى ابن رواحة فقال: اهْجُهُم فهجاهم فلم يُرضِ، فأرسلَ إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسَّانَ بنِ ثابتٍ، فلمَّا

على: أنَّ حسانَ كان ممن تولَّى كِبْره، وهذا بخلاف ما قاله عروة عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: إنَّ الذي تولَّى كِبْره هو عبدُ الله بن أُبيّ ابن سلول، وأنه هو الذي كان يستوشيه، ويجمعه.

و (قول عائشة: قال رسولُ الله ﷺ: «أُهْجُ قريشاً») هكذا وقع في بعض النُّسخ، أُهْجُ: على أنه أمرٌ لواحدٍ، ولم يتقدَّمْ له ذكرٌ فكأنَّه أمرٌ لأحد الشعراء الحاضرين، ووقع في أصل شيخنا أبي الصَّبر أيوب: «اهجوا» بضمير الجماعة، فيكون أمراً لجميع مَن حضر هناك من الشعراء.

و (قوله: «فإنه أشدُّ عليها من رَشْقٍ بالنَّبل») الضمير في (إنه) عائدٌ على الهجو الذي يدلُّ عليه: «أهج قريشاً». وفي (عليها): لقريش، ورَشْق ـ بفتح الراء ـ: وهو الرَّمْيُ، ففيه دليلٌ: على أن الكافِرَ لا حُرْمةَ لعِرْضه، كما أنه لا حرمةَ لماله، ولا لدمه، وأنه يُتَعَرَّضُ لنكايتهم بكلِّ ما يؤلمهم من القول والفعل.

دخل عليه، قال حسان: قد آن لكُمْ أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه، ثم أدلع لسانه، ثم جعل يحرِّكه، فقال: والذي بعثك بالحق؛ لأَفرينَّهم بلساني فَرْيَ الأديم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تَعْجَل، فإنَّ أبا بكرٍ أعلمُ قريشٍ بأنسابها، وإنَّ لي فيهم نسباً، حتى يُلَخِّصَ لك نسبي». فأتاه حسَّان، ثم رجع فقال: يا رسول الله! قد لخَّصَ لي نسَبَك. والذي بعثك بالحقِّ لأسُلَّنَّك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين!.

مدحُ حسَّان لنفسه

و (قوله: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه) هذا من حسان مَدْحٌ لنفسه، شبَّه نفسه بالأسد إذا غضب فحمي، وذلك أنه غضب لهجو قريشٍ للنبيِّ ﷺ واحتدَّ لذلك، واستحضر في ذهنه هجو قريشٍ فتصوَّره وأحسَّ أنه قد أعين على ذلك ببركة دعوة النبي ﷺ، فقال تلك الكلمات، مُظْهِراً لنعمة الله تعالى عليه، وأنه قد أُجيب فيه دعاءُ النبي ﷺ، وليفخرَ بمعونة الله تعالى له على ذلك. وتنزَّلَ هذا الافتخارُ في هذا الموطن منزلةَ افتخار الأبطال في حال القِتال؛ فإنَّهم يمدحُون أنفسهم، ويذكُرون مآثرهم ومناقبهم في تلك الحال نظماً ونثراً، وذلك يدلُّ على ثبوت الجأش، وشَجاعة النَّفْس، وقوة العقل، والصَّبر، وإظهار كل ذلك للعدو، وإغلاظ عليهم، وإرهاب لهم، وكلُّ هذا الافتخار: يُوصِلُ إلى رضا الغفَّار، فلا عتب ولا إنكار.

و (قوله: ثم أدلع لسانه) أي: أخرجه وحرَّكه، كأنَّه كان[1] يعدُّه للإنشاد.

و (قوله: والذي بعثك بالحقِّ لأفرينَّهم بلساني فَرْيَ الأديم) أي: لأمزقَنَّهم بالهجو، كما يُمَزَّقُ الجلدُ بعد الدِّباغ؛ فإنه: يقطع خفافاً ونعالاً، وغير ذلك، وتشبيهُ حسان نفسه بالأسد الضارب بذَنَبه بحضرة النبي ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ وإقرار الكُلِّ عليه: دليلٌ على بطلان قول من نَسَب حسَّانَ إلى الجُبْن، ويتأيَّد هذا بأنَّ حسان لم يزلْ يُهاجي قريشاً وغيرهم من خِيار العرب، ويُهاجونه،

حسان بن ثابت لم يكن جباناً

(١) ليست في (ز).

قالت عائشة: فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إنَّ روح القُدُس لا يزالُ يؤيِّدُك، ما نافحْتَ عن الله ورسوله».

وقالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «هَجاهُم حسانُ فشَفَى واشْتَفَى».

فلم يُعيِّره أحدٌ منهم بالجبن، ولا نَسَبه إليه، والحكاياتُ المنسوبةُ إليه في ذلك أنكرها كثيرٌ من أهل الأخبار، وقيل: إنَّ حسَّانَ أصابه الجبنُ عندما ضربه صفوان ابن المعطَّل بالسيف؛ فكأنه اختلَّ في إدراكه، والله تعالى أعلم.

و (قوله: «إنَّ روح القدس لا يزالُ معك ما نافحتَ عن الله ورسوله») أي: مدَّة منافحتك. والمنافحةُ: المخاصمةُ والمجادلة، وأصلها: الدَّفع. يقال: نفحتِ الناقةُ الحالبَ برجلها، أي: دَفَعَتْهُ. ونفحه بسيفه، أي: ضربه به من بعيد.

و (قوله ﷺ: «هجاهم حسَّانُ فشفى واشتفى») أي: شفى الألم الذي أحدثه هجوهم، واشتفى هو في نفسه، أي: أصاب منهم بثأره شفاءً. وأنشد حسان:

هَجَوْتَ مُحَمَّداً فَأَجَبْتُ عَنْهُ ....

لم يرو مسلم أوَّلَ هذه القصيدة، وقد ذكرها بكمالها ابنُ إسحاق، وذكر أوَّلها:

عَفَتْ ذاتُ الأَصَابِعِ فَالجِوَاءُ إِلَى عَذْرَاءَ مَنْزِلُهَا خَلاَءُ

فلنذكرها على ما ذكرها ابنَ إسحاق ونفسِّر غريبها؛ فإنها قصيدة حسنة مشتملة على فوائد كثيرة.

وقوله: عفت: معناه: درستْ وتغيَّرت، وذات الأصابع والجِواء: موضعان بالشام، وعَذْراء: قرية عند دمشق، وإنما ذكر حسانُ هذه المواضع؛ لأنه كان يَرِدُها كثيراً على ملوك غسان يمدحهم، وكان ذلك قبل الإسلام. وخلا: خالٍ ليس به أحدٌ:

. . . .

دِيَـارٌ مِـنْ بَنـي الحَسْحَاسِ قَفْـرٌ   تُعَفِّيهـا الـرَّوَامِـسُ وَالسَّمـاءُ
وَكَـانَـتْ لا يَـزَالُ بِهَـا أَنِيـسٌ   خِـلاَلَ مُـرُوجِهـا نَعَـمٌ وَشَـاءُ

الدِّيار: المنازل. وبنو الحسحاس: قبائل معروفون، وتعفِّيها: تُغيِّرها. والرواسم: الرِّياح، وسُمِّيت بذلك؛ لأنها ترمس الآثار، أي: تغيّرها، والرمس والرسم: الأثر الخفي. والسماء: المطر. والسماء: كلُّ ما علاك فأظلَّك. خلال: بمعنى بين. ومُروج: جمع مرج، وهو الموضعُ المنبت للعشب المختلف الذي يختلط بعضه ببعضٍ. والنَّعم: الإبل خاصة، والأنعام: يتناول: الإبل، والبقر، والغنم. والشاء: الغنم:

فَـدَعْ هٰـذَا وَلٰكِـنْ مَـنْ لِطَيْـفٍ   يُـؤَرِّقُنِـي إذَا ذَهَـبَ الْعِشَـاءُ

الطَّيف: ما يراه النائمُ في منامه، وهو في الأصل مصدر: طاف الخيال، يطوف طيفاً، ولم يقولوا في هذا طائِف في اسم الفاعل، قال السُّهيليُّ: لأنه تخيُّل لا حقيقةَ له، فأما قوله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [القلم: ١٩]، فلا يقال: فيه طيف؛ لأنه اسم فاعل حقيقة، ويقال: إنَّه جبريل، فأما قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فمن قرأه (طائف) اسم فاعل؛ فإنه أراد به الشَّيطان نفسه، ومن قرأه (طيف) أراد به تخيُّلَه ووسواسه، وهي لا حقيقةَ لها. ويُؤرِّقُني: يسهرني. إذا ذهبت العِشاء؛ أي: بعد العشاء في الوقت الذي ينامُ فيه الناس، يعني: أنه يسهرُ لفكرته في الطيف، أو للوعته به كلَّما غمض.

لِشَعْثَـاءَ التِـي قَـدْ تَيَّمَتْـهُ   فَلَيْـسَ لِقَلْبِـهِ مِنْهـا شِفَـاءُ

قيل: إنَّ شعثاءَ هذه: هي ابنةُ كاهنِ امرأةِ حسان، ولدت له ابنته أم فراس. وتيَّمته: ذلَّلته.

كَـأَنَّ سَبِيَّـةً مِـنْ بَيْـتِ رَأْسٍ   يَكُـونُ مِـزَاجَهـا عَسَـلٌ وَمـاءُ

....

السبية: الخمر. وبيت رأس: موضعٌ فيه خمر عالية، وقيل: رأس: رجل خمَّار نُسِبت إليه، ومزاجها: خلطها. وقد جعل الخبر معرفة، والاسم نكرة، وهو عكسُ الأصل، وإنما جاز ذلك؛ لأن عَسَلاً وماءً: اسمان من أسماء الأجناس، فأفاد منكَّره ما يفيد معرَّفه، فكأنهما معرفتان، وخبر كأن: محذوف، تقديره: كأنَّ فيها سبيَّةً مستلذَّة، وهذا إنما اضطر إلى ذلك مَنْ لم يروِ في القصيدة قوله:

عَلَى أَنْيَابِهَا، أَوْ طَعْمُ غَضٌّ ... مِنَ التُّفَّاحِ هَصَّرَهُ الجَنَاءُ

وذلك أنَّ هذا البيتَ لم يقعْ في رواية ابن إسحاق، فمن صحَّ عنده هذا البيت، جعل خبر كأن: على أنيابها، ولم يحتجْ إلى تقدير ذلك المحذوف. والأنياب: هي الأسنانُ التي بين الضَّواحك والرَّباعيات. والغضُّ: الطريُّ، وهصَّره: دلّاه وأدناه. الجناء: أي الاجتناء، وهو بكسر الجيم والمد، والجَنَى ـ بالفتح والقصر ـ: ما يُجتنى من الشجر[1]، قال أبو القاسم السُّهيلي: وهذا البيت موضوع.

إِذَا مَا الأَشْرِبَاتُ ذُكِرْنَ يَوْماً ... فَهُنَّ لِطَيِّبِ الرَّاحِ[2] الفِدَاءُ

الأشربات: جمع أشربة، فشراب الواحد، وجمع قلته المكسر أشربة، وجمع سلامته أشربات. والراح: من أسماء الخمر، واللام هنا: للعهد، أي: الخمر السيئة المتقدمة الذكر.

نُوَلِّيهَا المَلَامَةَ إِنْ أَلَمْنَا ... إِذَا مَا كَانَ مَغْثٌ[3] أَوْ لِحَاءُ
وَنَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكاً ... وَأُسْداً مَا يُنَهْنِهُنَا اللِّقَاءُ

ألمنا: أي أتينا ما نلام عليه. والمَقْتُ: مما يمقت عليه؛ أي: يبغض،

---

(١) في (ز): الثمرة. (٢) في (ز): الريح.
(٣) لم يعثر في كتب اللغة على معنى المغث بما ذهب إليه الشارح. والرواية الصحيحة قطعاً هي: مغث بالغين لا مقت.

....

كالضرب، والأذى. واللحاء: الملاحاة باللسان، يريد إن فَعَلْنا شيئاً من ذلك اعتذرنا بالسكر، وينهنهنا: يضعفنا، ويفزعنا.

عَـدِمْنَـا خَيْلَنَـا إنْ لَـمْ تَـرَوْهَـا تُثِيـرُ النَّقْـعَ مَـوْعِـدُهَـا كَـدَاءُ

يُنَـازِعْـنَ الأَعِنَّـةَ مُصْعِـدَاتٍ[1] عَلَـى أَكْتَـافِهَـا الأَسَـلُ الظِّمَـاءُ

الضمير في (تَرَوْهَا) عائد على الخيل، وإن لم يَجْرِ لها ذكر، لكنها تفسِّرها الحالُ والمشاهدة، وتُثِير: تُحرِّك. والنقع: الغبار، وكداء: التثنية التي بأعلى مكة، وكُدَى ـ بضم الكاف والقصر ـ: تثنية بأسفل مكة، وقد تقدَّم ذكرهما. وينازعن: يجاذبن. والأسل: الرِّماح. والظماء: العطاش. ووصف الرماح بذلك؛ لأنَّ حامليها يريدون أن يطعنوا أعداءهم بها فيرووها من دمائهم. ومُصْعِدات: مرتفعات، ومصغيات: مائلات.

تَظَـلُّ جِيَـادُنَـا مُتَمَطِّـرَاتٍ تُلَطِّمُهُـنَّ بِـالخُمُـرِ النِّسَـاءُ

الجياد: الخيل. متمطرات: يعني بالعرق من الجري، والرواية المشهورة: يطمهنَّ: من اللطم، وهو: الضرب في الخد، ويعني: أن هذه الخيل لكرمهن في أنفسهن، ولعزَّتهن عليهم تبادر النساءُ فيمسحن وجوهَ هذه الخيل بالخُمُر. وكان الخليلُ يروي هذا اللفظ: يطلمهن بتقديم الطاء على اللام، ويجعله بمعنى ينفض، وقال ابنُ دريد: الطلم: ضربك خبز الملـة بيدك لينتفض ما به من الرماد. ورواية مسلمٍ لهذا الحديث: (ثَكِلْتُ بُنَيَّتي) بدل (عدمنا خيلنا). والثكل: فقد الولد. وبُنَيّتي: تصغير بنت. ومعنى صَدْر هذا البيت على الروايتين: الدُّعاء على نفسه إن لم يغز قريشاً. ووقع أيضاً لبعض رواة مسلم: موعدها كداء، ولبعضهم: غايتها بدل موعدها. والمعنى متقارب. ووقع في بعض النسخ مكان موعدها: من كنفي

---

(١) في (ز): مصغيات.

. . . .

كداء على الإقواء[1]، وليس بشيء؛ إذ لا ضرورةَ تحوج إليه مع صحّة الروايات المتقدِّمة، وكنفا كداء: جانباها.

فَـإِمَّـا تُعْـرِضُـو ا عنَّـا اعْتَمَـرْنَـا وَكَـانَ الفَتْـحُ وَانْكَشَـفَ الغِطَـاءُ

هذا يدلُّ على أنَّ حسانَ قال هذه القصيدة قبل يوم الفتح كما قال ابنُ هشام. وظاهِرُه أنَّ ذلك كان في عُمْرة[2] الحديبية حين صدُّوا رسولَ الله ﷺ عن البيت، وقال ابنُ إسحاق: إنَّ حسان قالها في فتح مكة، وفيه بُعْدٌ.

وَإِلَّا فَـاصْبِـرُوا لِجِـلَادِ يَـوْمٍ يُعِـزُّ اللَّـهُ فِيـهِ مَـنْ يَشَـاءُ

هذا من باب إلهام العالم؛ لأن حسان قد علم: أنَّ اللَّهَ قد أعزَّ نبيَّه، وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ. . .﴾ الآية [النور: ٥٥]، وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠] إلى غير ذلك، وقد دلَّ على هذا قوله بعد هذا:

وَجِبْـرِيـلٌ رَسُـولُ اللَّـهِ فِينـا وَرُوحُ القُـدْسِ لَيْـسَ لَـهُ كِفَـاءُ

أي: لا يقاومه أحد، ولا يُماثله. وروح القدس: هو جبريل ـ عليه السلام ـ والقُدُس: الطهارة، وهو معطوف على رسول الله، والكفاء؛ الكفو، وهو المثل:

وَقَـالَ اللَّـهُ قَـدْ أَرْسَلْـتُ عَبْـداً يَقُـولُ الحـقَّ إِنْ نَفَـعَ البَـلَاءُ

أي: الابتلاء، وهو الاختبار، وقد ضمن صدر هذا البيت معنى الابتلاء، ولذلك أشار بقوله: البلاء؛ لأنَّ اللامَ فيه للعهد لا للجنس، فتدبَّره، ورواية مسلم في هذا البيت:

---

(١) «الإقواء»: هو اختلاف حركة الإعراب في القوافي. خزانة الأدب (٤/ ٢٠٠).
(٢) في (م ٤): عام.

....

.... يقـول الحـق ليـس بـه خفـاء

ثم شهد حسَّانُ بتصديقه فقال:

شَهِـدْتُ بِـهِ فَقُـومُـوا صَـدِّقُـوهُ فَقُلْتُـمْ لاَ نَقُـومُ وَلاَ نَشَـاءُ

أي: لا نقوم لتصديقه، ولا نريده، فعاندوا، ولما كان ذلك قال:

وَقَـالَ اللَّـهُ قَـدْ يَسَّـرْتُ جُنْـداً هُـمُ الأَنْصَـارُ عُـرْضَتُهـا اللِّقَـاءُ

أي: قَصْدُها وهمُّها: لقاؤكم، وقتالكم. يعني: أنهم لما ظهر عِنادُهُم، نَصَر اللَّهُ نبيَّه بجند الأنصار، ولم يذكر المهاجرين؛ لأنهم لم يظهرْ لهم أثر إلا عند اجتماعهم بالأنصار، والله تعالى أعلم.

لَنَـا فـي كُـلِّ يَـوْمٍ مِـن مَعَـدٍّ سِبَـابٌ أَوْ قِتَـالٌ أَوْ هِجَـاءُ

هكذا روايةُ ابنِ إسحاق، ويُروى سباء من السَّبي، ومعناه واضح، فالهمزة مكان الباء، والذي في كتاب مسلم: نلاقي كل يومٍ من معدٍّ سباب. ويعني بمعدٍّ: قريشاً، نسبهم لمعدِّ بن عدنان، و (أو) في البيت للتنويع، ويعني بالسُّباب: السَّب نثراً، وبالهجاء: السبَّ نظماً. والله تعالى أعلم. وقد دلَّ عليه قولُه:

فَنُحْكِـمُ بـالقَـوَافـي مَـن هَجَـانـا ونَضْـرِبُ حِيـنَ تَخْتَلِـطُ الـدِّمـاءُ

فنحكم: نمنع، ويعني: أنه يجيبُ الهاجي بأبلغ من هجائه، وأصعب عليه، فيمتنع من العود، ويعني باختلاط الدماء: التحام الحرب، ومخالطة الدماء عند الحرب.

ألا أَبْلِـغْ أَبَـا سُفْيَـانَ عَنِّـي مُغَلْغَلَـةً فَقَـدْ بَـرِحَ الخَفَـاءُ

أبو سفيان هذا: هو ابن الحارث، وهو كان الهاجي أولاً، وقد تقدَّم أنه كان أحدَ الشُّعراء. والمُغَلْغَلة: الرسالة تُحمل من بلد إلى بلد. وبرح الخفاء: أي انْكَشَفَ السِّرُّ، وظهر المضمر، وهو مثل.

قال حسان:

هَجَوْتَ محمَّداً فَأَجَبْتُ عَنْه وَعِنْدَ اللَّه في ذاكَ الجَزاءُ

هَجَوْتَ محمَّداً بـرّاً تقِيّاً رَسُولَ اللَّه شِيمَتُه الوَفاءُ

فَـإِنَّ سُيُـوفَنَـا تَـرَكْتَـكَ عَبْـداً وَعَبْـدُ الـدارِ سَادَ بِهـا[1] الإِمَـاءُ

عبداً: يعني ذليلاً ذلّ العبيد.

هَجَـوْتَ مُحَمَّـداً وَأَجَبْـتُ عَنْـهُ وَعِنْـدَ اللَّـهِ فِـي ذاكَ الْجَـزاءُ

الخطاب لأبي سفيان، ورُوي أن النبيَّ ﷺ لما أنشده هذا البيت قال له: «جزاؤك عند الله الجنة»[2].

هَجَـوْتَ مُحَمَّـداً بَـرّاً حَنِيفـاً رَسُـولَ اللَّـهِ شِيمَتُـهُ الْـوَفَـاءُ

البَرُّ: التَّقي، والحنيف: المائل عن الأديان كلِّها إلى دين إبراهيم. والشِّيمة: السَّجيَّة، والسَّليقة، والخليقة، والجبلَّة كلها: الطبيعة.

و (قوله:

أَتَهْجُـوهُ وَلَسْـتَ لَـهُ بِكُـفْءٍ فَشَـرُّكُمَـا لِخَيْـرِكُمَـا الْفِـدَاءُ)

هذا يتضمَّن الدعاء لإنزال المكاره بأكثر الرجلين شرّاً، وإنزال الخير بأكثرهما خيراً، وعند ذلك يتوجَّه عليه إشكال، وهو أنَّ شرّاً وخيراً هنا للمفاضلة، والمعقول من المفاضلة اشتراكُ المتفاضلين فيما وقعت فيه، واختصاص أحدهما بزيادةٍ فيه، فيلزم منه: أن يكون في النَّبيِّ ﷺ شرٌّ، وهو باطل، فتعيَّن تأويل ذلك، فقال السُّهيلي: إن شرّاً هنا بمعنى أنقص، وحُكي عن سيبويه أنه قال: تقول مررت برجل شر منك، أي: أنقص عن أن تكون مثله، قال السُّهيلي: ونحو منه قوله ﷺ:

---

(١) في (ع) و (م ٤): سادتها.

(٢) انظر: الأغاني (٤/ ١٦٣).

فإنَّ أبي وَوَالِدَهُ وعِرْضي لِعِرْضِ مُحمَّدٍ مِنْكُم وِقَاءُ
عَدِمْنا خَيْلَنا إنْ لم تَرَوْهَا تُثيرُ النَّقْعَ مِنْ كَنَفَيْ كَدَاءِ
يُبَارِينَ الأَعِنَّةَ مُصْعِداتٍ على أكْتَافِها الأَسَلُ الظِّماءُ
تَظَلُّ جِيَادُنا مُتَمَطِّراتٍ تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النِّساءُ
فإنْ أعْرَضتُمو عنَّا اعْتَمَرْنا وكَانَ الفَتْحُ وانْكَشَفَ الغِطَاءُ
وإلا فَاصْبِرُوا لِضرابِ يَوْمٍ يُعِزُّ اللَّهُ فيهِ مَنْ يَشاءُ
وقال الله: قَدْ أرْسَلْتُ عَبْداً يَقُولُ الحقَّ لَيسَ بِهِ خَفَاءُ

«شرُّ صفوف الرِّجال آخرها»[1] يريد نقصان حظِّهم عن حظِّ الصف الأول، ولا يجوزُ أن يريدَ به التفضيلَ في الشرِّ.

قلتُ: وأوضحُ من هذا، وأبعدُ من الاعتراض أن يُقالَ: إنَّ الأصلَ في أفعل ما ذكر، غير أنَّ المعنى الذي يُقصد به المفاضلة فيه قد يكون معنى وجودياً، كما يقال: بياض الثلج أشدُّ من بياض العاج، وقد يكون المعنى توهُّمياً بحسب زعم المخاطب، كما قال تعالى: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [مريم: ٧٥] وذلك أنَّ الكفارَ زعموا: أنَّ المؤمنين شرٌّ منهم، فأُجيبوا بأنْ قيل لهم: ستعلمون باطلَ زعمكم بأن تشاهِدُوا عاقبةَ مَن هو الموصوفُ بالشر، وعلى هذا يخرجُ معنى البيت، فإنهم كانوا يعتقدون في النبيِّ ﷺ شرّاً، فخاطبهم بحسب زعمهم، ودعا على الأشرِّ من الفريقين منهما له، وهو يعنيهم قطعاً، فإنهم هم أهلُ الشر، لكنهم أتاهم بدعاء نَصَف يُسْكِت الظالم، ويُرْضي المظلوم.

وقوله:

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٤٦) (٢٣٠)، وأبو داود (٦٧٨)، والترمذي (٣٣٤)، والنسائي (٢/٩٣).

وقَال اللَّهُ: قَدْ يَسَّرتُ جُنْداً هُمُ الأَنْصارُ عُرْضَتُها اللِّقاءُ
لَنا في كُلِّ يومٍ مِنْ مَعَدٍّ سِبَابٌ أو قِتَالٌ أو هِجاءُ
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ ويَمْدَحُهُ ويَنْصُرُهُ سَواءُ
وجبريلٌ رسولُ الله فينا ورُوحُ القُدْسِ ليسَ له كِفَاءُ

رواه مسلم (٢٤٩٠).

* * *

قال ابنُ قتيبة: يعني بالعِرْض هنا: النفس، فكأنه قال: أبي وجدِّي، ونفسي وقاية لنفس محمدٍ، وقال غيرُه: بل العِرْضُ هنا هو الحرمةُ التي تُنتهك بالسبِّ والغيبة التي قال فيها النبي ﷺ: «إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا»[١].

وقوله:

لِسَانِي صَارِمٌ لا عَيْبَ فِيهِ وَبَحْرِي لا تُكَدِّرُهُ الدِّلاءُ

الصَّارم: السَّيف القاطع، ولا تكدِّره الدِّلاء: أي لا تُغيِّره. وهذا مثلٌ يُضرَبُ للرجل العظيم الحليم القوي؛ الذي لا يُبالي بما يَرِدَ عليه من الأمور، وبهذا البيت كني حسّان: أبا الحسام ـ رضي الله عنه وجازاه خيراً ـ .

* * *

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨) (١٤٧)، وأبو داود (١٩٠٥)، والنسائي (١/ ٢٩٠)، وابن ماجه (٣٠٧٤).

(٦٤) بـــاب
فضائل أبي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ

[٢٣٩٩] عـن أبي هريرة، قال: كنتُ أدعو أمِّي إلى الإسلام وهي مشركةٌ، فدعوتُها يوماً، فأسمَعَتني في رسولِ الله ﷺ ما أكرهُ، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ وأنا أبكي، فقلتُ: يا رسول الله! إنِّي كنتُ أدعو أمِّي إلى الإسلام فتأبى عَلَيَّ، فدعوتُها اليومَ فأسمَعَتْني فيكَ ما أكرهُ، فادعُ اللَّهَ أن يهديَ أمَّ أبي هريرة، فقال رسولُ الله ﷺ: «اللهُمَّ! اهْدِ أمَّ أبي هريرة». فخرجتُ مستبشراً بدعوة نبيِّ الله ﷺ، فلما جئتُ فَصِرْتُ إلى الباب، فإذا هو مُجَافٌ، فسمعتْ أمِّي خَشْفَ قَدَميَّ، فقالتْ: مكَانَكَ يا أبا هريرةَ! وسمعتُ خَضْخَضَةَ الماءِ. قال: فاغتسلَتْ، ولَبِسَتْ درعَها، وعَجِلَتْ عن خِمَارها، ففتحت البابَ، ثم قالتْ: يا أبا هريرة! أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُهُ ورسولُه. قال: فرجعتُ إلى رسولِ الله ﷺ، فأتَيْتُهُ

---

(٦٤) ومن بـــاب: فضائل أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ

اسمه وكنيته اختلف في اسم أبي هريرة، واسم أبيه اختلافاً كثيراً، انتهت أقوالُ النقلة في ذلك إلى ثمانية عشر قولاً، وأشبهُ ما فيها أن يُقال: إنه كان له في الجاهلية اسمان: عبد شمس، وعبد عمرو، وفي الإسلام: عبد الله، وعبد الرحمن بن صخر، وقد اشتهر بكنيته حتى كأنَّه ما له اسمٌ غيرها، فهي أولى به، وكنِّي بأبي هريرة؛ لأنه وَجَد هرَّةً صغيرةً فحملها في كُمِّه، فكنِّي بها وغلب ذلك عليه، وقيل: إنَّ الرسولَ ﷺ كنَّاه بذلك عندما رآه يحملها. **إسلامه ومشاهده وملازمته لرسول الله** أسلم أبو هريرة عام خيبر، وشهدها مع رسول الله ﷺ ثم لازمه، وواظب عليه، رغبةً في العلم، راضياً بشبع بطنه، فكانت يدُه مع يد رسول الله ﷺ وكان يدور معه حيثما دار، فكان يحضر ما لا يحضره غيرُه، **بركة دعائه ﷺ لأبي هريرة** ثم اتفق له أن حصلتْ له بركةُ دعوة النبيِّ ﷺ في الثوب الذي ضمَّه إلى

وأنا أبكِي من الفَرَحِ. قلتُ: يا رسولَ الله! أبشرْ قدِ استجابَ الله دَعْوتَكَ وهدى أمَّ أبي هريرة. فحَمِدَ الله. وقال خيراً. قال: قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ! ادعُ اللَّهَ أن يُحَبِّبَني أنا وأمِّي إلى عبادِه المؤمنين، ويُحَبِّبَهُمْ إلَيْنا. قال: فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ! حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هذا ـ يعني أبا هريرة ـ وأُمَّه إلى عبادِكَ المؤمنين، وحَبِّبْ إليهمُ المؤمنين». فما خُلِقَ مؤمنٌ يَسمعُ بي، ولا يراني إلا أَحَبَّني.

رواه أحمد (٢/ ٣٢٠)، ومسلم (٢٤٩١).

صدره، فكان يحفظُ ما سمعه ولا ينساه، فلا جرم حُفِظ له من الحديث عن رسول الله ﷺ ما لم يُحفظ لأحد من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وذلك خمسة آلاف حديث وثلاثمئة وأربعة وسبعون حديثاً، أخرج له منها في الصحيحين ستمئة وتسعة أحاديث، قال البخاري: روى عنه أكثر من ثمانمئة رجل من بين صحابيٍّ وتابعيٍّ، قال أبو عمر: استعمله عمر على البحرين ثم عزله، ثم أراده على العمل فأبى عليه، ولم يزلْ يسكن المدينة، وبها كانت وفاتُه سنة سبع وخمسين، وقيل: سنة ثمان، وقيل: سنة تسع، وقيل: توفي بالعقيق، وصلى عليه الوليدُ بن عتبة بن أبي سفيان، وكان أميراً يومئذ على المدينة ومروان معزول، وكان ـ رضي الله عنه ـ من عُلماء الصَّحابة وفضلائها، ناشراً للعلم، شديد التواضع والعبادة، عارفاً لنعم الله، شاكراً لها، مُجتهداً في العبادة. كان هو وامرأته، وخادمه يعتقبون الليل أثلاثاً، يصلِّي هذا ثم يُوقظ هذا، ويصلِّي هذا، ثم يوقظ هذا، وكان يقول: نشأتُ يتيماً، وهاجرتُ مسكيناً، وكنتُ أجيراً لبسرة بنت غزوان بطعام بطني، وعقبة رحلي، فكنتُ أخدمُ إذا نزلوا، وأحدو إذا ركبوا، فزوَّجنيها الله، فالحمد لله الذي جعل الدين قواماً، وجعل أبا هريرة إماماً.

توليته على البحرين ووفاته

فَضْله وصفاته

حديث إسلام أمه ليس فيه شيء يُشْكِل.

[٢٤٠٠] وعن عُروة بن الزُّبَيرِ حَدَّثَهُ: أنَّ عائشة قالتْ: أَلَا يُعَجِّبُكَ أبو هريرةَ؟ جاء فجلس جَنْب حُجْرَتِي يحدِّثُ عن النبي ﷺ، يُسْمِعُنِي ذلك، وكنتُ أُسبِّح، فقام قبل أن أَقْضِيَ سُبْحَتي، ولو أَدْرَكْتُه لرَدَدْتُ عليه: إنَّ رسولَ الله ﷺ لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الحديثَ كسَرْدِكُمْ.

رواه أحمد (٦/ ١١٨)، ومسلم (٢٤٩٣)، وأبو داود (٣٦٥٥)، والترمذيُّ (٣٦٣٩).

[٢٤٠١] وقال ابن المسيب: إنَّ أباهريرة قال: يقولون: إنَّ

و (قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ألا يُعَجِّبك) هو بضم الياء وفتح العين وكسر الجيم مُشدَّدة، ومعناه: أَلَا يحملك على التعجب النظر في أمره؟ قالت: هذا مُنكرةً عليه إكثارَهُ من الأحاديث في المجلس الواحد، ولذلك قالت في غير هذه الرواية: إنما كان النَّبيُّ ﷺ يُحدِّث حديثاً لو عدَّه العادُّ لأحصاه. تعني: أنه كان يُحدِّث حديثاً قليلاً، ويُحتمل أن تريدَ بذلك: أنه كان يُحدِّث حديثاً واضحاً مُبيناً، بحيث لو عُدَّتْ كلماتُه أُحصيتْ لقلَّتها، وبيانها، ويدلُّ على صحَّة هذا التأويل قولها: ما كان رسولُ الله ﷺ يسردُ الحديث سردكم هذا. والصَّفْق بالأسواق: التجارة فيها، وقد تقدَّم أنهم كانوا يتواجبون بالأيدي، فيصفق أحدُهما في كفِّ الآخر، فإذا فعلوا ذلك وجب البيع، فسُمِّي البيعُ صَفْقاً بذلك، وقد تقدَّم هذا. والسُّبحة: النافلةُ، وأسبِّحُ: أصلِّي، مأخوذ من التسبيح.

ما كان ﷺ يسرد الحديث سرداً

و (قول أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: يقولون قد أكثر أبو هريرة واللَّهُ المَوْعِدُ) أي: الرجوع إلى الله بحكم الوعد الصَّادق، فيجازي كلّاً على قوله[١] وفعله.

---

(١) في (ز): صدقه.

أبا هريرة قد أكثَر، واللّه المَوْعِدُ. ويقولون: ما بالُ المهاجرين والأنصارِ لا يتحدّثون مِثلَ أحاديثه؟ وسأُخْبِرُكُم عن ذلك: إنّ إخواني من الأنصار كان يَشْغَلُهُم عملُ أَرَضِيهم، وإنِ إخواني من المهاجرين كان يَشْغَلُهُمْ الصَّفْقُ بالأسواقِ، وكنتُ أَلْزَمُ رسولَ الله ﷺ على مِلْءِ بطْنِي، فأشهدُ إذا غابُوا، وأحفظُ إذا نَسُوا، ولقدْ قال رسولُ اللَّهِ ﷺ يوماً: «أيكم يبْسطُ ثوبه فيأخُذُ من حديثي هذا، ثم يَجْمَعُهُ إلى صدره، فإنه لم يَنْسَ شيئاً سَمِعَه؟ فبسطتُ بُرْدَةً عَليَّ حتى فَرَغَ من حديثه، ثم جمعتُها إلى صدري، فما نسيتُ بَعْدَ ذلك شيئاً حدثني به، ولولا آيتانِ أنزلَهُمَا اللَّهُ في كتابه ما حدّثتُ شيئاً أبداً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ...﴾ إلى آخر الآيتين [البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠].

و (قوله: يقولون: ما بالُ المهاجرين والأنصار لا يتحدثون مثل أحاديثه) هذا الإنكارُ خلافُ إنكار عائشة ـ رضي الله عنها ـ فإنها إنما أنكرتْ سردَ الحديث، وهؤلاء أنكروا على أبي هريرة أن يكون أكثرَ الصَّحابة حديثاً، وهذا إنكارُ استبعادٍ وتعجُّب، لا إنكار تهمة، ولا تكذيب لما يعلم من حِفْظه، وعِلْمه، وفَضْله، ولما يعلم أيضاً من فضلهم، ومعرفتهم بحاله، ولذلك بيَّن لهم الموجبَ لكثرة حديثه، وبيَّن أنه شيئان:

الموجِب لكثرة حديث أبي هريرة

أحدهما: أنه لازم النبيَّ ﷺ ما لم يلازموا، فحضر ما لم يحضروا.

والثاني: بركة امتثال ما أرْشَد إليه رسولُ الله ﷺ من بَسْط ثوبه، وضمّه إلى صدره، فكان ذلك سَبَبَ حفْظه، وعدم نسيانه، فقد حصلت لأبي هريرة ولأمه من بركات رسول الله ﷺ وخصائص دعواته، ما لم يحصلْ لغيره، ثم إنَّ أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ لما حَفِظ علماً كثيراً عن رسول الله ﷺ وتحقق أنه وَجَب عليه أن يبلِّغه غيره، ووجد من يقبل عنه، ومن له رغبة في ذلك، تفرَّغ لذلك مخافة

وفي روايةٍ: إنكم تقولون: إنَّ أبا هريرة يكثرُ الحديثَ عن رسول الله ﷺ.

رواه أحمد (٦/ ١٣٨)، والبخاريُّ (٣٥٦٨)، ومسلم (٢٤٩٢)، وأبو داود (٤٨٣٩)، والترمذيُّ (٣٦٣٩).

* * *

(٦٥) بـاب
قصة حاطب بن أبي بَلْتَعَة
وفضل أهل بدر وأصحاب الشجرة

[٢٤٠٢] عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ، قال: بعثَنا رسولُ الله ﷺ أنا، والزُّبيْرَ، والمِقْدَادَ، فقال: «ائتوا رَوْضَةَ خاخٍ؛ فإنّ بها ظَعِينةً؛ معها كتابٌ؛

الفوت، ومعاجلة القواطع أو الموت، ثم إنه لما آلمه الإنكارُ هَمَّ بترك ذلك، والفرار. لكنه خاف مِن عقوبة الكتمان المنبَّه عليها في القرآن، ولذلك قال: لولا آيتان في كتاب الله ما حدَّثْتُ حديثاً، ثم تلا قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ...﴾ الآيتين [البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠] وفيهما بحثٌ وتفصيلٌ يحتاجُ إلى نظرٍ طويل يُذكر في تفسير القرآن وأحكامه.

(٦٥) ومن بـاب: فضائل أهل بدر والحديبية
وحاطب بن أبي بلتعة

اسم حاطب ونسبه ومشاهده ووفاته

واسمه عمرو بن راشد من ولد لخم بن عديٍّ. يُكنى: أبا عبد الله، وقيل: أبا محمد، وهو حليف للزبير بن العوّام، وقيل: لبني أسد، وقيل: كان عبداً

فخذوه منها»، فانطلقْنَا تَعَادَى بنا خَيْلُنا، فإذا نحنُ بالمرأةِ، فقلنا: أخرجِي الكتابَ! فقالتْ: ما معي كتابٌ! فقلنا: لتُخْرِجِنَّ الكتابَ، أو لتُلْقِينَّ الثيابَ! فأخرجتْه من عِقَاصِها، فأتيْنا به رسولَ الله ﷺ. فإذا فيه: مِن حَاطِبِ بن أبي بَلتَعَة إلى نَاسٍ مِن المشركين من أهل مكةَ، يُخْبِرهُم ببعضِ أمر رسول الله ﷺ. فقال رسولُ الله ﷺ: «يا حاطبُ! ما هذا؟» قال: لا تعجلْ عليَّ يا رسول الله! إني كُنتُ امرءاً مُلْصَقاً في قريش. ـ قال سفيان: كان حَلِيفاً لهم، ولم يكن من أنفُسها ـ وكان مِمَّن معك من المهاجرين لهم قَراباتٌ يَحْمُونَ بها أهليهم، فَأَحْبَبْتُ؛ إذْ فَاتَني ذلك من النَّسبِ فيهم أن أتخذ فيهم يداً يَحْمُونَ بها قرابتي، ولم أفعلْه كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعدَ الإسلام! فقال النَّبيُّ ﷺ: «صَدَقَ». فقال عمر: دَعْنِي

لعبيد الله بن حميد، كاتبَه فأدَّى كتابتَه يوم الفتح، شهد بدراً والحديبية. مات سنة ثلاثين بالمدينة، وهو ابن خمس وستين سنة، وصلَّى عليه عثمان، وقد شهد له بالإيمان في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١] وقد شهد له رسول الله ﷺ بالإيمان والصدق، وبأنه لا يدخل النار على ما تضمَّنه الحديثان المذكوران في الأم. وروضة خاخ: موضع معروف قريب من المدينة. والظعينة: الهودج، كان فيه امرأة، أو لم يكن، وتسمَّى المرأة ظعينة إذا كانت في الهودج. وتجمع الظعينة: ظُعْنٌ وظُعُنٌ وظعائن. وأظعان. والعِقَاص: الشعر المعقوص، أي: المضفور. والملصق في القوم: هو الذي لا نسبَ له فيهم، وهو الحليف، والنزيل، والدَّخيل.

و (قوله: وكان ممن معك) كذا وقع هذا اللفظ «ممن» بزيادة من، وفي بعض النسخ «من معك» بإسقاط «من»، وهو الصَّوابُ؛ لأن من لا تزاد في الواجب عند البصريين وأكثر أهل اللِّسان، وقد أجاز ذلك بعض الكوفيين.

يا رسولَ الله! أَضْرِبْ عُنُقَ هذا المنافقِ! فقال: «إنّه قَدْ شهد بدراً، وما يُدْرِيك لعلَّ اللَّهَ قد اطَّلعَ على أَهْلِ بَدْرٍ فقال: اعملوا ما شِئْتُم فَقَد غفرتُ لكم»، فأنزل اللَّهُ عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١].

ما فعله حاطب قبيل فتح مكة

و (قول عمر ـ رضي الله عنه ـ: دعني أضربْ عنقَ هذا المنافق) إنما أطلقَ عليه اسمَ النِّفاق؛ لأن ما صدرَ منه يُشبه فعل المنافقين؛ لأنه والى كفَّار قريشٍ، وباطنَهم، وهمَّ بأن يُطلعَهم على ما عزمَ عليه رسولُ الله ﷺ من غزوهم، مع أن رسولَ الله ﷺ قد كان دعا فقال: «اللهم أخفِ أخبارَنا عن قريشٍ»[1] لكنَّ حاطباً لم ينافق في قلبه، ولا ارتد عن دينه، وإنَّما تأوَّل فيما فعل من ذلك: أن إطلاع قريش على بعض أمر رسول الله ﷺ لا يضرُّ رسولَ الله ﷺ ويخوِّف قريشاً. ويُحكى: أنه كان في الكتاب تفخيمُ أمر جيش رسول الله ﷺ، وأنهم لا طاقةَ لهم به، يُخوِّفهم بذلك ليخرجوا عن مكَّة، ويَفِرُّوا منها، وحسَّن له هذا التأويلَ: تعلُّق خاطره بأهلِه، وولدِه؛ إذ هم قطعةٌ من كبده، ولقد أبلغَ من قال: قلَّما يفلحُ من كان له عِيال. لكنْ لَطَفَ اللَّهُ به، ونجَّاه لما علم من صِحَّة إيمانه، وصدقه، وغفر له بسابقة بدرٍ، وسَبْقه.

فَضْلُ أهل بدر

و (قوله ﷺ: «وما يُدريكَ لعلَّ اللَّهَ قد اطَّلع على أهل بدرٍ، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرتُ لكم») معنى يُدريك: يُعلمك، ولعلَّ: للترجِّي، لكن هذا الرجاء محقق للنبيِّ ﷺ بدليلِ ما ذكر الله تعالى في قصة أهل بدرٍ في: آل عمران، والأنفال. من ثنائه عليهم، وعفوه عنهم، وبدليل قوله ﷺ للذي قال في حاطب إنه يدخل النَّارَ، وأقسمَ عليه: «كذبتَ، لا يدخلُها فإنَّه شهدَ بدراً»[2]. فهذا إخبارٌ

---

(١) لم نجده بهذا اللفظ، وفي السيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ٣٩٧): «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش».

(٢) هو الحديث رقم (٢٥٠٩) ولم يرد في أصول التلخيص، وأثبتناه من صحيح مسلم.

وفي روايةٍ: بعثني رسولُ الله ﷺ وأبا مَرْثَدٍ الغَنَويَّ، والزبَيْرَ بن العوام، وكُلُّنا فارسٌ.

رواه أحمد (١/ ٧٩)، والبخاريُّ (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)، وأبو داود (٢٦٥٠)، والترمذيُّ (٣٣٠٥).

محقَّق لا احتمالَ فيه، ولا تَجوُّزَ، وظاهرُ قوله ﷺ: «اعملوا ما شئتم» إباحةُ كلِّ الأعمال، والتخيير فيما شاؤوا من الأفعال، وذلك في الشريعة محال؛ إذ المعلوم من قواعدها: أن التكليفَ بالأوامر والنواهي، متوجهة على كل من كان موصوفاً بشرطها إلى موته، ولمَّا لم يصحَّ ذلك الظاهرُ اضطرَّ إلى تأويله، فقال أبو الفرج الجوزي: ليس قوله: اعملوا ما شئتم للاستقبال، وإنما هي للماضي، وتقديره: أيُّ عمل كان لكم فقد غفرتُه، قال: ويدلُّ على ذلك شيئان:

أحدهما: أنه لو كان للمستقبل كان جوابُه فسأغفر[١].

والثاني: أنه كان يكون إطلاقاً في الذنوب، ولا وجه لذلك، ويُوضح هذا: أن القومَ خافوا من العقوبة فيما بعد، فقال عمر: يا حذيفة[٢] هل أنا منهم؟.

قلتُ: وهذا التأويل، وإن كان حَسَناً غير أنَّ فيه بُعْداً. تبيينه: إنَّ (اعملوا) صيغته صيغة الأمر، وهي موضوعةٌ للاستقبال، ولم تضع العربُ قطُّ صيغةَ الأمر موضع الماضي، لا بقرينة، ولا بغير قرينة، هكذا نصَّ عليه النحويون، وصيغةُ الأمر إذا وردت بمعنى الإباحة: إنما هي بمعنى الإنشاء والابتداء، لا بمعنى الماضي، فتدبَّرْ هذا؛ فإنه حَسَن، وقد بيَّنتُه في الأصول بأشبع من هذا، واستدلاله على ذلك بقوله: فقد غفرتُ لكم، ليس بصحيح؛ لأنَّ (اعملوا ما شئتم) يستحيل أن يُحمل على طلب الفعل، ولا يصحُّ أن يكون بمعنى الماضي لما ذكرناه، فتعيَّن

---

(١) في (م ٤): سأغفر.

(٢) حذيفة بن اليمان هذا هو صاحب سِرِّ رسول الله ﷺ في أسماء المنافقين.

[٢٤٠٣] وعن جابرٍ: أنَّ عبداً لحاطبٍ جاء رسولَ الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! ليدخلنَّ حاطبٌ النار! فقال رسول الله ﷺ: «كَذَبْتَ، لا يدخُلُها، فإنَّه شهد بدراً، والحديبيةَ».

رواه أحمد (٣/ ٣٢٥)، ومسلم (٢٤٩٥)، والترمذيُّ (٣٨٦٤)، والنسائي في الكبرى (٨٢٩٦).

حَمْلُه على الإباحة والإطلاق، وحينئذٍ يكون خطابَ إنشاء، فيكون كقول القائل: أنت وكيلي، وقد جعلتُ لك التصرف كيف شئت، فإنَّ ذلك إنما يقتضي إطلاق التصرف في وقت التوكيل، لا قبل ذلك، وقد ظهر لي وَجْهٌ آخر، وأنا أستخير الله فيه وهو: أن الخطاب خطابُ إكرام وتشريف تضمَّن: أنَّ هؤلاء القوم حصلتْ لهم حالةٌ غُفِرت لهم بها ذنوبُهم السالفة، وتأهَّلوا بها لأن يُغفر لهم ذنوبٌ مستأنفة إن وقعتْ منهم، لا أنهم نُجِّزت لهم في ذلك الوقت مغفرة الذنوب اللاحقة، بل: لهم صلاحية أن يُغفر لهم ما عساه أن يقع، ولا يلزم من وجود الصَّلاحية لشيء ما وجودُ ذلك الشيء؛ إذ لا يلزمُ من وجود أهلية الخلافة وجودها لكلِّ من وجدت له أهليَّتها، وكذلك القضاء وغيره، وعلى هذا فلا يأمن من حصلت له أهليةُ المغفرة مِن المؤاخذة على ما عساه أن يقعَ منه من الذنوب، وعلى هذا يُخَرَّج حالُ كلِّ مَن بشَّره رسولُ الله ﷺ بأنه مغفورٌ له، وأنه من أهل الجنَّة، فيتضمَّن ذلك مغفرة ما مضى، وثبوت الصَّلاحية للمغفرة والجنة بالنسبة لما يستقبل. ولذلك لم يزل عن أحدٍ ممّن بُشِّر بالمغفرة، أو بالجنة خوف التبديل والتغيير من المؤاخذة على الذنوب، ولا ملازمة التوبة منها، والاستغفار دائماً، ثم إنَّ اللَّهَ تعالى أظهر صِدْقَ رسوله ﷺ للعيان في كلِّ مَن أخبر عنه بشيء من ذلك؛ فإنهم لم يزالوا على أعمال أهل الجنة من أمور الدِّين، ومراعاة أحواله، والتمسُّك بأعمال البِرِّ والخير إلى أن توفوا على ذلك، ومَن وقع منهم في معصية، أو مخالفةٍ لجأ إلى التوبة، ولازمها حتى لقي الله تعالى عليها، يَعْلَم ذلك قطعاً من أحواله مَن طالع سيرهم، وأخبارهم.

[٢٤٠٤] وعن أمّ مُبَشِّرٍ، قالتْ: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ عند حفصة: «لا يدخُلُ النَّارَ ـ إن شاءَ اللَّهُ ـ من أصحاب الشجرة أحدٌ» ـ الذين بَايَعُوا تَحْتَها ـ ....

ما في حديث حاطب من الفوائد

وفي حديث حاطبٍ هذا أبوابٌ من الفقه وأدلَّةٌ على صحة نبوَّة نبيِّنا محمد ﷺ وعلى فضائل أهل بدرٍ، وحاطب بن أبي بلتعة، فمن جملة ما فيه من الفقه: أنَّ ارتكابَ الكبيرة لا يكونُ كفراً، وأن المتأوِّلَ أعذر من العامد، وقبول عذر الصادق، وجواز الاطلاع من عورة المرأة على ما تدعُو إليه الضَّرورة. ففي بعض رواياته: أنهم فتَّشُوا من المرأة كلَّ شيءٍ حتى قُبُلَها. ومنه: ما يدلُّ على أن الجاسوسَ حكمه بحسب ما يجتهدُ فيه الإمام على ما يقوله مالك. وقال الأوزاعي: يُعاقب، ويُنفى إلى غير أرضه. وقال أصحابُ الرأي: يُعاقب ويُسجن. وقال الشافعي: إن كان من ذوي الهيئات كحاطب عُفِي عنه، وإلا عُزِّر. وجميعُ أهلِ بدر ثلاثمئة وسبعة عشر رجلاً باتفاق أئمة السِّير والتواريخ. واختلف في طائفةٍ نحو الخمسة هل شهدوها، أم لا؟ وتفصيلُ ذلك في كتب السِّير.

بشارة أهل الشجرة بالجنة

و (قوله ﷺ: «لا يدخل النار ـ إن شاء الله ـ [من أصحاب الشجرة أحد][(١)] الذين بايعوا تحتها») هذه الشجرةُ: هي شجرةُ بيعةِ الرّضوان التي قال اللَّهُ تعالى فيها: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وكانت بالحديبية التي تقدَّم ذِكْرُها. والمبايعون تحتها: كانوا ألفاً وأربعمئة، وقيل: وخمسمئة، كانوا بايعوا رسولَ الله ﷺ على الموت، أو على ألا يفرُّوا، على خلافٍ بين الرواة. ثم إنَّ رسولَ الله ﷺ صَالَحَ أهلَ مكة، وكفى اللَّهُ المؤمنين القتال، وأحرزَ لهم الثواب. وأثابهم فتحاً قريباً، ورضواناً عظيماً. واستثناؤه ﷺ هنا بقوله: «إن شاء الله» استثناءٌ في واجب قد أعلمه اللَّهُ تعالى بحصوله بقوله: ﴿لَّقَدْ

---

(١) ما بين حاصرتين ورد في (ز): أحد من أصحاب الشجرة، وما أثبتناه يتفق مع ما ورد في صحيح مسلم والتلخيص.

قالتْ: بلى، يا رسول الله! فانْتَهَرها. فقالت حفصة: ألم يقل الله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فقال النبيُّ ﷺ: «وقد قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢]».

رواه أحمد (٦/ ٢٨٥)، ومسلم (٢٤٩٦)، وابن ماجه (٤٢٨١).

* * *

رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ١٨] وبغير ذلك، وصار هذا الاستثناء كقوله تعالى: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

و (قول حفصة: بلى) قول أخرجه منها الشهامة النفسية، والقوة العمرية، فإنَّها كانت بنت أبيها، وهذا من نحو قول عُمر ـ رضي الله عنه ـ للنبيِّ ﷺ في المنافقين: أتصلي عليهم؟ وتمسُّكها بعموم قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] دليلٌ على أنَّ (منكم) للعموم عندهم، وأن ذلك معروفٌ من لغتهم، وانتهار النبيِّ ﷺ لها تأديبٌ لها وزَجْرٌ عن بادرة المعارضة، وترك الحرمة، ولما حصل الإنكار صرَّحتْ بالاعتذار، فذكرت الآية، وحاصلُ ما فهمتْ منها: أنَّ الورودَ فيها بمعنى الدخول، وأنها قابلتْ عمومَ قوله ﷺ: «لا يدخلُ النارَ أحدٌ ممن بايعَ تحت الشجرة» بعموم قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، وكأنها رجَّحَتْ عمومَ القرآن. فتمسَّكتْ به، فأجابها النبيُّ ﷺ بأنَّ آخرَ الآية يبيِّنُ المقصودَ، فقرأ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢]. وحاصلُ الجواب: تسليمُ أنَّ الورودَ دخولٌ، لكنه دخولُ عبور، فينجو من اتقى، ويترك فيها من ظَلَم، وبيانُ ذلك: أنَّ جهنم ـ أعاذنا اللَّهُ منها ـ محيطةٌ بأرض المحشر، وحائلةٌ بين الناس وبين الجنة، ولا طريقَ للجنة إلا الصّراط الذي هو جسرٌ ممدود على متن جهنم، فلا بُدَّ لكلِّ مَن ضمَّه المحشرُ من العبور عليه، فناجٍ مُسَلَّمٌ، ومخدوشٌ مرسل، ومُكَرْدَسٌ في نار جهنم كما تقدَّم، وهذا قولُ الحسنِ وقتادة، وهو الذي تعضده الأخبارُالصحيحة، والنَّظر المستقيم.

معنى الورود على النار

(٦٦) بـــاب
في فضائل أبي موسى الأشعري والأشعريين

[٢٤٠٥] عن أبي موسى قال: كنتُ عندَ النَّبيِّ ﷺ، وهو نَازلٌ

والورودُ في أصل اللغة: الوصولُ إلى الماء، وإنَّما عبَّر به عن العبور؛ لأن جهنمَ تتراءى للكفار كأنها سرابٌ فيحسبونه ماءً، فيقال لهم: ألا تردون؟ كما صحَّ في الأحاديث المتقدِّمة.

ما في حديث حفصة من الفوائد

وفي حديث حفصة هذا أبوابٌ من الفقه، منها: جوازُ مراجعةِ العالم على جهة المباحثة، والتمسك بالعمومات فيما ليس طريقه العمل، بل: الاعتقاد، ومقابلة عموم بعموم. والجوابُ: بذكر المخصِّص، وتأديب الطالب عند مجاوزة حدِّ الأدب في المباحثة. والمتقي: هو الحَذِرُ من المكروه الذي يتحرّز منه بإعداد ما يُتّقى[1] به. ونذر: نترك. والظالم هنا: هو الكافر؛ لأنه وَضعَ الإلهية والعبادةَ في غير موضعهما. وجثياً: جمع جاثٍ، وأصله: الجالسُ على ركبتيه، والمرادُ به ها هنا: المكبوبُ على وجهه، وهو: المكردسُ المذكورُ في الحديث، والله تعالى أعلم.

(٦٦) ومن بـــاب: فضائل أبي موسى الأشعريِّ ـ رضي الله عنه ـ

اسمه ونسبه

واسمه: عبد الله بن قيس بن سليم بن حَضَّار ـ بفتح الحاء المهملة والضاد المعجمة المشددة ـ ويقال: حِضَار ـ بكسر الحاء، وتخفيف الضاد ـ: من ولد الأشعر، وهو نبتُ بن أدد، وقيل: من ولد الأشعر بن سبأ أخي حمير. قال أبو عمر: ذكرتْ طائفةٌ: أنَّ أبا موسى قدم مكَّةَ، فحالف سعيد بن العاصي، ثم أسلم بمكة، ثم هاجر إلى أرض الحبشة، ثم قدم مع أهل السفينة، ورسولُ الله ﷺ بخيبر. وقال أبو بكر بن عبد الله بن الجهم ـ وكان علامة نسَّابة ـ: ليس كذلك،

إسلامه وهجرته

---

(١) في (م ٤): ما يتقيه.

بالجِعْرَانَةِ بين مكةَ والمدينة ومعه بلالٌ، فأتى رسولَ الله ﷺ رجلٌ أعرابيٌّ،

ولكنه أسلم قديماً بمكة، ثم رجع إلى بلاد قومه، فلم يزلْ بها حتى قدم هو وناس من الأشعريين على رسول الله ﷺ، فوافق قدومهم قدوم أهل السفينتين: جعفرٍ وأصحابه من أرض الحبشة، ووافوا رسولَ الله ﷺ بخيبر. قال أبو عمر: وإنما ذكره ابنُ إسحاق فيمن هاجر إلى أرض الحبشة؛ لأنه نزل أرضهم في حين إقباله مع سائر قومه، رمت الريحُ سفينتهم إلى الحبشة، فبقوا فيها، ثم خرجوا مع جعفر وأصحابه: هؤلاء في سفينة، وهؤلاء في سفينة، فوافوا رسولَ الله ﷺ حين افتتح خيبر، فقيل: إنه قَسَم لأهل السَّفينتين، وقيل: لم يقسم لهم، ثم ولَّى عمر بن الخطاب أبا موسى البصرة؛ إذ عَزَل عنها المغيرة في وقت الشَّهادة عليه، وذلك سنة عشرين، فافتتح أبو موسى الأهواز، ولم يزلْ على البصرة إلى صدرٍ من خلافة عثمان، ثم عزله عنها وولّاها عبد الله بن عامر بن كرز، فنزل أبو موسى حينئذٍ الكوفة وسكنها، ثم لما دفع أهلُ الكوفة سعيدَ بن العاصي ولَّوا أبا موسى، وكتبوا إلى عثمان يسألونه أن يوليه فأقرَّه، فلم يزلْ على الكوفة حتى قُتِل عثمان، واستخلف عليٌّ، فعزله عنها. قال أبو عمر: فلم يزلْ واجداً منها على عليٍّ، ثم كان من أبي موسى بصفِّين وفي التحكيم ما كان، وكان مُتحرِّفاً على عليٍّ؛ لأنه عزله، ولم يستعمله، وغلبه أهلُ اليمن في إرساله في التحكيم فلم يجر لهم، ثم انقبض أبو موسى إلى مكة، ومات بها، وقيل: مات بالكوفة في داره بجانب المسجد، واختلف في وقت وفاته، فقيل: سنة اثنتين وأربعين، وقيل: سنة أربع وأربعين، وقيل: سنة خمسين، وقيل: سنة اثنتين وخمسين. وكان ـ رضي الله عنه ـ من أحسن الناس صوتاً بالقرآن، ولذلك قال له النبيُّ ﷺ: «أوتيتَ مزماراً من مزامير آل داود»[1]. وسُئل عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ عن موضع أبي موسى من العلم،

ولايته على البصرة

عزله وما صدر منه في صفين

وفاته

عِلْمه وجملة مروياته عن رسول الله

---

(١) رواه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣).

والمقصود بآل داود: داود نفسه، لأنه لم يثبت أن أحداً من آله أُعْطِي من حُسْن الصوت ما أُعطي داود.

فَقال: أَلَا تُنْجِزَ لي يا محمدُ ما وعدتني؟! فقال له رسولُ الله ﷺ: «أَبشِرْ». فقال له الأعرابيُّ: أكثرتَ عليَّ مِنْ أَبشِرْ! فأقبلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ على أبي موسى وبلالٍ كهَيْئَةِ الغَضْبانِ، فقال: «إنَّ هذا قد ردَّ البُشْرَى، فاقْبَلا أَنْتُما»، فقالا: قَبِلنا يا رسول الله! ثم دعا رسولُ اللَّهِ ﷺ بقدَحٍ فيه ماءٌ، فغَسَلَ يَدَيهِ ووجهَه فيه، ومَجَّ فيه، ثم قال: «اشرَبا منهُ، وأَفْرِغا على وُجُوهِكُما ونُحُورِكُما، وأَبْشِرا»، فأَخَذَا القَدَحَ، ففعلا ما أَمَرَهُما به رسول الله ﷺ، فنادَتْهُما أمُّ سَلَمَةَ من وراء السِّتر: أَفْضِلاَ لأُمِّكُمَا ممَّا في إنائكما! فأَفْضَلا لها منهُ طائفةً.

رواه البخاريُّ (٤٣٢٨)، ومسلم (٢٤٩٧).

فقال: صُبغ في العلم صبغة. ورَوى عن رسول الله ﷺ ستمئة وستين حديثاً، أخرج له منها في الصَّحيحين ثمانية وستون حديثاً.

و (قول الأعرابي: أكثرتَ عليَّ من أبشر) قولُ جلفٍ جاهل بحال النبيِّ ﷺ وبقدر البشرى التي بشَّره بها النبيُّ ﷺ لو قبلها، لكنها عُرضت عليه فحُرِمَها، وقُضيت لغيره فقَبِلَها. والبشرى: خبرٌ بما يسرُّ، وسُمِّيت بذلك؛ لأنها تظهر السُّرور في بشرَة المبشر، وأصله في الخير، وقد يقال في الشر توسُّعاً كما قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]، وفيه ثلاثُ لغات: أبشر ـ رباعياً ـ فتقول: أبشرته أبشره إبشاراً، ومنه: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وبشَّر ـ مشدداً ـ يبشر تشيراً؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨]، والثالثة: بَشَرْتُ الرجل ـ ثلاثياً ـ مفتوح العين ـ أبشره بالضم بشراً بالسكون وبشوراً، والاسم البِشارة ـ بكسر الباء وضمِّها ـ، والبُشرى: تقتضي مُبشَّراً به، فإذا ذكر تعيَّن، وإذا سكت عنه، صَلُح أن يُراد به العموم.

[٢٤٠٦] وعن أبي بُرْدَة، عن أبيه، قال: لمّا فَرَغَ النَّبيُّ ﷺ من حُنَيْنٍ بَعَثَ أَبَا عامِرٍ على جَيْشٍ إلى أوطاس، فلَقِي دُرَيْدَ بنَ الصِّمَّة، فقُتِل دُرَيدٌ وهَزَمَ الله أصحابَهُ، فقال أبو موسى: وبَعَثَني مع أبي عَامِرٍ. قال: فرُمِي أبو عامِرٍ في رُكْبَتِهِ؛ رماه رجلٌ من بني جُشَمٍ بسَهْمٍ فأثْبَتَه في رُكْبَتِهِ، فانتهيت إليه فقلتُ: يا عمِّ! من رَمَاكَ؟ فأشار أبو عامر إلى أبي موسى، فقال: إنَّ ذاك قاتِلِي، تراهُ ذاكَ الذي رماني؟ قال أبو موسى: فقَصَدْتُ له

و (قول النبي ﷺ: «أبشر») ولم يذكر له عين ما بشَّره به؛ لأنه ـ والله أعلم ـ قَصَد تبشيره بالخير على العموم الذي يصلح لخير الدنيا والآخرة، ولما جهل ذلك ردَّه لحرمانه وشِقْوته، ولما عَرَض ذلك على من عرف قدره بادر إليه وقبله، فنال من البشارة الخير الأكبر، والحظَّ الأوفر، وذلك فَضْلُ الله يُؤتيه مَن يشاء. وكونه ﷺ غسل وجهه في الماء، وبصق فيه، وأمره بشرب ذلك، والتمسُّح به مبالغةً في إيصال الخير والبركة لهما؛ إذ قد ظهرت بركتُه ﷺ فيما لمسه، أو باشره، أو اتصل به منه شيءٌ، ولما تحقَّقت أمُّ سلمة ذلك سألتهما أن يتركا لها فضلةً من ذلك ليصيبَها من تلك البشرى، ومن تلك البركة حظٌّ، وفيه ما يدلُّ على جواز الاستشفاء بآثار النبي ﷺ وبكلماته، ودعواته، وعلى جواز النشرة بالماء الذي يُرقى بأسماء الله تعالى، وبكلامه، وكلام رسوله ﷺ، وقد تقدم ذِكْر الخلافِ في النشرة في كتاب الطب. وأوطاس: موضعٌ قريبٌ من حنين، وبَعْثُ أبي عامرٍ إنما كان لتتبُّع منهزمةِ هوازن بحُنيـن، ويُسمَّى خيله: خيل الطلب، وأبو عامر هذا: اسمه عبيد بن سليم بن حضّار الأشعري، وكان أبو عامر هذا من كِبار الصحابة، عقد له رسولُ الله ﷺ لواءً يوم ولّاه على هذا الجيش، وخَتَم اللَّهُ تعالى له بالشهادة، وبدعاء رسول الله ﷺ بالمغفرة.

من هو أبو عامر الأشعري؟

و (قول أبي عامر: إن ذاك قاتلي، تراه ذاك الذي رماني) كذا الرواية الصحيحة، تراه: بالتاء باثنتين من فوقها، والكلام كله لأبي عامر، وكأن الذي رمى

فاعتَمَدْتُه، فلَحِقْتُهُ، فلمّا رآني وَلَّى عنِّي ذاهباً، فاتَّبعْتُه وجعلتُ أقولُ لَهُ: ألا تَسْتَحي؟ ألستَ عَرَبياً؟ ألا تَثْبُتُ؟ فكفَّ، فالتقيت أنا وهو، فاختلفنا أنا وهو ضَرْبَتَيْنِ، فضربتُه بالسَّيْفِ فقَتَلْتُه، ثم رجعتُ إلى أبي عامرٍ فقلتُ: إنّ الله قَدْ قَتَلَ صاحِبَكَ! قال: فانْزِعْ هذا السَّهم! فنَزَعْتُه فَنَزَا منه الماءُ، فقال: يا بن أخي! انطلق إلى رسولِ الله ﷺ فأقرِئه منِّي السلامَ، وقُل له: يقولُ لك: استغفر لي، قال: واستعملني أبُو عامرٍ على النَّاسِ، ومكث يسيراً، ثم إنه ماتَ، فلمَّا رجعتُ إلى رسول الله ﷺ دخلتُ عليه، وهو في بيتٍ على سريرٍ مُرْمَلٍ، عليه فراشٌ، قد أثَّر رُمَالُ السريرِ بظهرِ رسولِ اللَّهِ ﷺ وجَنْبيهِ، فأخْبَرتُهُ بخَبرِنَا وخَبَرَ أبي عَامِرٍ. وقلتُ له: قال: قل له: يستغفر

أبا عامر كان قريباً منهما، فأشار إليه بذلك مرتين تقريباً له، وأكَّد ذلك بقوله: تراه، فكأنه قال: الذي تراه، ووقع في بعض النسخ ذلك بلام البعد، وفيه بُعْدٌ، وقرأه بالفاء، فكأنه من قول الراوي خبراً عن أبي موسى أنه رأى القاتل، والأول أصحُّ.

و (قوله: فنزا منه الماء) أي: خرج الماء بسرعة إثر خروج السهم، وأصل النزو: الارتفاع والوثب.

و (قوله: واستعملني عامرٌ على الناس) فيه ما يدلُّ على: أنَّ الوالي إذا عَرَض له أمرٌ جاز أن يستنيبَ غيره.

للوالي أن يستنيب غيره

و (قوله: فوجدته على حصير مُرْمَلٍ، قد أثر رُمَال الحصير في ظهره) صحيحُ الرواية فيه: مرملٌ بضم الميم الأولى، فسكّن الراء، مفتوح الميم الثانية. وهو من: أرملت الحصير؛ إذا شقَقْته ونسجته بشريط أو غيره. قال الشاعر:

إذْ لا يَـزالُ عَلَـى طَـرِيـقٍ لاحِـبٍ وَكَـأنَّ صَفْحَتَـهُ حَصِيـرٌ مُـرْمَـلُ

لي. فدعا رسولُ الله ﷺ بماءٍ فتوضأ منه، ثم رفع يديه، ثم قال: «اللَّهم اغْفِر لعُبيْدٍ ـ أبي عَامِر ـ» حتى رأيتُ بياضَ إبْطيْه، ثم قال: «اللهُمَّ اجعله يوم القيامة فوقَ كثيرٍ من خَلْقِكَ ـ أوْ: من الناس ـ». فقلتُ: وَلي يا رسول الله فاستغفِر! فقال النَّبيُّ ﷺ: «اللَّهُمّ اغفرْ لعبدِ الله بن قيسٍ ذنبَه، وأدخِله يوم القيامةِ مُدْخَلاً كَريماً». قال أبو بُردة: إحداهُما لأبي عامرٍ، والأُخْرى لأبي موسى.

رواه البخاريُّ (٢٨٨٤)، ومسلم (٢٤٩٨).

ويُقال: رملت الحصير أيضاً ـ ثلاثياً ـ، ورُمَال الحصير: هو ما يؤثر منه في جَنْب المضطجع عليه.

و (قوله: وعليه فراش) كذا صحَّتِ الروايةُ بإثبات الفراش، وقال القابسيُّ: الذي أعرف: وما عليه فراش.

فراشه ﷺ

قلـتُ: وأستبعدُ أن يكون عليه فراشٌ ويؤثر في ظهره، وإنما يستبعدُ ذلك إذا كان الفراشُ كثيفاً، وثيراً، ولم يكن فراشُ النبي ﷺ كذلك، فلا يستبعد.

و (قوله: فدعا رسولُ الله ﷺ بماء فتوضأ منه، ثم رفع يديه) ظاهِرُ هذا الوضوء: أنه كان للدُّعاء؛ إذ لم يُذكر أنه صلى في ذلك الوقت بذلك الوضوء، ففيه ما يدلُّ على مشروعية الوضوء للدُّعاء، ولذكر الله، كما تقدَّم من قوله ﷺ: «إني كرهتُ أن أذكرَ الله إلا على طهارة»[1].

مشروعية الوضوء للدعاء

حُكم رَفع اليدين عند الدعاء

و (قوله: ثم رفع يديه حتى رأيتُ بياض إبطيه) دليلٌ: على استحباب الرَّفع عند الدُّعاء، وقد فعل النبيُّ ﷺ ذلك يوم بدرٍ، وفي الاستسقاء، وقد رويتْ كراهيةُ ذلك عن مالك، ويمكن أن يُقال: إنما كره أن يُتَّخذ ذلك سُنَّةً راتبةً على أصله في هذا الباب، أو مخافة أن يعتقدَ الجهَّالُ مكاناً لله تعالى، والذي يزيلُ هذا الوهم: أن

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٤٥)، وأبو داود (١٧)، والنسائي (١/ ٣٧)، وابن ماجه (٣٥٠).

[٢٤٠٧] وعن أبي موسى، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «إني لأعرفُ أصواتَ رُفْقَةِ الأشعريّين بالقرآن حين يدخُلونَ باللّيل، وأعرفُ مَنازِلَهُم من أصواتِهم، بالقرآنِ باللَّيْل، وإنْ كنتُ لمْ أرَ منازِلَهُم حين نزلوا بالنَّهار، ومنهم حَكيمٌ إذا لَقي الخَيْلَ ـ أو قال العدو ـ قال لهم: إن أصحابي يأمرونكم أن تَنْظُرُوهُم».

رواه البخاريُّ (٤٢٣٢)، ومسلم (٢٤٩٩).

يقال: لا يلزمُ من مدِّ الأيدي إلى السَّماء أن يكون مكاناً لله، ولا جهةً، كما لا يلزمُ من استقبال الكعبة أن يكون اللَّهُ تعالى فيها، بل السماءُ قبلةُ الدُّعاء، كما أن الكعبةَ قبلةُ الصلاة، والباري تعالى مُنَزَّهٌ عن الاختصاص بالأمكنة والجهات، إذ ذاك من لوازم المحدثات، ولقد أحسن مَن قال: لو كان الباري تعالى في شيءٍ لكان محصوراً، ولو كان على شيءٍ لكان محمولاً، ولو كان من شيءٍ لكان محدثاً، وقد حصل أبو موسى على مثل ما حصل لعمه أبي عامر من استغفار رسول الله ﷺ وزاده: «وأَدْخِلْه مدخلاً كريماً» ليلحقه بمنزلة أبي عامر في الجنة لأنه قَتَل قاتله، والله تعالى أعلم.

السماء قبلة الدعاء

دعاؤه ﷺ لأبي عامر

و (قوله ﷺ: «إني لأعرفُ أصواتَ رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل») كذا صحَّت الروايةُ فيه بالدال المهملة والخاء المعجمة، من الدخول، وقد رواه بعضُهم: يرحلون بالراء والحاء المهملة، من الرحيل. قال بعضُ علمائنا: وهو الصوابُ، يشير إلى أنهم كانوا يلازمون قراءةَ القرآنِ في حال رحيلهم، وفي حالة نزُولهم، وكأنَّ الأشعريين كثيرٌ فيهم قراءةُ القرآن بسبب أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ فإنه كان من أحسنِ النَّاس صوتاً بالقرآن، فكان يقرأُ لهم، فتطيبُ لهم قراءته، فيتعلَّموا منه القرآن. وأحبّوه فلازموه، والله تعالى أعلم.

و (قوله: «ومنهم حكيم إذا لقي الخيل، أو العدو قال لهم: إنَّ أصحابي يأمرونكم أن تنظروهم») وحكيم: بمعنى محكَّم، ويعني به هنا: أنه مُحكَّم لأمور

[٢٤٠٨] وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الأشْعَرِيّينَ، إذا أَرْمَلُوا في الغزْوِ، أو قلَّ طعامُ عِيَالِهِم بالمدينةِ، جَمَعُوا ما كان عندهُم في ثَوْبٍ واحدٍ، ثم اقْتسموه بينهُم في إناءٍ واحدٍ بالسَّوِيّة، فهم منِّي وأنا مِنْهُم».

رواه البخاريُّ (٢٤٨٦)، ومسلم (٢٥٠٠).

* * *

الفروسية والشّجاعة، ولذلك سَبَق قومَه إلى العدو، كما فعل النبيُّ ﷺ حين ركب فرس أبي طلحة واستبرأ خبر العدو، ثم رجع، فلقي أصحابه خارجين، فأخبرهم بأنهم: لا روع عليهم. وقد يجوز أن يكون ذلك الحكيمُ هو أبو موسى أو أبو عامر، ويكون النبيُّ ﷺ قال هذا قبل قَتْله. والله تعالى أعلم.

فضائل الأشعريين

و (قوله ﷺ: «إنَّ الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قلَّ طعامُ عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم، ثم اقتسموه») هذا الحديثُ يدلُّ على أنَّ الغالب على الأشعريين الإيثار، والمواساة عند الحاجة، كما دلَّ الحديثُ المتقدِّمُ على أنَّ الغالبَ عليهم القراءة والعبادة، فثبت لهم بشهادة رسول الله ﷺ: أنَّهم علماءُ عاملون، كرماءُ مؤثرون. ثم إنه ﷺ شرَّفهم بإضافتهم إليه، ثم زاد في التَّشريف بأنْ أضاف نفسه إليهم، ويمكنُ أن يكون معنى: «هم مني»: فَعَلُوا فعلي من القراءة والعبادة والكرامة، و«أنا منهم»: أفعلُ مِن ذلك ما يفعلون، كما قال بعضُ الشعراء:

وَقُلْـتُ أَخِـي قَـالُـوا أَخٌ وَكَـرامَـةٌ   فَقُلْـتُ لَهُـمْ إنَّ الشُّكُـولَ أَقَـارِبُ
نَسِيبِـي فِـي رَأْيِي وَعَزْمِـي وَمَـذْهَبِـي   وَإنْ خَـالَفَتْنـا فِـي الأُمُـورِ المَنـاسِبُ

* * *

(٦٧) بـــاب
فضائل أبي سفيان بن حرب ـ رضي الله عنه ـ

[٢٤٠٩] عن ابن عباسٍ، قال: كان المسلمون لا يَنْظُرون إلى أبي سفيانَ، ولا يُقَاعِدُونَه، فقال للنَّبيِّ ﷺ: يا نبيَّ الله! ثلاثٌ أَعْطِنِيهِنَّ. قال:

---

(٦٧) ومن بـــاب: فضائل أبي سفيان بن حرب

واسمه صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأمويُّ، وكان من أشراف قريش، وساداتها، وذوي رأيها في الجاهلية، أسلم يومَ فتح مكة، وقد تقدَّم خبرُ إسلامه، وشهد حُنيناً، وأعطاه النبيُّ ﷺ مِن غنائمها مئةَ بعيرٍ، وأربعين أوقية وَزَنها له بلال. قال أبو عمر: واختلف في حُسْن إسلامه، فطائفةٌ تروي: أنه لما أسلم حَسُن إسلامُه، وذكروا عن سعيد بن المسيَّب عن أبيه قال: رأيتُ أبا سفيان يوم اليرموك تحت رايةِ ابنه يزيد يقاتل. يقول: يا نصرَ الله اقترب. ورُوي عنه أنه قال: فقدت الأصوات يومَ اليرموك إلا صوت رجل واحدٍ يقول: يا نصرَ الله اقتربْ، قال المسيَّب: فذهبتُ أنظر، فإذا هو أبو سفيان بن حرب تحت راية ابنه. وقد روي: أنَّ أبا سفيان كان يومَ اليرموك يقفُ على الكراديس فيقول للناس: الله! الله! إنكم ذادةُ[1] العرب، وأنصار الإسلام، وإنهم ذادةُ الروم، وأنصار المشركين، اللهم! هذا يومٌ من أيامك، اللهم! أنزل نَصْرَكَ على عبادك.

اسمه ونسبه وإسلامهُ

قتال أبي سفيان في اليرموك

وطائفةٌ تروي: أنه كان كهفاً للمنافقين منذ أسلم، وكان في الجاهليةُ يُنسب إلى الزَّندقة، وكان إسلامُه يوم الفتح كرهاً كما تقدَّم من حديثه، ومن قوله في كلمتي الشهادة حين عُرِضَتْ عليه: أما هذه ففي النفس منها شيءٌ. وفي خبر ابن الزُّبير أنه رآه يومَ اليرموك قال: فكانت الرومُ إذا ظهرت قال أبو سفيان: إيه بني الأصفر!.

و (قول ابن عباس: كان المسلمون لا ينظرون إلى أبي سفيان بن حرب ولا يقاعدونه) إنما كان ذلك لِما كان من أبي سفيان من صنيعه بالنبيِّ ﷺ وبالمسلمين

ما قاله ابن عباس في أبي سفيان

---

(١) «ذادة»: جمع ذائد، وهو المدافع عن أرضه.

«نعم». عندي أحسنُ العرب وأجمَلُهُ؛ أُمُّ حبيبة بنتُ أبي سفيان أَزَوِّجُكَها! قال: «نعم». قال: ومعاويةُ، تجعَلُهُ كاتباً بينَ يَدَيكَ. قال: «نعم». قال:

في شِرْكه؛ إذ لم يصنعْ أحدٌ بهم مثل صنيعه، ثم إنه أسلم يوم الفتح مكرهاً، وكان من المؤلَّفة قلوبهم، وكأنهم ما كانوا يثقون بإسلامه، وقد ذكرنا اختلافَ العلماء[1] في نِفاقه.

أم حبيبة: اسمها وزواجه ﷺ منها

و (قوله: عندي أحسن العرب وأجمله أمّ حبيبة بنت أبي سفيان أزوّجكها؟ قال: «نعم») الضمير في (أجمله) عائد على الجنس الذي دل عليه العرب، وأمُّ حبيبة هذه اسمُها رملة، وقيل: هند، والأول هو المعروفُ والصحيح، وإنما هند بنت عتبة زوجةُ أبي سفيان، وأم معاوية. وظاهِرُ هذا الحديث أنَّ أبا سفيان أنكح ابنتَهُ النبيَّ ﷺ بعد إسلامه، وهو مخالفٌ للمعلوم عند أهل التواريخ والأخبار، فإنهم مُتَّفقون على أنَّ النبي ﷺ تزوَّج بأم حبيبة بنت أبي سفيان قبل الفتح، وقبل إسلام أبيها، فإن أبا سفيان قدم قبل الفتح المدينةَ طالباً تجديدَ العهد بينه وبين رسول الله ﷺ وأنه دخل بيتَ أمّ حبيبة ابنته، فأراد أن يجلسَ على بساط رسول الله ﷺ فنزعته مِن تحته، فكلَّمها في ذلك، فقالت: إنَّه بساطُ رسول الله ﷺ وأنت مشركٌ! فقال لها: يا بنية! لقد أصابَكِ بعدي شرّ، ثم طلب من عليٍّ، ومن فاطمة ومن غيرهما أن يُكلِّموا النبيَّ ﷺ في الصلح، فأبوا عليه، فرجع إلى مكة من غير مقصود حاصل، وكلُّ ذلك معلومٌ لا شك فيه، ثم إنَّ الأكثرَ من الروايات والأصحّ منها: أنَّ النبيَّ ﷺ تزوج أمَّ حبيبة، وهي بأرض الحبشة، وذلك أنها كانت تحت عبد الله بن جحش الأسدي، أسد خزيمة، فولدت له حبيبة التي كُنِّيت بها، وأنها أسلمت وأسلم زوجُها عبيد الله بن جحش وهاجرَ بها إلى أرض الحبشة، ثم إنَّ زوجَها تنصَّر هناك، ومات نصرانياً، ثم إنَّ رسولَ الله ﷺ خطبها وهي بأرض الحبشة فبعث شرحبيل بن حسنة إلى النجاشي في ذلك. روى الزبير بن بكار عن

---

(١) في (ز): المسلمين.

وتُؤمِّرُني حتى أقاتل الكفارَ؛ كما كنتُ أقاتلُ المسلمين. قال: «نعم». قال

إسماعيل بن عمرو: أن أم حبيبة قالت: ما شعرت وأنا بأرض الحبشة إلا برسول النجاشي جارية يقال له: أبرهة، كانت تقوم على ثيابه ودهنه، فاستأذنت عليَّ فأذنتُ لها، فقالتْ: إنَّ الملكَ يقولُ لكِ: إن رسول الله ﷺ كتب أن أزوِّجَكِهِ، فقلت: بشَّرَكِ اللَّهُ بخيرٍ، وقالت: يقول لك الملك: وكِّلي من يزوِّجك، فأرسَلْتُ إلى خالد بن سعيد فوكَّلْتُه، وأعطيتُ أبرهة سوارين من فضَّة كانتا عليَّ، وخواتم فضَّة، كانت في أصابعي سُروراً بما بشَّرتني به، فلما كان العشيُّ أمر النجاشيُّ جعفرَ ابنَ أبي طالب، ومَن هناك مِن المسلمين يحضرون، وخطب النجاشيُّ فقال: الحمدُ لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنه الذي بشَّر به عيسى ابن مريم، أما بعد: فإنَّ رسولَ الله ﷺ كتب إليَّ أن أزوِّجه أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان، فأجبت إلى ما دعا إليه رسولُ الله ﷺ، وقد أصدقْتُها أربعمئة دينار، ثم سكب الدَّنانير بين يدي القوم، فتكلم خالد بن سعيد، فقال: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه، ولو كره المشركون، أما بعد: فقد أجبتُ إلى ما دعا إليه رسولُ الله ﷺ وزوَّجْتُه أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك اللَّهُ لرسوله. ودفع النجاشيُّ الدنانيرَ إلى خالد بن سعيد، فقبضها، ثم أرادوا أن يقوموا فقال: اجلسوا فإن سُنَّةَ الأنبياء إذا تزوَّجوا أن يُؤكل طعامٌ على التزويج، فدعا بطعام فأكلوا، ثم تفرَّقوا. قال الزبير: قدم خالدُ بن سعيد، وعمرو بن العاص بأمِّ حبيبة من أرض الحبشة عام الهدنة. وقال بعضُ الرواة: إنما أصدقها أربعةَ آلاف درهم، وأنَّ عثمان بن عفان هو الذي أولم عليها، وأنَّه هو الذي زوَّجها إيَّاه، وقيل: زوَّجها النجاشي.

خطبة النجاشي في زواج أم حبيبة

خطبة خالد بن سعيد في زواج أم حبيبة

وليمة النجاشي على تزويج أم حبيبة

قلـــتُ: ويصحُّ الجمعُ بين هذه الروايات، فتكون الأربعمئة دينار صرفت، أو قوِّمت بأربعة آلاف درهم، وأن النجاشي هو الخاطب، وعثمان هو العاقد،

أبو زُمَيْلٍ: ولولا أنَّه طلب ذلك من النَّبيِّ ﷺ، ما أعْطَاه ذلك؛ لأنَّه لم يكُنْ يُسْأَلُ شيئاً إلا قال: نعم.

رواه مسلم (٢٥٠١).

* * *

وسعيد الوكيل، فصحَّت نسبةُ التَّزويج لكلِّهم، وهذا هو المعروفُ عند جمهور[١] أهل التَّواريخ والسِّير، كابن شهاب، وابن إسحاق، وقتادة، ومُصعب، والزُّبير وغيرهم.

وقد روي عن قتادة قولٌ آخر: أنَّ عثمان بن عفان زوَّجها من النبيِّ ﷺ بالمدينة بعدما قدمتْ من أرض الحبشة. قال أبو عمر: والصحيح الأول، وروي أنَّ أبا سفيان قيل له؛ وهو يحاربُ رسولَ الله ﷺ: إن محمداً قد نكح ابنتك! فقال: ذلك الفحلُ الذي لا يُقْدَعُ أنفه[٢]. وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: تزوَّج رسولُ الله ﷺ أمَّ حبيبة سَنَةَ ستٍّ من التاريخ، قال غيرُه: سنة سبع، قال أبو عمر: توفيتْ أمُّ حبيبة سنة أربع وأربعين.

قلــتُ: فقد ظهر أنَّه لا خلافَ بين أهل النقل أنَّ تزويجَ النبيِّ ﷺ مُتقدِّمٌ على إسلام أبيها أبي سفيان، وعلى يوم الفتح، ولمَّا ثبت هذا تعيَّن أن يكونَ طَلَبُ أبي سفيان تزويجَ أمِّ حبيبة للنبي ﷺ بعد إسلامه خطأً ووهماً، وقد بحث النقَّادُ عمَّن وقع منه ذلك الوهمُ فوجدوه قد وقع من عكرمة بن عمار. قال أبو الفرج الجوزي: اتهموا به عكرمةَ بن عمار، وقد ضَعَّفَ أحاديثَه يحيـى بن سعيد، وأحمد بن حنبل،

---

(١) في (ز): أهل.

(٢) معناه: لا يُضرب أنفه، وذلك إذا كان كريماً، وأصله للفحل إذا كان غير كريم وأراد ركوب الناقة الكريمة، فيضربون أنفه بالرمح وغيره ليرتدع. يريد أبو سفيان: أنه كفء كريم لا يُرَدُّ.

(٦٨) بــاب
فضائل جعفر بن أبي طالب
وأسماء بنت عميس وأصحاب السفينة

[٢٤١٠] عن أبي موسى، قال: بلَغَنا مَخْرجُ رسولِ اللَّهِ ﷺ ونحنُ

ولذلك لم يُخرِّج عنه البخاريُّ، وإنما أخرجَ عنه مسلم؛ لأنه قد قال فيه يحيى بن معين: هو ثقة. وقال أبو محمد علي بن أحمد الحافظ: هذا حديثٌ موضوعٌ، لا شكَّ في وَضْعه، والآفةُ فيه من عكرمة بن عمار، قال بعضُهم: ومما يُحقِّق الوهمَ في هذا الحديث قولُ أبي سفيان للنبيِّ ﷺ: أريدُ أن تؤمِّرني. فقال له: «نعم». ولم يسمع قطُّ أنَّ النبيَّ ﷺ أمَّر أبا سفيان على أحدٍ إلى أن تُوفِّي، فكيف يخلف النبيُّ ﷺ الوعد؟ هذا ما لا يجوزُ عليه.

عدم تونيته ﷺ لأبي سفيان

قلــتُ: قد تأوَّل بعضُ من صحَّ عنده ذلك الحديث، بأن قال: إنَّ أبا سفيان إنما طلبَ من النَّبيِّ ﷺ أن يُجدِّدَ معه عقداً على ابنته المذكورة ظناً منه: أنَّ ذلك يصحُّ، لعدم معرفته بالأحكام الشرعية، لحداثة عهده بالإسلام، واعتذر عن عدم تأميره مع وعده له بذلك؛ لأن الوعدَ لم يكن مؤقَّتاً، وكان يرتقبُ إمكانَ ذلك فلم يتيسَّر له ذلك إلى أن توفِّي رسولُ الله ﷺ، أو لعلَّه ظهر له مانعٌ شرعيٌّ منعه من توليته الشَّرعية، وإنما وعده بإمارة شرعية فتخلَّف لتخلُّف شَرْطِها، والله تعالى أعلم.

(٦٨) ومن بــاب: فضائل جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ

كنيته وهجرته إلى الحبشة وقدومه إلى المدينة

يُكنى: أبا عبد الله، كان أكبرَ من عليٍّ أخيه ـ رضي الله عنهما ـ بعشر سنين، وكان من المهاجرين الأوَّلين، هاجر إلى أرض الحبشة، وقدم منها على رسول الله ﷺ حين فتح خيبر، فتلقَّاه النبيُّ ﷺ، وعانقه، وقال: «ما أدري بأيِّهما

بِاليَمنِ، فخرجْنا مهاجرينَ إليه، أنا وأَخَوانِ لي، أنا أَصغَرُهُما، أَحَدُهُما

أنا أشدُّ فرحاً، بقدوم جعفر، أم بفتح خيبر؟»[1]. وكان قدومه من الحبشة في السنة السَّابعة من الهجرة، واختطَّ له النبيُّ ﷺ إلى جَنْب المسجد، وقال له النبيُّ ﷺ: «أشبهتَ خَلْقِي وخُلُقِي»[2]. ثم غزا غزوةَ مُؤتة، وذلك في سنة ثمانٍ من الهجرة، فقُتِل فيها بعد أن قاتل فيها حتى قطعتْ يداه جميعاً، فقال رسولُ الله ﷺ: «إن اللَّه أبدله بيديه جناحَيْنِ يطيرُ بهما في الجنة حيث يشاء»[3]. فمن هنالك قيل له: ذو الجناحين. ولما أتى النبيَّ ﷺ نعيُ جعفر أتى امرأتَه أسماءَ بنت عُميس، فعزّاها في زوجها، فدخلت فاطمة تبكي وهي تقول: واعماه! فقال لها رسولُ الله ﷺ: «على مثل جعفر فلتبكِ البواكي»[4]. وأما أسماء فهي: ابنةُ عُميس بن معدِّ بن الحارث بن تيم بن كعب بن مالك الخثعمية، من خثعم أنمار، وهي أخت ميمونة زوج النبي ﷺ وأخت لبابة ـ أم الفضل ـ زوجة العباس، وأخت أخواتها، وهنَّ: تسع، وقيل: عشر. هاجرتْ أسماءُ مع زوجها جعفر إلى أرض الحَبشة، فولدتْ له هنالك محمداً، وعبدالله، وعوفاً، ثم هاجرتْ إلى المدينة. فلما قتل جعفر، تزوَّجها أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنهما ـ وولدت له محمد بن أبي بكر، ثم مات عنها فتزوجها علي بن أبي طالب، فولدت يحيى بن عليٍّ، لا خلافَ في ذلك، وقيل: كانت أسماء بنت عُميس تحت حمزة بن عبد المطلب، فولدت له ابنة

بلاؤه واستشهاده في مؤتة

نَسَب أسماء بنت عميس

هجرتها إلى الحبشة ثم المدينة

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٦٢٤ و ٣/ ٢٠٨)، وابن أبي شيبة (١٢/ ١٠٦ و ١٤/ ٣٤٩).

(٢) رواه أحمد (١/ ٩٨ ـ ٩٩)، والحاكم (٣/ ١٢٠) من حديث عليّ. ورواه البخاري (٢٦٩٩)، والترمذي (٣٧٦٥) من حديث البراء.

(٣) خرَّجه البغوي في معجمه، وأبو عمر في الاستيعاب (١/ ٢١٠)، وابن الأثير في أسد الغابة (١/ ٣٤٣). وانظر: ذخائر العقبى ص (٢١٧).

(٤) ذكره ابن الأثير في أسد الغابة (١/ ٣٤٣)، وأبو عمر في الاستيعاب (على هامش الإصابة) (١/ ٢١١).

أبو بُرْدَة، والآخَرُ أبو رُهْم ـ إما قَال: بِضعاً، وإمَّا قال: ثلاثةً وخمسينَ، أو: اثنين وخمسينَ رجُلاً من قومي ـ قال: فرَكبْنا سفينةً فألْقَتْنا سَفِينَتُنا إلى النجاشيِّ بالحبشةِ، فَوَافَقْنا جَعْفَر بنَ أبي طالبٍ وأصحابَه عِنْدَه، فقال جعفرٌ: إنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ بعثَنَا هَا هُنا، وأَمَرَنا بالإِقَامة، فأقيموا معنا. قال: فأقمنا معه حتى قَدِمْنا جميعاً. قال: فوافقنا رسولَ اللَّهِ ﷺ حينَ افْتَتَح خيبر، فأَسْهَمَ لَنا ـ أو قال: أعطانَا مِنْها ـ وما قَسَم لأحدٍ غابَ عن فَتْح خيبر مِنْها شيئاً. إلا لِمَن شَهِدَ معه، إلا لأَصْحَاب سَفينَتِنا مع جعفرٍ وأصحابِهِ. قَسَمَ لَهُمْ مَعَهُم. قال: فكان نَاسٌ من الناسِ يقولونَ لَنا ـ يعني لأهل السَّفينة ـ: سبقناكم بالهجرة! قال: فَدَخَلَتْ أسماء بنتُ عُمَيْسٍ ـ وهي ممَّن قدِمَ مَعَنا ـ على حفصةَ زَوْجِ النَّبيِّ ﷺ زائرةً ـ وقدْ كانَتْ هاجرتْ إلى النَّجاشيِّ فِيمنْ هاجَرَ إليه ـ فدخل عمرُ على حفصة وأسماءُ عندها. فقال عمرُ حين رأى أسماءَ: من هذِهِ؟ قالتْ: أسماءُ بنت عميس. قال عمرُ:

تسمى: أمة الله. وقيل: أمامة، ثم خَلَفَ عليها بعده شداد بن الهادي الليثي، فولدت له: عبد الله وعبد الرحمن، ثم خلف عليها بعده جعفر ثم كان الأمرُ كما ذكر.

و (قول أبي موسى: إما قال: بضعة، وإما قال: ثلاثة وخمسين، أو اثنين وخمسين رجلاً؟) كذا صواب الرواية فيه بإثبات هاء التأنيث في بضعة؛ لأنه عَدَدٌ مُذَكَّرٌ، وبالنصب على الحال مِن: خرجنا المذكور، وإما: موطئة للشك، وما بعدها معطوفٌ عليها مشكوكٌ فيه، وقد وقع في بعض النسخ، إما قال: بضع ـ بإسقاط الهاء ـ وبالرفع مع نصب: وخمسين، وذلك لحنٌ واضح، والأول الصواب.

الحبشية هذه؟ البَحْرِيَّة هذه؟ فقالتْ أسماءُ: نعم! فقال عمر: سَبَقْناكم بالهجرة، فنحن أحقُّ برسولِ اللَّهِ ﷺ منكم، فغَضِبَتْ، وقالتْ كلمةً: كَذَبْتَ يا عمرُ! كَلا واللَّهِ كنتُم مع رسول الله ﷺ يُطْعِمُ جائِعكُمْ، ويَعِظُ جاهِلَكُم، وكنّا في دارٍ ـ أو في أرضٍ ـ البُعَدَاءِ البُغَضَاءِ في الحبشة، وذلك في اللَّهِ، وفي رسُولِهِ. وايم اللَّهِ! لا أَطْعَمُ طَعاماً، ولا أَشْرَبُ شَرَاباً حتى أذْكُرَ ما قلتَ لِرسولِ اللَّهِ ﷺ! ونحن كنا نؤذَى ونُخَافُ. وسأذكرُ ذلك لرسولِ الله ﷺ وأسألُهُ واللَّهِ! لا أكذِبُ، ولا أزيغُ، ولا أزيدعلى ذلك

و (قول عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟) نَسَبَها إلى الحبشة لمقامها فيهم، وللبحر لمجيئها فيه، وهو استفهامٌ قَصَد به المطايبةَ والمباسطة، فإنه كان قد علم مَن هي حين رآها.

و (قول عمر: سبقناكم بالهجرة فنحن أحقُّ برسول الله ﷺ منكم)، صَدَرَ هذا القولُ من عمر ـ رضي الله عنه ـ على جهة الفرح بنعمة الله، والتحدُّثِ بها، لما علم من عظيم أَجْر السَّابق للهجرة. ورفعه درجته على اللاحق، لا على جهة الفخر والترفُّع، فإنَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ مُنَزَّهٌ عن ذلك، ولما سمعتْ أسماءُ ذلك، غضبتْ غَضَبَ منافسةٍ في الأجر وغيره على جهة السَّبْق، فقالت: كذبتَ يا عمر! أي: أخطأتَ في ظنِّك، لا أنها نسبته إلى الكذب الذي يأثمُ قائلُه، وكثيراً ما يُطلق الكذبُ بمعنى الخطأ، كما قال عُبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ: كذب أبو محمد[1] لما زعم أن الوتر واجب.

و (قولها: كلا والله) أي: لا يكونُ ذلك، فهي نفيٌ لما قال، وزَجْرٌ عنه، وهذا أصلُ كلاّ، وقد تأتي للاستفتاح بمعنى ألَا. والبُعداء: جمع بعيد. والبُغضاء: جمع بغيض، كظريف وظرفاء، وشريف وشرفاء.

---

(١) هو مسعود بن زيد، واسمه: أبو محمد الأنصاري. انظر: أسد الغابة (٥/ ١٦١).

قال: فلمّا جاءَ النبي ﷺ؛ قالت: يا نبيّ الله! إنّ عُمر قال: كذا وكذا. فقال رسول الله ﷺ: «ليس بأحقَّ بي منكم، له ولأصْحَابِهِ هجرةٌ واحدةٌ، ولكم أنتم أهلَ السَّفينة هجرتان». قالت: فلقد رأيتُ أبا موسى وأصحابَ السفينةِ يأتوني أرْسالاً؛ يسألوني عن هذا الحديثِ، ما مِنَ الدُّنيا شيءٌ هُمْ به أفرحُ، ولا أعظمُ في أنْفُسِهم ممّا قالَ لَهُمْ رسولُ اللَّهِ ﷺ.

رواه البخاريُّ (٤٢٣٠)، ومسلم (٢٥٠٢).

* * *

جعفر وأصحابه لهم هجرتان

و (قوله ﷺ: «ليس أحقَّ بي منكم») يعني في الهجرة لا مطلقاً. وإلا فمرتبة عمر ـ رضي الله عنه ـ وخصوصيَّة صُحبته للنبيِّ ﷺ معروفةٌ بدليل قوله ﷺ: «له ولأصحابه هجرةٌ واحدة، ولكم أهلَ السفينة هجرتان». وسَبَبُ ذلك أن عمرَ وأصحابَهُ هاجروا من مكَّة إلى المدينة هجرةً واحدة في طريق واحدٍ، وهاجر جعفرُ وأصحابُه إلى أرض الحبشة، وتركوا رسولَ الله ﷺ بمكة، ثم إنَّهم لمَّا سمعوا بهجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة ابتدؤوا هجرةً أخرى إليه، فتكرَّر الأجرُ بحسب تكرار العمل والمشقة في ذلك.

و (قولها: يأتوني أرسالاً) أي: مُتتابعين جماعة بعد جماعة، وواحد الأرسال: رَسْل، كأحمال جمع حمل. يقال: جاءت الخيلُ أرسالاً: أي: قطعة قطعة، ففيه قبول أخبار الآحاد، وإن كان خبر امرأة، وفيما ليس طريقاً للعمل، والاكتفاء بخبر الواحد المفيد لغلبة الظَّنِّ مع التمكُّن من الوصول إلى اليقين؛ فإنَّ الصَّحابةَ ـ رضي الله عنهم ـ اكتفوا بخبرها، ولم يراجعوا رسولَ اللَّهِ ﷺ عن شيءٍ من ذلك، وخبرُها يفيدُ ظنَّ صِدْقها، لا العلم بصدقها، فافهـمْ هذا.

و (قولها: ما من الدُّنيا شيءٌ هُم أَفْرَحُ به، ولا أعظمُ في أنفسهم مما قال لهم رسولُ الله ﷺ) تعني: ما مِن الدنيا شيءٌ يحصلُ به ثوابٌ عند الله تعالى هو في

(٦٩) بـــاب

فضائل سلمان وصهيب ـ رضي الله عنهما ـ

[٢٤١١] عن عائذِ بنِ عمرو: أنَّ أبا سفيانَ أتى على سَلْمان،

نفوسهم أعظمُ قدراً، ولا أكثرُ أجراً، مما تَضَمَّنه هذا القول؛ لأنَّ أصلَ أفعل أن تُضافَ إلى جنسها، وأعراضُ الدنيا ليست من جنس ثواب الآخرة، فتعيَّن ذلك التأويل، واللَّهُ تعالى أعلم.

(٦٩) ومن بـــاب: فضائل سلمان وصهيب ـ رضي الله عنهما ـ

كنية سلمان، ونسبه وإسلامه

أما سلمان، فيُكنى: أبا عبد الله، وكان ينتسبُ إلى الإسلام، فيقول: أنا سلمانُ ابن الإسلام، ويُعَدُّ من موالي رسول الله ﷺ؛ لأنه أعانه بما كُوتِبَ عليه، فكان سَبَبَ عتقه، وكان يُعرف بسلمان الخير، وقد نسبه النبيُّ ﷺ إلى أهل بيته، فقال: «سلمانُ منَّا أهلَ البيت»[١]. وأصله فارسيٌّ من رام هرمز، من قرية يقال لها: جَيّ[٢]. ويقال: بل من أصبهان، وكان أبوه مجوسياً مِن قومٍ مجوس، فنبَّهه اللَّهُ لقبح ما كان عليه أبوه وقومُه، وجَعَلَ في قلبه التشوُّفَ إلى طَلَب الحقِّ، فهرب بنفسه، وفرَّ من أرضه إلى أن وصل إلى الشام، فلم يزلْ يجولُ في البلدان، ويختبرُ الأديانِ، ويستكشفُ الأحبارَ والرُّهبان، إلى أن دُلَّ على راهب الوجود، فوصل إلى المقصود، وذلك بعد مكابدةِ عظيم المشقّات، والصبر على مكاره الحالات، من: الرق، والإذلال، والأسر، والأغلال، كما هو منقولٌ في إسلامه في كُتُب السِّير وغيرها.

---

(١) رواه الحاكم (٣/٥٩٨)، والطبراني في الكبير (٦/٢٦١). وانظر: مجمع الزوائد (٦/ ١٣٠).

(٢) جاء في حاشية أسد الغابة (٢/ ٤١٧): جَيّ: اسم مدينة أصبهان القديم.

وصهيبٍ، وبلالٍ في نفَرٍ، فقالوا: ما أخذتْ سيوفُ اللَّهِ من عُنُقِ عدوِّ الله

وروى أبو عثمان النّهدي عن سلمان أنه قال: تداوله في ذلك بضعة عشر ربّاً من ربٍّ إلى ربٍّ حتى أفضى إلى النبيِّ ﷺ.

قال غيره: فاشتراه رسولُ الله ﷺ للعتق من قوم من اليهود بكذا وكذا درهماً، وعلى أن يغرسَ لهم كذا وكذا من النَّخل، يعملُ فيها سلمان حتى تدرك، فغرس رسولُ الله ﷺ النخلَ كلَّها بيده، فأطعمتِ النخلُ مِن عامها.

مشاهد سلمان مع رسول الله ﷺ

وأوّلُ مشاهده مع رسول الله ﷺ الخندقَ، ولم يَفُتْهُ بعد ذلك مشهدٌ معه. وقد قيل: إنه شهد بدراً وأُحُداً، والأوّلُ أعرف. وكان خيِّراً فاضِلاً حَبْراً عالماً زاهداً مُتَقَشِّفاً. رُويَ عن الحسن أنه قال: كان عطاءُ سلمان خمسةَ آلاف، وكان إذا خرج عطاؤه تصدَّق به، ويأكل من عمل يده، وكانت له عباءة يفترش بعضها ويلبسُ بعضها.

زهدُ سلمان

وذكر ابن وهب، وابن نافع عن مالك قال: كان سلمانُ يعملُ الخوصَ بيده فيعيش منه، ولا يقبلُ من أحدٍ شيئاً، قال: ولم يكن له بيت؛ إنما كان يستظلُّ بالجُدُر والشجر؛ وإن رجلاً قال له: ألَا أبني لك بيتاً تسكنُ فيه؟ فقال: ما لي به حاجة، فما زال به الرجلُ حتى قال له: إنِّي أعرفُ البيتَ الذي يوافقك، قال: فصفه لي. فقال: أبني لك بيتاً إذا أنت قمتَ فيه أصابَ رأسَك سقفُه، وإذا أنت مددتَ رجليكَ أصابك الجدار. قال: نعم، فبني له.

من فضائل سلمان

وروي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لو كان الدينُ في الثريا لناله سلمان»[١]، وفي رواية: «رجال من الفرس»[٢]. وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كان لسلمان

---

(١) رواه أحمد (٢/٤١٧)، والبخاري (٤٨٩٨)، ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣١)، والترمذي (٣٣١٠).

(٢) رواه أحمد (٢/٢٩٦ ـ ٢٩٧).

مأخَذَها! قال: فقال أبو بكر: تقولون هذا لشيخ قريشٍ وسيِّدهم؟ فأتى

مجلسٌ من رسول الله ﷺ ينفردُ به بالليل حتى كاد يغلبنا على رسول الله ﷺ. وقال ﷺ: «إنَّ الله أمرني أن أحبَّ أربعة، وأخبرني أنه يحبُّهم: عليٌّ، وأبو ذرّ، والمقداد، وسلمان»[١]. وقال أبو هريرة: سلمانُ صاحب الكتابين، وقال عليٌّ: سلمان عَلِمَ العلمَ الأول والآخر، بحرٌ لا ينزف، هو منَّا أهل البيت. وقال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ أيضاً: سلمان الفارسي مثل لقمان الحكيم. وله أخبارٌ حِسان، وفضائلُ جَمَّة. توفي سلمان ـ رضي الله عنه ـ في آخر خلافة عثمان ـ رضي الله عنه ـ سنة خمس وثلاثين، وقيل: مات بل سَنَة ستٍّ في أولها، وقد قيل: توفي في خلافة عمر، والأوَّلُ أكثر. قال الشعبيُّ: توفي بالمدائن، وكان من المعمَّرين، أدرك وصيَّ[٢] عيسى ابن مريم، وعاش مئتين وخمسين سنة، وقيل: ثلاثمئة وخمسين سنة. قال أبو الفرج: والأول أصح، وجملةُ ما حُفِظ له عن رسول الله ﷺ ستون حديثاً، أُخرج له منها في الصَّحيحين سبعة.

وفاة سلمان

نسبُ صهيب ونشأته

وأما صُهيب، فهو ابنُ سنان بن خالد بن عبد عمرو ـ من العرب ـ بن النمر ابن ساقط، كان أبوه عاملاً لكسرى على الأُبُلَّة، وكانت منازلُهم بأرض الموصل في قرية على شطّ الفرات، مما يلي الجزيرة والموصل، فأغارت الروم على تلك الناحية فسبتْ صُهيباً، وهو غلام صغير، فنشأ صهيب بالروم، فصار ألكن، فابتاعته منه كلب، ثم قدمتْ به مكة، فاشتراه عبد الله بن جُدْعان، فأعتقه، فأقام بمكة حتى هلك ابن جُدْعان، وبُعِث النبيُّ ﷺ وأسلم هو وعمار بن ياسر في يوم واحدٍ بعد بضعة وثلاثين رجلاً، فلما هاجر النبيُّ ﷺ إلى المدينة لحقه صُهيب، فقالت له قريش حين خرج يريدُ الهجرة: أتفجعنا بنفسك ومالك؟ فدلَّهم على ماله، فتركوه، فلما رآه النبيُّ ﷺ قال له: «ربح البيعُ أبا يحيى». فأنزل الله عز وجل في أمره:

إسلامه وهجرته

---

(١) رواه الترمذي (٣٧١٨)، وابن ماجه (١٤٩).
(٢) انظر: قصة إسلام سلمان في أسد الغابة لابن الأثير (٢/ ٤١٧).

. . . .

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ. . .﴾ الآية [البقرة: ٢٠٧][١].

وروي عنه أنه قال: صحبتُ النبيَّ ﷺ قبل أن يُوحى إليه.

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحبَّ صهيباً حُبَّ الوالدة ولدَها»[٢].

وقال ﷺ: «صهيب سابقُ الروم، وسلمان سابقُ فارس، وبلال سابقُ الحبشة»[٣]. وإنما نسبه النبيُّ ﷺ للروم لما ذكر أنه نشأ فيهم صغيراً، وتلقَّف لسانهم.

وقد تقدَّم ذِكْرُ نسبه.

وقال له عمر: ما لك يا صهيب تُكنى أبا يحيى، وليس لك ولد، وتزعم أنك من العرب، وتطعم الطعام الكثير، وذلك سرف؟ فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ كنَّاني بأبي يحيى، وإني من النمر بن قاسط من أنفسهم، ولكني سُبيت صغيراً أعقل أهلي وقومي، ولو انفلقتْ عني روثة لانتميتُ إليها، وأما إطعام الطعام؛ فإن رسولَ الله ﷺ قال: «خيارُكم مَن أطعم الطَّعام، وردَّ[٤] السلام»[٥].

توفي صهيب بالمدينة سنة ثمانٍ وثلاثين في شوّالها، وقيل: سنة تسع، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، ودُفِن بالبقيع. وفاة صُهيب

(١) رواه الحاكم (٣/ ٣٩٨)، وابن حبان (٧٠٨٢). وانظر: جامع الأصول (٢/ ٣٧).

(٢) رواه ابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٧/ ٢٦٢٦).

(٣) رواه ابن أبي شيبة (١٢/ ١٤٨ و ١٥٢)، وعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٢٤٢). وانظر: مجمع الزوائد (٩/ ٣٠٥).

(٤) في (ز): أفشى.

(٥) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٥٣)، والأصبهاني في الترغيب والترهيب (٣٩٢)، وأبو الشيخ كما في الترغيب والترهيب للمنذري (١٣٨١).

النَّبيَّ ﷺ فأخْبَره، فقال: «يا أبا بكرٍ! لعلَّك أغْضَبْتَهم، لئنْ كُنْتَ أغْضَبْتَهم لقد أغضبت ربَّك». فأتاهمْ، فقال: يا إخوتاه! أغضبتُكم؟ قالوا: لا، يغفرُ الله لك يا أُخَيَّ.

رواه مسلم (٢٥٠٤).

* * *

(٧٠) بـــاب

فضائل الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ

[٢٤١٢] عن جابرِ بنِ عبد الله، قال: فينا نَزَلَتْ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢] بَنُو سلمةَ وبنو حارثةَ،

و (قوله ﷺ لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: «لئن كنتَ أغضبتهم لقد أغضبتَ ربَّك») يدلُّ على رفعة منازل هؤلاء المذكورين عند الله تعالى، ويُستفاد منه احترامُ الصَّالحين، واتِّقاءُ ما يغضبهم، أو يُؤذيهم.

(٧٠) ومن بـــاب: فضائل الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ

رجوع المنافقين يوم أحد

(قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢]) يعني بذلك: يوم أُحُدٍ، وذلك: أنه لمَّا خرج النبيُّ ﷺ للقاء المشركين رجع عنه عبد الله بن أُبيٍّ بجمع كثيرٍ فشلاً عن الحرب ونكولاً، وإسلاماً للنبيِّ ﷺ وأصحابه للعدو، وهمَّت بنو سلمة، وبنو حارثة بالرُّجوع، فحماهم اللَّهُ تعالى من ذلك، مما يضرُّهم من قبل ذلك، وعظيم إثمه، فلحقوا بالنبيِّ ﷺ وبالمسلمين إلى أن شاهدوا الحرب، وكان من أمر أُحُد ما قد ذكر.

وما نحبُّ أنَّها لم تنزلْ لقول الله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

رواه البخاريُّ (٤٥٥٨)، ومسلم (٢٥٠٥).

و (قول جابر: ما نحبّ ألّا تنزل) إنَّما قال ذلك لما في آخرها من تولّي الله تعالى لتينك الطَّائفتين مِن لُطْفه بهما، وعصمته إياهما، مما حلَّ بعبد الله بن أُبيٍّ من الإثم، والعار، والذَّمِّ، وذلك قوله تعالى: ﴿والله وليهما﴾ أي: متولّي حِفْظهما وناصرهما.

و (قوله: فقام متمثلاً[1]) يروى هكذا هنا، ويروى أيضاً مُمْثلاً، وفيهما بُعْدٌ؛ لأن مثَّل: معناه: صوّر مثاله، وتمثّل هو في نفسه؛ أي: تصوّر، وكلاهما ليس له معنى هنا، وإنما الذي يُناسب هذا أن يكون ماثلاً. يقال: مثل بين يديه قائماً، أي: انتصب قائماً، فيعني به: أنه قام منتصبَ القامة فعل المتبشبش بمن لقيه. وقد رواه البخاري فقال: فكان متمثلاً[1]، ممتناً من الامتنان، وهو وإن كان فيه بُعْدٌ أنسب مما رواه مسلم، والله تعالى أعلم[2].

و (قوله ﷺ: «الأنصار كَرِشي وعيبتي») أي: جماعتي التي أنضمُّ إليها، وخاصَّتي التي أفضي بأسراري إليها. والكَرِش: لما يجترُّ كالمعدة للإنسان، والحوصلة للطائر، والكرش مؤنثة، وفيها لغتان: كَرِش ـ بفتح الكاف، وكسر الراء ـ. وكِرْش ـ بكسر الكاف وسكون الراء ـ: مثل: كَبِد وكِبْد، وكرشُ الرجل:

---

(١) في (ز): ممتثلاً.

(٢) ورد في التلخيص الحديث الذي يرويه أنس ـ رضي الله عنه ـ وفيه: جاءت امرأةٌ من الأنصار إلى رسول الله ﷺ فخلا بها رسولُ الله ﷺ... الخ الحديث. إلَّا أنَّ الشيخ القرطبي ـ رحمه الله ـ لم يشرحْ في «المفهم» هذا الحديث، ولعلَّه لم يجد فيه إشكالاً. ونثبت ـ هنا ـ ما جاء في شرح النووي على صحيح مسلم من إيضاح لمعنى الخلو بها. قال: هذه المرأة إما محرمٌ له كأمِّ سليم وأختها، وإمَّا المراد بالخلوة: أنها سألته سؤالاً خفياً بحضرة أناس، ولم تكن خلوة مطلقة، وهي الخلوة المنهي عنها.

[٢٤١٣] وعن زيدِ بنِ أرقم، قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهُمَّ اغفر للأنْصَار، ولأبناءِ الأنصار، وأَبْناءِ أَبْناءِ الأَنْصَارِ».

رواه أحمد (٤/ ٣٦٩)، والبخاريُّ (٤٩٠٦)، ومسلم (٢٥٠٦)، والترمذيُّ (٣٩٠٢).

[٢٤١٤] وعن أنسٍ: أنَّ رسول الله ﷺ استغفر للأنصار. قال ـ وأَحْسِبُهُ قال ـ: «وَلِذَرارِي الأَنْصارِ، وَلِموالي الأَنْصَارِ» لا أشكُّ فيه.

رواه مسلم (٢٥٠٧).

[٢٤١٥] وعنه؛ أنَّه قال: إنَّ النَّبيَّ ﷺ رأى صِبْياناً ونساءً مُقْبلينَ من عُرْسٍ، فقام نبيُّ اللَّهِ ﷺ متمثلاً؛ فقال: «اللهم! أنتم من أحبِّ النَّاسِ إليَّ. اللهم! أنْتُم من أحبِّ الناس إليَّ» ـ يعني: الأنصار ـ.

رواه أحمد (٣/ ١٧٥ ـ ١٧٦)، والبخاريُّ (٣٧٨٥)، ومسلم (٢٥٠٨).

[٢٤١٦] وعنه؛ قال: جاءتِ امرأةٌ من الأنْصَارِ إلى رسولِ الله ﷺ. قال: فخلا بها رسولُ الله ﷺ. وقال: «والذي نفسي بيده! إنَّكم لأَحَبُّ النَّاس إليَّ ـ ثلاث مراتٍ ـ».

رواه البخاريُّ (٣٧٨٦)، ومسلم (٢٥٠٩).

عيالُه وصغارُ ولده، والكرش: الجماعة، وهي المعنيةُ بالحديث. وأصلُ العيبة: ما تُجعل فيه الثياب الرفيعة، والجمع عِيَب، كَبَدْرَةٍ وبِدَر، وتُجمع أيضاً: عِياباً، وعَيْبات.

الاستغفار للأنصار

و (قوله: «اللهم اغفر للأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار») ظاهره

[٢٤١٧] وعنه؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الأنصارَ كَرِشِي وعَيْبَتي، وإنَّ الناسَ سَيَكْثُرون، ويَقِلُّونَ، فاقبلوا من مُحْسِنِهم، واعفوا عن مُسيئهم».

رواه أحمد (٣/ ١٧٦)، والبخاريُّ (٣٨٠١)، ومسلم (٢٥١٠)، والترمذيُّ (٣٩٠٧)، والنسائي في الكبرى (٨٣٢٥).

[٢٤١٨] وعنه؛ قال: خرجتُ مع جريرِ بن عبد الله البجَلِيِّ في سفرٍ، فكان يخْدُمُني، فقلت له: لا تفعل! فقال: إنِّي قد رأيتُ الأنصارَ تصنعُ برسولِ اللَّهِ ﷺ شيْئاً آليتُ أنْ لا أصْحَبَ أحداً منهم إلا خَدَمْتُهُ ـ وكان جريرٌ أسنَّ من أنسٍ ـ.

رواه البخاريُّ (٢٨٨٨)، ومسلم (٢٥١٣).

* * *

الانتهاءُ بالاستغفار إلى البطن الثالث، فيمكن أن يكون ذلك؛ لأنهم من القرون التي قال فيها النبيُّ ﷺ: «خيرُ أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[١]، ويمكن أن تشملَ بركةُ هذا الاستغفار المؤمنين من نَسْل الأنصار إلى يوم القيامة مبالغة في إكرام الأنصار، لا سيما إذا كانت نية الأولاد فعل مثال ما سبق إليه الأجداد، ويُؤيّد ذلك قوله في الرواية الأخرى: «ولذراري الأنصار».

* * *

---

(١) رواه أحمد ٤/ ٤٢٧ و ٤٣٦)، والبخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥) (٢١٤)، وأبو داود (٤٦٥٧)، والترمذي (٢٢٢٢)، والنسائي (٧/ ١٧ ـ ١٨).

(٧١) بـــاب
خير دور الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ

[٢٤١٩] عن أبي أُسَيْدٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ دورِ الأنصار بنو النَّجَّارِ، ثم بَنو عبدِ الأشهلِ، ثُمَّ بنُو الحارث بن الخَزْرج، ثم بَنُو ساعِدة، وفي كُلِّ دُور الأنْصَارِ خَيْرٌ». فقال سعدٌ: ما أُرَى رَسُول الله ﷺ إلا قد فَضَّل عَلَيْنا! فقيلَ: قد فضَّلكم على كثيرٍ.

قال أبو أسيد: لو كُنْتُ مؤثِراً بها أحداً لآثَرتُ بها عشيرتي.

رواه أحمد (٣/ ٤٩٦)، والبخاريُّ (٣٧٨٩)، ومسلم (٢٥١١) (١٧٧ و ١٧٨)، والترمذيُّ (٣٩٠٧).

(٧١ و ٧٢) ومن بـــاب: خير دور الأنصار ـ رضي الله عنهم[1] ـ

(قوله ﷺ: «خير دُور الأنصار: دور بني النجار») أصلُ الدار: المنزل الذي يُقام فيه، ويُجمع في القلَّة: أدْور، بواو مضمومة، وقد أبدلوا من الضمة همزة استثقالاً للضمَّة على الواو، ويُجمع في الكثرة على ديارٍ ودور، والدار مؤنثة، ثم قد يُعبَّر بالدار عن ساكنها كما جاء في هذا الحديث، فإنه أراد بالدِّيار: القبائل. وخير: يعني أخير، أي: أكثر خيراً، وتفضيل بعض هذه القبائل على بعض إنما هو بحسب سبقهم للإسلام، وأفعالهم فيه. وتفضيلُهم خبر من الشارع عمَّا لهم عند الله تعالى من المنازل والمراتب، فلا يُقدَّمُ من أخر، ولا يؤخَّر من قدَّم. وقد اختلفت الرواياتُ في بني النَّجار، وبني عبد الأشهل، ففي رواية أبي أُسَيْد: تقديم بني النجَّار على بني عبد الأشهل، ومَـنْ بعدهم، وفي رواية أبي هريرة: تقديم بني

---

(١) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان: هذا الباب والذي يليه في التلخيص بعنوان: باب: دعاء النبي ﷺ لغفار وأسلم.

[٢٤٢٠] وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ ـ وهو في مجلس عظيم من المسلمين ـ: «أُحدِّثكم بِخَيْر دور الأنصار؟» قالوا: نَعَمْ يا رسول الله! قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «بنو عبدِ الأَشْهَلِ». قالوا: ثم مَنْ يا رسول الله؟! قال: «ثم بنو النجار». قالوا: ثم مَنْ يا رسول الله؟! قال: «ثم بنو الحارثِ بن الخزرج». قالوا: ثم من يا رسول الله؟! قال: «ثم بَنو سَاعِدة». قالوا: ثم من يا رسول الله؟! قال: «ثم في كلِّ دورِ الأنصار خيرٌ». فقام سعدُ بن عُبَادَة مُغْضَباً؛ فقال: أنحنُ آخر الأَرْبَع؟ حين سَمَّى رسولُ الله ﷺ دارَهُم، فأراد كلامَ رسولِ الله ﷺ فقال له رجال من قومه: اجلس. ألا ترضى أنْ سَمى رسولُ الله ﷺ دارَكم في الأَربعِ الدُّور التي سمَّى؟ فمن ترك فلَمْ يُسمَّ أكثرُ مِمَّن سمَّى! فانتهى سعدُ بن عُبَادَةَ عن كَلام رسول الله ﷺ.

رواه مسلم (٢٥١٢).

* * *

(٧٢) بـــاب
دعاء النبي ﷺ لِغِفارِ وأسلم

[٢٤٢١] عن أبي ذرٍّ، قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «ائْتِ قومَكَ فقلْ: إنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: أَسْلَمُ سَالَمَها اللَّه. وغِفَارُ غَفَرَ اللَّه لها».

رواه أحمد (٥/ ١٧٤)، ومسلم (٢٥١٤) (١٨٣).

عبد الأشهل على بني النجار ومَن بَعْدَهم، وهذا تعارضٌ مُشْكِل، غير أنَّ الأوْلى روايةُ أبي أُسَيْد لقرابة بني النجارِ من رسول الله ﷺ دون غيرهم، فإنهم آخوالُه، كما قدَّمنا، ولاختصاص نزول رسول الله ﷺ بهم، وكونه عندهم، وهذه مزيَّةٌ

[٢٤٢٢] زاد من حديث أبي هريرة: «أَمَا إنِّي لم أَقُلْها. ولكن قالها الله».

رواه أحمد (٢/ ٢٠)، والبخاريُّ (٣٥١٤)، ومسلم (٢٥١٦).

[٢٤٢٣] وعن خُفَافِ بن إيماءَ الغِفاريِّ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اللهم! الْعَنْ بني لِحْيَانَ، ورِعْلاً، وذكْوَانَ، وعُصَيَّةَ، عَصَوُا الله ورسوله! غِفَار غفر الله لها! وأَسْلَمُ سَالَمَها اللَّهُ!».

رواه مسلم (٢٥١٧).

[٢٤٢٤] ونحوه، عن ابن عمر.

رواه أحمد (٢/ ١٣٠)، والبخاريُّ (٣٥١٣)، ومسلم (٢٥١٨)، والترمذيُّ (٣٩٤١).

* * *

لا يلحقهم أحدٌ فيها. وغَضَبَ سعدِ بن عبادة لمَّا ذُكرتْ دارُه آخر الديار بادرةٌ أصدرها عنه منافستُه في الخير، وحرصُه على تحصيل الثواب والأجر؛ فلما نُبِّه على ما ينبغي له سلَّم السَّبق لأهله، وشكر اللّه تعالى على ما آتاه مِن فضله.

وقد تقدم القولُ في: أسْلَم، وغِفَار، وبني لِحْيَان، ورِعْل، وذَكْوان، وعُصَّية ـ قبائل من هُذَيل ـ وهم الذين قتلوا أصحابَ الرَّجيع عاصماً وأصحابه، وقد تقدم حديثُهم.

* * *

(٧٣) بـــاب

فضل مزينة وجهينة وأشجع وبني عبد الله

[٢٤٢٥] عن أبي أيوبَ، قال: قال رسول الله ﷺ: «الأنصارُ،

(٧٣ و ٧٤ و ٧٥) ومن بـــاب: فضائل مزينة، وجهينة، وأشجع، وبني عبدالله[١]

قبائل عربية سبقت إلى الإسلام

هؤلاء القبائل، وأسلم، وغفار، ومَن كان نحوهم، كانوا بالجاهلية خاملين، لم يكونوا من ساداتِ العرب، ولا مِن رؤسائها كما كانت بنو تميم، وبنو عامر، [وبنو أسدٍ، وغطفان، ألا ترى قول الأقرع بن حابس للنبيِّ ﷺ: إنما بايعك سرَّاق الحجيج من أسلم، وغفار، ومزينة][٢] وجهينة، لكن هؤلاء القبائل سبقوا للإسلام، وحَسُن بلاؤهم فيه، فشرَّفهم اللَّهُ تعالى به، وفضَّلهم على مَن ليس بمؤمن من سادات العرب بالإسلام، وعلى من تأخَّر إسلامُه بالسَّبق، كما شرَّف بلالاً، وعمَّاراً، وصُهيباً، وسلمان على صناديد قريش، وعلى أبي سفيان ومعاوية وغيرهم من المؤلفة قلوبُهم كما تقدَّم، فأعزَّ اللَّهُ بالإسلام الأذلاء، وأذلَّ به الأعزاءَ بحكمته الإلهية، وقِسْمته الأزلية: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وعلى هذا فقولُه ﷺ: «مزينة، وجهينة، وغفار، وأشجع، ومن كان من بني عبد الله مواليَّ دون الناس» جَبْرٌ لهم من كَسْرهم، وتنويهٌ بهم من خمولهم، وتفخيمٌ لأمر الإسلام وأهلِه، وتحقيرٌ لأهل الشرك، ولمن دخل في الإسلام ولم يُخْلِص فيه، كالأقرع بن حابس، وغيره ممن كان على مثل حاله، وهذا التَّفضيلُ،

---

(١) شرح الشيخ القرطبي ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان: هذا الباب، والبابين التاليين بعده، وهما: باب: ما ذكر في طيء ودوس، وباب: ما ذكر في بني تميم.

(٢) ما بين حاصرتين سقط من (ع).

ومُزَيْنةُ، وجُهَيْنَةُ، وغِفَارُ، وأَشْجَعُ، ومَنْ كان من بني عبد الله؛ مَوَاليَّ دون الناس، والله ورسولُه مَوْلاهُم».

رواه مسلم (٢٥١٩)، والترمذيُّ (٣٩٤٠).

[٢٤٢٦] ومن حديث أبي هريرة: «قريشٌ والأنصار». وذكر نحوه غير أنه لم يذكر بني عبد الله.

رواه البخاري (٣٥٠٤)، ومسلم (٢٥٢٠)، والترمذي (٣٩٤٥).

[٢٤٢٧] وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نَفْسُ محمدٍ بيدِهِ! لَغِفَار، وأسلمُ؛ ومزينة؛ ومن كان من جهينةَ ـ أو قال: جهينةُ ـ ومن كان من مزينَةَ خيرٌ عند اللَّهِ يوم القيامَة من أَسَدٍ وطيـىءٍ وغطفان».

والتنويهُ إنما وَرَدَ جواباً لمن احتقر هذه القبائلَ بعد إسلامها، وتمسَّك بفخر الجاهلية وطُغْيانها، فحيث وَرَدَ تفضيلُ هذه القبائل مطلقاً فإنه محمولٌ على أنهم أفضلُ من هذه القبائل المذكورين معهم، في محاورة الأقرع، وهو آخرُ حديثٍ ذكرناه؛ فإنه مُفسِّرٌ لما تقدَّم، ومقيِّدٌ له.

رسول الله ﷺ أولى بكل مسلم من نفسه

و (قوله: «مواليَّ دون الناس») يعني: أنا الذي أنصرهم، وأتولَّى أمورَهم كلَّها، فلا ينبغي لهم أن يلجؤوا بشيءٍ من أمورهم إلى أحدٍ غيري مِن الناس، وهذا كما قال ﷺ في الحديث الآخر: «أنا أولى بكل مؤمنٍ من نفسه، مَن ترك مالاً فلورثته، ومَن ترك دَيْناً أو ضَياعاً فعليَّ وإليَّ»[1].

و (قوله: «والله ورسوله مولاهم») كذا الرِّواية بتوحيد مولاهم، وهذا نحو

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣١٠)، ومسلم (٨٦٧) (٤٤ و ٤٥)، والنسائي (٣/ ١٨٨)، وابن ماجه (٤٥).

وفي روايةٍ: «من أسدٍ، وغطفانَ، وهوازن، وتميم».

رواه البخاريُّ (٣٥٢٣)، ومسلم (٢٥٢١) (١٩١ و ١٩٢).

[٢٤٢٨] وعن أبي بكرةَ: أنَّ الأقرعَ بن حابسٍ جاءَ إلى رسولِ الله ﷺ، فقال: إنما بَايَعَك سُرَّاقُ الحجيج من أسلَم، وغِفَارَ، ومُزَينَةَ، وجهينةَ! فقال رسول الله ﷺ: «أرأيتَ إن كان أسلُم، وغِفَارُ، ومزينةُ، وجهينة خيراً من بني تميم، وبني عامر، وأَسدٍ، وغطفانَ. أخابُوا وخَسِروا؟»، فقال: نعم. فقال: «فوالذي نفسي بيده! إنهم لأخيرُ منهم».

وفي روايةٍ: ومدَّ بها صوته.

رواه أحمد (٥/٤٨)، والبخاريُّ (٣٥١٦)، ومسلم (٢٥٢٢) (١٩٣)، والترمذي (٣٩٥٢).

* * *

(٧٤) باب
ما ذكر في طيىءٍ ودَوْسٍ

[٢٤٢٩] عن عَدِيِّ بن حاتم، قال: أتيتُ عُمَرَ بنَ الخطابِ، فقال

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة: ٦]. فوحَّد الضمير؛ لأنَّه عائدٌ على الله، ورفع رسوله بالابتداء، وخبره مُضمر تقدير: والله أحقُّ أن يرضوه، ورسوله كذلك، وعلى هذا: فتقديرُ الحديث: والله مولاهم، ورسوله كذلك.

و (قوله: «أرأيت إن كان أسلم، ومن ذكر معها خير من بني تميم، ومن ذكر معها، أخابوا وخسروا؟» قال: نعم) هذا يدلُّ: على أنه أراد: كفار هذه القبائل، لا مسلميها؛ لأنَّ الخيبةَ والخسرانَ المطلقَ لا يكون إلا لأهل الكفر،

لي: إنَّ أوّلَ صدقةٍ بيَّضتْ وجْهَ رسولِ اللَّهِ ﷺ، ووجوهَ أصحابِهِ؛ صدقةُ طيِّـىءٍ؛ جِئْتَ بها إلى رسولِ الله ﷺ.

رواه أحمد (١/ ٤٥)، ومسلم (٢٥٢٣).

[٢٤٣٠] وعن أبي هريرة، قال: قَدِمَ الطُّفَيْلُ وأصحابُهُ؛ فقالوا: يا رسولَ اللَّهِ! إنَّ دَوْساً كَفَرَتْ، وأبتْ، فادعُ الله عليها! فقيل: هَلَكتْ دوسٌ فقال: «اللهُمَّ! اهدِ دَوْساً وائتِ بهم».

رواه أحمد (٢/ ٢٤٣)، والبخاريُّ (٤٣٩٢)، ومسلم (٢٥٢٤).

* * *

(٧٥) بـــاب
ما ذكر في بني تميم

[٢٤٣١] عن أبي هريرة، أنَّه قال: لا أزالُ أحبُّ بني تميم من ثلاثٍ.

وفي روايةٍ: بعد ثلاث سَمِعْتُهُنَّ من رسول الله ﷺ سمعته يقول: «هم أشدُّ أمَّتي على الدَّجالِ». قال: وجاءتْ صَدقاتُهم، فقال النَّبي ﷺ: «هذه

ويدلُّ عليه: مدحُ المسلمين من بني تميمٍ في الحديث الآتي بعد هذا، والله تعالى أعلم.

فضلُ بني تميم

و (قوله ﷺ في بني تميم: «هم أشدُّ أمَّتي على الدَّجَّال») تصريحٌ بأنَّ بني تميم لا ينقطعُ نسلهم إلى يوم القيامة، وبأنهم يتمسَّكون في ذلك الوقت بالحقِّ، ويقاتلون عليه، وفي الرواية الأخرى: «هم أشدُّ الناس قتالاً في الملاحم» يعني: الملاحم التي تكونُ بين يدي الدجال، أو مع الدجال، والله تعالى أعلم.

صدقاتُ قومِنا». قال: وكانتْ سَبِيَّةٌ منهم عند عائشة؛ فقال رسول الله ﷺ: «أَعْتقيها فإنَّها من وَلَد إسماعيل».

وفي روايةٍ: «هم أشدُّ النَّاسِ قِتَالاً في الملاحم» ولم يذكر الدَّجال.

رواه أحمد (٢/ ٣٩٠)، والبخاريُّ (٢٥٤٣)، ومسلم (٢٥٢٥).

* * *

(٧٦) باب
خيار الناس

[٢٤٣٢] عن أبي هريرة، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «تجدون النَّاسَ معادنَ؛ فخيارُهم في الجاهليَّة خيارُهم في الإسلام إذا فَقُهُوا. ....

(٧٦ و ٧٧) ومن باب: خيار الناس[1]

(قوله ﷺ: «تجدون الناس معادن») أي: كالمعادن، وهو مثل، وقد جاء في حديث آخر: «الناسُ معادن كمعادن الذَّهب والفضة»[2]. ووَجْهُ التمثيل: أن المعادنَ مشتملةٌ على جواهر مختلفة، منها النفيس، والخسيس، وكلٌّ من المعادن يُخْرِجُ ما في أصله، وكذلك الناسُ كلٌّ منهم يظهرُ عليه ما في أصله؛ فمن كان ذا شرفٍ وفَضْلٍ في الجاهلية فأسلم لم يزدْهُ الإسلامُ إلا شرفاً؛ فإن تفقَّه في دِيْن الله، فقد وصل إلى غاية الشرف؛ إذ قد اجتمعت له أسبابُ الشرف كلُّها، فيصدق عليه قوله: «فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقُهوا». والمعادن: واحدها مَعْدِن ـ بكسر الدال ـ؛ لأنه موضعُ العَدْن، أي: الإقامة اللازمة، ومنه: جنّات عدنٍ، وسُمِّي المَعْدِن بذلك؛ لأنَّ الناسَ يقيمون فيه صيفاً وشتاءً. قاله الجوهري.

الناسُ معادن

---

(١) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان: هذا الباب، والباب الذي يليه بعنوان: باب: ما ورد في نساء قريش.

(٢) رواه أحمد (٢/ ٥٣٩).

وتجدونَ من خَيْرِ النَّاس في هذا الأمر، أكرهُهم لَهُ قبل أن يقع فيه. وتجدونَ من شِرَارِ النَّاسِ ذا الوجهين؛ الذي يأتي هؤلاء بوجهٍ وهؤلاء بوجهٍ».

رواه أحمد (٢/ ٥٢٤)، والبخاريُّ (٣٤٩٣)، ومسلم (٢٥٢٦).

* * *

(٧٧) بـــاب

ما ورد في نساء قريش

[٢٤٣٣] عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «خيرُ نساءٍ رَكِبْنَ الإبلَ صالحُ نساء قُرَيشٍ»، وفي روايةٍ: «نساءُ قريش»، بغير صالح؛ «أحْنَاه

و (قوله ﷺ: «وتجدون من خير الناس في هذا الأمر أكرههم له») هكذا الرواية: «من خير الناس» وهي لبيان جنس الخيرية؛ كأنه قال: تجدون أكـرةَ الناس في هذا الأمر من خيارهم، ويصحُّ أن يُقال على مذهب الكوفيين: إنَّها زائدة؛ فإنهم يُجيزون زيادةَ (مِن) في الموجب، كما تقدَّم. ويعني بالأمر: الولايات، وإنما يكون من يكرهُها من خير الناس، إذا كانت كراهتُه لها لعلَّة تعظيم حقوقها، وصعوبة العدل فيها، ولخوفه من مطالبة الله تعالى بالقيام بذلك كلِّه، ولذلك قال فيها: «نعمت المرضعة، وبئست الفاطمة»[(١)]، وكفى بذلك ما تقدَّم من قوله ﷺ: «ما من أمير عشيرة إلا يُؤتى يوم القيامة مغلولاً، حتى يفكَّه العدل، أو يوبقَه الجَوْر»[(٢)]. وذكْرُ ذي الوجهين: مُفَسَّرٌ في الحديث، وإنما كان ذو الوجهين شرَّ الناس؛ لأن حالَه حالُ المنافقين؛ إذ هو مُتملِّق بالباطل والكذب، يُدْخِل الفسادَ بين الناس، والشُّرور، والتقاطع، والعداوة، والبغضاء.

تفضيلُ نساء قريش

و (قوله ﷺ: «خيرُ نساءٍ رَكِبْنَ الإبلَ: صالح نساء قريشٍ») هذا تفضيلٌ لنساء

(١) رواه أحمد (٢/ ٤٤٨ و ٤٧٦)، والبخاري (٧١٤٨).
(٢) رواه أحمد (٢/ ٤٣١ و ٥/ ٢٨٥).

على يتيم». ـ وفي رواية: «علـى ولدٍ في صغره» ـ «وأَرْعَاهُ على زوجٍ في ذات يده».

وفي أخرى: أنَّ النَّبيَّ ﷺ خَطَبَ أمَّ هانىءٍ بنت أبي طالب، فقالت: يا رسول الله! إني قدْ كَبِرْتُ، ولي عِيَالٌ! فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْر نساءٍ رَكِبْنَ الإبل. . . .». ثمَّ ذكر نحوه.

رواه أحمد (٢/ ٢٦٩)، ومسلم (٢٥٢٧) (٢٠٠ و ٢٠١).

* * *

(٧٨) بـــاب
في المؤاخاة التي كانت بين المهاجرين والأنصار

[٢٤٣٤] عن أنسٍ: أنَّ رسول الله ﷺ آخى بين أبي عُبَيدةَ بنِ الجرّاحِ وبين أبي طلحة.

رواه مسلم (٢٥٢٨).

قريشٍ على نساء العرب خاصَّةً؛ لأنَّهم أصحابُ الإبل غالباً، وقد جاء في الرِّواية الأخرى: «خيرُ نساءٍ ركبن الإبل؛ نساء قريش» ولم يذكر: (صالح). وهو مرادٌ حيث سكت عنه، ويُحمل مطلقُ إحدى الروايتين على مقيَّد الأخرى، وهو مما اتفق عليه من أقسام حمل المطلق على المقيَّد كما حقَّقناه في الأصول. ويعني بالصلاح هنا: صلاح الدِّين، وصلاح المخالطة للزوج وغيره، كما دلَّ عليه قولُه ﷺ: «أحناه على يتيمٍ وولد، وأرعاه على زوج». والحنوُّ: الشّفقة. والرَّعي: الحِفْظ والصِّيانة. والله أعلم.

(٧٨) ومن بـــاب: المؤاخاة التي كانت بين المهاجرين والأنصار

(قوله: آخى رسولُ الله ﷺ بين أبي عُبيدة بن الجراح، وبين أبي طلحة ـ رضي الله عنهما ـ) المؤاخاةُ: مفاعلة من الأخوة، ومعناها: أن يتعاقدَ الرجلان معنى المؤاخاة

[٢٤٣٥] وعن عاصمٍ الأحْوَل، قال: قيل لأنسِ بن مالكٍ: بلغك أنَّ

على التناصر والمواساة، والتوارث حتى يصيرا كالأخوين نسباً، وقد يُسمَّى ذلك: حلفاً، كما قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: قد حالف رسولُ الله ﷺ بين قريش والأنصار في داره بالمدينة، وكان ذلك أمراً معروفاً في الجاهلية، معمولاً به عندهم، ولم يكونوا يُسمُّونه إلا حِلْفاً، ولما جاء الإسلامُ عمل النبيُّ ﷺ به، وورَّث به على ما حكاه أهلُ السير، وذلك أنَّهم قالوا: إنَّ رسولَ الله ﷺ آخى بين أصحابه مرتين: بمكة قبل الهجرة، وبعد الهجرة. قال أبو عمر: والصحيح عند أهل السير والعلم بالآثار والخبر في المؤاخاة التي عقدها رسولُ الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار حين قدومه إلى المدينة بعد بنائه المسجد على المواساة والحق، فكانوا يتوارثون بذلك دون القرابات، حتى نزلت: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]، فآخى رسولُ الله ﷺ بين عليٍّ بن أبي طالب ونفسه، فقال له: «أنت أخي وصاحبي»[(١)]، وفي رواية «أنت أخي في الدنيا والآخرة»[(٢)]. وكان عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ يقول: أنا عبد الله، وأخو رسوله، لم يَقُلْها أحدٌ قبلي، ولا يقولها أحدٌ بعدي إلا كذابٌ مُفترٍ.

المتآخون في الإسلام

وآخى بين أبي بكر الصديق وبين خارجة بن زيد، وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك، وبين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت أخي حسان بن ثابت، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وبين الزبير وسَلَمة بن سلامة[(٣)] بن وَقْش، وبين طلحة وكعب بن مالك، وبين أبي عبيدة وسعد بن معاذ، وبين سعد ومحمد بن مسلمة، وبين سعيد بن زيد وأُبي بن كعب، وبين مصعب بن عمير وأبي

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٣٠).

(٢) رواه الترمذي (٣٧٢٠).

(٣) في (ز): سلامة بن أسامة، وفي (م ٤): سلافة بن سلامة. والمثبت من أسد الغابة (٢/ ٢٥٠).

. . . .

أيوب، وبين عمار وحذيفة، حليف بني عبد الأشهل، وقيل: بين عمار وثابت بن قيس، وبين أبي حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر، وبين أبي ذر والمنذر بن عمرو، وبين ابن مسعود وسهل بن حنيف، وبين سلمان الفارسي، وأبي الدرداء، وبين بلال وأبي رويحة الخثعمي، وبين حاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة، وبين عبد الله بن جحش وعاصم بن ثابت، وبين عبيدة بن الحارث وعمير بن الحمام، وبين الطفيل بن الحارث ـ أخيه ـ وسفيان بن بشر، وبين الحصين بن الحارث ـ أخيهما ـ وعبد الله بن جبير، وبين عثمان بن مظعون والعباس بن عبادة، وبين عتبة بن غزوان ومعاذ بن ماعِص، وبين صفوان بن بيضاء ورافع بن المعلى، وبين المقداد بن عمرو وعبد الله بن رواحة، وبين ذي الشمالين ويزيدبن الحارث من بني خارجة، وبين أبي سلمة بن عبد الأسد وسعد بن خيثمة، وبين عمير بن أبي وقاص وخبيب بن عديّ، وبين عبد الله بن مظعون وقطبة بن عامر، وبين شماس بن عثمان وحنظلة بن أبي عامر، وبين الأرقم بن أبي الأرقم وطلحة بن زيد الأنصاري، وبين زيد بن الخطاب ومعن بن عدي، وبين عمرو بن سراقة وسعد بن زيد من بني عبد الأشهل، وبين عاقل بن البكير ومبشر بن عبد المنذر، وبين عبد الله بن مخرمة وفروة بن عمرو(١) البياضي، وبين خنيس بن حذيفة والمنذر بن محمد بن عقبة بن أُحيحة بن الجلاح، وبين أبي سبرة بن أبي رهم وعبادة بن الحسحاس، وبين مسطح بن أثاثة وزيد بن المزين، وبين أبي مرثد الغنوي وعبادة بن الصامت، وبين عُكَّاشة بن محصن والمجذر بن زياد حليف الأنصار، وبين عامر بن فُهيرة والحارث ابن الصِّمة، وبين مهجع مولى عمر وسُراقة بن عمرو النجاري.

المؤاخاة بين المهاجرين قبل الهجرة

قال: وقد كان رسولُ الله ﷺ آخى بين المهاجرين قبل الهجرة [على الحق والمواساة](٢) فآخى بين أبي بكر وعمر، وبين حمزة وزيد بن حارثة، وبين عثمان

(١) في (ز): عمير، وفي (م ٤): عمر، والمثبت من أسد الغابة (٤/ ٣٥٧).
(٢) ما بين حاصرتين سقط من (ز).

رسولَ الله ﷺ قال: «لا حِلْفَ في الإسلام؟» فقال أنس: قد حَالَفَ رسولُ الله ﷺ بين قريشٍ والأنصار في داره.

وفي روايةٍ: في داره التي بالمدينة.

رواه البخاري (٧٣٤٠)، ومسلم (٢٥٢٩) (٢٠٤ و ٢٠٥)، وأبو داود (٢٩٢٦).

وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير وابن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث وبلال، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله، [رضي الله عن جُملة المهاجرين والأنصار](١).

قلتُ: وقد جاء في كتاب مسلم من حديث أنس: أنه آخى بين أبي عبيدة ابن الجراح وبين أبي طلحة، وقال أبو عمر: إنه آخى بين أبي عبيدة وبين سعد بن معاذ. والأولى ما في كتاب مسلم.

لا حلف في الإسلام

و (قوله: «لا حلف في الإسلام») أي: لا يتحالفُ أهلُ الإسلام كما كان أهلُ الجاهلية يتحالفون، وذلك أن المتحالِفَيْن كانا يتناصران في كلِّ شيءٍ، فيمنع الرجلُ حليفَه؛ وإن كان ظالماً، ويقومُ دونه، ويدفعُ عنه بكلِّ ممكن، فيمنع الحقوق، وينتصرُ به على الظلم، والبغي، والفساد، ولما جاء الشرعُ بالانتصاف من الظالم، وأنه يُؤخذ منه ما عليه من الحقِّ، ولا يمنعه أحدٌ من ذلك، وحَدَّ الحدود، وبيَّن الأحكام، أبطل ما كانت الجاهليةُ عليه ممن ذلك، وبقي التعاقدُ والتحالف على نُصْرة الحقِّ، والقيام به، وأوجب ذلك بأصل الشَّريعة إيجاباً عامّاً على مَن قدر عليه من المكلَّفين.

---

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من (ز).

[٢٤٣٦] وعن جبير بن مُطْعِم، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا حِلْفَ في الإسلام وأيُّما حِلفٍ كان في الجاهلية، لم يزده الإسلامُ إلا شِدَّة».

رواه أحمد (٤/ ٨٣)، ومسلم (٢٥٣٠)، وأبو داود (٢٩٢٥).

* * *

ثم إنه ﷺ خصَّ أصحابه من ذلك بأن عقد بينهم حِلْفاً على ذلك مرتين ـ كما تقدّم ـ تأكيداً للقيام بالحقِّ والمواساة، وسمَّى ذلك أخوةً مبالغةً في التأكيد والتزام الحُزمة؛ ولذلك حكم فيه بالتوارث حتى تمكَّنَ الإسلامُ، واطمأنتِ القلوب، فنسخ اللَّهُ تعالى ذلك بميراث ذوي الأرحام.

و (قوله: «وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزدْهُ الإسلامُ إلا شدَّة») يعني من نصرة الحق، والقيام به، والمواساة، وهذا كنحو حلف الفضول الذي ذكره ابن إسحاق. قال: اجتمعتْ قبائل من قريش في دار عبد الله بن جُدْعان لشرفه ونَسَبه، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألّا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها، أو غيرهم، إلا قاموا معه حتى تُرَدّ عليه مظلمته، فسمَّت قريش ذلك الحلف: حلفَ الفضول، أي: حلف الفضائل، والفضول هنا جمع فضل للكثرة، كفَلْسٍ وفُلُوس.

حلف الفضول

وروى ابن إسحاق عن ابن شهاب قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جُدْعان حِلْفاً ما أُحِبُّ أنَّ لي به حُمْرَ النَّعَم، ولو أُدعى به[1] في الإسلام لأجبتُ»[2].

وقال ابنُ إسحاق: تحامل الوليدُ بن عتبة على حسين بن عليٍّ في مالٍ له لسلطان الوليد؛ فإنه كان أميراً على المدينة. فقال له حسين: احْلفْ بالله لتنصفني

---

(١) في (ع): له.

(٢) رواه البيهقي (٦/ ١٦٧).

(٧٩) بـــاب

قول النبي ﷺ: «أنا أمنةٌ لأصحابي وأصحابي أمنةٌ لأمتي»

[٢٤٣٧] عن أبي موسى، قال: صَلَّيْنا المغربَ مع رسولِ اللَّهِ ﷺ ثم قُلْنا: لو جَلَسْنا مع رسول الله ﷺ حتى نُصلِّيَ معه العِشَاء! قال: فجلسنا، فخَرَج علَيْنا، فقال: «ما زِلْتُم ها هُنا؟» قلنَا: يا رسولَ اللَّهِ! صلينا معك المغربَ، ثمّ قُلْنا: نجلسُ حتى نصلِّيَ معك العِشاءَ. قال: «أَحْسَنْتُم ـ أو: ـ أصبتم»، قال: فرفع رأسه إلى السَّماء ـ وكان كثيراً ممّا يرفع رأسه

من حقِّي، أو لآخذنَّ سيفي، ثم لأقومن في مسجد رسول الله ﷺ، ثم لأدعونَّ بحلف الفضول، قال عبدُ الله بن الزبير: وأنا أحلفُ بالله لئن دعانا لآخذنَّ سيفي، ثم لأقومنَّ معه حتى ينتصفَ من حقِّه، أو نموتَ جميعاً، وبلغت المسور بن مخرمة، فقال مثل ذلك، وبلغت عبد الله بن عثمان بن عبيد الله التيمي، فقال مثل ذلك، فلما بلغ ذلك الوليد أنصفه.

(٧٩ و ٨٠) ومـن بـــاب: قوله ﷺ: «أنا أمنة لأصحابي» وخير القرون(١)

رَفع الفتن عن أصحابه ﷺ

الأَمَنَة: الأمن، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]، أي: أمناً. ويعني بذلك: أنَّ اللَّهَ تعالى رفع عن أصحابه الفتنَ، والمحن، والعذاب مُدَّة كونه فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فلما توفي رسولُ الله ﷺ جاءت الفتنُ، وعظمتِ المحنُ،

---

(١) شرح المصنف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان، ما جاء في شرح باب: خير القرون قرن الصحابة ثم الذين يلونهم.

إلى السماء ـ فقال: «النجوم أمنةٌ للسَّماء، فإذا ذهبتِ النجوم أتى السماءَ ما تُوْعَدُ، وأنا أمنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يُوعدون، وأصحابي أمنةٌ لأُمَّتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمَّتي ما يُوعدون».

رواه أحمد (٢/٣٩٨ ـ ٣٩٩)، ومسلم (٢٥٣١).

* * *

(٨٠) بـــاب

خير القرون قرن الصحابة

ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم

[٢٤٣٨] عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: سُئل رسولُ الله ﷺ: أيُّ الناسِ خيرٌ؟ قال: «قرني، ثم الذين يَلُونَهم، ثم الذين يَلُونَهُم، ثم

وظهر الكفرُ والنفاق، وكثر الخلافُ والشقاق، فلولا تداركُ اللَّهِ هذا الدِّين بثاني اثنين لصار أثراً بعد عين، وهذا الذي وعدوا به.

النجوم أمنة للسماء

و (قوله: «النجوم أمنة للسماء») أي: ما دامت النجومُ فيها لم تتغير بالانشقاق، ولا بالانفطار، فإذا انتثرتْ نجومُها، وكُوِّرت شمسُها، جاءها ذلك، وهو الذي وُعِدَتْ به.

الصحابة أمنة لأمته ﷺ

و (قوله: «وأصحابي أمنة لأمتي») يعني: أنَّ أصحابه ما داموا موجودين كان الدِّينُ قائماً، والحقُّ ظاهراً، والنصرُ على الأعداء حاصلاً، ولما ذهب أصحابُه غلبتِ الأهـواء، وأديلت الأعداء، ولا يزال أمرُ الدِّين مُتناقصاً، وجَدُّه ناكصاً إلى أن لا يبقى على ظهر الأرض أحدٌ يقول: اللَّه، اللَّه. وهو الذي وُعِدَتْ به أمَّتُه، والله تعالى أعلم.

القرون الثلاثة الأولى أفضل

و (قوله: «خيرُ أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم») القرن

يجيء قومٌ تَبْدُر شهادةُ أَحَدِهم يَمِيْنَه، وتَبدُرُ يَمِينُه شَهادَتَه». قال إبراهيم: كانوا يَنْهَوْننا ـ ونحنُ غلمانٌ ـ عن العَهد والشَّهادات.

وفي أخرى: «ثم يتخلَّف من بعدهم خَلْفٌ تسبقُ شهادةُ أحدِهم يمينَه، ويمينُه شَهادَتُه».

رواه أحمد (١/ ٣٧٨)، والبخاريُّ (٦٤٢٩)، ومسلم (٢٥٣٣) (٢١١ و ٢١٢)، والترمذيُّ (٣٨٥٩)، والنسائي في الكبرى (٦٠٣١)، وابن ماجه (٢٣٦٢).

ـ بسكون الراء ـ من الناس: أهلُ زمانٍ واحدٍ. قال الشاعر:

إِذَا ذَهَبَ القَرْنُ الذي أَنْتَ فِيهِمُ ... وخُلِّفْتَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبُ

وقيل: مقدار زمانه: ثمانون سنة، وقيل: ستون، ويعني: أنَّ هذه القرونَ الثلاثة: أفضلُ ممَّا بعدها إلى يوم القيامة، وهذه القرونُ في أنفسها مُتفاضلة، فأفضلُها: الأول، ثم الذي بعده، ثم الذي بعده. هذا ظاهِرُ الحديث. فأمَّا أفضليَّةُ الصَّحابة، وهم القرنُ الأول على مَنْ بعدهم، فلا تخفى، وقد بيَّنَّا إبطالَ قول مَن زعم أنه يكونُ فيمن بعدهم أفضل منهم، أو مُساوٍ لهم في كتاب الطهارة. وأمَّا أفضليَّةُ مَنْ بعدهم، بعضهم على بعض، فبحسب قربهم مِن القرن الأول، وبحسب ما ظهر على أيديهم من إعلاء كلمة الدين، ونشر العلم، وفَتْح الأمصار، وإخماد كلمة الكُفْر. ولا خفاء: أن الذي كان مِن ذلك في قرن التَّابعين كان أكثر وأغلب مما كان في أتباعهم، وكذلك الأمر في الذين بعدهم، ثم بعد هذا غلبت الشُّرور، وارتُكبت الأمور، وقد دلَّ على صحة هذا قولُه في حديث أبي سعيد: «يغزو فئامٌ من الناس، فيقال: هل فيكم من صحب رسولَ الله ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح لهم...»[1] الحديث. والفئام: الجماعةُ من الناس، لا واحدَ له من لفظه، وهو مهموز، والعامة تترك همزه.

(١) انظر تخريجه في التلخيص برقم (٢٥٤٦).

[٢٤٣٩] وعن عِمْرانَ بن حُصَين: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ خَيْرَكم قرني، ثم الذين يلونَهُمْ، ثم الذين يلونَهم، ثم الذين يلونَهُم». ـ قال عمران: فلا أدري أقال رسولُ الله ﷺ بَعْدَ قَرْنِهِ: مرَّتين أو ثلاثاً ـ ثم يكونُ بعدَهم قومٌ يشهدونَ ولا يُسْتَشْهَدُونَ، ويَخُونُون ولا يؤتمنون، ويظهر فيهم السِّمَنُ».

رواه أحمد (٤/ ٤٢٧)، ومسلم (٢٥٣٥) (٢١٤).

و (قول عِمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين، أو ثلاثاً) هذا الذي شكَّ فيه عِمران قد حقَّقه عبدُ الله بن مسعود بعد قرنه ثلاثاً، وكذلك في حديث أبي سعيد في البعوث؛ فإنه ذكر أنهم أربعة.

أحوال الناس بعد القرن الرابع الهجري

و (قوله: «تبدر شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته») يعني بذلك: أنه يقلُّ وَرَعُ الناس بعد القرن الرابع، فيَقْدمون على الأيمان والشهادات من غير توقُّفٍ ولا تحقيق، وقال في حديث عِمران: «يشهدون ولا يُستشهدون» أي: يسبقون بأداء الشهادة قبل أن يُسألوها، وذلك لهوىً لهم فيها، ومَن كان كذلك رُدَّت شهادتُه، وقد بيَّنَّا فيما تقدَّم مواضعَ يتعين فيها على الشاهد الأداء وإن لم يُسأل، وذلك بحسب ما تدعو إليه الضَّرورةُ الشَّرعية، وعليه يُحمل قولُه ﷺ: «خيرُ الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها»(١). ويُحتمل أن يُرادَ بقوله: «ولا يُستَشهدون» أنهم: يشهدون بالزُّور فيكون معناه: يشهدون بما لم يُستشهدوا به، ولا شاهدوه، والأول أولى؛ لأنه أصلُ الكلمة.

الأكل الشرعي والأكل الشَّرِّي

و (قوله: «ويظهر فيهم السِّمَنُ») أي: يغلبُ عليهم النَّهم والشَّهوات، ويُكثرون الأكل، فيظهر عليهم السِّمَنُ، وقد يأكلون ليسمنوا؛ فإنه محبوبٌ لهم،

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٩٣).

وفي أخرى: [عن أبي هريرة]: «يُحِبُّون السَّمانَةَ».

رواه مسلم (٢٥٣٤).

[٢٤٤٠] وعن أبي سعيدٍ الخدري، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «يأتي على النَّاسِ زمانٌ يغزو فِئَامٌ من الناس، فيقالُ لَهُم: فيكم من رأى رسول اللَّهِ ﷺ؟ فيقولون: نعم فَيُفْتَحُ لهُم، ثم يَغْزُو فِئَامٌ من النَّاسِ، فيُقالُ لهم: فيكم من رأى من صَحِبَ رسولَ اللَّهِ ﷺ؟ فيقولون: نعم فيُفْتَحُ لهم، ثم يغزو فِئامٌ من الناسِ، فيقال لهم: فيكم من رأى من صَحِبَ من صَحِبَ رسولَ اللَّهِ ﷺ؟ فيقولون: نعم فيُفْتَحُ لَهُم».

ومَن كان هذا حالُه خرج عن الأكل الشرعي، ودخل في الأكل الشَّرِّي الذي قال فيه النبيُّ ﷺ: «ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرّاً من بطن، حَسْبُ ابنِ آدم لقيماتٌ يُقِمْنَ صلبه، فإن كان ولا بُدَّ، فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلث لِنَفَسِه»(١).

إلـزام النفـس العهودَ والمواثيق

و (قول إبراهيم النَّخعي: كانوا ينهوننا ونحن غلمان عن العهد والشهادات) يعني: من أدرك، وقد أدرك التابعين، فكانوا يزجرون الصّبيان عن اعتياد إلزام أنفسهم العهودَ والمواثيق، لما يلزم الملتزم من الوفاء، فيحرج أو يأثم بالترك، وكذلك عن تحمُّل الشَّهادات لما يلزم عليه من مشقَّة الأداء، وصعوبة التخلص من آفاتها في الدُّنيا والآخرة، وكلُّ ذلك من السلف ـ رضي الله عنهم ـ تعليمٌ للصغار، وتدريبٌ لهم، على ما يجتنبونه في حال كِبَرِهم.

تعليـم الصغـار وتدريبهم

و (قوله: «ويخونون ولا يُؤتمنون») يعني: أنهم تشتهرُ خيانتهم، فلا يأتمنهم أحدٌ، وهذا نحو ممَّا تقدَّم في حديث حذيفة في الأمانة.

من دلائل صحة نبوته ﷺ

و (قوله: «تغزو فئامٌ من الناس. . . إلى آخره») دليلٌ واضحٌ على صحة نبوَّة

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٣٢)، والترمذي (٢٣٨٠).

وفي أخرى: «يأتي على الناس زمان يُبْعَثُ منهم البَعثُ فيقولون: انظُرُوا هل تجدُون فيكم أحداً من أصحاب النبي ﷺ! فيُوجَدُ الرجلُ فيُفْتَحُ لَهُم». هكذا إلى أن ذكر أربعة بعوث.

رواه أحمد (٣/ ٧)، والبخاريُّ (٢٨٩٧)، ومسلم (٢٥٣٢) (٢٠٨ و ٢٠٩).

[٢٤٤١] وعن عبد الله بن عمر، قال: صلَّى بنا رسولُ الله ﷺ ذاتَ ليلةٍ صلاةَ العِشاء في آخِرِ حياتِه؛ فلما سلَّم قام فقال: «أرأيْتَكُمْ لَيْلَتَكُم هذه؟ فإنّ على رأسِ مئة سنةٍ منها لا يبقى مِمّن هو على ظهر الأرض أحدٌ».

نبيِّنا محمد ﷺ إذ مضمونُه: خبرٌ عن غيب وَقَع على نحو ما أخبر.

و (قوله في حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «أرأيتكم ليلتكم هذه فإن رأسَ مئة سنة من هذه لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد») هذا الحديثُ رواه مسلم من طريقين، ذكر الأول منهما متصلاً، ثم أردف عليه سنداً آخر فيه انقطاع، ولا يُعتب[١] عليه في ذلك؛ إذ قد وفَّى بشرط كتابه في الطريق الأول، ثم زاد بعد ذلك السند المنقطع. وقد استشكل بعضُ من لم يثبت عنده حديث ابن عمر إذ لم يفهم معناه، فردَّه بأن قال: حديث منقطع، وهذا ليس بصحيح على ما قررناه، ثم لو سُلِّم أنَّ حديثَ ابن عمر ليس بصحيح فحديث جابر وأبي سعيد في الباب صحيحان، فما قوله فيه؟ وقد رفع الصحابيُّ ـ أعني: ابن عمر ذلك الإشكالَ ـ بقوله: أراد بذلك أن ينخرم ذلك القرن، بل: قد جاء مِن حديث جابر بلفظٍ لا إشكالَ فيه، فقال: «ما من نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مئةُ سنة، وهي حيَّةٌ يومئذ» وهذا صريحٌ في تحقيق ما قاله ابن عمر، وكذلك قول عبد الرحمن ـ صاحب السّقاية ـ ما أخبر به ﷺ حيث فسَّره: بنقص العمر، وحاصل ما تضمنه هذا الحديث: أنه ﷺ أخبر قبل موته قبل موته بشهر

(١) في (ع): تعقَّب، وفي (م ٤): يصعب.

. . . .

بشهر، أنَّ كلَّ مَنْ كان مِنْ بني آدم موجوداً في ذلك الوقت لا يزيد عمره على مئة سنة، وإنما قلنا: إنه أراد بني آدم؛ لأنه قال: «مِن نفسٍ منفوسة»، ولا يتناول هذا الملائكة، ولا الجنَّ؛ إذا لم يصحّ عنهم أنهم كذلك، ولا الحيوان غير العاقل؛ إذ قال فيه: «ممن هو على ظهر الأرض أحد». وهذا إنما يُقال بأصل وضعه على مَن يعقل، فتعيَّن: أن المرادَ بنو آدم، وقد استدلَّ بعضُ الحفَّاظ المتأخِّرين على بطلان قول من يقول: إن الخَضِر حيٌّ بعموم: «ما من نفس منفوسة» فإنه من أنصِّ صيغ العموم على الاستغراق، وهذا لا حُجَّةَ فيه يقينية؛ لأنَّ العموم ـ وإن كان مؤكداً للاستغراق ـ فليس نصّاً فيه، بل: هو قابلٌ للتخصيص، لا سيما والخَضِر وإن كان حيّاً ـ كما يُقال ـ فليس مشاهداً للناس، ولا ممَّن يُخالطهم حتى يخطرَ ببالهم حالةُ مخاطبة بعضهم بعضاً، فمثل هذا العموم لا يتناوله كما لم يتناولْ عيسى ـ عليه السلام ـ؛ فلأنه لم يمت، ولم يُقْتَل، فهو حيٌّ بنصِّ القرآن، ومعناه. وكما لم يتناول الدجال مع أنه حيٌّ بدليل حديث الجسَّاسة على ما يأتي؛ فإن قيل: إنما لم يتناولْ هذا العموم عيسى؛ لأنَّ اللَّهَ قد رفعه إليه، فليس هو على ظهر الأرض؛ لأنَّ المرادَ بذلك العموم: من كان من النفوس على ظهر الأرض، كما نصَّ عليه في حديث ابن عمر. فالجواب: يمنعُ عموم الأرض المذكورة فيه؛ فإنه اسم مفرد دخل عليه الألف واللام، وهي محتملةٌ للعهد والجنس، وهي ها هنا للعهد؛ لأن الأرضَ التي يخاطبون بها، ويخبرون عن الكون فيها: هي أرضُ العرب، وما جرت عادتهم بالتصرُّف إليها وفيها غالباً، دون أرضِ يأجوج ومأجوج، وأقاصي جزائر الهند والسند، مما لا يقرع السمع اسمه، ولا يعلم علمه، ولا جواب عن حديث الدجال. وعلى الجملة: فمن يستدل في المباحث القطعية بمثل هذا العموم فليس لكلامه حاصل ولا مفهوم. وسيأتي القولُ على قوله ﷺ: «إنْ عُمِّر هذا لم يدركه الهرمُ حتى تقومَ الساعة»[1] في آخر كتاب الفتن.

---

(١) رواه البخاري (٦٥١١)، ومسلم (٢٩٥٢) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

قال ابن عمر: فوَهَلَ الناسُ في مقالة رسولِ الله ﷺ تلك، فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مئة سنةٍ، وإنَّما قال رسول الله ﷺ: «لا يبقى ممّن هو اليومَ على ظهر الأرضِ أحدٌ». يريدُ بذلك أن يَنْخَرِمَ ذلك القرنُ.

رواه أحمد (٣/ ٣١٤)، ومسلم (٢٥٣٨) (٢١٨) (٢٢٠) و (٢٥٣٨)، والترمذيُّ (٢٢٥٠).

[٢٤٤٢] وعن جابرِ بن عبد الله، يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهرٍ: «تَسْألوني عن السَّاعة؟ وإنّما عِلْمُهَا عند اللَّهِ، وأُقسم بالله! ما على الأرضِ من نفسٍ منفوسةٍ يأتي عليها مئة سنةٍ».

وفي أخرى: قال سالم: تَذَاكرْنا: إنَّما هي مَخْلُوقة يومئذٍ.

وفي أخرى: «ما من نفسٍ منفوسةٍ اليوم يأتي عليها مئةُ سنةٍ، وهي حَيَّة يومئذٍ». وفسرها عبد الرحمن صاحب السِّقايَة قال: نَقْصُ العمر.

رواه أحمد (٣/ ٣١٤)، ومسلم (٢٥٣٨) (٢١٨) و (٢٥٣٨) (٢٢٠)، والترمذيُّ (٢٢٥٠).

[٢٤٤٣] وعن أبي سعيدٍ نحو الحديث.

رواه مسلم (٢٥٣٩).

* * *

و (قول ابن عمر: فَوَهَل الناسُ في مقالة رسول الله ﷺ) الرِّوايةُ الصَّحيحة: وَهَل ـ بفتح الهاء ـ قال أبو عبيد: يريد: غلط، يقال: وَهَلَ إلى الشيء يَهِلُ، ووَهَمَ إلى الشيء يَهِمُ، وَهْلاً ووَهْماً. قال أبو زيد: وهل في الشيء، وعن الشيء يوهل وَهَلاً: إذا غلط فيه وسها، ووهَلت إليه ـ بالفتح ـ وَهَلاً: إذا ذهب وهمك إليه وأنت تريدُ غيره.

(٨١) بـــاب
وجوبُ احترام أصحاب النَّبيِّ ﷺ والنَّهي عن سبِّهم

[٢٤٤٤] عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تَسُبُّوا أَصْحابي! لا تَسُبُّوا أَصْحَابي! فوالذي نفسي بيده! لو أنَّ أَحَدَكُم أَنْفَقَ مثل أُحُدٍ ذَهَباً، ما أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهم، ولا نَصِيفَهُ!».

رواه مسلم (٢٥٤٠) (٢٢١)، وابن ماجه (١٦١).

قلــتُ: وعلى ما حكاه أبو زيد يكون الصوابُ في وَهِل الذي في هذا الحديث: كسر الهاء؛ لأنه هو الذي يتعدى بـ (في)، ويشهدُ له المعنى، وأما وَهَل بالفتح فيتعدى بـ (إلى)، والمعنيان متقاربان، ويمكن أن يقال: إن وهل في الشيء فيه لغتان: الفتح والكسر. والله أعلم.

(٨١) ومن بـــاب: وجوب احترام أصحاب رسول الله ﷺ

فضل الصحابة على الأمة

مِن المعلوم الذي لا يُشَكُّ فيه: أنَّ اللَّهَ تعالى اختار أصحابَ نبيِّه لنبيِّه ﷺ، ولإقامة دِيْنه، فجميعُ ما نحن فيه من العلوم، والأعمال، والفضائل، والأحوال، والمتملّكات، والأموال، والعِزّ، والسلطان، والدِّين، والإيمان، وغير ذلك مِن النِّعم التي لا يُحصيها لسانٌ، ولا يتّسع لتقديرها[1] زمان إنما كان بسببهم. ولما كان ذلك وَجَب علينا الاعترافُ بحقوقهم والشكر لهم على عظيم أياديهم، قياماً بما أوجبه اللَّهُ تعالى مِن شكر المنعم، واجتناباً لما حرمه من كُفران حقِّه، هذا مع ما تحقَّقناه من ثناء الله تعالى عليهم، وتشريفه لهم، ورضاه عنهم، كقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ... ﴾ إلى قوله:

---

(١) في (ز): لتعديدها.

[٢٤٤٥] وعن أبي سعيدٍ، قال: كان بين خالدِ بن الوليد وبينَ عبدِ

﴿... مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٨ ـ ٢٩]، وقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ [الحشر: ٨] إلى غير ذلك، وكقوله ﷺ: «إنَّ اللّهَ اختار أصحابي على العالمين سوى النَّبيين والمرسلين»(١) إلى غير ذلك من الأحاديث المتضمِّنة للثناء عليهم ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ. وعلى هذا فمن تعرَّض لسبِّهم، وجَحَد عظيمَ حقِّهم، فقد انسلخ من الإيمان، وقابلَ الشكر بالكُفْران، ويكفي في هذا الباب ما رواه التِّرمذي من حديث عبد الله بن مغفّل ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الله! الله! في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبَّهم فبحبِّي أحبَّهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومَن آذى اللّهَ يوشك أن يأخذه»(٢). فقال: هذا حديثٌ غريب. وهذا الحديثُ، وإن كان غريبَ السَّند فهو صحيحُ المتن؛ لأنه معضودٌ بما قدَّمناه من الكتاب وصحيح السُّنَّة وبالمعلوم من دِيْن الأمَّة؛ إذ لا خلافَ في وجوب احترامهم، وتحريم سبِّهم، ولا يختلفُ في أنَّ مَن قال: إنَّهم كانوا على كُفْرٍ أو ضلالٍ كافر يُقتل؛ لأنه أنكر معلوماً ضرورياً من الشَّرع، فقد كذَّبَ اللّهَ ورسولَه فيما أخبرا به عنهم. وكذلك الحكم فيمن كَفَّر أحدَ الخلفاء الأربعة، أو ضلَّلهم. وهل حُكْمُه حُكْمُ المرتد فيُستتاب؟ أو حُكْم الزِّنديق فلا يُستتاب ويُقتل على كلِّ حـال؟. هذا ممَّا يُختلف فيه، فأما مَن سبَّهم بغير ذلك؛ فإن كان سبّاً يُوجِبُ حداً كالقذف حُدَّ حدّه، ثم يُنكَّل التَّنكيلَ الشَّديد من الحبس، والتَّخليد فيه، والإهانة ما خلا عائشة ـ رضي الله عنها ـ فإنَّ قاذفَها يُقتل؛ لأنه مُكذِّبٌ لما جاء في الكتاب والسنة من براءتها. قاله مالك وغيره. واختلف في غيرها من أزواج النبيِّ ﷺ فقيل: يُقتل قاذفُها؛ لأنَّ ذلك أذىً للنبيِّ ﷺ

سبُّ الصحابة انسلاخٌ من الإيمان

حُكْم من كفر أحد الخلفاء الأربعة

حُكم قَذف عائشة رضي الله عنها

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٦).
(٢) رواه الترمذي (٣٨٦٢).

الرحمن بن عوفٍ شيءٌ؛ فسبَّه خالدٌ؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «لا تَسبُّوا أحداً من أصحابي فإنَّ أحدكم لو أنفق مثل أُحُدٍ ذَهَباً، ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفه».

رواه أحمد (٣/ ١١)، والبخاريُّ (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١)، وأبو داود (٤٦٥٨)، والترمذي (٣٨٦١).

* * *

وقيل: يحدُّ ويُنكَّل، كما ذكرناه على قولين. وأمَّا مَن سبَّهم بغير القذف؛ فإنه يُجلد الجلدَ الموجع، ويُنكَّل التَّنكيل الشَّديد، قال ابنُ حبيب: ويخلد سجنه إلى أن يموت. وقد رُوي عن مالك: مَن سبَّ عائشة قُتِل مطلقاً، ويُمكن حَمْلُه على السَّبِّ بالقذف، والله تعالى أعلم.

و (قوله ﷺ: «لا تسبُّوا أصحابي... الخ») رواه أبو هريرة مجرَّداً عن سَبَبه، وقد رواه أبو سعيد الخُدري، وذكر أنَّ سَبَبَ ذلك القول هو: أنه كان بين خالد بن الوليد، وبين عبد الرحمن بن عوف شيءٌ، أي: منازعة، فسبَّه خالد، فقال رسولُ الله ﷺ ذلك القول، فأظهر ذلك السَّبَبُ أنَّ مقصودَ هذا الخبر زجر خالدٍ، ومَن كان على مثل حاله ممن سُبِق بالإسلام، وإظهار خصوصية السَّابق بالنبيِّ ﷺ، وأنَّ السَّابقين لا يلحقهم أحدٌ في درجتهم؛ وإن كان أكثرَ نفقةً وعملاً منهم، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد: ١٠]، ويدلُّ على صحة هذا المقصود: أن خالداً وإن كان من الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ لكنَّه متأخِّر الإسلام. قيل: أسلم سنة خمس، وقيل: سنة ثمان. لكنه ﷺ لما عدل عن غير خالد وعبد الرحمن إلى التَّعميم دلَّ ذلك على: أنه قَصَد [مع ذلك][1] تقعيدَ قاعدةِ تغليظِ تحريمِ سبِّ الصَّحابة مُطلقاً، فيحرم ذلك من صحابيٍّ وغيره؛ لأنَّه إذا

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ز).

(٨٢) بـــاب
ما ذكر في فضل أويس القرني ـ رضي الله عنه ـ

[٢٤٤٦] عن عمر بنِ الخطَّاب، قال: إنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ خَيرَ التابعينَ رجلٌ يقالُ له: أويس، وله والدةٌ، وكان به بياضٌ، فَمُرُوه فلْيسْتغفِر لكم».

رواه أحمد (١/ ٣٨)، ومسلم (٢٥٤٢) (٢٢٤).

حرم على صحابي فتحريمُه على غيره أولى. وأيضاً: فإنَّ خطابَه ﷺ للواحد خطابٌ للجميع، وخطابه للحاضرين خطابٌ للغائبين إلى يوم القيامة. والنصيف لغةٌ: في النصف، وكذلك الثمين لغة في الثمن.

وفي هذا الحديث دلالةٌ واضحةٌ على أنَّ الصَّحابةَ ـ رضوان الله عليهم ـ لا يلحقهم أحدٌ ممن بعدهم في فضلهم كما تقدم[1].

(٨٢) ومن بـــاب: ما ذكر في أويس القرني ـ رضي الله عنه ـ

نسبه

اختلف في نَسَبه، فقيل: أُويس بن عامر بن جزء بن مالك، وهو الصَّحيح. وقيل: أويس بن أنيس، وقيل: أويس بن الخليص المرادي، ثم القَرَني ـ بفتح الراء ـ منسوب إلى قَرَنٍ، قبيلـة معروفة. كان ـ رحمه الله ـ من أولياء الله المختفين الذين لا يُؤْبَه لهم، ولولا أنَّ رسولَ الله ﷺ أخبر عنه، ووصَفَهُ بوصفه، ونعته، وعلامته لما عرفه أحَد، وكان موجُوداً في حياة رسول الله ﷺ وآمن به، وصدَّقه، ولم يَلْقَه، ولا كاتَبَهُ، فلم يُعَدّ في الصَّحابة. وقد أخبر النبيُّ ﷺ أنه من التابعين حيث قال: «إنَّه خيرُ التابعين». وقد اختلف في زمن موته، فروي عن عبد الله بن

صفاته وشمائله

وفاته

---

(١) زاد في (ز): رضي الله عنهم وعن تابعيهم بإحسان.

[٢٤٤٧] وعن أُسَيْرِ بن جابرٍ؛ قال: كان عمرُ بن الخطَّاب إذا أَتَى عليه أمدادُ أهلِ اليَمَنِ، سألهم: أفيكم أويس بنُ عامر؟ حتى أتى على أُوَيْس، فقال: أَنْتَ أويسُ بنُ عامر؟ قال: نعم. قال: من مُرَادٍ، ثم من قَرَنٍ؟ قال: نعم. قال: فكان بك بَرَص فَبرأتَ منه إلا مَوْضِعَ دِرْهمٍ؟ قال: نعم. قال: لك والدةٌ؟ قال: نعم. قال: سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «يأتي عليكم أُويسُ بنُ عامرٍ مع أمداد أَهْلِ اليمن، من مُرَادٍ؛ ثم من قَرَنٍ، كان به بَرَصٌ فبرأَ منه إلّا مَوْضِعَ دِرهَمٍ، لَهُ وَالدةٌ هو بها بَرٌّ، لو أقسم على الله لأبرّهُ، فإن استطعتَ أن يستغفِر لكَ فافعلْ». فاستغفرْ لي! فاستغْفَرَ له.

مسلم قال: غزونا أذربيجان زمن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ومعنا أُويس القَرَني، فلما رجعنا مرض علينا، فحملناه فلم يستمسكْ فمات، فنزلنا، فإذا قبرٌ محفور، وماءٌ مسكوب، وكَفَن وحَنُوط، فغسلناه، وكفَّناه، وصلَّينا عليه، فقال بعضُنا لبعضٍ: لو رجعنا فعلَّمنا قبره، فإذا لا قبر، ولا أثر.

وروي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: نادى رجلٌ من أهل الشام يوم صفّين: أفيكم أويس القَرَني؟ فقلنا: نعم. قال: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أويس القَرَني خيرُ التابعين بإحسان»(١). وعطف دابته فدخل على أصحاب علي. قال عبد الرحمن: توجد في قتلى أصحاب عليٍّ ـ رضي الله عنهما ـ.

وله أخبارٌ كثيرة، وكراماتٌ ظاهرة، ذكرها أبو نعيم، وأبو الفرج الجوزي في كتبهما. وأويس: تصغير أوس، وأوس: الذئب، وبه سُمِّي الرجل، وقيل: إنه سُمِّي بأوس الذي هو مصدر أُسْتُ الرجل أوساً: إذا أعطيته، فالأوس: العطية..

و (قوله ﷺ: «إن استطعتَ أن يستغفرَ لكَ فافعلْ») لا يُفْهَمُ منه أنه أفضلُ من

---

(١) ذكره ابن سعد في الطبقات (٦/ ١٦٣).

فقال له عمرُ: أين تريدُ؟ قال: الكوفةَ. قال: ألَا أكْتُبُ لك إلى عاملها؟ قال: أكونُ في غَبْراءِ الناس أحبُّ إليَّ. قال: فلمّا كان من العامِ المُقْبل حَجَّ رَجُلٌ من أشرافِهم، فوافق عُمَرَ، فسأله عن أويسٍ. قال: تركْتُه رثَّ البيتِ، قليل المتاعِ! قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يأتي عليكم أُوَيْسُ بن عامرٍ مع أمدادِ أهل اليمن من مرادٍ ثم من قَرَنٍ، كان به بَرَصٌ فبَرَأَ منه إلا موضعَ دِرْهَم، له والدة؛ هو بها بَرٌّ؛ لو أقسم على الله لأبرَّه، فإن اسْتَطعْتَ

عمر، ولا أنَّ عمر غيرُ مغفورٍ له؛ للإجماع على أنَّ عمرُ ـ رضي الله عنه ـ أفضلُ منه؛ ولأنَّه تابعيٌّ، والصَّحابيُّ: أفضلُ من التابعي، على ما بيَّنّاه غير مرَّة، وإنما مضمونُ ذلك: الإخبارُ بأنَّ أويساً ممَّن يُستجابُ دعاؤه. وإرشادُ عمر إلى الازدياد من الخير، واغتنام دعوة من تُرتجى إجابته، وهذا نحو مما أمرنا النَّبيُّ ﷺ به من الدُّعاء له، والصلاة عليه، وسؤال الوسيلة له، وإن كان النبيُّ ﷺ أفضلَ ولد آدم. ويُروى أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لرجلٍ خرج ليعتمر: «أشرِكْنا في دعائك يا أُخَيَّ»[١].

أويس مستجاب الدعاء

و (قوله: «في أمداد أهل اليمن») أي: في جماعاتهم، جمع مدد، وذلك أنهم يُمَدُّ بهم القومُ الذين يَقْدَمون عليهم.

و (قوله: أحدث عهداً) أي: أقرب، وعهداً: منصوب على التمييز، كقوله تعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤].

و (قوله: أكون في غَبْراء الناس) الروايةُ الجيدةُ فيه: بفتح الغين المعجمة، وسكون الباء الموحدة، وهمزة ممدودة، ويعني به: فقراء النَّاس وضعفاءهم. والغبراء: الأرض، ويقال للفقراء: بنو غبراء، كأن الفقر والحاجة ألصقتهم بها، كما قال تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦]، أي: ذا حاجة ألصقته بالتراب،

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٩)، والترمذي (٣٥٦٢).

أن يَسْتَغْفِرَ لك فَافْعل». فأتى أويساً؛ فقال: استغفر لي. قال: أنت أحدث عهداً بسَفَر صالح، فاستغفر لي! قال: استغفر لي. قال: أنت أحدثُ عهداً بسفرٍ صالحٍ فاستغفر لي! قال: لَقِيتَ عمر؟ قال: نعم. فاستغفر له. ففَطنَ له الناس فانطلقَ عَلَى وجهه. قال أُسَيْرٌ: وكَسَوتُهُ بُرْدَةً، فكان كلّما رآه إنسانٌ قال: مِنْ أيْنَ لأويس هذه البردةُ؟.

رواه مسلم (٢٥٤٢) (٢٢٥).

* * *

ومن هذا سَمَّوا الفقر: أبا متربة. وقد روي ذلك اللفظ في غُبَّر الناس ـ بضم الغين وتشديد الباء ـ جمع غابر، نحو: شاهد وشُهَّد، ويعني به: بقايا الناس ومتأخريهم، وهم ضعفاءُ الناس؛ لأنَّ وجوهَ الناس ورؤساءهم يتقدَّمون للأمور، وينهضون بها، ويتفاوضون فيها، ويبقى الضعفاءُ لا يُلْتَفَتُ إليهم، ولا يُؤْبَهُ بهم، فأراد أويسٌ أن يكونَ خاملاً بحيث يبقى لا يُلتفت إليه، طالباً السلامة، وظافراً بالغنيمة.

من أدلّة صحة نبوّته ﷺ

وحديثُ أويس هذا دليلٌ من أدلة صحَّة صِدْق رسول الله ﷺ؛ فإنه أخبر عنه باسمه، ونَسَبه، وصِفَتِه، وعلامته، وأنه يجتمعُ بعمر ـ رضي الله عنه ـ وذلك كلُّه من باب الإخبار بالغيب الواقع على نحو ما أخبر به من غير رَيْب.

* * *

(٨٣) بـــاب
ما ذكر في مصرَ وأهلِها وفي عُمَان

[٢٤٤٨] عن أبي ذرٍّ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّكم ستفتحون مِصْرَ، وهي أرضٌ يُسمَّى فيها القِيرَاطُ؛ فإذا فتحتموها فَأَحْسِنوا إلى أهْلِها، فإنَّ لهم ذِمَّةً ورَحِماً ـ أو قال: ذمةً وصِهْراً ـ...............

---

(٨٣) ومن بـــاب: ما ذكر في مصر وأهلها وأهل عُمان

(قوله: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرضٌ يُسَمَّى فيها القيراط») هذا إخبارٌ بأمر غيب، وقع على نحو ما أخبر، فكان دليلاً من أدلَّة نبوَّته ﷺ. ومعنى يُسمَّى فيها القيراط: يعني به: أنه يدورُ على ألسنتهم كثيراً، وكذلك هو، إذ لا ينفكُّ متعاملات من أهل مصر عن ذِكْره غالباً؛ لأنَّ أجزاء الدُّنيا الأربعة والعشرين يُسمُّونها: قراريط، وقطع الدَّراهم يسمُّونها: قراريط، بخلاف غيرهم من أهل الأقاليم، فإنهم يسمُّون ذلك بأسماء أخر، فأهلُ العراق يسمُّون ذلك: طسُّوجاً ورزة، وأهل الشام: قرطيس، ونحو ذلك.

من أدلّة نبوّته ﷺ

و (قوله: «فإذا فتحتموها فأحسِنُوا إلى أهلها، فإنَّ لهم ذمَّةً ورَحِماً، أو قال: صِهْراً») الذمةُ: الحرمة. والذِّمام: الاحترام، وقد يكون ذلك لعهدٍ سابق كعهد أهل الذمَّة، وقد يكون ذلك ابتداءُ إكرام، وهذا هو المرادُ بالذِّمة هنا، والله تعالى أعلم؛ إذ لم يكن لأهل مصر من النبيِّ ﷺ عهدٌ سابق، وإنما أراد: أنَّ لهم حقّاً لرحمهم، أو صِهْرهم، ويُحتملُ أن يكون معناه: أنهم يكون لهم عهدٌ بما يُعْقَدُ لهم من ذلك حين[1] الفتح. وهذا التأويلُ على بُعْدِه يعضدُه ما رواه ابنُ هشام من حديث عمر ـ مولى غُفْرة ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «الله! الله في أهل المدرة السوداء السُّحم

الرفق بأهل أرياف مصر وصعيدها

---

(١) في (ز): قبل.

. . . .

الجعاد؛ فإنَّ لهم نسباً وصهراً»[١]. قال عمر: فنسبهم: أن أم إسماعيل منهم، وصهرهم: أن رسولَ الله ﷺ تسرَّى منهم. قال ابنُ لهيعة: أم إسماعيل هاجر من أم العرب: قرية كانت أمام الفَرَما، وأم إبراهيم مارية سُرِّيَّة النبيِّ ﷺ التي أهداها له المقوقس من حَفْن من كورة أنْصِنا. والمدرة: واحدة المدر، والعرب تُسمِّي القرية: المدرة، وأهل المدر: أهل القرى. والسحم: السود، جمع أسحم، وهو الشديدُ الأدمة، وفوقه: الصحمة ـ بالصاد ـ. والجِعاد: المتكسِّرو الشعور، وهذه أوصافُ أهل صَعِيد مِصر غالباً، وقد تقدَّم ذِكْرُ هاجر. والفَرَما: قرية من عمل صعيد مصر، سُمِّيت باسم بانيها، وهو الفَرَما، بن قليقس، ويقال: ابن قليس، ومعناه: محبّ الغَرْس، وهو أخو الإسكندر [بن قليس اليوناني، ذكره الطبري؛ وذكر أن الإسكندر][٢] حين بنى الإسكندرية، قال: أبني مدينةً فقيرةً إلى الله غنيةً عن الناس، وقال الفرما: أبني مدينةً غنيةً عن الله فقيرة إلى الناس، فسلَّط اللَّهُ عليها الخراب سريعاً، فذهب رَسْمُها وبقيت الإسكندرية. وسميت مصر بمصر بن النبيط ولد كوش بن كنعان، وقال أبو العباس: اشتقاقُ مصر من المصر، وهو القطع، كأنها قُطِعت من الخراب، ومنه: المصر: الحاجز، ومصور الدار: حدودُها. وحَفْن: قرية مارية سُرِّية النبيِّ ﷺ بالصَّعيد معروفة، وهي التي كلَّم الحسنُ بن عليٍّ معاويةَ أن يضعَ الخراجَ عن أهلها لوصية رسول الله ﷺ بهم، ففعل معاوية ذلك، ذكره أبو عبيد في «الأموال». وأنْصِنا: مدينة السحرة، وحَفْن مِن عَمَلها، والمقوقس: هو ملك مصر بعث له رسولُ الله ﷺ حاطبَ بن أبي بلتعة، وجبراً مولى أبي رُهْم بكتاب، فلم يبعدْ عن الإسلام، وأهدى له مارية، ويُقال: وأختها سيرين، وبغلة تسمَّى: الدّلدل. والدلدل: القنفذ العظيم. والمقوقس: المطوّل للبناء. يُقال في المثل: أنا في القوس، وأنت بالقوقوس فمتى نجتمع؟!.

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٦).

(٢) ما بين حاصرتين سقط من (ز).

فإذا رأيتَ رجلين يَخْتصمانِ فيها في موضعِ لَبِنَةٍ ، فاخرجْ منها» . قال: فرأيتُ عبدَ الرحمنِ بنَ شُرَحْبِيل بنِ حَسَنة وأخاهُ رَبيعةَ يختصمانِ في موضع لَبِنَةٍ فخرجتُ منها.

وفي أخرى: «فاستوصُوا بأهلها خيراً فإنَّ لهم ذمةً ورَحِماً».

رواه أحمد (٥/ ١٧٤)، ومسلم (٢٥٤٣) (٢٢٦ و ٢٢٧).

[٢٤٤٩] وعن أبي برزةَ، قال: بعثَ رسولُ الله ﷺ رجلاً إلى حيٍّ من أحياء العربِ فسَبُّوه، وضربُوه، فجاء إلى رسول الله ﷺ، فأخبره، فقال رسولُ الله ﷺ: «لو أنَّ أهلَ عُمانَ أتيتَ؛ ما سَبُّوكَ ولا ضربُوكَ».

رواه مسلم (٢٥٤٤).

* * *

و (قوله: «فإذا رأيتم رجلين يختصمان فيها في موضع لَبِنَةٍ فاخرجْ منها») يعني بذلك: كثرة أهلها، ومشاحتهم في أرضها، واشتغالهم بالزراعة والغرس عن الجهاد، وإظهار الدِّين، ولذلك أَمَره بالخروج منها إلى مواضع الجهاد، ويحتملُ أن يكونَ ذلك؛ لأنَّ الناسَ إذا ازدحموا على الأرض، وتنافسوا في ذلك كثرتْ خصومتُهم، وشرورُهم، وفشا فيهم البخلُ، والشرُّ، فيتعيَّن الفِرار من محلٍّ يكون كذلك، إن وجد محلاً آخر خلياً عن ذلك، وهيهات! كان هذا في الصدر الأول، وأما اليوم، فوجودُ ذلك في غاية البعد، إذ في كلِّ وادٍ بنو سعد. واللَّبِنَـةُ: الطوبة، وتُجمع لَبِن. وفيه من الفقه: الأمر بالرِّفق بأهل أرياف مصر، وصعيدها، والإحسان إليهم، وخصوصاً أهل تينك القريتين، لما ذكر من تينك الخصوصيَّتين.

صفات أهل عُمان

و (قوله ﷺ: «لو أنَّ أهل عُمان أتيتَ ما سبُّوك ولا ضربوك») يُروى عُمان ـ بضم العين، وتخفيف الميم ـ وهو موضعٌ بالشام[1]، ويعني: أن أهلَ عُمان قومٌ

(١) هذا الموضع ذُكر بفتح العين وتشديد الميم. انظر: اللسان ومعجم البلدان.

(٨٤) بـــاب
في ثقيفٍ كذابٌ ومبيرٌ

[٢٤٥٠] عن أبي نوفلٍ، قال: رأيتُ عبدَ الله بن الزُّبَيْر على عَقَبَةِ المدينة. قال: فجَعَلَتْ قريشٌ تمرُّ عليه والناسُ، حتى مرّ عليه عبدُ الله بنُ عُمَر، فـوقـف عليـه، فقـال: السّلام عليـك أبـا خُبَيْـبٍ! السَّلامُ عليكَ

فيهم علم، وعفاف، وتثبُّت، والأشبه: أنهم أهلُ عمان التي قبل اليمن؛ لأنهم ألينُ قلوباً، وأرقُّ أفئدة، وأما أهلُ عُمان الشام فسلامة لك منهم وسلام، وأهلُ هذين الاسمين مِن عمن بالمكان: أقام به، ويُقال: أعمن الرجل: إذا صار إلى عُمان.

(٨٤) ومن بـــاب: في ثقيف كذَّاب ومُبِير

(قول أبي نوفل: رأيتُ عبدَ الله بن الزبير على عَقَبة المدينة) يعني: أنه رآه مَصْلُوباً على خشبةٍ على عَقَبَة المدينة، صلبه الحجاجُ ـ بعد أن قُتِل في المعركة ـ منكساً، وكان من حديثه ما قد تقدَّم بعضُه، وذلك أنه لما مات معاويةُ بن يزيدَ بن معاويةَ بن أبي سفيان، ولم يولِّ أحداً، بقي الناس لا خليفةَ لهم، ولا إمام مُدَّةً قد تقدَّم ذِكْرُها، فعند ذلك بايع الناسُ لعبد الله بن الزُّبير بمكة، واجتمع على طاعته أهلُ الحجاز، وأهلُ اليمن، والعراق وخراسان، وحجَّ بالناس ثماني حجج، ثم بايع أهلُ الشام لمروان بن الحكم، واجتمع عليه أهلُ الشام، ومصر، والمغرب، وكان ابنُ الزبير أولى بالأمر من مروان وابنه على ما قاله مالك ـ وهو الحقُّ ـ لعلم ابن الزبير، وفَضْله، وبيته، فجرتْ بينهم حروبٌ وخطوبٌ عظيمة، إلى أن توفي مروان وولي عبد الملك، واستفحل أمرُه بالحجَّاج، فوجَّه الحجاجَ إلى مكة في جيشٍ عظيم، فحاصر فيها عبدَ الله بن الزبير مدة ستة أشهر وسبعة عشر يوماً، ثم دخل عليه، فقُتل يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى. وقيل: جمادى الآخرة، سنة ثلاث وسبعين، وهو ابنُ اثنتين وسبعين سنة ـ قال المدائني:

بيعة ابن الزبير بمكة

مقتل ابن الزبير وصلبه بعد حصاره

أبا خُبَيْبٍ! السَّلام عليك أبا خبيب! أمَا والله! لقد كنتُ أنهاك عن هذا! أما والله! لقد كنت أنهاك عن هذا! أما والله! لقد كنتُ أنهاك عن هذا! أما والله! إن كنتَ مَا علمتُ صوّاماً، قوّاماً، وَصُولاً للرَّحم، أما واللَّهِ لأُمَّةٌ أنْتَ شَرُّها لأُمَّةٌ خيرٌ. ....

بُويع له بالخلافة سنة [خمس وستين، وكان قبل ذلك لا يُدْعى باسم الخلافة، وقال غيره: بويع له بالخلافة سنة][1] أربع وستين ـ ثم بقي مصلوباً على خشبةٍ إلى أن رحل عروةُ بنُ الزبير إلى عبد الملك بن مروان، فرغب إليه أن ينزل من الخشبة فأشفعه، فأُنزل. قال ابنُ أبي مليكة: كنتُ الآذنَ لمن[2] بشَّر أسماء بنزول ابنها عبدالله بن الزبير من الخشبة، فدعت بمركن وشبّ يمان، وأمرتني بغسله، فكنّا لا نتناولُ عضواً إلا جاء معنا، وكنا نغسلُ العضو، ونضعه في أكفانه حتى فرغنا منه، وكانت أمُّه أسماء تقولُ قبل ذلك: اللهم لا تُمتني حتى تُقرَّ عيني بجثته، فما أتتْ عليها جمعةٌ حتى ماتت. وفي مدّة صَلْبِه مرَّ به ابنُ عمر فقال: السلام عليك أبا خُبيب! كنّاه بابنٍ له يُسمَّى خبيباً، وكنيتُه الشهيرة أبو بكر.

و (قول ابن عمر: أما والله لقد كنتُ أنهاكَ عن هذا) أي: عن التعرُّض لهذا، وكأنه كان أشار عليه بالصُّلح، ونهاه عن قتالهم لما رأى من كثرة عدوّه، وشدَّة شوكتهم، ثم إنه شهدَ بما علم من حاله فقال: أما والله إن كنتَ ما علمتُ صوّاماً، قوّاماً، وصولاً للرحم. وكان يصومُ الدهر، ويواصلُ الأيام، ويُحيي الليل، وربما قرأ القرآنَ كلَّه في ركعة الوتر! و (إنْ) التي مع كنت مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، تقديره: إنك كنت، وما مع الفعل بتأويل المصدر.

شهادة ابن عمر لابن الزبير

و (قوله: أما والله! لأمَّة أنت شرها لأمةٌ خيرٌ) يعني بذلك: أنهم إنما قتلوه

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ز).

(٢) في الاستيعاب (٢/ ٣٠٥) ـ على هامش الإصابة ـ: كنتُ أوّل مَن.

ثم نفـذ عبدُ الله بنُ عمر. فبلغ الحجّـاجَ موقفُ عبدِ اللّهِ وقولُـهُ، فأرسل إليه، فأُنْزلَ عن جِذْعِهِ، فأُلقي في قُبُور الْيَهُودِ، ثمَّ أَرسلَ إلى أُمِّهِ أسماء بنتِ أبي بَكْرٍ، فأبتْ أنْ تأتِيَهُ، فأعاد عليها الرسولَ: لَتَأْتِينِّي، أو لأبْعَثَنَّ إليكِ من يَسْحَبُك بقُرونك! قال: فأبتْ، وقالتْ: والله! لا آتيكَ حتى تبعثَ إليَّ من يَسْحَبُني بقُروني! قال: فقال: أَرُوني سِبْتَيَّ! فأَخَذَ نَعْلَيْه، ثم انطَلَق يَتَوذَّفُ؛ حتى دخل عليها. قال: كيفَ رَأيْتِني صَنَعْتُ بعدو اللّهِ؟! قالتْ: رأيتُكَ أفسدْتَ عليه دُنْيَاه، وأفسد عليك آخِرَتَكَ! بلغني أنّك تقولُ: يا بنَ ذاتِ النِّطاقين! أنا والله! ذاتُ النطاقين؛ أمَّا أحدُهما فكنتُ أرفُع به طعامَ رسولِ الله ﷺ وطعامَ أبي بكر من الدوابّ، وأمّا الآخَرُ فَنِطاق المرأةِ التي لا تَسْتَغْنِي عنه، أمَا إنَّ رسول اللّهِ ﷺ حدَّثنا: أنّ في

وصلبوه؛ لأنه شرُّ الأمة في زَعْمهم، مع ما كان عليه من الفضل والدِّين والخير، فإذا لم يكن في تلك الأمة شرٌّ منه، فالأمة كلُّها أمة خير، وهذا الكلام يتضمَّن الإنكارَ عليهم فيما فعلوه به.

و (قوله: فبلغ الحجَّاجَ موقفُ عبدِ الله وقَوْلُهُ، فأرسل إليه، فأُنزل عن جِذْعه) ظاهرُ هذا: أنه إنما أنزله عن الخشبة لقول عبدالله وموقفه، وقد نقلنا: أنَّ إنزالَهُ كان عن سؤال عُروة لعبد الملك في ذلك، فيجوز أن يكونَ اجتمع إذنُ (عبد الملك)، وموقفُ عبدالله، فكان إنزالهُ عنهما. و (نسحبُكِ): نجرُّكِ. و (قُرُونها): الثوبُ الذي تنتطقُ به المرأة، أي: تحتزمُ. و (يتوذَّف): يمشي متبختراً، وقيل: مسرعاً. و (المُبير): المهلك، وكذلك كان الحجاجُ؛ فإنه روي أنه أُحصي مَن قَتَله الحجاجُ صَبْراً، فوجدوهم ثلاثين ألفاً، وأمَّا من قتل في الحروب فلم يحصوا.

من هو الكذّاب؟

وأما الكذاب فهو: المختار بن أبي عبيد الثقفي، فإنه ادَّعى النبوة، وتبعه على ذلك خَلْقٌ كثيرٌ حتى قتله اللّهُ تعالى كما تقدم.

ثقيفٍ كذَّاباً وَمُبِيراً، فأمَّا الكذَّاب فرأيناهُ، وأمّا المُبِير فلا إخَالُكَ إلا إياه! قال: فقام عنها، ولم يُراجِعْها.

رواه مسلم (٢٥٤٥).

* * *

(٨٥) بـــاب
ما ذكر في فارس

[٢٤٥١] عن أبي هريرة، قال: كنّا جُلُوساً عند النَّبيّ ﷺ، إذْ نزلتْ عليـه سـورة الجُمعَـة، فلمـا قـرأ: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ [الجمعة: ٣]، قال رجلٌ: مَنْ هؤلاء يا رسول الله؟! فَلَم يُراجِعه النَّبيُّ ﷺ

و(قوله: فقام عنها، فلم يراجعها) قد حُكي عنه أنه قال: اللهم! مبيرٌ لا كذَّاب.

و (إخالك): أظنُّك، وكسر همزة إخالك لغة فصيحة، والفتح الأصلُ والقياس.

(٨٥) ومن بـــاب: ما ذكر في فارس

(قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ [الجمعة: ٣] هو مخفوضٌ معطوفٌ على الأمِّيين[1]، ويجوزُ أن يكونَ منصوباً معطوفاً على الضَّمير في يُعَلِّمُهُم. ولما يلحقوا بهم: أي لم يدخلوا في الإسلام، ولم يوجدوا وسيوجدون.

---

(١) أي: من قوله تعالى في الآية التي قبلها: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم...﴾ [الجمعة: ٢].

حتى سأله مرةً، أو مرتين، أو ثلاثاً ـ قال: وفينا سَلْمَانُ الفارسيُّ ـ قال: فوضع النَّبيُّ ﷺ يَده على سلمانَ، ثم قال: «لو كانَ الإيمان عند الثُّريَّا لَنالَه رجالٌ من هؤلاء».

وفي روايةٍ: «لو كان الدِّينُ عند الثريَّا لذهب به رجلٌ من فارسَ ـ أو قال: من أبْنَاء فارس ـ حتى يَتَناوَلَه.

رواه أحمد (٢/ ٤١٧)، والبخاريُّ (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣٠ و ٢٣١)، والترمذيُّ (٣٣١٠)، والنَّسائي في الكبرى (٨٢٧٨).

(٨٦) بـــاب

[٢٤٥٢] عن أبي هريرة، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مِنْ أشدِّ أُمَّتي لي حُبّاً ناسٌ يكونون بعدي، يودُّ أحدُهم لو رآني بأهله وماله».

رواه البخاريُّ تعليقاً (٣٥٨٨)، ومسلم (٢٨٣٢).

[٢٤٥٣] وعن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «تجدونَ الناسَ كإبلٍ مِئَةٍ لا تجِدُ فيها راحلةً».

رواه أحمـــد (٢/ ٨٨)، والبخـــاريُّ (٦٤٩٨)، ومسلـــم (٢٥٤٧)، والترمذيُّ (٢٨٧٢).

* * *

وأحسن ما قيل فيهم أنهم أبناءُ فارس بدليل نصِّ هذا الحديث، وقد كثرتْ أقوالُ المفسرين في ذلك. وقد ظهر ذلك للعيان، فإنهم ظهر فيهم الدِّينُ، وكثر فيهم العلماءُ، فكان وجودُهم كذلك دليلاً من أدلَّة صِدْق النبي ﷺ.

(٨٦) بـــاب

و (قوله: تجدون الناسَ كإبلٍ مئة، لا تجدُ فيها راحلةً) قال الأزهري: الراحلة: الناقةُ النجيبة والجمل النجيب، والهاء فيها للمبالغة. كرجل داعية

. . . .

ونسّابة. وسُمِّيت بذلك لأنها تُرتحل، فهي فاعلة بمعنى مفعولة كعيشة راضية أي: مرضيّة. قال: ومعنى الحديث عندي: أنَّ الكامل في الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة قليل.

الكمال في الزهد قليل

قلتُ: ويقع لي أن الذي يناسبُ التمثيلَ بالرَّاحلة إنما هو الرجلُ الكريم، الجوادُ؛ الذي يتحمَّل كلَّ الناس وأثقالهم بما يتكلَّفه من القيام بحقوقهم، والغرامات عنهم، وكَشْف كُرَبهم، فهذا هو القليلُ الوجود، بل: قد يصدق عليه اسمُ المفقود، وهذا أشبهُ القولين، والله تعالى أعلم.

صفات الرجل القليل الوجود

كمل كتابُ المناقب، والحمد لله ربِّ العالمين.

* * *

(٣٤)
كتاب البر والصلة

(١) باب
في برِّ الوالدين، وما للأمِّ من البر

[٢٤٥٤] عن أبي هريرة، قال: جاء رجلٌ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ فقال: مَنْ أحقُّ النَّاس بحسن صحابتي؟ قال: «أمُّك». قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «أمُّك». قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «أمُّك». قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «أبوك».

---

(٣٤)
كتاب البِرّ والصِّلة

(١) ومن باب: برّ الوالدين

(قوله: مَن أحقُّ الناس بِحُسْن صَحابتي) أحقُّ: أولى وأوكد، والصَّحابة: الصُّحبة، يقال: صحبه يصحبه صحبة وصحابة.

المبالغة بحقِّ الأمِّ

و (قوله: «أمُّك» ثلاث مرات، وفي الرابعة: «أبوك») يدلُّ على صحَّة قول من قال: إنَّ للأم ثلاثة أرباع البر، وللأب رُبُعَه، ومعنى ذلك: أن حقَّهما ـ وإن كان واجباً ـ فالأم تستحقُّ الحظَّ الأوفر من ذلك، وفائدةُ ذلك المبالغةُ في القيام بحقِّ الأم، وأن حقَّها مُقدَّمٌ عند تزاحم حقِّها وحقِّه.

وفي روايةٍ: «ثُمَّ أَدْنَاكَ أدناك».

رواه أحمد (٢/ ٣٢٧)، والبخاريُّ (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨) (١ و ٢)، وابن ماجه (٢٧٠٦).

[٢٤٥٥] وعن عبد الله بن عمر، قال: جاء رجل إلى النَّبي ﷺ يستأذِنُهُ فِي الجِهادِ. فقال: «أَحَيٌّ وَالِداكَ؟» قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد».

القيام بصلة الرحم

و (قوله: «ثم أدناك أدناك») يعني: أنك إذا قمت ببرِّ الأبوين تعيَّن عليك القيامُ بصلة رَحِمك، وتبدأ منهم بالأقرب إليك نسباً فالأقرب، وهذا كلُّه عند تزاحم الحقوق، وأما عند التمكُّن من القيام بحقوق الجميع، فيتعيَّن القيامُ بجميع ذلك.

و (قوله: «أما وأبيك لتنبأنَّه»[1]) قد تقدَّم الكلامُ في الأيمان على القسم بالأب عند قوله: «أفلح وأبيه! إن صدق»[2]. ولتنبأنَّ: لتخبرنَّ بذلك، والهاء للسَّكت، ويُحتمل: أن تكون ضمير المصدر الذي دلَّ عليه لتنبأنَّ.

و (قوله: جاء رجل يستأذنه في الجهاد فقال: «ألك أبوان؟» قال: نعم) فيه ما يدلُّ على أن المفتي إذا خاف على السَّائل الغلط، أو عَدَم الفهم تعيَّن عليه الاستفصال، وعلى أنَّ الفروضَ والمندوبات مهما اجتمعت قُدِّم الأهمُّ منها، وأنَّ القائمَ على الأبوين يكونُ له أجرُ مجاهدٍ وزيادة.

الجهاد في بر الوالدين

و (قوله: «ففيهما فجاهد») أي: جاهدْ نفسك في برِّهما وطاعتهما، فهو الأولى بك؛ لأنَّ الجهادَ فرضُ كفاية، وبرُّ الوالدين فرضُ عين، فلو تعيَّن الجهادُ

---

(١) لم تَرِدْ هذه العبارة في التلخيص، وإنما وردتْ في الأم برقم (٢٥٤٨) (٣).
(٢) رواه أحمد (١/ ١٦٢)، والبخاري (٤٦)، ومسلم (١١).

رواه أحمد ٢/ ١٨٨)، والبخاريُّ (٣٠٠٤)، ومسلم (٢٥٤٩) (٥)، والترمذيُّ (١٦٧١)، والنسائي (٦/ ١٠).

[٢٤٥٦] وعنه؛ قال: أقبل رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: أُبايِعُكَ على الهجرةِ والجهادِ، أبتغي الأجرَ من اللَّهِ. قال: «فهل من والديك أحدٌ حيٌّ؟» قال: نعم؛ كلاهما. قال: «فَتبتغي الأجرَ من اللَّهِ؟» قال: نعم. قال: «فارْجِعْ إلى والديكَ فأحسنْ صُحْبَتَهُما».

رواه أحمد (٥/ ٣٦٨)، ومسلم (٢٥٤٩) (٦).

* * *

وكان والداه في كفاية، ولم يمنعاه، أو أحدهما من ذلك، بدأ بالجهاد. فلو لم يكونا في كفايةٍ تعيَّن عليه القيامُ بهما، فبدأ به، فلو كانا في كفايةٍ ومنعاه لم يلتفتْ إلى منعهما؛ لأنهما عاصيان بذلك المنع، وإنما الطاعةُ في المعروف، كما لو مَنَعاه من صلاة الفرض. فأما الحجُّ فله أن يؤخِّره السنة والسنتين ابتغاءَ رضاهما، قاله مالك. هذا وإن قلنا: إنه واجبٌ على الفور مراعاةً لقول من يقولُ: إنه على التَّراخي. وقد تقدَّم القولُ على ذلك في الحج.

و (قول الأعرابي: أبايُعك على الهجرة) أي: على أنْ أهجر دار قومي، وأهاجرَ إليك، فأقيم معك في المدينة، وهذا كان في زمن وُجُوب الهجرة.

حكم تعارض بر الوالدين مع الهجرة

و (قوله: «فارجعْ إلى والديك فأحسنْ صُحبتهما») قد قدَّمنا ذِكْرَ الخلافِ في وجوب الهجرة، هل كان على أهل مكَّة خاصَّة، أو كان على كلِّ مَن أسلم؟ وعلى القولين فقد أسقط عنه الهجرة، لأنَّ حقَّ الوالدين أولى؛ لأنه إن كانت الهجرةُ عليه واجبة، فقد عارضها ما هو أوجبُ منها، وهو حقُّ الوالدين، فقُدِّم، وإن لم تكنَ واجبةً عليه، فالواجبُ أولى على كلِّ حال، لكنه إنما يصحُّ هذا ممن يَسْلَمُ له في موضعه دِيْنُه، فأما لو خاف الفتنةَ على دينه لوجبَ عليه الفِرارُ بدينه، وتَرْكُ آبائه

(٢) بـــاب

ما يتَّقى من دعاء الأمِّ

[٢٤٥٧] عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لم يتكلمْ في المهْدِ إلّا ثلاثةٌ: عيسى ابنُ مريمَ، وصاحبُ جُرَيْجٍ، وكان جريجٌ رجلاً عابداً، فاتخذ صومعةً، فكان فيها، فأَتَتْه أُمُّه وهو يُصلِّي، فقالتْ: يا جريجُ! فقال:

وأولاده، كما فَعَل المهاجرون الذين هم صَفْوة الله من عباده. وبرُّ الوالدين واجبٌ على الجملة بالكتاب، والسُّنَّة، وإجماع الأمَّة، وكذلك صِلةُ الأرحام، وأما تفصيلُ ما يكون برّاً وصلة، وما لا يكون، فذلك يستدعي تفصيلاً وتطويلاً ليس هذا موضعه.

(٢) ومن بـــاب: ما يتَّقى من دعاء الأم

(قوله: «لم يتكلَّم في المهد إلا ثلاثة») المهد: أصله مصدر مَهَّدت الشيء أَمْهَده: إذا سوَّيته وعدَّلته. فمهدُ الصبيِّ: كلُّ محل يُسوَّى له ويُوطَّأ، وقد يكون سريره، وقد يكون حجر أُمِّه، كما قال قتادة: في قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩] أي: في حجر أمه. وظاهر هذا الحصر يقتضي أن لا يُوجد صغير تكلَّم في المهد إلا هؤلاء الثلاثة، وهم: عيسى، وصبيُّ جريح، والصبيُّ المتعوِّذ من الجبَّار. وقد جاء من حديث صهيب[١] المذكور في تفسير سورة البروج في قصة الأخدود: أن امرأة جيء بها لتُلقى في النار على إيمانها ومعها صبيٌّ لها في ـ غير كتاب مسلمٍ: يرضعُ[٢] ـ فتقاعست أن تقعَ فيها، فقال لها

الصغار الذين تكلَّموا في المهد

---

(١) رواه مسلم (٣٠٠٥)، والترمذي (٣٣٣٧).

(٢) رواه أحمد في المسند (١/ ٣١٠) من حديث ابن عباس، وفي الدر المنثور (٨/ ٤٧٠) عن صُهيب، ولم ترد لفظة «يرضع».

يا ربِّ! أمِّي وصلاتي! فأقْبَل على صلاتِهِ، فانْصَرفَتْ، فلما كانَ من الغد أتته وهو يصلِّي، فقالتْ: يا جريجُ! فقال: يا رب! أمي وصلاتي! فأقبل على صلاته، فانصرفتْ. فلما كان من الغد أتته، فقالت: يا جريج! فقال: أيْ ربِّ! أمِّي وصلاتي! فَأقبل على صلاته. فقالتْ: اللهم لا تُمِتْه حتى ينظرَ إلى وجوه المُومِسَات، فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادتَه، وكانتِ امرأة بَغِيٌّ يُتمثَّلُ بحُسْنِها، فقالتْ: إنْ شِئْتُم لأَفْتِنَنَّهُ لكم. قال: فتعرضتْ له فلم يلتفتْ إليها، فأتتْ راعياً كان يأوي إلى صومعته فأمْكَنَتْه من نفسها،

الغلامُ: يا أُمَّه! اصبري، فإنك على الحق. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إنَّ شاهدَ يوسف كان صبيّاً في المهد، وقال الضحَّاك: تكلَّم في المهد ستة: شاهد يوسف، وصبيُّ ماشطة امرأة فرعون، وعيسى، ويحيى، وصاحب جريج، وصاحب الأُخدود.

قلتُ: فأسقطَ الضحَّاكُ صبيَّ الجبَّار، وذكرَ مكانَه يحيى، وعلى هذا فيكون المتكلِّمون في المهد سبعة، فبطلَ الحصرُ بالثلاثة المذكوربن في الحديث.

قلتُ: ويُجاب عن ذلك: بأن الثلاثة المذكورين في الحديث هم الذين صحَّ أنهم تكلَّموا في المهد، ولم يختلف فيهم فيما علمت، واختُلف فيمن عداهم، فقيل: إنهم كانوا كباراً بحيث يتكلَّمون ويعقلون، وليس فيهم أصحُّ من حديث صاحب الأُخدود، ولم تَسْلَم صحة الجميع، فيرتفعُ الإشكال بأن النبيَّ ﷺ أخبرَ بما كان في علمه مما أُوحي عليه في تلك الحال، ثم بعد هذا أعلمَه الله تعالى بأشياءَ من ذلك، فأخبرنا بذلك على ما في علمه.

كان جُريج عابداً ولم يكن عالماً

و (قوله: «يا ربِّ أُمِّي وصلاتي») قول يدلُّ على: أن جُريجاً ـ رضي الله عنه ـ كان عابداً، ولم يكن عالماً؛ إذ بأدنى فكرة يُدْرَكُ أن صلاتَه كانت ندباً، وإجابة أُمِّه كانت عليه واجبةً، فلا تعارضَ يُوجبُ إشكالاً، فكان يجبُ عليه تخفيفَ

فوقع عليها، فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جُرَيْج. فَأَتوه، فاستنزلُوه، وهدموا صَوْمعته، وجعلوا يَضْرِبونَه. فقال: ما شأنُكُم؟ قالوا:

صلاته، أو قطعَها، وإجابةَ أُمِّه، لا سيما وقد تكرَّر مجيئها إليه، وتشوُّقُها واحتياجُها لمكالمته. وهذا كلُّه يدلُّ على تعيُّن إجابته إياها، ألا ترى أنه أغضبها بإعراضه عنها، وإقبالِه على صلاته؟ ويبعدُ اختلاف الشرائع في وجوب برِّ الوالدين. وعند ذلك دعتْ عليه، فأجابَ الله دعاءَها تأديباً له، وإظهاراً لكرامتها، والظاهر من هذا الدعاء أن هذه المرأة كانت فاضلةً عالمةً، ألا ترى كيف تحرَّزت في دعائها فقالت: اللهم! لا تُمتْه حتى ينظرَ إلى وجوه المومساتِ، فقالت: حتى ينظرَ، ولم تقل غيرَ ذلك، وقد جاءَ في بعض طرق هذا الحديث: ولو دعت عليه أن يُفتن لفُتِنَ. وهي أيضاً: لو كظمتْ غيظَها وصبرت لكان ذلك الأولى بها، لكنْ لما علمَ الله تعالى صدق حالهما لطفَ بهما، وأظهرَ مكانتهما عنده بما أظهرَ من كرامتهما.

من فوائد حديث جريج

وفائدته: تأكُّدُ سعي الولد في إرضاء الأم، واجتناب ما يُغيِّر قلبها، واغتنامُ صالح دعوتِها، ولذلك قال ﷺ: «الجنة تحت أقدام الأمهات»[(١)] أي: من انتهى من التواضع لأُمِّه بحيث لا يشقُّ عليه أن يضعَ قدمها على خدِّه استوجبَ بذلك الجنة، والأولى في هذا الحديث أن يقال: أنه خرجَ مخرج المثل الذي يُقصد به الإغياء في المبرَّة والإكرام، وهو نحو من قوله ﷺ: «الجنَّة تحت ظلال السيوف»[(٢)].

والموسات: جمع مُومسة، وهي الزانية.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣٣٥) وقال: رواه الخطيب في جامعه، والقضاعي في مسنده عن أنس، ورواه الديلمي في مسند الفردوس (٢٦١١)، وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٣٤٧).

(٢) رواه البخاري (٣٠٢٥)، ومسلم (١٧٤٢)، وأبو داود (٢٦٣١).

زَنَيْتَ بهذه البَغِيِّ، فولدتْ منك! فقال: أين الصَّبيُّ؟ فجاؤوا به، فقال: دعوني حتى أُصَلِّيَ، فصلَّى، فلمَّا انصرفَ أتى الصبيَّ، فطَعَنَ في بَطْنِهِ، فقال: يا غلام! من أبوك؟ قال: فلانٌ الرّاعي! قال: فأَقْبَلُوا على جُرَيْجٍ يُقَبِّلونَه ويَتَمَسَّحون به. وقالوا: نَبْنِي لَكَ صومعتَك من ذَهَبٍ. قال: لا. أَعِيدُوها من طينٍ كما كَانَتْ، ففَعَلُوا. وبَيْنا صَبِيّ يرضَعُ من أُمِّه. فمرّ رجلٌ

أثر الزنى في التحليل والتحريم

و (قوله: «يا غلامُ من أبوكَ؟ قال: فلان الراعي») يتمسك به من قال: إن الزِّنى يُحرِّم كما يُحرِّم الوطء الحلال، فلا تحلُّ أمُّ المزني بها، ولا بناتها للزاني، ولا تحلُّ المزني بها لآباء الزاني، ولا لأولاده. وهي رواية ابن القاسم عن مالك في المدونة، وفي الموطأ: أن الزِّنى لا يُحرِّم حلالاً. ويُستدل به أيضاً: أن المخلوقةَ من ماء الزاني لا تحلُّ للزاني بأُمها، وهو المشهور، وقد قال عبد الملك ابن الماجشون: أنها تحلُّ، ووجه التَّمسُّك على تينك المسألتين: أن النبيَّ ﷺ قد حكي عن جُريج أنه نسبَ ابن الزنى للزاني، وصدَّقَ الله نسبته بما خرقَ له من العادة في نُطق الصبيِّ بالشهادة له بذلك، فقد صدَّق الله جُريجاً في تلك النسبة وأخبر بها النبيَّ ﷺ عن جُريج في معرض المدح لجريج وإظهار كرامته، [فكانت تلك النسبة صحيحةً بتصديق الله وبإخبار النبيِّ ﷺ عن ذلك فثبتت البنوَّة][1] وأحكامها. لا يُقال: فيلزم على هذا أن تجري بسببهما أحكام النبوَّة والأبوة من التوارث، والولايات، وغير ذلك، وقد اتفق المسلمون على: أنه لا توارثَ بينهما، فلم تصحَّ تلك النسبة؛ لأنا نُجيب عن ذلك بأن ذلك موجب ما ذكرناه، وقد ظهر ذلك في الأم من الزنى؛ فإن أحكام النبوّة والأمومة جارية عليهما، فما انعقدَ الإجماع عليه من الأحكام: أنه لا يجري بينهما استثنيناه، وبقيَ الباقي على أصل ذلك الدليل. وفيها مباحث تُستوفى في غير هذا الموضع ـ إن شاء الله تعالى ـ.

من هدمَ حائطاً بنى مثله

و (قوله: «نبني صومعتك من ذهب. قال: لا! إلا من طينٍ كما كانت») يدلُّ

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ع).

راكبٌ على دابّةٍ فارهة، وشارةٍ حَسَنة. فقالتْ أُمُّه: اللهُمّ! اجْعَلْ ابنِي مثل هذا! فترك الثَّدْيَ وأقْبل إلَيْه، فنظر إليه، فقال: اللهم لا تجْعَلْنِي مِثْله! ثم أقبل على ثَدْيهِ فجعل يرتضع، فكأنِّي أنظرُ إلى رسولِ الله ﷺ وهُو يَحْكِي ارْتضاعَه بإصْبعِه السَّبَّابة في فَمِهِ، فَجعَلَ يَمُصُّها. قال: ومرُّوا بجاريةٍ وهم يضربُونَها ويقولون: زَنَيْتِ! سَرَقْتِ! وهي تقول: حَسْبِيَ اللَّهُ ونِعمَ الوكيلُ، فقالتْ أمُّه: اللَّهُم لا تَجعل ابني مِثْلَها. فترك الرَّضاعَ، ونَظَر إليها، فقال: اللهم اجْعَلنِي مِثْلَها! فهناك تراجَعا الحديث. فقالتْ: حَلْقَى! مرَّ رجلٌ حسنُ الهيئة فقلتُ: اللهم! اجْعَل ابنِي مِثْلَه. فقلتَ: اللهم! لا تجعلني مثلَه! ومروا بهذه الأمَةِ وهم يضْرِبونها ويقولون: زَنَيْتِ، سَرَقْتِ. فقلتُ: اللهم! لا تجعلِ ابنِي مِثْلَها، فقُلْتَ: اللهم اجعلني مثلَها! قال: إنَّ ذَاكَ الرجلَ كان جبَّاراً، فقلتُ: اللهم لا تجْعَلْني مثله! وإنَّ هذِهِ يقولون لها: زَنَيْتِ، ولم تزنِ! سرقتِ، ولم تسرقْ! فقلتُ: اللهم! اجعلني مِثْلَها!.

على أن: من تعدَّى على جدار أو دار وجب عليه أن يُعيدَه على حالته، إذا انضبطت صفتُه، وتمكنت مماثلته، ولا تلزم قيمة ما تعدَّى عليه، وقد بوَّب البخاريُّ على حديث جُريج هذا: من هدم حائطاً بنى مثلَه، وهو تصريح بما ذكرناه، وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فإن تعذَّرت المماثلة فالمرجع إلى القيمة، وهو مذهبُ الكوفيين والشافعي، وأبي ثورٍ في الحائط، وفي العتبية عن مالك مثله، ومذهبُ أهل الظاهر في كلِّ متلفٍ هذا. ومشهورُ مذهب مالك وأصحابه، وجماعة من العلماء: أن فيه وفي سائر المُتلفات المضمونات القيمة؛ إلا ما يرجعُ إلى الكيْل والوزن؛ بناءً منهم على أنه: لا تتحقق المماثلة إلا فيهما.

والدَّابَّة الفارهة: الحسنة النجيبة، والشَّارة: الهيئة المزيَّنة التي يُشار إليها من

وفي روايةٍ: فوصف أبو هريرة صفة رسول الله ﷺ أمَّ جريج حين دَعَتْهُ؛ كيف جعلتْ كفَّها فوقَ حاجِبِها، ثم رفعتْ رأسَها إليه تدْعوه؛ فقالتْ: «يا جريجُ! أنا أُمُّك، كَلِّمْنِي، فصادفته يُصَلِّي. فقال: اللّهُمَّ أمّي وصلاتي! فاختار صلاتَه. فقالتْ في الثالثة: اللّهُمّ! إنَّ هذا جُريجٌ، وهو

حسنها. وحلقى ـ غير مصروف ـ؛ لأن ألفه للتأنيث كسَكْرى، وهي كلمة جرت في كلامهم مجرى المثل، وأصلُها فيمن أُصيبَ حلقها بوجع، وقد تقدَّم: أن عقرى وحلقى: من الكلمات التي جرت على ألسنتهم في معرض الدعاء غير المقصود.

حقيقة الجمال

وأمُّ هذا الصبيِّ الرضيع نظرت إلى الصُّورة الظاهرة فاستحسنتْ صورة الرجل وهيأتَه، فدعت لابنها بمثل هذا، واستقبحت صورة الأمة وحالتَها، فدعت ألا يجعلَ ابنَها في مثل حالتها، فأرادَ الله تعالى بلطفه تنبيهها بأنْ أنطقَ لها ابنَها الرضيع بما تجبُ مراعاته من الأحوال الباطنة، والصِّفات القلبيّة. وهذا كما قال النبيُّ ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صُوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[1]، وكما قال بعض حكماء الشعراء:

لَيْسَ الجَمالُ بِمِئْزَرٍ ... فاعْلَمْ وَإنْ رُدِّيتَ بُرْدا
إنَّ الجَمالَ مَعادِنٌ ... وَمَناقِبُ أَوْرَثْنَ مَجْدا

وهذا الصبي ظاهرُه أنَّ الله تعالى خلقَ فيه عقلاً وإدراكاً كما يخلقُه في الكبار عادةً، ففهم كما يفهمون، ويكون خرقُ العادة في كونه خُلقَ له ذلك قبل أوانه، ويحتمل أن يكون أجرى الله ذلك الكلامَ على لسانه وهو لا يعقله، كما خلقَ في الذراع والحصى كلاماً له معنى صحيح، مع مشاهدة تلك الأمور باقيةً على جمادتها، كلُّ ذلك ممكن، والقدرة صالحة، والله تعالى أعلم بالواقع منهما.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٥٣٩)، ومسلم (٢٥٦٤) (٣٤)، وابن ماجه (٤١٤٣).

ابني، وإني كلَّمْتُه فأبى أنْ يُكَلِّمَنِي، اللَّهم! فَلا تُمِتْه حتى تُرِيَه وجه المُومساتِ! قال: «ولَو دعتْ عليه أن يُفْتَتن لَفُتِنَ». وذكر نحو قصة جريجٍ لا غير.

رواه أحمد (٢/ ٣٠٧)، والبخاريُّ (٢٤٨٢)، ومسلم (٢٥٥٠) (٧ و ٨).

* * *

فأما عيسى ـ عليه السلام ـ فخلقَ الله له في مهده ما خلقَ للعقلاء والأنبياء، في حال كمالهم من العقل الكامل، والفهم الثاقب، كما شهدَ له بذلك القرآن. وفي هذا الحديث ما يدلُّ على صحة وقوع كرامات الأولياء، وهذا قول جمهور أهل السُّنَّة والعلماء، وقد نُسبَ لبعض العلماء إنكارها، والظنُّ بهم: أنهم ما أنكروا أصلَها، لتجويز العقل لها، ولما وقع في الكتاب والسنة وأخبار صالحي هذه الأُمَّة مما يدلُّ على وقوعها، وإنما محل الإنكار ادعاء وقوعها ممن ليس موصوفاً بشروطها، ولا هو أهلٌ لها، وادعاء كثرة وقوع ذلك دائماً متكرِّراً حتى يلزمَ عليه أن يرجعَ خرقُ العادة عادةً، وذلك إبطال لسنَّة الله، وحسم السبل الموصلة إلى معرفة نبوة أنبياء الله تعالى.

صحة وقوع كرامات الأولياء

* * *

(٣) بـــاب

المبالغة في بر الوالدين
عند الكبر وبر أهل ودهما

[٢٤٥٨] عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «رَغِمَ أنْفُهُ! ثم رغم أنفه! ثم رغم أنفه!». قيل: من يا رسول الله؟! قال: «مَنْ أَدْرَكَ والدَيهِ

---

(٣) ومن بـــاب: المبالغة في برّ الوالدين

قوله: «رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه» يقال: بكسر الغين وفتحها، لغتان. رغم: بفتح الراء وكسرها وضمّها، ومعناه: لصق بالرَّغام ـ بفتح الراء ـ: وهو التُّراب، وأرغم اللَّهُ أنفَه، أي: ألصقه به، وهذا من النبيِّ ﷺ دعاءٌ مؤكَّد على مَن قصَّر في بِرِّ أبويه، ويحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون معناه: [صرعه اللَّهُ لأنفه فأهلكه، وهذا إنما يكون في حقِّ مَن لم يقمْ بما يجبُ عليه من برِّهما.

وثانيهما: أن يكون معناه][1]: أذلَّه الله؛ لأنَّ من ألصق أنفه ـ الذي هو أشرفُ أعضاء الوجه ـ بالتراب ـ الذي هو موطىء الأقدام وأخسّ الأشياء ـ فقد انتهى من الذلّ إلى الغاية القصوى، وهذا يصلحُ أن يُدعى به على من فرَّط في متأكدات المندوبات، ويصلح لمن فرّط في الواجبات، وهو الظاهِرُ، وتخصيصه عند الكبر بالذِّكر ـ وإن كان برُّهما واجباً على كلِّ حال ـ إنما كان ذلك لشدَّة حاجتهما إليه، ولضَعْفهما عن القيام بكثيرٍ من مصالحهما، وليبادرَ الولدُ اغتنامَ فرصة برِّهما؛ لئلا تفوتَه بموتهما، فيندم على ذلك.

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ع).

عند الكِبَرِ أَحَدَهُما، أو كليهما، ثم لَمْ يدخلِ الجنَّة».

رواه مسلم (٢٥٥١) (١٠)، والترمذيُّ (٣٥٣٩).

و (قوله: «أَحَدَهُما أو كليهما») كذا الرواياتُ الصَّحيحة بنصب أحدهما وكليهما؛ لأنه بدلٌ من والديه المنصوب بأدرك، وقد وقع في بعض النسخ: أحدُهما أو كلاهما مرفوعين على الابتداء، ويُتكلَّف لهما إضمارُ الخبر، والأول أولى][1].

ثواب المبالغة في بر الوالدين

و (قوله: «ثم لم يدخل الجنَّة») معناه: دخل النارَ لانحصار منزلتي الناس في الآخرة بين جنة ونار، كما قال: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]. فمن قيل فيه: لم يدخل النار منهم؛ إنه في الجنة، وبالعكس، وأو المذكورة هنا للتقسيم، ومعناه: أنَّ المبالغة في برِّ أَحَد الأبوين ـ عند عدم الآخر ـ يُدْخِل الولد الجنة، كالمبالغة في برِّهما معاً، ويعني بهذه المبالغة: المبرَّة التي تتعيَّنُ لهما في حياتهما، وقد يتعيَّنُ لهما أنواعٌ من البر بعد موتهما، كما قد فَعَل عبدُ الله بنُ عمر مع الأعرابي الذي وَصَلَه بالعِمامة والحمار، ثم ذكر ما سمعه من النبيِّ ﷺ في ذلك، وكما روى أبو داود عن أبي أُسَيْد قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجلٌ من بني سلمة فقال: يا رسولَ الله! هل بقي من برِّ أبويَّ شيءٌ أبرُّهما به بعد موتهما؟ قال: «نعم! الصَّلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عَهْدهما من بعدهما، وصِلة الرَّحِم التي لا تُوصَلُ إلَّا بهما، وإكرام صديقهما»[2].

عقوق الوالدين من الكبائر

ولا خلافَ في أنَّ عقوقَ الوالدين محرَّمٌ، وكبيرةٌ من الكبائر، وقد دلَّ على ذلك الكتابُ في غير موضع وصحيحُ السُّنَّة، كما روى النَّسائي والبزار من حديث ابن عمر عن النبيِّ ﷺ قال: «ثلاثةٌ لا ينظر اللَّهُ إليهم يوم القيامة: العاقُّ لوالديه،

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (م ٤).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٩٧ و ٤٩٨)، وأبو داود (٥١٤٢)، وابن ماجه (٣٦٦٤).

[٢٤٥٩] وعن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر: أنَّه كان إذا خرج إلى مكَّة كان له حِمارٌ يَتَرَوَّحُ عليه إذا ملّ رُكُوبَ الراحلة، وعِمامَةٌ يشدُّ بها رأسَهُ، فبَيْنا هو يَوْماً على ذلك الحمارِ؛ إذْ مرَّ به أعرابيٌّ؛ فقال: أَلَسْتَ ابن فلانِ ابنِ فلانٍ؟ قال: بلى! فأعطاه الحمار، وقال: اركبْ هذا، والعمامةَ فاشددْ بها رأسَك. فقال له بعضُ أصحابه: غفر اللَّهُ لك! أعطيتَ هذا الأعرابيَّ حماراً كنتَ تَرَوَّحُ عليه، وعمامةً كنتَ تَشُدُّ بها رأسك! فقال: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ مِن أبرِّ البرِّ صِلَةَ الرَّجُلِ أهلَ ودِّ أبيه بعد أن يُوَلِّيَ». وإنّ أباه كان صديقاً لعمر.

رواه مسلم (٢٥٥٢) (١٣).

* * *

والدَّيُّوث، والمرأةُ المرجِّلة تَشَبَّعُ بالرجال. وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاقُّ لوالديه، والمنَّان عطاءه، ومُدْمِن الخمر»[١].

معنى البر والعقوق للوالدين

وعقوق الوالدين: مخالفتهما في أغراضهما الجائزة لهما، كما أنَّ بِرَّهما: موافقتهما على أغراضهما الجائزة لهما، وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمرٍ وجبت طاعتهما فيه إذا لم يكن ذلك الأمرُ معصية، وإن كان ذلك المأمورُ به من قبيل المباحات في أصله، وكذلك إذا كان من قبيل المندوبات، [وقد ذهب بعضُ الناس إلى أنَّ أمرهما بالمباح يصيِّره في حقِّ الولد مندوباً إليه، وأمرهما بالمندوب][٢] يزيده تأكيداً في ندبيته، والصحيح الأول؛ لأن اللَّهَ تعالى قد قرن طاعتهما، والإحسانَ إليهما بعبادته وتوحيده فقال: : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ

(١) رواه النسائي في الكبرى (٢٣٤٣)، والبزار كما في كشف الأستار (١٧٨٥).
(٢) ما بين حاصرتين سقط من (م ٤).

(٤) بـــاب
في البر والإثم

[٢٤٦٠] عن النَّوَّاس بن سَمْعانَ الأنصاريِّ، قال: أقمتُ مع رسولِ الله ﷺ بالمدينة سنةً؛ ما يَمْنَعُنِي من الهجرة إلا المسألةُ؛ كان أحدُنا

إِيَّاهُ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت: ٨] في غير ما موضع، وكذلك جاءت في السُّنَّة أحاديثُ كثيرة تقتضي لزومَ طاعتهما فيما أمَرا به، فمنها ما رواه الترمذي عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان تحتي امرأةٌ أحبُّها، وكان أبي يكرهها، فأمرني أن أُطلِّقها، فأبيتُ، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «يا عبدَ الله بن عمر! طلِّق امرأتك»[١]. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسن صحيح. فإن قيل: فكيف يرتفعُ حُكْمُ الله الأصلي بحكم غيره الطارىء؟ فالجواب: أنه لم يرتفعْ حكمُ الله بحكم غيره بل بحكمه، وذلك أنه لما أوجب علينا طاعتهما، والإحسانَ إليهما، وكان من ذلك امتثالُ أمرهما؛ وَجَبَ ذلك الامتثالُ؛ لأنه لا يحصلُ ما أمرنا الله به إلا بذلك الامتثال؛ ولأنهما إن خُولِفا في أمرهما حَصَل العقوقُ الذي حرَّمه اللَّهُ تعالى، فَوَجَب أمرهما على كلِّ حال بإيجاب الله تعالى.

وجوب الطاعة للوالدين

(٤) ومن بـــاب: البِـرّ والإثـــم

ذكر مسلمٌ في هذا الباب النَّوَّاس بنَ سَمْعان، ونسبه إلى الأنصار، فقال: الأنصاريّ، والمشهورُ في نَسَبه أنه كلابي، إلّا أن يكونَ حليفاً للأنصار، وهو: النَّوَّاسُ بنُ سمعان بن خالد بن عمرو بن قُرْط بن كلاب[٢]، هكذا نسبه الغلَّابي ويحيى بن معين.

---

(١) رواه الترمذي (١١٨٩).

(٢) في (م ٤): بن قرط بن عدي بن أبي بكر بن كلاب.

إذا هاجر لم يسألْ رسولَ اللَّهِ ﷺ عن شيءٍ. قال: فسألته عن البرِّ والإثْمِ؟

قلــتُ: هذا كلُّه حكايةُ أبي عبد الله المازري، والذي ذكره أبو عمر في نسبه أنه قال: النواس بن سمعان بن خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن ربيعة الكلابي. وبين النسبين زيادة في الأجداد، وتغييرٌ في الأسماء، فتأمله.

و (قوله: أقمتُ مع رسول الله ﷺ بالمدينة سَنَةَ ما يمنعني من الهجرة إلا المسألة) يعني: أنه أقام بالمدينة في صورة العازم على الرجوع إلى الوطن الذي جاء منه، لا أنه التزم أحكامَ الهجرة من الاستيطان بها، والكون فيها ساكناً بها مع رسول الله ﷺ. وهذا يدلُّ على أنَّ الهجرةَ ما كانت واجبةً على كلِّ مَن أسلم، وقد تقدم الخلافُ في ذلك، وقد بيَّن عذره في كونه لم يلتزمْ سُكْنى المدينة، وهو قولُه: ما يمنعني من الهجرة إلا المسألة، أي: الأسولة[1] التي كان يُسأل رسولُ الله ﷺ عنها، وإنما كان ذلك لأن المهاجرين والقاطنين بالمدينة كانوا يكلفونه المسائل؛ لأنهم ما كانوا يسألون رسولَ الله ﷺ عن شيءٍ، ولذلك قال: كان أحدُنا إذا هاجر لم يسأل رسولَ الله ﷺ عن شيءٍ. وقد تمَّم هذا المعنى أنس ابن مالك حيث قال: نُهينا أن نسألَ رسولَ الله ﷺ في القرآن عن شيء، فكان يُعجبنا أن يجيءَ الرجلُ العاقلُ من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع. وقد تقدَّم القولُ في ذلك.

هــل الهجــرة واجبة على كل مَن أسلم؟

تعريف البِرّ

و (قوله: فسألته عن البر والإثم) أي: عما يبرّ فاعله فيلحق بالأبرار، وهم المطيعون لله تعالى. وعمَّا يأثم فاعلُه، فيلحق بالآثمين، فأجابه النبيُّ ﷺ بجواب جُمْليٍّ أغناه به عن التَّفصيل، فقال له: «البِرُّ حُسْنُ الخُلُق» يعني: أنَّ حُسْنَ الخُلُق أعظمُ خِصال البِرِّ، كما قال: «الحج عرفة»[2] ويعني بحسن الخلق: الإنصاف في المعاملة، والرِّفق في المجادلة، والعدل في الأحكام، والبذل، والإحسان.

---

(١) هذه لغة في الأسئلة. انظر: اللسان مادة (سول).

(٢) رواه أحمد (٤/ ٣٠٩)، وأبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٥/ ٢٦٤)، وابن ماجه (٣٠١٥).

فقال رسولُ الله ﷺ: «البرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، والإِثْمُ ما حاكَ في نَفْسِك وكَرِهْتَ أن يَطَّلِعَ عَليه الناسُ».

رواه أحمد (٤/ ١٨٢)، ومسلم (٢٥٥٣) (١٥)، والترمذيُّ (٢٣٨٩).

* * *

تعريف الإثم

و (قوله: «والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطَّلعَ عليه الناس») أي: الشيء الذي يؤثر نفرة وحزازة في القلب. يقال: حاك الشيءُ في قلبي: إذا رسخ فيه وثبت، ولا يحيك هذا في قلبي، أي: لا يثبتُ فيه، ولا يستقرّ. قال شمرٌ: الكلامُ الحائك: هو الراسخُ في القلب، وإنما أحاله النبيُّ ﷺ على هذا الإدراك القلبيِّ، لما علم من جودة فهمه، وحسن قريحته، وتنوير قلبه، وأنه يدركُ ذلك من نفسه. وهذا كما قال في الحديث الآخر: «الإثم حزَّازُ القلوب»[1] يعني به القلوبَ المنشرحة للإسلام، المنوَّرة بالعلم الذي قال فيه مالك: العلمُ نورٌ يقذفُه اللّهُ تعالى في القلب، وهذا الجوابُ لا يصلح لغليظ الطّبع[2] قليل الفهم، فإذا سأل عن ذلك من قلَّ فهمه فصّلت له الأوامر والنواهي الشّرعية. وقد قالت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن ننزلَ الناسَ منازلهم[3].

* * *

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٢٧٧) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٢) في (ز): القلب.

(٣) رواه أبو داود (٤٨٤٢) بلفظ: «أنزلوا الناسَ منازلهم» مرفوعاً من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٥) بــاب
في وجوب صلة الرحم وثوابها

[٢٤٦١] عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللَّهَ خَلَقَ الخَلْقَ حتى إذا فَرَغَ منهم قامت الرَّحِمُ فقالتْ: هذا مقامُ العائِذ بك من القطيعةِ. قال: نعم. أما تَرْضَيْن أن أَصِلَ من وَصلَكِ، وأَقْطَعَ من قطعكِ؟

---

(٥) ومن بــاب: وجوب صلة الرحم

(قوله: «إنَّ الله خلق الخَلْق حتى إذا فَرَغَ منهم») خلق هنا: بمعنى اخترع، وأصله: التقدير، كما تقدَّم. والخلق هنا: بمعنى المخلوق، وأصله مصدر، يقال: خَلَق يخلقُ خَلْقاً: إذا قدَّر، وإذا اخترع. قال زهير:

ولأَنْـتَ تَفْـرِي مَـا خَلَقْـتَ وَبَعْـ ... ـضُ القَـومِ يَخْلُـقُ ثُـمَّ لا يَفْـرِي

أي: تقطعُ ما قدَّرت. وقال الله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١١] أي: مخلوقُه. ومعنى فرغ منهم: أي كمل خلقهم، لا أنه اشتغل بهم، ثم فرغ من شُغْله بهم، إذ ليس فِعْلُه بمباشرة، ولا بمناولة، ولا خَلْقه بآلة، ولا محاولةٍ، تعالى عما يتوهّمه المتوهِّمون، وسُبحانه إذا أراد شيئاً، فإنما يقول له: كن فيكون.

ما هي الرحم؟

و (قوله: «قامت الرحمُ فقالت: هذا مقامُ العائذِ بك من القطيعة») هذا الكلامُ من المجاز المستعمل، والاتِّساع المشهور؛ إذ الرَّحِمُ عبارةٌ عن قرابات الرجل من جهة طرفي آبائه وإن علوا، وأبنائه وإن نزلوا، وما يتصل بالطرفين من الأعمام والعمَّات، والأخوال والخالات، والإخوة والأخوات، ومن يتصل بهم من أولادهم برحم جامعة. والقرابة إذاً نسبة من النَّسب، كالأبوة، والأخوة، والعمومة، وما كان كذلك استحال حقيقة القيام والكلام، فيحمل هذا الكلامُ على التوسُّع، ويمكن حَمْلُه على أحد وجهين:

قالتْ: بلى. قال: فذاك لك». ثم قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «اقرؤوا إنْ شِئْتُم: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ * أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٢ ـ ٢٤]».

رواه البخاريُّ (٥٩٨٧)، ومسلم (٢٥٥٤).

أحدهما: أن يكون اللَّهُ تعالى أقام من يتكلم عن الرحم من الملائكة، فيقول ذلك، وكأنه وكل بهذه العبادة من يناضلُ عنها، ويكتب ثوابَ من وَصَلها، ووِزْر مَن قَطَعها، كما قد وكَّل اللَّهُ بسائر الأعمال كِراماً كاتبين، وبمشاهدة أوقات الصَّلوات ملائكةً متعاقبين.

وثانيهما: أن ذلك على وجه التقدير والتَّمثيل المفهم للإغياء، وشدَّة الاعتناء، فكأنه قال: لو كانت الرحمُ ممن يعقلُ ويتكلَّم لقالتْ هذا الكلام، كما قال تعالى: ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ ﴾ ثم قال: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

الأمر بصلة الرحم

وعلى التقديرين فمقصودُ هذا الكلام: الإخبارُ بتأكُّد أمْر صِلَة الرحم؛ وأنه تعالى قد نزَّلها منزلةَ من قد استجار به فأجاره، وأدخله في ذِمَّته وخفارته، وإذا كان كذلك فجارُ الله تعالى غيرُ مخذول، وعهدُه غيرُ منقوض؛ ولذلك قال مخاطباً للرَّحم: «أما تَرْضَيْنَ أن أَصِل من وَصَلك، وأَقطعَ مَن قَطَعك؟!» وهذا كما قال ﷺ: «من صلى الصبح فهو في ذمة الله، فلا يطلبنكم اللَّهُ من ذمَّته بشيءٍ، فإنه من يطلبُه مِن ذمته بشيءٍ يدركه، ثم يكبُّه على وجهه في النار»[(١)].

و (قوله ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٢٢]) عسى: من أفعال المقاربة، ويكون رجاءً وتحقيقاً، قال الجوهري: عسى من الله واجبةٌ في جميع القرآن إلا قوله تعالى:

---

(١) رواه مسلم (٦٥٧)، والترمذي (٢٢٢).

[٢٤٦٢] وعن عائشة، قالت: قالَ رسولُ الله ﷺ: «الرّحِمُ مُعلَّقةٌ بالعَرْشِ تقولُ: مَنْ وَصَلنِي وَصَلَهُ الله! ومَنْ قَطَعَنِي قطعهُ الله!».

رواه أحمد (٦/ ٦٢)، والبخاريُّ (٥٩٨٩)، ومسلم (٢٥٥٥).

[٢٤٦٣] وعن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ، عن النبيّ ﷺ قال: «لا يدخلُ الجنة قاطعٌ». قال سفيان: يعني: قاطع الرحم.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥] وإذا اتصل بعسى ضمير فاعل كان فيها لغتان، فتح السين وكسرها، وقرىء بهما، وظاهر الآية: أنه خطابٌ لجميع الكفار. قال قتادة: معنى الآية: فلعلكم ـ أو يُخاف عليكم ـ إن أعرضتم عن الإيمان أن تعودوا إلى الفساد في الأرض بسفك الدماء.

قلتُ: وعلى هذا فتكون الرحمُ المذكورة هنا رحم دِيْن الإسلام والإيمان التي قد سمَّاها الله إخوة بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال الفراء: نزلتْ هذه الآيةُ في بني هاشم وبني أمية. وعلى هذا فتكون رَحِم القرابة.

الرحم عامة وخاصّة

وعلى هذا فالرَّحمُ المحرَّمُ قطعها، المأمورُ بصلتها على وجهين؛ عامة وخاصة.

فالعامة: رحم الدين، وتجب مواصلتُها بملازمة الإيمان، والمحبة لأهله ونصرتهم، والنصيحة لهم، وترك مضارَّتهم، والعدل بينهم، والنَّصفة في معاملتهم، والقيام بحقوقهم الواجبة كتمريض المرضى، وحقوق الموتى: من غسلهم، والصلاة عليهم، ودفنهم، وغير ذلك من الحقوق المترتبة لهم.

وأما الرحم الخاصة: فتجبُ لهم الحقوقُ العامة، وزيادة عليها كالنفقة على القرابة القريبة، وتفقُّد أحوالهم، وترك التَّغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم، وتتأكّد في حقهم حقوقُ الرحم العامة، حتى إذا تزاحمت الحقوقُ بُدِىء بالأقرب فالأقرب كما تقدَّم.

لا يدخل الجنة قاطع رحم

و (قوله: «لا يدخل الجنة قاطع») قال سفيان يعني: قاطع رحم. هذا التفسيرُ

رواه أحمـــد (٤/ ٨٤)، والبخـــاريُّ (٥٩٨٤)، ومسلـــم (٥٥٦)، وأبو داود (١٦٩٦)، والترمذي (١٩٠٩).

صحيحٌ لكثرة مجيء لفظ قاطع في الشرع مُضافاً إلى الرَّحم، فإذا ورد عُرْياً عن الإضافة حمل على ذلك الغالب. والكلام في كون القاطع لا يدخل الجنة قد تقدَّم في الإيمان؛ وأنه يصحُّ أن يُحمل على المستحل لقطع الرحم، فيكون القاطعُ كافراً، أو يخاف أن يفسدَ قلبُه بسبب تلك المعصية فيختم عليه بالكفر، فلا يدخل الجنة، أو لا يدخل الجنة في الوقت الذي يدخلُها الواصلُ لرحمه؛ لأنَّ القاطعَ يُحْبَسُ في النار بمعصيته، ثم بعد ذلك يخلصُ منها بتوحيده، كلُّ ذلك محتملٌ، واللَّهُ ورسولُه أعلمُ بعين المقصود.

وهذا الحديث يدلُّ دلالة واضحة على وجوب صلة الرحم على الجملة، وعلى تحريم قطعها، وأنه كبيرة. ولا خلافَ فيه. [لكن الصلة درجات بعضها أرفعُ من بعضٍ، فأدناها تركُ المهاجرة، وأدنى صلتها بالسلام][1]. كما قال ﷺ: «صِلُوا أرحامَكم ولو بالسَّلام»[2] وهذا بحسب القدرة عليها، والحاجة إليها، فمنها ما يتعيَّن ويلزم، ومنها ما يُستحبُّ ويُرَغَّب فيه، وليس من لم يبلغ أقصى الصِّلات يُسمَّى قاطعاً، ولا من قصَّر عما ينبغي له، ويقدر عليه يُسمَّى واصلاً. قال القاضي:

صلة الرحم درجات

وقد اختلف في حدِّ الرَّحم التي تجبُ صِلتها، فقال بعضُ أهل العلم: هي كلُّ رحم مَحْرَم، وعلى هذا فلا تجبُ في بني الأعمام وبني الأخوال، وقيل: بل هذا في كلِّ رحمٍ ممن ينطلقُ عليه ذلك من ذوي الأرحام في المواريث مَحْرَماً كان، أو غير مَحْرَم.

حدُّ الرحم التي تجب صِلتها

---

(١) كذا في جميع نسخ المفهم، وما وردَ في «إكمال إكمال المعلم» أوضح في بيان المقصود. قال الأبيُّ: والصِّلة درجات بعضها فوق بعض، وأدناه تركُ المهاجرة، والكلام ولو بالسلام. إكمال إكمال المعلم (٧/ ١٢).

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٥٢) وقال: رواه البزار، وفيه يزيد بن عبد الله بن البراء الغنوي، وهو ضعيف.

[٢٤٦٤] عن أنسِ بنِ مالكٍ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سرَّه أن يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ، ويُنْسَأ له في أثَره، فلْيَصِلْ رَحِمه».

رواه أحمد (٣/ ٢٢٩)، والبخاريُّ (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧) (٢٠)، وأبو داود (١٦٩٣).

[٢٤٦٥] وعن أبي هريرة، أنَّ رجلاً قال: يا رسولَ الله! إنَّ لي قرابَةً، أَصِلُهُم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويُسِيؤون إليّ، وأَحْلُمُ عنهم؛ وهم يَجْهَلونَ عليّ! ....

قلتُ: فيخرج من هذا: أنَّ رحمَ الأُمِّ التي لا يُتوارث بها لا تجبُ صلتُهم، ولا يحرمُ قطعُهم، وهذا ليس بصحيح، والصَّواب ما ذكرناه قبل هذا من التعميم والتقسيم.

و (قوله: «من سرَّه أن يُبسطَ له في رزقه، ويُنْسأَ له في أثره فليصلْ رحمَه») بسط الرزق: سعته وتكثيره والبركة فيه. والنَّسء: التأخير، والأثر: الأجل، سُمِّي بذلك؛ لأنه تابع الحياة. ومعنى التأخير هنا في الأجل ـ وإن كانت الآجال مُقدَّرة في علم الله لا يُزاد فيها ولا ينقص ـ: أنه يبقى بعدَه ثناءٌ جميلٌ، وذكرٌ حميدٌ، وأجرٌ متكرِّرٌ، فكأنَّه لم يمت، وقيل معناه: يُؤَخَّر أجلُه المكتوبُ في اللوح المحفوظ، والذي في علم الله ثابت لا تبديلَ له، كما قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩] أي: أصل المكتوب في اللوح المحفوظ، هو علم الله تعالى الذي لا يقبل المحوَ ولا التغيير، حُكي معناه عن عمر ـ رضي الله عنه ـ في الآية.

و (قوله: إن لي قرابةً أَصِلُهم ويقطعوني، وأُحْسِنُ إليهم ويُسيئون إليَّ، وأَحْلُمُ عنهم ويجْهَلُون عليَّ) أحلُم ـ بضم اللام ـ: أصفح. ويجهلون: يقولون قول الجهَّال من السبِّ والتقبيح.

فقال: «لئن كنتَ كما قلتَ ؛ فكأنما تُسِفُّهُمُ المَلَّ. ولا يزال معك من الله ظهير عليهم، ما دُمْتَ على ذلك».

رواه أحمد (٢/ ٣٠٠)، ومسلم (٢٥٥٨).

[٢٤٦٦] وعن أبي أيوب: أنَّ أعْرابياً عرض لرسول الله ﷺ وهو في سَفَرٍ، فأخذ بِخِطامِ ناقتِهِ ـ أو بزِمامِها ـ ثم قال: يا رسول الله! ـ أو

و (قوله: «لئن كنتَ كما قلْتَ فكأنما تُسِفُّهُمُ المَلَّ») الرواية: بضم تاء تُسِفُّهم، وكسر السين، وضم الفاء، أي: تجعلُهم يَسفُّونه من السَّفِّ، وهو شربُ كلِّ دواء يؤخذ غير ملتوت، تقول: سففتُ الدواء وغيرَه مما يُؤخذ غير معجون، وأسففته غيري، أي: جعلتُه يَسفُّه. والمَلُّ: الرَّماد الحارُّ. يقال: أطعَمَنا خبزَ مَلَّة، ومعنى ذلك: أن إحسانك إليهم مع إساءتهم لك، يتنزل في قلوبهم منزلةَ النار المحرقة، لما يَجدون من ألم الخزي، والفضيحة، والعار الناشىء في قلب من قابلَ الإحسان بالإساءة.

و (قوله: «ولا يزالُ معك من الله ظهيرٌ ما دمت على ذلك») الظهير: المعين، ومعناه: أنَّ الله تعالى يُؤيِّدك بالصبر على جفائهم، وحسن الخُلق معهم، ويُعليك عليهم في الدنيا والآخرة مدَّةَ دوامك على معاملتِك لهم بما ذكرتَ.

و (قوله: إن أعرابياً عرضَ لرسول الله ﷺ في سفر أخذَ بخطام ناقتِه، أو بزمامِها) هذا يدلُّ على تواضع النبيِّ ﷺ، وأنه كان لا يُصْرَف الناسُ بين يديْه، ولا يُمنَعُ أحدٌ منه، والخِطَام، والزِّمام، والمِقود كلُّها بمعنى واحدٍ ـ وإن كانت في أصول اشتقاقها مختلفةً ـ فسمِّيَ خِطاماً من حيث أنه يُجعل على الخَطْم، وهو الأنف، ويُسمَّى: زِماماً؛ لأنه يُزمُّ به، ومِقوداً؛ لأنه يُقاد به، وهذا شكٌّ من الراوي في أي اللفظين قال.

تواضعه ﷺ

يا محمد! ـ أَخْبِرْني بما يُقَرِّبُني من الجنَّة وما يباعدني من النارِ! قال: فكفَّ النبيّ ﷺ، ثم نظر في أصحابه، ثم قال: «لقد وفق ـ أو لقد هُدي ـ» قال: «كيف قلتَ؟» قال: فأعادَ. فقال النبيّ ﷺ: «تَعْبُدُ اللَّهَ لا تشركُ به شيئاً، وتُقيمُ الصَّلاةَ، وتُؤْتِي الزكاةَ، وتَصِلُ الرحمَ، دعِ الناقة!».

وفي روايةٍ: «وتَصِلُ ذا رحمك» فما أَدْبَرَ، قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنْ تَمَسَّكَ بما أُمِرَ به دَخَل الجنَّةَ».

رواه أحمد (٥/ ٤١٧)، والبخاريُّ (٥٩٨٣)، ومسلم (١٣) في الإيمان (١٢ و ١٤)، والنسائيُّ (١/ ٢٣٤).

* * *

و (قوله: فكفَّ ثم نظر في أصحابه ثم قال: لقد وُفِّقَ، أو لقد هُدِيَ») يعني: أنه كفَّ الناقة عن سيرها، ونظرَ إلى أصحابه مُستحسناً لهذا السؤال، ومُستحضراً لأفهام أصحابه، ومُنوِّهاً بالسائل، ثم شهدَ له بالتوفيق والهداية لما ينبغي أن يسألَ عنه؛ لأن مثل هذا السؤال لا يصدرُ إلا عن قلب منوَّر بالعلم بالله تعالى، وبما يقربُ إليه، عازمٌ على العمل بما يُفنى به، فأجابَه النبيُّ ﷺ بما يتعيَّن عليه في تلك الحال، فقال: تعبد الله لا تُشركُ به شيئاً، أي: تُوَحِّدُه في إلهيته، وتُخلصُ له في عبادته. وتقيمُ الصَّلاة، أي: تفعلُها على أوقاتها وبأحكامها. وتُؤتي الزكاة: أي تُعطيها من استحقَّها على شروطها. وتصل رَحِمَكَ، أي: تفعلُ في حقِّهم ما يكون صِلةً لهم، وتجتنبُ ما يكون قطعاً لهم على ما بيَّناه. ولم يذكرْ له النبيُّ ﷺ الصَّومَ ولا الحجَّ ولا الجهادَ؛ لأنه لم يكن تعيَّن عليه في تلك الحال شيءٌ سوى ما ذكرَ له، أو لأن بعضَ تلك العبادات لم تكن فُرضت بعد. والله تعالى أعلم.

دخول الجنة لا بُدَّ فيه من الأعمال

و (قوله: «إن تمسَّكَ بما أمرتُه دخلَ الجنة») يدلُّ على: أن دخولَ الجنَّة لا بُدَّ فيه من الأعمال، كما قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ

(٦) بـــاب
النهي عن التحاسد والتدابر
والتباغض وإلى كم تجوز الهجرة؟

[٢٤٦٧] عن أنسِ بن مالكٍ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تَباغَضُوا، ولا تحاسَدُوا، ولا تَدابَرُوا،........................

تَعۡمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢] ومع هذا فلولا فضلُ الله بالهداية للطرق الموصلة إليها والمعونة على الأخذ فيها، وبأن جعلَ أعمالَنا التي لا قيمةَ لها ولا خطرَ لها، ولا منفعةَ له فيها سبباً لنيل الجنَّة؛ لما كنَّا نصلُ إلى شيءٍ من ذلك، ولا نستحقُّ ذرَّةً مما هنالك.

(٦) ومن بـــاب: النهي عن التحاسد والتدابر

الحب والبغض لا يملك الإنسانُ التصرُّف فيهما

(قوله: لا تباغضوا، أي: لا تتعاطوا أسبابَ البغض؛ لأن الحبَّ والبغض معانٍ قلبية لا قدرةَ للإنسان على اكتسابها، ولا يملك التصرُّفَ فيها، كما قال ﷺ: «اللهم! هذا قَسْمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»[(١)] يعني: الحب والبغض.

و (قوله: «لا تدابروا») أي: لا تفعلوا فِعْل المتباغِضَيْن اللذين يُدْبِرُ كلُّ واحد منهما عن الآخر، أي: يولِّيه دبره فِعْل المعرض.

و (قوله: «ولا تقاطعوا») أي: لا تقاطِعْه فلا تكلِّمه، ولا تعامله، وهو معنى: لا تهاجَرُوا، وهي روايةُ ابن ماهان، وهي: من الهجران، وعن الجلودي: «ولا تهجروا». وعن أبي بحر: «تِهِجِروا» بكسر التاء والهاء والجيم. قال القاضي:

---

(١) رواه أحمد (٦/ ١٤٤)، وأبو داود (٢١٣٤)، والنسائي (٧/ ٦٤)، وابن ماجه (١٩٧١).

وكونوا عِبادَ اللَّهِ إخْواناً، ولا يحلُّ لمُسْلِم أنْ يَهْجُرَ أخاه فَوْقَ ثلاثٍ».

وفي روايةٍ: «ولا تَقاطَعُوا» بدل: «ولا تدابروا» وزاد: «كما أمركم الله».

معنى الكلمة: لا تهتجروا، وتكون: تفتعلون: يعني تهاجروا، أو من هُجْر الكلام: وهو الفحشُ فيه، أي: لا تتسابُّوا وتتفاحشوا.

قلــتُ: والرواية الأولى أوضحُ وأولى.

تعريف الحسد والغبطة

و (قوله: «ولا تحاسدوا») أي: لا يحسد بعضكم بعضاً، والحسد في اللغة: أن تتمنى زوالَ نعمة المحسود وعودها إليك. يقال: حسده يحسده حسوداً. قال الأخفش: وبعضهم يقول: يحسِد ـ بالكسر[1] ـ والمصدر حَسَداً بالتحريك، وحسادة، وحسدتك على الشيء، وحسدتك الشيء: بمعنى واحد. فأما الغِبطةُ فهي أن تتمنى مثل حال المغبوط من غير أن تريدَ زوالها عنه. تقول منه: غبطته بما نال غبطاً وغبطة. وقد يوضع الحسدُ موضعَ الغِبطة لتقاربهما، كما قال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين»[2] أي: لا غبطةَ أعظمُ ولا أحقُّ من الغِبطة بهاتين الخصلتين.

و (قوله: «وكونوا عبادَ الله إخواناً») أي: كونوا كإخوان النسب في الشفقة، والرحمة، والمودَّة، والمواساة، والمعاونة، والنصيحة.

و (قوله: «كما أمركم الله») يحتمل أن يريدَ به هذا الأمرَ الذي هو قوله: «كونوا إخواناً»؛ لأنَّ أمْرَهُ ﷺ هو أمرُ الله، وهو مبلِّغ له، ويحتمل: أن يريدَ بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] فإنه خبرٌ عن المشروعية التي ينبغي للمؤمنين أن يكونوا عليها، ففيها معنى الأمر.

لا يُغفَر للمتهاجرَيْـن حتى يصطلحا

و (قوله: «لا يحلُّ لمسلم أن يهجرَ أخاه فوق ثلاث») دليلُ خطابه: أنَّ الهجرةَ دون الثلاثِ معفوٌّ عنها، وسَبَبُهُ: أنَّ البشرَ لا بُدَّ له غالباً من سوء خُلُق

---

(١) في (ز): بالخفض.

(٢) رواه أحمد (٢/ ٣٦)، والبخاري (٧٥٢٩)، ومسلم (٨١٥).

رواه أحمد (٣/ ١١٠)، والبخاريُّ (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٩) (٢٣ و ٢٤)، وأبو داود (٤٩١٠)، والترمذيُّ (١٩٣٥).

[٢٤٦٨] وَعن أبي أيوبَ الأنصاريِّ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يحلُّ لمسلمٍ أنْ يهجرَ أخاه فوق ثلاثِ ليالٍ؛ يلتقيانِ؛ فيُعْرِضُ هذا، ويعرضُ هذا، وخيرهُما الذي يبدأ بالسَّلام».

رواه أحمد (٥/ ٤٢٢)، والبخاريُّ (٦٠٧٧)، ومسلم (٢٥٦٠)، والترمذيُّ (١٩٣٢).

[٢٤٦٩] وعن أبي هريرة، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا هِجْرَةَ بَعْدَ ثلاثٍ».

رواه مسلم (٢٥٦٢).

* * *

وغضب، فسامحه الشرعُ في هذه المدَّة؛ لأنَّ الغضبَ فيها لا يكاد الإنسان ينفك عنه؛ ولأنه لا يمكنه ردُّ الغضب في تلك الحالة غالباً، وبعد ذلك يضعفُ فيمكن ردُّه، بل: قد يُمحى أثره.

وظاهِرُ هذا الحديث تحريمُ الهجرة فوق ثلاث، وقد أكّد هذا المعنى قولُه: «لا هجرةَ بعد ثلاث»، وكون المتهاجرَيْن لا يُغفر لهما حتى يَصْطَلحا.

ما يقطع الهجران

و (قوله ﷺ: «خيرُهما الذي يبدأُ صاحِبَهُ بالسَّلام»)، يدلُّ على أنَّ مُجرَّدَ السلام يُخْرِجُ عن الهِجرة وإن لم يكلّمه، وهو قولُ مالك وغيره. وقال أحمد وابن القاسم: إن كان يؤذيه فلا يقطع السلامُ هجرتَه. وعندنا: أنه إن اعتزل كلامَه لم تُقبل شهادتُه عليه، ومعناه: أن الذي يبادرُ بقطع الهجرة فيسبق صاحبه بالسَّلام أحسنُ خلقاً وأعظمُ أجراً. وما ذكرناه من جواز الهجران في الثلاث هو مذهبُ

(٧) بـــاب
النَّهي عن التَّجسُّسِ والتَّنافس والظَّنِّ السَّـيِّـىء
وما يحرم على المسلم من المسلم

[٢٤٧٠] عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إيَّاكم والظنَّ؛ فإنَّ الظنَّ أكذَبُ الحديثِ، ....

الجمهور، والمعتبرُ ثلاث ليال، فإن بدأ بالهجرة في بعض يوم فله أن يلغي ذلك البعض، ويعتبر ليلة ذلك اليوم، فيكون أول الزمان الذي أبيحت فيه الهجرة، ثمَّ بانفصال الليلة الثالثة تحرم على ما قدَّمناه. وهذا الهجرانُ الذي ذكرناه هو الذي يكون عن غَضَب لأمرٍ جائزٍ لا تعلُّق له بالدِّين، فأمَّا الهجرانُ لأجل المعاصي والبِدْعة فواجبٌ استصحابُه إلىٰ أن يتوب من ذلك ولا يختلف في هذا.

حُكم الهجران لأجل المعاصي والبِدَع

(٧) ومـن بـــاب: النَّهي عن التجسُّس

النهي عن الظن السيىء

(قوله: «إيَّاكم والظنَّ؛ فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث») الظَّنُّ هنا هو التُّهمة، ومحلُّ التحذير والنَّهي إنَّما هو تهمةٌ لا سببَ لها يوجبها، كمن يتَّهم بالفاحشة، أو بشرب الخمر ولم يظهرْ عليه ما يقتضي ذلك. ودليلُ كون الظنّ هنا بمعنى التُّهمة قوله بعد هذا: «ولا تجسَّسُوا، ولا تحسَّسوا»؛ وذلك: أنَّه قد يقعُ له خاطرُ التُّهمة ابتداءً فيريدُ أن يتجسَّسَ خبرَ ذلك، ويبحثَ عنه، ويتبصَّر، ويستمعَ ليحقِّق ما وقعَ له من تلك التهمة، فنهى النبيُّ ﷺ عن ذلك. وقد جاء في بعض الحديث: «إذا ظننتَ فلا تحقِّق»[1]، وقال اللَّهُ تعالى: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢] وذلك: أنَّ المنافقين تطيَّروا برسول الله ﷺ وبأصحابه حين انصرفوا إلى الحُديبية فقالوا: إن محمَّداً وأصحابه أكلةُ رأسٍ، ولن يرجعوا إليكم أبداً.

---

(١) ذكره ابن عبد البر في التمهيد (٦/ ١٢٥)، والحافظ في فتح الباري (١٠/ ٢١٣).

ولا تَحَسَّسُوا، ولا تَجَسَّسُوا، ولا تنافَسُوا، ولا تحاسَدُوا، ولا تَباغَضُوا، ولا تدابروا، وكونوا عِبادَ اللَّهِ إخواناً».

رواه أحمد (٢/ ٢٤٥)، والبخاريُّ (٦٠٦٦)، ومسلم (٢٥٦٣) (٢٨)، وأبو داود (٤٩١٧).

[٢٤٧١] وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يَبِعْ بعضكم على بيع بعضٍ،

فذلك ظنُّهم السيِّئ الذي وبَّخهم اللَّهُ تعالى عليه، وهو من نوع ما نهى الشَّرعُ عنه، إلا أنَّه أقبحُ النَّوع.

الظن الشرعي

فأمَّا الظنُّ الشَّرعيُّ؛ الذي هو تغليبُ أحد المجوّزين، أو بمعنى اليقين فغيرُ مرادٍ من الحديث، ولا من الآية يقيناً، فلا يلتفتُ لمن استدلَّ بذلك على إنكار الظنِّ الشَّرعيِّ، كما قرَّرناه في الأصول.

الفرق بين التجسس والتحسس

وقد اختلف في التجسُّس والتحسُّس؛ هل هما بمعنىً واحدٍ، أو بمعنيين؟ والثاني أشهر. فقيل: هو بالجيم: البحث عن بواطن الأمور، وأكثرُ ما يكون في الشَّرِّ، ومنه: الجاسوس، وهو صاحبُ سرِّ الشَّرِّ. وبالحاء: البحث عمَّا يُدرك بالحسِّ؛ بالعين أو بالأذن. وقيل: بالجيم: طلبُ الشيء لغيرك، وبالحاء: طلبه لنفسك. قاله ثعلب. والأول أعرف.

التنافس في الخير مأمور به

و (قوله: «ولا تنافسوا») أي: لا تتباروا في الحرص على الدنيا وأسبابها. وأمَّا التنافس في الخير فمأمورٌ به، كما قال تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] أي: في الجنَّة وثوابها، وكأنَّ المنافسةَ هي الغِبطة. وقد أبعد مَن فسَّرها بالحسد، لا سيَّما في هذا الحديث، فإنَّه قد قَرَن بينها وبين الحسد في مَساقٍ واحدٍ، فدلَّ على أنَّهما أمران متغايران.

النهي عن التناجش

و (قوله: «ولا تناجشوا») قيل فيه: إنَّه من باب النَّجش في البيع الذي تقدَّم

وكونوا عباد الله إخواناً، المسلمُ أخو المسلمِ، لا يظلمُه، ولا يَخْذُله، ولا يحْقِره، التقوى ها هنا ـ ويشير إلى صدرِه ثلاث مرار ـ . . . .

ذِكْرُه في البيوع. وفيه بُعْدٌ؛ لأنَّ صيغة (تفاعل) أصلها لا تكون إلا من اثنين، فـ (تناجش) لا يكون من واحدٍ، و (النجش) يكون من واحدٍ، فافترقا وإن كان أصلُهما واحداً؛ لأنَّ أصل النَّجش: الاستخراجُ والإثارة. تقول: نجشت الصَّيد، أنجشه، نجْشاً: إذا استثرتُه من مكانه. وقيل: «لا تناجشوا»: لا ينافر بعضكم بعضاً. أي: لا يُعامله مِنَ القول بما يُنفِّره، كما يُنَفِّر الصَّيد، بل يُسَكِّنه ويُؤَنِّسه، كما قال: «سكِّنا، ولا تنفِّرا»[1] وهذا أحسنُ من الأوَّل، وأولى بمساق الحديث. والله تعالى أعلم.

من حقوق المسلم على المسلم

و (قوله: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره»). (يظلمه): ينقصه حقَّه، أو يمنعُه إيَّاه. و (يخذله): يتركه لمن يظلمه، ولا ينصره. وقد قال ﷺ: «انصرْ أخاك ظالماً أو مظلوماً» فقال: كيف أنصره ظالماً؟ قال: «تكفُّه عن الظلم؛ فذلك نَصْرُه»[2]. و (يحقره): ينظره بعين الاستصغار والقلَّة. وهذا إنَّما يصدرُ في الغالب عمَّن غلب عليه الكِبْرُ والجهل، وذلك: أنَّه لا يصحُّ له استصغارُ غيره حتَّى ينظرَ إلى نفسه بعين: أنَّه أكبرُ منه وأعظم، وذلك جَهْلٌ بنفسه، وبحال المحتقَر، فقد يكون فيه ما يقتضي عكسَ ما وقع للمتكبِّر.

معنى التقوى ومحلها

و (قوله: «التقوى ها هنا ـ ويشيرُ بيده إلى صدره ـ») وقد تقدَّم: أنَّ التَّقوى مصدر (اتقى): تقاةً، وتقوى. وأنَّ التَّاء فيه بدلٌ من الواو؛ لأنَّه من الوقاية. والمتَّقي: هو الذي يجعلُ بينه وبين ما يخافُه من المكروه وقايةً تَقِيه منه، ولذلك يقال: اتَّقى الطعنة بدَرَقته وبترسه. ومنه قوله ﷺ: «اتَّقوا النَّار ولو بشقِّ تمرةٍ، ولو

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٣١)، والبخاري (٦١٢٥) بلفظ: «سكِّنوا ولا تُنفِّروا».
(٢) رواه أحمد (٣/ ٢٠١)، والبخاري (٢٤٤٣ و ٢٤٤٤)، والترمذي (٢٢٥٥).

بِحَسْبِ امرئٍ من الشَّرِّ أن يَحْقِرَ أخاهُ المسلمَ، كُلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ، دمُهُ ومالُهُ وعِرْضُهُ».

رواه مسلم (٢٥٦٤) (٣٢).

[٢٤٧٢] عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الله لا ينظرُ إلى صُوَرِكم، وأمْوَالِكُم، ولكِنْ ينظرُ إلى قُلُوبِكُمْ وأعْمالِكُمْ».

بكلمةٍ طيبةٍ»[1] أي: اجعلوا هذه الأمورَ وقايةً بينكم وبين النَّار. وعلى هذا: فالمتَّقي شرعاً هو الذي يخافُ اللَّهَ تعالى، ويجعلُ بينه وبين عذابه وقايةً مِن طاعته، وحاجزاً عن مخالفته. فإذاً: أصلُ التقوى: الخوف، والخوف إنَّما ينشأ عن المعرفة بجلال الله، وعظمته، وعظيم سلطانه، وعقابه. والخوفُ والمعرفةُ محلُّهما القلب، والقلبُ محلُّه الصدر، فلذلك أشار ﷺ إلى صدره وقال: «التَّقوى ها هنا» والله تعالى أعلم.

والتقوى خصلةٌ عظيمةٌ، وحالةٌ شريفةٌ آخذةٌ بمجامع علوم الشَّريعة وأعمالها، موصلةٌ إلى خير الدُّنيا والآخرة. والكلامُ في التَّقوى وتفاصيلها، وأحكامها، وبيان ما يترتَّبُ عليها يستدعي تطويلاً، قد ذكره أربابُ القلوب في كتبهم المطوَّلة: كـ «الرعاية»، و «الإحياء»، و «سفينة النجاة»، وغيرها.

احتقار المسلم حرام

و (قوله: «بحسب امرئ من الشَّرِّ أن يَحْقِرَ أخاه المسلم») الباء في (بحسْب) زائدةٌ. وهو بإسكان السِّين، لا بفتحها، وهو خبر ابتداء مقدَّم، والمبتدأ: (أن يحقر) تقديره: حسْب امرئ من الشرِّ احتقارُه أخاه. أي: كافيه من الشرِّ ذلك؛ فإنَّه النَّصيبُ الأكبر، والحظُّ الأوفى. ويفيدُ: أنَّ احتقارَ المسلم حرامٌ.

التعريف بـ: نظر الله تعالى

و (قوله: «إنَّ اللَّهَ لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم») نظرُ الله تعالى الذي هو رؤيتُه للموجودات، واطِّلاعه عليها لا يخصُّ

---

(١) رواه أحمد (٤/٢٥٦)، والبخاري (١٤١٣)، ومسلم (١٠١٦).

رواه أحمد (٢/ ٥٣٩)، ومسلم (٢٥٦٤) (٣٤).

* * *

موجوداً دونَ موجودٍ، بل يعمُّ جميعَ الأشياء؛ إذ لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء. ثمَّ قد جاء في الشَّرع نظر الله تعالى بمعنى: رحمته للمنظور إليه، وبمعنى: قبول أعماله، ومجازاته عليها. وهذا هو النَّظرُ الذي يُخَصُّ به بعض الأشياء، ويُنفى عن بعضها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧] وقد تقدَّم ذلك في كتاب الإيمان. فقوله هنا: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم» أي: لا يُثيبكم عليها، ولا يُقرِّبكم منه، ذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧] ثم قال: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

ويُستفاد من هذا الحديث فوائد:

ضرورة الاعتناء بأحوال القلب وصفاته

إحداها: صَرْف الهمَّة إلى الاعتناء بأحوال القلب وصفاته؛ بتحقيق علومه، وتصحيح مقاصده وعزومه، وتطهيره عن مذموم الصِّفات، واتصافه بمحمودها؛ فإنَّه لما كان القلبُ هو محلُّ نظرِ الله تعالى فحقّ العالم بقدر اطِّلاع الله تعالى على قلبه أن يفتش عن صفات قلبه وأحوالها؛ لإمكان أن يكونَ في قلبه وصفٌ مذموم يمقته اللَّهُ بسببه.

إصلاح القلب مقدَّم على الأعمال بالجوارح

الثانية: أنَّ الاعتناءَ بإصلاح القلب وبصفاته مُقَدَّمٌ على الأعمال بالجوارح؛ لتخصيص القلب بالذكر مُقدَّماً على الأعمال، وإنما كان ذلك لأنَّ أعمالَ القلوب هي المصحِّحةُ للأعمال؛ إذ لا يصحُّ عملٌ شرعيٌّ إلا مِن مؤمنٍ عالمٍ بمن كلَّفه، مخلصٍ له فيما يعمله، ثمَّ لا يكمُلُ ذلك إلا بمراقبة الحقِّ فيه، وهو الذي عبَّر عنه بالإحسان، حيث قال: «أن تعبدَ الله كأنك تراه»[1]. وقد تقدَّم قوله ﷺ: «إنَّ في

---

(١) رواه مسلم (٨)، وأبو داود (٤٦٩٥)، والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي (٨/ ٩٧)، وابن ماجه (٦٣).

(٨) بـــاب
لا يُغْفَر للمتشاحنينِ حتى يَصْطلحا

[٢٤٧٣] عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «تُفْتَحُ أبوابُ الجنةِ يوم الإثنين ويوم الخميس، فيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبدٍ لا يُشْرِكُ بالله شيئاً؛ إلا رجلاً كانتْ بينَه وبين أخيه شحناءُ، فيقالُ: أَنْظِرُوا هذينِ حتى يَصْطَلِحا! أنظِرُوا هذينِ حتى يصطلحا! أنظِروا هذين حتى يصطلحا!».

الجسد مضغةً إذا صلحتْ صلح الجسدُ كلُّه، وإذا فسدتْ فسد الجسدُ كلُّه، ألَا وهي القلب»[١].

عدم القطع بمصير أحدٍ

الثالثة: أنَّه لمَّا كانت القلوبُ هي المصحِّحة للأعمال الظَّاهرة، وأعمال القلب غيبٌ عنَّا، فلا يقطعُ بمغيب أحدٍ؛ لما يرى عليه من صور أعمال الطَّاعة أو المخالفة، فلعلَّ مَن يحافظُ على الأعمال الظَّاهرة يعلمُ الله تعالى من قلبه وَصْفاً مذموماً لا تصحُّ معه تلك الأعمال، ولعلَّ مَن رأينا عليه تفريطاً أو معصيةً يعلمُ اللَّهُ من قلبه وَصْفاً محموداً يغفرُ له بسببه، فالأعمالُ أماراتٌ ظنيَّة لا أدلَّةٌ قطعية، ويترتب عليها عدم الغلوِّ في تعظيم مَنْ رأينا عليه أفعالاً صالحة، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالاً سيِّئةً، بل تحتقرُ وتذمُّ تلك الحالة السَّيِّئة، لا تلك الذات المسيئة. فتدبَّر هذا؛ فإنَّه نظرٌ دقيق.

(٨) ومن بـــاب: لا يغفر للمتشاحنين حتَّى يَصْطَلحا

المتشاحنان: المتباغضان، من الشَّحناء، وهي: البغضاء. وقد خصَّ اللَّهُ تعالى هذين اليومين بفتح أبواب الجنَّة فيهما، وبمغفرة الله تعالى لعباده،

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٧٤)، والبخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، وابن ماجه (٣٩٨٤).

وفي روايةٍ: «فَيغفرُ لكلِّ عَبدٍ مُؤْمِنٍ إلّا عَبْداً بينه وبين أخيه شحناءُ، فيقالُ: اترُكُوا، أوِ ارْكُوا، هذين حتى يَفيئا».

رواه مسلم (٢٥٦٥) (٣٥ و ٣٦)، وأبو داود (٤٩١٦)، والترمذيُّ (٢٠٢٤).

* * *

وبأنهما تُعرض فيهما الأعمالُ على الله تعالى، كما جاء في الحديث الآخر[١]. وهذه الذُّنوبُ التي تُغفر في هذين اليومين هي الصَّغائر. والله تعالى أعلم. كما تقدم ذلك في قوله ﷺ: «الصَّلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مُكفِّراتٌ ما بينهنَّ إذا اجتنبتِ الكبائر»[٢]، ومع ذلك فرحمةُ الله وسعتْ كلَّ شيءٍ، وفضلُه يعمُّ كلَّ ميِّتٍ وحيٍّ. ومقصودُ هذا الحديث التحذيرُ من الإصرار على بُغْض المسلم ومقاطعته، وتحريم استدامة هجرته ومُشاحنته، والأمر بمواصلته، ومكارمته.

التحذير من الإصرار على بُغْض المسلم

و (أنظروا) معناه: أخِّروا، وكذلك: (اركوا)، قال ابنُ الأعرابي: يقال: ركاه، يركوه: إذا أخَّره.

وفَتْحُ أبواب الجنَّةِ في هذين اليومَيْن محمولٌ على ظاهره، ولا ضرورة تحوجُ إلى تأويله، ويكونُ فَتْحها تأهُّلاً، وانتظاراً من الخزنة لروح من يموتُ في ذينك اليومين ممَّن غُفِرَتْ ذنوبُه، أو يكون فَتْحُها علامةً للملائكة على أنَّ الله تعالى غَفَرَ في ذينك اليومين للموحِّدين، واللَّهُ تعالى أعلم. وهو حُجَّةٌ لأهل السُّنَّة على قولهم: إنَّ الجنَّةَ والنَّارَ قد خُلِقَتا ووُجِدتا، خلافاً للمبتدعة؛ الذين قالوا: إنَّهما لم تُخْلَقا بَعْدُ، وسَتُخْلَقان. وعَرْضُ الأعمال المذكورة إنَّما هو ـ والله تعالى أعلم ـ

الجنة والنار مخلوقتان موجودتان

(١) الحديث في صحيح مسلم برقم (٢٥٦٥) (٣٦).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٤٨٤)(، ومسلم (٢٣٣)، والترمذي (٢١٤).

(٩) بـــاب

التحابّ والتّزاور في الله عزَّ وجلَّ

[٢٤٧٤] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى يقولُ يوم القيامة: أين المتحابُّونَ بجلالي؟...............................

لتنقلَ من صُحُف الكرام الكاتبين إلى محلٍّ آخر، ولعلَّه اللوحُ المحفوظ. كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] قال الحسن: إنَّ الخزنةَ تستنسخُ الحفظة من صحائف الأعمال. وقد يكون هذا العرضُ [في هذين اليومَيْن للأعمال الصَّالحة مُباهاةً بصالح أعمال بني آدم على الملائكة، كما يُباهي اللَّهُ الملائكةَ بأهل عَرَفة، وقد يكون هذا العرضُ][١] لتعلمَ الملائكةُ المقبولَ من الأعمال من المردود، كما جاء الحديثُ الآخر: «إنَّ الملائكةَ تصعدَ بصحائف الأعمال، فتعرضها على الله، فيقولُ اللَّهُ تعالى: ضَعُوا هذا واقْبَلُوا هذا، فتقولُ الملائكةُ: وعزَّتك يا ربَّنا ما رأينا إلا خيراً! فيقول اللَّهُ تعالى: إنَّ هذا كان لغيري، ولا أقبلُ مِنَ العمل إلا ما ابْتُغي به وجهي»[٢] والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك.

(٩) ومن بـــاب: ثواب التَّحابب والتزاور في الله تعالى

(قوله: «أين المتحابُّون بجلالي») هذا نداءُ تنويهٍ وإكرامٍ، ويجوزُ أن يَخْرجَ هذا الكلامُ مخرجَ الأمر لمن يحضرهم مكرمين منوهاً بهم. و (لجلالي) روي باللام وبالباء، ومعناهما مُتقاربٌ، لأنَّ المقصودَ بهما هنا: السَّببيَّة؛ أي: لعظيم حقِّي وحرمة طاعتي، لا لغـرض من أغراض الدنيا.

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ع).

(٢) رواه ابن المبارك في كتاب الزهد والرقائق بنحوه (٤٥٢).

اليومَ أظِلُّهم في ظلِّي، يوم لا ظِلَّ إلا ظِلِّي».

رواه أحمد (٢/ ٢٣٧)، ومسلم (٢٥٦٦) (٣٧).

و (قوله: «اليوم أظلُّهم في ظلِّي يوم لا ظلَّ إلا ظلِّي») قيل: هذه الإضافةُ إضافةُ تشريفٍ وإكرامٍ؛ إذ الظلالُ كلُّها ملكه وخَلْقُه.

في القيامة ظلال بحسب الأعمال

قلـتُ: وأولى مِن هذا التأويل: أنَّه يعني به: ظلَّ العرش؛ كما قد جاء في روايةٍ أخرى. فيعني ـ والله تعالى أعلم ـ: أنَّ في القيامة ظِلالاً بحسب الأعمال الصَّالحة تقي صاحبَها من وهج الشمس[1] ولفح النَّار، وأنفاس الخَلْق، كما قال ﷺ: «الرَّجلُ في ظلِّ صدقته حتى يُقْضى بين الناس»[2]، ولكنَّ ظلَّ العرش أعظمُ الظلال وأشرفها، فيخص اللَّهُ به مَن يشاءُ من صالح عباده، ومِن جملتهم المتحابُّون لجلال الله. فإن قيل: كيف يقال: في القيامة ظلالٌ بحسب الأعمال؛ وقد قال ﷺ: «سبعةٌ يظلُّهم اللَّهُ في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه»[3]، وهو ظلُّ العرش المذكور في الحديث؟ قلنا: يمكنُ أن يقال: كلُّ ظلٍّ في القيامة إنَّما هو له؛ لأنَّه بخَلْقه واختراعه بحسب ما يريده تعالى من إكرام من يخصُّه به؛ فعلى هذا يكونُ كلُّ واحدٍ مِن هؤلاء السَّبعة في ظلٍّ يخصُّه، وكلُّها ظلُّ الله، لا ظلَّ غيره؛ إذ ليس لغيره هنالك ظلٌّ، ولا يقدر له على سَبَب. ويحتملُ أن يُقال: إنَّه ليس هنالك إلَّا ظلٌّ واحدٌ، وبه يَسْتَظِلُّ المؤمنون، لكن لمَّا كان الاستظلالُ بذلك الظلِّ لا يُنالُ إلا بالأعمال الصَّالحات نُسِبَ لكلِّ عملٍ ظلٌّ؛ لأنَّه به وَصَل إليه. والله تعالى أعلم. وهذا كلُّه بناءٌ على أنَّ الظِّلالَ حقيقةٌ لا مَجاز، وهو قولُ جمهور العلماء. وقال

---

(١) في (ع) و (م ٤): الشهيق.

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٤٧ ـ ١٤٨)، وأبو يعلى (١٧٦٦)، وابن خزيمة (٢٤٣١)، وابن حبان (٣٣١٠)، والحاكم (١/ ٤١٦).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٤٣٩)، والبخاري (٦٦٠)، والترمذي بعد حديث (٢٣٩١)، والنسائي (٨/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣).

[٢٤٧٥] وعنه؛ عن النَّبيِّ ﷺ: «أنَّ رجُلاً زَار أخاً له في قريةٍ أخرى، فأرصد اللَّهُ على مَدْرَجَتِهِ مَلَكاً، فلمّا أتى عليه قال: أينَ تريدُ؟ قال: أريدُ أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نِعْمة تَرُبُّها؟ قال: لا، غير أني أحْبَبْتُه في الله! قال: فإنِّي رسُول اللَّهِ إليكَ، بأنَّ الله قد أحبّكَ كما أحببتَه فيه».

رواه أحمد (٢/ ٢٩٢)، ومسلم (٢٥٦٧) (٣٨).

* * *

عيسى بن دينار: إنَّ معناه: يكنّهم من المكاره، ويجعلهم في كنفه وستره، كما يقول: أنا في ظلّك. أي: في ذراك وسترك.

و (قوله: «فأرصدَ اللَّهُ على مَدْرَجته») أي: جعل اللَّهُ مَلَكاً على طريقه يَرْصُده، أي: يرتقبه، وينتظره ليبشِّره. والمرصد: مَوْضِعُ الرَّصد. و (المَدْرَجة) بفتح الميم: موضعُ الدَّرج، وهو المشي.

محبة الآخرين في الله مدعاة لمحبة الله

و (قوله: «هل لكَ عليه من نعمةٍ تربُّها؟») أي: تقومُ بها وتصلحُها، فتتعاهده بسببها؟ (فقال: لا، غير أنِّي أحببتُه في الله) [أي: لم أزُرْهُ لغرضٍ من أغراض الدُّنيا، ثمَّ أخبر بأنَّه إنَّما زاره من أجل أنَّه أحبَّه في الله تعالى][١]. فبشَّره الملكُ بأنَّ اللَّهَ تعالى قد أحبَّه بسبب ذلك. وقد تقدَّم القولُ في محبة اللَّهِ تعالى للعبد، وأنَّ ذلك راجعٌ إلى إكرامه إيّاه، وبِرِّه به. ومحبة الله للطاعة: قبولُها، وثوابُه عليها.

فَضْل الحب في الله

وفي هذه الأحاديث ما يدلُّ: على أنَّ الحبَّ في الله والتَّزاورَ فيه مِن أفضل الأعمال، وأعظم القُرَب إذا تجرَّد ذلك عن أغراض الدُّنيا وأهواء النُّفوس، وقد قال ﷺ: «مَن أحبَّ لله، وأبغضَ لله، وأعطى لله، ومنع لله فقدْ استكمل الإيمانَ»[٢].

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (م ٤).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٣٨ و ٤٤٠)، وأبو داود (٤٦٨١).

(١٠) بــاب
في ثواب المرضى وذوي الآفات إذا صبروا

[٢٤٧٦] عن عبد الله، قال: دخلتُ على رسولِ الله ﷺ وهو يُوعَكُ، فَمسستُهُ بيَدِي، فقلتُ: يا رسول الله! إنَّك لتُوعَكُ وَعْكاً شديداً! فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «أَجَلْ، إنِّي أُوعَكُ كما يوعَكُ رجلانِ منكم!»، قال: فقلتُ: ذلك أنّ لك أجرين؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «أَجَلْ»، ثم قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِن مسلمٍ يُصِيبُه أذىً من مَرَضٍ فما سواه إلّا حَطَّ الله به سيئاتِهِ؛ كما تَحُطُّ الشجرةُ ورقَها».

---

(١٠) ومن بــاب: ثواب المَرْضى وذوي الآفات إذا صبروا

الوَعْكُ: تمريغ الحمَّى، وهو ساكن العين. يُقال: وَعَكَتْهُ الحمَّى، تعِكُه، وَعْكاً، فهو موعوكٌ، وأوعكتِ الكلابُ الصيدَ، فهو مُوعَك: إذا مرَّغَتْه في التراب. والوعكة: السقطة الشديدة في الجري. والوعكة أيضاً: معركة الأبطال في الحروب. و (أجل) بمعنى: نعم.

ومضاعفة المرض على النَّبيِّ ﷺ لِيُضاعفَ له الأجرُ (في الآخرة)[١] وهو كما قال ﷺ في الحديث الآخر: «أشدُّ النَّاسِ بلاءً الأنبياءُ، ثم الأولياءُ، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرَّجل على حَسَبِ دينه»[٢]. وفي الحديث الآخر: [«نحن معاشر الأنبياء يشتدُّ علينا البلاء، ويعظم لنا الأجر»[٣]][٤]. و (الوصب): المرض. يقال

أشدّ الناس بلاءً

---

(١) زيادة من (ع).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣) عن سعد بن أبي وقَّاص ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) رواه أحمد (٣/ ٩٤)، وابن ماجه (٤٠٢٤) بنحوه.

(٤) ما بين حاصرتين ساقط من (ع).

وفي روايةٍ: قال: «نعم، والذِي نفسي بيدِهِ! ما على الأرضِ مُسْلِمٌ يصيبه. . .» وذكره.

رواه أحمد (١/ ٣٨١)، والبخاريُّ (٥٦٤٧)، ومسلم (٢٥٧١).

[٢٤٧٧] وعَن عائشة، قالت: ما رأيت رجلاً أشَدَّ عليه الوجَعُ من رسولِ الله ﷺ.

رواه أحمد (٦/ ١٧٢)، والبخاريُّ (٥٦٤٦)، ومسلم (٢٥٧٠) (٤٤)، والترمذيُّ (٢٣٩٧)، وابن ماجه (١٦٢٢).

[٢٤٧٨] وعَن الأسود، قال: دخل شابٌّ من قريشٍ على عائشةَ وهي بِمِنًى؛ وَهُمْ يَضْحَكُونَ، فقالتْ: ما يُضْحِكُكُمْ؟! قالوا: فلانٌ خرَّ على طُنُبِ فُسْطاطٍ فكادتْ عُنُقُه ـ أو عَيْنُهُ ـ أنْ تَذْهَبَ! فقالت: لا تضحكُوا! فإنّي سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «ما من مسلمٍ يشاكُ شوكةً فما فوقَها، إلا كُتِبَتْ له بها درجة، ومُحِيَتْ بها عنه خطيئةٌ».

رواه أحمد (٦/ ٢٧٩)، والبخاريُّ (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢) (٤٦)، والترمذيُّ (٩٦٥).

منه: وصب الرجل، يوصب، فهو وصيب، وأوصبَه الله، فهو موصبٌ. و (النَّصب): التَّعب والمشقَّة. يقال منه: نَصِبَ الرجل ـ بالكسر ـ ينصَب ـ بالفتح ـ وأنصبَه غيرُه: إذا أتعبَه، فهو منصبٌ، وهمٌّ ناصبٌ) أي: ذو نصبٍ. و (السَّقَم): المرض الشديد. يقال منه: سَقِم، يَسْقَم، فهو سقيم. و (الهَمّ): الحزن، والجميع: الهموم، وأهمَّني الأمر: إذا أقلقني وحزنني، والمهمُّ: الأمر الشديد وهمَّني المرض: أذابني.

قلتُ: هذا نقل أهل اللغة، وقد سوَّوا فيه بين الحزن والهمِّ، وعلى هذا

[٢٤٧٩] وعن أبي سعيدٍ وأبي هريرةَ، أنَّهما سمعا رسولَ الله ﷺ يقول: «ما يصيبُ المؤمنَ من وَصَبٍ، ولا نَصَبٍ، ولا سَقَمٍ، ولا حَزَنٍ، حتى الهمِّ يُهَمُّه إلا كَفَّر الله به من سيئاته».

رواه أحمد (٢/ ٣٣٥)، والبخاريُّ (٥٦٤١ ـ ٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣)، والترمذيُّ (٩٦٦).

[٢٤٨٠] وعن أبي هريرة، قال: لمّا نزلَتْ: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] بلغت مِنَ المسلمين مَبْلَغاً شديداً. فقال

فيكون الحزن والهمُّ المذكوران في الحديث مترادفين، ومقصود الحديث ليس كذلك، بل مقصودُه: التسوية بين الحزن الشديد، الذي يكونُ عن فقد محبوب، والهمّ الذي يُقلق الإنسانَ ويشتغل به فكره من شيءٍ يخافُه أو يكرهُه في أنَّ كلَّ واحدٍ منهما يُكفَّر به. كما قد جمع في هذا الحديث نفسِه بين الوَصَب، وهو المرض، وبين السَّقم، لكن أطلق الوَصَبَ على الخفيف منه، والسَّقم على الشديد، ويرتفع الترادف بهذا القدر. ومقصودُ هذه الأحاديث: أن الأمراضَ والأحزان ـ وإن دقَّت ـ والمصائب ـ وإن قلَّت ـ أُجر المؤمنُ على جميعها، وكفَّرت عنه بذلك خطاياه حتى يمشيَ على الأرض وليست له خطيئة، كما جاء في الحديث الآخر، لكن هذا كلُّه إذا صبرَ المُصابُ واحتسبَ، وقال ما أمرَ الله تعالى به في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] فمن كان كذلك وصلَ إلى ما وعدَ الله به ورسولُه من ذلك.

الأمراض والمصائب مكفِّرات للذنوب

و (قوله: لما نزلت: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً) هذا يدلّ على: أنهم كانوا يتمسكون بالعمومات في العلميات، كما كانوا يتمسَّكون بها في العمليات. وفيه ردٌّ على من توقف في ألفاظ العموم، وأن «مَنْ» مِنْ ألفاظه، وكذلك النكرة في سياق الشرط، فإنهم فهموا

رسولُ الله ﷺ: «قاربوا، وسدِّدُوا، ففي كلِّ ما يصابُ به المسلم كفارةٌ؛ حتى النَّكْبَةِ يُنكبُها، أو الشوكةِ يُشاكُها».

رواه أحمد (٢/ ٢٤٨)، ومسلم (٢٥٧٤)، والترمذيُّ (٣٠٤١).

[٢٤٨١] وعن جابرِ بن عبد الله: أنَّ رسولَ الله ﷺ دخل على أمِّ

عمومَ الأشخاص مِنْ «مَنْ» وعموم الأفعال السَّيِّئة من «سوء» المذكور في سياق الشرط، وقد أوضحنا ذلك في الأصول، وإنما عظم موقع هذه الآية عليهم؛ لأن ظاهرها: أن ما مِنْ مكلَّف يصدرُ عنه شرٌّ كائناً ما كان إلا جُوزي عليه، يومَ الجزاء، وأن ذلك لا يُغفر، وهذا أمر عظيم، فلما رأى النبيُّ ﷺ شِدَّةَ ذلك عليهم سكَّنهم وأرشدَهم وبشَّرهم، فقال: «قاربوا وسَدِّدوا» أي: قاربوا في أفهامكم وسدِّدوا في أعمالكم، ولا تُقلُّوا، ولا تُشدِّدوا على أنفسكم، بل بشروا واستبشروا بأن الله تعالى بلطفه قد جعلَ المصائب التي لا يَنفكُّ عنها أحدٌ في هذه الدار سبباً لكفَّارة الخطايا والأوزار، حتى يرد عليه المؤمنُ يومَ القيامة وقد خلَّصه من تلك الأكدار، وطهَّره من أذى تلك الأقذار، فضلاً من الله ونعمة، ولطفاً ورحمةً.

و (قوله: «حتى الهمِّ يُهَمُّه») يجوز في الهمِّ الخفض على العطف على لفظ ما قبله، والرفع على موضعه؛ فإن «من» زائدة، ويجوز رفعه على الابتداء وما بعدَه خبره.

فأما (قوله: «حتى النكبةِ يُنكَبُها، والشَّوكةِ يُشاكها») فيجوز فيه الوجهان، كذلك قيَّدهما المحققون، غير أن رفع الشوكة لا يجوز إلا على الابتداء خاصة؛ لأن ما قبلها لا موضعَ رفع له فتأمَّله، وقيَّده القاضي: يُهَمُّه بضم الياء وفتح الهاء على ما لم يُسمَّ فاعله، وكذا وجدته مُقيَّداً بخط شيخي أبي الصبر أيوب، والذي أذكرُ أني قرأتُ به على من أثقُ به؛ بفتح يَهمُّه ـ بفتح الياء وضم الهاء مبنياً للفاعل ـ، ووجهه واضحٌ إذ معناه: حتى الهم يُصيبه، أو يطرأ عليه. والنَّكبَة بالباء: العثرة والسَّقطة، ويُنكَبُها ـ بضم الياء وفتح الكاف ـ: مبنياً للمفعول.

السائبِ ـ أو أُمِّ المُسَيِّب ـ فقال: «مَا لَكِ يا أُمَّ السائِبِ! ـ أو يا أم المسيَّب ـ تُزَفْزِفِينَ؟» قالتْ: الحمَّى! لا بارك اللَّهُ فيها! فقال: «لا تَسُبِّي الحُمَّى؛ فإنَّها تُذْهِبُ خطايا بني آدَمَ؛ كما يُذْهِبُ الكيرُ خَبَثَ الحديدِ».

رواه مسلم (٢٥٧٥).

و (قوله: «مالكِ يا أُمَّ السائب! تُزَفْزِفِيْنَ») جميع رواة مسلم روى هذه الكلمة بالزاي والفاء فيهما، ويُقال بضم التاء وفتحها من الزَّفزفة، وهي صوتُ حفيفِ الريح. يُقال: زفزفتِ الريحُ الحشيشَ: أي حَرَّكته، وزفزفَ النَّعام في طيرانه: أي: حرَّك جناحيْه، وقد رواه بعض الرواة بالقاف والراء، قال أبو مروان بن سرَّاج: يقال: بالقاف وبالفاء بمعنى واحدٍ، بمعنى تَرْعُدِيْنَ[1].

قلـتُ: ورواية الفاء أعرفُ رواية، وأصحُّ معنىً، وذلك أنَّ الحمَّى تكون معها حركة ضعيفة، وحسٌّ صوت يُشبه الزَّفْزَفة التي هي حركة الريح وصوتها في الشجر. وقالوا: ريحٌ زَفْزافة وزَفْزَفٌ. وأما الرقرقة بالراء والقاف: فهي التلألؤ واللَّمَعان. ومنه: رَقْراق السَّراب، ورقراق الماء: ما ظهر من لمعانه، غير أنه لا يظهر لمعانه إلا إذا تحرَّكَ وجاء وذهب، فلهذا حَسُن أن يُقال: مكان الرقراقة، لكن تُفارق الزفزفة الرقرقة بأن الزفزفة معها صوت، وليس ذلك مع الرقرقة، فانفصلا.

النهي عن سبِّ الحمى

و (قوله: «لا تَسُبِّي الحمَّى») مع أنها لم تُصرِّح بسبِّ الحمَّى، وإنما دعت عليها بألا يُبارَك فيها، غير أن مثل هذا الدُّعاء تضمَّن تنقيصَ المدعو عليه وذمَّه، فصارَ ذلك كالتصريح بالذمِّ والسَّب، ففيه ما يدلُّ على أن التعريضَ والتضمينَ كالتصريح في الدلالة، فيُحدُّ كلُّ من يُفهم عنه القذفُ من لفظه؛ وإن لم يُصرِّح به، وهو مذهبُ مالك كما تقدَّم.

تعليل عدم سبِّ الحمى

و (قوله: «فإنها تُذهبُ خطايا بني آدم») هذا تعليل لمنع سبِّ الحُمَّى لما

---

(١) من الرِّعدة، وهي: رِعْشة في الجسم تكون من فزع أو مرض.

[٢٤٨٢] وعن عطاءِ بن أبي رباح، قال: قال لي ابنُ عباسٍ: ألا أُرِيكَ امرأةً من أهلِ الجنَّة؟ قلتُ: بلى! قال: هذه المرأةُ السَّوداءُ؛ أتتِ النبيَّ ﷺ فقالت: إنِّي أُصْرَعُ، وإنّي أتكشَّفُ، فادعُ اللَّهَ لي. قال: «إنْ شئتِ صبرتِ ولك الجنَّةُ، وإن شئتِ دعوتُ الله أن يُعافِيَكِ». قالتْ: أَصْبِرُ! قالتْ: فإنِّي أتكشَّفُ، فادعُ اللَّهَ أن لا أتكشفَ فدعَا لها.

رواه أحمد (١/ ٣٤٧)، والبخاريُّ (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).

* * *

(١١) بـــاب
الترغيب في عيادة المرضىٰ وفعل الخير

[٢٤٨٣] عن ثوبان ـ مولى رسول الله ﷺ ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «من عادَ مريضاً لم يزل في خُرْفَةِ الجنَّة»، قيل: يا رسول الله! وما خُرْفَةُ الجنَّةِ؟ قال: «جَناها».

يكون عنها من الثواب، فيتعدَّى ذلك لكلِّ مشقَّةٍ، أو شدَّةٍ يُرتجى عليها ثواب، فلا ينبغي أن يُذمَّ شيءٌ من ذلك، ولا يُسبَّ. وحكمة ذلك: أن سبَّ ذلك إنما يصدرُ في الغالب عن الضجر، وضعف الصبر، أو عدمه، وربما يُفضي بصاحبِهِ إلى السخط المحرَّم، مع أنه لا يُفيد ذلك فائدةً، ولا يُخفِّف ألماً.

الأجر للأمراض للصابرين عليها

و (قوله للمرأة التي كانت تُصْرَعُ: «إنْ شئتِ صبرتِ ولك الجنَّة») يشهدُ لما قلناه من أن الأجورَ على الأمراض، والمصائبِ لا تحصلُ إلا لمن صبرَ واحتسبَ.

(١١) ومن بـــاب: الترغيب في عيادة المرضى

أجر عيادة المريض

(قوله: «لم يزلْ في خُرْفة الجنَّة»[1]) هو بضم الخاء المعجمة وسكون الراء،

---

(١) ما ورد في هذه الفقرة من حديث لم يردْ في نسختي التلخيص المخطوطتين، ولما كان =

وفي روايةٍ: «مَخْرَفَةِ» بدل: «خُرْفَةِ».

رواه أحمد (٥/ ٢٨٣)، ومسلم (٢٥٦٨) (٣٩ ـ ٤٢)، والترمذيُّ (٩٦٧).

[٢٤٨٤] عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللّهَ يقول

وقد فسَّرها النَّبيُّ ﷺ بما هو المعروفُ في اللغة فقال: هو جَناها، أي: ما يُجتنى منها. وفي الصحاح: الخُرْفة ـ بالضم ـ: ما يُجتنى من الفواكه، ويقال: التمر خرفةُ الصائم. وأما روْية مَن رواها مَخْرَفة بفتح الميم وسكون الخاء، وفتح الراء: فهو البستان. والمخرفة والمخرف: الطريق، ومنه قول عمر ـ رضي الله عنه ـ: تركتم[1] على مخرفة النعم. أما المِخرف والمِخرفة ـ بكسر الميم ـ: فهو الوعاءُ الذي يُجتنى فيه التمر. ومعنى هذا الحديث، أنَّ عائدَ المريض بما ينالُه من أجر العيادة وثوابها الموصل إلى الجنة كأنه يجتني ثمرات الجنة، أو كأنه في محرف الجنة، أي: في طريقها الموصل إلى الاحتراف. وسُمي الخريفُ بذلك؛ لأنه فَصْلٌ تُخترف فيه الثمار. وعيادةُ المريض من أعمال الطَّاعات الكثيرة الثواب، العظيمة الأجر، كما دلت عليه هذه الأحاديث وغيرها. وهي من فروض الكفايات، إذا منع المرض من التصرُّف؛ لأن المريضَ لو لم يُعَدْ جملةً لضاع وهلك، ولا سيما إن كان غريباً أو ضعيفاً. وأما مَن كان له أهلٌ فيجب تمريضه على من تجب عليه نفقتُه، فأما مَن لا يجبُ ذلك عليه؛ فمن قام به منهم سقط عن الباقين. والعيادةُ: مصدرُ عاد يعود عَوْداً، وعِيادةً، وعياداً، غير أنه قد خُصَّتِ العيادةُ بالرجوع إلى المرضى والتكرار إليهم.

= المؤلف ـ رحمه الله ـ قد شرح ما أشكل منه، أثبتنا الحديث المتعلّق بهذا الباب من صحيح مسلم.

(١) كذا في الأصول، وفي الفائق (١/ ٣٦٠) والنهاية (٢/ ٢٤): تركتكم.

يوم القيامة: يا بنَ آدمَ! مرضتُ فلم تَعُدْنِي! قال: يا ربِّ! كيف أعودُك وأنت ربُّ العالمين؟! قال: أَمَا علمتَ أنَّ عبدي فلاناً مَرِضَ فلم تَعُدْه؟! أمَا علمتَ أنَّك لو عُدْتَه لوجدْتَنِي عنده؟ يا بنَ آدم! استطعمتُك فلم تُطْعِمنِي! قال: يا ربِّ! وكيف أطعمكَ وأنتَ ربُّ العالمين؟! قال: أما علمتَ أنَّه استطعَمكَ عبدِي فلانٌ فلَم تُطْعِمْه؟ أما علمتَ أنك لو أطعمتَهُ لوجدتَ ذلك عندي؟ يا بن آدمَ! استقيتُك فلم تَسْقِنِي! قال: يا ربِّ! كيف أَسْقيك وأنتَ ربُّ العالمينَ؟! قال: استسقاك عبدي فلانٌ فلم تَسْقِهِ، أمَا إنَّكَ لو سقيتَه وجدتَ ذلك عندي».

رواه مسلم (٢٥٦٩).

* * *

الإحسان إلى الخَلْق إحسان إلى الخالق

و (قوله تعالى: «يا بن آدم مرضت فلم تعدني، واستطعمتك فلم تطعمني، واستسقيتك فلم تسقني»): تنزُّلٌ في الخطاب، ولطفٌ في العتاب، ومقتضاه التعريفُ بعظيم فَضْل ذي الجلال، وبمقادير ثواب هذه الأعمال. ويُستفادُ منه أنَّ الإحسانَ للعبيد إحسانٌ للسادة، فينبغي لهم أن يعرفوا ذلك، وأن يقوموا بحقِّه.

* * *

(١٢) بـــاب
تحريم الظلم والتحذير منه وأخذ الظالم

[٢٤٨٥] عن أبي ذرٍّ، عن النَّبيِّ ﷺ فيما رَوَى عن الله تبارك وتعالى: أنَّه قال: «يا عبادي! إنِّي حرمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم مُحَرَّماً، فلا تظالَمُوا! يا عبادي! كُلكُم ضَالٌّ إلا من هديتُه، فَاسْتَهْدُوني

---

(١٢) ومن بـــاب: تحريـم الظلـم

الظلم على الله تعالى مُحال

(قوله تعالى: «إنِّي حرمتُ الظلمَ على نفسي») أي: لا ينبغي لي، ولا يجوز عليَّ، كما قال سُبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢]. وقد اتفق العقلاءُ على أنَّ الظلمَ على الله تعالى مُحال، وإنما اختلفوا في الطريق، فالقائلون بالتَّقبيح والتَّحسين عقلاً يقولون: يستحيلُ عليه لقبحه، ومن لا يقول بذلك يقولون: يستحيلُ عليه لاستحالة شرطه في حقه تعالى، وذلك: أن الظلم إنما يُتصوَّر في حقٍّ من حُدَّتْ له حدود، ورسِمَتْ له مراسم، فمن تعداها كان ظالماً، واللَّهُ تَعالى هو الذي حدَّ الحدودَ ورسمَ الرُّسوم؛ إذ لا حاكمَ فوقه، ولا حاجرَ عليه، فلا يجبُ عليه حُكْم، ولا يترتَّب عليه حقٌّ، فلا يُتصوَّر الظلمُ في حقِّه. واستيفاءُ المباحث في علم الكلام.

و (قوله: «وجعلتُه بينكم محرماً») أي: حكمتُ بتحريمه عليكم، وألزمته إياكم.

و (قوله: «فلا تظالموا») أي: لا يظلم بعضكُم بعضاً، وأصلُه: تتظالموا، فحذفتْ إحدى التاءين تخفيفاً.

و (قوله: «يا عبادي كلُّكم ضالّ إلا من هديتُه») قيل في معناه قولان:

أحدهما: أنهم لو تُركوا مع العادات، وما تقتضيه الطباعُ من الميل إلى الرَّاحات، وإهمال النَّظر المؤدي إلى المعرفة لغلبتْ عليهم العادات والطباعُ فضلُّوا

. . . .

عن الحق، فهذا هو الضلالُ المعنيُّ، لكن من أراد اللَّهُ تعالى توفيقَه ألهمه إلى إعمال الفِكْر المؤدي إلى معرفة الله تعالى، [ومعرفة الرسول ﷺ وأعانَهُ على الوصول إلى ذلك، وعلى العمل بمقتضاه، وهذا هو الهُدى الذي أمرنا اللَّهُ بسؤاله][1].

الهدى الذي أمرنا الله بسؤاله

وظيفة الرسل

وثانيهما: أن الضلالَ ها هنا يعني به: الحال التي كانوا عليها قبل إرسال الرُّسل من: الشرك، والكفر، والجهالات، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] أي: على حالة واحدة من الضلال والجهل، فأرسل اللَّهُ الرسلَ ليزيلوا عنهم ما كانوا عليه من الضلال، ويبيِّن لهم مرادَ الحقِّ منهم في حالهم، ومآل أمرهم، فمن نبَّهه الحقُّ سُبحانه وتعالى، وبصَّره، وأعانه فهو المهتدي، ومن لم يفعل اللَّهُ به ذلك بقي على ذلك الضلال.

وعلى كلِّ واحدٍ من التأويلين فلا معارضة بين قوله تعالى: «كلُّكم ضالّ إلا من هديته». وبين قوله: «كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفِطرة»[2]؛ لأنَّ هذا الضلالَ المقصودَ في هذا الحديث هو الطارىء على الفِطرة الأولى المغيِّر لها، الذي بيَّنه النبيُّ ﷺ بالتمثيل في بقية الخبر حيث قال: «كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء»[3]. وبقوله: «خلق اللَّهُ الخلقَ على معرفته فاجتالتهم الشَّياطين»[4]. وهذا الحديثُ حُجَّةٌ لأهل الحقِّ على قولهم: إنَّ الهدى والضلال خَلْقه وفِعْلَه يختصُّ بما شاء

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ع).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٣٩٣)، والبخاري (١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٢٣٣ و ٢٧٥ و ٣٩٣)، والبخاري (٤٧٧٥)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٤) رواه مسلم (٢٨٦٥) بلفظ: «إني خلقتُ عبادي حنفاء كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم».

أَهْدِكم. يا عبادي! كُلّكم جائع إلا من أطعمتُه، فاستطعمُوني أُطْعِمْكُمْ. يا عبادي! كلُّكم عارٍ إلا مَنْ كسوتُه، فاستكسُوني أكْسُكم. يا عبادي! إنكم تُخْطِئُونَ بالليلِ والنَّهارِ، وأنا أغفرُ الذنوبَ جميعاً، فاستغفروني أَغْفِرْ لَكُمْ. يا عبادي! إنكم لَنْ تبلغوا ضَرِّي فتَضُرُّوني. ولن تبلُغُوا نَفْعي فَتَنْفَعُونِي. يا عبادي! لو أنّ أوّلكم، وآخِرَكم، وإنْسَكم، وجِنَّكم كانوا على أتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحدٍ مِنكم؛ ما زاد ذلك في مُلكِي شَيْئاً. يا عبادي! لو أنَّ أوّلكم، وآخِرَكُم، وإنْسَكُم، وجِنَّكم، كانوا على أفْجَرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ؛ ما نقص ذلك مِنْ مُلْكِي شيئاً. يا عبادي! لو أنَّ أوّلكُم، وآخرَكم، وإنْسَكُم، وجِنّكم

منهما مَنْ شاء مِنْ خلقه، وأنَّ ذلك لا يقدرُ عليه إلاَّ هو، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر: ٣١]، وكما قال: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وكما قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]. وقد نطق الكتابُ بما لا يبقى معه ريبٌ لذي فَهم سليم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥]، فعمَّ الدعوة، وخصَّ بالهداية من سبقتْ له العناية. واستيفاءُ الكلام في علم الكلام.

وحاصِلُ قوله: «كلُّكم ضالٌّ إلا ممن هديتُه، وكلُّكم جائع، وكلُّكم عارٍ» التَّنبيهُ على فَقْرنا وعجزنا عن جَلْب منافعنا، ودَفْع مضارِّنا بأنفسنا؛ إلا أن يُيَسِّر ذلك لنا؛ بأن يخلقَ ذلك لنا، ويُعيننا عليه، ويصرف عنا ما يضرُّنا. وهو تنبيهٌ على معنى قوله: «لا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم»[1]، ومع ذلك فقال في آخر الحديث: «يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم، فمن وَجَد خيراً فليحمد الله، ومَن وَجَد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه» تنبيهاً على أنَّ عَدَم الاستقلال بإيجاد الأعمال لا يناقضُ خِطابَ التكليف بها، إقداماً عليها، وإحجاماً عنها، فنحن ـ وإن

عجز الإنسان عن جلب المنافع ودفع المضارّ بنفسه

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ٣٦٤).

قاموا في صَعِيدٍ واحدٍ، فسَأَلُوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مَسْأَلَتَه، ما نقص ذلك مِمَّا عندي إلا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ. يا عبادي! إنما هي أعمالُكُم أحصيها عليكم، ثم أُوَفِّيكُمْ إيَّاها، فمَنْ وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غيرَ ذلك فلا يلومنّ إلا نَفْسَه».

رواه أحمد (٥/ ١٦٠)، ومسلم (٢٥٧٧) (٥٥)، والترمذيُّ (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧).

كنَّا نعلمُ أنَّا لا نستقل بأفعالنا ـ نحس بوجدان الفَرْق بين الحركة الضَّرورية والاختيارية، وتلك التفرقةُ راجعةٌ إلى تمكُّنٍ محسوسٍ، وتأتٍّ مُعْتادٍ يُوجَدُ مع الاختيارية، ويُفْقَدُ مع الضرورية، وذلك هو المعبَّرُ عنه بالكسب، وهو موردُ التكليف، فلا تناقضَ ولا تعنيف.

و (قوله: «ما نقص ذلك[1] ممَّا عندي إلا كما ينقص المِخْيَطُ إذا أُدخل البحر») المخيط: الإبرة. والخياط[2]: الخيط. ومنه قوله: «أَدُّوا الخياط والمِخْيَط»[3]. وهذا مثلٌ قصد به التَّقريب للأفهام بما تشاهده؛ فإنَّ ماءَ البحر من أعظم المرئيات وأكبرها، وغمس الإبرة فيه لا يؤثر فيه، فضرب ذلك مثلاً لخزائن رحمة الله تعالى وفَضْله؛ فإنها لا تنحصرُ ولا تتناهى، وأنَّ ما أُعْطي منها من أول خَلْق المخلوقات، وما يُعْطي منها إلى يوم القيامة لا ينقصُ منها شيئاً، وهذا نحو قوله ﷺ في الحديث الآخر: «يمينُ الله ملأى سحَّاءُ الليلَ والنهارَ، لا يغيضُها

مَثَل خزائن رحمة الله وفضله

---

(١) هذه اللفظة مستدركة من التلخيص وصحيح مسلم.
(٢) في جميع نسخ المفهم: الخائط، والصواب ما أثبتناه بعد الرجوع إلى نصّ الحديث ومصادر اللغة.
(٣) رواه النسائي (٦/ ٢٦٤)، وابن ماجه (٢٨٥٠).

[٢٤٨٦] وعن ابن عمر؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «المسلمُ أخو المسلمِ، لا يَظْلِمُهُ ولا يُسْلِمُهُ. مَنْ كان في حاجةِ أخيه، كان اللَّهُ في حاجته، ومن فرّجَ عن مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فرّجَ الله عنه بها كُرْبَةً من كُربِ يومِ القيامةِ».

رواه أحمد (٢/ ٩١)، والبخاريُّ (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠)، وأبو داود (٤٨٩٣)، والترمذيُّ (١٤٢٦).

[٢٤٨٧] وعن جابرِ بن عبد الله، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «اتَّقُوا الظلمَ؛ فإنّ الظُّلمَ ظلماتٌ يوم القيامة. . . . .

شيءٌ، أرأيتم ما أنفق منذ خَلَق السمواتِ والأرض، لم يَغِضْ ما في يمينه»[١] وسرُّ ذلك أنَّ قدرته صالحةٌ للإيجاد دائماً، لا يجوزُ عليها العجزُ والقصور، والممكنات لا تنحصر، ولا تتناهى، فما وجد منها لا ينقصُ شيئاً منها، وبَسْطُ الكلام على هذه الأصول في عِلْم الكلام.

عقوبة الظالم يوم القيامة

ـ و (قوله: «اتقوا الظلم؛ فإنَّ الظلمَ ظلماتٌ يوم القيامة») ظاهِرُه: أنَّ الظالم يُعاقَبَ يوم القيامة؛ بأن يكون في ظلماتٍ متوالية يوم يكون المؤمنون في نورٍ يسعى بين أيديهم، وبأيمانهم حين: ﴿يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ فيقال لهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]. وقيل: إنَّ معنى الظلمات هنا: الشَّدائد والأهوال التي يكونون فيها، كما فُسِّر بذلك قولُه: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٦٣] أي: من شدائدهما، وآفاتهما. والأول أظهر.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٤٢ و ٥٠٠)، والبخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣) (٣٦)، والترمذي (٣٠٤٥)، وابن ماجه (١٩٧).

واتقوا الشُّحَّ ؛ فإنَّ الشحَّ أهْلَكَ مَنْ كان قَبْلَكُم ؛ حَمَلهم على أنْ سَفَكُوا دماءَهم واستحلُّوا محارِمَهم».

رواه مسلم (٢٥٧٨).

[٢٤٨٨] وعَن أبي موسى، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الله يُملِي للظَّالِم؛ فإذا أَخَذَه لم يُفْلِته»........

الشح والبخل

و (قوله: «واتَّقُوا الشُّحَّ؛ فإنَّ الشحَّ أهلكَ مَن كان قبلكم») الشحُّ: الحرصُ على تحصيل ما ليس عندك، والبخلُ: الامتناعُ من إخراج ما حَصَل عندك. وقيل: إن الشحَّ هو البخلُ مع حرص. يقال منه: شَحِحْتُ بالكسر يشِحُّ، [وشَحَحْت ـ بالفتح ـ يُشَحُّ][1] ـ بالضم ـ ورجل شحيح، وقوم شِحاح وأشحَّاء.

عاقبة الشح

و (قوله: «حَمَلَهم على أن سَفَكُوا دماءهم، واستحلُّوا محارمهم») هذا هو الهلاكُ الذي حُمِلَ عليه الشحُّ؛ لأنهم لمَّا فعلوا ذلك أتلَفُوا دنياهم وأخراهم، وهذا كما قال في الحديث الآخر: «إياكم والشح؛ فإنه أهلك مَن كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلُوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»[2] أي: حملهم على ذلك.

سُنَّة الله في كل جبّار عنيد

و (قوله: «إن الله يملي للظالم حتى إذا أخبره لم يُفْلِتْهُ») يملي: يطيلُ في مدَّته، ويصحُّ، ويكثر ماله وولده ليكثر ظُلْمُه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وهذا كما فَعَل اللَّهُ بالظَّلمة من الأمم السَّالفة، والقرون الخالية، حتى إذا عمَّ ظُلْمُهم وتكامَلَ جُرْمُهم أخذهم الله أخذةً رابية، فلا ترى لهم من باقية، وذلك سنَّة الله في كلِّ جبَّار عنيد، ولذلك قال:

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ز).
(٢) رواه أبو داود (١٦٩٨).

ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]».

رواه البخاريُّ (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣)، والترمذيُّ (٣١٠٩)، وابن ماجه (٤٠١٨).

* * *

(١٣) بــاب
الأخذ على يد الظَّالم ونصر المظلوم

[٢٤٨٩] عن جابرٍ، قال: اقْتَتَل غُلامانِ: غلامٌ من المهاجرينَ، وغلامٌ من الأنصارِ، فنادى المهاجرُ ـ أو المهاجرونَ ـ: يا للمهاجرين!

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

مَن هو الذي أُمِر بالستر عليه؟

و (قوله: «مَن سَتَر مُسلماً ستره اللَّهُ يومَ القيامة») هذا حضٌّ على ستر من ستر نفسه، ولم تَدْعُ الحاجةُ الدينية إلى كَشْفه، فأما من اشتهر بالمعاصي، ولم يبالِ بفعلها، ولم ينتهِ عمَّا نُهي عنه، فواجبٌ رَفْعُه للإمام، وتنكيله، وإشهارُه للأنام ليرتدعَ بذلك أمثالُه، وكذلك مَن تدعو الحاجةُ إلى كَشْف حالهم من الشهود والمجرَّحِين، فيجب أن يكشفَ منهم ما يقتضي تجريحهم، ويحرمُ سترهم مخافةَ تغيير الشرع، وإبطال الحقوق.

(١٣ و ١٤ و ١٥) ومن بــاب:
الأخذ على يد الظالم ونصر المظلوم(١)

(قوله: كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار)(٢) في الصحاح:

---

(١) شرح المؤلف رحمه الله تحت هذا العنوان ما أشكل في هذا الباب وما أشكل أيضاً في باب: من استطال حقوق الناس. . . وما أشكل في باب: النهي عن دعوى الجاهلية.
(٢) هذه الرواية بنصها في صحيح مسلم (٢٥٨٤) (٦٤).

فنادى الأنصاريُّ: يا للأنصار! فخرجَ رسولُ الله ﷺ فقال: «ما هذا؟! دعوى أهل الجاهلية!» قالوا: لا، يا رسول الله! إلا أنَّ غلامين اقْتَتَلا، فكَسَعَ أحدُهُما الآخَرَ، قال: «فلا بأسَ ولينصُرِ الرجلُ أخاه ظالماً أو مظلوماً؛ إنْ كان ظالماً فلْيَنْهَهُ، فإنَّه له نصرٌ، وإنْ كان مظلوماً فلْيَنْصُرْهُ».

رواه أحمد (٣/ ٣٣٨)، والبخاريُّ (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤) (٦٢)، والترمذيُّ (٣٣١٥)، والنسائيُّ في الكبرى (٨٨٦٣).

* * *

الكسع: أن تضربَ دُبُرَ الإنسان بيدك، أو بصدر قدمك، يقال: اتَّبع فلانٌ أدبارهم يكسعهم بالسيف، مثل: يكْسَؤُهُم، أي: يطردهم، ومنه قول الشاعر[(١)]:

كَسِعَ الشِّتَاءُ بسبعةٍ غُبْرِ[(٢)] ....

ووردت الخيلُ يكسعُ بعضُها بعضاً.

ردُّ الظالم عن ظلمة نصرٌ له

و (قوله: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»[(٣)]) هذا من الكلام البليغ الوجيز الذي قلَّ من ينسجُ على منواله، أو يأتي بمثاله، وأو فيه للتنويع والتقسيم، وإنما سُمِّي ردُّ الظالم نصراً؛ لأنَّ النصرَ هو العونُ. ومنه قالوا: أرضٌ منصورةٌ، أي: معانةٌ بالمطر، ومَنْعُ الظالم من الظلم عونٌ له على مصلحة نفسه، وعلى الرُّجوع إلى الحق، فكان أولى بأن يُسمَّى نَصْراً.

دعوى الجاهلية

ودعوى الجاهلية: تَنَادِيهم عند الغضب، والاستنجاد: يا آل فلان! يا بني

---

(١) هو أبو شبل الأعرابي.

(٢) هذا صدر بيتٍ، وعجزه: أيَّامِ شَهْلَتِنا من الشَّهْرِ.

(٣) هذا اللفظ ليس في التلخيص ولا في صحيح مسلم، بل هو عند أحمد (٣/ ٢٠١)، والبخاري (٢٤٤٣ و ٢٤٤٤)، والترمذي (٢٢٥٥) من حديث أنس بن مالك.

(١٤) بـــاب
من استطال حقوقَ الناس
اقتُصَّ من حسناته يوم القيامة

[٢٤٩٠] عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «أَتَدْرُونَ ما المفلسُ؟» قالوا: المفلسُ فِيْنا مَنْ لا دِرْهَمَ له ولا متاعَ! فقال: «إنَّ المفلسَ من أمَّتي يأتي يومَ القيامة بصلاةٍ، وصيامٍ، وزكاةٍ، ويأتي وقد شَتَم هذا وقَذَف هذا، وأكَلَ مال هذا، وسفك دَمَ هذا، وضَرَبَ هذا، فيُعْطَى هذا مِنْ حسناته، وهذا مِنْ حسناته، فإنْ فَنِيَتْ حسناتُه، قبلَ أن يُقْضَى ما عليه، أُخِذَ مِنْ خطايَاهُم فطُرِحَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّار».

رواه أحمد (٢/ ٣٠٣)، ومسلم (٢٥٨١)، والترمذيُّ (٢٤١٨).

[٢٤٩١] وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لَتُؤَدُّنَ الحقوقَ إلى أهلِها يومَ القيامة حتى يُقادَ للشَّاةِ الجَلْحَاءِ من الشَّاةِ القَرناء».

رواه أحمد (٢/ ٢٣٥)، ومسلم (٢٥٨٢)، والترمذيُّ (٢٤٢٠).

* * *

فلان! وهي التي عنى بقوله: «دعوها فإنها منتنة»[١] أي: مستخبثة، قبيحة؛ لأنها تثيرُ التَّعَصُّبَ على غير الحقِّ، والتقاتل على الباطل، ثم إنها تجرُّ إلى النار، كما قال: «مَن دعا بدعوى الجاهلية فليس منا، وليتبوأ مقعده من النار»[٢]. وقد أبدل

---

(١) هذه الفقرة والتي تليها لم ترد في هذا الباب من التلخيص، وإنما وردت في باب: النهي عن دعوى الجاهلية، رقم الحديث (٢٥٩٦).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٣٠ و ٢٠٢)، والترمذي (٢٨٦٣ و ٢٨٦٤) بلفظ: «مَن دعا بدعوى الجاهلية فهو مِن جُثَا جهنم».

(١٥) بـــاب
النهي عن دعوى الجاهلية

[٢٤٩٢] عن جابرٍ، قال: كُنَّا مع النَّبيِّ ﷺ في غَزَاةٍ؛ فكَسَعَ رجُلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاريُّ: يا لَلأَنْصَارِ! وقال المهاجريُّ: يا لَلْمهاجرين! فقالَ رسولُ الله ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية؟» قال: قالوا: يا رسولَ اللَّهِ! كَسَعَ رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال: «دعُوها فإنَّها مُنْتِنَةٌ!». فسَمِعَها عبدُ الله بنُ أُبيٍّ، فقال: قد فعلُوها! والله! لئن رَجَعْنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ! قال عمر: دَعْنِي أضربْ عُنُقَ هذا المنافِقِ. فقال: «دَعْهُ، لا يتحدَّثُ النَّاسُ أنَّ محمداً يقتُلُ أصحابَه».

دعوى الله: اللَّهُ مِن دعوى الجاهلية دعوى المسلمين، فينادَى: يا للمسلمين! كما قال ﷺ: «فادْعُوا بدعوى الله الذي سمَّاكم المسلمين»[١]. وكما نادى عمرُ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين طُعِن: يا لَلَّه! يا لَلْمُسْلِمين!. فإذا دعا بها المسلمُ وجبتْ إجابتُه، والكشف عن أمره على كلِّ مَن سمعه؛ فإن ظهر أنه مظلومٌ نُصِر بكلِّ وجه ممكنٍ شرعيٍّ؛ لأنه إنما دعا للمسلمين لينصروه على الحقِّ. وإن كان ظالماً كُفَّ عن الظلم بالملاطفة والرفق، فإن نفع ذلك، وإلا أُخِذَ على يده، وكفَّ عن ظُلْمه؛ فإن الناسَ إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه: أوشكَ أن يَعُمَّهم اللَّهُ بعقابٍ من عنده، ثم يدعونه فلا يُستجابُ لهم.

موقفه ﷺ من المنافقين: و(قوله ﷺ لعمرَ حين قال: دعني أضربْ عنقَ هذا المنافق: «لا يتحدَّث النَّاس أنَّ محمداً يقتلُ أصحابَه») دليل على: أن المنافقين الذين عُلم نفاقُهم في

---

(١) ينظر تخريج الحديث السابق.

رواه أحمد٣/٣٣٨)، والبخاريُّ (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤) (٦٣)، والترمذيُّ (٣٣١٥)، والنسائيُّ في الكبرى (٨٨٦٣).

* * *

عهد رسول الله ﷺ كانوا مستحقين للقتل، لكن امتنعَ النبيُّ ﷺ من ذلك؛ لئلا يكونَ قتلُهم منفِّراً لغيرهم عن الدخول في الإسلام؛ لأن العربَ كانوا أهلَ أَنَفَةٍ وكبرٍ بحيث لو قتلَ النبيُّ ﷺ هؤلاء المنافقين [النفرَ من بَعُد عنهم، فيمتنع من الدخول في الدِّين، وقالوا: هو يقتلُ أصحابَه، ولغضبَ من قَرُب من هؤلاء المنافقين][1] فتهيج الحروبُ وتكثر الفتن، ويُمتنع من الدخول في الدِّين، وهو نقيض المقصود، فعفا النبيُّ ﷺ عنهم، ورَفَقَ بهم، وصبرَ على جفائهم وأذاهم، وأحسن إليهم حتى انشرحَ صدر من أرادَ الله هدايتَه، فرسخَ في قلبه الإيمان، وتبيَّن له الحق اليقين. وهلكَ عن بيِّنةٍ من أراد الله هلاكه، وكان من الخاسرين. ثم أقام النبيُّ ﷺ مُستصحباً لذلك إلى أن توفَّاه الله تعالى، فذهبَ النفاق وحكمه؛ لأنه ارتفعَ مسمَّاه واسمه. ولذلك قال مالك: النِّفاق في عهد رسول الله ﷺ هو الزندقة عندنا اليوم، ويظهر من مذهبه: أن ذلك الحكم منسوخ بقوله تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ. . .﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠ ـ ٦١]، وبقوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣]، [فقد سوَّى بينهما في الأمر بالجهاد، وجهاد الكفار: قتالهم وقتلهم، فليكن جهاد المنافقين كذلك][2].

حكم المنافقين

وفي الآيتين مباحث ليس هذا موضعها، وقد ذهبَ غير واحدٍ من أئمتنا إلى أن المنافقين يُعفى عنهم ما لم يُظهروا نفاقَهم؛ فإن أظهروه قُتلوا، وهذا أيضاً يُخالف ما جرى في عهد النبيِّ ﷺ فإنَّ منهم من أظهرَ نِفاقَه، واشتهرَ عنه حتى عُرف به، والله أعلم بنفاقه، ومع ذلك لم يُقتلوا لما ذكرناه، والله تعالى أعلم.

---

(١) ما بين حاصرتين ساقط من (ع) و (ز).

(٢) ما بين حاصرتين ساقط من (ع).

. . . .

وقد وضح من هذا الحديث إبطال قول من قال: إن النبيَّ ﷺ لم يقتل المنافقين؛ لأنه لم تقمْ بيِّنة مُعتبرةٌ بنفاقهم؛ إذ قد نصَّ فيه على المانع من ذلك، وهو غير ما قالوه. وفيه ما يدلُّ على أنَّ أهونَ الشرَّيْن يجوز العملُ على مقتضاه إذا اندفع به الشر الأعظم. وفيه دليل: على القول بصحة الذرائع، وعلى تعليل نفي الأحكام في بعض الصور بمناسبٍ لذلك النفي.

(قوله: «أتدرون ما المفلس؟») كذا صحت الرواية بـ (ما) فقد وقعت هنا على من يعقل، وأصلُها لما لا يعقل. والمفلس: اسم فاعل من أفلس إذا صار مُفْلِساً، أي: افتقرَ، وكأنَّه صارت دراهمُه فلوساً، كما يقال: أجبنَ الرجلُ: إذا صار أصحابُه جبناء، وأقطف: إذا صارت دابته قَطُوفاً[1]، ويجوز أن يُراد به: إنه صار الرجل يقال فيه: ليس معه فلس، كما يقال: أقهرَ الرجلُ: إذا صار إلى حالٍ يُقهر عليها، وأذَلَّ الرجل: إذا صار إلى حال يُذَلُّ فيها، وقد فلَّسه القاضي تفليساً: نادى عليه: أنه أفلس.

السعيُ في الدنيا للتخلُّص من حقوق الناس

و (قوله: «المفلس هو الذي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة... الحديث»): أي: هذا أحقُّ باسم المفلس؛ إذ تُؤخذ منه أعماله التي تعبَ في تصحيحها بشروطها حتى قُبلت منه، فلما كان وقتُ فقره إليها أُخذت منه، ثم طُرح في النار. فلا إفلاسَ أعظمُ من هذا، ولا أخسرَ صفقةً ممن هذه حالُه، ففيه ما يدلُّ على وجوب السعي في التخلُّص من حقوق الناس في الدنيا بكل ممكن، والاجتهاد في ذلك، فإن لم يجد إلى ذلك سبيلاً، فالإكثارُ من الأعمال الصالحة، فلعلَّه بعدَ أَخْذِ ما عليه تبقى له بقيَّةٌ راجحةٌ، والمرجو من كرم الكريم لمن صحَّت في الأداء نيَّتُه، وعَجَزَتْ عن ذلك قدرتُه أن يُرضي اللَّهُ عنه خصومَه فيغفرُ للمطالب والمطلوب، ويُوصلُهم إلى أفضل محبوب، وقد تقدَّم ذكر من قال: إن الصَّومَ

(١) أي بطيئة.

. . . .

لا يُؤخذ مما عليه من الحقوق، وبيَّنا ما يرد عليه وبماذا ينفصل عنه.

و (قوله: «لتؤدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يومَ القيامة») هذا جواب قسم محذوف، كأنه قال: والله لتؤدُّنَّ. والحقوق: جمع حق، وهو ما يحقُّ على الإنسان أن يؤدِّيَه، وهو يعمُّ حقوقَ الأبدان، والأموال، والأعراض، وصغيرَ ذلك، وكبيرَه. كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، وكما قال: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

و (قوله: «حتى يقادَ للشاة الجَلْحَاء من الشاة القَرْناء») والجلحاء: هي التي لا قرون لها. وكبشٌ أجلح، وشاة جلحاء. ويُقاد: من القَوَد، أي: القصاص. وقد حُكي: أن أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ حمل هذا الحديث على ظاهره، فقال: يُؤتى بالبهائم فيُقال لها: كوني تُراباً، وذلك بعد ما يُقاد للجمّاء[1] من القرناء، وحينئذ ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ: ٤٠]. وقد قيل في معنى الحديث: إن المقصودَ منه التمثيلُ على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص، والإغياء فيه حتى يُفهمَ منه: أنه لا بُدَّ لكل أحدٍ منه، وأنَّه لا محيصَ له عنه، ويتأيَّد هذا بما جاء في هذا الحديث عن بعض رواته من الزيادة، فقال: «حتى يُقادَ للشاة الجلحاء من القرناء، وللحجر لم ركبَ على الحجر؟ وعلى العُود: خدشَ العودَ؟» فظهرَ من هذا: أن المقصودَ منه التمثيل المفيد للإغياء والتهويل؛ لأن الجمادات لا يُعقل خطابُها، ولا ثوابُها، ولا عقابُها، ولم يصرْ إليه أحدٌ من العقلاء، ومتخيِّلُه من جملة المعتوهين الأغبياء، ونظيرُ هذا التمثيل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ . . .﴾ [الرعد: ٣١]، وقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ . . .﴾ الآية [الحشر: ٢١]، فتدبَّر وجهَ التنظير، والله بحقائق الأمور عليم خبير.

---

(١) في (ز): الجلحاء.

(١٦) باب
مثل المؤمنين

[٢٤٩٣] عن أبي موسى، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنْيانِ يشدُّ بَعْضُه بَعْضاً».

رواه البخاريُّ (١٤٣٧)، ومسلم (٢٥٨٥)، وأبو داود (١٦٨٤)، والنسائيُّ (٥/ ٧٩ ـ ٨٠).

[٢٤٩٤] وعن النُّعْمان بنِ بشيرٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مثلُ المؤمنين في توادِّهم؛ وتراحُمِهم؛ وتعاطُفِهم؛ مثلُ الجسدِ؛ إذا اشتكَى منه عُضْوٌ تداعى له سائرُ الجسدِ بالسَّهَرِ، والحمَّى».

---

(١٦) ومن باب: مثلُ المؤمنين

الحض على معونة المؤمنين للمؤمن

(قوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً») تمثيلٌ يفيدُ الحضَّ على معونة المؤمن للمؤمن ونصرته، وأنَّ ذلك أمرٌ متأكدٌ لا بدَّ منه، فإن البناءَ لا يتمُّ أمره، ولا تحصلُ فائدته إلا بأن يكون بعضُه يمسك بعضاً، ويقوِّيه، فإن لم يكن كذلك انحلَّتْ أجزاؤه، وخَرِبَ بناؤه. وكذلك المؤمنُ لا يستقلُّ بأمور دنياه ودينه إلا بمعونة أخيه، ومعاضدته، ومناصرته، فإن لم يكن ذلك عجز عن القيام بكلِّ مصالحه، وعن مقاومة مضادّه، فحينئذٍ لا يتمُّ له نظامُ دنيا ولا دين، ويلتحقُ بالهالكين.

الحض على محبة المؤمن ونصيحته

و (قوله: «مثل المؤمنين في توادّهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد...» الحديث) هكذا صحيحُ الرواية في توادِّهم، ومعناه واضح، وقد وقع في رواية: توادهم بغير (في) ويصحُّ ذلك، ويكون محفوظاً على أنه بدلُ الاشتمال من المؤمنين. والتوادُّ مصدر توادد يتوادد تواددا وتوادّاً إذا أدغمت، ومقصودُ هذا التمثيل: الحضُّ على ما يتعيَّن من محبة المؤمن، ونصيحته، والتهمم بأمره.

وفي روايةٍ: «المسلمون كرجلٍ واحدٍ. إنْ اشْتكى عَيْنُه اشتكى كلُّه، وإن اشتكَى رأسُه اشتكى كلُّه».

رواه أحمد (٤/ ٢٦٨)، ومسلم (٢٥٨٦) (٦٦ و ٦٧).

* * *

(١٧) بـــاب
تحريم السِّباب والغِيبَة ومن تجوز غيبته

[٢٤٩٥] عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «المُسْتَبَّانِ ما قالا؛ فعلى البادىء ما لم يعتدِ المظلوم».

رواه أحمـد (٢/ ٢٣٥)، ومسلـم (٢٥٨٧)، وأبـو داود (٤٨٩٤)، والترمذيُّ (١٩٨١).

---

(١٧) ومن بـــاب: تحريم السِّباب والغِيبة

(قوله: «المستبَّان ما قالا، فعلى الأول ما لم يعتدِ المظلوم») المستبَّان: تثنية مُستبّ من السَّبِّ؛ وهو الشتم والذمُّ، وهما مرفوعان بالابتداء، و(ما) موصولة، وهي في موضع رفع بالابتداء أيضاً، وصلتها قالا، والعائد محذوف تقديره: قالاه، و(على الأول) خبر ما، ودخلت الفاء على الخبر لما تضمَّنه الاسم الموصول من معنى الشرط، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وما وخبرها: خبر المبتدأ الأول الذي هو المستبَّان. ومعنى الكلام: أن المبتدىءَ بالسبِّ هو المختص بإثم السبِّ؛ لأنه ظالم به إذ هو مبتدىء من غير سبٍّ ولا استحقاق، والثاني منتصر فلا إثمَ عليه، ولا جُناحَ، لقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]، لكنَّ السبَّ المنتصر به ـ وإن كان

المبتدىء بالسبِّ هو الآثم

. . . .

مُباحاً للمنتصر ـ فعليه إثمٌ من حيث هو سبٌّ، لكنه عائد إلى الجاني الأول؛ لأنه هو الذي أحوجَ المنتصرَ إليه وتسبَّب فيه، فيرجع إثمه عليه، ويسلمُ المنتصر من الإثم؛ لأنَّ الشرعَ قد رفعَ عنه الإثـمَ والمؤاخـذة، لكن ما لم يكن من المنتصر عدوان إلى ما لا يجوز له، كما قال: «ما لم يعتدِ المظلوم» أي: ما لم يُجاوز ما سُبَّ به إلى غيره؛ إما بزيادة سَبٍّ آخر أو بتكرار مثل ذلك السّبِّ، وذلك أنَّ المباحَ في الانتصار: أن يردَّ مثل ما قال الجاني، أو يُقاربه؛ لأنه قصاص، فلو قال له: يا كلبُ ـ مثلاً ـ فالانتصار أن يردَّ عليه بقوله: بل هو الكلبُ، فلو كرَّر هذا اللفظ مرتين أو ثلاثاً لكان مُتعدِّياً، بالزائد على الواحدة، فله الأُولى، وعليه إثم الثانية، وكذلك لو ردَّ عليه بأفحشَ من الأولى، فيقول له: خنزير ـ مثلاً ـ كان كلُّ واحد منهما مأثوماً؛ لأن كلاً منهما جاز على الآخر، وهذا كلُّه مقتضى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وكلُّ ما ذكرناه من جواز الانتصار: إنما هو فيما إذا لم يكن القول كذباً، أو بُهتاناً، فلا يجوز أن يتكلَّم بذلك لا ابتداءً ولا قصاصاً، وكذلك لو كان قذفاً؛ فلو ردَّه كان كلُّ واحدٍ منهما قاذفاً للآخر، وكذلك لو سبَّ المبتدىء أبا المسبوب، أو جدَّه لم يجزْ له أن يردَّ ذلك؛ لأنه سبٌّ لمن لم يجنِ عليه فيكونُ الردُّ عدواناً لا قِصاصاً. قال بعضُ علمائنا: إنما يجوز الانتصار فيما إذا كان السبُّ مما يجوز سبُّ المرء به عند التأديب كالأحمق، والجاهل، والظالم؛ لأنَّ أحداً لا ينفكُّ عن بعض هذه الصفات إلا الأنبياء والأولياء، فهذا إذا كافأه بسبِّه فلا حرجَ عليه، ولا إثمَ، وبقي الإثم على الأول بابتدائه وتعرُّضه لذلك.

تنبيـه: ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]: أن الانتصارَ مباح، وعلى ذلك يدلُّ الحديث المذكور، لكنَّ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩] مدح من الله تعالى للمنتصر، والمباح: لا يُمدح عليه، فاختلفَ العلماء في ذلك، فقال السُّدِّي: إنما

. . . .

مَدَح الله من انتصر ممن بُغي عليه من غير زيادة على مقدار ما فُعل به، يعني: أنه إنما مُدِحَ من حيث إنه اتَّقى الله في انتصاره؛ إذا أوقعَه على الوجه المشروع، ولم يفعلْ ما كانت الجاهلية تفعلُ من الزيادة على الجناية. وقال غيره: إنما مَدحَ الله من انتصر من الظالم الباغي المعلن بظلمه الذي يعمُّ ضررُه، فالانتقام منه أفضل، والانتصار عليه أولى. قال معناه إبراهيم النَّخَعيّ، ولا خفاء في أن العفو عن الجناة وإسقاطَ المطالبة عنهم بالحقوق مندوب إليه، مرغَّب فيه على الجملة، لقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، ولقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقوله: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، وقوله: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ولقوله ﷺ: «ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عِزّاً»[١]، وقوله: «تعفو عمن ظلمك، وتُعطي من حرمك، وتصل من قطعك»[٢] ونحوه كثير، ومع ذلك فاختلف العلماء في المحاللة من الحقوق، فقال سعيدُ بن المسيِّب: لا أحلِّل أحداً. وظاهره: أنه كان لا يُجيز أن يعفوَ عن حقٍّ وجبَ له، ولا يسقطه، ولم يفرق بين الظالم ولا غيره، وهذا هو الذي فهمَه مالك عنه. وذهبَ غيره إلى أنه تجوزُ المحاللة من جميع الحقوق وإسقاطها، وإليه ذهبَ محمد بن سيرين. والقاسم بن محمد كان يُحلِّل من ظلمَه، ويكره لنفسه الخصوم. وفرَّق آخرون بين الظالم، فلم يُحلِّلوه، وبين غيره فحلَّلوه، وإليه ذهب إبراهيم النَّخَعِي، وهو ظاهر قول مالك، وقد سُئل فقيل له: أرأيت الرجل يموتُ، ولك عليه دينٌ، ولا وفاء له به؟ قال: أفضلُ عندي أن أحلِّلَه، وأما الرجلُ يظلم الرجلَ فلا أرى ذلك. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [الشورى: ٤٢]، فظاهر هذا: أن

حُكم المحاللة من الحقوق

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨)، والترمذي (٢٠٣٠)، والموطأ (٢/ ١٠٠٠).

(٢) رواه البزار كما في كشف الأستار (١٩٠٦) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٥٤): وفيه سليمان بن داود اليمامي متروك.

[٢٤٩٦] وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «أتدرُونَ ما الغِيبة؟» قالوا:

الظالم لا يجوزُ أن يُحلَّل، ولم يفرِّقْ بين الحقوق، فيكون مذهبُه كمذهب النَّخَعِيِّ المتقدِّم، غير أنَّه قد روي قول مالك هذا بلفظ آخر، فقال: أما الرجل يغتابُ الرجلَ، وينتقصُه، فلا أرى ذلك، ففهم بعض أصحابنا من هذا: أن تركَ المُحالَلة إنما منعَه في الأعراض خاصة، وأما في سائر الحقوق فيجوز، وسبب هذا الخلاف: هل تلك الأدلة مبقاة على ظواهرها من التعميم، أو هي مُخصَّصة فيخرج منها الظالم؟ لأنَّ تحليلَه من المظالم يُجرِّئه على الإكثار منها وهو ممنوع بالإجماع، ثم ذلك عون له على الإثم والعدوان، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، وأما الفرق بين الأعراض وغيرها فمبالغة في سدِّ ذريعة الأعراض ليسارتها وتساهل الناس في أمرها، فاقتضى ذلك المبالغة في الردع عنها؛ فإذا عَلِمَ الذي يُريد أن يغتابَ مسلماً: أن الغيبةَ وأعراضَ المسلمين لا يُعفى عنها، ولا يُخرج منها، امتنعَ من الوقوع فيها.

قلتُ: ويردُ على هذه التخصيصات سؤالات يطول الكلام بإيرادها والانفصال عنها، والتمسُّك بالعموم هو الأصل المعلوم، لا سيما مع قوله ﷺ: «أيعجزُ أحدُكم أن يكون كأبي ضمضمَ كان إذا أصبحَ يقولُ: اللهم إني تصدَّقتُ بعرضي على عبادِك»[١] ومع الأصل الكلِّيِّ في حقوق بني آدمَ من جواز تصرُّفهم فيها بالإعطاء والمنع، والأخذ والإسقاط، والله تعالى أعلم.

تفريع: القائلون بجواز التحلُّل وإسقاط الحقوق اختلفوا: هل تسقط عن الظالم مطالبة الآدميّ فقط، ولا تسقط عنه مطالبة الله عز وجل؟ أو يسقط عنه الجميع؟ لأهل العلم فيه قولان.

و (قوله: «أتدرون ما الغيبة؟») كأن هذا السؤال صدرَ عنه بعد أن جرى ذكر

---

(١) ذكره ابن الأثير في أسد الغابة (٦/ ١٧٧)، وقال: رواه أبو عمر (ابن عبد البر).

اللَّهُ ورسوله أعلمُ. قال: «ذكرك أخاك بما يكرَهُ». قيلَ: أفرأيتَ إنْ كان في

الغيبة، ولا يبعد أن يكون ذلك بعد نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، ففسَّر النبيُّ ﷺ هذه الغيبة المنهي عنها. ووزنها فِعْلة، وهي مأخوذة من الغَيبة، ـ بفتح الغين ـ مصدر غاب؛ لأنها ذكر الرجل في حال غيبته بما يكرهه لو سمعه. يقال من ذلك المعنى: اغتابَ فلان فلاناً، يغتابه اغتياباً، واسم ذلك المعنى: الغِيبة، ولا شك في أنها محرَّمة، وكبيرة من الكبائر بالكتاب والسنَّة، فالكتاب: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا...﴾ الآية وأما السنة فكثيرة من أنصِّها: ما خرَّجه أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من الكبائر استطالةُ المرء في عِرْض رجلٍ مسلم»[١]، وفي كتابه من حديث أنس عنه ﷺ قال: «مررتُ ليلة أُسري بي بقومٍ لهم أظفارٌ من نحاسٍ يَخمِشُون وجوهَهم وصدورَهم، فقلتُ: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحومَ الناس، ويقعونَ في أعراضهم»[٢].

تعريف الغيبة

حُكْم الغيبة

صور من الغيبة تخرج عن أصل التحريم

وإذا تقررت حقيقةُ الغِيبة وأنَّ أصلَها على التحريم فاعلم أنها قد تخرج عن ذلك الأصل صورٌ، فتجوز الغِيبة في بعضها، وتجب في بعضها، ويُندب إليها في بعضها: فالأُولى كغيبة المعلن بالفسق المعروف به، فيجوزُ ذكره بفسقه لا بغيره، مما يكون مشهوراً به، لقوله ﷺ: «بئس أخو العشيرة» كما يأتي، وقوله ﷺ: «لا غيبة في فاسق»[١]، ولقوله: «لَيُّ الواجد يُحِلِّ عرضه، وعقوبته»[٢]. والثاني:

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٧٧).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٧٨) بلفظ: «ليلة عُرِج بي...».

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/٣٦٦) وقال في الدرر: له طرق كثيرة. قال أحمد: منكر. وقال الحاكم والدارقطني والخطيب: باطل.

(٤) رواه أحمد (٤/ ٢٢٢)، والنسائي (٧/٣١٦)، وابن ماجه (٢٤٢٧)، وابن حبان (٥٠٨٩) الإحسان.

أخي ما أقولُ. قال: «إنْ كَانَ فيه ما تقولُ فقد اغْتَبْتَهُ، وإنْ لمْ يكُن فيه فقدْ بَهَتَّه».

رواه أحمد (٢/ ٢٣٠)، ومسلم (٢٥٨٩)، وأبو داود (٤٨٧٤)، والترمذيُّ (١٩٣٤).

جرح شاهد عند خوف إمضاء الحكم بشهادته، وجرح المحدِّث الذي يُخاف أن يُعمل بحديثه، أو يُروى عنه، وهذه أمور ضرورية في الدِّين معمول بها، مجمع من السلف الصالح عليها، ونحو ذلك: ذكرُ عَيْب من استُنصحت في مصاهرتِه، أو معاملتِه، فهذا يجبُ عليك الإعلام بما تعلم من هناته عند الحاجة إلى ذلك على جهة الإخبار، كما قال النبيُّ ﷺ: «أما معاويةُ فصُعلوكٌ لا مالَ له، وأما أبو جَهْم فلا يضعُ عصاه عن عاتقِه»[1]. وقد يكون من هذين النوعين ما لا يجبُ بل يُندب إليه، كفعل المحدِّثين حين يُعرِّفون بالضعفاء مخافةَ الاغترار بحديثهم، وكتحريز من لم يَسْأَل مخافةَ معاملة من حاله تُجهل، وحيث حكمنا بوجوب النص على الغَيْب، فإنما ذلك إذا لم نجد بُدّاً من التصريح والتنصيص، فأما لو أغنى التعريض، والتلويح لَحَرُمَ التنصيص والتصريح؛ فإن ذلك أمرٌ ضروريٌّ، والضروريُّ يُقدَّر بقدْر الحاجة، والله تعالى أعلم.

و (قوله: «وإن لم يكن فيه ما تقولُ فقد بهتَّه») هو بتخفيف الهاء وتشديد التاء؛ لإدغام تاء المخاطب في التاء التي هي لام الفعل، وكذلك رويته، ويجوز أن تكون مخفَّفة على إسقاط تاء الخطاب، يقال: بهتّه بَهَتاً وبَهْتاً وبهتاناً، أي: قال عليه ما لم يَقل، وهو بَهَّات، والمقول مبهوت، ويُقال: بَهِتَ الرجلُ ـ بالكسر ـ إذا دَهش وتحيَّر، وبَهُت ـ بالضم ـ مثله، وأفصحُ منها: بُهِت، كما قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ لأنه يقال: رجل مبهوت، ولا يُقال: باهت، ولا بهيت. قاله الكسائي.

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٤١٢)، ومسلم (١٤٨٠)، وأبو داود (٢٢٨٤)، والنسائي (٦/ ٢١٠).

[٢٤٩٧] وعن عائشة: أنَّ رجلاً استأذنَ على النَّبيِّ ﷺ فقال: ائذَنُوا له، فلبِئْسَ ابنُ العَشِيرَةِ ـ أو بئسَ رجلُ العَشِيرة ـ». فلمّا دخل عليه ألَان له

ذمٌّ لهذا الرجل في حال غيبته لما علمَ النبيُّ ﷺ من حاله، وأنه ممن لا غيبةَ فيه، وهو عُيينة بن حِصن بن حذيفة بن مالك الفَزاري، أسلمَ بعد الفتح، وقيل: قبلَه، وهو من المؤلَّفة قلوبُهم، وكان من الأعراب الجفاة. روى أبو عمر بن عبد البر عن إبراهيم النَّخَعي: أن عيينةَ دخل على النبيِّ ﷺ بغير إذنٍ، فقال النبيُّ ﷺ: «وأينَ الإذنُ؟» فقال: ما استأذنتُ على أحدٍ من مضرَ، وكانت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ مع النبيِّ ﷺ فقال: من هذه الحميراء؟ فقال: «أمّ المؤمنين». فقال: ألا أنزل لك عن أجملَ منها؟ فقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: من هذا يا رسول الله؟ قال: «هذا أحمقُ مُطاع، وهو على ما تَرَينَّ سيِّدُ قومه»[1]. وقال الزهري: كان لعيينة ابن أخ من جلساء عمر ـ رضي الله عنه ـ يقال له: الجَدُّ بن قيس، فقال عُيينة لابن أخيه: ألا تدخلُني على هذا؟ فقال: أخاف أن تتكلَّم بما لا ينبغي، فقال: لا أفعل، فأدخلَه على عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا بـنَ الخطاب! والله ما تقسمُ بالعدل، ولا تُعطي الجزلَ، فغضب عمر ـ رضي الله عنه ـ غضباً شديداً حتى همَّ أن يُوقعَ به، فقال ابن أخيه: يا أميرَ المؤمنين! إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإن هذا من الجاهلين. قال: فخلَّى عنه عمر، وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ وقَّافاً عند كتاب الله تعالى. قال

من هو عيينة بن حصن الفزاري؟

و (قوله ﷺ: «بئس ابنُ العشيرة، أو رجلُ العشيرة») هذا من رسول الله ﷺ القاضي عياض: وقد كان من عيينة في حياة النبيِّ ﷺ، وبعد موته ما يدلُّ على ضعف إيمانه، بل: فيه علمٌ من إعلام النبيِّ ﷺ أنه بئس ابن العشيرة، وقد ظهرَ ذلك منه، إذ هو ممن ارتدَّ وجيء به أسيراً إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ والله أعلم بما ختم له.

---

(١) رواه ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ١٦٧) على هامش الإصابة.

القولَ! قالتْ عائشة: فقلتُ: يا رسول الله! قلتَ له الذي قلتَ، ثم ألنتَ له القولَ؟! قال: «يا عائشة! إنّ شرَّ الناس مَنْزِلَةً عند الله يوم القيامة؛ مَنْ وَدَعَه ـ أو: تَرَكَهُ ـ الناسُ اتِّقاءَ فُحْشِهِ».

رواه أحمد (٦/ ٣٨)، والبخاريّ (٦٠٥٤)، ومسلم (٢٥٩١)، والترمذيُّ (١٩٩٦).

* * *

قلتُ: ويظهرُ من قول النبيِّ ﷺ فيه: «إن شرَّ الناس منزلة عند الله يوم القيامة من ودَعه الناس اتقاءَ فحشه» أن عُيينة خُتم له بخاتمة سوء؛ لأنه ممن اتَّقى النبيُّ ﷺ فحشَه وشرَّه، والنَّاسُ. فهو إذاً: شرُّ الناس منزلةً عند الله يومَ القيامة. ولا يكون كذلك حتى يختم الله تعالى له بالكفر، والله تعالى أعلم.

شرُّ الناس

ففي حديثه من الفقه: جواز غِيبة: المعلن بفسقه ونفاقه، والأمير الجائر والكافر، وصاحب البدعة، وجواز مداراتهم اتِّقاءَ شرهم، لكن ما لم يُؤدِّ ذلك إلى المداهنة في دين الله تعالى. والفرق بين المداراة والمداهنة، أن المداراة: بذل الدنيا لصلاح الدُّنيا أو الدِّين، وهي مباحة ومستحسنة في بعض الأحوال، والمداهنة المذمومة المحرَّمة: هي بذل الدين لصالح الدنيا، والنبيُّ ﷺ إنما بذلَ له من دنياه حسن عشرته، والرِّفق في مكالمته، وطلاقة وجهه، ولم يمدحْه بقول، ولا روعي في ذلك في حديث. فعلى هذا فلا يناقض قوله ﷺ في هذا الرجل فعله معه؛ لأن قوله ذلك إخبار بحقٍّ، ومداراته له حسن عشرة مع الخلق، فلا مدفعَ لأهل الزيغ والضلال؛ إذ لا يبقى على ما أوضحناه إشكال.

مَن تجوز غيبتهم؟

الفرق بين المداراة والمداهنة

و (قوله: «من ودَعه، أو تركه النَّاسُ اتِّقاءَ فحشه») هذا شك من بعض الرواة في أي اللفظين قال النبيُّ ﷺ؛ فإن كان الصحيح ودَعه فقد تكلَّم النبيُّ ﷺ بالأصل المرفوض، كما قد تكلَّم به الشاعر الذي هو أنس بن زنيم في قوله:

سَلْ أمِيرِي مَا الذِي غَيَّرَه عَنْ وِصَالِي اليَوْمَ حَتَّى وَدَعَه؟

(١٨) بـــاب
الترغيب في العفو والسَّتر على المسلم

[٢٤٩٨] عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «ما نَقَصَتْ صدقةٌ من مالٍ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عِزّاً، ....

وقد حكي عن بعض السلف: أنه قرأ: ﴿مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣] بتخفيف الدال، وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه تكلَّم بمصدر ذلك المرفوض حيث قال: «لينتهينَّ أقوام عن وَدْعِهِمُ الجُمعاتِ، أو ليختمنَّ الله على قلوبهم»[1]، وهذا كلُّه يردُّ على من قال من النحويين: إن العربَ قد أماتت ماضيَ هذا الفعل ومصدَره، ولا يُتكلَّم به استغناءً عن ذلك بتركه، فإن أراد به هذا القائل أنه لا يُوجد في كلامهم، فقد كذَّبه النقلُ الصحيح، وإن أرادَ أن ذلك يقعُ، ولكنَّه قليل، وشاذٌّ في الاستعمال، فهو الصحيح.

(١٨ و ١٩) ومن بـــاب: الترغيب في العفو والستر والرفق[2]

(قوله: «ما نقصت صدقةٌ من مال») فيه وجهان:

أحدهما: أنه بقدر ما ينقص منه يزيدُ اللَّهُ فيه، وينمِّيه، ويُكثره.

الثاني: أنه وإن نقص في نفسه ففي الأجر والثواب ما يجبرُ ذلك النقص بأضعافه.

و (قوله: «ما زاد اللَّهُ عبداً بعفو إلا عزّاً») فيه أيضاً وجهان:

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٣٩)، ومسلم (٨٦٥)، والنسائي (٣/ ٨٨)، وابن حبان (٢٧٨٥) الإحسان.

(٢) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان ما أشكل في أحاديث باب: الترغيب في العفو والستر، وباب: الحث على الرِّفق.

وما تواضَعَ أحدٌ للَّهِ إلا رَفَعَهُ الله».

رواه أحمد (٢/ ٢٣٥)، ومسلم (٢٥٨٨)، والترمذيُّ (٢٠٢٩).

[٢٤٩٩] وعنه؛ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا يستُرُ عبدٌ عبداً في الدُّنيا؛ إلا سَتَره اللَّهُ يومَ القيامة».

وفي روايةٍ: «لا يستر الله على عبدٍ في الدُّنيا إلا ستر يوم القيامة».

رواه مسلم (٢٥٩٠) (٧١ و ٧٢).

* * *

أحدهما: ظاهره، فإن من عُرِف بالصَّفح والعفو ساد وعظم في القلوب.

والثاني: أن يكون أجرُه وثوابُه وجاهُه وعزُّه في الآخرة أكثر.

معنى التواضع

و (قوله: «وما تواضع أحدٌ لله إلاَّ رفعه الله») التواضع: الانكسار، والتذلُّل، ونقيضُه التكبُّر والترفع. والتواضعُ يقتضي متواضعاً له؛ فإن كان المتواضعُ له هو اللَّهُ تعالى، أو مَن أمر اللَّهُ بالتَّواضع له كالرسول، والإمام، والحاكم، والوالد، والعالم، فهو التواضعُ الواجبُ المحمودُ؛ الذي يرفع اللَّهُ تعالى به صاحبَه في الدنيا والآخرة، وأما التواضعُ لسائر الخلق فالأصلُ فيه: أنه محمودٌ، ومندوبٌ إليه، ومُرَغَّبٌ فيه إذا قُصِد به وَجْهُ الله، ومَن كان كذلك رفع اللَّهُ تعالى قدره في القلوب، وطيَّب ذِكْرَهُ في الأفواه، ورَفَع درجته في الآخرة، وأما التواضعُ لأهل الدنيا، ولأهل الظلم، فذلك هو الذلُّ الذي لا عِزَّ معه، والخسَّةُ التي لا رفعةَ معها، بل: يترتب عليها ذلُّ الآخرة. وكلُّ صفقةٌ خاسرة ـ نعوذ بالله من ذلك ـ. وقد تقدم الكلامُ على العفو والسّتر.

التواضع الواجب والمندوب إليه

التواضع لأهل الدنيا

* * *

(١٩) بـــاب
الحث على الرفق ومن حُرِمَه حرم الخير

[٢٥٠٠] عن عائشة، زوجِ النَّبيِّ ﷺ، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «يا عائشةُ! إنَّ اللَّهَ رفيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، ....

و (قوله: «إن الله رفيقٌ يحبُّ الرفق») قد تقرَّر في غير موضع: أنَّ العلماءَ اختلفوا في أسماء الله تعالى، هل الأصلُ فيها التوقيفُ. فلا يُسمَّى إلا بما سمَّى به نفسَه في كتابه، أو على لسان رسوله، أو بجمع الأمّة عليه؟ أو: الأصل جوازُ تسميته تعالى بكلِّ اسمِ حَسَن إلا أن يمنعَ منه مانعٌ شرعيٌّ؟ الأول: لأبي حسن[1]. والثاني: للقاضي أبي بكر[2]. ومثار الخلاف: هل الألفُ واللامُ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] للجنس، أو للعهد؟ ثم إذا تنزَّلنا على رأي الشيخ أبي الحسن، هل نقتبسُ أسماءه تعالى من أخبار الآحاد، أو لا؟ اختلف المتأخرون من الأشعرية، في ذلك على قولين، والصَّحيحُ قبولُ أخبارِ الآحاد في ذلك؛ لأنَّ إطلاقَ الأسماء على الله تعالى حُكْمٌ شرعي عمليٌّ فيُكتفى فيه بخبر الواحد والظواهر؛ كسائر الأحكام العملية، فأمَّا معنى الاسم فإن شهد باتصاف الحقِّ به قاطعٌ عقليٌّ، أو سمعيٌّ وَجَب قبولُه وعلمُه، وإلا لم يجبْ. ثم هل يُكتفى في كون الكلمة اسماً من أسماء الله تعالى بوجودها في كلام الشارع من غير تكرار، ولا كثرة، أم لا بُدَّ منهما؟ فيه رأيان، وقد سبق القولُ في ذلك. والرفيقُ: هو الكثيرُ الرفق، وهو اللِّينُ، والتَّسهيل، وضده العنف، والتشديدُ والتَّصعيب، وقد يجيء الرفقُ بمعنى الإرفاق، وهو: إعطاء ما يرتفقُ به، قال أبو زيد: يقال: رفقتُ به، وأرفقتُه بمعنى: نفعتُه، وكلاهما صحيحٌ في حقِّ الله تعالى؛ إذ هو

هل أسماء الله توقيفية؟

---

(١) هو أبو الحسن الأشعري، المتوفى سنة (٣٢٤ هـ).
(٢) هو أبو بكر بن العربي، المتوفى سنة (٥٤٣ هـ).

ويعطي عليه ما لا يعطي على العُنفِ، وما لا يُعْطِي على ما سواه».

رواه مسلم (٢٥٩٣).

[٢٥٠١] وعنها؛ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الرفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلا زَانَهُ، ولا يُنزعُ من شيء إلا شَانَه».

زاد في روايةٍ: أنَّ عائشة رَكِبَتْ بعيراً، فكانَتْ فيه صُعُوبةٌ، فجعلتْ تُرَدِّدُه، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «عَلَيْكِ بالرِّفْقِ... فإنَّ الرفق...» على نحو ما تقدم.

رواه أحمد (٦/ ١١٢ و ١٢٥)، ومسلم (٢٥٩٤) (٧٨ و ٧٩)، وأبو داود (٢٤٧٨).

الميسِّر والمسهِّل لأسباب الخير والمنافع كلِّها، والمعطي لها، فلا تيسيرَ إلا بتيسيره، ولا منفعةَ إلا بإعطائه وتقديره. وقد يجيءُ الرفقُ أيضاً بمعنى: التمهُّل في الأمر، والتأنِّي فيه، يُقالُ منه: رفقت الدابة أرفقها رفقاً: إذا شددت عضدها بحبل لتبطىء في مَشْيِها، وعلى هذا فيكون الرفيقُ في حقِّ الله تعالى بمعنى: الحليم؛ فإنه لا يعجِّل بعقوبة العصاة، بل: يمهلُ ليتوبَ مَن سبقتْ له السعادة، ويزدادُ إثماً من سبقت له الشّقاوة، وهذا المعنى أليقُ بالحديث؛ فإنه السببُ الذي أخرجه. وذلك أنَّ اليهودَ سلَّموا على النبيِّ ﷺ فقالوا: السَّام عليك، ففهمتهم عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ فقالت: بل عليكم السَّامُ واللعنة. فقال لها النبيُّ ﷺ هذا الحديث.

حكم الله تعالى

و (قوله: «إنَّ الله رفيق يحبُّ الرِّفق») أي: يأمر به، ويحضُّ عليه، وقد تقدَّم: أنَّ حُبَّ الله للطَّاعة شرعُه لها، وترغيبُه فيها، وحبُّ اللَّهِ لمن أحبَّه مِن عباده: إكرامه له.

و (قوله: «ويُعطي عليه ما لا يعطي على العنف») ويقال: بفتح العين

[٢٥٠٢] وعن جرير بن عبد الله، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ يُحْرَمِ الرفقَ يُحْرَمِ الخَيْرَ».

رواه أحمد (٤/٣٦٦)، ومسلم (٢٥٩٢) (٧٤ ـ ٧٥)، وأبو داود (٤٨٠٩)، وابن ماجه (٣٦٨٧)، وقد جاء في الأصول: عن جابر (بدل): عن جرير.

* * *

ما يعطيه الله على الرِّفق

وضمِّها، معناه: إن الله تعالى يُعطي عليه في الدُّنيا من الثَّناء الجميل، وفي الآخرة من الثَّواب الجزيل ما لا يُعْطي على العنف الجائز. وبيانُ هذا بأن يكون أمرٌ ما من الأمور سوَّغ الشرعُ أن يُتَوَصَّل إليه بالرفق وبالعنف، فسلوكُ طريق الرِّفق أولى لما يحصل عليه من الثَّناء على فاعله بحُسْن الخُلُق، ولما يترتَّبُ عليه من حُسْن الأعمال، وكمال منفعتها، ولهذا أشار ﷺ بقوله: «ما كان الرفقُ في شيءٍ إلا زانه». وضدُّه الخُرْق والاستعجال، وهو مُفْسِدٌ للأعمال، وموجبٌ لسوء الأحدوثة، وهو المعبَّر عنه بقوله: «ولا نُزِع من شيءٍ إلا شَانَهُ». أي: عَابَهُ، وكان له شيناً. وأما الخُرْق والعنف: فمُفَوِّتان مصالح الدنيا، وقد يفضيان إلى تفويت ثوابِ الآخرة؛ ولذلك قال ﷺ: «من يُحرمِ الرفقَ يُحرم الخير». أي: يفضي ذلك به إلى أن يُحْرَم خَيْرَ الدُّنيا والآخرة.

الخُرْق مُفْسِدٌ للأعمال

* * *

(٢٠) بـــاب
لا ينبغي للمؤمن أن يكون لَعاناً
والتغليظ على من لعن بهيمة

[٢٥٠٣] عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لا يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أَنْ يكونَ لَعَّاناً».

رواه مسلم (٢٥٩٧).

---

(٢٠) ومن بـــاب قوله: لا ينبغي للمؤمن أن يكون لعاناً

معنى اللعن لغةً وشرعاً

قد تقدَّم: أن أصلَ اللَّعْن والطرد والبعد، وهو في الشرع: البعد عن رحمة الله تعالى وثوابه إلى نار الله وعقابه، وأنَّ لعنَ المؤمن كبيرةٌ من الكبائر؛ إذ قد قال ﷺ: «لعن المؤمن كقتله»(١).

و (قوله: «لا ينبغي لصدِّيق أن يكون لعَّاناً») صدِّيق: فعِّيل: وهو الكثير الصدق والتصديق، كما قد تقرَّر في صفة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ واللَّعَّان: الكثير اللَّعن. ومعنى هذا الحديث: أن من كان صادقاً في أقواله وأفعاله مُصدِّقاً بمعنى اللعنة الشرعية، [لم تكن كثرة اللعن من خُلُقه، لأنه إذا لعنَ من لا يستحقُّ اللعنة الشرعية](٢)، فقد دعا عليه بأن يُبعدَ من رحمة الله وجنَّته، ويدخلَ في ناره وسخطه. والإكثار من هذا يُناقض أوصافَ الصِّدِّيقين؛ فإن من أعظم صفاتهم الشفقة، والرحمة للحيوان مطلقاً، وخصوصاً بني آدم، وخصوصاً المؤمن؛ فإن المؤمنين كالجسد الواحد، وكالبنيان لما تقدَّم، فكيف يليقُ أن يُدعى عليهم باللعنة التي معناها الهلاك والخلود في نار الآخرة. فمن كثر منه اللَّعْن فقد سُلب منصبَ

سَلْبُ منصب الصِّدِّيقيَّة

(١) رواه البخاري (٦١٠٥)، ومسلم (١١٠).

(٢) ما بين حاصرتين ساقط من (ع).

[٢٥٠٤] وعَن أبي الدرداء، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يكون اللعانون شفعاءَ، ولا شهداء يَوْمَ القيامة».

رواه مسلم (٢٥٩٨) (٨٥ ـ ٨٦)، وأبو داود (٤٩٠٧).

[٢٥٠٥] وعن عمرانَ بن حصينٍ، قال: بينما رسولُ الله ﷺ في بعض أسفارِه وامرأةٌ من الأنصار على ناقةٍ، فضَجرتْ، فلعنَتْها، فسمع ذلك رسولُ الله ﷺ فقال: «خذوا مَا عَلَيْها ودَعوها، فإنَّها مَلْعُونَةٌ». قال عمران: فكأنِّي أرَاها الآن ناقةً ورقاءَ تمشي في النَّاس، ما يَعْرض لها أحدٌ».

رواه أحمد (٤/٤٢٩)، ومسلم (٢٥٩٥) (٨٠ و ٨١)، وأبو داود (٢٥٦١).

الصدِّيقيَّة، ومن سُلبَه فقد سُلبَ منصبَ الشفاعة، والشهادة الأخرويَّة، كما قال: «لا يكونُ اللَّعَّانُون شفعاءَ، ولا شهداءَ يوم القيامة». وإنما خَصَّ اللَّعان بالذكر ولم يقل: اللَّاعن، لأن الصِّدِّيق قد يلعنُ مَن أمره الشرعُ بلعنه، وقد يقعُ منه اللَّعْن فلتةً ونُدرة، ثم يُراجع، وذلك لا يخرجُه عن الصدِّيقيَّة، ولا يُفهم من نسبتنا الصِّدِّيقيَّة لغير أبي بكر مساواة غير أبي بكر، لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ في صدِّيقيَّته؛ فإن ذلك باطل بما قد عُلم: أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ أفضلُ الناس بعد رسول الله ﷺ على ما تقدَّم؛ لكنْ: المؤمنون الذين ليسوا بلعّانين لهم حظٌّ من تلك الصدِّيقيَّة، ثم هم متفاوتون فيها على حسب ما قسم لهم منها، والله تعالى أعلم.

و (قوله ﷺ في الناقة المدعو عليها باللَّعنة: «خذوا ما عليها فإنها ملعونة») حملَه بعض النَّاس على ظاهره، فقال: أطلع الله تعالى نبيَّه ﷺ على أن هذه الناقة قد لعنَها الله تعالى، وقد استجيب لصاحبتها فيها؛ فإن أرادَ هذا القائل: أنَّ الله تعالى لعنَ هذه الناقة كما يلعنُ من استحقَّ اللَّعنة من المكلَّفين كان ذلك باطلاً؛ إذ الناقة ليست بمكلَّفة، وأيضاً فإن الناقة لم يصدرْ منها ما يُوجب لَعْنَها، وإن أراد

[٢٥٠٦] وعن أبي برزة الأسلميِّ، قال: بينما جاريةٌ على ناقةٍ عليها بعضُ متاعِ القومِ، إذْ بَصُرَتْ بالنَّبيِّ ﷺ، وتضايَقَ بهمُ الجبلُ، فقالت: حَلْ! اللَّهُم العنها! قال: فقال النبيّ ﷺ: «لا تُصَاحِبُنا ناقَةٌ عليها لعنةٌ».

وفي روايةٍ: «لا، اَيم الله، لا تصاحبُنا!».

رواه أحمد (٤/ ٤٢١)، ومسلم (٢٥٩٦) (٨٢ و ٨٣).

* * *

أن هذه اللَّعنة: إنما هي عبارة عن إبعاد هذه الناقة عن مالكتها، وعن استخدامها إياها فتلك اللعنة إنما ترجع لصاحبتها؛ إذ قد حيل بينها وبين مَالِهَا، ومنعت الانتفاع به، لا للناقة، لأنها قد استراحت من ثقل الحمل وكدِّ السير، فإن قيل: فلعل معنى لعنة الله الناقة أن تُترَكَ ألاَّ يتعرَّض لهـا أحد، فالجواب: أن معنى ترك الناس لها إنما هو أنهم لم يُؤوها إلى رحالهم، ولا استعملوها في حمل أثقالهم، فأما أن يتركوها في غير مرعى، ومن غير علفٍ حتى تهلكَ فليس في الحديث ما يدلُّ عليه. ثم هو مخالف لقاعدة الشرع في الأمر بالرِّفق بالبهائم، والنهي عن تعذيبها، وإنما كان هذا منه ﷺ تأديباً لصاحبتها، وعقوبة لها فيما دعت عليها بما دعت به. ويُستفاد منه: جواز العقوبة في المال لمن جنى فيه بما يُناسب ذلك، والله تعالى أعلم. والورقاء: التي يُخالط بياضَها سوادٌ، والذَّكَرُ أورق.

جواز العقوبة في المال

و (قوله: فقالت: حَلْ) هي كلمةٌ تُزجر بها الإبل، يُقال: حَلْ! حَلْ! بسكون اللام ويُقال: حَلٍ! حَلٍ! بكسر اللام فيهما منوّنة، وغير منوّنة.

* * *

(٢١) بـــاب
لم يبعث النبي ﷺ لعَّاناً وإنما بُعِثَ رحمةً، وما جاء من أنَّ دعاءه على المسلم أو سبَّه له طهور وزكاة ورحمة

[٢٥٠٧] عَن أبي هريرة، قال: قيل لرسول الله ﷺ: ادعُ على المشركين، قال: «إنِّي لم أُبعَثْ لعَّاناً، وإنَّما بُعِثْتُ رَحْمةً!».

رواه مسلم (٢٥٩٩).

[(٢١) ومن بـــاب: لم يُبعث النبيُّ ﷺ لعَّناً وإنما بُعِث رحمة][1]

لم يُبعَثْ ﷺ لعّاناً

(قوله ﷺ: «إني لم أُبعثْ لعّاناً، وإنما بُعِثْتُ رحمة») كان هذا منه ﷺ بعد دعائه على رعلٍ، وذكوان، وعصية الذين قتلوا أصحابَه ببئر معونة، فأقام النبيُّ ﷺ شهراً يدعو عليهم، ويلعنهم في آخر كلِّ صلاةٍ من الصَّلوات الخمس يقنتُ بذلك حتى نزل عليه جبريلُ فقال: «إن الله تعالى لم يبعثك لعّاناً ولا سَبّاباً، وإنما بعثك رحمةً، ولم يبعثْك عذاباً» ثم أنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]» على ما خرَّجه أبو داود في مراسيله[2] من حديث خالد بن أبي عمران، وفي الصحيحين ما يؤيِّدُ ذلك، ويشهدُ بصحته.

بُعِث ﷺ رحمةً للعالمين

و (قوله: «إنَّما بُعِثْتُ رحمة» هذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، أي: بالرسالة العامة، والإرشاد للهداية، والاجتهاد في التبليغ، والمبالغة في النصح، والحرص على إيمان الجميع، وبالصبر على جفائهم، وترك الدُّعاء عليهم؛ إذ لو دعا عليهم لهلكوا. وهذه الرحمةُ يشتركُ فيها

---

(١) هذا العنوان لم يرد في نسخ المفهم جميعها، واستدركناه من التلخيص.

(٢) رواه أبو داود في المراسيل رقم (٨٩)، والبيهقي (٢/ ٢١٠).

[٢٥٠٨] وعن عائشة، قالت: دخل على رسولِ اللَّهِ ﷺ رجلانِ، فكلَّماهُ بشيءٍ لا أدري ما هُوَ! وأغضباه، فلعنهما، وسَبَّهما، فلمَّا خَرَجا قُلتُ: يا رسول الله! لَمَنْ أصابَ مِن الخيرِ شيئاً ما أصابَهُ هذان! قال: «وما ذاك؟» قالتْ: قلتُ: لَعَنْتَهُما، وسَبَبْتَهُما! قال: «أَوَما عَلمتِ ما شارَطْتُ عليه رَبِّي؟! قلتُ: اللَّهم! إنَّما أنا بَشَرٌ، فأيُّ المسلمين لعنتُه، أو سببتُه فاجْعَلْه له زكاةً وأجراً».

رواه مسلم (٢٦٠٠) (٨٨).

المؤمنُ والكافر، أما رحمتُه الخاصَّةُ فلمن هداه اللَّهُ تعالى، ونوَّر قلبَه بالإيمان، وزيَّن جوارحَه بالطاعة، كما قال تعالى: ﴿ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فهذا هو المغمورُ برحمة الله، المعدود في زمرة الكائنين معه في مستقرّ كرامته، جَعَلَنا اللَّهُ منهم، ولا حال بيننا وبينهم.

و (قوله: لَمَنْ أصاب من الخير شيئاً ما أصابه هذان) هذا الكلامُ من السَّهل الممتنع، وذلك أنَّ معناه أنَّ هذين الرَّجلين ما أصابا منكَ خيراً، وإن كان غيرُهما قد أصابه، لكن تنزيل هذا المعنى على أفرادِ ذلك الكلام: فيه صعوبةٌ، ووجهُ التَّنزيل يتبيَّنُ بالإعراب، وهو أنَّ اللامَ في لَمَنْ. هي: لام الابتداء، وهي متضمنة للقسم، ومَن: موصولة في موضع رفع بالابتداء، وصلتها: أصاب، وعائدها: المضمر في أصاب، وما بعدها متعلق به، وخبره محذوف تقديره: واللَّهِ لرجل أصاب منك خيراً: فائز أو ناج. ثم نفى عن هذين الرَّجلين إصابةَ ذلك الخير بقوله: ما أصابه هذان، ولا يصح أن يكون ما أصابه خبراً لـ (مَنْ) المبتدأ لخلوها عن عائد يعود على نفس المبتدأ، وأما الضمير في أصابه فهو للخير، لا لمن، فتأمله يصحَّ لك ما قلناه، والله تعالى أعلم.

محمد ﷺ بشرٌ يغضب كغيره

و (قوله: «اللهم! إني بشرٌ أغضبُ كما يغضبُ البشر، فأيّ المسلمين لعنتُه، أو سببتُه، أو جَلَدْتُه، فاجعل ذلك له كفَّارةً ورحمة») ظاهرُ هذا: أنه خاف أن

[٢٥٠٩] وعن أبي هريرة: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «اللهم! إنّي أتّخذُ عندكَ عهداً لَنْ تُخْلِفَنيه، فإنَّما أنا بشرٌ، فأيُّ المؤمنين آذيْتُهُ، شتمتُه، لعنتُهُ، جَلَدْتُه، فاجعلها لَه صلاةً وزكاةً».

يصدرَ عنه في حال غضبه شيء من تلك الأمور فيتعلَّق به حقُّ مسلم، فدعا اللّهَ تعالى، ورغب إليه في أنه: إن وقع منه شيء من ذلك لغير مستحقّ في ألّا يفعل بالمدعو عليه مقتضى ظاهر ذلك الدعاء، وأن يُعوِّضه من ذلك مغفرةً لذنوبه، ورفعة في درجاته، فأجاب اللّهُ تعالى طَلِبةَ نبيِّه ﷺ وَوَعَدَهُ بذلك، فلزم ذلك بوعده الصدق، وقوله الحق، وعن هذا عبَّر النبيُّ ﷺ بقوله: «شارطت ربِّي»، و «شرط عليَّ ربِّي»، و «اتخذت عنده عهداً لن يخلفنيه» لا أن الله تعالى يُشْتَرط عليه شرط، ولا يجبُ عليه لأحدٍ حقّ، بل: ذلك كلُّه بمقتضى فَضْلِه، وكَرَمه على حسب ما سبق في علمه. فإن قيل: فكيف يجوز أن يصدرَ من النبيِّ ﷺ لعنٌ، أو سبٌّ، أو جلدٌ لغير مستحقه، وهو معصومٌ من مثل ذلك في الغضب، والرِّضا؛ لأن كل ذلك محرَّم وكبيرة، والأنبياء معصومون عن الكبائر، إما بدليل العقل، أو بدليل الإجماعِ كما تقدَّم؟

قلتُ: قد أشكل هذا على العلماء، وراموا التخلُّصَ من ذلك بأوجهٍ مُتعدِّدة، أوضحها وجهٌ واحد، وهو: أنَّ النبيَّ ﷺ إنما يغضبُ لما يرى من المغضوب عليه من مخالفة الشرع، فغضبُه لله تعالى لا لنفسه؛ فإنه ما كان يغضبُ لنفسه، ولا ينتقمُ لها، وقد قرَّرنا في الأصول: أن الظاهر من غضبه تحريمُ الفعل المغضوب من أجله. وعلى هذا فيجوزُ له: أن يُؤدِّبَ المخالفَ له باللعن والسَّبِّ والجَلْد والدُّعاء عليه بالمكروه، وذلك بحسب مخالفة المخالِف، غير أنَّ ذلك المخالفَ قد يكون ما صَدَر منه فلتة أوجبتها غفلة، أو غلبة نفس، أو شيطان، وله فيما بينه وبين الله تعالى عملٌ خالص، وحالٌ صادق يدفع اللّهُ عنه بسبب ذلك أثر ما صدر عن النَّبيِّ ﷺ له من ذلك القول، أو الفعل. وعن هذا عبَّر النبيُّ ﷺ بقوله: «فأيما أحدٍ دعوتُ عليه مِن أمتي بدعوةٍ ليس لها بأهلٍ أن تجعلها له طهوراً،

غضبه ﷺ

وفي روايةٍ: «ورحمةً، وقربةً تقربه بها إليك يوم القيامة».

وفي روايةٍ: «اللَّهم! إنَّما محمدٌ بَشَرٌ، يَغضبُ كما يغضبُ البشرُ»، وفيها: «فاجعلها لَهُ كفارةً، وقربة تقرِّبه بها». وذكره. قال أبو الزناد: جَلدُّه لغة أبي هريرة.

رواه أحمد (٢/ ٣١٦)، والبخاريُّ (٦٣٦١)، ومسلم (٢٦٠١) (٨٩ و ٩٠ و ٩١).

[٢٥١٠] وعن أنسِ بن مالك، قال: كانت عند أمِّ سُلَيْمٍ يتيمةٌ ـ وهي أمُّ أنسٍ ـ فرأى رسولُ الله ﷺ اليتيمة فقال: «آنتِ هِيَهْ؟ لقدْ كبرتِ لا كبِر سِنُّكِ». فرجعت اليتيمةُ إلى أمِّ سُليمٍ تبكي! فقالت أم سليم: ما لك يا بُنيَّة؟

وزكاةً، وقُرْبة تقرِّبُه بها يوم القيامة» أي: عوّضه من تلك الدعوة بذلك، والله تعالى أعلم.

قلتُ: وقد يدخلُ في قوله: أيّما أحدٍ من أمتي دعوتُ عليه: الدعوات الجارية على اللسان من غير قَصْدٍ للوقوع، كقوله: «تربت يمينك»[١] و «عَقْرى حَلْقى»[٢]. ومن هذا النوع قوله لليتيمة: «لا كبر سنّك»؛ فإنَّ هذه لم تكن عن غضب، وهذه عادةٌ غالبةٌ في العرب يصلُون كلامَهم بهذه الدعوات، ويجعلونها دعاماً لكلامهم من غير قصد منهم لمعانيها، وقد قدَّمنا في كتاب الطهارة في هذا كلاماً للبديع، وهو من القول البديع. وبما ذكرناه يرتفعُ الإشكال، ويحصل الانفصال.

ووجهُ لغةِ أبي هريرة في: جَلَدُّه[٣]: أنه قَلَب التاء دالاً لقرب

(١) رواه أحمد (٣/ ٨٠)، والبزار (١٤٠٣)، والحاكم (٢/ ١٦١)، وأبو يعلى (١٠١٢).
(٢) رواه البخاري (١٥٦١)، ومسلم (١٢١١) (٣٨٧).
(٣) هي رواية في صحيح مسلم بإثر حديث (٢٦٠١) (٩٠).

قالت الجارية: دَعا عليّ رسول الله ﷺ أن لا يَكْبَرَ سنّي! فالآن لا يَكْبَرُ سنّي أبداً ـ أو قالت: قرني ـ فخرجت أمُّ سليم مستعجلةً تَلُوثُ خمارها، حتى لقيتْ رسول الله ﷺ، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما لكِ يا أمَّ سُلَيْمٍ؟» فقالت: يا نبي الله! أدعوت على يتيمتي؟ قال: «وما ذاك يا أمَّ سُلَيْمٍ؟» قالت: زعمتْ أنَّك دعوت ألا يَكْبَرَ سِنُّها، ولا يَكْبَر قرنُها! قال: فضحك

مخرجهما، ثم أدغم التاءَ في الدَّال، وهي على عكس اللغة المشهورة. فإنهم فيها قَلَبُوا الدالَ تاءً، وأدغموا الدال في التاء، وهو الأولى.

و (قوله ﷺ ليتيمة أمّ سليم: «آنتِ هِيَهْ، لقد كبرت، لا كَبِرَ سِنُّكِ!!») الهاء في هِيَهْ للوقف، فإذا وصلت حذفتها، وهذا الاستفهامُ على جهة التعجُّب، وكأنه ﷺ كان قد رآها صغيرة، ثم غابتْ عنه مدَّة فرآها قد طالت وعَبُلت[1]، فتعجَّب من سرعة ذلك فقال لها ذلك القولَ متعجباً، فوصل كلامَه بقوله: «لا كبر سنُّكِ» على ما قلناه من إطلاق ذلك القول من غير إرادة معناه. وهذا واضحٌ هنا، ويحتملُ أن يقال: إنما دعا عليها بأن لا يكبر سنُّها كبراً تعود به إلى أرذل العمر، كما كان النبيُّ ﷺ يتعوذ من أن يردَّ إلى أرذل العمر. والمعنى الأول أظهر من مساق بقية الحديث في اعتذارِه ﷺ عن ذلك.

و (قول اليتيمة: لا يكبر سني، أو قالت: قَرْني) هو بفتح القاف، وتعني به: السن، وهو شكٌّ عَرَض لبعض الرُّواة، وأصله: أنَّ مَن ساوى آخَرَ في سِنِّه كان قرن رأسه محاذياً لقرنه، وقرنُ الرأس: جانبه الأعلى، وهذا يدلُّ على: أنَّ إجابة دعوات رسول الله ﷺ كانت معلومةً بالمشاهدة عند كبارهم وصغارهم لكثرة ما كانوا يشاهدون من ذلك، ولعلمهم بمكانته ﷺ. وتلوثُ خمارَها: تُدِيرُه على رأسها وعُنُقها. والطَّهور ـ هنا ـ: هي الطهارةُ من الذُّنوب، وقد سمَّاها في الرواية

كان ﷺ مجاب الدعوة

---

(١) «عَبُلت»: ضخمت وابيضَّت، فهي عَبْلة. والعَبْلة من النساء: التامَّةُ الخَلْق.

رسول الله ﷺ، ثم قال: «يا أمَّ سليم! أما تعلمين شرطي على ربِّي: أنِّي اشترطت على ربي فقلت: إنَّما أنا بشرٌ أرضى كما يرضى البشر، وأغضبُ كما يغضبُ البشر، فأيُّما أحدٍ دعوتُ عليه من أمَّتي بدعوةٍ ليس لها بأهلٍ أن تجعلها له طهوراً، وزكاةً، وقربةً تقربه بها منه يوم القيامة».

وفي رواية: يُتَيِّمَةٌ ـ بالتَّصغير ـ في المواضع الثلاثة.

رواه مسلم (٢٦٠٣).

[٢٥١١] عن ابن عبَّاسٍ، قال: كنتُ ألعب مع الصِّبيان فجاء رسولُ الله ﷺ فتواريتُ خلف بابٍ، قال: فجاء فَحَطَأَنِي حَطْأَةً، وقال:

الأخرى: كفَّارة. والصلاة من الله تعالى: الرحمة، كما قد عبّر عنها في الرواية الأخرى. والزكاة: الزِّيادة في الأجر كما قد عبَّر عنها في الرواية الأخرى بالأجر. والقربة: ما يُقرِّب إلى الله تعالى وإلى رضوانه. وفيه ما يدلُّ على تأكُّد الشفقة على اليتيم، والذَّبِّ عنه، والحُنُوِّ عليه.

الشفقة على اليتيم

و (قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كنتُ ألعبُ مع الصِّبيان) دليلٌ على جواز تخلية الصَّغير للَّعب لتنشطَ نفسُه، وتتقوَّى أعضاؤه، وتتوقَّح رجلاه، أي: تتصلَّب.

تخلية الصغير للَّعب

و (قوله: فجاء رسولُ الله ﷺ فتواريتُ خَلْفَ باب) أي: اختفيتُ بالباب، وكأنه استحى من النبيِّ ﷺ وهابه.

و (قوله: فَحَطَأني حَطْأَةً) فسَّره أمية بن خالد بقفدني قفدة، وكلاهما يحتاجُ إلى تفسير، فأما حَطَأني: فهو بالحاء المهملة، وبالهمزة على قول شَمِر، وهو المحكيُّ في الصِّحاح، وهكذا قيَّده أهلُ الإتقان والضَّبط، وهو أن تضربَ بيدك مبسوطةً في القفا، أو بين الكتفين، وجاء به الهرويُّ غير مهموزٍ في باب الحاء،

«اذهب ادع لي معاوية»، قال: فجئتُ، فقلت: هو يأكل. قال: ثم قال لي: «اذهب فادع لي معاوية». قال: فجئت، فقلت: هو يأكل. فقال: «لا أشْبَعَ الله بَطْنَه».

قال ابن المثنى: قلت لأميَّة: ما حَطَأنِي؟ قال: قَفَدَنِي قَفْدَةً.

رواه أحمد (١/ ٣٣٥)، ومسلم (٢٦٠٤) (٩٦).

* * *

والطاء، والواو، وقال ابنُ الأعرابي: الحطو: تحريك الشيء متزعزعاً. وأما القفد ـ بتقديم القاف على الفاء ـ فالمعروف عند اللغويين أنه: المشيُ على صدور القدمين من قبل الأصابع، ولا تبلغ عقباه الأرض. يقال: رجل أقفد، وامرأة قفداء، هو القَفَد ـ بفتح القاف والفاء ـ.

قلتُ: ولم أجدْ قفدني بمعنى حَطَأني إلا في تفسير أمية هذا. وهذا الضربُ من النبيِّ ﷺ لابن عباس تأديبٌ له، ولعله: لأجل اختفائه منه إذ كان حقُّه أن يجيءَ إليه، ولا يفرَّ منه. ويحتمل أن يكون هذا الضرب بعد أن أمره أن يدعوَ له معاوية، فلم يؤكِّدْ على معاوية الدعوةَ، وتراخى في ذلك، ألاَ ترى قولَه في المرتين: هو يأكل، ولم يزدْ على ذلك، وكان حقُّه في المرة الثانية ألَّا يفارقَه حتى يأتي به، والله تعالى أعلم. ففيه تأديب الصغار بالضرب الخفيف الذي يليق بهم، وبحسب ما يصدر عنه.

تأديب الصغار

و (قوله: «ادع لي معاوية») فيه استعمال الصغير فيما يليق بهم من الأعمال.

و (قوله: «لا أشبع الله بطنه») يحتملُ أن يكونَ من نوع: «لا كَبُر سنُّك» كما قلناه، على تقدير: أن يكون معاويةُ من الأكل في أمر كان معذوراً به من شدَّة الجوع، أو مخافة فساد الطعام، أو غير ذلك، وهذا المعنى تأوُّلُ من أدخل هذا الحديث في مناقب معاوية، فكأنه كنَّى به عن أنه دعا عليه بسبب أمرٍ كان معذوراً

(٢٢) بـــاب
ما ذكر في ذي الوجهين وفي النميمة

[٢٥١٢] عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ من شرِّ النَّاسِ ذا الوجهين؛ الذي يأتي هؤلاء بوجهٍ وهؤلاء بوجهٍ».

وفي روايةٍ: «تجدونَ من شرِّ النَّاس ذا الوجهين» نحوه.

رواه مسلم (٢٥٢٦) في البر والصلة (٩٨ و ١٠٠).

به، فحصل له من دُعاء النبيِّ ﷺ الكفَّارةُ والرحمة والقربة إلى الله تعالى التي دعا بها النبيُّ ﷺ كما ذكرناه. ويحتمل: أن يكونَ هذا الدعاءُ من النبيِّ ﷺ على حقيقته أدَباً لمعاوية على تثبُّطه في إجابة دعوة النَّبيِّ ﷺ. وإجابة دعوته ﷺ واجبةٌ على الفور، بدليل حديث أُبيٍّ الذي أنكر عليه في ترك إجابته، وكان أُبيٌّ في الصلاة.

(٢٢ و ٢٣) ومن بـــاب: ما ذُكِر في ذي الوجهين وفي النميمة والتَّحذير من الكذب[١]

ذو الوجهين من شرِّ الناس

(قوله: «إنَّ من شرِّ الناس ذي الوجهين») يعني به الذي يدخلُ بين الناس بالشَّرِّ والفساد، ويواجه كلَّ طائفة بما يتوجَّه به عندها مما يُرْضيها من الشَّرِّ، فإن رَفع حديثَ أحدهما إلى الآخر على جهة الشرِّ: فهو ذو الوجهين النَّمَّام، وأما من كان ذا وَجْهين في الإصلاح بين الناس، فيواجه كلَّ طائفة بوجه خيرٍ، وقال لكلِّ واحدةٍ منهما من الخير خلافَ ما يقول للأخرى، فهو الذي يُسمَّى: بالمصلح، وفِعْله ذلك يُسمَّى: الإصلاح؛ وإن كان كاذباً؛ لقوله ﷺ: «ليس الكذابُ الذي يصلحُ بين الناس فيقول خيراً، وينمي خيراً».

---

(١) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ في المفهم تحت هذا العنوان: هذا الباب، والباب الذي يليه، وهو: باب الأمر بالصدق والتحذير عن الكذب وما يُباح فيه.

[٢٥١٣] وعن عبد الله بن مسعود، قال: إنَّ محمداً ﷺ قال: «ألا أنبئكم ما العَضْهُ؟ هي النميمة، القالة بين الناس». وإنَّ محمَّداً ﷺ قال: «إنَّ الرجلَ يَصْدُق حتى يُكْتَبَ صدِّيقاً، ويكذبُ حتى يُكْتَب كذَّاباً».

رواه مسلم (٢٦٠٦) (١٠٢).

* * *

(٢٣) بـــاب
الأمر بالصِّدق والتحذير عن الكَذِب وما يباحُ منه

[٢٥١٤] عن عبد الله بن مسعودٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصِّدق، فإنْ الصِّدق يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّة، وما يزال الرَّجل يصدُق ويتحرَّى الصِّدقَ حتى يكتبَ عند الله صدِّيقاً وإيَّاكم والكذب؛

تعريف العَضْه

و (قوله: «ألا أُنبِّئكم ما العَضه؟») هكذا أذكر أني قرأتُه بفتح العين، وإسكان الضاد والهاء، وهذا عند الجيَّاني، وهو مصدر عضهـــه يعضهه عضهاً: إذا رماه بكذب وبهتان، وقد رواه أكثرُ الشيوخ ما العِضة ـ بكسر العين وفتح الضاد والتاء المنقلبة في الوقف هاءً ـ وهي أصوب؛ لأنَّ العِضَةَ اسم، والنميمةُ: اسم، فصحَّ تفسيرُ الاسم بالاسم، والعضه مصدره، ولا يحسنُ تفسيرُ المصدر بالاسم. فالروايةُ الثَّانية أولى، والذي يُبيِّن لك أن العضه اسم ما قاله الكسائي: قال: العضه: الكذب والبهتان، وجمعها عضون مثل: عزه وعزين، وقد بيَّنا أن العِضة: المصدر، فصح ما قلناه، وقد تقدَّم القولُ في حُكْم ذي الوجهين والنَّمَّام، وقد فسَّر النبيُّ ﷺ العِضة بالنَّميمة؛ لأنَّ النميمةَ لا تنفكُّ عن الكذب والبهتان غالباً.

و (قوله: «عليكم بالصِّدق؛ فإنَّ الصدقَ يهدي إلى البِرِّ؛ وإن البِرَّ يهدي إلى الجنة، وإيَّاكم والكذب. . .» الحديث) يهدي: يرشد ويوصل، والبرّ: العمل

فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفُجورِ، وإنَّ الفجور يهدي إلى النَّار، وما يزال الرَّجلُ يكذبُ ويتحرَّى الكذِبَ حتى يُكتبَ عند الله كذَّاباً».

رواه أحمد (١/٣٨٤)، والبخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) (١٠٥)، والترمذيُّ (١٩٧١)، وابن ماجه (٤٦).

[٢٥١٥] وعن أمِّ كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْطٍ ـ وكانت من المهاجرات الأُوَل اللاتي بايعْنَ رسول الله ﷺ ـ أنَّها سمعت رسول الله ﷺ ـ وهو يقول: «ليس الكذَّابُ الذي يُصْلِح بين النَّاس خيراً، ويقول خيراً، ويَنْمِي خيراً».

وفي روايةٍ: قالت: ولم أسمعه يرخص في شيءٍ مما يقولُ النَّاس

الصالح أو الجنة كما قدَّمناه. والفجورُ: الأعمالُ السَّيِّئة. وعليكم من ألفاظ الإعزاء المصرِّحة بالإلزام، فحقٌّ على كل مَن فهم عن الله تعالى أن يلازمَ الصِّدْقَ في الأقوال، والإخلاص في الأعمال، والصفاء في الأحوال، فمن كان كذلك لحق بالأبرار، ووصل إلى رضا الغفّار. وقد أرشد اللَّهُ تعالى إلى ذلك كلِّه بقوله عند ذكر أحوال الثلاثة التائبين[1] فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]. والقولُ في الكذب المحذَّر عنه على الضدِّ من القول في الصدق، وقد تقدَّم القول في البر والفجور والهدى.

ملازمة الصدق

و (قول أم كلثوم: ولم أسمعه يرخِّصُ في شيءٍ مما يقوله الناس إلا في ثلاث) تعني بذلك: أنه لم يُرخِّص في شيءٍ مما يكذب الناس فيه إلا في هذه الثلاث، وقد جاءَ لفظ الكذب نصّاً في كتاب الترمذي. من حديث أسماء بنت

(١) هم كعب بن مالك ومرارة بن ربيعة وهلال بن أمية الواقفي. وكلُّهم من الأنصار. وانظر قصتهم في تفسير القرطبي (٨/ ٢٨٢).

كذبٌ إلا في ثلاثٍ؛ «الحربُ، والإصلاح بين الناس، وحديث الرَّجل امْرأتَهُ، وحديث المرأة زوجها».

وقد روى مسلم هذا من كلام ابن شهاب.

ما رُخِّص فيه الكذب

يزيد، قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ الكذبُ إلا في ثلاث: يُحدِّث الرجل امرأتَه ليرضيَها، والكذب في الحرب، والكذبُ ليُصلحَ بين الناس»[1]. فهذه الأحاديث قد أفادت: أن الكذبَ كلَّه محرَّمٌ لا يحل منه شيءٌ إلا هذه الثلاثة؛ فإنه رخَّص فيها لما يحصل بذلك من المصالح، ويندفعُ به من المفاسد، والأوْلى: ألا يكذب في هذه الثلاثة؛ إذا وجدَ عنه مندوحة؛ فإن لم تُوجد المندوحة أُعملتِ الرُّخصة. وقد يجبُ ذلك بحسب الحاجة إلى تلك المصلحة، والضرورة إلى دفع تلك المفسدة، وما ذكرته هو ـ إن شاء الله ـ مذهب أكثر العلماء، وقد ذهبَ

ما ذهب إليه الطبري في الكذب المرخَّص به

الطبريُّ إلى أنه لا يجوز الكذب الصريح بشيءٍ من الأشياء لا في هذه الثلاثة، ولا في غيرها مُتمسِّكاً بالقاعدة الكلية في تحريمه، وتأوَّل هذه الأحاديث على التورية والتعريض، وهو تأويل لا يعضدُه دليل، ولا تعارضَ بين العموم والخصوص كما هو عن العلماء منصوصٌ. وأما كذبةٌ تنجي ميِّتاً، أولياً، أو أمماً، أو مظلوماً ممن يُريد ظلمه، فذلك لا تختلف في وجوبه أمة من الأمم، لا العرب، ولا العجم.

وجوب تحرّي الصدق

و (قوله: «إن الرجلَ لا يزالُ يصدق، ويتحرَّى الصِّدْقَ حتى يُكتبَ عند الله صِدِّيقاً») يتحرى الصدق يقصدُ إليه ويتوخّاه، ويجتنب نقيضَه الذي هو الكذب، حتى يكون الصِّدْق غالبَ حاله، فيكتب من جملة الصدِّيقين، ويثبتُ في ديوانهم، وكذلك القول في الكذب. وأصل الكَتْب: الضم والجمع، ومنه: كتبتُ البغلةَ: إذا جمعتَ بين شُفْرَيْها بحَلْقة.

---

(١) رواه الترمذي (١٩٣٩).

رواه أحمد (٦/ ٤٠٣)، والبخاريُّ (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥)، وأبو داود (٢٩٢٠ و ٢٩٢١)، والترمذيُّ (١٩٣٨).

* * *

و (قوله: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢] جمعَه وثبَّته، و: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] أي: حكمَ وأوجب)، فكأنه جمع ما حكم به في المحكوم عليه، وكتبتُ الكتابَ: جمعت فيه المكتوبَ وثبَّتُّهُ، وقد تقدَّم القولُ في الصِّدِّيق. وخرَّج أبو مسعود الدمشقي حديثَ عبد الله بن مسعود هذا وزاد فيه: «وإن شرَّ الروايا روايا الكذب، وإن الكذبَ لا يصلحُ فيه جدٌّ ولا هزل، ولا يَعِدُ الرجل صاحبَه فيُخلفه». وذكر أبو مسعود: أن مُسلماً خرَّج هذه الزيادة، ولم تقع لنا هذه الزيادة، ولا لأحدٍ من أشياخنا فيما علمناه، وقال أبو عبد الله الحميدي: وليست عندنا. والروايا: جمع راوية، يعني به: حامل الكذب وراويه، والهاء فيه للمبالغة، كعلاَّمة ونسَّابة، أو يكون استعارة، شبَّه حاملَ الكذب لحمله إياه بالراوية الحاملة للماء. وفيه حجَّة للطبري في تحريمه الكذبَ مطلقاً وعموماً.

وجوب الوفاء بالوعد

وفيه ما يدلُّ على وجوب الوفاء بالوعد، ولو كان بالشيء الحقير مع الصبيِّ الصغير.

* * *

(٢٤) بـــاب
ما يقال عند الغضب
ومدح من يملك نفسه عنده

[٢٥١٦] عن سليمانَ بن صُرَدٍ، قال: استبَّ رجلانِ عند النَّبيِّ ﷺ؛ فجعل أحدُهما يغضبُ، ويحمرُّ وجهُه، وتنتفخ أوداجُه، فنظر إليه النَّبيُّ ﷺ فقال: «إنِّي لأعلم كلمةً لو قالها لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». فقام إلى الرَّجلِ رجلٌ سمع النبي ﷺ؛ فقال: أتدري ما قال

---

(٢٤) ومن بـــاب: ما يقال عند الغضب والنهي عن ضرب الوجه

(قوله ﷺ للغضبان: «إني لأعرفُ كلمةً لو قالها لذهبَ عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم») يدلُّ: على أن الشيطانَ له تأثير في تهييج الغضب، وزيادته حتى يحملَه على البطش بالمغضوب عليه، أو إتلافه، أو إتلاف نفسه، أو شرٍّ يفعلُه يستحقُّ به العقوبة في الدنيا والآخرة، فإذا تعوَّذ الغضبانُ بالله من الشيطان الرجيم، وصحَّ قصدُه لذلك فقد التجأ إلى الله تعالى، وقصدَه، واستجارَ به، والله تعالى أكرمُ من أن يخذلَ من استجارَ به، ولما جهلَ ذلك الرجل ذلك المعنى، وظنَّ أن الذي يحتاجُ إلى التَّعوُّذ إنما هو المجنون، فقال: أمجنوناً تراني؟ مُنكراً على من نبَّهه على ما يُصلحه، وراداً لما ينفعُه، وهذا من أقبح الجنون، والجنون فنون[١]، وكأنَّ هذا الرجلَ كان من جُفاة الأعراب الذين قلوبُهم من الفقه والفهم خراب.

أثر الشيطان في تهييج الغضب

و (قوله: «أتدرون ما تعدُّون الرَّقُوب فيكم» قال: قلنا: الذي لا يُولد له) الرقوب: فعول، وهو الكثير المراقبة، كضروب، وقتول، لكنه صار في عرف استعمالهم عبارة عن المرأة التي لا يعيشُ لها ولدٌ، كما قال عَبِيد بن الأبرص:

تعريف الرقوب

---

(١) هذه الجملة ليست في (ز).

رسول الله ﷺ آنفاً؟ قال: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». فقال له الرجل: أمجنوناً تراني؟!.

رواه أحمد (٦/ ٣٩٤)، والبخاريُّ (٣٢٨٢)، ومسلم (٢٦١٠) (١٠٩ و ١١٠)، وأبو داود (٤٧٨١).

.... كَـأَنَّهَـا شَيْخَـةٌ رَقُـوبُ[(١)]

قلـت: هذا نقل أهل اللغة، ولم يذكروا أن الرَّقوب يُقال على من لا يولد له، مع أنه قد كان معروفاً عند الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، ولذلك أجابوا به رسولَ الله ﷺ. والقياسُ يقتضيه؛ لأن الذي لا يُولد له يكثر ارتقابه للولد، وانتظاره له، ويطمع فيه إذا كان ممن يرتجى ذلك، كما يُقال على المرأة التي ترقب موت زوجها: رقوب. وللناقة التي ترقب الحوضَ فتنفر منه، ولا تقربُه: رقوب.

قلـتُ: ويحتمل أن يُحمل قولهم في الرقوب: إنه الذي لا يُولد له بعد فقد أولاده لوصوله من الكبر إلى حال لا يُولد له، فتجتمع عليه مصيبة الفقد ومصيبة اليأس، وهذا هو الأليق بمساق الحديث. ألا ترى قوله: «ليس ذلك الرقوب، ولكنَّه الرَّجل الذي لا يُقدِّمُ من ولده شيئاً» أي: هو أحقُّ باسم الرَّقوب من ذلك؛ لأن هذا الذي أُصيب بفقد أولاده في الدنيا ينجبر في الآخرة بما يُعوَّض على ذلك من الثواب، وأما من لم يمت له ولدٌ فيفقد في الآخرة ثوابَ فقد الولد. فهو أحقُّ باسم الرَّقوب من الأول، وقد صدرَ هذا الأسلوبُ من النبي ﷺ كثيراً، كقوله: «ليس المسكين بالطَّوَّافِ عليكم»[(٢)] و «ليس الشديدُ بالصُّرَعة» و «ليس الواصلُ بالمكافىء»[(٣)] ومثله كثير. ولم يُرد بهذا السَّلْب سَلْبَ الأصل. لكن سَلْبَ الأَوْلى

---

(١) هذا عجز بيت، وصدره: باتَتْ على إرَمٍ عذوباً.

(٢) رواه أحمد (٢/ ٤٥٧)، والبخاري (١٤٧٦)، ومسلم (١٠٣٩) (١٠٢)، وأبو داود (١٦٣١)، والنسائي (٥/ ٨٤ ـ ٨٥).

(٣) رواه البخاري (٥٩٩١)، وأبو داود (١٦٩٧)، والترمذي (١٩٠٩).

[٢٥١٧] وعن أنسٍ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لمَّا صوَّر الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليسُ يُطِيفُ به، ينظر ما هو! فلما رآه أجوف؛ عَرَفَ أنَّه خُلِقَ خلقاً لا يتمالك».

رواه أحمد (٣/ ١٥٢)، ومسلم (٢٦١١).

[٢٥١٨] وعن عبد الله بن مسعودٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تَعُدُّونَ الرَّقُوبَ فيكم؟» قال: قلنا: الذي لا يُولد له. قال: «ليس ذاك بالرَّقُوب، ولكنَّه الرَّجل الذي لم يُقدِّم من ولده شيئاً». قال: «ما تَعُدُّون الصُّرعةَ فيكم؟». قال: قلنا: الذي لا يَصْرَعُه الرِّجال. قال: «ليس بذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب».

رواه أحمد (١/ ٣٨٢)، ومسلم (٢٦٠٨)، وأبو داود (٤٧٧٩).

[٢٥١٩] وعن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «ليس الشَّديدُ بالصُّرَعَةِ إنَّما الشَّدِيدُ الذي يملك نفسَهُ عند الغضب».

رواه أحمد (٢/ ٢٣٦)، والبخاريُّ (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) (١٠٧).

* * *

والأحقَ، والصُّرَعة: بفتح الراء هو الذي يصرعُ الناس كثيراً، وبالسكون هو الذي يصرعُه الناس، وكذلك: هُزَأة وهُزْءَة، وسُخَرَة وسُخْرة، وقد تقدَّم.

و (قوله: «لما صوَّر الله تعالى آدم في الجنة تركَه ما شاء الله أن يتركَه») يعني: أن الله تعالى لما صوَّر طينة آدم، وشكَّلها بشكله على ما سبقَ في علمه فلما رآهَا إبليسُ أطافَ بها، أي: دارَ حولها، وجعلَ ينظر في كيفيَّتها وأمرها، فلما رآها

(٢٥) بـــاب
النَّهي عن ضرْب الوجه
وفي وعيد الذين يُعذِّبون النَّاس

[٢٥٢٠] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قاتل أحدُكم أخاه فلا يَلْطِمَنَّ الوجْهَ».

وفي روايةٍ: «إذا قاتل أحدُكم أخاه فليجْتَنِب الوجْهَ؛ فإنَّ الله خلق آدمَ على صورته».

رواه أحمـد (٢/ ٢٤٤)، والبخـاريُّ (٢٥٥٩)، ومسلـم (٢٦١٢) (١١٤ و ١١٥).

ذاتَ جَوْفٍ وقعَ له أنها مفتقرة إلى ما يسدُّ جوفَها، وأنها لا تتمالك عن تحصيل ما تحتاجُ إليه من أغراضها، وشهواتِها، فكان الأمرُ على ما وقع.

(٢٥) ومـن بـاب: إذا قاتل أحدُكم أخاه فلا يلطم الوجه

النهي عن لطم الوجه

(قوله: إذا قاتل أحدُكم أخاه، فلا يلطمنَّ الوجهَ». وفي الأخرى: «فليجتنب الوجهَ، فإن الله تعالى خلقَ آدمَ على صورته») معنى قاتل: ضرب، وقد جاء كذلك في بعض رواياته، وقد قلنا: إن أصل المقاتلة المدافعة، ويعني بالأخوّة هنا ـ والله أعلم ـ أخوة الآدميّة؛ فإن الناسَ كلَّهم بنو آدمَ، [ودلّ على ذلك قوله ﷺ: «فإن الله خلقَ آدم على صورته» أي: على صورة وجه المضروب، فكأن اللاَّطم في وجه أحد ولد آدم لطم وجه أبيه آدم][1]. وعلى هذا فيحرم لطم الوجه من المسلم والكافر، ولو أراد الأخوّة الدينية لما كان للتعليل بخلق آدم على صورته معنىً. لا يُقال: فكافر مأمور بقتله وضربه في أي عضو كان؛ إذ المقصودُ إتلافه، والمبالغة

(١) ما بين حاصرتين ساقط من (ع).

[٢٥٢١] وعن هشامِ بن حكيمِ بن حزامٍ: مرَّ على أُناس من الأنباط بالشام قد أقيموا في الشمس.

وفي روايةٍ: وصُبَّ على رؤوسهم الزَّيتُ. فقال: ما شأنهم؟ قال:

في الانتقام منه، ولا شكَّ في أن ضربَ الوجه أبلغُ في الانتقام والعقوبة، فلا يُمنع. وإنما مقصود الحديث: إكرام وجه المؤمن لحرمته؛ لأنا نقول: مُسَلَّمٌ أنَّا مأمورونَ بقتل الكافر، والمبالغة في الانتقام منه لكن إذا تمكَّنا من اجتناب وجهه اجتنباه لشرفيَّة هذا العضو؛ ولأن الشرعَ قد نزَّل هذا الوجهَ منزلة وجه أبينا. وتقبيح لطم الرجل وجهاً يُشبه وجه أبي اللَّاطم، وليس كذلك سائر الأعضاء؛ لأنها كلَّها تابعةٌ للوجه، وهذا الذي ذكرناه: هو ظاهرُ الحديث، ولا يكون في الحديث إشكال يُوهم في حقِّ الله تعالى تشبيهاً، وإنما أشكلَ ذلك على من أعادَ الضمير في صورته على الله تعالى، وذلك ينبغي ألا يصار إليه شرعاً، ولا عقلاً، أما العقل فيحيل الصورة الجسمية على الله تعالى، وأما الشرع فلم يَنُصَّ على ذلك نصاً قاطعاً، ومحال أن يكون ذلك، فإن النصَّ القاطع صادق، والصادق لا يقول المحال، فيتعيَّن عود الضمير على المضروب؛ لأنه هو الذي سبق الكلام لبيان حكمه. وقد أعادت المشبِّهة هذا الضمير على الله تعالى، فالتزموا القولَ بالتجسيم، وذلك نتيجة العقل السقيم، والجهل الصميم، وقد بيَّنا جهلَهم، وحقَّقنا كفرهم فيما تقدَّم، ولو سلَّمنا: أن الضمير عائد على الله تعالى، فللتأويل فيه وجه صحيح، وهو أن الصُّورة قد تُطلق بمعنى الصِّفة، كما يُقال: صورة هذه المسألة كذا، أي: صفتها، وصَوَّر لي فلان كذا فتصوَّرته، أي: وصفه لي ففهمته، وضبطتُ وصفه في نفسي، وعلى هذا فيكون معنى قوله: «إن الله خلق آدمَ على صورته» أي: خلقه موصوفاً بالعلم الذي فصلَ به بينه وبين جميع أصناف الحيوانات، وخصَّه منه بما لم يخصَّ به أحداً من ملائكة الأرضين والسَّموات، وقد قلنا فيما تقدَّم: إن التسليم في المتشابهات أسلم، والله ورسوله أعلم. والأنباط: جمع نَبَط، وهم قوم ينزلون

إكرام وجه المؤمن لحرمته

استحالة الصورة الجسمية على الله

العلم هو الفيصل بين الإنسان والحيوان

يحبسون في الجزية. قال هشام: أشهدُ لَسَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله يُعَذِّبُ الذين يُعَذِّبُون النَّاس في الدنيا».

وفي روايةٍ: وأميرهم يومئذٍ عُمَيْرُ بنُ سعدٍ على فلسطين، فدخل عليه، فحدَّثه، فأمر بهم فَخُلُّوا.

رواه أحمد (٣/٤٠٣)، ومسلم (٢٦١٣) (١١٧ و ١١٨ و ١١٩)، وأبو داود (٣٠٤٥).

بالبطائح بين العراقين، سمُّوا بذلك لأنهم ينبطون الماء، أي: يَحفِرون عليه حتى يخرجَ على وجه الأرض. يقال: نبطَ الماء يَنبُط وينبِط: إذا نبعَ، وأنبطَ الحَفَّار الماءَ إذا بلغ إليه، والاستنباط: استخراج العلوم، ويُقال على النَّبَط: نبيط أيضاً، وكانوا إذ ذاك أهلَ ذمَّةٍ، ولذلك عُذِّبوا بالشمس، وصُبَّ الزيت على رؤوسهم لأجل الجزية، وكأنهم امتنعوا من الجزية مع التمكُّن، فعُوقبوا لذلك، فأما مع تبيُّن عجزهم، فلا تحلُّ عقوبتهم بذلك، ولا بغيره؛ لأن من عجزَ عن الجزية سقطت عنه.

الله يُعذِّب مَن يُعذِّب الناس

و (قوله: «إن الله يُعذِّب الذين يُعذِّبون الناسَ في الدنيا») يعني: إذا عذَّبوهم ظالمين، إما في أصل التعذيب فيعذبونهم في موضع لا يجوز فيه التعذيب، أو بزيادة على المشروع في التعذيب: إما في المقدار، وإما في الصِّفة، كما بيَّناه في الحدود.

من هو عمير بن سعد؟

و (قوله: وأميرُهم يومئذ عُمير بن سعد) كذا صحَّت الرواية عند أكثر الشيوخ، وفي أكثر النسخ، وهو الصواب؛ لأنه عُمير بن سعد بن عمر القارىء الأنصاريّ من بني عمرو بن عوف، يُكنى أبوه أبا زيد، وهو أحدُ من جمعَ القرآن، الذي تقدَّم ذكره في حديث أنس، الذي قال فيه أنس: أبو زيد أحدُ عمومتي، واختلف في اسم أبي زيد هذا، فقيل: سعد ـ كما تقدم ـ وهو الأعرف، وقيل: سعيد، وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ ولَّى عُميراً حمصَ وكان يُقال له: نسيجَ

[٢٥٢٢] وعن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنْ طالتْ بكَ مُدَّةٌ أوشكْتَ أن ترى قوماً يَغْدُون في سَخَطِ الله، ويروحون في لعنته، في أيديهم مِثْلُ أذنابِ البقر».

رواه مسلم (٢٨٥٧) في الجنة وصفة نعيمها (٥٤).

* * *

(٢٦) بـــاب
النَّهي أن يُشير الرجلُ بالسِّلاح على أخيه
والأمر بإمساك السِّلاح بنصولها

[٢٥٢٣] عن أبي هريرة، قال: قال أبو القاسم ﷺ: «من أشار إلى أخيه بحديدةٍ فإنَّ الملائكة تلعنُه، ....

وحده، ووقع في كتاب القاضي أبي عليٍّ الصَّدفيِّ: عمر بن سعيد. قال أهل النقل: وهو وهم، وأما عمرو بن سعيد فمعدود في الصحابة، وهو عمرو بن سعيد ربيب الجَلَّاس ويتيمه. حكاه القاضي أبو الفضل.

وأوشكتَ: أسرعت، ومعناه: أنك ترى عن قرب ما يُخبرك به. وقد تقدَّم القول في يوشك، وأنه من أفعال المقاربة، وفي القوم الذين بأيديهم سياط كأذناب البقر.

(٢٦ و ٢٧) ومن بـــاب: النهي عن الإشارة بالسلاح
وفضل تنحية الأذى عن الطريق[١]

(قوله: «من أشار إلى أخيه بحديدة، فإنَّ الملائكةَ تلعنُه حتى») كذا صحَّت

---

(١) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان ما أشكل في أحاديث بابَيْ التلخيص رقم (٢٦ و ٢٧).

حتَّى وإنْ كان أخاه لأبيه وأمه».

رواه أحمد (٢/ ٢٥٦)، ومسلم (٢٦١٦)، والترمذي (٢١٦٢).

[٢٥٢٤] وعنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُشر أحدكم إلى أخيه بالسِّلاحَ؛ فإنَّه لا يدري أحدُكم لعلَّ الشيطانَ يَنْزِغُ في يده، فيقع في حفرة من النار».

رواه أحمد (٢/ ٣١٧)، والبخاريُّ (٧٠٧٢)، ومسلم (٢٦١٧).

[٢٥٢٥] وعن جابرٍ، قال: مرَّ رجلٌ في المسجد بسهامٍ، فقال له رسول الله ﷺ: «أمْسِك بنصالها».

الروايةُ بالاقتصار على حتَّى، ولم يذكر المجرور بها استغناءً عنه لدلالة الكلام عليه، تقديره: حتى يترك، أو يدع، وما أشبهه، ووقع عند بعض الرواة بعد حتى: «وإن كان لأخيه وأمِّه». وعليه فيكون ما بعده ليس من كلام النبيِّ ﷺ. وسقطت لبعضهم يعني: فيكون ما بعده من قول النبيِّ ﷺ بحكم أنَّ مساقَ الكلام واحدٌ.

تحريم الإشارة بالسلاح

ولَعْن النبيِّ ﷺ للمشير بالسلاح: دليلٌ على تحريم ذلك مطلقاً، جدّاً كان أو هزلاً، ولا يخفى وَجْهُ لعن من تعمَّد ذلك؛ لأنه يريدُ قتلَ المسلم أو جَرْحه، وكلاهما كبيرة. وأما إن كان هازلاً؛ فلأنه ترويعُ مسلم، ولا يحل ترويعُه؛ ولأنه ذريعةٌ إلى القتل والجرح المحرَّمين. وقد نصَّ في الرواية الأخرى على صحَّة مراعاة الذَّريعة حيث قال: «فإنه لا يدري لعلَّ الشيطانَ ينزغُ في يده فيقع في حفرةٍ من النار».

و (قوله: «وإن كان أخاه لأبيه وأمه») يعني: أن ذلك محرَّم، وإنْ وقع من أشفق النَّاس عليه، وأقربهم رحماً، وهو يشعرُ بمنع الهزل بذلك. ونصال: جمع نصل، وهي ـ هنا ـ: حديدةُ السهم، وتكراره: «فليأخذْ بنصالها» ثلاث مرات على جهة التأكيد والمبالغة في سدّ الذريعة، وهو من جُملة ما استدلَّ به مالك ـ رحمه الله ـ على أصْله في سدّ الذرائع.

وفي روايةٍ: أنَّ رجلاً مرَّ بِأسهمٍ في المسجد قد أبدى نُصُولَها، فأُمِر أنْ يأخذَ بِنُصُولها كي لا يَخْدِش مسلماً.

وفي أخرى: أنَّه كان يتصدق بالنَّبل في المسجد.

رواه أحمد (٣/ ٣٠٨)، والبخاريُّ (٤٥١)، ومسلم (٢٦١٤) (١٢٠ ـ ١٢٢)، والنسائيُّ (٢/ ٤٩)، وابن ماجه (٣٧٧٧).

[٢٥٢٦] وعن أبي موسى، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إذا مرَّ أحدكم في مجلسٍ أو سوقٍ، وبيده نَبْلٌ؛ فليأخذْ بِنِصَالها، ثُمَّ لْيأخذْ بنصالها، ثم لْيأخذْ بنصالها».

وفي روايةٍ: «أن يُصيب أحداً من المسلمين منها بشيءٍ».

قال أبو موسى: والله ما مُتْنا حتى سدَّدناها، بعضُنا في وجوه بعضٍ.

رواه أحمد (٤/ ٤١٠)، والبخاريُّ (٧٠٧٥)، ومسلم (٢٦١٥) (١٢٣ و ١٢٤)، وأبو داود (٢٥٨٧)، وابن ماجه (٣٧٧٨).

* * *

و (قوله: «كيلا يَخْدِشَ مسلماً») فيه ما يدلُّ على صحة القول بالقياس، وتعليل الأحكام الشَّرعية.

و (قول أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ: والله! ما مُتْنا حتَّى سدَّدناها، بعضُنا في وجوه بعض) يعني: ما مات معظمُ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ حتى وقعتْ بينهم الفتنُ والمحنُ، فرمى بعضُهم بعضاً بالسِّهام، وقاتل بعضُهم بعضاً. ذكر هذا في معرض التأسُّف على تغيُّر الأحوال وحصول الخلاف لمقاصد الشرع من: التعاطف والتواصل على قرب العهد، وكمال الجدّ.

(٢٧) بـــاب

ثواب من نحّى الأذى عن طريق المسلمين

[٢٥٢٧] عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «بينما رجلٌ يمشي بطريقٍ؛ وجد غُصْنَ شوْكٍ على الطريق، فأَخَّرَهُ، فشكر الله له، فغفر له».

وفي روايةٍ: «فقال لأُنَحِّيَنَّ هذا عن المسلمين لا يؤذيهم فأُدخِلَ الجنَّة».

رواه أحمد (٢/ ٥٣٣)، والبخاريُّ (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤) (١٢٧ و ١٢٨)، والترمذي (١٩٥٨)، وابن ماجه (٣٦٨٢).

[٢٥٢٨] وعنه؛ عن النبي ﷺ قال: «لقد رأيتُ رجلاً يتقلبُ في الجنَّة في شجرةٍ قطعها عن ظهر الطريق، كانت تؤذي الناس».

رواه مسلم (١٩١٤) في البر والصلة (١٢٩).

[٢٥٢٩] وعن أبي برزة، قال: قلتُ لرسول الله ﷺ: يا رسول الله!

و (قوله: «فشكر الله له فغفر له») أي: أظهر لملائكته، أو لمن شاء من خَلْقه الثناءَ عليه بما فَعَل من الإحسان لعبيده. وقد تقدَّم: أنَّ أصلَ الشُّكر: الظُّهور، أو يكون جازاه جزاءَ الشاكر، فسمَّى الجزاءَ شُكْراً، وعبَّر عنه بشَكَر. كما قال في الرواية الأُخرى: «فأدخل الجنة» وكلُّ ذلك إنما حصل لذلك الرجل بِحُسْن نيَّته في تنحيته الأذى، ألاَ ترى قوله: «والله لأنحينَّ هذا عن المسلمين لا يُؤْذيهم؟».

فضل تنحية الأذى

و (قوله: «لقد رأيتُ رجلاً يتقلَّب في الجنة في شجرةٍ قطعها») أي: يتقلَّبُ في نعيم الجنة، وملابسها، وقصورها، وسائر ما أعدَّ اللَّهُ فيها.

إنِّي لا أدري أن تمضيَ وأبقى بعدك، فزودني شيئاً ينفعني الله به! فقال رسول الله ﷺ: «افعل كذا، افعل كذا، وأَمِرَّ الأذى عن الطريق».

وفي روايةٍ: قال: قلتُ: يا نبي الله! أعلمني شيئاً أنتفع به! قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين».

رواه مسلم (٢٦١٨) (١٣١ و ١٣٢)، وابن ماجه (٣٦٨١).

* * *

و (قوله: «وأَمِرَّ الأذى عن طريق المسلمين») هكذا روايتي، ورواية عامَّةِ الشيوخ: براء مشدَّدة، من المرور، بمعنى: نحِّ. وعند الطبري: وأَمِزْ ـ بزاي معجمة ـ من المَيْز، أي: أَزِلْهُ من الطريق، ومَيِّزْهُ عنه. وعند ابن ماهان: أَخِّره، وكلُّها بمعنى واحد.

وفيه ما يدلُّ على الترغيب في إزالة الأذى والضَّرر عن المسلمين، وعلى إرادة الخير لهم، وهذا مُقتضى الدِّين، والنَّصيحة، والمحبَّة.

* * *

(٢٨) بـــاب
عُذِّبت امرأة في هرَّة

[٢٥٣٠] عن عبد الله بن عمر، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «عُذِّبَتِ امرأةٌ في هِرَّةٍ سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النَّارَ، لا هي أطعمتها وسقتها؛ إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».

رواه البخاريُّ (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢) في البر والصلة (١٣٣ و ١٣٤).

[٢٥٣١] وفي روايةٍ: «دخلت امرأةٌ النَّار من جَرَّاء هِرَّة لها ـ أو: هِرٍّ ـ ربطتها، فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تَرَمَّمُ من خَشَاش الأرض؛ حتى ماتت هَزْلاً».

رواه أحمد (٢/ ٢٦١)، ومسلم (٢٦١٩)، وابن ماجه (٤٢٥٦) كلهم من حديث أبي هريرة.

* * *

[(٢٨) ومن بـــاب: عذِّبت امرأة في هرَّة][(١)]

و (قوله: «دخلتِ امرأةٌ النارَ من جرَّاء هرَّةٍ لها») أي: من أجل، وفيه لغتان: المدّ والقصر، وظاهرُ هذا أن الهرَّ يُمْلَك؛ لأنه ﷺ أضاف الهرَّ للمرأة باللام التي هي ظاهرةٌ في الملك، وقد تقدَّم الخلافُ في ذلك.

ما يجب على مالك الهرّ

وفيه ما يدلُّ على أنَّ الواجبَ على مالك الهرِّ أحد الأمرين: إما أن يُطعمه، أو يتركه يأكلُ ممَّا يجده من الخشاش، وهي: حشرات الأرض، وأحناشها. وقد

---

(١) هذا العنوان لم يرِدْ في جميع نسخ المفهم، واستدركناه من التلخيص.

(٢٩) بـــابٌ
في عذاب المتكبِّر والمتألِّي على الله، وإثم من قال: هلك النَّاس، ومدح المتواضع الخامل

[٢٥٣٢] عن أبي سعيدٍ، وأبي هريرةَ، قالا: قال رسول الله ﷺ: «العزُّ إزاره، والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته».

رواه مسلم (٢٦٢٠).

يُقال على صغار الطير، وهو بالخاء المعجمة، ويقال بفتح الخاء وكسرها. وحكى أبو علي القاليّ فيها الضم، فأما الخِشاش بالكسر لا غير: فهو الذي يُدْخَل في أنف البعير من خشب، والخَزامة من شعر، فأما الخَشاش بالفتح: فهو الماضي من الرجال. قال الجوهري: وقد يُضم. وترمَّم: بفتح التاء والميم المشدَّدة للعذريِّ والسحري، وهي الصحيحة. وعند بعضهم: تُرمِّم بضم التاء وكسر الميم الأولى. والثلاثي هو المعروف، ومعناه: يأكلُ، مأخوذٌ من المرمة، وهي: الشفة من كلِّ ذات ظلف.

(٢٩) ومن بـــاب: عذاب المتكبر والمتألِّي

(قوله: «العزُّ إزاره، والكبرياءُ رداؤه، فمن ينازعُني عذَّبْتُه») كذا جاء هذا اللفظُ في كتاب مسلم مُفتتحاً بخطاب الغَيبة، ثم خرج إلى الحضور، وهذا على نحو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢] فخرج من خطاب الحضور إلى الغيبة، وهي طريقةٌ عربيةٌ معروفة. وقد جاء هذا الحديثُ في غير كتاب مسلم: «الكبرياءُ ردائي، والعظمةُ إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قصمته، ثم ألقيتُه في النار»[1]. وأصلُ الإزار: الثوبُ الذي يُشَدُّ على الوسط. والرداء: ما

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٩٠).

[٢٥٣٣] وعن جُنْدَبٍ، أنَّ رسولَ الله ﷺ حدَّث: «أنَّ رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلانٍ! ....

يجعل على الكتفين، ولما كان هذان الثوبان يخصَّان اللابس بحيث لا يستغني عنهما، ولا يقبلان المشاركة عبَّر اللَّهُ تعالى عن العز بالإزار، وعن الكبرياء بالرداء على جهة الاستعارة المستعملة عند العرب، كما قال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] فاستعار للتقوى لباساً، وكما قال ﷺ: «من أسرَّ سريرة ألبسه اللَّهُ رداءها»[1]. وكما قال: «البسوا قناعَ المخافة، وادَّرعوا لباسَ الخشية». وهم يقولون: فلان شعاره الزهد والورع، ودثاره التقوى، وهو كثير. ومقصودُ هذه الاستعارة الحسنة: أنَّ العز، والعظمة، والكبرياء من أوصاف الله تعالى الخاصَّة به التي لا تنبغي لغيره. فمن تعاطى شيئاً منها أذلَّه الله تعالى وصغَّره، وحقَّره، وأهلكه، كما قد أظهر اللَّهُ تعالى من سُنَّته في المتكبرين السَّابقين واللاحقين.

العز والكبرياء من أوصاف الله

و (قول المتألي: واللَّهِ لا يغفر اللَّهُ لفلان) ظاهرٌ في أنه قَطْعٌ بأن اللَّهَ تعالى لا يغفرُ لذلك الرجل، وكأنَّه حكم على الله، وحجر عليه. وهذه نتيجةُ الجهل بأحكام الإلهية، والإدلال على الله تعالى بما اعتقد أن له عنده من الكرامة، والحظِّ، والمكانة. وكذلك المذنب من الخسَّة والإهانة؛ فإن كان هذا المتألي مُستحلاً لهذه الأمور فهو كافر، فيكون إحباطُ عمله لأجل الكفر، كما يحبطُ عمل الكفار، وأما إن لم يكن مُستحلاً لذلك، وإنما غلب عليه الخوف، فَحَكَم بإنفاذ الوعيد فليس بكافر، ولكنه[2] مرتكبُ كبيرة، فإنه قانطٌ من رحمة الله، فيكونُ إحباطُ عمله بمعنى: أن ما أوجبت له هذه الكبيرة من الإثم يُربي على أجر أعماله الصالحة؛ فكأنه لم يَبْقَ له عملٌ صالح.

إحباط عمل المتألي

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٣/ ٣٢٦).

(٢) في (ز): ولأنه.

وإنَّ الله قال: من ذا الذي يَتَأَلَّى عليَّ: أَلَّا أَغْفِرَ لفُلانٍ؟! فإنِّي قد غفرتُ لفلانٍ، وأحبطتُ عملك!» أو كما قال.

رواه مسلم (٢٦٢١).

[٢٥٣٤] وعن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إذا قال الرجل: هلك الناس؛ فهو أهلكُهُم».

رواه أحمد (٢/ ٣٤٢)، ومسلم (٢٦٢٣)، وأبو داود (٤٩٨٣).

و (قوله: «مَن ذا الذي يتألَّى عليَّ ألا أغفر لفلان») استفهامٌ على جهة الإنكار والوعيد، ويُستفاد منه: تحريمُ الإدلال على الله تعالى، ووجوب التأدُّب معه في الأقوال، والأحوال، وأنَّ حقَّ العبد أن يُعامل نفسَه بأحكام العبوديَّة، ومولاه بما يجبُ له من أحكام الإلهية والرُّبوبيَّة.

تحريم الإدلال على الله

و (قوله: «فإني قد غفرتُ لفلان، وأحبطتُ عملك») دليلٌ على صحَّة مذهب أهل السُّنَّة: أنه لا يكفِّر أحدٌ من أهل القبلة بذنب، وهو مُوجِبُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وأنَّ لله تعالى أن يفعلَ في عبيده ما يريدُ من المغفرة والإحباط؛ إذ هو الفعَّال لما يريد، القادرُ على ما يشاء. وقد بيَّنا الإحباطَ المذكورَ في هذا الحديث.

النهي عن ازدراء الآخرين

و (قوله: «إذا قال الرجلُ: هلك الناسُ فهو أهلكُهم») قال أبو إسحاق: لا أدري: أهلكهم بالنصب أو بالرفع. أبو إسحاق هذا: هو إبراهيم بن سفيان الراوي عن مسلم، شكَّ في ضبط هذا الحرف، وقد قيَّده الناسُ بعده بالوجهين، وكلاهما له وجه، فإذا كان بالرفع: فمعناه أن القائلَ كذلك القول هو أحقُّ الناس بالهلاك، أو أشدُّهم هلاكاً، ومَحْمَلُه على ما إذا قال ذلك مُحقِّراً للناس، وزارياً عليهم، مُعْجَباً بنفسه وعَمَلِه، ومَن كان كذلك فهو الأحقُّ بالهلاك منهم، فأما لو قال ذلك على جهة الشَّفقة على أهل عَصْره، وأنَّهم بالنسبة إلى مَن تقدَّمهم من أسلافهم

[٢٥٣٥] وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «رُبَّ أشْعَثَ مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه».

رواه مسلم (٢٦٢٢).

* * *

كالهالكين، فلا يتناوله هذا الذَّم، فإنها عادةٌ جاريةٌ في أهل العِلْم والفضْل، يُعظِّمون أسلافهم، ويُفضِّلونهم على مَن بعدهم، ويقصرون بمن خلفهم، وقد يكون هذا على جهة الوَعْظ والتَّذكير ليقتديَ اللاحقُ بالسَّابق، فيجتهد المقصِّر، ويتدارك المفرِّط، كما قال الحسنُ ـ رحمه الله ـ: لقد أدركتُ أقواماً لو أدركتموهم لقلتُم: مرضى، ولو أدركوكم لقالوا: هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب.

وأمَّا من قيَّده بالنصب فيكون معناه: أن الذي قال لهم ذلك مُقنطاً لهم: هو الذي أهلكهم بهذا القول، فإنَّ الذي يسمعه قد ييأس من رحمة الله فيهلك، وقد يغلبُ على القائل رأيُ الخوارج فيهلك الناس بالخروج عليهم، ويشقُّ عصاهم بالقتال، وغير ذلك كما فعلت الخوارج، فيكون قد أهلكهم حقيقةً وحساً، وقيل معناه: إنَّ الذي قال فيهم ذلك، لا الله تعالى؛ فكأنه قال: هو الذي ظنَّ ذلك من غير تحقيق ولا دليل من جهة الله تعالى. والله تعالى أعلم.

و (قوله: «رُبَّ أشعثَ مدفوعٍ بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه») الأشعث: المتلبِّد الشَّعر غير المدَّهنة. والمدفوع بالأبواب، أي: عن الأبواب. فلا يُتركُ بقربها احتقاراً له، ويصحُّ أن يكون معناه: يُدفع بسدِّ الأبواب في وجهه كلما أراد دخولَ بابٍ من الأبواب، أو قضاء حاجة من الحوائج.

و (قوله: «لو أقسم على الله لأبرَّه») أي: لو وقع منه قسمٌ على الله في شيء لأجابه اللَّهُ تعالى فيما سأله إكراماً له، ولُطْفاً به، وهذا كما تقدَّم من قول أنس بن النَّضر: لا والله لا تُكسر ثنيَّة الربيع أبداً. فأبرَّ الله قَسَمَهُ؛ بأن جَعَل في قلوب الطالِبين للقصاص الرِّضا بالدية، بعد أن أبوا قبولها، وكنحو ما اتفق للبراء لما

(٣٠) بـــاب
الوصية بالجار وتعاهده بالإحسان

[٢٥٣٦] عن عائشة، قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما زالَ جبريلُ يوصِيني بالجار، حتى ظننتُ أنَّه لَيُوَرِّثُه».

رواه أحمد (٦/ ٢٣٨)، والبخاريّ (٦٠١٤)، ومسلم (٢٦٢٤) (١٤٠)، وأبو داود (٥١٥١)، والترمذيُّ (١٩٤٢)، وابن ماجه (٣٦٧٣).

التقى بالكفار فاقتتلوا، فطالَ القتال، وعظم النزال، فقال البراءُ: أقسمتُ عليك يا رب! أو عزمتُ عليك، لتمنحنا أكتافهم، ولتلحقني بنبيِّك، فأبرَّ اللَّهُ قسمه، فكان كذلك. ولقد أَبْعَدَ من قال: إنَّ القسمَ ـ هنا ـ هو الدُّعاء من جهة اللَّفظ والمعنى.

(٣٠) ومن بـــاب: الوصيـــة بالجـار[١]

المراد بالجار

(قوله: «ما زال جبريلُ يوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه لَيُوَرِّثُه») قد تقدَّم أن الجار يُقال على المجاور في الدار، وعلى الدَّاخل في الجوار، وكلُّ واحد منهما له حقٌّ، ولا بُدَّ من الوفاء به، وقد تقدَّم قولُه ﷺ: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جارُه بوائقه»[٢]، وقوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره»[٣]. ولمَّا أكَّد

---

(١) في نسخ المفهم: ومن باب الوصية بالجار وفضل السعي على الأرملة والمسكين. ولا داعي لجملة العطف لأنَّ المؤلف ـ رحمه الله ـ أفرد موضوعَ الزيادة ببابٍ مستقل يأتي بعد هذا الباب، كما في التلخيص.

(٢) رواه أحمد (٢/ ٣٧٣)، ومسلم (٤٦).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٢٦٧)، والبخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧) (٧٤)، وأبو داود (٥١٥٤)، والترمذي (٢٥٠٠).

[٢٥٣٧] ونحوه؛ عن ابن عمر، وقال: «حتى ظننت أنَّه لَيورِّثَنَّه».

رواه البخاريُّ (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥) (١٤١).

[٢٥٣٨] وعن أبي ذرٍّ، قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر! إذا طبختَ مَرَقةً فأكْثِرْ ماءَها، وتعاهدْ جِيْرانك».

جبريلُ على النبيِّ ﷺ حقَّ الجوار، وكثَّر عليه من ذلك غلبَ على ظنِّ النبيِّ ﷺ: أن اللّهَ سيحكمُ بالميراث بين الجارين. وهذا يدلُّ على: أنَّ هذا الجارَ هنا هو جارُ الدار؛ لأن الجارَ بالعهد قد كان من أوَّل الإسلام يرث ثم نُسِخ ذلك، كما تقدَّم، فإن كان هذا القولُ صَدَر من النَّبيِّ ﷺ في أوَّل الأمر، فقد كان التوارثُ مشروعاً، فمشروعيتُه واقعةٌ محقّقةٌ غير مُنتظَرة، ولا مظنونة، وإن كان بعد ذلك فرفْعُ ذلك الحكم ونَسْخه مُحقَّق، فكيف تُظنُّ مشروعيته؟! فتعيَّن: أنَّ المرادَ بالجوار في هذا الحديث هو جوارُ الدار، والله تعالى أعلم.

و (قوله: «إذا طبختَ مَرَقة فأكثـر ماءَها وتعاهدْ جيرانك») هذا الأمرُ على جهة الندب، والحضّ على مكارم الأخلاق، وإرشاد إلى محاسنها لما يترتَّبُ عليه من المحبَّة، وحسن العِشْرة، والأُلفة، ولما يحصلُ به من المنفعة، ودفع الحاجة والمفسدة، فقد يتأذَّى الجارُ بقُتَار[1] قدر جاره، وعيالُه، وصغارُ ولده، ولا يقدر على التوصُّل إلى ذلك فتهيجُ من ضعفائهم الشهوة، ويعظُم على القائم عليهم الألم والكُلْفة، وربما يكون يتيماً، أو أرملةً ضعيفة، فتعظم المشقة، ويشتدُّ منهم الألم والحسرة، وكل ذلك يندفع بتشريكهم في شيءٍ من الطبيخ يُدفع إليهم، فلا أقبح من منع هذا النذر اليسير الذي يَترتَّبُ عليه هذا الضرر الكبير.

النهي عن آذية الجيران برائحة الشواء والطبيخ

و (قوله: «فأكثرْ ماءَها») تنبيهٌ لطيفٌ على تيسير الأمر على البخيل؛ إذ الزيادة

---

(١) «القتار»: دخان ذو رائحة خاصّة ينبعث من الشّواء أو الطبيخ.

وفي أخرى: «ثُمَّ انظر أهلَ بيتٍ من جيرانِكَ فأصِبْهُم منها بمعروفٍ».

رواه أحمد (٥/ ١٤٩)، ومسلم (٢٦٢٥) (١٤٢ و ١٤٣).

[٢٥٣٩] وعنه؛ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «لا تَحْقِرَنَّ من المعروفِ شيئاً؛ ولو أنْ تلقى أخاك بوجهٍ طَلْقٍ».

رواه أحمد (٥/ ١٧٣)، ومسلم (٢٦٢٦)، والترمذيُّ (١٨٣٣)، وابن ماجه (٣٣٦٢).

* * *

المأمور بها إنما هي فيما ليس له ثمن، وهو الماء. ولذلك لم يقل إذا طبختَ مرقةً فأكثرْ لحمَها، أو طبيخها؛ إذ لا يسهلُ ذلك على كلِّ أحدٍ.

التهادي بين الجيران

و (قوله: «فأصبْهم منها بمعروف») أي: بشيءٍ يُهدى مثله عرفاً، تحرُّزاً من القليل المحتقر فإنه ـ وإن كان مما يُهدى ـ فقد لا يقعُ ذلك الموقع، فلو لم يتيسَّر إلا القليل المحتقر فليُهدِه ولا يحتقره، كما جاء في الحديث الآخر: «لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً» ويكون المهدي له مأموراً بقبول ذلك المُحتقَر، والمكافأة عليه، ولو بالشكر؛ لأنه وإن كان قدرُه محتقراً، دليل على تعلُّق قلب المُهدي بجاره.

و (قوله: «ولو أنْ تَلْقى أخاكَ بوجهٍ طليق») يُروى بكسر اللام، وياء بعدها. وطلْق الوجه بتسكين اللام بغير ياء، وهما لغتان، يقال: رجل طَلْقُ الوجه، وطليقُ الوجه، وهو المنبسطُ الوجه السَّمْحه. يُقال: طَلُقَ وجهُه: بضم اللام يَطْلُقُ طلاقةً.

* * *

(٣١) بـــاب
فضل السعي على الأرملة وكفالة اليتيم

[٢٥٤٠] عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «الساعي على الأرملةِ والمسكينِ كالمجاهد في سبيل الله». وأحسبه قال: «وكالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر».

رواه أحمد (٢/ ٣٦١)، والبخاريُّ (٥٣٥٣)، ومسلم (٢٩٨٢)، والترمذيُّ (١٩٦٩)، والنسائيُّ (٥/ ٨٦ و ٨٧)، وابن ماجه (٢١٤٠).

---

(٣١) ومن بـــاب: السعي على الأرملة وكفالة اليتيم

قال الجوهريُّ: الأرمل: الرجل الذي لا امرأة له، والأرملةُ: المرأة التي لا زوجَ لها، وقد أرملتِ المرأة إذا مات عنها زوجها. قال ابن السِّكيت: الأرامل: المساكين من رجال أو نساء. قال: ويُقال لهم، وإن لم يكن فيهم نساء، ويُقال: قد جاءت أرملةٌ من نساءٍ ورجالٍ محتاجين، وإنما شبَّه السَّاعي على الأرملة بالمجاهد؛ لأن القيامَ على المرأة بما يُصلحُها وما يحفظها، ويصونُها، لا يُتصوَّر الدوام عليه إلا مع الصبر العظيم، ومجاهدة النفس والشيطان، فإنهما يُكسِّلان عن ذلك، ويُثقِّلانه، ويُفسدان النِّيات في ذلك، وربما يدعوان بسبب ذلك إلى السُّوء ويسوِّلانه، ولذلك قلَّ من يدوم على ذلك العمل، وأقل من ذلك من يسلم منه، فإذا حصلَ ذلك العمل حصلت منه فوائد كشف كُرَب الضعفاء، وإبقاءِ رَمَقهم، وسدِّ خَلَّتهم[١]، وصون حرمتهم.

الساعي على الأرملة كالمجاهد في سبيل الله

---

(١) «الخَلَّة»: الخَصْلة، والفقر والحاجة، جمع خِلال.

[٢٥٤١] وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «كافِلُ اليتيم له أو لغيره، أنا وهو كهاتين في الجنة» وأشار مالك بالسبابة والوسطى.

رواه مسلم (٢٩٨٣).

* * *

ثواب كافل اليتيم

و (قوله: «كافلُ اليتيم له أو لغيره أنا وهو في الجنة كهاتين») قد تقدَّم: أن اليتيمَ في الناس من قِبل فقد الأب، وفي البهائم: من قبل فقد الأم، [وفي الطير من قبل الأب والأم][١]. ومعنى قوله: «له أو لغيره» ـ أي: سواءٌ كان اليتيم قريباً للكافل أو لم يكن ـ في حصول ذلك الجزاء الموعود على كفالته. ومعنى قوله: «أنا وهو في الجنة كهاتين» أي: هو معه في الجنة، وبحضرته، غير أن كلَّ واحدٍ منهما على درجته فيها إذ لا يبلغُ درجة الأنبياء غيرُهم، ولا يبلغُ درجة نبينا ﷺ أحدٌ من الأنبياء على ما تقدَّم. وإلى هذا المعنى الإشارة بقرانه بين إصبعيه السَّبابة والوسطى، فيفهم من الجمع بينهما: المعيَّة والحضور، ومن تفاوت ما بينهما: اختصاص كل واحد منهما بمنزلته ودرجته. وقد نصَّ على هذا المعنى النبيُّ ﷺ في قوله: «المرءُ مع مَنْ أحبَّ، وله ما اكتسبَ»[٢] وقد تقدم نحو هذا.

* * *

(١) ما بين حاصرتين ساقط من (ز) و (م ٤).
(٢) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٨٦).

(٣٢) بـــاب
التحذير من الرياء والسمعة
ومن كثرة الكلام ومن الإجهار

[٢٥٤٢] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشُّركاءِ عن الشِّركِ. مَنْ عَمِلَ عملاً أشركَ فيه معي غيري تركتُه وشرِيْكَهُ».

رواه أحمد (٢/ ٣٠١)، ومسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

---

(٣٢) ومن بـــاب: التحذير من الرِّياء والسُّمعة

مراتب الشرك

(قوله تعالى: «أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّرك») أصلُ الشِّرك المحرَّم: اعتقادُ شريكٍ لله تعالى [في إلهيته، وهو الشركُ الأعظم، وهو شركُ الجاهلية، ويليه في الرتبة اعتقادُ شريكٍ لله تعالى][١] في الفعل، وهو قولُ من قال: إنَّ موجوداً ما غير الله تعالى يستقلُّ بإحداث فعلٍ وإيجاده، وإن لم يعتقدْ كونه إلهاً، ويلي هذا في الرتبة الإشراكُ في العبادة، وهو الرياء. وهو أن يفعلَ شيئاً من العبادات التي أمر اللَّهُ تعالى بفعلها له لغير الله، [وهذا هو الذي سيق الحديثُ لبيان تحريمه، وأنه مبطلٌ للأعمال][٢]. لهذا أشار بقوله: «من عمل عملاً أشركَ معي فيه غيري تركتُه وشريكه» وهذا هو المسمَّى بالرياء، وهو على الجملة مُبْطِلٌ للأعمال، وضدُّه الإخلاص، وهو من شرط صحَّة العبادات، والقُرَب. وقد نبَّهنا على معاقدهما. واستيفاء ما يتعلَّقُ بهما مذكورٌ في الرقائق.

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ع).

(٢) ما بين حاصرتين سقط من (م ٤).

[٢٥٤٣] وعن ابن عباسٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سمَّع سمَّع اللَّهُ به، ومَنْ راءى راءى الله به».

رواه مسلم (٢٩٨٦).

[٢٥٤٤] وعن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ العبدَ ليتكلَّمُ بالكلمة ما يَتبيَّنُ ما فيها يهوي بها في النَّار أبعدَ ما بين المشْرِق والمغرب».

رواه أحمد (٢/٣٧٨ ـ ٣٧٩)، والبخاريُّ (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨) (٤٩ و ٥٠).

عقوبة الرياء

و (قوله: «من سمَّع سمَّع اللَّهُ به») أي: مَن يحدِّث بعمله رياءً ليسمِّع الناسَ فضحه اللَّهُ يومَ القيامة، وشهره على رؤوس الأشهاد، كما جاء في غير كتاب مسلم: «يُسمِّع اللَّهُ به سامعَ خلقه يوم القيامة» أي: كلّ من يسمع. وقيل: إنَّ معنى ذلك أن من أذاع على مسلم عيباً، وشنعه عليه، أظهر الله عيوبه [يوم القيامة][1].

و (قوله: «ومَن راءى راءى اللَّهُ به») أي: من راءى بعمله فعمل شيئاً من القُرَب لغير الله قابله اللَّهُ يوم القيامة بعقوبة ذلك. فسمَّى العقوبةَ رياءً على جهة المقابلة، كما قال: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤].

و (قوله: «إن العبدَ ليتكلم بالكلمة ما يتبيَّن ما فيها») أي: من الإثم والعقاب، وذلك لجهله بذلك، أو لترك التثبُّت، أو للتَّساهل. وفي غير كتاب مسلم: «إن الرجلَ ليتكلمُ بالكلمة من سخط الله ما يُلْقي لها بالاً يهوي بها في النار سبعين خريفاً»[2]. وفيه من الفقه: وجوب التثبُّت عند الأقوال والأفعال، وتحريم التَّساهل في شيءٍ من الصَّغائر، وملازمة الخوف، والحذر عند كلِّ قول وفعل،

وجوب التثبت عند الأقوال والأفعال

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ع).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٣٣٤)، والبخاري (٦٤٧٨)، والترمذي (٢٣١٤)، وابن ماجه (٣٩٧٠).

[٢٥٤٥] وعنه؛ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كلُّ أمَّتي مُعافى إلّا المجاهرين، وإنَّ مِنَ الجهارِ أنْ يعمل العبدُ عملاً بالليل، ثم

والبحث عمَّا مضى من الأقوال والأفعال، واستحضار ما مضى من ذلك وتذكُّره من أول زمانِ تكليفه؛ لإمكان أن يكون صَدَرَ من المكلَّف شيءٌ لم يتثبَّته يستحقُّ به هذا الوعيد الشديد، فإذا تذكَّر واستعانَ بالله، فإن ذكر شيئاً من ذلك تاب منه، واستغفر، وإن لم يتذكَّرْ وَجَب عليه أن يتوبَ جملةً بجملة عمَّا علم وعما لم يعلم، كما قال النبيُّ ﷺ: «أستغفرُك عمَّا تعلم ولا أعلم»[(١)]. فمن فعل ذلك وصدقتْ نيَّته قُبلت بفضل الله تعالى توبتُه.

و (قوله: «مِن سخط الله»[(٢)]) أي: ممَّا يُسْخِط الله، وذلك بأن يكون كذبة، أو غِيبة، أو نميمة، أو بُهتاناً، أو بَخْساً، أو باطلاً يضحكُ به الناس، كما قد جاء عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ويلٌ للذي يتكلَّمُ بالكلمة من الكذب ليضحكَ الناس، ويلٌ له، ويلٌ له»[(٣)].

و (قوله: «كل أمتي مُعافى إلا المجاهرين») كذا روايةُ أكثر الرواة بتقديم الجيم على الهاء منصوباً على الاستثناء، وهو جمعُ مجاهر، اسمُ فاعل مِن جاهره بالقول وبالعداوة؛ إذا ناداه، وفاجأه بذلك. ووقع في نسخة شيخنا أبي الصّبر: «إلا المجاهرون» بالواو رفعاً، وهو جائزٌ، على أن تُحمل (إلا) على (غير) كما قد أنشده النحويون:

وكلُّ أخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ ... لَعَمْرُ أَبِيكَ إلا الفَرْقَدانِ

أي: غير الفرقدين، وهو قليلٌ، والوجهُ الأول: الكثير الفصيح.

و (قوله: «وإنَّ من الجهار») هذه روايةُ زهير، وهي روايةٌ حسنة؛ لأنه

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٣ و ١٢٥)، والترمذي (٣٤٠٧)، والنسائي (٣/ ٥٤).

(٢) هذه العبارة ليست عند مسلم. انظر: تخريج الحديث قبل السابق.

(٣) رواه أحمد (٥/ ٥ و ٧)، وأبو داود (٤٩٩٠).

يُصْبح وقد ستره ربُّه فيقول: يا فلانُ! عملتُ البارحةَ كذا، وكذا، وقد بات يستُره ربُّه، ويصبحُ يكشِفُ سِتْرَ الله عنه!».

رواه البخاريُّ (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠).

* * *

مصدرُ: جاهر، الذي اسمُ الفاعل منه مجاهر، فيتناسب صَدْرُ الكلام وعجزه. ورواه أكثرُ رواةِ مسلم: «وإنَّ من الإجهار» فيكون مصدر: أجهر، أي: أعلن. قال الجوهريُّ: إجهارُ الرجل: إعلانه، وعند الفارسيِّ: وإنَّ من الإهجار، بتقديم الهاء على الجيم، وهو الإفحاشُ في القول. قاله الجوهريُّ.

المجاهرة بالمعاصي من أكبر الكبائر

قلــتُ: وهذه الروايات؛ وإن اختلفت ألفاظُها، هي راجعةٌ إلى معنىً واحدٍ قد فسَّره في الحديث، وهو أن يعملَ الرجلُ معصيةً في خفية، وخَلْوة، ثم يخرجُ يتحدَّثُ بها مع الناس، ويجهرُ بها ويعلنها، وهذا من أكبر الكبائر، وأفحش الفواحش. وذلك: أن هذا لا يصدرُ إلا من جاهلٍ بقدر المعصية، أو مُستهين مستهزىءٍ بها، مُصرٍّ عليها، غير تائب منها، مُظهر للمنكر. والواحدُ من هذه الأمور كبيرة، فكيف إذا اجتمعت؟! فلذلك كان فاعلُ هذه الأشياء أشدَّ الناس بلاءً في الدنيا، وعقوبة في الآخرة؛ لأنه تجتمعُ عليه عقوبةُ تلك الأمور كلِّها، وسائر الناس ممن ليس على مثل حاله؛ وإن كان مرتكبَ كبيرةٍ فأمرُه أخفُّ، وعقوبته ـ إن عُوقِب ـ أهون. ورجوعُه عنها أقرب من الأول؛ لأنَّ ذلك المجاهرَ قلَّ أن يتوبَ، أو يرجع عما اعتاده من المعصية، وسَهُل عليه منها. فيكون كلُّ العصاة بالنسبة إليه إمَّا مُعافى مُطلقاً إن تاب، وإما مُعافى بالنسبة إليه إن عُوقب، والله تعالى أعلم.

* * *

(٣٣) بـــاب
تغليظ عقوبة من أمر بمعروفٍ
ولم يأته ونهى عن المنكر وأتاه

[٢٥٤٦] عن أسامةَ بن زيد، قال: قيل له: ألا تدخلُ على عثمانَ فتكلِّمَه؟ فقال: أترون أنّي لا أكلِّمه إلا سَمْعَكُم! والله! لقد كلَّمتُه فيما بيني وبينه؛ ما دون أن افتتح أمْراً لا أحبُّ أن أكونَ أولَ مَنْ فتحَهُ، ....

---

(٣٣) ومن بـــاب: تغليظ عقاب من أمر بمعروف ولم يأته، ونهى عن المنكر وأتاه

(قَوْل القائل لأسامة: أَلَا تدخلُ على عثمان فتكلِّمَه) يعني: في تلك الأمور التي تُفْتَرى عليه، وكانت أموراً بعضُها كذبٌ عليه، وبعضها كان له فيها عُذْرٌ، وعنها جوابٌ لو سُمِع منه، لكنَّ العوام لا ينفعُ معهم اعتذارٌ ولا ملام، ولم يكن شيءٌ من هذه الأمور يُوجب خَلْعَه، ولا قَتْله قطعاً، ولكن جرتِ الأقدارُ بأن قُتِل مظلوماً شهيد الدار.

و (قوله: أترون أني لا أكلِّمه إلا سَمْعَكُم) يعني: أنه كان يجتنبُ كلامَه بحضرة الناس، ويكلِّمه إذا خلا به، وهكذا يجبُ أن يعاتبَ الكبراء والرُّؤساء، يُعظَّمون في الملأ إبقاءً لحرمتهم، ويُنصحون في الخلاء أداءً لما يجبُ من نُصْحهم. وسَمْعَكم: منصوبٌ على الظرف. ويُروى: بسمعكم، بالباء، أي: يحضره سَمْعُكم. ويروى: أُسْمِعُكم على أنه فعلٌ مضارع.

نُصْح الكبراء والرؤساء

و (قوله: والله لقد كلَّمتُه فيما بيني وبينه ما دون أن أفتح أمراً، لا أحبُّ أن أكون أوَّلَ مَن فتحه) يعني: أنه كلَّمه مشافهةً، كلامَ لطفٍ؛ لأنه اتَّقى ما يكونُ عن المجاهرة بالإنكار والقيام على الأئمة؛ لعظيم ما يطرأ بسبب ذلك من الفِتَن

ولا أقول لأحدٍ يكون عليَّ أميراً: إنَّه خيرُ النَّاس بعدما سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يُؤْتى يوم القيامة بالرَّجل، فيُلْقى في النَّار فتندلقُ أقتابُ بطنِه، فيدورُ بها كما يدورُ الحمار بالرَّحى، فيجتمعُ إليه أهلُ النَّار. فيقولون: يا فلان! ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر؟ فيقول: بلى! قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهىٰ عن المنكر وآتيه!».

رواه أحمد (٥/ ٢٠٥)، والبخاريُّ (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

* * *

التلطف في النصح

والمفاسِد، وخُصُوصاً على مثل عثمان ـ رضي الله عنه ـ ففيه التلطُّفُ في الإنكار إذا ارتجى نفعُه.

النهي عن المداهنة والممالقة

و (قوله: ولا أقول لأحدٍ يكن عليَّ أميراً أنه خيرُ الناس) أي: لا أُطريه بذلك، ولا أُداهنه؛ لكونه أميراً عليَّ، بل: أقولُ له الحقَّ، وأصفُه بحاله التي هو عليها من غير تصنُّع، ولا مَلَقٍ. وهذه كانت سيرةُ القوم، لا يخافون في الله لومة لائم، ولا يُبالون في القيام بالحقِّ، وإنْ أدَّى إلى العظائم، وهذا هو أعظمُ الأسباب التي أوجبتِ الاختلافَ بينهم، حتى أدَّى ذلك إلى الحروب العظيمة، والخطوب الجسيمة؛ فإنَّ كلَّ طائفةٍ كانت ترى: أنها المصيبةُ المحقَّة، ومخالفتُها المخطئة؛

قتلة عثمان والخوارج على عليٍّ مخطئون

فإنها كانتْ أموراً اجتهادية، ولم يكنْ فيها نصوصٌ قطعيّة، ويُستثنى من ذلك قتلةُ عثمان، فإنه لم يرتكبْ ما يُوجِبُ خَلْعَهُ، ولا قَتْلَه، والخوارجُ على عليٍّ والمسلمين فإنهم حكموا بكفر الجميع، فهاتان الطَّائفتان مُخْطِئتان قطعاً، ومَن عدا هؤلاء فإما مصيبٌ في اجتهاده فله أجران[1]، ومن قصَّر في اجتهاده مذمومٌ على التقصير.

و (قوله: «فتندلق أقتابُ بطنه») أي: تخرجُ بسرعة. واندلاق السَّيف:

---

(١) في (ع) و (م ٤): أجر.

. . . .

خروجُه بسرعة[١] من غمده، والأقتاب: الأمعاء، واحدها قتب. وقال الأصمعيُّ: واحدُها قتبة، ويقال لها أيضاً: الأقصاب، واحدها قصب، قاله أبو عبيد. وقال أبو عبيدة: القتب: ما تحوّى من البطن يعني: استدار، وهي الحوايا، وإنما اشتدَّ عذابُ هذا؛ لأنه كان عالماً بالمعروف وبالمنكر، وبوجوب القيام عليه بوظيفة كلِّ واحدٍ منهما، ومع ذلك فلم يعملْ بشيءٍ من ذلك، فَصَار كأنه مستهينٌ بحرمات الله تعالى، ومستخفٌّ بأحكامه، ثم إنه لم يتبْ عن شيءٍ من ذلك، وهذا من جملة من لم ينتفعْ بعلمه، الذين قال فيهم النبيُّ ﷺ: «أشدُّ الناسِ عذاباً يوم القيامة: عالمٌ لم ينفعْه اللَّهُ بعلمه»[٢]. وإنما ذكر أُسامةُ هذا الحديثَ مُستدلاً به على مَنْع إطراء الأمير؛ بأن يُقال له: أنت خيرُ الناس؛ لأنه يمكنُ أن يكونَ ذلك الأميرُ ممَّن يأمرُ بالمعروف، ولا يفعلُه، وينهى عن المنكر ويفعلُه فيستحقُّ هذا العقاب الشديد، فكيف يُقال له: أنت خيرُ الناس؟! ويشهدُ لهذا مساقُ قوله؛ فتأمَّلْه، والله أعلم، وقد تقدَّم القول في وجوب تغيير المنكر.

تشديد عذاب من لم يعمل بعلمه

* * *

---

(١) ليست في (ز).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الصغير (١/ ١٨٢ ـ ١٨٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧٧٨). وانظر: مجمع الزوائد (١/ ١٨٥)، والترغيب والترهيب للمنذري (٢٢٢).

(٣٤) بـــاب
في تشميت العاطس إذا حمد الله تعالى

[٢٥٤٧] عن أنسِ بن مالكٍ، قال: عَطَس عند النَّبيِّ ﷺ رجلان، فشَمَّتَ أحَدَهُما ولم يُشَمِّت الآخر! فقال الذي لم يُشَمِّتْهُ: عطس فلان فشمَّتَّه، وعَطَسْتُ أنا فلم تُشَمِّتْنِي؟! قال: «إن هذا حَمِدَ الله وإنَّك لم تَحْمد الله».

رواه أحمد (٣/ ١٠٠)، والبخاريُّ (٦٢٢٥)، ومسلم (٢٩٩١)، وأبو داود (٥٠٣٩)، والترمذيُّ (٢٧٤٢)، وابن ماجه (٣٧١٣).

[٢٥٤٨] وعن أبي موسى، قال: سمعت النَّبيَّ ﷺ يقول: «إذا عَطَس أحدُكم فحَمِدَ الله فَشمِّتُوه، ....

(٣٤ و ٣٥) ومن بـــاب: تشميت العاطس وكظم التثاؤب[١]

حكم تشميت العاطس

(قوله: «إذا عَطَس أحدُكم فحمِد اللَّهَ فشمِّتوه») تشميتُ العاطس: هو الدُّعاءُ له بالخير، يال: شمَّت العاطسَ وسمَّته بالشين والسين: إذا دعا له بالخير. والشين: أعلى اللغتين. قاله أبو عبيد. وقال ثعلب: معنى التشميت بالشين: أبعدَ اللَّهُ عنك الشَّماتة. وأصلُ السين من السّمت، وهو القصدُ والهُدى. وقال ابنُ الأنباري: كلُّ داعٍ بالخير مُسمِّتٌ. وقد اختلف في تشميت العاطس الحامد لله؛ فأوجبه أهلُ الظاهر على كُلِّ مَن سمعه، للأمر المتقدِّم، ولقوله ﷺ: «إذا عَطَس أحدُكم فحمِد الله كان حقّاً على كلِّ مسلم يسمعُه أن يقول: يرحمك الله»[٢].

---

(١) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ في المفهم تحت هذا العنوان بابين في التلخيص، وهما: باب: تشميت العاطس، وباب: في التثاؤب وكظمه.

(٢) رواه البخاري (٦٢٢٦).

وإذا لم يَحْمَد الله فلا تُشَمِّتُوهُ».

رواه مسلم (٢٩٩٢).

أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ. والمشهور من مذهب مالك، ومن اتَّبعه في جماعة العلماء: أنه فَرْضٌ على الكفاية، فيجزىء فيه دعاءُ بعضٍ عن بعض. وذهبت فرقةٌ: إلى أنه على النَّدب، وإليه ذهبَ القاضي أبو محمد ابن نصر، وتأوَّلوا قولَه ﷺ: «حقٌّ على كلِّ مسلم سمعه أن يشمته»: أن ذلك حقٌّ في حكم الأدب، ومكارم الأخلاق، كقوله: «حقُّ الإبل أن تُحلب على الماء»[1].

كيفية الحمد بعد العطاس

ثم اختلف العلماءُ في كيفية الحمد والردّ لاختلاف الآثار. فقيل: يقول: الحمد لله. وقيل: الحمد لله ربِّ العالمين. وقيل: الحمد لله على كل حال، وخيَّره الطبريُّ فيما شاء من ذلك، ولا خلافَ أنه مأمورٌ بالحمد. وأما المشمِّت فيقول: يرحمُنا اللَّهُ وإياكم، واختلف في ردِّ العاطس على مشمِّته، فقيل يقول: يهديكم الله، ويصلح بالكم. وقيل يقول: يغفر الله لنا ولكم. وقيل: يرحمنا الله وإياكم، ويغفر لنا ولكم. وقال مالك والشافعي: إن شاء قال: يغفر الله لنا ولكم، وإن شاء قال: يهديكم اللَّهُ ويصلح بالكم.

ما يردّ به العاطس على المشمت

النهي عن تشميت من لم يحمد الله

و (قوله: «وإن لم يحمَدِ الله فلا تشمته») هذا نهيٌ عن تشميت مَن لم يحمدِ الله بعد عطاسه، وأقلُّ درجاته: أن يكون الدعاء له مكروهاً عقوبة له على غفلته عن نعمةِ الله عليه في العطاس؛ إذ خَرَج منه ما احتقن في الدِّماغ من البُخار. قاله بعضُ شيوخنا، ولا خلافَ أعلمه أنَّ مَن لم يحمد الله لا يشمَّت، وقد ترك النبيُّ ﷺ تشميتَ العاطس الذي لم يحمدِ الله، ونصَّ على أنَّ تَرْكَ الحمدِ هو المانعُ مِن ذلك.

---

(١) رواه البخاري (٢٣٧٨).

[٢٥٤٩] وعن سلمةَ بنِ الأكوع، أنَّه سمع النَّبيَّ ﷺ عَطَس عنده رجلٌ فقال له: «يَرْحَمُكَ اللَّهُ» ثم عطس أخرى فقال رسول الله ﷺ: «الرَّجل مزكومٌ».

رواه أحمد (٤/٤٦)، ومسلم (٢٩٩٣)، وأبو داود (٥٠٣٧)، والترمذيّ (٢٧٤٣).

* * *

وجوب تشميت العاطس على مَنْ سمع الحمدَ

و (قوله في حديث البخاري: «كان حقاً على كلِّ مَن سمعه أن يُشمِّته») يدلُّ على: أنَّ العاطسَ ينبغي له أن يُسْمِعَ صوتَه لحاضريه، وينبغي لكلِّ مَن سَمِعه أن يشمِّتَه، بحيث يُسْمِعُ من يليه، وينبغي لمن لم يسمعِ العاطسَ وسمع المشمِّت، أن يُشمِّتَ العاطسَ إذا حصل له أنَّ ذلك تشميتٌ له.

والأظهرُ مِن الأحاديث المتقدِّمة وجوبُ التَّشميت على كلِّ من سمعه إذا حَمِد الله، وهو مذهبُ أهل الظَّاهرِ، وهي روايةٌ عن مالك.

حُكْم التشميت في حال التكرار

و(قول سلمة بن الأكوع: أنَّ النبي ﷺ عَطَس عنده رجلٌ فقال له: «يرحمُك الله» ثم عَطَس أُخرى، فقال رسولُ الله ﷺ: «الرجلُ مزكوم») هكذا وقع هذا الحديثُ في كتاب مسلمٍ: أنه ﷺ قال للرجل: «إنك مزكوم». وهو الصَّحيحُ في الثانية، وقد خرَّجه الترمذيُّ[١]، وقال في الثالثة: «أنت مزكوم». والصَّحيحُ في الرواية، وقد جاء في كتاب أبي داود وغيره الأمرُ بذلك مُبيَّناً: «شمِّت أخاك ثلاثاً، فما زاد فهو مزكومٌ»[٢]؛ وبذلك قال مالك، وإن كان قد روى في موطئه الشك في الثالثة، أو الرابعة.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٧٣).

(٢) رواه أبو داود (٥٠٣٤).

(٣٥) بـــاب
في التثاؤب وكظمه

[٢٥٥٠] عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «التثاؤبُ من الشَّيطانِ! ....

ما ينبغي أن يفعله العاطس

تنبيـــه: ينبغي للعاطس تغطيةُ وجهه في حال عطاسه، وأن يخفضَ صوتَه به؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ كذلك كان يفعلُ؛ ولأنَّ تغطيةَ الوجه ستر لما يُغَيِّرُ العطاسُ من الوجه والهيئة؛ ولأن إعلاءَ الصَّوت عندها مباعدٌ للأدب والوقار[١].

التثاؤب من الشيطان

و (قوله: «التثاؤب من الشَّيطان») التثاؤبُ: مصدر تثاءب مهموزاً، ممدوداً، ولا يُقال بالواو، ومُضارعه: يتثاءب، والاسم: الثُّوَباء، كلُّ ذلك بالهمز. قال ابنُ دريد: أصلُه من: ثاب الرجل، فهو مثوّب؛ إذا استرخى وكسل، ونسبته للشَّيطان؛ لأنه يصدرُ عن تكسيله، فإنه قلَّ أن يصدرَ ذلك مع النشاط. وقيل: نُسِب إليه؛ لأنه يرتضيه.

وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله يحبُّ العطاس، ويكره التثاؤب، فإذا عَطَسَ أحدكم...»[٢] الحديث، كما تقدم. قال: «وأما التثاؤبُ فإنَّما هو من الشَّيطان، فإذا تثاءب أحدُكم فليردَّه ما استطاع، فإنَّ أحدَكم إذا تثاءب ضحكَ الشيطانُ منه». وهذا يُشْعِرُ بصحَّة التأويل الثاني؛ فإن ضحك الشيطانِ منه سخريةٌ به؛ لأنه صَدَرَ عنه التثاؤب الذي يكون عن الكَسَل، وذلك كلُّه يُرضيه؛ لأنه يجدُ به طريقاً إلى التكسيل عن الخيرات والعبادات، ولذلك جاء في بعض طرق هذا الحديث: «التثاؤبُ في الصَّلاة من الشيطان»[٣]؛ لأنَّ ذلك يدلُّ

---

(١) ولئلا يتناثر منه شيء بسبب العطاس فيؤذي مَن حوله.

(٢) رواه البخاري (٦٢٢٣).

(٣) رواه الترمذي (٣٧٠).

فإن تَثاءَبَ أحدُكم فليكظِمْ ما استطاع».

رواه أحمد (٢/ ٥١٦)، ومسلم (٢٩٩٤) (٥٦)، والترمذيّ (٣٧٠).

[٢٥٥١] وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا تثاءب أحدُكم فليُمْسِك بيده على فِيْهِ فإنَّ الشيطان يدخل».

وفي رواية: «إذا تثاءب أحدُكم في الصَّلاة فَلْيَكْظِمْ ما استطاع فإنَّ الشيطان يدخل».

رواه أحمد (٣/ ٩٦)، ومسلم (٢٩٩٥) (٥٧ و ٥٩)، وأبو داود (٥٠٢٦ و ٥٠٢٧).

* * *

على كَسَله فيها، وعَدم نشاطه، فتثقلُ عليه، فيملّها، فيستعجلُ فيها، أو يُخِلُّ بها.

ما يفعله من غلبه التثاؤب

و (قوله: «فليكظمْ ما استطاع») هذا خطابٌ لمن غلبه ذلك؛ فإنه يكسرُه بسدِّ فاه ما أمكن، أو بوضع يده على فمه. وأما من أحسَّ بمباديه فهو المخاطبُ في حديث البخاري بقوله: «فليردَّه»، ويُحتمل أن يكون اللفظان بمعنى واحد.

و (قوله: «فإنَّ الشيطانَ يدخل») يعني في الفم إذا لم يكظم. ويحصل من هذه الرواية، ومِن حديث البخاري: أنَّ مَن لم يكظم تثاؤبه ضحك الشيطانُ منه، ودَخَل في فمه، وقيل: إنه يتقيّأ في فمه. قال القاضي: ولهذا أُمر المتثاءبُ بالتفل ليطرحَ ما ألقى الشيطانُ في فمه. وكلُّ هذا يُشْعِر بكراهة التّثاؤب، وكراهة حالة المتثائب إذا لم يكظم، وأوامرُ هذا الباب من باب الإرشاد إلى محاسن الأحوال، ومكارم الآداب.

* * *

(٣٦) بـــاب
كراهية المدح وفي حثو التراب في وجوه المدَّاحين

[٢٥٥٢] عن أبي بكرٍ، عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه ذُكِر عنده رجلٌ، فقال رجلٌ: يا رسول الله! ما من رجلٍ بعد رسول الله ﷺ أفضلَ مِنْهُ في كذا وكذا! فقال النَّبيُّ ﷺ: «ويحك! قطعت عنق صاحبِك» ـ مراراً يقول ذلك ـ

---

(٣٦) ومن بـــاب: كراهـــة المـــدح

النهي عن مدح الإنسان في وجهه

(قوله: «ويحك! قطعتَ عُنُقَ صاحبك»، وفي حديث أبي موسى: «قطعتم ظهر الرَّجل») كلُّ ذلك بمعنى أهلكتموه. وقد جاء عنه ﷺ أنَّه قال: «إياكم والمدحَ؛ فإنه الذَّبحُ»(١). ويعني بذلك كلِّه: أن الممدوحَ إذا أكثر عليه من ذلك يُخاف عليه منه العجبُ بنفسه، والكبر على غيره، فيهلك دينه بهاتين الكبيرتين، فإذاً المدحُ مظنَّةُ الهلاك الديني، فيحرم، لكن هذه المظنة لا تتحقَّقُ إلا عند الإكثار منه، والإطراء به، وأما مع الندرة والقلَّة؛ فلا يكون مظنَّة، فيجوزُ ذلك إذا كان حقّاً في نفسه، ولم يقصدْ به الإطراء، وأُمِن على الممدوح الاغترارُ به. وعلى هذا يُحمل ما وقع للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من مَدْح بعضهم لبعضٍ مشافهة ومكاتبة. وقد مُدِح النبيُّ ﷺ مشافهةً نظماً ونثراً، ومَدَح هو أيضاً جماعةً من أعيانِ أصحابه مشافهة، لكنَّ ذلك كلَّه إنما جاز لمَّا صحَّتِ المقاصد، وأُمِنتِ الآفاتُ المذكورة.

ما يقوله مَن كان مادحاً أخاه لا محالة

و (قوله: «إن كان أحدُكم مادحاً أخاه لا محالة، فليقلْ: أحسبُ فلاناً؛ إن كان يرى أنه كذلك») ظاهِرُ هذا: أنه لا ينبغي للإنسان أن يمدحَ أحداً ما وَجد من ذلك مندوحة، فإن لم يجدْ بُدّاً مَدَح لما يعلمه من أوصافه، وبما يظنُّه، ويتحرَّزُ من

---

(١) رواه أحمد (٤/٩٩).

ثم قال رسول الله ﷺ: «إنْ كانَ أحدُكم مادحاً أخاه لا محالة؛ فَلْيَقُلْ: أحسب فلاناً إنْ كان يُرى أنَّهُ كذلك، ولا أزكِّي على الله أحداً».

رواه أحمد (٥/ ٤٦)، والبخاريُّ (٢٦٦٢)، ومسلم (٣٠٠٠) (٦٥ و ٦٦)، وأبو داود (٤٨٠٥).

[٢٥٥٣] وعن أبي موسى، قال: سمع النَّبيُّ ﷺ رجلاً يُثني على رجلٍ، ويطريهِ في المِدحة، فقال: «لقد أهلكتُم ـ أو قطعتم ـ ظهر الرجل».

رواه أحمد (٤/ ٤١٢)، ومسلم (٣٠٠١).

[٢٥٥٤] وعن هَمَّام بن الحارث: أنَّ رجلاً جعل يمدح عثمان، فعمد المقداد فجثا على ركبتيه ـ وكان رجلاً ضخماً ـ فجعل يحثو في وجهه الحصباءَ، فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم المدَّاحين فاحثوا في وجوههم التُّراب».

رواه أحمد (٦/ ٥)، ومسلم (٣٠٠٢) (٦٩).

* * *

الجزم والقَطْع بشيءٍ من ذلك، بل: يتحرَّزُ بأن يقول: فيما أحسبُ أو أظنُّ، ويزيدُ على ذلك: ولا أزكِّي على الله أحداً، أي: لا أقطعُ بأنه كذلك عند الله؛ فإنَّ اللَّهَ تعالى هو المطَّلعُ على السَّرائر، العالمُ بعواقب الأمور.

عقوبة المدَّاح

و (قول همَّام: إنَّ رجلاً جَعَل يمدحُ عثمانَ، فجعل المقدادُ يحثو في وجهه الحصباء) كأن هذا الرجلَ أكثر من المدح حتى صَدَق عليه أنه مدَّاح، ولذلك عمل المقدادُ بظاهر ذلك الحديث، فحثا في وجهه التراب، ولعلَّ هذا الرجلَ كان ممَّن اتخذ المدحَ عادةً وحرفةً، فصدقَ عليه: مدَّاح، وإلا فلا يصدقُ ذلك على من مَدَح

. . . .

مرَّة أو مرَّتين، أو شيئاً أو شيئين. وقد بيَّن الصحابيُّ بفعله: أنَّ مراد النبي[١] من هذا الحديث: حَمْلُه على ظاهره، فعاقب المدَّاحَ برمي التراب في وجهه، وهو أقعدُ بالحال، وأعلمُ بالمقال. وقد تأوَّله غيرُ ذلك الصحابيِّ تأويلات؛ لأنه رأى: أنَّ ظاهِرَه جفاء، والنبي ﷺ لا يأمر بالجفاء. فقيل: إنَّ معناه: خيِّبوهم، ولا تعطوهم شيئاً؛ لأن من أعْطِي التراب لم يُعْطَ شيئاً، كما قد جاء في الحديث الآخر: «إذا جاء صاحب الكلب يطلبُ ثمنه فاملأ كفَّه تراباً»[٢]. أي: خيبةً، ولا تعطه شيئاً. وقيل: إن معناه: أعطه ولا تبخل عليه؛ فإن مآلَ كلِّ ما يعطى إلى التّراب. كما قال[٣]:

. . . . وكلُّ الذي فوق الترابِ ترابُ[٤]

وقيل: معناه: التَّنبيه للممدوح على أن يتذكَّرَ أنَّ المبدأ والمنتهى التراب فليعرضه على نفسه لئلا يعجب بالمدح، وعلى المدَّاح، لئلا يُفرط ويطري بالمدح، وأشبهُ المحامل بعد المحمل الظَّاهر الوجهُ الأول، وما بعده ليس عليه مُعَوَّل.

* * *

---

(١) في (ع): الشرع.

(٢) رواه أحمد (١/ ٢٨٩).

(٣) القائل هو: أبو فراس الحمداني.

(٤) هذا عجز بيت، وصدره: إذا صحَّ منك الودُّ فالكلُّ هيِّنٌ.

(٣٧) بـــاب
ما جاء أنَّ أمر المسلم كلّه
له خير ولا يلدغ مـن جحر مرتين

[٢٥٥٥] عـن صهيـب، قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «عجباً لأمـر المؤمن، إنَّ أمرَه كلَّه له خير، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن؛ إنْ أصابته سرَّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صبر، وكان خيراً له».

رواه أحمد (٤/ ٣٣٢)، ومسلم (٢٩٩٩).

[(٣٧) ومن بـــاب: ما جاء أن أمر المؤمن كلّه له خير، ولا يُلدغ من جحر مرتين][(١)]

(قوله: «عَجَباً لأَمْر المؤمن، إنَّ أَمْرَه كلَّه له خيرٌ») المؤمن هنا: هو العالمُ بالله، الرَّاضي بأحكامه، العامل على تصديق موعوده، وذلك: أن المؤمن المذكورَ إما أن يُبتلى بما يضرُّه، أو بما يسرُّه؛ فإن كان الأول صبر واحتسب ورضي، فحصل على خير الدنيا والآخرة وراحتهما، وإن كان الثاني عرف نعمة الله عليه، ومِنَّته فيها فشكرها، وعمل بها، فحصل على نعيم الدنيا ونعيم الآخرة.

و (قوله: «وليس ذلك إلا للمؤمن») أي: المؤمن الموصوف بما ذكرتُه؛ لأنه إن لم يكن كذلك لم يصبرْ على المصيبة ولم يحتسبها، بل: يتضجَّر ويتسخَّط، فينضافُ إلى مصيبته الدنيوية مصيبتُه في دينه، وكذلك لا يعرف النعمة، ولا يقومُ بحقِّها، ولا يشكرها، فتنقلب النعمة نقمة، والحسنة سيئةً ـ نعوذ بالله من ذلك ـ.

---

(١) هذا العنوان لم يرد في نسخ المفهم جميعها، واستدركناه من التلخيص.

[٢٥٥٦] وعن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحْرٍ واحدٍ مَرَّتين».

رواه أحمد (٢/ ٣٧٩)، والبخاريُّ (٦١٣٣)، ومسلم (٢٩٩٨)، وأبو داود (٤٨٦٢)، وابن ماجه (٣٩٨٢).

* * *

و (قوله ﷺ: «لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحْر واحدٍ مرتين») هذا مَثَلٌ صحيح، وقولٌ بليغ ابتكره النبيُّ ﷺ من فوره، ولم يُسْمَعْ من غيره، وذلك أن السبب الذي أصدره عنه هو: أنَّ أبا عزيز بن عمير الشاعر أخا مصعب بن عمير: كان يهجو النبيَّ ﷺ ويؤذيه، ويؤذي المسلمين. فأمكن اللّٰهُ تعالى منه يومَ بدر. فأُخذ أسيراً، وجيء به إلى النبي ﷺ فسأله أن يَمُنَّ عليه، ولا يعود لشيء مما كان يفعله، فمنّ النبيُّ ﷺ عليه فأطلقه. فرجعَ إلى مكة، وعاد إلى أشدِّ مما كان عليه، فلما كان يوم أحد، أمكن اللّٰهُ منه، فأُسِر، فأُحضر بين يدي النبي ﷺ فسأله أن يمنَّ عليه، فقال له النبيُّ ﷺ: «لا يُلْدَغُ المؤمنُ مِن جُحْرٍ واحدٍ مرتين، والله لا تمسح عارضيك بمكة أبداً». فَأمر بقتله. وأصل هذا المثل: أن الذي يلدغ من جحر لا يعيدُ يده إليه أبداً، إذا كان فَطِناً حذراً، بل: ولا لما يشبهه، فكذلك المؤمن لكياسته، وفَطَانته، وحَذَره إذا وقع في شيءٍ مما يضرُّه في دينه أو دنياه لا يعودُ إليه. والروايةُ المعروفة: «لا يُلدغ» بضم الغين، وكذلك قرأته على الخبر، وهو الذي يشهدُ له سببُ الخبر ومساقه، وقد قيَّده بعضُهم بسكون الغين على النهي، وفيه بُعْدٌ.

من هو الشاعر أبو عزيز؟

* * *

(٣٨) بـــاب
اشفعوا تؤجروا ومثل الجليس الصالح والسيِّىء

[٢٥٥٧] عن أبي موسى، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه طالبُ حاجةٍ أقبل على جلسائه فقال: «اشفعوا تُؤجروا، ولْيَقْض الله على لسان نبيِّه ما أحبَّ».

رواه أحمد (٤/ ٤١٣)، والبخاريُّ (١٤٣٢)، ومسلم (٢٦٢٧)، وأبو داود (٥١٣١)، والترمذيُّ (٢٦٧٤)، والنسائيُّ (٥/ ٧٨).

---

(٣٨) ومن بـــاب: اشفعوا إليَّ تُؤْجَروا

(قوله: كان رسولُ الله ﷺ إذا أتاه طالبُ حاجةٍ أقبل على جلسائه فقال: «اشفعوا تُؤجروا») كذا وقع هذا اللفظ «تُؤْجَرُوا» بغير فاء ولا لام، وهو مجزومٌ على جواب الأمر المضمَّن معنى الشرط، ومعناه واضح لا إشكالَ فيه، وقد رُوي «فلتؤجروا» بفاء ولام، وهكذا وجدتُه في أصل شيخنا أبي الصبر أيوب، وينبغي أن تكونَ هذه اللامُ مكسورةً؛ لأنها لام كي، وتكون الفاءُ زائدةً، كما زيدتْ في قوله ﷺ: «قومُوا فلأصلِّي لكم»[1] في بعض رواياته، وقد تقدَّم قولُ من قال: إنَّ الفاء قد تأتي زائدة، ويكون معنى الحديث: اشفعوا لكي تُؤْجَرُوا، ويُحتمل أن يقال: إنها لام الأمر، ويكون المأمورُ به التعرُّض للأجر بالاستشفاع؛ فكأنه قال: استشفعوا وتعرَّضوا بذلك للأجر، وعلى هذا فيجوزُ كسرُ هذه اللام على أصل لام الأمر، ويجوزُ تخفيفُها بالسكون لأجل حركة الحرف الذي قبلها.

و (قوله: «ولْيَقْضِ اللَّهُ على لسان نبيِّه ما أحبَّ») هكذا صحتِ الروايةُ هنا

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٣١)، والبخاري (٣٨٠)، ومسلم (٦٥٨)، وأبو داود (٦١٢)، والترمذي (٢٣٤)، والنسائي (٢/ ٨٥، ٨٦).

[٢٥٥٨] وعنه؛ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّما مثلُ الجليسِ الصَّالح وجليس السُّوء كحامل المسك، ونافخ الكير، ....

ولْيَقْضِ باللام، وجزم الفعل بها، ولا يصحُّ أن تكون لام كي كذلك، ولا يصحُّ أيضاً أن تكون لام الأمر؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى لا يُؤمر. وكأن هذه الصِّيغة وقعتْ موقعَ الخبر كما قد جاء في بعض نسخ مسلم، ويقضي اللَّهُ: على الخبر بالفعل المضارع، ومعناه واضح، وهذه الشفاعةُ المذكورةُ في الحديث هي في الحوائج والرَّغبات للسُّلطان، وذوي الأمر والجاه، كما شهد به صدرُ الحديث ومساقه، ولا يخفى ما فيها من الأجر والثواب؛ لأنها من باب صنائع المعروف، وكشف الكرب، ومعونة الضعيف؛ إذ ليس كلُّ أحدٍ يقدر على الوصول إلى السلطان، وذوي الأمر، ولذلك كان النبيُّ ﷺ يقول ـ مع تواضعه وقربه من الصغير والكبير[(١)] إذ كان لا يحتجب، ولا يحجب ـ: «أبلغوني حاجةَ من لا يستطيعُ إبلاغها»[(٢)] وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]. قال القاضي: ويدخل في عموم الحديث الشفاعة للمذنبين، فيما لا حدَّ فيه عند السلطان وغيره، وله قبولُ الشفاعة فيه، والعفو عنه إذا رأى ذلك كله كما له العفو عن ذلك ابتداءً. وهذا فيمن كانت منه الزَّلَّة والفلتة، وفي أهل الستر والعفاف. وأما المصرُّون على فسادهم، المستهترون في باطلهم، فلا تجوزُ الشفاعةُ لأمثالهم، ولا ترك السلطان عقوبتهم ليزدجروا عن ذلك وليرتدعَ غيرُهم بما يُفْعَلُ بهم. وقد جاء الوعيدُ بالشفاعة في الحدود.

الحض على الشفاعة في الحوائج

متى تُقبل الشفاعة في الذنوب؟

و (قوله: «إنما مثلُ جليس الصَّالح وجليس السوء») كذا وقع في بعض النسخ، وهو من باب: إضافة الشيء إلى صفته، ووقع في بعضها: «الجليس الصَّالح والجليس السوء» وهو الأفصحُ والأحسن، ثم قال بَعْدَ هذا: «كحامل

---

(١) في (ز): والضعيف.

(٢) رواه الطبراني والبيهقي كما في: كشف الخفاء (١/ ٤٣)، وفيض القدير (١/ ٨٣).

فحاملُ المسك إمَّا أن يُحْذِيَكَ، وإمَّا أنْ تبتاع منه، وإما أنْ تجدَ منه ريحاً طيبةً، ونافخُ الكِيْر، إمَّا أنْ يُحرِقَ ثيابك، وإما أنْ تجدَ ريحاً خبيثةً».

رواه أحمد (٤/٤٠٨)، والبخاريُّ (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨).

* * *

المسك ونافخ الكير» هذا نحو مما يسميه أهلُ الأدب لف الخبرين، وهو نحو قول امرىء القيس:

كَـأَنَّ قُلُـوبَ الطَّيْـرِ رَطْبـاً ويَـابِسـاً لَدَى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البَالي

فكـأنـه قـال: قلـوب الطيـر رطبـاً العنـاب، ويـابسـاً الحشـف. ومقصود هذا التمثيل: الحضُّ على صحبة العلماء، والفضلاء، وأهل الدين، وهو الذي يزيدُك نطقه علماً، وفِعْله أدباً، ونظره خشية. والزَّجر عن مخالطة مَن هو على نقيض ذلك.

الحض على صحبة العلماء والفضلاء

و (قوله: «فحامل المسك إما أن يحذيَك، وإما أن تبتاعَ منه») تطابقت الأخبار، واستفاضتْ على أنَّ المسكَ يجتمعُ في غدّة حيوان هو الغزال أو يشبهه فيتعفَّن في تلك الغدة حتَّى تيبس وتسقط، فتؤخذ تلك الغدة كالجليدات المحشوَّة، وتلك الجلدة هي المسماة: بفأرة المسك. والجمهور مِن علماء الخلف والسَّلف على طهارة المسك، وفأرته، وعلى ذلك يدلُّ استعمالُ النبيِّ ﷺ له، وثناؤه عليه، وإجازة بيعه، كما دلَّ عليه هذا الحديث. ومن المعلوم بالعادة المستمرة بين العرب والعجم استعماله، واستطابة ريحه، واستحسانه في الجاهلية والإسلام، لا يستقذره أحدٌ من العقلاء، ولا ينهى عن استعماله أحدٌ من العلماء، حتى قال القاضي أبو الفضل: نقل بعضُ أئمتنا الإجماعَ على طهارته، غير أنه قد ذكر عن العمرين كراهيته. ولا يصحُّ ذلك، فإن عمر ـ رضي الله عنه ـ قد قسم ما غنم منه بالمدينة. وقال أبو عبد الله المازري: وقال قومٌ بنجاسته، ولم يعينهم. والصحيح: القول

أصل المسك وحكمه

. . . .

بطهارته، وإن لم يكن مُجمعاً عليه للأحاديث الصحيحة، الدَّالة على ذلك؛ إذ قد كان النبيُّ ﷺ كثيراً ما يستعملُه، حتى إنه كان يخرج، ووبيص المسك في مفرقه، كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها[1] ـ. وقد تقدم قوله: «أطيب الطيب المسك»[2]، وغير ذلك. وقد قلنا: إنَّ أهلَ الأعصار الكريمة مُطْبِقُون على استطابته واستعماله؛ فإنْ قيل: كيف لا يكون نجساً وقد قلتم: إنَّه دم، والدمُ نجسٌ في أصله بالإجماع، وإنما يُعفَى عن اليسير منه لتعذُّر التحرُّز منه على ما هو مُفَصَّل في الفقه؟ فالجواب: إنَّا؛ وإن سلمنا أن أصلَ المسك الدم، فلا نُسَلِّمُ أنه بقي على أصل الدموية، فإن الدَّم إذا تعفَّن تغيَّر لونُه ورائحتُه إلى ما يُسْتَقْذَر ويُسْتَخْبَث، فاستحال إلى فساد، وليس كذلك المسك؛ فإنه قد استحال إلى صلاح يُستطاب ويُستحسن، ويُفَضَّل على أنواع كلِّ الطيب، وهذا كاستحالة الدم لبناً وبيضاً، وإن شئت حررتُ فيه قياساً فقهياً فقلت: مائع له مقرٌّ يستحيلُ فيه إلى صلاح، ويكون طاهراً كاللبن والبيض. وتكميلُ هذا القياس في مسائل الخلاف.

و (قوله: «إما أن يُحْذِيَك») هو بضم الياء رباعياً من أحذيته: إذا أعطيته، وفي الصحاح: أحذيته نعلاً: إذا أعطيته نعلاً، تقول منه: استحذيته فأحذاني، وأحذيته من الغنيمة: إذا أعطيته منها، والاسم: الحذيا. والكير: منفخ الحداد. والكور: المبنى الذي يُنْفَخُ فيه على النار والحديد. ويجوز أن يُعبَّر بالكير عن الكور.

* * *

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٤١)، والبخاري (٢٧١)، ومسلم (١١٩٠).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣١ و ٤٧)، ومسلم (٢٢٥٢)، والترمذي (٩٩١)، والنسائي (٤/ ٣٩).

(٣٩) بـــاب
ثواب من ابتلي بشيء من البنات وأحسن إليهن

[٢٥٥٩] عن عائشة، قالت: جاءتني امرأةٌ ومعها ابنتان لها، فسألتني، فلم تَجِدْ عندي شيئاً غير تمرةٍ واحدةٍ، فأعطيتُها إيَّاها، فأخَذَتْها، فَقَسَمَتْها بين ابنتيها، ولم تأكلْ منها شيئاً، ثم قامتْ فخرجتْ وابنتاها، فدخل عليَّ النَّبيُّ ﷺ، فحدَّثْتُه حديثَها، فقال النَّبيُّ ﷺ: «مَن ابتُلي مِنَ البنات بشيءٍ فأحسن إليهنَّ كُنَّ له سِتْراً من النَّار».

---

(٣٩) ومن بـــاب: ثواب القيام على البنات والإحسان إليهن

الإحسان إلى البنت ينجّي من النار

(قوله: «من ابتلي بشيءٍ من البنات فأحسن إليهن كنَّ له ستراً من النار») ابتلي: امتحن واختبر. وأحسن إليهن: صانهنَّ، وقام بما يصلحهن، ونظر في أصلح الأحوال لهن، فمن فعل ذلك، وقصد به وَجْهَ الله تعالى، عافاه الله تعالى من النَّار، وباعده منها، وهو المعبَّر عنه بالستر من النار. ولا شكَّ في أنَّ مَن لم يدخل النارَ دخل الجنَّة، وقد دلَّ على ذلك قولُه في الرواية الأخرى في المرأة التي قسمت التمرة بين بنتيها: إنَّ اللَّه قد أوجب لها الجنة، وأعاذها من النار.

و (قوله: «بشيءٍ من البنات») يفيدُ بحكم عمومه: أنَّ الستر من النار يحصلُ بالإحسان إلى واحدةٍ من البنات، فأما إذا عال زيادةً على الواحدة فيحصلُ له زيادة على الستر من النار السَّبقُ مع رسول الله ﷺ إلى الجنة، كما جاء في الحديث الآخر، وهو قوله: «من عالَ جاريتين حتى تبلغا جاء يومَ القيامة أنا وهو ـ وضمَّ بين أصابعه ـ». ومعنى: «من عال جاريتين حتى تبلغا»: قام عليهما بما يصلحهما ويحفظهما. يقال منه: عال الرجل عياله، يعولُهم، عولاً وعيالة، ويقال: علته شهراً؛ إذا كفيته معاشه. ويعني ببلوغهما وصولهما إلى حالٍ يستقلَّان بأنفسهما، وذلك إنما يكون في النساء، إلى أن يدخلَ بهن أزواجُهُنَّ، ولا يعني ببلوغها إلى أن

متى تستغني البنت عن كافلها

وفي روايةٍ: فأطعمتُهما ثلاثَ تَمَراتٍ، فأعْطَتْ كلَّ واحدةٍ منهما تمرةً، ورفعتْ إلى فيها تمرةً لتأكُلَها، فاسْتَطْعَمَتْها ابنتاها، فشقَّت التَّمرةَ التي كانت تريدُ أن تأكلَها بينهما، فأعجبني شأنُها، فذكرتُ الذي صَنَعَتْ لرسولِ الله ﷺ فقال: «إنَّ الله قد أوجب لها بها الجنَّة»، أو: «أعتقها بها من النَّار».

رواه أحمد (٦/ ٣٣ و ٩٢)، والبخاريُّ (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩)، والترمذيُّ (١٩١٣)، وابن ماجه (٣٦٦٨).

[٢٥٦٠] وعن أنسٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ عال جاريتين حتى تَبْلُغا جاء يوم القيامة أنا وهو - وضَمَّ أصابِعَهُ -».

رواه أحمد (٣/ ١٤٧ - ١٤٨)، ومسلم (٢٦٣١)، والترمذيُّ (١٩١٤).

* * *

تحيض وتكلّف، إذ قد تتزوَّجُ قبل ذلك فتستغني بالزوج عن قيام الكافل، وقد تحيضُ وهي غيرُ مُستقلَّة بشيءٍ من مصالحها، ولو تُركت لضاعت، وفسدتْ أحوالُها. بل: هي في هذه الحال أحقُّ بالصيانة، والقيام عليها لتكمل صيانتُها فيُرْغب في تزويجها، ولهذا المعنى قال علماؤنا: لا تسقط النفقةُ عن والد الصَّبيَّة بنفس بلوغها، بل: بدخول الزَّوج بها.

* * *

(٤٠) بـــاب
من يموت له شيء من الولد فيحتَسِبُهُم

[٢٥٦٠] عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا يموتُ لأحدٍ من المسلمين ثلاثةٌ مِنَ الولد فَتَمَسَّه النَّارُ إلا تَحِلَّةَ القَسَم».

[(٤٠) ومن بـــاب: من يموت له شيء من الولد فيحتسبهم][١]

(قوله: «لا يموتُ لأحدٍ من المسلمين ثلاثةٌ من الولد فتمسَّه النار...») الولد: يقال على الذكر والأنثى بخلاف الابن، فإنه يقالُ على الذكر: ابن، وعلى الأنثى: ابنة، وقد تَقَيَّد مطلقُ هذه الرواية، بقوله في الرواية الأخرى: «لم يبلغوا الحنث» كما تقيَّد مطلقُ حديثِ أبي هريرة بحديث أبي النضر السُّلَمِيِّ؛ فإنه قال فيه: «لا يموتُ لأحدٍ من المسلمين ثلاثةٌ من الولد فيحتسبهم». فقوله: «لم يبلغوا الحنث» أي: التكليف. والحنث: الإثم. وإنما خصَّه بهذا الحد؛ لأنَّ الصَّغير حبُّه أشدّ، والشفقة عليه أعظم، وقيَّده بالاحتساب لما قررناه غير مرَّة: أنَّ الأجورَ على المصائب لا تحصلُ إلا بالصَّبر والاحتساب، وإنما خصَّ الولدَ بثلاثة؛ لأنَّ الثلاثة أوَّلُ مراتب الكثرة، فتعظم المصائب، فتكثُر الأجور؛ فأما إذا زاد على الثلاثة فقد يخفُّ أمرُ المصيبة الزَّائدة، لأنها: كأنَّها صارتْ عادةً ودَيْدَناً، كما قال المتنبي:

الأجر على المصائب لا يحصل إلا بالصبر والاحتساب

أنْكَـرْتُ طَـارِقَـةَ الحَـوَادِثِ مَـرَّةً ... ثُـمَّ اعْتَرَفْتُ بِهَـا فَصَـارَتْ دَيْدَنا

وقـــال آخـــر:

رُوِّعَـتُ بـالبَيْـنِ حَتَّـى مَـا أُراعَ لَـهُ ... وَبِالمَصائِبِ في أَهْلِي وَجِيرانِي

ويُحتمل أن يقال: إنما لم يذكرْ ما بعد الثلاثة؛ لأنه من باب الأحرى والأولى؛ إذْ من المعلوم: أنَّ من كثرتْ مصائبُه كثرُ ثوابُه، فاكتفي بذلك عن ذِكْره،

---

(١) هذا العنوان ليس في نسخ المفهم، واستدركناه من التلخيص.

وفي روايةٍ: «لم يبلغوا الحِنْثَ إلا تَحِلَّة القَسَم».

رواه أحمد (٢/ ٢٣٩)، والبخاريُّ (١٢٥١)، ومسلم (٢٦٣٢) (١٥٠) و (٢٦٣٤)، والترمذيُّ (١٠٦٠)، والنسائيُّ (٤/ ٢٥)، وابن ماجه (١٦٠٣).

والله تعالى أعلم. وقد استشكل بعضُ الناس قوله ﷺ: «لا يموت لإحداكنَّ ثلاثةٌ من الولد إلا كانوا لها حجاباً من النار». ثم لما سئل عن اثنين، قال: «واثنين». ووجهه: أنه إذا كان حُكْم الاثنين حكم الثلاثة، فلا فائدةَ لِذِكْر الثلاثة أوّلاً، وهذا إنما يصدرُ عمن يعتقدُ أنَّ دلالةَ المفهوم نصُّ كدلالة المنظوم، وليس الأمرُ كذلك، بل: هي عند القائلين بها مِن أضعف جهات دلالات الألفاظ، وسائر وجوه الدّلالات مُرجَّحةٌ عليها كما بيَّنَّاه في الأصول، هذا إنْ قلنا: إنَّ أسماءَ الأعدادِ لها مَفْهُوم؛ فإنه قد اختلفَ في ذلك القائلون بالمفهوم، وألحقوا هذا النوعَ باللّقب الذي لا مفهومَ له باتفاقِ المحقِّقين، ثم إنَّ الرَّافع لهذا الإشكال أن يُقالَ: إنَّ الثوابَ على الأعمال إنما يُعْلَمُ بالوحي، فيكون اللّهُ تعالى قد أوحى إلى نبيِّه بذلك في الثلاثة، ثم إنه لما سُئِل عن الاثنين أوحى اللّه إليه في الاثنين بمثل ما أوحى إليه بالثلاثة، ولو سُئل عن الواحد لأجاب بمثل ذلك كما قد دلَّت عليه الأحاديثُ المذكورةُ في ذلك، ويُحتمل أن يقال: إنَّ ذلك بحسب شدَّة وَجْدِ الوالدة، وقوّة صَبْرها، فقد لا يبعدُ أن تكونَ مَنْ فقدتْ واحداً أو اثنين أشدّ ممن فقدتْ ثلاثةً أو مساويةً لها، فتلحقُ بها في درجتها، واللّهُ تعالى أعلم.

الثواب على الأعمال يُعلم بالوحي

و (قوله: «إلّا تحلّة القسم») أي: ما يُحلَّل به القسم، وهو اليمين. وقد اختلف في هذا القسم، هل هو قسم معيَّن، أم لا؟ فالجمهورُ على أنه قسمٌ بعينه، فمنهم من قال: هو قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٨]. وقيل: هو قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]. وقيل: هو قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] أي: قسماً واجباً؛ كذلك فسَّره ابنُ مسعود

[٢٥٦٢] وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ، قال: جاءت امرأةٌ إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه، تُعَلِّمنا ممَّا علمك الله. قال: «اجْتَمِعْنَ يوم كذا وكذا» فاجْتَمَعْنَ، فأتاهُنَّ رسولُ الله ﷺ فعلَّمَهُنَّ مما علَّمَهُ الله، ثم قال: «ما مِنْكُنَّ من امرأةٍ تُقدِّمُ بين يديها من وَلَدِها ثلاثةً إلا كانوا لها حجاباً من النَّار». فقالت امرأة مِنهُنَّ: واثنين، واثنين، واثنين؟ فقال رسول الله ﷺ: «واثنين، واثنين، واثنين!».

رواه أحمد (٣/ ٣٤)، والبخاريُّ (١٠١)، ومسلم (٢٦٣٣).

[٢٥٦٣] وعن أبي حَسَّانَ، قال: قُلْتُ لأبي هريرة: قد مات لي ابنان فما أنت مُحَدِّثي عن رسول الله ﷺ بحديثٍ تُطَيِّبُ أنفُسَنا عن موتانا؟

والحسن. وأما من قال: لم يُعيَّنْ به قسمٌ بعينه، فهو ابنُ قتيبة. قال معناه: التقليل لأمر ورودها. وتحلَّة القسم: تُسْتَعْمَلُ في هذا في كلام العرب، وقيل معناه: لا تمسه النار قليلاً، ولا تلحة القسم، كما قيل في قوله:

وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ   لَعَمْرُ أَبِيكَ إلّا الفَرْقَدانِ

أي: والفرقدان، على أحد الأقوال فيه.

قلتُ: والأشبهُ: قول أبي عبيد، ولبيان وجه ذلك موضعٌ آخر.

تعليم النساء

و (قوله ﷺ للنساء: «اجتمِعْنَ في يوم كذا») يدلُّ على أن الإمامَ ينبغي له أن يعلِّمَ النساءَ ما يحتجن إليه من أمر أديانهنَّ، وأن يخصَّهنَّ بيومٍ مخصوصٍ لذلك، لكن في المسجد أو فيما كان في معناه حتى تؤمن الخلوة بهنَّ، فإن تمكَّن الإمامُ من ذلك بنفسه فعل، وإلا استنهض الإمامُ شيخاً يُوثَقُ بعلمه ودِيْنه لذلك حتى يقوم بهذه الوظيفة، وفي هذا الحديث ما يدلُّ على فضل نساء ذلك الوقت، وما كانوا

قال: نعم! «صِغَارُهم دَعَامِيصُ الجنَّة، فَيَلْقَىٰ أحدُهم أباه، أو قال: أبويه، فيأخذ بثوبه. أو قال: بيده، كما آخذُ أنا بِصَنِفَةِ ثوبك هذا، ....

عليه من الحرص على العلم، والحديث عن رسول الله ﷺ، وكما قالت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ: نعم النساءُ نساءُ الأنصار، لم يكن يمنعهنَّ الحياءُ أن يتفقَّهن في الدِّين[1].

و (قوله: «صغارُهم دعاميصُ الجنة») هي جمع دعموص، وهو دُويبةٌ تغوصُ في الماء، والجمع دعاميص، ودعامص. قال الأعشى:

فَما ذَنْبُنا إِنْ جَاشَ بَحْرُ ابنِ عَمِّكُمْ ... وبَحْرُكَ سَاجٍ لاَ يُوَارِي الدَّعامِصا؟

ودعيميص الرمل: اسمُ رجل كان داهياً، يُضْرَب به المثل. يقال: هو دعيميص هذا الأمر: أي: عالمٌ به.

قلتُ: هذا الذي وجدتُه في كتب اللغة، وأصحاب الغريب: أنَّ الدعموصَ دويبةٌ تغوصُ في الماء، ولا يليقُ هذا المعنى بالدعاميص المذكورين في هذا الحديث؛ إلا على معنى تشبيه صغار الجنة بتلك الدُّويبة في صغرها، أو في غوصهم في نعيم الجنة، وكلُّ ذلك فيه بُعْدٌ. وقد سمعت مِن بعض مَن لقيتُه: أن الدعموصَ يُرادُ به الآذن على الملك، المتصرِّف بين يديه. وأنشد لأمية بن أبي الصلت:

دُعْمُوصِ أبوابِ الملو ... كِ وجائبٍ لِلْخَرْقِ فَاتِحْ

قلت: وهذا يناسبُ ما ذكره في هذا الحديث.

و (قوله: كما آخذ أنا بصَنِفَةِ ثوبك) هو بكسر النون. قال الجوهري: صنِفة الإزار ـ بكسر النون ـ: طُرَّتُه، وهو جانبه الذي لا هدبَ له، ويقال: هي حاشيةُ

---

(١) رواه مسلم (٣٣٢) (٦١).

فلا يتناهى، أو قال: فلا ينتهي حتى يُدْخِلَه اللَّهُ وأبويه الجنَّة».

رواه مسلم (٢٦٣٥).

[٢٥٦٤] وعن أبي هريرة، قال: أَتَتْ امرأةٌ النبي ﷺ بصبيٍّ لها، فقالت: يا نبي الله! ادع الله له، فلقد دفنت ثلاثةً! قال: «دفنتِ ثلاثةً؟!» قالت: نعم. قال: «لقد احْتَظَرْتِ بحظارٍ شديدٍ من النَّار».

رواه مسلم (٢٦٣٦) (١٥٥).

* * *

الثوب أيَّ جانبٍ كان، وقال غيره: صنفة الثوب وصنيفته: طرفه.

و (قوله: فلا يتناهى، أو قال ينتهي حتى يدخله اللَّهُ وأبويه الجنة) أي: ما يترك ذلك. يقال: انتهى وتناهى وأنهى بمعنى ترك، وهكذا الرواية المشهورة: «أبويه» بالتثنية. وعند ابن ماهان: «أباه» بالباء بواحدة. وعند عبدالغافر: «وإياه» بالياء من تحتها، وكلٌّ له وجهٌ واضح. وفي هذا الحديث ما يدلُّ على أن صغارَ أولاد المؤمنين في الجنة، وهو قول أكثر أهل العلم، وهو الذي تدلُّ عليه أخبارٌ صحيحة كثيرة، وظاهِرُ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١]. وقد أنكر بعضُ العلماء الخلافَ فيهم، وهذا فيما عدا أولاد الأنبياء، فإنه قد تقرَّر الإجماعُ على أنهم في الجنة، حكاه أبو عبد الله المازري، وإنما الخلافُ في أولاد المشركين على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

مصير أولاد المؤمنين في الآخرة

و (قوله: «لقد احتظرتِ بحظارٍ شديد من النَّار») أي: امتنعتِ، وأصلُ الحظر: المنع. والحِظار: ما يُدار بالبستان من عيدان وقصب، سُمِّي بذلك لأنه يمنعُ مَن يريدُ الدُّخول. والحظيرة والمحظور منه، والحظار هنا: هو الحجابُ المذكور في الحديث الآخر.

(٤١) بـــاب
إذا أحبَّ الله عبداً حبَّبه
إلى عباده والأرواحُ أجنادٌ. . .

[٢٥٦٥] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله إذا أحبَّ عبداً دعا جِبْريلَ فقال: إنِّي أُحِبُّ فلاناً فأحبَّه! قالَ: فيُحِبُّه جبريلُ، ثُمَّ ينادي في السَّماء فيقول: إنَّ الله يحبُّ فلاناً فأحبُّوه! فَيُحِبُّه أهلُ السَّماء.

---

(٤١) ومن بـــاب: إذا أحبَّ الله عبداً حبَّبه إلى عباده، والأرواح أجناد مجندة، والمرء مع من أحبَّ

محبة الله للعبد وأعماله

قد تقدَّم: أنَّ معنى محبَّةِ الله للعبد: إرادة إكرامه، وإثابته. ولأعمال العباد: إثابتهم عليها، وأنَّ محبَّة اللَّهِ تعالى منزَّهةٌ عن أن تكون ميلاً للمحبوب، أو شهوة؛ إذ كلُّ ذلك من صفاتنا، وهي دليلُ حدوثنا، واللَّهُ تعالى مُنزَّهٌ عن كلِّ ذلك.

وأما محبة المَلَك فلا بُعْدَ في أن تكون على حقيقتها المعقولة في حقوقنا، ولا إحالة في شيءٍ من ذلك.

محبـة المَلَـك للعبد

وإعلامُ الله تعالى جبريل، وإعلامُ جبريل الملائكة بمحبة العبد المذكور تنويهٌ به، وتشريفٌ له في ذلك الملأ الكريم، وليحصل من المنزلة المنيفة على الحظِّ العظيم، وهذا من نحو قوله ﷺ حكايةً عن الله تعالى حيث قال: «أنا مع عبدي إذا ذكرني؛ إن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خيرٍ منهم»[(١)]. ويجوز أن يرادَ بمحبة الملائكة: ثناؤهم عليه، واستغفارهم له، وإكرامهم له عند لقائه إياهم.

---

(١) رواه أحمـــد (٢/ ٢٥١ و ٤١٣)، والبخـــاري (٧٤٠٥)، ومسلـــم (٢٦٧٥) (٢١)، والترمذي (٣٦٠٣)، وابن ماجه (٣٨٢٢).

قال: ثُمَّ يُوضَع له القَبُولُ في الأرض. وإذا أبغض عبداً دعا جِبْريلَ فيقولُ: إنِّي أُبغِضُ فلاناً فأبْغِضْه! قال: فيُبْغِضُه جبريلُ، ثُمَّ ينادي في أهل السَّماء: إنَّ اللَّه يُبْغِضُ فلاناً فأبْغِضُوه! قال: فَيُبْغِضُونَه، ثُمَّ يوضع له البغضاءُ في الأرض».

رواه أحمد (٢/ ٥١٤)، والبخاريُّ (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧) (١٥٧)، والترمذيُّ (٣١٦١).

[٢٥٦٦] وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «الأرواحُ أجنادٌ مجنَّدةٌ؛ فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اخْتَلَف».

معنى وَضْع القبول في الأرض

و (قوله: «ثم يوضع له القبولُ في الأرض») يعني بالقبول: محبة قلوب أهل الدِّين والخير له، والرِّضا به، والسُّرور بلقائه، واستطابة ذكره في حال غيبته، كما أجرى الله تعالى عادته بذلك في حقِّ الصَّالحين من سَلف هذه الأمَّة ومشاهير الأئمة. والقولُ في البغض على النقيض من القول في الحبِّ.

و (قوله: «الأرواح أجناد مجندة»). قد تقدَّم القولُ في الرُّوح والنفس في كتاب الطَّهارة. ومعنى (أجناد مجنَّدةٌ): أصناف مصنفة. وقيل: أجناس مختلفة.

الأرواح تتمايز بأمور وأحوال مختلفة

ويعني بذلك: أنَّ الأرواحَ وإن اتفقتْ في كونها أرواحاً؛ فإنَّها تتمايز[١] بأمورٍ وأحوالٍ مختلفةٍ تتنوَّع بها فتتشاكل أشخاصُ النَّوع الواحد، وتتناسبُ بسبب ما اجتمعت فيه من المعنى الخاصِّ لذلك النوع للمناسبة، ولذلك نشاهد[٢] أشخاص كلِّ نوعٍ تألف نوعها، وتنفر من مخالفها، ثمَّ إنَّا نجد بعضَ أشخاص النوع الواحد تتآلف، وبعضها تتنافر، وذلك بحسب أمورٍ تتشاكل فيها، وأمور تتباعد فيها،

---

(١) في (ز): تتباين.
(٢) في (م ٤): نجد.

وفي روايةٍ: «النَّاس معادنُ كمعادن الذَّهبِ والفضَّةِ؛ خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فَقُهُوا. والأرواح جنود...» وذكره.

رواه أحمد (٢/ ٢٩٥)، ومسلم (٢٦٣٨) (١٥٩ و ١٦٠)، وأبو داود (٤٨٣٤).

* * *

كالأرواح المجبولة على الخير، والرَّحمة، والشَّفقة، والعدل، فتجد مَن جُبِل على الرَّحمة يميلُ بطبعه لكلِّ من كان فيه ذلك المعنى، ويألفه، ويسكن إليه، وينفرُ ممَّن اتَّصفَ بنقيضه، وهكذا في الجفاء والقسوة، ولذلك قد شاع في كلام النّاس قولهم[1]: المناسبة تؤلِّف بين الأشخاص، والشكل يألف شكله، والمثل يجذب مثله. وهذا المعنى هو أحدُ ما حُمِل عليه قوله ﷺ: «فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» وعلى هذا فيكون معنى تعارف: تناسب. وقيل: إنَّ معنى ذلك هو ما تعرَّف الله به إليها من صفاته، ودلَّها عليه من لطفه وأفعاله، فكلُّ روحٍ عُرف من الآخر أنَّه تعرَّف إلى الله بمثل ما تعرَّف هو به إليه. وقال الخطَّابيُّ: هو ما خلقها اللَّهُ تعالى عليه من السَّعادة والشَّقاوة في المبدأ الأول.

معنى تعارف الأرواح

قلــتُ: وهذان القولان راجعان إلى القول الأوَّل، فتدبَّرْهما.

ويُستفاد من هذا الحديث: أن الإنسان إذا وَجَد من نفسه نفرةً ممَّن له فضيلةٌ أو صلاح فتَّش على الموجب لتلك النفرة، وبحث عنه بنور العلم؛ فإنه ينكشفُ له، فيتعيَّن عليه أن يسعى في إزالة ذلك، أو في تضعيفه بالرياضة السياسية، والمشاهدة[2] الشرعية حتى يتخلَّص من ذلك الوصف المذموم، فيميلُ لأهل

مَن نَفَرت نفسُه من الصالحين

---

(١) ليست في (ز).

(٢) في (ز): المجاهرة.

(٤٢) بـــاب

المرء مع من أحب وفي الثناء على الرجل الصالح

[٢٥٦٧] عن أنس بن مالكٍ، قال: بَيْنا أنا ورسولُ الله ﷺ خارجان من المسجد فلَقِيْنا رجلاً عند سُدَّةِ المسجد، فقال: يا رسول الله! متى الساعةُ؟ قال رسول الله ﷺ: «ما أعددتَ لها؟»، قال: وكأنَّ الرجل استكان، ثُمَّ قال: يا رسول الله! ما أعددتُ لها كبير صلاةٍ، ولا صيامٍ، ولا صدقةٍ، ....

الفضائل والعلوم، وكذلك القول فيما إذا وَجَد ميلاً لمن فيه شرٌّ، أو وصفٌ مذموم.

وقد تقدَّم القولُ على قوله: «الناس معادن» في كتاب المناقب.

[(٤٢) ومن بـــاب: المرء مع من أحب وفي الثناء على الرجل الصالح][1]

(قوله: فلقينا رجلاً عند سدَّة المسجد) يعني: عند باب المسجد، والسدَّة تقال على ما يسدَّ به الباب، وعلى المسدود الذي هو الباب.

و (قوله: فكأن الرجلَ استكان) أي: سكن تذلُّلاً.

و (قوله: ما أعددتُ لها كبيرَ صلاة، ولا صيام، ولا صدقة) يعني بذلك: النوافل من الصلاة، والصَّدقة، والصوم؛ لأن الفرائضَ لا بُدَّ له ولغيره من فعلها، فيكون معناه: أنه لم يأتِ منها بالكثير الذي يُعتمد عليه، ويُرتجى دخول الجنة

---

(١) هذا العنوان لم يرد في نسخ المفهم، واستدركناه من التلخيص.

ولكنِّي أحبُّ اللَّهَ ورسولَه! قال: «فأنت مع مَنْ أحببتَ».

وفي روايةٍ: قال: «ما أعددتَ للسَّاعة؟» قال: حبَّ اللَّهِ ورسوله! قال: «فإنك مع من أحببتَ». قال أنس: فما فَرِحْنا بعد الإسلام فَرَحاً أشدَّ من قول النَّبيِّ ﷺ: «فإنَّك مع مَنْ أحببت». قال أنس: فأنا أُحِبُّ اللَّهِ، ورسولَه، وأبا بكرٍ، وعمر، فأرجو أن أكونَ معهم وإن لم أعمل بأعمالهم.

رواه أحمد (٣/ ١٩٢)، والبخاريُّ (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩) (١٦٣ و ١٦٤)، وأبو داود (٥١٢٧)، والترمذيُّ (٢٣٨٥).

بسببه، هذا ظاهِرُه، ويُحتمل أن يكون أراد أنَّ الذي فعله من تلك الأمور ـ وإن كان كثيراً ـ فإنه محتقرٌ بالنسبة إلى ما عنده من محبة الله تعالى ورسوله، فكأنه ظهر له: أنَّ محبةَ الله ورسوله أفضلُ الأعمال، وأعظمُ القُرَب، فجعلها عُمدته، واتخذها عُدَّته، والله تعالى أعلم.

محبة الله ورسوله أفضل الأعمال

و (قوله: «فأنت مع من أحببت») قد تكلَّمنا عليه في غير موضع.

و (قوله: ما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشدّ من قول النبيِّ ﷺ) هكذا وقع هذا اللفظ في الأصول، وفيه حذفٌ وتوسُّعٌ، تقديره: فما فرحنا فرحاً أشدَّ مِنْ فَرَحنا بقول النَّبيِّ ﷺ ذلك القول، وسُكِت عن ذلك المحذوف للعلم به. وإنما كان فرحُهم بذلك أشدّ؛ لأنهم لم يسمعوا أن في أعمال البِرِّ ما يحصلُ به ذلك المعنى من القُرب من النبيِّ ﷺ والكون معه؛ إلا حبَّ الله ورسوله، فأعظمْ بأمرٍ يُلْحِقُ المقصِّرَ بالمشمِّر، والمتأخِّرَ بالمتقدم. ولما فهم أنس: أنَّ هذا اللفظَ محمولٌ على عمومه علَّق به رجاءه، وحقَّق فيه ظنَّه، فقال: أنا أحبُّ الله، ورسوله، وأبا بكرٍ، وعمر، فأرجو أن أكونَ معهم، وإن لم أعملْ بأعمالهم. والوجهُ الذي تمسَّك به أنس يشملُ من المسلمين المحبِّين كلَّ ذي نفسٍ، فلذلك تعلَّقت أطماعُنا بذلك؛ وإن كنَّا مقصرين، ورجونا رحمةَ الرحمن، وإن كنَّا غير مستأهلين.

[٢٥٦٨] وعن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! كيف ترى رجلاً أحبَّ قوماً ولمَّا يلحقْ بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «المرءُ مَعَ مَنْ أحبَّ».

رواه أحمد (١/ ٣٩٢)، والبخاريُّ (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠).

[٢٥٦٩] وعن أبي ذرٍّ، قيل لرسولِ الله ﷺ: أرأيتَ الرَّجلَ يعملُ العمل من الخير ويحْمَدُه النَّاسُ عليه؟ قال: «تلك عاجلُ بشرى المؤمن».

وفي روايةٍ: ويحبُّه الناس عليه، (بدل): يحمده.

رواه أحمد (٥/ ١٥٧)، ومسلم (٢٦٤٢)، وابن ماجه (٤٢٢٥)..

* * *

ما يعامل الله به المخلصين في الأعمال

و (قوله: أرأيتَ الرجل يعملُ العملَ من الخير ويَحْمَدُه النّاسُ عليه) يعني: الرجل الذي يعملُ العملَ الصَّالح خالصاً، ولا يريدُ إظهاره للناس؛ لأنه لو عمله ليحمدَه الناس أو يبرُّوه لكان مرائياً، ويكون ذلك العملُ باطلاً فاسداً، وإنما اللَّهُ تعالى بلطفه، ورحمته، وكرمه يُعامِل المخلصين في الأعمال، الصَّادقين في الأقوال والأحوال بأنواعٍ من اللُّطف، فيقذفُ في القلوب محبَّتهم، ويُطْلِقُ الألسنةَ بالثَّناء عليهم، لينوِّه بذكرهم في الملأ الأعلى؛ ليستغفروا لهم، وينشر طيبَ ذكرهم في الدنيا لِيُقْتَدَى بهم، فيعظم أجرهم، وترتفع منازلهم، وليجعل ذلك علامة على استقامة أحوالهم، وبشرى بحسن مآلهم، وكثير ثوابهم، ولذلك قال: «تلك عاجلُ بشرى المؤمن». والله تعالى أعلم.

* * *

(٣٥)
كتاب القدر

(١) باب
في كيفية خلق ابن آدم

[٢٥٧٠] عن عبد الله بن مسعودٍ، قال: حدَّثنا رسولُ الله ﷺ ـ وهو

---

(٣٥)
كتاب القدر

قد تقدم في كتاب الإيمان القولُ في لفظ القدر، ومعناه، واختلاف الناس فيه.

[(١) ومن باب: في كيفية خلق آدم][١]

مراحل خَلْق الإنسان في بطن أمّه

(قوله: «إنَّ أحدَكم يُجمع خَلْقُه في بطن أمّه أربعين يوماً») يعني ـ واللَّهُ تعالى أعلم ـ: أنَّ المنيَّ يقعُ في الرحم حين انزعاجه بالقوة الشهوانية الدَّافعة مبثوثاً

---

(١) لم يردْ هذا العنوان في نسخ المفهم جميعها، واستدركناه من التلخيص. وقد شرح المؤلِّفُ ـ رحمه الله ـ في المفهم، في هذا الموضع، ما أشكل في أحاديث بابَيْن من التلخيص، هذا أحدهما، والثاني هو: باب: السعيد سعيد في بطن أمّه، والشقي شقيّ في بطن أمّه.

الصادق المصدوق ـ: «إنَّ أحدَكُم يُجْمَعُ خَلْقُه في بطن أمِّه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك عَلَقَةً مِثْلَ ذلك، ثم يكون في ذلك مُضْغَةً مثل ذلك، ثم يُرْسِلُ الله المَلَك فينفخُ فيه الرُّوحَ، ....

متفرقاً، فيجمعه اللَّهُ تعالى في محلِّ الولادة من الرَّحِم في هذه المدَّة. وقد جاء في بعض الحديث عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ تفسير: «يجمع في بطن أمه»: أن النطفةَ إذا وقعتْ في الرحم، فأراد اللَّهُ تعالى أن يخلقَ منها بشراً طارتْ في بشر المرأة تحت كلِّ ظفر وشعر، ثم تمكث أربعين ليلة، ثم تصير دماً في الرحم، فذلك جمعها، وهذا وقتُ كونها علقة، والعلق: الدم[1].

و (قوله: «ثم يكون في ذلك علقةً مثل ذلك») و «ذلك» الأول إشارة إلى المحلِّ الذي اجتمعتْ فيه النطفة، وصارتْ علقةً، و «ذلك» الثاني إشارة إلى الزَّمان الذي هو الأربعون، وكذلك القولُ في قوله: «ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك» والمضغة: قدر ما يمضغه الماضغُ من لحم أو غيره.

نفخ الروح في الجنين

و (قوله: «ثم يرسل اللَّهُ الملكَ فينفخُ فيه الروح») يعني: الملك الموكَّل بالرَّحِم، كما قال في حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ: «إن الله قد وكَّل بالرحم ملكاً»[2]. وظاهِرُ هذا السياق: أن المَلَك عند مجيئه ينفخُ الروحَ في المضغة، وليس الأمرُ كذلك؛ بل: إنما ينفخُ الروحَ فيها بعد أن تتشكَّل تلك المضغةُ بشكل ابن آدم، وتتصوَّر بصورته، كما قال تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤]، وكما قال في الآية الأخرى: ﴿مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ

---

(١) انظر في فتح الباري (١١/ ٤٨٠) كلاماً طويلاً حول هذا الموضوع، وكلّ ما قيل تفسيراً لحديث رسول الله ﷺ هو من الاجتهادات الشخصية في وقتٍ لم يكن العلم قد قال الكلمة الفصل في هذا الموضوع.

(٢) رواه مسلم (٢٦٤٦).

ويُؤْمَرُ بأربع كلماتٍ : بكَتْبِ رزقِه، وأَجلِه، وعملِه ، وشقيٌّ أو سعيدٌ،

مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]. فالمخلَّقة: المصوَّرة، وغير المخلَّقة: السقط. قال أبو العالية وغيره: وهذا التخليقُ والتصويرُ يكون في مدة أربعين يوماً، وحينئذ يُنفخ فيه الرُّوح، وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] في قول الحسن والكبيِّ من المفسِّرين. قال القاضي: ولم يُختلف: أن نَفْخَ الروح فيه بَعْدَ مئة وعشرين يوماً، وذلك تمام أربعة أشهر، ودخوله في الخامس، وهذا موجودٌ بالمشاهدة، وعليه يُعوَّلَ فيما يحتاجُ إليه من الأحكام في الاستلحاق عند التنازع، وفي وجوب النفقات على حَمْل المطلّقات، وذلك لتيقّنه بحركة الجنين في الجوف. وقد قيل: إنَّه الحكمة في عدَّة المرأة من الوفاة بأربعة أشهر وعشر. وهذا الدخولُ في الخامسة يُحقِّق براءةَ الرحم ببلوغ هذه المدَّة إذا لم يظهرْ حَمْلٌ. ونَفْخُ المَلَك في الصورة سببٌ يخلقُ اللَّهُ عنده بها الروحَ والحياة؛ لأن النفخَ المتعارفَ إنَّما هو إخراجُ ريح من النَّافخ يتَّصل بالمنفوخ فيه، ولا يلزم منه عقلاً، ولا عادة في حقنا تأثير في المنفوخ فيه؛ فإن قُدِّر حدوثُ شيءٍ عند ذلك النَّفخ، فذلك بإحداث الله تعالى لا بالنفخ، وغايةُ النفخ: أن يكونَ معدّاً عادياً لا موجباً عقلياً، وكذلك القولُ في سائر الأسباب المعتادة، فتأمَّل هذا الأصلَ، وتمسَّكْ به، فبه النجاةُ من مذاهب أهلِ الضلال من أهل الطَّبائع وغيرهم.

كتابةُ المَلَك أربع كلمات

و (قوله: «ويُؤمر بأربع كلمات: بِكَتْب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد») ظاهِرُ هذا اللفظ: أنَّ الملك يُؤمَر بكتب هذه الأربعة ابتداءً، وليس كذلك، بل: إنما يُؤمر بذلك بعد أن يَسْأَلَ عن ذلك فيقول: يا رب! ما الرزق؟ ما الأجل؟ ما العمل؟ وهل شقيٌّ أو سعيدٌ؟ كما تضمَّنته الأحاديثُ الآتية بَعْدُ، بل: قد روى يحيى بن زكريا بن أبي زائدة قال: حدثنا داود، عن عامر، عن علقمة، عن ابن مسعود، وعن ابن عمر: «إن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملكٌ بكفِّه، وقال: أي ربّ! أذكرٌ أم أنثى؟ شقيٌّ أم سعيد؟ ما الأجلُ؟ ما الأثر؟ بأيِّ أرض تموت؟ فيقال له: انطلقْ إلى أمِّ الكتاب؛ فإنك تجدْ قصَّة هذه النطفة، فينطلقُ فيجدُ

. . . .

قصَّتها في أمّ الكتاب؛ فتلحق؛ فتأكل رزقها، وتطأ أثرها، فإذا جاء أجلُها قُبِضَتْ فدفنت في المكان الذي قُدِّر لها»[1]. وزاد في بعض روايات حديث ابن مسعود: «إن الملك يقول: يا رب! مخلَّقة أو غير مخلقة؟ فإن كانت غير مخلَّقة قذفتها الأرحامُ دماً، وإن قيل: مخلَّقة قال: أي رب! ذكر أم أنثى؟»[2]. وذكر نحو ما تقدَّم. فقوله: «إن النطفةَ إذا استقرتْ في الرحم» يعني بهذا الاستقرار: صيرورةَ النطفة علقة، ومضغة؛ لأن النطفةَ قبل ذلك غير مجتمعةٍ كما تقدَّم، فإذا اجتمعتْ، وصارتْ ماءً واحداً علقة أو مضغة، أمكن حينئذ أن تُؤخذ بالكف، وسمَّاها نطفةً في حال كونها علقة أو مضغة باسم مبدئها، والله تعالى أعلم. ويُستفادُ من جملة ما ذكرناه أنَّ المرأة إذا ألقتْ نطفةً لم يتعلقْ بها حكمٌ، إذ لم تجتمعْ في الرحم، فتبيَّن أنها كانت حاملاً، إذ الرحم قد يدفعُ النطفةَ قبل استقرارها فيه، فإذا طرحته علقةً تحقَّقنا أن النطفةَ قد استقرَّتْ واجتمعتْ واستحالتْ إلى أول أحوال ما يتحقَّق به أنه ولد. وعلى هذا: فيكون وضعُ العلقة فما فوقها من المضغة وَضْعَ حملٍ يبرأُ به الرحم، وتنقضي به العدَّة، ويثبتُ لها به حكمُ أم الولد، وهذا مذهبُ مالك وأصحابه. وقال الشافعيُّ: لا اعتبارَ بإسقاط العلقة، وإنما الاعتبارُ بظهور الصُّورة والتخطيط؛ فإنْ خفي التخطيط، وكان لحماً فقولان: بالنقل والتخريج، وعمدة أصحابنا: التمسُّك بالحديث المتقدِّم، وبأنَّ مُسْقِطَةَ العلقة، أو المضغة يصدقُ على المرأة إذا ألقتها أنها كانت حاملاً وضعتْ ما استقر في رحمها، فشملها قولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] ويصدقُ عليها قولُه ﷺ لسُبيعة الأسلمية: «قد وضعتِ فانكحي من شئتِ»[3]؛ ولأنها وضعت مبدأ

(١) رواه أحمد (١/ ٣٧٤)، وانظر: مجمع الزوائد (٧/ ١٩٢ ـ ١٩٣).
(٢) رواه ابن أبي حاتم كما في جامع العلوم والحكم ص (٤٧ ـ ٤٨).
(٣) رواه الترمذي (١١٩٣)، وابن ماجه (٢٠٢٧).

فوالذي لا إله غيره إنَّ أحدَكُم ليعملُ بعمل أهل الجنَّة حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراعٌ فَيَسْبِق عليه الكتابُ فيعملُ بعملِ أهل النَّار فَيَدْخُلُها، وإنَّ أَحَدَكُم ليعملُ بعمل أهل النَّار حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراعٌ؛ فيسبق عليه الكتابُ فيعملُ بعمل أهل الجنَّة فيدخلُها».

وفي رواية: «أربعين ليلة (بدل) يوماً».

رواه أحمد (١/ ٣٨٢)، والبخاريُّ (٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣)، وأبو داود (٤٧٠٨)، والترمذيّ (٢١٣٧)، وابن ماجه (٧٦).

* * *

الولد عن نطفة متجسداً كالمخطط. واستيفاءُ ما يتعلَّقُ به سؤالاً وجواباً في الخلاف.

و (قوله: «إنَّ أحدكم ليعملُ بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبقُ عليه الكتابُ، فيعملُ بعمل أهلِ النار فيدخلها... الحديث إلى آخره») ظاهِرُ هذا الحديث: أنَّ هذا العاملَ كان عملُه صحيحاً؛ وأنه قرُبَ من الجنة بسبب عمله حتى أشرفَ على دخولها، وإنَّما مَنَعَهُ من دخولها سابقُ القدر الذي يظهرُ عند الخاتمة، وعلى هذا فالخوف ـ على التحقيق ـ إنما هو ممَّا سبق؛ إذ لا تبديل له ولا تغيير، فإذاً: الأعمال بالسوابق، لكن لما كانت السَّوابقُ مستورةً عنا، والخاتمة ظاهرة لنا، قال ﷺ: «إنما الأعمالُ بالخواتيم»[1] أي: عندنا، وبالنسبة إلى اطلاعنا في بعض الأشخاص، وفي بعض الأحوال. وأما العاملُ المذكور في حديث سهل المتقدِّم في الإيمان؛ فإنه لم يكنْ عملُه صحيحاً في نفسه، وإنما كان رياءً وسُمْعةً، ولذلك قال ﷺ: «إن الرجل ليعملُ عملَ أهل الجنة فيما يبدو

الأعمال السوابق

---

(١) رواه ابن حبان (٣٤٠) من حديث عائشة. ورواه ابن ماجه (٤١٩٩)، وابن حبان (٣٣٩) من حديث معاوية.

(٢) بـــاب
السعيدُ سعيدٌ في بطن أمِّه
والشقيُّ شقيٌّ في بطن أمِّه

[٢٥٧١] عن عامر بن واثلة: أنَّه سمع عبد اللَّهِ بن مسعودٍ يقول: الشَّقيُّ من شقيَ في بطن أمِّه، والسعيد من وُعظ بغيره؛ فأتى رجلاً من

الاجتهاد في إخلاص الأعمال لله

للناس، وهو من أهل النار»[1] فيستفاد مِن هذا الحديث: الاجتهادُ في إخلاص الأعمال لله تعالى، والتحرز من الرِّياء. ويُستفاد من حديث ابن مسعود: ترك العُجْب بالأعمال، وترك الالتفات والركون إليها، والتعويل على كرم الله تعالى ورحمته، والاعتراف بمنَّته، كما قال ﷺ: «لن ينجيَ أحداً منكم عملُه... الحديث»[2].

[(٢) ومن بـــاب: السعيد سعيد في بطن أمه، والشقي شقي في بطن أمه][3]

ما سَبَق به العلم الأزلي

(قولـه: «الشقيُّ شقي في بطن أمِّه» يعني: أنَّ أولَ مبدأ الإنسان في بطن أمه يظهرُ من حاله للملائكة، أو لمن شاء الله من خلقه ما سبق في علم الله تعالى من سعادته، ومِن شقوته، ورزْقه، وأَجَله، وعمله. إذ قد سبق كَتْبُ ذلك في اللوح المحفوظ، كما دلَّ عليه الكتاب، والأخبار الكثيرة الصَّحيحة، وكلُّ ذلك قد سبق به العلمُ الأزليُّ، والقضاءُ الإلٰهيُّ الذي لا يقبلُ التغيير، ولا التَّبديل، المحيطُ بكل الأمور على التَّعيُّن والتفصيل. أَلَا ترى الملائكةَ كيف تستخرجُ ما عند الله من علم

---

(١) رواه أحمد (٦/ ١٠٧)، وابن حبان (٣٤٦).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٥١٤ و ٥٣٧)، والبخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦) (٧٤ و ٧٦).

(٣) لم يردْ هذا العنوان في جميع نسخ المفهم، واستدركناه من التلخيص.

أصحاب رسولِ الله ﷺ يقال له: حُذَيْفةُ بن أَسِيدٍ الغِفَاريُّ، فحدَّثَهُ بذلك من قول ابن مسعود، فقال: وكيف يشقى الرجل بغير عملٍ؟ فقال له الرجل: أتعجب من ذلك؟ فإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا مرَّ بالنُّطفة ثنتان وأربعون ليلةً بعث الله إليها ملَكاً، فصوَّرها، وخلق سمعها، وبصرها، وجلدها، ولحمها، وعظامها، ثم قال: يا رب! أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربُّك ما شاء؛ ويكتب الملك، ثُمَّ يقول: يا رب! أجله؟ فيقضي ربُّك ما شاء، ويكتبُ الملكُ، ثم يقول: يا رب! رزقه؟ فيقضي ربُّك ما شاء، ويكتب الملكُ، ثم يخرج الملَك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أُمِرَ به ولا يَنْقُص».

حال النطفة، فتقول: يا رب! ما الرزقُ؟ ما الأجل؟ فيقضي ربُّك ما شاء، أي: يُظْهِرُ من قضائه وحكمه للملائكة ما سبق به عِلْمُه، وتعلَّقتْ به إرادتُه.

و (قوله: «ويكتب المَلَك») يعني من اللوح المحفوظ، كما تقدَّم في حديث يحيى بن أبي زائدة، ولذلك عطفَ هذه الجملةَ على ما تقدَّم بالواو؛ لأنها لا تقتضي رتبةً، ثم يخرجُ الملكُ بالصحيفة، أي: يخرج من حال الغيبة عن هذا العالم إلى حال مشاهدته، فيُطْلِعُ اللَّهُ تعالى بسبب تلك الصحيفة من شاء من الملائكة الموكَّلين بأحواله على ذلك ليقوم كلٌّ بما عليه من وظيفته حسب ما سطّر في صحيفته.

بَعْث الملك في الأربعين الرابعة

و (قوله: «إذا مرّ بالنطفة ثنتان وأربعون، أو ثلاثة وأربعون، أو خمسة وأربعون») هذا كلُّه شكٌّ من الرواة، وحاصله: أنَّ بَعْثَ الملك المذكور في هذا الحديث إنما هو في الأربعين الرابعة التي هي مُدَّةُ التصوير، كما دلَّ على ذلك ما قدَّمناه قبل هذا[١]. وسمَّى المضغة نطفة بمبدئها، ألا ترى قوله: «بعث اللَّهُ إليها

---

(١) في (ز): ذلك.

وفي روايةٍ، قال: «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلةً فيقول: يا رب! أشقيٌّ أم سعيد؟ فيكتبان».

وفي أخرى: «فيجعله الله ذكراً أو أنثى، سويّاً، أو غير سويٍّ، ثم يقول: يا رب! ما رزقه؟ ما أجله؟ ما خلقه؟ ثم يجعله الله شقيّاً أو سعيداً».

وفي أخرى: «إنَّ ملكاً موكلاً بالرَّحم إذا أراد الله أن يخلق شيئاً أذن الله لبضعٍ وأربعين ليلة» ثم ذكر نحو ما تقدَّم.

رواه أحمد (٦/ ٧)، ومسلم (٢٦٤٤ و ٢٦٤٥) (٢ و ٣ و ٤).

ملكاً وصورها وخلق سمعها وبصرها، وجِلْدَها، وعظامها» فعطف بالفاء المرتِّبة، وهذا لا يكون حتى تصلَ النطفةُ إلى حال نهاية المضغة، كما دلَّ عليه ما تقدَّم. وبهذا تتفقُ الروايات، ويزولُ الاضطراب المتوهَّم فيها ـ والله أعلم ـ.

نسبة الخَلْق والتصوير للملك نسبة مجازية

ونسبةُ الخلق والتصوير للمَلَك نسبة مجازية لا حقيقية، وإنما صَدَرَ عنه فعلُ ما في المضغة ـ كأنَّ عنه التصويرُ والتشكيلُ ـ بقدرة الله تعالى، وخَلْقه، واختراعه. ألا ترى أن اللَّهَ تعالى قد أضاف إليه الخلقةَ الحقيقية، وقطع عنَّا نسب جميع الخليقة، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . .﴾ الآية [المؤمنون: ١٢-١٣]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ . . . .﴾ الآية [الحج: ٥]، وقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣] وغير ذلك من الآيات. هذا مع ما دلَّت عليه قاطعاتُ البراهين من أنَّه لا خالَ لشيءٍ من المخلوقات إلا ربّ العالمين.

تنبيــهٌ: هذا الترتيبُ العجيبُ، وإن خفيتْ حكمتُه، فقد لاحتْ لنا حقيقتُه، وهو أنَّه كذلك سَبَقَ في عِلْمه، وثَبَتَ في قضائه وحُكْمِه، وإلا فمن الممكن أن يوجدَ الإنسان، وأصناف الحيوان، بل وجميع المخلوقات في أسرع من لحظة،

[٢٥٧٢] وعن أنس بن مالك ـ ورفع الحديث ـ: أنَّه قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد وكّلَ بالرحم ملكاً فيقول: أي رب! نطفةٌ؟ أي رب! علقةٌ؟ أي رب! مضغةٌ؟ فإذا أراد الله أن يقضي خلقاً قال؛ قال الملك: أي رب! ذكرٌ أم أنثى؟ شقيٌّ أو سعيدٌ؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه».

رواه أحمد (٣/ ١٤٨)، ومسلم (٢٦٤٦).

* * *

(٣) بـــاب
كل ميسَّر لما خلق له

[٢٥٧٣] عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: كنَّا في جنازةٍ في بقيع الغرقد فأتانا رسولُ الله ﷺ، فقعد، وقعدنا حوله، ومعه مِخْصَرةٌ، فنَكَّسَ، فجعل يَنْكُتُ بمِخْصَرَتِه، ثُمَّ قال: «ما مِنْكُم مِنْ أحدٍ، ما مِنْ نفسٍ منفوسةٍ

وأيسر من النطق بلفظة، كيف لا؟ وقد سمع السامعون قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

(٣) ومن بـــاب: قوله ﷺ: «كُلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِقَ له»

بقيع الغرقد: مدفن أهل المدينة، وقد تقدَّم ذكره. والمخصرة: قضيب كان يمسكه بيده في بعض الأحوال على عادة رؤساء العرب؛ فإنهم يُمْسِكُونها ويشيرون بها، ويصلون بها كلامهم. وجمعها مخاصر، والفعل منها: تخصَّر. حكاه ابن قتيبة. والنَّكْت بها في الأرض: تحريك الأرض بها، وهذا فعلُ المتفكِّر المعتبر.

إلا وقد كَتَبَ الله مكانها من الجنَّة والنَّار، إلا وقد كُتِبَتْ شقيةً أو سعيدةً»، قال: فقال رجل: يا رسول الله! أفلا نمكثُ على كتابنا وندع العملَ؟ فقال: «من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة»، فقال: «اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ؛ أمَّا أهل السعادة فيُيَسَّرون لعمل أهل السعادة، وأمَّا أهل الشَّقاوة فيُيَسَّرون لعمل أهل الشَّقاوة»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠].

و (قوله: أفلا نمكث على كتابنا ونَدَعُ العمل؟ وفي الرواية الأخرى: أفلا نتكل على كتابنا؟) حاصلُ هذا السؤال أنه إذا وجبتِ السعادةُ والشقاوة بالقضاء الأزليِّ، والقَدَر الإلهيِّ، فلا فائدة للتكليف، ولا حاجة بنا إلى العمل فنتركه، وهذه أعظمُ شُبَه النَّافين للقَدَر. وقد أجابهم النَّبيُّ ﷺ بما لا يبقى معه إشكال، فقال: «اعملوا فكلٌّ ميسَّر لما خُلِق له» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ..﴾ الآيات [الليل: ٥ ـ ٦]، ووجه الانفصال: أن اللَّهَ تعالى أمرنا بالعمل، فلا بُدَّ من امتثال أمره، وغيَّب عنا المقاديرَ لقيام حجَّتَه وزجره. ونصب الأعمال علامةً على ما سبق في مشيئته، وحكمته، وعزّه ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لا يبقى معها لقائل مقول، وقهر ﴿وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] يخضع له المتكبرون. وقد بينا فيما تقدَّم أن موردَ التكليف: فعل الاختيار، وأن ذلك ليس مناقضاً لِما سبقت به الأقدار.

مِن شبهات النافين للقدر

وقوله: ﴿فأما من أعطى﴾ أي: الفضل من ماله. ابن عباس: حق الله تعالى. الحسن: الصِّدق من قلبه. و ﴿اتقى﴾ أي: ربّه. ابن عباس وقتادة: محارمه. مجاهد: البخل. ﴿وصدّق بالحسنى﴾ أي: الكلمة الحسنى؛ وهي كلمةُ التوحيد. الضحَّاك: بموعود الله. قتادة: بالصلاة والزكاة والصوم. زيد بن أسلم.

وفي روايةٍ: أفلا نتَّكِلُ (مكان) نمكث؟ قال: «اعملوا فكلّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له»، ثم قرأ الآية.

رواه أحمد (١/ ٨٢)، والبخاريُّ (٤٩٤٧)، ومسلم (٢٦٤٧) (٦ و ٧)، والترمذي (٢١٣٦)، وابن ماجه (٧٨).

ـ [٢٥٧٤] وعن جابرٍ، قال: جاء سراقة بن مالِك بن جُعشم قال: يا رسول الله! بيِّن لنا ديننا كأنَّا خلقنا الآن؛ فيمَ العمل اليوم؟ أفيما جفَّت به الأقلام، وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل قال: «لا! بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير». قال: ففيم العمل؟ فقال: «اعملوا فكلٌّ مُيَسَّر».

وفي أخرى فقال: «كلٌّ عاملٌ ميسرٌ لعمله».

رواه أحمد (٣/ ٢٩٢)، ومسلم (٢٦٤٨) (٨).

﴿فسنيسره﴾ أي: نهوّن عليه ونُهَيِّئه ﴿لليسرى﴾ أي: للحالة اليسرى من العمل الصَّالح والخير الرَّاجح. وقيل: للجنة. ﴿وأما من بخل﴾ أي: بماله: ابن عباس. وقال قتادة: بحقّ الله. و ﴿استغنى﴾ بماله: عن الحسن. ابن عباس: عن ربِّه. ﴿وكذب بالحسنى﴾ أي: بالجنة. و ﴿العسرى﴾: نقيض ما تقدم في اليسرى. و ﴿تردى﴾: هلك بالجهل والكفر، وفي الآخرة بعذاب الله.

ـــ و (قول سُراقة: بيِّن لنا ديننا كأنَّا خُلِقنا الآن) أي: بيِّن لنا أصلَ ديننا، أي: ما نعتقده وندينُ به من حال أعمالنا، هل سبق بها قَدَرٌ أم لا؟ وقوله: كأنا خُلقنا الآن يعني أنهم غير عالمين بهذه المسألة، فكأنهم خُلِقوا الآن بالنّسبة إلى علمها، وفائدته: استدعاء أوضح البيان.

و (قوله: فيم العمل اليوم؟) أي: فيما جفَّت به الأقلام، هكذا صحيحُ

[٢٥٧٥] وعن عمران بن حصين، قال: قيل لرسول الله: أَعُلِمَ أهل الجنة من أهل النار؟ قال: فقال: «نعم». قال: ففيم يعمل العاملون؟ قال: «كلٌّ ميسرٌ لما خُلِق له».

رواه أحمد (٤/ ٤٣١)، والبخاريُّ (٦٥٩٦)، ومسلم (٢٦٤٩) (٩)، وأبو داود (٤٧٠٩).

* * *

الرواية. فيم الأول: بغير ألف؛ لأنها استفهامية. والثانية: بألف، لأنها خبرية. وقد وقع في بعض النسخ بالعكس، والأول الصَّواب. ومُقتضى هذا السؤال: أن ما يصدر عنَّا من الأعمال، وما يترتَّب عليها من الثواب والعقاب، هل سبق علمُ الله تعالى بوقوعه، فنفذتْ به مشيئتُه؟ أو ليس كذلك؟ وإنما أفعالنا صادرة عنا بقدرتنا ومشيئتنا، والثوابُ والعقابُ مرتَّبٌ عليها بحسبها؟ وهذا القسم الثاني هو مذهبُ القدرية، وقد أبطل النبيُّ ﷺ هذا القسم بقوله: «لا، بل فيما جفَّتْ به الأقلام، وجرتْ به المقادير». أي: ليس الأمرُ مستأنفاً، بل قد سبق به علمُ الله، ونفذتْ به مشيئتُه، وجفتْ به أقلامُ الكتبة في اللوح المحفوظ، وفي صحف الملائكة المكتوبة في البطن، بل: قد نُصَّ على هذا في حديث عمران بن حصين المذكور بعد هذا. وأنصُّ من هذا كلّه ما خرَّجه الترمذيُّ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال للَّذي في يده اليمنى: «هذا كتابٌ من ربِّ العالمين. فيه أسماءُ أهل الجنة، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أُجْمِلَ[١] على آخرهم، فلا يُزاد فيهم، ولا ينقص منهم أبداً». ثم قال للذي في يده اليسرى: «هذا كتابٌ من ربِّ العالمين، فيه أسماءُ أهل النار، وأسماء آبائهم، وقبائلهم، ثم أُجْمِلَ على آخرهم، فلا يُزاد

إبطال مذهب القدرية

---

(١) «أجملت الحساب»: إذا جمعت آحاده، وكملت أفراده، أي: أحصوا وجمعوا.

(٤) بـــاب
في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾

[٢٥٧٦] عن أبي الأسود الدؤلي، قال: قال لي عِمْرانُ بن الحُصَيْن: أرأيتَ ما يعمل النَّاسُ اليوم ويكْدَحُون فيه؛ أشيءٌ قُضِي عليهم،

فيهم، ولا ينقص منهم أبداً». ثم رمى بهما، وقال: «فَرَغ ربُّكم من العباد، فريق في الجنة، وفريق في السعير»(١). قال: هذا حديث حسن صحيح.

والأحاديثُ في هذا الباب كثيرة صحيحةٌ، يفيدُ مجموعها العلم القطعي واليقين الحقيقي الاضطراري بإبطال مذاهب القدرية، لكنَّهم كابروا في ذلك كله وردُّوه، وتأوَّلوا ذلك تأويلاً فاسداً، وموَّهوه للأصول التي ارتكبوها من التحسين، والتقبيح، والتعديل، والتجويز، والقول بتأثير القدرة الحادثة على جهة الاستقلال، وقد تكلَّم أئمةُ أهل السُّنَّة معهم في هذه الأصول، وبيَّنوا فسادَها في كُتُبهم.

و (قوله: فيم العمل؟) هذا السؤالُ: هو الأوَّلُ الذي تضمَّنه قوله: أفلا نمكثُ على كتابنا، ونَدَعُ العمل؟ وقد بيَّناه.

[(٤ و ٥) ومن بـــاب: في قوله تعالى:
﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾(٢)

قوله: (أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه) الكَدْح: السعي في العمل لِدُنيا كان أو لآخرة، وأصله: العمل الشاق، والكسب المتعب.

---

(١) رواه الترمذي (٢١٤١).

(٢) هذا العنوان لم يردْ في نسخ المفهم، واستدركناه من التلخيص. وقد شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان: هذا الباب، والباب الذي يليه بعنوان باب: الأعمال بالخواتيم.

ومضى عليهم من قَدَرِ ما سبق؛ أو فيما يُسْتَقْبَلُون به مما أتاهم به نبيُّهم، وثبتت الحجَّةُ عليهم؟ فقُلْتُ: بل شيءٌ قُضِيَ عليهم، ومضى عليهم. قال: فقال: فلا يكونُ ظلماً؟! قال: ففزِعْتُ من ذلك فَزَعاً شديداً. وقلت: كلُّ شيءٍ خَلْقُ الله، ومِلْكُ يده، فلا يُسْأَلُ عمَّا يفعلُ، وهم يسألون! فقال لي: يرحمك الله! إني لم أُرِدْ بما سألتك إلا لأَحْزِرَ عَقْلَكَ! إنَّ رجلين من مُزَيْنَة أتيَا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله! أرأيت ما يعمل النَّاس اليوم

و (قوله: فلا يكون ظلماً؟) كذا الرواية بغير ألف استفهام، وهي مرادة؛ إذ بالاستفهام حَصَل فزعُ المسؤول، وبه صحَّ أن يكون ما أتى به من قوله: كل شيءٍ خَلْقُ الله ومُلْك يده. . . إلى آخره. جواباً عما سأله عنه، ولو لم يكن الاستفهام مراداً لكان الكلامُ نفياً للظلم، وهو صحيحٌ وحقٌّ، ولا يفزعُ من ذلك، ولا يستدعي جواباً. وبيانُ ما سأله عنه أنه لما تقرَّر عنده: أن ما يعمل الناسُ فيه شيءٌ قُضي به عليهم، ولا بُدَّ لهم منه، فكأنهم يلجؤون إليه، فكيف يُعاقَبُون على ذلك؟ فعقابُهم على ذلك ظلم، وهذه من شُبَه القدرية المبنيّة على التَّحسين والتَّقبيح، وقد أجاب عن ذلك أبو الأسود، وأحسن في الجواب، ومقتضى الجواب: أن الظلمَ لا يُتصوَّر من اللَّهِ تعالى، فإن الكلَّ خَلْقه، ومُلْكُه، لا حجر عليه، ولا حُكْم، فلا يتصوَّر في حقِّه الظلمُ لاستحالة شرطه، على ما بيَّناه غير مرة، ثم عضد بقوله: لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، ولما سمع عمران هذا الجوابَ تحقَّق: أنه قد وُفِّق للحق، وأصاب عينَ الصواب، فاستحسن ذلك منه، وأخبره أنه إنما امتحنه بذلك السؤال ليختبرَ عقله، وليستخرج عمله [ثم أفاده الحديث المذكور، ومعناه قد تقدم الكلام عليه][1]. ثم قال: وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ٨]، وقوله: ﴿ونفس﴾ هو قسمٌ بنفوس بني آدم،

من شُبَه القدرية

(١) ما بين حاصرتين سقط من (م ٤).

ويكدَحُون فيه؛ أشيءٌ قُضِيَ عليهم، ومضى فيهم من قَدَرٍ قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيُّهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: «لا، بل شيءٌ قضي عليهم، ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ٨].

رواه مسلم (٢٦٥٠).

* * *

وأفردها، لأنَّ مُرادَه النوع، وهذا نحو قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥] أي: كلّ نفس. كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]. ألا ترى قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨] أي: حَمَلها على ما أراد من ذلك، فمنها ما خُلِق للخير، وأعانها عليه ويسَّره لها، ومنها ما خُلِق للشر ويسَّره لها، وهذا هو الموافقُ للحديث المتقدم، المصدَّق بالآية.

و (قوله: ﴿وما سواها﴾ أي: والذي سواها، وقد قدمنا أنَّ ما في أصلها لما لا يعقل، [وقد تجيء بمعنى الذي، وهي تقعُ لمن يعقلُ ولما لا يعقل][1]. والتسوية: التعديل. يعني: أنه خلقها مكمَّلة بكل ما تحتاجُ إليه، مؤهَّلة لقبول الخير والشر، غير أنه يجري عليها في حال وجودها وما لها ما سبق لها مما قضي به عليها. وفي حديث عمران هذا من الفقه جوازُ اختبار العالم عقولَ أصحابه الفضلاء بمشكلات المسائل، والثناء عليهم إذا أصابوا، وبيان العذر عن ذلك، والذي قضي عليها: أنها إما من أهل السعادة وبعمل أهل السعادة الذي به تُدخل الجنة تعمل، وإما من أهل الشقاوة وبعمل أهل الشقاوة الذي به تُدخل النار تعمل. كما قال تعالى[2]: «هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار،

اختبار العالم عقولَ أصحابه

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (م ٤).

(٢) في حديث قدسي.

(٥) بـــاب
الأعمال بالخواتيم

[٢٥٧٧] عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ الرجل ليَعْمَلُ الزمنَ الطويلَ بعمل أهل الجنَّة، ثم يُخْتَم له عملُه بعمل أهل النَّار، وإنَّ الرجل ليَعْمَلُ الزَّمنَ الطويل بعمل أهل النار، ثم يُخْتَـمُ له بعمل أهل الجنة».

رواه أحمد (٢/ ٤٨٤)، ومسلم (٢٦٥١).

وبعمل أهل النار يعملون، فطوبى لمن قضيتُ له بالخير، ويسَّرته عليه، والويلُ لمن قضيتُ عليه بالشرِّ، ويسَّرته له». وما أحسن قول من قال: قِسَمٌ قُسِمَتْ، ونعوت أُجريت، كَيْفَ تُجْتَلَبُ بحَرَكاتٍ، أو تُنال بسعايات؟! ومع ذلك فغيَّب اللَّهُ عنَّا المقادير، ومكنَّنا من الفعل والتَّرْك رفعاً للمعاذير، وخاطبنا بالأمر والنهي خطابَ المستقلين، ولم يجعل التمسُّك بسابق القدر حجةً للمقصرين، ولا عذراً للمعتذرين، وعلَّق الجزاء على الأعمال، وجعلَها له سبباً، فقال تعالى: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢]، وبـ ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ [النحل: ١١١]، وقال في أهل الجنة: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال في أهل النار: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ٢٨]، وقال: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، وقال على لسان نبيِّـه ﷺ: «يا عبادي! إنما هي أعمالكم أردُّها عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجدَ الأخرى، فلا يلومنَّ إلا نفسَه؟»[١]. وكل ذلك من الله ابتلاء وامتحان، فيجب التسليم له والإذعان.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٦٠)، ومسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧).

[٢٥٧٨] وقد تقدم حديث سهل بن سعد الساعدي في كتاب الإيمان.

سبق في صحيح مسلم: كتاب الإيمان (١١٢) (١٧٩).

* * *

(٦) بـــاب
ذكر محاجَّة آدم موسى ـ عليهما السلام ـ

[٢٥٧٩] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجَّ آدمُ وموسى عند ربِّهما، فحجَّ آدمُ موسى..............................

---

(٦) ومن بـــاب: مُحاجَّة آدم وموسى ـ عليهما السلام ـ

(قوله: «احتجَّ آدمُ وموسى عند ربهما») ظاهر هذا اللفظ، وهذه المحاجَّة أنهما التقيا بأشخاصِهما، وهذا كما قرَّرناه فيما تقدَّم في الأنبياء من إحيائهم بعد الموت كالشهداء، بل: هم أولى بذلك، ويجوز أن يكون ذلك لقاءَ أرواح، وقد قال بكلِّ قولٍ منهما طائفة من علمائنا، وهذه العنديّة عندية اختصاص، وتشريف، لا عنديَّة مكان، فإنَّه تعالى منزَّه عن المكان والزَّمان، وإنما هي كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۞ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥] أي: في محلِّ التشريف والإكرام والاختصاص. وروى هذا الحديث بعضُهم، وزاد فيه: إن هذا اللِّقاء كان بعد أن سألَ موسى، فقال: يا ربِّ! أرنا آدمَ الذي أخرجنَا ونفسَه من الجنَّة، فأراه الله إيَّاه، فقال: أنت آدمَ؟ فقال: نعم. وذكر الحديث.

و (قوله: «فحجَّ آدمُ موسى») أي: غلبَه بالحجَّة. يُقال: حاججت فلاناً فحججتُه، أي: غلبتُه.

قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسْجَدَ لك ملائكتَه، وأسكنكَ في جنَّتِه، ثم أَهْبَطْتَ الناس بخطيئتك إلى الأرض؟ فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيانُ كلِّ شيءٍ، . . . .

و (قوله: «أنت آدم الذي خلقك الله بيده») هو استفهام تقرير، وإضافة الله خلقَ آدم إلى يده إضافةُ تشريف، ويصحُّ أن يُراد باليد هنا: القدرة والنعمة، إذ كلاهما موجود في اللسان مستعملٌ فيه، فأما يد الجارحة فالله منزَّه عن ذلك قطعاً.

و (قوله: «ونفخ فيك من روحه») يحتمل أن تكون (من) زائدة على المذهب الكوفيِّ. ونفخ: بمعنى خلقَ، أي: خلقَ فيك روحَه، فأضاف الروح إليه على جهة الملك تخصيصاً وتشريفاً، كما قال: بيتي، وعبادي. واستعار لـ (خلق): نفخ؛ لأن الروحَ من نوع الريح، ويحتمل تأويلاً آخر، والله بمراده أعلم، والتسليم للمتشابهات أسلم، وهي طريقة السَّلف، وأهل الاقتداء من الخلف.

طريقة السلف: التسليم في المتشابهات

و (قوله في الأم: «أنت الذي خيبتنا، وأخرجتنا من الجنَّة»)[1] أي: كنت سبب ذلك كله، وقال في رواية أخرى: «أنت الذي أغويت الناس»[2] أي: كنت سببَ غواية مَن غوى منهم، والغواية ضد الرشد، كما قال الله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقد يُراد بها الخطأ، وعليها يُحمل: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، أي: أخطأ صوابَ ما أُمر به، وهذا أحسنُ ما قيل في ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ.

و (قوله: «وأعطاكَ الألواحَ فيها تبيانُ كل شيء») يعني: الألواح التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وهي

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٢) (١٣).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٢) (١٤).

وقرّبك نجيّاً؛ فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟قال موسى: بأربعين عاماً. قال آدم: فهل وجدت فيها: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]؟ قال: نعم. قال: أفتلومني على أن عمِلْتُ عملاً كتبه الله عليَّ أنْ أعملَه قبل أن يخلقني بأربعين سَنَةً؟ قال رسول الله ﷺ: «فحجَّ آدمُ موسى».

رواه أحمد (٢/ ٢٦٤)، والبخاريُّ (٣٤٠٩)، ومسلم (٢٦٥٢) (١٥)، والترمذيُّ (٢١٣٤).

* * *

جمع لوح بفتح اللام، وسُمِّي بمصدر لاحَ الشيءُ يلوحُ لَوْحاً: إذا ظهرَ، وسُمِّي بذلك لظهور ما يُكتب فيه. فأمَّا اللُّوح ـ بضمّ اللام ـ: فهو ما بين السماء والأرض. قال مجاهد: كانت الألواح سبعة من زمرُّدة خضراء. وقال ابن جُبير: من ياقوتة حمراء. ومعنى كتبنا: أمرنا من يكتب، أو خلقَ فيها قوماً وخطوطاً مكتوبة مثل الذي يُكتب بالأقلام. وقوله: ﴿فيها تبيانُ كلِّ شيءٍ﴾ أي: كل شيء قُصِد إلى تبيينه، أو من كلِّ نوعٍ شيئاً، أو من كلِّ أصلٍ فرعاً.

و (قوله: «وقرَّبك نجيّاً») أي: للمناجاة وهي: المسارَّة. والتقريب: بالمرتبة، لا بالموضع والمكان.

محاجّة آدم وموسى

و (قوله: «أفتلومني على أن عملتُ عملاً كتبَه الله عليَّ قبلَ أن يخلقني بأربعين سنة»). قال: فحجَّ آدمُ موسى» ظاهر هذا أنَّ آدمَ إنما غلبَ موسى بالحجة؛ لأنه اعتذر بما سبق له من القدر عما صدرَ عنه من المخالفة، وقُبل عذرُه، وقامت بذلك حجَّته؛ فإن صحَّ هذا لزمَ عليه أن يحتجَّ به كلُّ من عصى ويعتذرُ بذلك فيُقبل عذرُه، وتثبت حجته، فحينئذ تكون للعصاة على الله حجَّة، وهو مناقض لقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]. وقد اختلفَ العلماء في تأويل هذا الحديث فقيل: إما غلبَه آدمُ بالحجة؛ لأن آدمَ أبو موسى، وموسى ابن، ولا يجوز لوم الابن أباه، ولا عتبه.

(٧) بـــاب
كَتَبَ اللَّهُ المقاديرَ قبل الخلق وكلٌّ شيء بقدر

[٢٥٨٠] عـن عبـد الله بـنِ عمـرو بـنِ العـاص، قـال: سمعـتُ رسولُ الله ﷺ يقول: «كَتَبَ الله مقاديرَ الخلائق قبل أن يَخْلُق السمواتِ والأرضَ بخمسين ألف سنةٍ ....

لوم موسى لآدم ليس في محله

قلـتُ: وهذا نأيٌ عن معنى الحديث، وعما سيق له، وقيل: إنما كان ذلك؛ لأن موسى قد كان علم من التوراة: أن الله تعالى قد جعلَ تلك الأكلةَ سببَ إهباطه من الجنَّة، وسكناه الأرض، ونشر نسله فيها ليكلِّفَهم، ويمتحنَهم، ويُرتِّب على ذلك ثوابَهم وعقابهم الأخروي.

قلـتُ: وهذا إبداء حكمة تلك الأكلة، لا انفصال عن إلزام تلك الحجَّة، والسؤال باقٍ لم ينفصلْ عنه. وقيل: إنما توجهت حجته عليه؛ لأنه قد علم من التوراة ما ذكروا: أنَّ اللَّهَ تابَ عليه، واجتباه، وأسقط عنه اللَّوْمَ والعتبَ. فلومُ موسى، وعتبُه له ـ مع علمه بأن الله تعالى قدَّر المعصية، وقضى بالتوبة، وبإسقاط اللَّوْم، والمعاتبة حتى صارت تلك المعصية كأن لم تكن ـ وقع في غير محلِّه، وعلى غير مُستحقِّه، وكان هذا من موسى نسبة جفاء في حالة صفاء، كما قال بعض أرباب الإشارات: ذكر الجفاء في حال الصفاء جفاءٌ، وهذا الوجهُ إن شاء الله أشبه ما ذكر، وبه يتبيَّن أن ذلك الإلزام لا يلزم، والله أعلم.

[(٧) ومن بـــاب: كتب الله المقاديرَ قبل الخلق، وكلٌّ شيء بقدر][١]

سنون مقادير الخلائق تقديرية

(قوله: «كتب الله مقاديرَ الخلائق قبل أن يخلقَ السموات والأرض بخمسين ألف سنة») أي: أثبتها في اللَّوح المحفوظ، كما قلناه آنفاً، أو فيما شاء، فهو

---

(١) هذا العنوان لم يرد في نسخ المفهم، واستدركناه من التلخيص.

قال: وعرشه على الماء».

رواه مسلم (٢٦٥٣) (١٦)، والترمذيُّ (٢١٥٧).

توقيتٌ للكتب، لا للمقادير؛ لأنها راجعة إلى علم الله تعالى وإرادته، وذلك قديم لا أوَّلَ له، ويستحيل عليه تقديره بالزمان؛ إذِ الحقُّ سبحانه وتعالى بصفاته موجود، ولا زمانَ ولا مكان، وهذه الخمسون ألف سنة ستونٌ تقديرية؛ إذ قبل خلق السموات لا يتحقَّق وجود الزمان؛ فإن الزمانَ الذي يُعبَّر عنه بالسنين والأيام والليالي؛ إنما هو راجع إلى أعداد حركاتِ الأفلاك، وسير الشمس، والقمر في المنازل والبروج السماوية، فقبلَ السموات لا يُوجد ذلك، وإنما يرجعُ ذلك إلى مدَّة في علم الله تعالى لو كانت السموات موجودة فيها لعدِّدت بذلك العدد، وهذا نحو مما قاله المفسرون في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أي: في مقدار ستة أيام، ثم هذه الأيام كل يوم منها مقدار ألف سنة من سني الدليا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وكقوله: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] هذا قول ابن عباس وغيره من سلف المفسرين على ما رواه الطبريُّ في تاريخه عنهم، ويحتمل أن يكون ذكر الخمسين ألفاً جاء مجيء الإغياء في التكثير، ولم يُرِدْ عينَ ذلك العدد، فكأنه قال: كتبَ الله مقادير الخلائق قبل خلقِ هذا العالم بآمادٍ كثيرة، وأزمانٍ عديدةٍ، وهذا نحو مما قلناه في قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، والأول: أظهر وأولى.

و (قوله: «وعرشه على الماء») أي: قبل خلق السموات والأرض. حكي عن كعب الأحبار: أن أوَّلَ ما خلقَ الله تعالى ياقوتة خضراء، فنظرَ إليها بإلهيته فصارتْ ماءً، ثم وضعَ عرشَه على الماء. قال ابنُ عبَّاس في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، أي: فوقَ الماء؛ إذ لم يكن سماء ولا أرض.

قلتُ: أقوال المفسرين كثيرة، والمسند المرفوع منها قليل، وكلُّ ذلك

[٢٥٨١] وعن طاووس، أنَّه قال: أدركتُ ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كلُّ شيءٍ بقدرٍ. قال: وسمعت عبدَ الله بنَ عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ شيءٍ بقَدَرٍ حتى العَجْزُ والكَيْسُ» أو: «الكيْسُ والعَجْزُ».

رواه أحمد (٢/ ١١٠)، ومسلم (٢٦٥٥).

قِدَم الله تعالى

ممكن، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك. والذي نعلمُه قطعاً: أن الله تعالى قديم، لا أوَّلَ لوجوده، فكانَ موجوداً وحدَه، ولا موجودَ سواه، ثم اخترعَ بقدرته وإرادته ما سبقَ في علمه، ونفذت به مشيئته، كما شاءَ، ومتى شاء، والذي نعلمُ استحالتَه قطعاً: أزليَّة شيءٍ غير الله تعالى من عرشٍ، أو كرسيٍّ، أو ماءٍ، أو هواءٍ، أو أرضٍ، أو سماءٍ؛ إذ كلُّ ذلك ممكن في نفسه، وكلُّ موجود ممكن محدَث؛ ولأن كلَّ ذلك لا يخلو عن الحوادث، وما لا يخلو عن الحوادث حادث على ما تُعرف حقيقته في موضعه؛ ولأنه المعلوم الضروريّ من الشرع، فمن شكَّ فيه، أو جحدَه فهو كافر، ومما يُعلم استحالته: كون العرش حاملاً لله تعالى، وأن الله تعالى مستقر عليه كاستقرار الأجسام؛ إذ لو كان محمولاً لكان محتاجاً فقيراً لما يحملُه، وذلك يُنافي وصف الإلهية؛ إذ أخصُّ أوصاف الإله[1]: الاستغناء المطلق، ولو كان ذلك للزم كونه جسماً مقدَّراً، ويلزمُ كونه حادثاً على ما سبقَ؛ فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. قيل: له محامل واضحة، وتأويلات صحيحة، غير أن الشرعَ لم يُعيِّن لنا محملاً من تلك المحامل فيتوقف في التعيين ويُسلك مسلك السلف الصالح في التسليم.

استحالة أزلية أيّ شيء غير الله تعالى

استغناؤه عز وجل استغناء مطلق

كلّ شيء بقدر

و (قوله: «كلُّ شيءٍ بقدر، حتى العجْزُ والكيْسُ») قيَّدناه بكسر الزاي والسين وضمّهما. و (حتى) هي العاطفة، والرفع عطف على كل، والخفض على شيءٍ.

---

(١) في (ز): الإلهية.

[٢٥٨٢] وعن أبي هريرة، قال: جاء مشركو قريشٍ يخاصمون رسولَ الله ﷺ في القَدَرِ، فنزلَتْ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٨ ـ ٤٩].

رواه مسلم (٢٦٥٦)، والترمذيُّ (٣٢٨٦).

* * *

والكَيْسُ: ـ بفتح الكاف ـ لا يجوزُ غيره، ومعنى هذا الحديث: أن ما من شيءٍ يقعُ في هذا الوجود كائناً كان إلا وقد سبق به علمُ الله تعالى، ومشئته؛ سواءٌ كان ممن أفعالنا، أو صِفاتنا، أو من غيرها، ولذلك أتى بـ «كل» التي هي للاستغراق، والإحاطة، وعقَّبها بحتى التي هي للغاية، حتى لا يخرج عن تلك المقدِّمة الكلِّية من الممكنات شيءٌ، ولا يتوهّم فيها تخصيص، وإنما جُعِل العجزُ والكيسُ غايةً لذلك ليبيِّن أنَّ أفعالنا، وإن كانت معلومةً، ومرادةً لنا، فلا تقع منا إلا بمشيئة الله تعالى، وإرادته وقدرته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وصار هذا من نحو قول العرب: قدم الحاج حتى المشاة. فيكون معناه: أن كلَّ ما يقعُ في الوجود بقدر الله ومشيئته، حتى ما يقع منكم بمشيئتكم. والعجز: التثاقلُ عن المصالح حتى لا تحصل، أو تحصل لكن على غير الوجه المرضي. والكيس: نقيض ذلك، وهو الجِدُّ والتشمير في تحصيل المصالح على وجوهها، والعجزُ في أصله: معنى من المعاني مناقضٌ للقدرة، وكلاهما من الصِّفات المتعلِّقات بالممكنات على ما يُعرف في علم الكلام.

* * *

(٨) بـــاب

تصريف الله تعالـى القلوبَ

وكتب على ابن آدم حظه من الزنى

[٢٥٨٣] عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ قلوبَ بني آدم كلَّها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحدٍ؛ يُصَرِّفه حيث يشاء»، ....

[(٨) ومن بـــاب: تصريف الله تعالى القلوب

وكتب على ابن آدم حظه من الزنى][1]

قلوب بني آدم بين أصابع الرحمن

(قوله: «قلوب بني آدم بين إصْبَعَيْن من أصابع الرحمن كقلبٍ واحد، يُصَرِّفه كيف يشاء») ظاهِرُ الإصبع محالٌ على الله تعالى قطعاً لما قلناه آنفاً؛ ولأنه لو كانت له أعضاء وجوارح؛ لكان كلُّ جزء منه مفتقراً للآخر، فتكون جملتُه محتاجة، وذلك يناقضُ الإلهية، وقد تأوَّل بعضُ أئمتنا هذا الحديثَ فقال: هذا استعارةٌ جاريةٌ مجرى قولهم: فلان في كفِّي، وفي قبضتي. يراد به: أنه متمكنٌ من التصرُّف فيه، والتصريف له كيف شاء، وأمكن من ذلك في المعنى، مع إفادة التيسير أن يقالَ: فلان بين إصبعـيَّ، أصرفه كيف شئت. يعني: أن التصرُّفَ مُتيسِّرٌ عليه غيرُ متعذِّرٍ. وقال بعضهم: يحتمل أن يريد بالإصبع هنا النعمة. وحُكي أنه يقال: لفلان عندي إصبعٌ حسنة، أي: نعمة. كما قيل في اليد. فإن قيل: فلأي شيءٍ ثَنَّى الإصبع، ونعمه كثيرة لا تُحصى؟ قلنا: لأن النعمَ، وإن كانت كذلك، فهي قسمان: نفع ودفع، فكأنه قال: قلوبُ بني آدم بين أن يَصْرِفَ اللّهُ عنها ضرّاً، وبين أن يوصل إليها نفعاً.

---

(١) هذا العنوان لم يردْ في نسخ المفهم، واستدركناه من التلخيص.

ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مُصَرِّفَ القلوب صرِّف قلوبنا إلى طاعتك».

رواه أحمد (٢/ ١٦٨)، ومسلم (٢٦٥٤).

[٢٥٨٤] وعن ابن عباسٍ، قال: ما رأيتُ شيئاً أشبهَ باللَّممِ ممَّا قال أبو هريرة؛ ....

قلتُ: وهذا لا يتمُّ حتى يقال: إنَّ بني آدم ـ هنا ـ يراد بهم الصَّالحون؛ الذين تولى اللَّهُ حِفْظَ قلوبهم. وأما الكفار والفسَّاق، فقد أوصل اللَّهُ تعالى إلى قلوبهم ما شاءه، وبهم من الطبع، والختم، والرّين، وغير ذلك. وحينئذ يخرجُ الحديثُ عن مقصوده، فالتأويلُ الأول أولى، وقد قلنا: إن التسليمَ الطريقُ السليم.

و (قوله: «اللهم مصرِّف القلوب صرِّف قلوبَنا إلى طاعتك») هذا الكلام يعضدُ ذلك التأويلَ الأول، وقد وقع هذا الحديثُ في غير كتاب مسلم فقال: «يا مُقَلِّبَ القلوبِ ثبِّتْ قلوبنا على طاعتك». وهما بمعنى واحدٍ؛ وحاصلُه: أنَّ أحوالَ القلوب منتقلةٌ غير ثابتة ولا دائمة. فحقُّ العاقل أن يحذرَ على قلبه من قلبه، ويفرغ إلى ربِّه في حفظه.

الحذر من تقلّبات القلوب

و (قوله: ما رأيتُ شيئاً أشبهَ باللمم مما قال أبو هريرة) هذا من ابن عباس تفسيرُ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]. وهي ما دون الكبائر. والفواحش: هي الصَّغائر. وقال زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ: هي ما ألمّوا به في الجاهلية. وقيل: هي مُقاربَةُ المعصية من غير إلمام. وقيل: الذنبُ الذي يقلعُ عنه ولا يصرُّ عليه، وقيل غير هذا. وأشبهُ هذه الأقوال القولُ الأول. وعليه يدلُّ قولُه ﷺ: «الصلواتُ الخمس مكفّرات لما بينهنّ إذا اجتنبت الكبائر»[1]، والفواحش: جمع فاحشة، وهي ما يُسْتَفْحَشُ من الكبائر كالزنى بذوات المحارم، واللواط، ونحو ذلك.

معنى اللّمم

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٤٨٤)، ومسلم (٢٣٣)، والترمذي (٢١٤).

أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الله كتب على ابن آدم حظَّه من الزنَى أدرك ذلك لا محالة، فزنى العينينِ النظرُ، وزنى اللسانِ النطقُ، والنَّفس تمنَّى وتشتهي، والفرجُ يصدِّق ذلك أو يكذبه».

رواه أحمد (٢/ ٢٧٦)، والبخاريُّ (٦٦١٢)، ومسلم (٢٦٥٧) (٢٠).

[٢٥٨٥] وعن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «كتب على ابن آدم نصيبُه من الزِّنى مُدْرِكٌ ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرِّجل زناها الخُطَا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرجُ ويكذِّبُه».

رواه مسلم (٢٦٥٧) (٢١).

* * *

و (قوله: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى») أي: قضاه وقَدَّره، وهو: نصٌّ في الردِّ على القدرية.

و (قوله: «مُدْرِك ذلك لا محالة») كذا صحَّ، وهو مرفوعٌ على أنه خبرُ مبتدأ مُضْمَر، أي: فهو مدرك ذلك، ولا محالة، أي: لا بُدَّ من وقوع ذلك منه.

و (قوله: «فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرِّجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى») يعني: أن هواه وتمنِّيه: هو زناه. وإنما أُطْلِقَ على هذه الأمور كلِّها: زنى؛ لأنها مُقدِّماتها، إذْ لا يحصلُ الزنى الحقيقي في الغالب إلا بعد استعمال هذه الأعضاءِ في تحصيله. والزنى الحقيقي: هو إيلاجُ الفرج المحرم شرعاً في مثله. ألا ترى قوله: «ويُصَدِّق ذلك الفرجُ ويُكذِّبه» يعني: إن حصل إيلاجُ الفرج الحقيقي، ثمَّ

(٩) بــاب
كلّ مولودٍ يولد على الفطرة
وما جاء في أولاد المشركين وغيرهم،
وفي الغلام الذي قتله الخضر

[٢٥٨٦] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ مولودٍ إلا يولد على الفطرة». ـ وفي روايةٍ: «على هذه الملَّة ـ أبواه يهوِّدانه، وينصِّرانه، ويمجِّسانه، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ هل تُحِسُّون فيها من جدعاء؟»، ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إنْ شِئْتُم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ...﴾ [الروم: ٣٠].

زِنى تلك الأعضاء، وثبت إثمه، وإن لم يحصلْ ذلك واجتنب كفّر زنى تلك الأعضاء، كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

[(٩) ومن بــاب: كلّ مولود يولد على الفطرة
وما جاء في أولاد المشركين وغيرهم،
وفي الغلام الذي قتله الخضر](١)

(قوله: «كلُّ مولود يولدُ على الفطرة») قد تقدَّم: أن أصلَ الفطرة: الخلقةُ المبتدأة، وقد اختلف الناسُ في الفطرة المذكورة في هذا الحديث، وفي الآية، فقيل: هي سابقةُ السعادة والشقاوة، وهذا إنما يليقُ بالفطرة المذكورة في القرآن؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وأما في الحديث فلا؛ لأنه

أصـلُ الفطـرة ومعناها

---

(١) هذا العنوان لم يردْ في نسخ المفهم، واستدركناه من التلخيص.

وفي روايةٍ: «حتى تكونوا أنتم تَجْدَعونها». قالوا: يا رسول الله!

قد أخبر في بقية الحديث: بأنها تبدَّل وتغيَّر، وقيل: هي ما أُخِذ عليهم من الميثاق، وهم في أصلاب آبائهم. وهذا إنما يليقُ بالرواية التي جاء فيها: «كلُّ مولود يولَدُ على الفطرة» ويبعد في رواية من رواه: «على هذه الملَّة» وهي إشارةٌ إلى ملَّة الإسلام.

وقال بظاهر هذه الآية طائفةٌ من المتأوّلين، وهذا القولُ أحسنُ ما قيل في ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ؛ لصحَّة هذه الرِّواية، ولأنها مبيِّنةٌ لرواية مَن قال: على الفطرة. ومعنى الحديث: إنَّ اللَّهَ تعالى خلقَ قلوبَ بني آدم مؤهَّلةً لقبول الحق كما خلَقَ أعينهم وأسماعهم قابلةً للمرئيات والمسموعات؛ فما دامت باقيةً على ذلك القبول، وعلى تلك الأهليّة أدركت الحقَّ. ودين الإسلام هو الدِّينُ الحق، وقد جاء ذلك صريحاً في الصَّحيح: «جَبَلَ اللَّهُ الخلقَ على معرفته، فاجتالتهم الشياطين»[1] وقد تقدَّم هذا المعنى، وقد دلَّ على صحة هذا المعنى بقيةُ الخبر حيث قال: «كما تُنتج البهيمةُ بهيمةً جمعاء، هل تحسُّون فيها من جدعاء؟» يعني: أن البهيمةَ تلدُ ولدَها كامل الخَلْق، سليماً من الآفات، فلو نزل على أصل تلك الخلْقة لبقي كاملاً بريئاً من العيوب، لكن يُتصرَّف فيه، فتجدعُ أذنه، ويُوسم وجهه، فتطرأ عليه الآفاتُ والنقائص، فيخرج عن الأصل، وكذلك الإنسان، وهو تشبيهٌ واقعٌ، وَوَجْهُه واضحٌ. والرواية «تُنْتَجُ» بضم التاء الأولى، وفتح الثانية مبنياً لما لم يُسَمَّ فاعلُه. يقال ذلك إذا ولدت، ومصدرها نتاجاً، وقد نتجها أهلُها نَتَجاً بفتح النون والتاء مبنياً للفاعل. وهم ناتجوها؛ إذا ولدتْ عندهم، وتولوا نتاجها. وحكى الأخفش فيه: أنه يقال: أنتجت الناقة ـ رباعياً ـ. ويقال: أنتجت الفرس والناقة: حان نتاجُهما. وقال يعقوب: إذا استبان حَمْلُها، فهي نتوج، ولا يقال: منتج[2]، وأتت

دينُ الإسلام هو الدين الحق

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥) بنحوه.

(٢) في (ز): نتيج. والمثبت من (ع) و (ز) والصحاح مادة (نتج).

أفرأيت من يموت صغيراً، قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

وفي أخرى: «ليس مِنْ مولودٍ يولد إلا على هذه الفطرة حتى يعبِّر عنه لسانُه».

وفي أخرى: «كلُّ إنسان تلده أمُّه يَلْكُز الشيطانُ في حِضْنَيْهِ إلا مريمَ وابْنَها».

رواه أحمد (٢/ ٣٤٦)، والبخاريُّ (٤٧٧٥)، ومسلم (٢٦٥٨) (٢٢ ـ ٢٣، ٢٥)، وأبو داود (٤٧١٤)، والترمذيّ (٢١٣٩).

الناقةُ على مَنْتَجِها ـ بكسر الجيم ـ؛ أي: الوقت الذي تنتج فيه. ونصب جمعاء على الحال، وبهيمة: منصوبة على التوطئة لتلك الحال. والجذع: القطع. وتحسُّون: تدركون بحسِّكم وحواسِّكم.

و (قوله: «ما من مولود إلا يولد») كذا لكلِّهم غير السَّمرقندي، فعنده تلد بتاء باثنتين من فوقها مضمومة، وبكسر اللام على وزن: وُلِدَ، وضُرِبَ، وتخرَّج على ما ذكر الهَجَري في نوادره. قال: يقال وُلِدَ وتَلِدَ بمعنى، ويكون على إبدال الواو تاءً لانضمامهما.

و (قوله: «كلُّ ابن آدم يلكزُ الشيطانُ في حِضْنَيْهِ») كذا لجميعهم. والحضن: الجنب. وقيل: الخاصرة، غير أنَّ ابنَ ماهان رواه: خصييه، تثنية خصية، وهو وهم وتصحيف بدليل قوله: «إلا مريم وابنها».

و (قوله: أرأيت من يموت صغيرا) هذا السؤالُ إنما كان عن أولاد المشركين، كما جاء مفسَّراً من حديث ابن عباس: «فأما أولاد المؤمنين» فقد تقدم الاستدلال على أنَّهم في الجنة، وأما أطفالُ المشركين فاختلف فيهم على ثلاثة أقوال: فقيل: في النار مع آبائهم، وقيل: في الجنة، وقيل: تُؤَجَّج لهم نار

[٢٥٨٧] وعن ابن عباس، قال: سُئِل رسولُ الله ﷺ عن أطفال المشركين. فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم».

ويُؤمَرُون بدخولها، فمن أطاع منهم دخل الجنة، ومن عصى منهم دخل النار. وذهب قوم ـ وأحسبهم من غير أهل السنة ـ فقالوا: يكونون في برزخ. وسبب اختلافِ الثلاثة الأقوال: اختلاف الآثار في ذلك، ومخالفة بعضها لظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. والصبيُّ والمجنون لا يفهمون ولا يخاطبون، فهم كالبهائم، فلم يبعثْ إليهم رسول، فلا يعذَّبون. والحاصل من مجموع ذلك ـ وهو: القول الحقُّ الجاري على أصول أهل الحق ـ:

ترتيب العذاب على التكليف

أن العذابَ المترتِّبَ على التكليف لا يعذّبه من لم يكلَّف. ثم لله تعالى أن يعذبَ مَن شاء ابتداءً من غير تكليف من صبيّ أو مجنون، أو غير ذلك بحكم المالكية، وأنه لا حجرَ عليه، ولا حكم، فلا يكون ظالماً بشيءٍ من ذلك إن فعله كما قررناه في الباب قبل هذا. وعلى هذا يدلُّ قولُه ﷺ في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «إن الله خَلَقَ للجنة أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم، وخَلَقَ للنار أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم». قد قدَّمنا: أن الأعمالَ معرِّفاتٌ لا موجبات.

عِلْمُ اللّهِ بأعمال الخلق

و (قوله: «اللّهُ أعلم بما كانوا عاملين إذ خَلَقَهُمْ») معناه: الله أعلم بما جَبَلَهُم عليه، وطَبَعَهُمْ عليه، فمن خلقه اللّهُ تعالى على جِبلَّة المطيعين كان من أهل الجنَّة، ومَن خَلَقه اللّهُ على جِبِلَّة الكفَّار من القسوة والمخالفة كان من أهل النَّار. وهذا كما قال في غلام الخضِر: «طُبِع يوم طُبِع كافراً». وهذا الثوابُ والعقابُ ليس مرتَّباً على تكليف ولا مُرْتَبطاً به، وإنما هو بحكم علمه ومشيئته. وأما مَن قال: إنهم في النار مع آبائهم، فمعتمدُه قوله ﷺ: «هم مِن آبائهم»[1]. ولا حُجَّةَ فيه لوجهين:

---

(١) رواه أحمد (٤/٣٨ و ٧١)، ومسلم (١٧٤٥)(٢٨)، وأبو داود (٤٧١٢)، والترمذي (١٥٧٠).

رواه البخاريُّ (١٣٨٣)، ومسلم (٢٦٦٠)، وأبو داود (٤٧١١)، والنسائيُّ (٤/ ٥٩).

[٢٥٨٨] وعنه؛ عن أبيٍّ بن كعبٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الغلام الذي قتله الخضر طُبع يوم طُبِعَ كافراً؛ ولو عاش لأرْهق أبويه طغياناً وكفراً».

رواه أحمد (٥/ ١٢١)، ومسلم (٢٦٦١)، وأبو داود (٤٧٠٥ و ٤٧٠٦)، والترمذيُّ (٣١٥٠).

[٢٥٨٩] وعن عائشة، قالت: دُعِيَ رسولُ الله ﷺ إلى جَنَازة صبيٍّ من الأنصار فقلت: يا رسول الله! طوبى لهذا؛ عصفور من عصافير الجنة؛ لم يعمل السوء ولم يدركه! قال: «أو غير ذلك يا عائشة! إنَّ الله خلق للجنَّة

أحدهما: أن المسألة علمية، وهذا خبرٌ واحد، وليس نصّاً في الفرض.

وثانيهما: سلَّمناه، لكنا نقول ذلك في أحكام الدُّنيا، وعنها سُئِل، وعليها خُرِّج الحديث، وذلك أنَّهم قالوا: يا رسول الله! إنا نبيّت أهل الدَّار من المشركين، وفيهم الذَّراري. فقال: «هم من آبائهم»، يعني في جواز القتل في حال التَّبييت، وفي غير ذلك من أحكام آبائهم الدُّنيوية، والله تعالى أعلم.

و (قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ في الصبي الأنصاري المتوفى: عصفورٌ من عصافير الجنة) إنما قالت هذا عائشة؛ لأنها بَنَت على أنَّ: كلَّ مولود يُولَدُ على فطرة الإسلام؛ وأن اللَّهَ تعالى: لا يُعَذِّب حتى يبعثَ رسولاً، فحكمتْ بذلك، فأجابها النبيُّ ﷺ بما ذكر.

أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنَّار أهلاً خلقهم لها وهُمْ في أصلاب آبائهم».

رواه أحمد (٦/٢٠٨)، ومسلم (٢٦٦٢) (٣١)، وأبو داود (٤٧١٣)، والنسائيُّ (٤/٥٧)، وابن ماجه (٨٢).

* * *

(١٠) باب
الآجال محدودةٌ والأرزاقُ مقسومةٌ

[٢٥٩٠] عن عبد الله بن مسعودٍ، قال: قالت أمُّ حبيبةَ: اللهم متعني بزوجي: رسولِ الله ﷺ، وبأبي: أبي سفيان، وبأخي: معاوية! فقال

قدر الله سابق على حدوث المخلوقات

و (قوله: «وهم في أصلاب آبائهم») لا يعارض ما تقدَّم مِن قوله أنه يُكتب وهو في بطن أمه شقيٌّ أو سعيدٌ؛ لما قدَّمناه من أن قضاءَ الله وقدره راجعٌ إلى عِلْمه وقُدْرَته، وهما أزليَّان، لا أوَّلَ لهما. ومقصودُ هذه الأحاديث كلِّها: أنَّ قَدَرَ اللَّهِ سابقٌ على حدوث المخلوقات، وأنَّ اللَّهَ تعالى يُظْهِر من ذلك ما شاء لمن شاء مَتَى شاء قبل وجود الأشياء.

[(١٠) ومن باب: الآجال محدودة والأرزاق مقسومة][1]

(قول أمِّ حبيبة: اللهم متِّعني بزوجي رسول الله ﷺ وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية) أي: أطلْ أعمارهم حتى أتمتَّع بهم زماناً طويلاً.

---

(١) هذا العنوان لم يردْ في نسخ المفهم، واستدركناه من التلخيص.

رسول الله ﷺ: «إنَّك سألت الله لآجالٍ مضروبةٍ، وآثار موطوءة؛ وأرزاقٍ مقسومةٍ، لا يُعَجِّل شيئاً منها قبل حَلِّه، ولا يؤخِّرُ منها شيئاً بعد حَلِّه، ولو سألتِ الله أن يعافيَكِ من عذاب النَّار، وعذابٍ في القبر لكان خيراً لك».

قال: فقال رجل: يا رسول الله! القردة والخنازير هي مما مُسِخ؟ فقال النبي ﷺ: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يُهْلِكْ قوماً، أو يعذب قوماً فيجعلَ لهم نسلاً، وإنَّ القردةَ والخنازيرَ كانوا قبل ذلك».

وفي روايةٍ: «ولأيامٍ معدودةٍ» بدل: «آثارٍ موطوءةٍ».

رواه أحمد (١/ ٤١٣)، ومسلم (٢٦٦٣) (٣٢ و ٣٣).

* * *

و (قوله: «لا يعجِّلُ شيئاً منها قبل حَلِّه، ولا يؤخر شيئاً منها بعد[١] حَلِّه») كذا الرواية بفتح الحاء في الموضعين، وهو مصدرُ حلَّ الشيء يحلّ حلاً وحلولاً ومحلاًّ، والمحلّ أيضاً: الموضعُ الذي يُحَلُّ فيه، أي: يُنْزَلُ.

و (قوله: «لقد سألتِ اللَّهَ لآجالٍ مَضْرُوبة.... إلى آخره»)، ثم قال بعد هذا: «ولو سألتِ اللَّهَ أن يعافِيَكِ من عذابٍ في القبر، وعذابٍ في النار[٢]، كان خيراً لكِ». وقد أورد بعضُ علمائنا على هذا سؤالاً، فقال: ما معنى صرفه لها عن الدُّعاء بطول الأجل، وحضِّه لها على العياذ من عذاب القبر. وكلُّ ذلك مقدَّرٌ لا يدفعُه أحدٌ ولا يردُّه سببٌ؟ فالجواب: أنه ﷺ لم ينهها عن الأول، وإنما أرشدها إلى ما هو الأولى والأفضل، كما نصَّ عليه، ووَجْهُه: أنَّ الثاني أَوْلى وأفضل؛ أنه قيامٌ بعبادة الاستعاذة من عذاب النار والقبر، فإنه قد تعبَّدنا بها في غير ما حديث،

الاستعاذة من عذاب النار والقبر عبادة

(١) وردت في نسخ المفهم (قبل) والصواب ما أثبتناه من التلخيص.

(٢) كذا في نسخ المفهم، وفي التلخيص وصحيح مسلم: «من عذاب النار وعذاب في القبر».

(١١) بـــاب
في الأمر بالتقوى والحرص
على ما ينفع وترك التفاخر

[٢٥٩١] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضَّعيفِ، وفي كلٍّ خيرٌ، احرِصْ على ما ينفعُك، واستعِنْ بالله، ولا تَعْجِزْ، ....

ولم يتعبَّدْنا بشيءٍ من القسم الذي دعتْ هي به، فافترقا. وأيضاً: فإنَّ التعوُّذَ من عذاب القبر والنار تذكيرٌ بهما، فيخافهما المؤمنُ، فيحذرهما، ويتَّقيهما، فيجعل من المتقين الفائزين بخير الدنيا والآخرة.

(١١) ومن بـــاب: الأمر بالتقوى والحرص على ما ينفع

خيريّة المؤمن القوي

قوله: «المؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضَّعيف» أي: القويّ البدن والنَّفس، الماضي العزيمة، الذي يصلحُ للقيام بوظائف العبادات من الصَّوم، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصَّبر على ما يُصيبه في ذلك، وغير ذلك مما يقومُ به الدِّين، وتنهضُ به كلمةُ المسلمين، فهذا هو الأفضلُ، والأكملُ، وأمَّا من لم يكنْ كذلك مِن المؤمنين، ففيه خيرٌ من حيثُ كان مؤمناً، قائماً بالصلوات، مكثِّراً لسواد المسلمين، ولذلك قال ﷺ: «وفي كلٍّ خيرٌ» لكنه قد فاته الحظُّ الأكبر، والمقامُ الأفخر.

الحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله

و (قوله: «احرِص على ما ينفعكَ، واستعن بالله، ولا تعجِز») أي: استعملِ الحرص، والاجتهاد في تحصيل ما تنتفعُ به في أمر دينك ودنياك التي تستعينُ بها على صيانة دينك، وصيانة عيالك، ومكارم أخلاقك، ولا تفرِّط في طلب ذلك، ولا تتعاجز عنه مُتَّكِلاً على القدر، فَتُنْسَب للتقصير، وتُلام على التفريط شرعاً وعادةً. ومع إنهاء الاجتهاد نهايته، وإبلاغ الحرص غايته، فلا بُدَّ من الاستعانة

وإنْ أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أنّي فعلتُ لكان كذا وكذا؛ ولكنْ قلْ قدَّر الله وما شاء الله فَعَلَ، فإنَّ لو تفتحُ عمل الشَّيطان».

رواه أحمد (٢/ ٣٦٦)، ومسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٤١٦٨).

* * *

بالله، والتوكُّل عليه، والالتجاء في كلِّ الأمور إليه، فمن سلك هذين الطَّريقين حَصَل على خير الدَّارين.

و (قوله: «وإن أصابك شيءٌ فلا تقلْ: لو أنِّي فعلتُ لكان كذا وكذا. قل: قدَّر اللَّهُ، وما شاء فَعَل») يعني: إنَّ الذي يتعيَّنُ بعد وقوع المقدور التَّسليمُ لأمر الله، والرِّضا بما قدَّره اللَّهُ تعالى، والإعراض عن الالتفات لما مضى وفات. فإن افتكر فيما فاته مِن ذلك وقال: لو أنِّي فعلتُ كذا لكان كذا جاءته وساوسُ الشيطان، ولا تزالُ به حتى تُفْضِيَ به إلى الخسران؛ لتعارض توهُّم التَّدبير سابق المقادير، وهذا هو عَمَلُ الشَّيطان الذي نهى عنه النبيُّ ﷺ بقوله: «فلا تقل: لو، فإن لو تفتح عمل الشيطان». ولا يُفْهَمُ من هذا: أنَّه لا يجوزُ النُّطْقُ بـ (لو) مطلقاً إذ قد نطق بها النَّبيُّ ﷺ فقال: «لو أني استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لم أسق الهدي، ولجعلتُها عمرة»[1]. و «لو كنت راجماً أحداً بغير بيِّنة لرجمتُ هذه»[2]. وقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: لو أنَّ أحدهم نظر إلى رجليه لرآنا. ومثله كثير؛ لأن محلَّ النهي عن إطلاقها إنَّما هو فيما إذا أطلقت في معارضة القَدَر، أو مع اعتقاد: أنَّ ذلك المانعَ لو ارتفع لوقع خلافُ المقدور، فأما لو أخبر بالمانع على جهة أن تتعلَّق به فائدةٌ في المستقبل، فلا يختلف في جواز إطلاقه؛ إذ ليس في ذلك فتحٌ لعمل الشَّيطان، ولا شيءٌ يُفْضِي إلى ممنوعٍ، ولا حرامٍ، واللَّهُ تعالى أعلم.

الرضا بقدر الله تعالى

---

(١) رواه البخاري (٢٥٠٦)، ومسلم (١٢١١) (١٣٠).

(٢) رواه البخاري (٧٢٣٨)، ومسلم (١٤٩٧) (١٣).

(٣٦)
كتاب العلم

(١) باب
فضل من تعلَّم وتفقَّه في القرآن

[٢٥٩٢] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفَّسَ عن مسلمٍ كُرْبَةً من كُرَبِ الدنيا نَفَّسَ الله عنه كُرْبةً من كُرَبِ يوم القيامة، ومن يسَّر على مُعْسرٍ يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنَّة،..........

---

(٣٦)
كتاب العلم

(١) ومن باب: فضائل طلب العلم

الترغيب في الرحلة لطلب العلم

(قوله: «من سلكَ طريقاً يلتمسُ فيه علماً سلك[1] الله به طريقاً إلى الجنة») أي: من مشى إلى تحصيل علم شرعيٍّ قاصداً به وجهَ الله تعالى جازاه الله عليه بأن يُوصلَه إلى الجنَّة مسلماً مكرَّماً. ويلتمسُ: معناه يطلبُ، كما قال: «التمسْ ولو

(١) كذا في المفهم، وفي التلخيص وصحيح مسلم: «سَهَّلَ».

. . . .

خاتَماً من حديد»[١] وهو حضٌّ وترغيب في الرحلة في طلب العلم. والاجتهاد في تحصيله، وقد ذكر أبو داود هذا الحديث من حديث أبي الدرداء وزاد زياداتٍ حسنة، فقال: عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من سلكَ طريقاً يلتمسُ فيه علماً سلكَ الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضعُ أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العالمَ ليستغفرُ له من في السموات، ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماءَ ورثةُ الأنبياء، وإن الأنبياءَ لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً، ورثّوا العلمَ، فمن أخذَه أخذَ بحظٍّ وافر»[٢] وهذا حديث عظيم يدلُّ على أن طلبَ العلم أفضلُ الأعمال، وأنه لا يبلغ أحدٌ رتبة العلماء، وأن رتبتهم ثانيةً عن رتبة الأنبياء.

طلب العلم أفضل الأعمال

و (قوله: «إن الملائكة لتضعُ أجنحتها رِضا لطالبِ العلم») قيل: معناه تخضع له وتعظِّمه، وقيل: تبسطُها له بالدُّعاء؛ لأن جناح الطائر يده.

استغفار المخلوقات للعالِم

و (قوله: وإنَّ العالمَ ليستغفرُ له من في السموات ومن في الأرض)، يعني بـ «من» هنا: من يعقل، وما لا يعقل، غير أنه غلَّب عليه من يعقل، بدليل أن هذا الكلام قد جاء في غير كتاب أبي داود، فقال: «حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في جوف الماء»[٣]، وعلى هذا المعنى يدلُّ ـ من حديث أبي داود هذا ـ عطف الحيتان بالواو على من في السموات، ومن في الأرض، فإنه يُفيد أن من يعقل، وما لا يعقل يستغفرُ العالم؛ فأما استغفارُ من يعقل فواضح؛ فإنه دعاءٌ له

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٣٦)، والبخاري (٥١٤٩)، ومسلم (١٤٢٥)، والترمذي (١١١٤)، والنسائي (٦/ ١٢٣)، وابن ماجه (١٨٨٩).

(٢) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

(٣) رواه الترمذي (٢٦٨٥) عن أبي أمامة.

. . . .

بالمغفرة، وأما استغفارُ ما لا يعقل، فهو ـ والله أعلم ـ أنَّ اللَّهَ يغفرُ له، ويأجرُه بعَدَد كلِّ شيءٍ لحقَه أثرٌ من علم العالم. وبيان ذلك: أن العالم يُبيِّنُ حكمَ الله تعالى في السموات وفي الأرض، وفي كلّ ما فيهما، وما بينهما، فيُغفرُ له ذنبه، ويعظم له أجرُه بحسب ذلك، ويحتمل أن يكونَ ذلك على جهة الإغياء، والأوّل أولى، والله تعالى أعلم.

فضل العالم على العابد

و (قوله: «وإنَّ فضلَ العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب») هذه المفاضلة لا تصحُّ حتى يكونَ كلُّ واحد منهما قائماً بما وجبَ عليه من العلم والعمل؛ فإنَّ العابدَ لو تَـرَكَ شيئـاً من الواجبات، أو عملها على جهل لم يستحقَّ اسمَ العابد، ولا تصحُّ له عبادةٌ، والعالم لو تركَ شيئاً من الواجبات لكان مذموماً، ولم يستحقَّ اسمَ العالم، فإذاً محلُّ التفضيل: إنما هو في النوافل، فالعابدُ يستعملُ أزمانَه في النوافل من الصلاة، والصوم، والذكر وغير ذلك، والعالمُ يستعملُ أزمانَه في طلب العلم وحفظه، وتقييده، وتعليمه، فهذا هو الذي شبَّهه بالبدر؛ لأنه قد كَمُلَ في نفسه، واستضاء به كلُّ شيءٍ في العالم من حيث أنَّ علمَه تعدَّى لغيره، وليس كذلك العابد؛ فإن غايتَه أن ينتفعَ في نفسه، ولذلك شبَّهه بالكوكب الذي غايتُه أن يُظهرَ نفسَه.

تعليل كون العلماء ورثة الأنبياء

و (قوله: «وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء») إنما خصَّ العلماء بالوراثة، وإن كان العُبَّاد ـ أيضاً ـ قد ورثوا عنه العلمَ بما صارُوا به عُبَّاداً؛ لأن العلماء هم الذين نابوا عن النبيِّ ﷺ في حملهم العلمَ عنه، وتبليغهم إيَّاه لأمته، وإرشادِهم لهم، وهدايتهم. وبالجملة فالعلماء: هم العالمون بمصالح الأمَّة بعدَه، الذَّابُّون عن سنَّته، الحافظون لشريعته، فهؤلاء الأحقُّ بالوراثة، والأولى بالنيابة والخِلافة، وأما العُبَّاد فلم يُطلق عليهم اسمُ الوراثة لقصور نفعهم، ويسير حظِّهم.

زهد الأنبياء

و (قوله: «إن الأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً») يعني: أنهم صلوات الله

وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينةُ ....

عليهم كان الغالبُ عليهم الزهد، فلا يتركون ما يُورث عنهم، ومن تركَ منهم شيئاً، يصحُّ أن يُورثَ عنه تصدَّق قبلَ موته، كما فعل نبيُّنا ﷺ حين قال: «لا نُورث، ما تركنا صدقة»[1].

و (قوله: «فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر») أي: بحظٍّ عظيم، لا شيءٌ أعظمُ منه ولا أفضلُ، كما ذكرناه.

و (قوله: «ما اجتمعَ قومٌ في بيت من بيوتِ الله يتلون كتابَ الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة») بيوت الله هي المساجد كما قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]. ففيه ما يدلُّ على جواز تعليم القرآن في المساجد، أما للكبار الذين يتحفظون بالمسجد فلا إشكالَ فيه، ولا يُختلف فيه، وأما الصِّغار، الذين لا يتحفظون بالمساجد، فلا يجوز؛ لأنه تعريضُ المسجد للقذر والعبث، وقد قال ﷺ: «جنِّبوا مساجدَكم صِبْيانكم ومَجانينكم»[2]، وقد تمسَّك بهذا الحديث من يُجيز قراءة الجماعة القرآن على لسان واحدٍ، كما يُفعل عندنا بالمغرب، وقد كره بعض علمائنا ذلك، ورأوا أنَّها بدعة إذ لم تكنْ كذلك قراءةُ السلف، وإنما الحديثُ محمول على: أنَّ كلَّ واحدٍ يدرسُ لنفسه، أو مع من يُصلِّح عليه، وليستعينَ به.

تعليم القرآن في المساجد

و (قوله: «إلا نزلت عليهم السَّكينةُ») قد تقدَّم الكلام على السكينة في كتاب الصلاة، وأنها إما السكون، والوقار، والخشوع، وإمَّا الملائكة الذين يستمعون

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٥)، والبخاري (٥٣٧٥)، ومسلم (١٧٥٧) (٥٠).

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه (١٧٢٦)، وذكره الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٦) وقال: رواه الطبراني في الكبير، ومكحول لم يسمع من معاذ.

وغَشِيَتْهم الرحمةُ، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطَّأ به عملُه لم يسرعْ به نسبه».

رواه أحمد (٢/ ٢٥٢)، ومسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٤٩٤٦)، والترمذيُّ (١٤٢٥)، وابن ماجه (٢٢٥).

[٢٥٩٣] وقد تقدَّم من حديث أبي هريرة قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا مِنْ ثلاثةٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له».

رواه أحمد (٢/ ٣٧٢)، ومسلم (١٦٣١)، وأبو داود (٣٨٨٠)، والترمذيُّ (١٣٧٦)، والنسائيُّ (٦/ ٢٥١).

* * *

القرآنَ، سمُّوا بذلك لما هم عليه من السكون والخشوع.

و (قوله: «وغشيتهم الرحمة») أي: تكفير خطيئاتهم، ورفع درجاتهم، وإيصالُهم إلى جنَّته وكرامته.

و (قوله: «وذكرَهم اللَّهُ فيمن عنده») يعني: في الملأ الكريم من الملائكة المقرَّبين، كما قال: «إنْ ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خير منهم»[(٢)]، وهذا الذِّكر يحتملُ أن يكونَ ذكرَ ثناءٍ وتشريفٍ، ويحتملُ أن يكون ذكرَ مباهاةٍ، كما باهى الملائكةَ بأهل عرفة.

ما ينفع في الآخرة

و (قوله: «مَنْ بطَّأ به عملُه لم يُسرعْ به نسبُه») يعني: أن الآخرة لا ينفعُ فيها إلا تقوى الله تعالى والعمل الصالح، لا الفخر الراجح، ولا النسب الواضح.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) بــاب
كراهة الخصومة في الدِّين
والغلو في التأويل والتحذير من اتِّباع الأهواء

[٢٥٩٤] عن عائشة، قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ أبغضَ الرِّجال إلى الله الأَلَدُّ الخَصِمُ».

رواه أحمـد (٦/ ٥٥)، والبخـاريُّ (٢٤٥٧)، ومسلـم (٢٦٦٨)، والترمذيُّ (٢٩٧٦)، والنسائيُّ (٨/ ٢٤٧).

---

(٢) ومن بــاب: كراهة الخصومة في الدين والغلوّ في التأويل والتحذير من اتّباع الأهواء (١)

(قوله: «إن أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخَصْم») الروايةُ الخَصْم ـ بسكون الصاد ـ، وقد قيَّده بعضُهم بكسرها، وكلاهما اسمٌ للمخاصِم، غير أن الذي بالسكون هو مصدرٌ في الأصل، وُضِع موضع الاسم؛ ولذلك يكون في المذكر والمؤنث، والتثنية والجمع بلفظٍ واحدٍ في الأكثر، ومِن العرب مَن يثنّيه ويجمعه؛ لأنه يذهبُ به مذهبَ الاسم، وقد جاءتِ اللغتان في كتاب الله تعالى، قال الله تعـالـى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [صَ: ٢١]، ثم قال: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [صَ: ٢٢]، فأما الذي بالكسر فهو الشديدُ الخصومة، ويُجمع: خُصْمٌ، فيقال: خصم، وخصم خصمون، كما قال تعالى: ﴿هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]. والألدُّ: هو الشديد الخصومة، مأخوذٌ من اللديدَيْن، وهما جانبا الوادي؛ لأنه كلما أخذ عليه جانبٌ أَخَذَ في جانب آخر، وقيل: لإعماله

---

(١) لم يردْ هذا الباب في التلخيص، والحديثان المشروح ما أشكل فيهما تحت هذا العنوان وردا في صحيح مسلم، الأول برقم (٢٦٦٨) (٥) والثاني برقم (٢٦٦٩) (٦).

. . . .

لديدَيْه، وهما: صفحتا عنقه عند خصومته. وكان حُكم الألد أن يكون تابعاً للخصم؛ لأن الألدَّ صفة، والخصم اسم، لكن لما كان خصمٌ مصدراً في الأصل، وكان الألدُّ صفةً مشهورةً عكس الأمر، فجُعل التابع متبوعاً، وهذا على نحو قوله: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧]، وإنما يقال: أسود غربيب. وهذا الخصم المبغوض عند الله تعالى هو الذي يقصد بخصومته: مدافعةَ الحق، وردَّه بالأوجه الفاسدة، والشُّبَه الموهمة، وأشدّ ذلك الخصومة في أصول الدِّين، كخصومة أكثر المتكلِّمين المعرضين عن الطرق التي أرشد إليها كتابُ الله، وسُنَّةُ نبيّه ﷺ، وسَلَف أمته إلى طرق مبتدعة، واصطلاحات مخترعة، وقوانين جَدَلية، وأمور صناعية، مدارُ أكثرها على مباحث سُوفِسطائية، أو مناقشات لفظية تردّ بشبهـها على الآخذ فيها شبهٌ ربما يعجز عنها، وشكوك يذهب الإيمانُ معها، وأحسنهم انفصالاً عنها أجدلهم، لا أعلمهم، فكم مِن عالمٍ بفساد الشبهة لا يقوى على حلها! وكم من منفصلٍ عنها لا يدركُ حقيقةَ علمها! ثم إنَّ هؤلاء المتكلمين قد ارتكبوا أنواعاً من المحال لا يرتضيها البُلْه، ولا الأطفال، لما بحثوا عن تحيُّز الجواهر، والأكوان، والأحوال، ثم إنهم أخذوا يبحثون فيما أمسك عن البحث فيه السلف الصَّالح، ولم يوجدْ عنهم فيه بحثٌ واضحٌ، وهو كيفيَّةُ تعلُّقات صفات الله تعالى، وتقديرها، واتّحاذها في أنفسها، وأنها هي الذات، أو غيرها، وأن الكلام، هل هو مُتَّحد، أو منقسم؟ وإذا كان مُنقسماً فهل ينقسمُ بالأنواع، أو بالأوصاف؟ وكيف تعلّق في الأزل بالمأمور؟ ثم إذا انعدم المأمورُ فهل يبقى ذلك التعلُّقُ؟ وهل الأمرُ لزيدٍ بالصلاة مثلاً هو عين الأمر لعمرو بالزكاة؟ إلى غير ذلك من الأبحاث المبتدعة التي لم يأمر الشرعُ بالبحث عنها، وسكت أصحابُ النبيِّ ﷺ ومَن سَلَك سبيلَهم عن الخوض فيها لعلمهم بأنها بحثٌ عن كيفية ما لا تُعْلَم كيفيته؛ فإنَّ العقولَ لها حدٌّ تقفُ عنده، وهو العجزُ عن التكييف لا يتعدَّاه، ولا فَرْقَ بين البحث في كيفية الذات، وكيفية الصِّفات، ولذلك قال العليمُ الخبير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ

أشدّ الخصومات: مدافعة الحق

من الأبحاث المبتدعة في علم الكلام

. . . .

ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ولا تبادر بالإنكار فِعْل الأغبياء الأغمار؛ فإنك قد حُجِبْتَ عن كيفية حقيقة نفسك مع علمك بوجودها، وعن كيفية إدراكاتك، مع أنك تدركُ بها. وإذا عجزتَ عن إدراك كيفية ما بين جنبيك، فأنتَ عن إدراك ما ليس كذلك أعجز.

وغايةُ علم العلماء، وإدراك عقول الفضلاء أن يقطعوا بوجود فاعل هذه المصنوعات منزَّه عن صفاتها، مقدَّس عن أحوالها، موصوف بصفات الكمال اللائق به.

ذمُّ السلف لعلم الكلام

ثم مهما أخبرنا الصَّادقون عنه بشيءٍ من أوصافه، وأسمائه قبلناه، واعتقدناه، وما لم يتعرَّضوا له سكتنا عنه، وتركنا الخوضَ فيه. هذه طريقةُ السَّلف، وما سواها مهاوٍ وتَلَف، ويكفي في الردع عن الخوض في طرق المتكلمين ما قد وَرَدَ في ذلك عن الأئمة المتقدِّمين، فمن ذلك قول عمر بن عبد العزيز: مَن جَعَل دينَه غرضاً للخصومات أكثرَ الشُّغْلَ، والدِّينُ قد فرغ منه، ليس بأمرٍ يُؤْتَكَفُ على النظر فيه. وقال مالك: ليس هذا الجدال من الدِّين في شيءٍ، وقال: كان يقال: لا تمكِّنْ زائغَ القلب من أذنك؛ فإنك لا تدري ما يعلقك من ذلك. وقال الشافعي: لأن يُبتلى العبدُ بكلِّ ما نهى اللَّهُ عنه، ما عدا الشرك، خيرٌ له من أن ينظرَ في علم الكلام. وإذا سمعت من يقول: الاسم هو المسمَّى، أو غير المسمى، فاشهدْ أنه من أهل الكلام، ولا دِيْن له. قال: وحُكْمي في أهل الكلام أن يُضْرَبُوا بالجريد، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاءُ مَن تركَ الكتابَ والسُّنَّة، وأخَذَ في الكلام. وقال الإمامُ أحمد بن حنبل: لا يُفْلِحُ صاحبُ الكلام أبداً، علماءُ الكلام زنادقة. وقال ابنُ عقيل: قال بعض أصحابنا: أنا أقطع أنَّ الصحابةَ ـ رضي الله عنهم ـ ماتوا وما عرفوا الجوهرَ والعرض، فإن رضيتَ أن تكون مثلَهم فَكُنْ. وإن رأيتَ أن طريقةَ المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر فبئسَ ما رأيته. قال: وقد أفضى هذا الكلامُ بأهلِه إلى الشكوك، وبكثيرٍ

. . . .

منهم إلى الإلحاد، وأصلُ ذلك: أنهم ما قَنِعُوا بما بُعِثَتْ به الشرائع، وطَلَبوا الحقائق، وليس في قوة العقل إدراك ما عند الله من الحِكَم التي انفرد بها، ولو لم يكن في الجدال إلا أن النبيَّ ﷺ قد أخبر أنه الضلال، كما قال فيما خرَّجه الترمذي: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»[1]، وقال: إنه صحيح.

رجوع كثيرٍ من أئمة المتكلِّمين عن علم الكلام

قلتُ: وقد رجع كثيرٌ من أئمة المتكلِّمين عن الكلام بعد انقضاء أعمار مديدة، وآماد بعيدة لما لطف اللَّهُ تعالى بهم، وأظهر لهم آياته، وباطن برهانه، فمنهم: إمام المتكلِّمين أبو المعالي[2]، فقد حكى عنه الثقاتُ أنه قال: لقد خلَّيتُ أهلَ الإسلام وعلومهم، وركبتُ البحرَ الأعظم، وغصتُ في الـذي نُهُوا عنه، كلُّ ذلك رغبةً في طَلَبِ الحقِّ، وهَرَباً من التقليد، والآن فقد رجعتُ عن الكلِّ إلى كلمة الحقِّ، عليكم بدين العجائز، وأختم عاقبة أمري عند الرحيل بكلمة الإخلاص، والويل لابن الجوينيِّ.

وكان يقول لأصحابه: يا أصحابنا! لا تشتغلُوا بالكلام، فلو عرفتُ أن الكلامَ يبلغُ بي ما بلغ ما تشاغلتُ به.

وقال أحمدُ بن سنان: كان الوليدُ بن أبان الكرابيسي، خالي، فلما حضرتْهُ الوفاةُ قال لبنيه: تعلمون أحداً أعلم مني؟ قالوا: لا، قال: فتتَّهموني؟ قالوا: لا. قال: فإنِّي أوصيكم أفَتَقْبَلُون؟ قالوا: نعم. قال: عليكم بما عليه أصحاب الحديث فإنِّي رأيتُ الحقَّ معهم.

وقال أبو الوفا بن عقيل: لقد بالغتُ في الأصول طول عمري، ثم عدتُ القهقرى إلى مذهب المكتب.

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٥٣).

(٢) هو إمام الحرمين الجويني (ت ٤٧٨ هـ).

. . . .

قلتُ: وهذا الشهرستاني صاحب «نهاية الإقدام في علم الكلام» وصف حالَه فيما وصل إليه من الكلام وما ناله، فتمثل بما قاله:

لَعَمْري لقدْ طفتُ المعاهدَ كلَّها وصَيَّرْتُ طَرْفي بَيْنَ تِلْكَ المَعالِمِ
فلم أرَ إلَّا وَاضِعاً كَفَّ حَائِرٍ عَلى ذَقَنٍ أوْ قَارِعاً سِنَّ نَادِمِ

ثم قال: عليكم بدين العجائز؛ فإنه[1] أسنى الجوائز.

مسوِّغات ذمِّ علم الكلام

قلتُ: ولو لم يكنْ في الكلام شيءٌ يُذَمُّ به إلا مسألتان هما من مبادئه، لكان حقيقاً بالذَّمّ، وجديراً بالتَّرك.

إحداهما: قول طائفة منهم: إنَّ أولَ الواجبات الشكُّ في الله تعالى.

والثانية: قول جماعة منهم: إنَّ مَن لم يعرفِ الله تعالى بالطرق التي طرقوها، والأبحاث التي حرَّروها، فلا يصحُّ إيمانه، وهو كافر.

فيلزمهم على هذا تكفيرُ أكثر المسلمين من السَّلف الماضين، وأئمة المسلمين، وأنَّ مَن يبدأ بتكفيره أباه، وأسلافه، وجيرانه، وقد أورد على بعضهم هذا، فقال: لا يُشَنِّعُ عليَّ بكثرة أهل النار، وكما قال: ثم إن من لم يقلْ بهاتين المسألتين من المتكلِّمين ردّوا على مَن قال بهما بطرق النظر والاستدلال بناءً منهم على: أن هاتين المسألتين نظريتان، وهذا خطأٌ فاحش، فالكلُّ يخطِّئون الطائفةَ الأولى بأصل القول بالمسألتين، والثانية بتسليم أنَّ فسادَها ليس بضروري، ومن شكَّ في تكفير من قال: إن الشكَّ في الله تعالى واجبٌ؛ وأنَّ معظمَ الصحابة والمسلمين كُفَّار، فهو كافر شرعاً، أو مختلّ العقل وَضْعاً؛ إذ كلُّ واحدةٍ منهما معلومةُ الفساد بالضرورةِ الشرعية الحاصلة بالأخبار المتواترة القطعية، وإن لم يكن

---

(١) في (ز): فهو.

[٢٥٩٥] عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الذين مِنْ قبلكم شِبْراً بِشِبْرٍ، وذِراعاً بذراعٍ؛ حتى لو دخلوا في جحر ضبٍّ لاتَّبعتمُوهم». قلنا: يا رسول الله! اليهودُ والنَّصارى؟ قال: «فمن؟».

رواه أحمد (٣/ ٨٤)، والبخاريُّ (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩) وهذا الحديث والذي قبله لم يردا في أصول التلخيص واستدركا من المفهم.

* * *

كذلك فلا ضروريّ يصارُ إليه في الشرعيات ولا العقليات. عصمنا الله من بِدَع المبتدعين، وسَلَك بنا طرقَ السَّلف الماضين. وإنما طوَّلت في هذه المسألة الأنفاسَ؛ لما قد شاع من هذه البدع في الناس، ولأنه قد اغترَّ كثيرٌ من الجهال بزخرف تلك الأقوال، وقد بذلت ما وَجَب عليَّ من النصيحة، والله تعالى يتولَّى إصلاحَ القلوب الجريحة.

الافتراقُ المنهي عنه

و (قوله: «لتتبعنَّ سَنَنَ الذين من قبلكم، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع») قيَّدناه سَنَن بفتح السين، وهو الطريقُ وبضمّها، وهو جمع سُنَّة. وهي الطريقةُ المسلوكة. وذِكْر الشبر، والذراع، والحجر أمثالٌ تفيدُ أنَّ هذه الأمةَ يطرأُ عليها مِن الابتداع والاختلاف مثل الذي كان وَقَع لبني إسرائيل. وقد روى الترمذيُّ هذا المعنى بأوضح من هذا، فقال: «ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل، حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من يأتي أمَّه علانيةً، لكان في أمتي من يصنعُ ذلك، وإنَّ بني إسرائيل تفرَّقت على ثنتين وسبعين ملَّة، وتفترقُ أمتي على ثلاث وسبعين، كلها في النار إلا واحدة». قالوا: ومن هي يا رسولَ الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»(١). خرَّجه من حديث عبد الله بن عمر. وقد رواه أبو داود من حديث معاوية بن أبي سفيان وقال: «ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، وهي

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٤١).

(٣) بـــاب
كيفية التفقُّه في كتاب الله
والتحذير من اتِّباع ما تشابه منه وعن المماراة فيه

[٢٥٩٦] عن عائشة، قالت: تلا رسول الله ﷺ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ.............................

الجماعة»[١]. يعني: جماعة أصحابي ومن تابعهم على هَدْيهم، وسَلَك طريقَهم، كما قال في حديث الترمذي.

وقد تبيَّن بهذه الأحاديث: أن هذا الافتراقَ المحذَّر منه؛ إنما هو في أصول الدِّين وقواعده؛ لأنه قد أطلقَ عليها مِللاً، وأخبر أن التمسُّك بشيءٍ من تلك الملل مُوجِبٌ لدخول النار، ومثل هذا لا يقال على الاختلاف في الفروع؛ فإنه لا يوجبُ تعديدَ الملل، ولا عذاب النار، وإنما هو على أحد المذهبين السَّابقين، إما مصيبٌ فله أجران، وإما مخطىءٌ فله أجر على ما ذكرناه في الأصول. والضب: حرذون الصحراء. وجحره خفيٌّ، ولذلك ضرب به المثل.

(٣) ومن بـــاب: كيفية التفقُّه في كتاب الله

(قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ... ﴾ الآية [آل عمران: ٣]). اختلف الناسُ في المحكمات والمتشابهات على أقوال كثيرة؛ منها: أن المحكمَ هو الناسخ، والمتشابه: هو المنسوخ.

الاختلاف في المحكمات والمتشابهات

ومنها: أن المحكم هو القرآن كله، والمتشابه: الحروف المقطَّعة في أوائل السُّور.

---

(١) رواه أبو داود (٤٥٩٦).

هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]، ....

ومنها: أن المحكمَ آياتُ الأحكام، والمتشابه: آيات الوعيد.

ومنها: أن المتشابهَ آياتُ إبهام قيام الساعة، والمحكم: ما عداها.

ومنها: أن المحكمَ ما وضح معناه، وانتفى عنه الاشتباه، والمتشابه: نقيضه. وهذا أشبهُ ما قيل في ذلك؛ لأنه جارٍ على وضع اللسان، وذلك أنَّ المحكم اسمُ مفعولٍ من: أحكم. والإحكامُ: الإتقان. ولا شكَّ في أنَّ ما كان واضحَ المعنى لا إشكالَ فيه، ولا تردُّد، وإنما يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته، واتفاق تركيبها، ومتى اختلَّ أحدُ الأمرين جاء التشابهُ والإشكال، وإلى نحو ما ذكرناه صار جعفرُ بنُ محمد، ومجاهد، وابن إسحاق.

و (قوله: ﴿هُنَّ أم الكتاب﴾) أي: أصلُه الذي يرجعُ إليه عند الإشكال والاستدلال، ومنه سُمِّيت الفاتحة: أمَّ القرآن؛ لأنها أصلُه؛ إذ هي آخذةٌ بجملة علومه، فكأنه قال: المحكمات: أصولُ ما أشكل من الكتاب، فتعيَّن ردُّ ما أشكل منه إلى ما وضح منه، وهذا أيضاً أحسنُ ما قيل في ذلك.

و (قوله: **﴿فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾**) الزيغُ: الميلُ عن الحق، وابتغاءُ الفتنة: طلبُ الفتنة، وهي الضلال. مجاهد: الشك. وتأويله ما آلَ إليه أمرُه، وكُنْه حقيقته، فكأنهم تعمَّقوا في التأويل طلباً لِكُنْه الأمر وحقيقته، فكره لهم التعمُّق.

و (قوله: **﴿وما يعلمُ تأويلَه إلا الله﴾**) أي: ما يعلمُ حقيقةَ ما أُريد بالمتشابه إلا الله. والوقف على (الله) أولـى.

و (قوله: **﴿والراسخون في العلم يقولون: آمنا به كل من عند ربنا﴾**) جملةٌ

قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الذين يتَّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّاهم اللَّهُ، فاحذروهم!».

رواه أحمد (٦/٤٨)، والبخاريُّ (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥)، وأبو داود (٤٥٩٨)، والترمذي (٢٩٩٣)، وابن ماجه (٤٧).

ابتدائيةٌ مستأنفة. مقتضاها: أن حالَ الرَّاسخين عند سماع المتشابه الإيمان والتسليم، وتفويض علمه إلى الخبير العليم، وهذا قولُ ابنِ مسعود وغيره. وقيل: والراسخون: معطوف على الله تعالى، حُكي عن عليٍّ وابن عباس، والأول أليقُ وأسلم.

ذمُّ المتشككين في القرآن

و (قوله: «إذا رأيتم الذين يتَّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّاهم الله فاحذروهم») يعني: يتَّبعونه ويجمعونه طَلَباً للتَّشكيك في القرآن، وإضلالاً للعوام، كما فعلته الزَّنادقة، والقرامطة الطاعنون في القرآن، أو طلباً لاعتقاد ظواهر المتشابه كما فعلته المجسّمة؛ الذين جمعوا ما وقع في الكتاب والسُّنَّة مما يُوهِم ظاهِرُه الجسمية، حتى اعتقدوا: أن الباريء تعالى جسمٌ مُجَسَّم، وصورةٌ مصوَّرة ذاتُ وجه، وعين، ويدٍ، وجنبٍ، ورجلٍ، وإصبع، تعالى الله عن ذلك، فحذَّر النبيُّ ﷺ عن سُلوك طريقهم.

فأما القسم الأول، فلا شك في كفرهم، وأن حُكْمَ الله فيهم القتلُ من غير استتابة.

وأما القسم الثاني، فالصحيحُ القولُ بتكفيرهم، إذ لا فرقَ بينهم وبين عُبَّاد الأصنام والصُّور، ويُستتابون؛ فإن تابوا وإلا قُتِلوا، كما يُفعل بمن ارتدَّ.

مذهب السلف في المتشابه

فأما من يتبع المتشابه، لا على تلك الجهتين، فإن كان ذلك على إبداء تأويلاتها، وإيضاح مَعانيها، فذلك مختلفٌ في جوازه بناءً على الخلاف في جواز تأويلها، وقد عُرِف أنَّ مذهبَ السَّلف ترك التعرُّض لتأويلاتها مع قَطْعِهم باستحالة

[٢٥٩٧] وعن عبد الله بنِ عمرو، قال: هَجَّرت إلى رسول الله ﷺ يوماً، قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آيةٍ، فخرج علينا رسولُ الله ﷺ يُعْرفُ في وجهه الغَضَبُ فقال: «إنَّما هلك من كان قبلَكُم باختلافهم في الكتاب».

رواه مسلم (٢٦٦٦).

ظواهرها. ومذهب غيرهم: إبداء تأويلاتها، وحَمْلها على ما يصحُّ حَمْلُه في اللسان عليها من غير قَطْع مُتعيِّن محملٍ منها. وأما من يتَّبعُ المتشابه على نحو ما فعل صبيغ فحكمُه حُكْم عمر ـ رضي الله عنه ـ فيه الأدب البليغ. والراسخ في العلم: هو الثابت فيه، المتمكن منه.

و (قوله: هجَّرت إلى رسول الله ﷺ يوماً) أي: خرجتُ إليه في الهاجرة، وهي: شدة الحرِّ.

و (قوله: فسمع أصواتَ رجلين اختلفا في آيةٍ، فخرج يُعْرَفُ في وجهه الغضبُ فقال: «إنما هَلَكَ مَن كان قبلكم باختلافهم في الكتاب») هذا الاختلافُ لم يكن اختلافاً في القراءة؛ لأنه ﷺ قد سوَّغ أن يُقْرَأَ القرآن على سبعة أحرف كما تقدَّم، ولم يكن أيضاً في كونها قرآناً؛ لأن ذلك معلومٌ لهم ضرورة، ومثل هذا لا يختلفُ فيه المسلمون، ولا يُقَرُّون عليه؛ فإنه كفرٌ، فلم يَبْقَ إلا أنه كان اختلافاً في المعنى. ثم تلك الآيةُ يحتملُ أن كانت من المحكمات الظَّاهرة المعنى، فخالف فيها أحدُهما الآخر إما لقصورِ فَهْم، وإما لاحتمالٍ بعيد، فأنكر النبيُّ ﷺ ذلك؛ إذ قد ترك الظاهرَ الواضح، وعدل إلى ما ليس كذلك، ويحتمل أن كانت من المتشابه، فتعرَّضوا لتأويلها، فأنكر النبيُّ ﷺ ذلك، فيكون فيه حُجَّةٌ لمذهب السَّلف في التسليم للمتشابهات، وتَرْك تأويلها.

[٢٥٩٨] وعن جُنْدبٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفتْ عليه قلوبُكم، فإذا اختلفتُم فيه فقوموا».

رواه أحمد (٤/ ٣١٢)، والبخاريُّ (٥٠٦١)، ومسلم (٢٦٦٧) (٣).

* * *

و (قوله: «اقرؤوا القرآنَ ما ائتلفتْ عليه قلوبُكم، فإذا اختلفتم فيه فقوموا») يحتملُ هذا الخلافُ أن يُحْمَلَ على ما قلناه آنفاً. قال القاضي: وقد يكون أمرُه بالقيام عند الاختلاف في عصره وزمَنه؛ إذ لا وَجْهَ للخلاف والتَّنازع حينئذٍ، لا في حروفه، ولا في معانيه، وهو ﷺ حاضرٌ معهم، فيرجعون إليه في مُشْكِله، ويقطعُ تنازعَهم بتبيانه.

الأمر بقراءة القرآن مع التدبر

قلتُ: ويظهر لي: أنَّ مقصودَ هذا الحديث الأمرُ بالاستمرار في قراءة القرآن، وفي تدبُّره، والزَّجْر عن كلِّ شيءٍ يقطعُ عن ذلك. والخلاف فيه في حالة القراءة قاطعٌ عن ذلك في أي شيءٍ كان من حروفه، أو معانيه، والقلبُ إذا وَقَعَ فيه شيءٌ لا يمكن ردُّه على الفور، فأمرهم بالقيام إلى أن تزول تشويشاتُ القلب. ويُستفادُ هذا من قوله: «اقرؤوا القرآنَ ما ائتلفت عليه قلوبكم» فإن القراءةَ باللسان، والتدبُّر بالقلب، فأمر باستدامة القراءة مدَّةَ دوام تدبُّر القلب، فإذا وقع الخلافُ في تلك الحال انصرفَ اللِّسانُ عن القراءة، والقلبُ عن التدبُّر. وعلى هذا فمن أراد أن يتلوَ القرآن، فلا يبحثْ عن معانيه في حال قراءته مع غيره، ويفرد لذلك وقتاً غير وقت القراءة. والله أعلم.

ما يجب على الباحث في فهم معاني القرآن

والحاصلُ: أن الباحثين في فَهْم معاني القرآن يجبُ عليهم أن يقصدوا ببحثهم التعاونَ على فهمه، واستخراج أحكامه، قاصدين بذلك وَجْهَ الله تعالى، ملازمين الأدبَ والوقار، فإن اتفقتْ أفهامُهم، فقد كملت نعمةُ الله تعالى عليهم، وإن اختلفت، وظهر لأحدهما خلافُ ما ظهر للآخر، وكان ذلك من مثارات الظُّنون، ومواضع الاجتهاد، فحقٌّ كلٍّ واحد أن يصيرَ إلى ما ظهر له، ولا يثرِّب على الآخر، ولا يلومه، ولا يجادله، وهذه حالةُ الأقوياء والمجتهدين، وأما مَن لم

(٤) بـــاب
إثم من طلب العلم لغير الله

[٢٥٩٩] عن أبي هريرة، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أول الناس يُقْضَى عليه يومَ القيامة رجلٌ استُشْهِد ـ وقد تقدم الحديث ـ، وفيه: ورجلٌ تعلَّم العِلْمَ وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرَّفه نعمه، فعرفها. قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: تعلَّمْتُ العلم وعلَّمْتُه، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنَّك تعلَّمت العلم لِيُقال عالم، وقرأت القرآن لِيُقال قارىء، فقد قيل، ثم أُمِرَ به، فسحب على وجهه حتى أُلقيَ في النَّار».
رواه مسلم (١٩٠٥) (١٥٢).

* * *

يكن كذلك فحقُّه الرجوعُ إلى قول الأعلم، فإنه عن الغلط أبْعَدُ وأسلم، وأما إن كان ذلك من المسائل العلمية فالصَّائر إلى خلافِ القطع فيها محروم، وخلافُه فيها محرَّم مَذْمُوم، ثم حُكْمُه على التَّحقيق إما التَّكفير، وإما التَّفسيق.

هلاك المتنطعين

و (قوله: «هَلَكَ المتنطِّعون ـ ثلاثاً ـ»[١]) هم المتعمِّقون في الكلام، الغالون فيه، ويعني بهم: الغالين في التأويل، العادلين عن ظواهر الشَّرع بغير دليلٍ؛ كالباطنية، وغُلاة الشيعة. وهلاكُهم بأن صُرِفُوا عن الحق في الدنيا، وبأن يُعَذَّبوا في الآخرة. والتكرار: تأكيدٌ وتفخيمٌ بعظيم هلاكهم.

[(٤) ومن بــاب: إثم من طلب العلم لغير الله][٢]

(قوله: كذبت، ولكنك تعلَّمت العلم ليقال: عالم، وقرأتَ القرآنَ ليقال: قـارىء، فقد قيل، ثم أُمِرَ به، فسُحِبَ على وجهه حتَّى أُلْقِي في النار») دليلٌ على

---

(١) هذه العبارة لم ترد في أحاديث التلخيص، وإنما وردتْ في صحيح مسلم برقم (٢٦٧٠) (٧).

(٢) هذا العنوان لم يردْ في نسخ المفهم، واستدركناه من التلخيص.

(٥) بـــاب
طرح العالم المسألة على أصحابه
ليختبرهم والتخول بالموعظة والعلم خوف الملل

[٢٦٠٠] عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من الشَّجر شجرةً لا يسقطُ ورقُها؛ وإنَّها مَثَلُ المسلم، فحدثوني ما هي؟» فوقع

وجوب الإخلاص في طلب العلم

وجوبِ الإخلاص في طلب العلم، وقراءة القرآن، وكذلك سائر العبادات، ولقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. وتعلُّم العِلْم مِن أعظم العبادات وأهمّها، فيجبُ فيها النيَّةُ والإخلاص. وقد روى أبو داود من حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَن تعلَّم عِلْماً ممَّا يُبْتغى به وَجْهُ الله لا يتعلّمه إلا ليصيبَ به عَرَضاً من الدُّنيا، لم يجدْ عَرْفَ الجنة»[1]. وهذا يعمُّ جميع العلوم الشرعية؛ سواء كان من العلوم المقصودة لعينها، أو للعمل بها كعلم القرآن والسنة والفقه، أو من العلوم الموصلة إلى ذلك كعلم الأصول واللسان. وهذا وعيدٌ شديدٌ، والتخلُّصُ منه بعيدٌ، إذ الإخلاصُ في طَلَب العلم عَسِيرٌ، والمجاهِدُ نفسه عليه قليل، ولا حولَ ولا قوّةَ إلَّا بالله العليِّ العظيم.

(٥) ومن بـــاب: طرح العالم المسألة على أصحابه ليختبرَهم

(قوله: «إنَّ من الشَّجر شجرةً لا يسقطُ ورقُها وإنّها مِثْلُ المسلم») قد تقدَّم أن الشجرَ ما كان على ساق، والنجمَ ما لم يكن على ساق، وتشبيه المسلم بالنخلة صحيح، وهو من حيث إن أصلَ دينه وإيمانه ثابت، وأنَّ ما يصدرُ عنه من العلم والخير قوتٌ للأرواح مستطاب، وأنه لا يزالُ مستوراً بدينه لا يسقطُ من دينه شيءٌ، وأنه ينتفعُ بكلِّ ما يصدرُ عنه، ولا يُكره منه شيءٌ. وكذلك النخلة. ففيه من الفقه

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٦٤).

الناس في شجر البوادي. قال عبد الله: ووقع في نفسي: أنَّها النخلةُ، فاستحييتُ! ثُمَّ قالوا: حدِّثْنا ما هي يا رسول الله؟! قال: فقال: «هي النَّخْلَةُ». فذكرتُ ذلك لعمر فقال: لأنْ تكونَ قلتَ: هي النخلة؛ أحبُّ إليَّ مِنْ كذا وكذا.

وفي روايةٍ: قال: كُنَّا عند النَّبيِّ ﷺ فأتي بجُمَّارٍ... وذكر نحوه.

وفي أخرى: قال ابن عمر: فوقع في نفسي: أنَّها النَّخلةُ، ورأيتُ أبا بكر وعمر لا يتكلمان؛ فكرهت أن أتكلَّمَ أو أقولَ شيئاً.

رواه أحمد (٢/ ١٢)، والبخاريُّ (٧٢)، ومسلم (٢٨١١) (٦٣ و ٦٤).

[٢٦٠١] وعن شقيقٍ ـ أبي وائل ـ قال: كان عبدُ الله يذكِّرُنا كلَّ يومِ خميسٍ، فقال له رجلٌ: يا أبا عبد الرحمن! إنَّا نحبُّ حديثك، ونشتهيه، ولوددنا أنَّك حدَّثتنا كلَّ يومٍ! فقال: ما يمنعني أنْ أُحدِّثكم إلَّا كراهيةَ أنْ أُمِلَّكُمْ، إنَّ رسول الله ﷺ كان يتخوَّلُنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا.

رواه أحمد (١/ ٣٧٧)، والبخاريُّ (٦٨)، ومسلم (٢٨٢١) (٨٣)، والترمذيّ (٢٨٥٥)، والنسائيُّ في الكبرى (٥٨٨٩).

* * *

ضرب الأمثال واختبار العالم أصحابه

جوازُ ضرب الأمثال واختبار العالم أصحابَه بالسؤال، وإجابة من عجز عن الجواب.

و (قول عمر لابنه: لأن تكونَ قلتَ: هي النخلةُ أحبُّ إليَّ من كذا وكذا) إنما تمنَّى ذلك عمر ليدعوَ النبيُّ ﷺ لابنه، فتنالُه بركةُ دعوتِه، كما نالتْ عبدَ الله بنَ

(٦) بـــاب
النهي عن أن يكتب عن النبي ﷺ
شيء غير القرآن ونسخ ذلك

[٢٦٠٢] عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لا تكتبوا عنِّي! ومن كتب عني غير القرآن فليُمْحُهُ، وحدِّثوا عنِّي ولا حرج، ومن كذب عليَّ ـ قال: هَمَّام: أحْسِبه قال: متعمداً ـ فليتبوأ مقعده من النار».

رواه أحمد (٣/ ١٢)، ومسلم (٣٠٠٤)، والنسائيُّ في الكبرى (٨٠٠٨).

عبَّاس، وليظهرَ على ابنه فضيلةُ الفهم من صِغَره، ويسودَ بذلك في كبره. والله تعالى أعلم.

[(٦) ومن بـــاب: النهي عن أن يكتب عن النبي ﷺ شيء غير القرآن ونسخ ذلك][١]

(قوله: «لا تكتبوا عني ومن كتبَ عني غيرَ القرآن فليمحُه») كان هذا النهي مُتقدِّماً، وكان ذلك لئلا يختلطَ بالقرآن ما ليس منه، ثم لما أُمن مِن ذلك أُبيحت الكتابة، كما أباحَها النبيُّ ﷺ لأبي شاة في حَجَّة الوداع حين قال: «اكتبوا لأبي شاة»[٢] فرأى علماؤنا هذا ناسخاً لذلك.

قلـــتُ: ولا يبعدُ أن يكونَ النبيُّ ﷺ إنما نهاهم عن كتب غير القرآن لئلا يتَّكِلُوا على كتابة الأحاديث ولا يحفظونها، فقد يضيع المكتوبُ، ولا يُوجد في

---

(١) هذا العنوان لم يرد في المفهم، واستدركناه من التلخيص.

(٢) الحديث رواه أبو هريرة كما خرَّجناه في التلخيص، وقول المؤلف القرطبي ـ رحمه الله ـ من حديث جابر وهْم.

[٢٦٠٣] وقد تقدَّم قول النبيِّ ﷺ: «اكتبوا لأبي شاةٍ» لما سأل أن تكتب له خطبة النبيِّ ﷺ من حديث جابرٍ.

رواه أحمد (٢/٢٣٨)، والبخاريُّ (٢٤٣٤)، ومسلم (١٣٥٥)، وأبو داود (٢٠١٧)، والترمذي (١٤٠٥)، وابن ماجه (٢٦٢٤) كلهم عن أبي هريرة وانظره بتمامه في التلخيص في كتاب الحج.

* * *

(٧) بـاب
في رفع العلم وظهور الجهل

[٢٦٠٤] عن أنسِ بن مالكٍ، قال: ألا أحدِّثُكم حديثاً سمعتُه من رسول الله ﷺ لا يحدِّثُكم أحدٌ بعدي سمعه منه: ....

وقت الحاجةَ، ولذلك قال مالك: ما كتبت في هذه الألواح قطُّ. قال: وقلتُ لابن شهاب: أكنتَ تكتبُ الحديثَ؟ قال: لا.

(٧ و ٨ و ٩) ومن بـاب: رفع العلم وظهور الجهل[1]

(قوله أنس ـ رضي الله عنه ـ: أَلَا أحدِّثكم حديثاً سمعتُه من رسول الله ﷺ لا يحدثكم أحد بعدي) إنما قال ذلك؛ لأن أصحابَ رسول الله ﷺ قد كانوا انقرضوا في ذلك الوقت، فلم يبقَ منهم غيرُه؛ فإنَّه من آخرهم موتاً، توفي بالبصرة سنة ثلاث وتسعين على ما قاله خليفة بن خياط. وقيل: كان سنُّه يوم مات مئة سنة

---

(١) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان ما أشكل في أحاديث هذا الباب، وكذا ما أشكل في أحاديث البابين التاليين له، وهما: باب كيفية رفع العلم، وباب: ثواب من دعا إلى الهدى أو سنَّ سنَّة حسنةً.

«إنَّ من أشراط السَّاعة أَنْ يُرْفَع العلمُ، ويَظْهَر الجهلُ، ويفشو الزنى، ويُشْرَب الخمر، ويذهب الرجالُ، وتبقى النِّساء حتى يكون لخمسين امرأةً قيِّمٌ واحدٌ».

رواه أحمد (٣/ ١٧٦)، والبخاريُّ (٨٠)، ومسلم (٢٦٧١) (٩)، والترمذيُّ (٢٢٠٦)، وابن ماجه (٤٠٤٥).

وعشر سنين، وقيل: أقلَّ من ذلك، والأول أكثر، وكان ذلك ببركة دعاء النبيِّ ﷺ له بذلك.

و (قوله: «إنَّ من أشراط الساعة») أي: من علامات قُرْب يوم القيامة، وقد تقدَّم القولُ في الأشراط، وأنها منقسمةٌ إلى ما يكون من قبيل المعتاد، وإلى ما لا يكون كذلك، بل: خارقاً للعادة على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

كيفية رفع العلم وظهور الجهل

و (قوله: «أن يُرْفَعَ العلم، ويظهر الجهل») وقد بيَّن كيفيةَ رفع العلم وظهور الجهل في حديث عبد الله بن عمرو الذي قال فيه: «إنَّ اللَّهَ لا يقبضُ العلم انتزاعاً ينتزعه[1] من الناس، ولكن يقبضُ العلمَ بقبض العلماء... الحديث». وهو نصٌّ في أن رَفْع العلم لا يكونُ بمحوه من الصُّدور. بل: بموت العلماء، وبقاء الجهَّال الذين يتعاطون مناصب العلماء في الفتيا والتعليم، يُفتون بالجهل، ويُعلِّمونه، فينتشر الجهل. ويظهر، وقد ظهر ذلك ووُجِد على نحو ما أخبر ﷺ فكان ذلك دليلاً من أدلَّة نبوَّته، وخصوصاً في هذه الأزمان؛ إذ قد ولي المدارس والفتيا كثيرٌ من الجهَّال والصبيان وحُرِمها أهلُ ذلك الشأن، غير أنه قد جاء في كتاب الترمذي عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء ما يدلُّ على أنَّ الذي يُرْفَعُ هو العمل. قال أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ: كُنَّا مع النَّبيِّ ﷺ فشخص ببصره إلى السماء، ثم

---

(١) هذه اللفظة مستدركة من التلخيص.

[٢٦٠٥] وعن أبي موسى وعبدِ الله بن مسعودٍ، قالا: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ بين يَدَي السَّاعةِ أياماً يُرفع فيها العلم، ويَنْزِل فيها الجهل، ويكثر فيها الهرْج! والهرج: القتل».

رواه أحمد (١/ ٣٨٩)، والبخاريُّ (٧٠٦٢)، ومسلم (٢٦٧٢) (١٠)، والترمذي (٢٢٠١).

[٢٦٠٦] وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَتَقَارَبُ الزَّمن، ويُقْبَض العلمُ، وتظهر الفِتَنُ، ويُلقى الشُّحُّ، ويكثرُ الهَرْجُ»، قالوا: وما الهرْجُ؟ قال: «القتل».

رواه أحمد (٢/ ٢٣٣)، والبخاريُّ (٨٦)، ومسلم (١٥٧) في كتاب العلم (١١)، وأبو داود (٤٢٥٥)، وابن ماجه (٤٠٥٢).

* * *

قال: «هذا أوانٌ يختلسُ فيه العلمُ من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء». فقال زياد بن لبيد الأنصاري: وكيف يُختلسُ منا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنقرأنه، ولنقرئنَّه نساءَنا وأبناءنا، فقال: «ثكلتك أمك يا زياد! إن كنتُ لأعدّك من فقهاء أهل المدينة. هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تُغْنِي عنهم؟!». قال: فلقيتُ عُبادةَ بنَ الصامت، فقلت: ألا تسمعُ إلى ما يقول أخوك أبو الدَّرداء، فأخبرتُه بالذي قال أبو الدرداء. قال: صَدَق أبو الدرداء، إن شئتَ لأحدّثنك بأول علمٍ يُرفع: الخشوع، يوشك أن تدخل مسجدَ الجامع فلا ترى فيه رجلاً خاشِعاً[١]. قال: هذا حديث حسن غريب، وقد خرّجه النّسائي من حديث جُبير بن نفير أيضاً عن عوف بن مالك الأشجعي من طرق صحيحة.

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٣)، والنسائي في الكبرى (٥٩٠٩).

(٨) بـــاب
في كيفية رفع العلم

[٢٦٠٧] عـن عبـد الله بـن عمـرو بـن العـاص، قـال: سمعـتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله لا يَقْبِضُ العلم انتزاعاً يَنْتَزِعهُ من النَّاس، ولكنْ يقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العلماء؛ حتى إذا لم يَتْرُكْ عالماً اتَّخذ النَّاسُ رؤوساً جُهَّالاً، فسُئِلوا، فَأَفْتَوا بغير علمٍ، فضَلُّوا، وأضَلُّوا».

رواه أحمد (٢/ ١٦٢)، والبخاريُّ (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) (١٣)، والترمذيُّ (٢٦٥٢)، وابن ماجه (٥٢).

* * *

(٩) بـــاب
ثواب من دَعـا إلى الهدى
أو سنَّ سنةً حسنةً

[٢٦٠٨] عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «مَنْ دَعا إلى هُدىً كان له من الأجر مثلُ أجورِ من تَبِعَهُ، لا يَنْقُصَ ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالةٍ، كان عليه من الإثم مِثْلُ آثام من تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلك من آثامهم شيئاً».

رواه أحمـد (٢/ ٣٩٧)، ومسلـم (٢٦٧٤)، وأبـو داود (٤٦٠٩)، والترمذيُّ (٢٦٧٤)، وابن ماجه (٢٠٦).

رَفْع العمل بالعلم

وظاهِرُ هذا الحديث أنَّ الذي يُرفع إنما هو العملُ بالعلم، لا نفس العلم، وهذا بخلاف ما ظهر من حديث عبد الله بن عمر، فإنه صريحٌ في رفع العلم.

[٢٦٠٩] وعن جريرِ بنِ عبد الله، قال: جاء ناسٌ من الأعراب إلى رسول الله ﷺ عليهم الصُّوفُ، فرأى سوءَ حالهم قد أصابتهم حاجةٌ، فحثَّ النَّاسَ على الصَّدقةِ، فأبطؤوا عنه حتى رُؤِيَ ذلكَ في وجهه. ثُمَّ إنَّ رجلاً من الأنصار جاء بِصُرَّةٍ من وَرِقٍ، ثم جاء آخرُ، ثم تتابعوا حتى عُرِفَ السُّرور في وجهه، فقال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنَّةً حسنةً فعُمِلَ بها بعده كُتِبَ له مِثْلُ أجر مَنْ عَمِل بها، ولا يَنْقُصُ من أجورهم شيءٌ. ومن سنَّ في الإسلام سُنَّةً سيِّئةً، فعُمِلَ بها بعده؛ كُتِبَ عليه مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عمل بها، ولا يَنْقُصُ من أوزارهم شيءٌ».

رواه أحمد (٤/ ٣٥٧)، ومسلم (٢٠١٧) في كتاب العلم (١٥)، والترمذيُّ (٢٦٧٥)، والنسائيُّ (٥/ ٧٥ ـ ٧٧)، وابن ماجه (٢٠٣).

* * *

قلـــتُ: ولا تباعدَ فيهما، فإنه إذا ذهبَ العلمُ بموت العلماء، خلفهم الجهالُ، فأفتوا بالجهل، فَعُمِل به، فذهب العلمُ والعمل، وإن كانت المصاحفُ والكتبُ بأيدي الناس، كما اتفق لأهل الكتابيْن من قَبْلِنا، ولذلك قال رسولُ الله ﷺ لزياد على ما نص عليه النسائي: «ثكلتك أمك زيادُ! هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى؟» وذلك أنَّ علماءهم لما انقرضوا خلفهم جهَّالُهم، فحرَّفوا الكتاب، وجهلوا المعاني، فعملوا بالجهل، وأفتوا به، فارتفع العلمُ والعمل، وبقيت أشخاصُ الكتب لا تُغْني شيئاً. وقد تقدَّم الكلامُ على قوله: «من سنَّ في الإســلام سُنَّة حسنة» في كتاب الزكاة.

* * *

(١٠) بـــاب
تقليل الحديث حال الرواية وتبيانه

[٢٦١٠] عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، قال: كان أبو هريرة يُحدِّثُ ويقول: اسمعي يا ربَّةَ الحُجْرة! وعائشة تصلي، فلما قضت صلاتها قالت لعروة: ألا تسمع لهذا ومقالتِهِ آنفاً؟ إنما كان النبي ﷺ يُحدِّث حديثاً لو عدَّه العادُّ لأحصاه.

رواه البخاريُّ (٣٥٦٧)، ومسلم (٢٤٩٣) في الزهدِ (٧).

* * *

(١٠ و ١١) ومن بــاب: تقليل الحديث حال الرواية وتبيانه[1]

قد تقدم القول في تقارب الزمان، وفي الشح.

التحذير من الإكثار من رواية الحديث

(قول أبي هريرة: اسمعي يا ربَّة الحجرة) يعني عائشة ـ رضي الله عنها ـ كان ذلك منه ليسمعَها ما يرويه عن النبيِّ ﷺ إما ليذكِّرها بما تعرفه، أو يفيدها بما لم تسمعه، فقد كان أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ يحضر مع النبيِّ ﷺ في مواطن لم تكن تحضرها عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ، بل: قد كان لأبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ من الملازمة لرسول الله ﷺ كما تقدَّم في مناقبه ما لم يكن لغيره من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، ثم قد اتفق له من الخصوصيَّة التي أوجبتْ له الحفظَ ما لم يتفق لغيره، فكان عنده من الحديث ما لم يكنْ عند عائشة، لكن عائشة أنكرتْ عليه سرده للحديث والإكثار منه في المجلس الواحد؛ لذلك قالت: ما كان رسولُ الله ﷺ يسردُ الحديث سردكم، إنما كان يحدِّث حديثاً لو عدَّه العادُّ لأحصاه. وقد سلك هذا المسلك كثيرٌ من السلف؛ [وكانوا لا يزيدون على عشرة

---

(١) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان: هذا الباب، والباب الذي يليه بعنوان: باب: تعليم الجاهل.

(١١) بـــاب
تعليـم الجاهـل

[٢٦١١] عن عياضِ بنِ حمارٍ المجاشِعيِّ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ ذات يوم في خطبته: «ألا إنَّ ربي أمرني أن أعلِّمكم ما جَهِلتُم ممَّا علَّمني

أحاديث ليست بطوال في المجلس الواحد، وقد كره الإكثارَ من الأحاديث كثيرٌ من السلف][1]، مخافة ما يكون في الإكثار من الآفات. روي عن عمر بن الخطاب أنَّه قال: أقِلُّوا الحديثَ عن رسول الله ﷺ. وقد عاب كثيرٌ من الصحابة على أبي هريرة الإكثارَ من الحديث حتى احتاج أبو هريرة إلى الاعتذار عن ذلك، والإخبار بموجب ذلك قال: إن ناساً يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيةٌ في كتاب الله ما حدثتُ حديثاً، ثم قال: إن إخواننا من الأنصار كان شَغَلَهم العملُ في أموالهم، وإن إخوانَنا من المهاجرين كان شغلهم الصَّفْق بالأسواق، وإني كنتُ ألزمُ رسولَ الله ﷺ لِشبَعِ بطني، أحضرُ ما لا يحضرون، وأحفظُ ما لا يحفظون[2]. ودَخَل مالكٌ على ابني أخته أبي بكر وإسماعيل بن أبي أويس، وهما يكتبان الحديثَ، فقال لهما: إن أردتما أن ينفعكما الله بهذا الأمر، فأقلاَّ منه، وتفقَّها. ولقد جاء عن شعبة أنه قال لكتبة الحديث: إن هذا الحديثَ يصدُّكم عن ذِكْر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون؟! قال أبو الحسن القابسي ـ رحمه الله ـ: يريدُ شعبةُ بقوله هذا عيبَ تكثير الروايات؛ لما قد دخل على المكثرين من اختلاط الأحاديث، وغير ذلك فيصيرون بالتكلف إلى أن يتقوَّلوا على الرسول ﷺ ما لم يقلْ.

قلـــتُ: ويظهرُ لي من قول شعبة أنه قَصَد تحذيرَ من غلبتْ عليه شهوةُ كَتْب الحديث وروايته، حتى يحمله ذلك على التفريط في متأكّد المندوبات من

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ز).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٤٠ و٢٧٤)، والبخاري (١١٨)، ومسلم (٢٤٩٢).

يومي هذا: كلُّ مالٍ نحلْتُه عبداً حلالٌ، ....

الصلوات، والأذكار، والدعوات؛ حرصاً على الإكثار، وقضاءً للشهوات والأوطار.

صفات من يُؤخَذ عنه العلم

قلتُ: وهذه وصايا السَّلف وسِيَرُ أئمة الخلف قد نبذها أهلُ هذه الأزمان، وانتحلوا ضروباً من الهذيان، فترى الواحدَ منهم كحاطب ليل، وكجالب رِجْل وخيل، فيأخذ عمن أقبل وأدبر من العوام، وممن لم يشعر بشيءٍ قط من هذا الشأن، غير أنه قد وجد اسمه في طبق السماع على فلان، أو أجاز له فلان، وإن كان في ذلك الوقت في سنٍّ من لا يفعلُ من الصبيان، ويسمُّون مثل ذلك بالسند العالي؛ وإن كان باتفاق السلف، وأهل العلم في أسفل سفال، وكلُّ ذلك قصد من كثير منهم إلى الإكثار، ولأن يقال: انفرد فلان بعالي الروايات والآثار. ومن ظهر منه أنه على تلك الحال فالأخذ عنه حرام وضلال، بل: الذي يجبُ الأخذُ عنه من اشتهر بالعلم، والإصابة، والصدق، والصيانة ممن قيّد كتب الحديث المشهورة، والأمهات المذكورة التي مدارُ الأحاديث عليها، ومرجعُ أهل الإسلام إليها، فيعارض كتابَه بكتابه، ويقيِّد منه ما قيَّده، ويهملُ ما أهمله، فإن كان ذلك الكتابُ ممن شرط مصنِّفُه الصحةَ كمسلم والبخاري، أو ميَّز بين الصحيح وغيره كالترمذي، وَجَبَ التفقُّهُ في ذلك والعمل به، وإن لم يكنْ كذلك وَجَب التوقُّفُ إلى أن يعلمَ حال أولئك الرواة، إما بنفسه إن كانت له أهليةُ البحث في الرجال، وإما بتقليد مَن له أهليةُ ذلك، فإذا حصل ذلك وَجَبَ التفقُّه والعمل، وهو المقصودُ الأول، وعليه المعوَّل. وكلُّ ما قبله طريقٌ موصلٌ إليه، ومُحومٌ عليه. وإنَّ من علامات عدم التوفيق البقاءُ في الطريق من غير وصولٍ إلى المقصود على التَّحقيق.

و (قوله تعالى[١]: «كل مال نحلته عبداً حلالٌ») معنى نحلته: أعطيته، والنِّحلة: العَطِيَّة ـ كما تقدَّم ـ ويعني بها هنا: العطية بطريق شرعيٍّ، فكأنه قال: كل

---

(١) أي: في الحديث القدسي.

وإنِّي جعَلتُ عبادي كلَّهم حنفَاء، وإنَّهم أتتهم الشياطينُ فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمَتْ عليهم ما أحلَلْتُ لهم، وأَمَرَتْهم أنْ يُشْرِكوا بي ما لم أُنْزِلْ به سُلطاناً». وذكر الحديث، وسيأتي.

رواه أحمد (٤/ ١٦٢)، ومسلم (٢٨٦٥) (٦٣).

* * *

من ملَّكته شيئاً بطريق شرعي قليلاً كان أو كثيراً، خطيراً كان أو حقيراً، فالانتفاعُ له به مباحٌ مطلقاً، لا يُمْنَعُ من شيءٍ منه، ولا يُزاحمُ عليه، والمال هنا: كلّ ما يتموّل، ويُتملَّك من سائر الأشياء، وفائدةُ هذه القضية الكلية رَفْعُ توهّم من يتوهّم أن ما يُستلذُّ، ويُستطاب من رفيع الأطعمة، والملابس، والمناكح، والمساكن محرَّمٌ، أو مكروه، وإن كان ذلك من الكسب الجائز، كما قد ذهب إليه بعضُ غلاة المتزهِّدة. وسيأتي استيعابُ هذا المعنى في كتاب الزهد ـ إن شاء الله تعالى.

إباحة ما يستلذ ويُستطاب من الطعام والشراب الحلال

و (قوله: «وإني خلقتُ عبادي كلَّهم حنفاء») هو جمع حنيف، وهو: المائلُ عن الأديان كلِّها إلى فطرة الإسلام، وهذا نحو قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»[1] وقد تقدَّم في كتاب: القَدَر.

و (قوله: «وإنهم أتتهم الشياطينُ فاجتالتهم عن دينهم») يعني: شياطين الإنس من الآباء والمعلِّمين بتعليمهم وتدريبهم، وشياطين الجن بوساوسهم. ومعنى اجتالتهم: أجالتهم، أي: صرفتهم عن مقتضى الفطرة الأصلية، كما قال: «حتى يكون أبواه هما اللذان يهوِّدانه، أو يُنَصِّرانه، أو يُمجِّسانه». وفي الرواية الأخرى: «حتى يُعبِّر عنه لسانُه» يعني بما يُلقي إليه الشيطانُ من الباطل والفساد المناقض لفطرة الإسلام.

* * *

---

(١) سبق في التلخيص برقم (٢٦٩١).

(١٢) بـــاب

إقرارُ النَّبيِّ ﷺ حجةٌ

[٢٦١٢] عن محمَّد بن المنكدر، قال: رأيتُ جابرَ بنَ عبدِ الله يَحْلِفُ بالله: أَنَّ ابن صائدٍ الدجالُ. فقلت له: أتحلف على ذلك؟ قال: إنِّي سمعت عمر يحلف على ذلك عند النبيِّ ﷺ فلم ينكره النَّبيُّ ﷺ.

رواه مسلم (٢٩٢٩).

* * *

---

(١٢) ومن بــاب: إقرار النبيِّ ﷺ

إقرار النبيِّ ﷺ حجَّةٌ، ودليل على جواز ذلك الفعل إذا صدر ذلك الفعلُ من مسلم، ورآه النبيُّ ﷺ ولم يُنْكِرْ عليه.

حجية إقراره ﷺ

* * *

فهرس الموضوعات

(٣٢) كتاب الرؤيا ٥
(١) باب: الرؤيا الصادقة من الله والحلم من الشيطان، وما يفعل عند رؤية ما يكره ٥
(٢) باب: أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً ١٠
(٣) باب: الرؤيا الصالحة جزء منن أجزاء النبوة ٢١
(٤) باب: رؤية النبي ﷺ ٢٢
(٥) باب: لا يخبر بتلعب الشيطان به ٢٧
(٦) باب: استدعاء العابر ما يعبر، وتعبير من لم يُسأل ٢٩
(٧) باب: فيما رأى النبيُّ ﷺ في نومه ٣٤

(٣٣) كتاب النبوات وفضائل نبينا محمد ﷺ ٣٦
(١) باب: كونه مختاراً من خيار الناس في الدنيا وسيّدهم يوم القيامة ٤٦
(٢) باب: من شواهد نبوّته ﷺ وبركته ٥١
(٣) باب: في عصمة الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام ممن أراد قتله ٦١
(٤) باب: ذكر بعض كرامات رسول الله ﷺ في حال هجرته وفي غيرها ٦٤
(٥) باب: مَثَل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم ٨٢
(٦) باب: مثل النبي ﷺ مع الأنبياء ٨٧
(٧) باب: إذا رحم الله أمة قبض نبيّها قبلها ٨٨
(٨) باب: ما خصّ به النبي ﷺ من الحوض المورود ومن أنه أعطي مفاتيح خزائن الأرض ٩٠
(٩) باب: في عظم حوض النبي ﷺ ومقداره وكبره وآنيته ٩٥
(١٠) باب: شجاعة النبي ﷺ وإمداده بالملائكة ٩٩

(١١) باب: كان رسول الله ﷺ أجود الناس وأحسن الناس خلقاً ١٠١
(١٢) باب: ما سُئِل رسول الله ﷺ شيئاً وقال: لا. وفي كثرة عطائه ١٠٥
(١٣) باب: في رحمة رسول الله ﷺ للصبيان والعيال والرقيق ١٠٨
(١٤) باب: في شدة حياء النبي ﷺ وكيفية ضحكه ١١٤
(١٥) باب: بُعد النبي ﷺ من الإثم، وقيامه لمحارم الله عز وجل، وصيانته عما كانت عليه الجاهلية من صغره ١١٨
(١٦) باب: طيب ريح النبي ﷺ وعرقه ولين مسه ١٢١
(١٧) باب: في شَعْر رسول الله ﷺ وكيفيته ١٢٤
(١٨) باب: في شيب رسول الله ﷺ وخضابه ١٢٨
(١٩) باب: في حُسْن أوصاف النبي ﷺ ١٢٩
(٢٠) باب: في خاتم النبوة ١٤١
(٢١) باب: كم كان سن رسول الله ﷺ يوم قُبِض؟ وكم أقام بمكة؟ ١٤٢
(٢٢) باب: عدد أسماء النبي ﷺ ١٤٥
(٢٣) باب: كان النبيُّ ﷺ أعلمَ الناس بالله وأشدّهم له خشية ١٥٠
(٢٤) باب: وجوب الإذعان لحكم رسول الله ﷺ والانتهاء عما نهى عنه ١٥٣
(٢٥) باب: ترك الإكثار من مساءلة رسول الله ﷺ توقيراً له واحتراماً ١٥٨
(٢٦) باب: عصمة رسول الله ﷺ عن الخطأ فيما يبلغه عن الله تعالى ١٦٧
(٢٧) باب: كيف كان يأتيه الوحي؟ ١٧١
(٢٨) باب: في ذكر عيسى ابن مريم عليهما السلام ١٧٥
(٢٩) باب: في ذكر إبراهيم عليه السلام ١٨٠
(٣٠) باب: في ذكر موسى عليه السلام ١٨٩
(٣١) باب: قصة موسى مع الخضر عليه السلام ١٩٣
(٣٢) باب: في وفاة موسى عليه السلام ٢٢٠
(٣٣) باب: في ذكر يونس ويوسف وزكريا عليهم السلام ٢٢٣
(٣٤) باب: في قول النبي ﷺ: «لا تخيروا بين الأنبياء» ٢٢٨
(٣٥) باب: فضائل أبي بكر الصديق واستخلافه ـ رضي الله عنه ـ ٢٣٦
(٣٦) باب: فضائل عمر بن الخطاب ٢٥١

(٣٧) باب: فضائل عثمان ـ رضي الله عنه ـ ٢٦٢
(٣٨) باب: فضائل علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ٢٦٨
(٣٩) باب: فضائل سعد بن أبي وقاص ٢٧٩
(٤٠) باب: فضائل طلحة بن عبيدالله، والزبير بن العوام، وأبي عبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنهم ـ ٢٨٦
(٤١) باب: فضائل الحسن والحسين ٢٩٥
(٤٢) باب: فضائل أهل البيت ـ رضي الله عنهم ـ ٣٠١
(٤٣) باب: فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد ٣٠٦
(٤٤) باب: فضائل عبدالله بن جعفر ٣١١
(٤٥) باب: فضائل خديجة بنت خويلد ٣١٤
(٤٦) باب: فضائل عائشة زوج النبي ﷺ، ومريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون ٣٢٠
(٤٧) باب: ذِكر حديث أم زرع ٣٣٣
(٤٨) باب: فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ ٣٥١
(٤٩) باب: فضائل أم سلمة وزينب زوجي النبي ﷺ ٣٥٧
(٥٠) باب: فضائل أم أيمن مولاة النبي ﷺ وأم سُلَيم؛ أم أنس بن مالك ٣٦١
(٥١) باب: فضائل أبي طلحة الأنصاري ٣٦٤
(٥٢) باب: فضائل بلال بن رباح ٣٦٧
(٥٣) باب: فضائل عبدالله بن مسعود ٣٧٠
(٥٤) باب: فضائل أبي بن كعب ٣٧٨
(٥٥) باب: فضائل سعد بن معاذ ٣٨٢
(٥٦) باب: فضائل أبي دجانة؛ سماك بن خرشة، وعبدالله بن عمرو بن حرام ... ٣٨٥
(٥٧) باب: فضائل جُليبيب ٣٨٨
(٥٨) باب: فضائل أبي ذر الغفاري ٣٩٠
(٥٩) باب: فضائل جرير بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ ٤٠٢
(٦٠) باب: فضائل عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر ٤٠٥
(٦١) باب: فضائل أنس بن مالك ٤١٠
(٦٢) باب: فضائل عبدالله بن سلام ٤١٣

(٦٣) باب: فضائل حسان بن ثابت ٤١٧
(٦٤) باب: فضائل أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ٤٣٤
(٦٥) باب: قصة حاطب بن أبي بلتعة، وفضل أهل بدر وأصحاب الشجرة ٤٣٨
(٦٦) باب: في فضائل أبي موسى الأشعري والأشعريين ٤٦٥
(٦٧) باب: فضائل أبي سفيان بن حرب ـ رضي الله عنه ـ ٤٥٣
(٦٨) باب: فضائل جعفر بن أبي طالب وأسماء بنت عميس وأصحاب السفينة .. ٤٥٧
(٦٩) باب: فضائل سلمان وصهيب ـ رضي الله عنهما ـ ٤٦٢
(٧٠) باب: فضائل الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ ٤٦٦
(٧١) باب: خبر دور الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ ٤٧٠
(٧٢) باب: دعاء النبي ﷺ لغفار وأسلم ٤٧١
(٧٣) باب: فضل مزينة وجهينة وأشجع وبني عبدالله ٤٧٣
(٧٤) باب: ما ذكر في طيىء ودوس ٤٧٥
(٧٥) باب: ما ذكر في بني تميم ٤٧٦
(٧٦) باب: خيار الناس ٤٧٧
(٧٧) باب: ما ورد في نساء قريش ٤٧٨
(٧٨) باب: في المؤاخاة التي كانت بين المهاجرين والأنصار ٤٧٩
(٧٩) باب: قول النبي ﷺ: «أنا أمنةٌ لأصحابي، وأصحابي أمنةٌ لأمتي» ٤٨٤
(٨٠) باب: خير القرون قرن الصحابة، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ... ٤٨٥
(٨١) باب: وجوب احترام أصحاب النبي ﷺ والنهي عن سبهم ٤٩٢
(٨٢) باب: ما ذكر في فضل أويس القرني ٤٩٥
(٨٣) باب: ما ذكر في مصر وأهلها وفي عُمان ٤٩٩
(٨٤) باب: في ثقيف كذاب ومبير ٥٠٢
(٨٥) باب: ما ذكر في فارس ٥٠٥

(٣٤) كتاب البر والصلة ٥٠٨

(١) باب: في بر الوالدين، وما للأم من البر ٥٠٨
(٢) باب: ما يُتّقى من دعاء الأم ٥١١
(٣) باب: المبالغة في بر الوالدين عند الكبر، وبرّ أهل وِدّهما ٥١٨

(٤) باب: في البر والإثم ٥٢١
(٥) باب: في وجوب صلة الرحم وثوابها ٥٢٤
(٦) باب: النهي عن التحاسد والتدابر والتباغض، وإلى كم تجوز الهجرة؟ ٥٢٨
(٧) باب: النهي عن التجسس والتنافس والظن السيىء وما يحرم على المسلم من المسلم ٥٣٤
(٨) باب: لا يغفر للمتشاحنين حتى يصطلحا ٥٣٩
(٩) باب: التحاب والتزاور في الله عز وجل ٥٤١
(١٠) باب: في ثواب المرضى وذوي الآفات إذا صبروا ٥٤٤
(١١) باب: الترغيب في عيادة المرضى وفعل الخير ٥٤٩
(١٢) باب: تحريم الظلم والتحذير منه وأخذ الظالم ٥٥٢
(١٣) باب: الأخذ على يد الظالم ونصر المظلوم ٥٥٨
(١٤) باب: من استطال حقوق الناس اقتصّ من حسناته يوم القيامة ٥٦٠
(١٥) باب: النهي عن دعوى الجاهلية ٥٦١
(١٦) باب: مثل المؤمنين ٥٦٥
(١٧) باب: تحريم السباب والغيبة ومن تجوز غيبته ٥٦٦
(١٨) باب: الترغيب في العفو والستر على المسلم ٥٧٤
(١٩) باب: الحث على الرفق ومن حُرِمه حرم الخير ٥٧٦
(٢٠) باب: لا ينبغي للمؤمن أن يكون لعاناً والتغليظ على من لعن بهيمة ٥٧٩
(٢١) باب: لم يُبعث النبي ﷺ لعّاناً وإنما بُعث رحمة، وما جاء من أن دعاءه على المسلم أو سبّه له طهور وزكاة ورحمة ٥٨٢
(٢٢) باب: ما ذكر في ذي الوجهين وفي النميمة ٥٨٩
(٢٣) باب: الأمر بالصدق والتحذير عن الكذب وما يُباح منه ٥٩٠
(٢٤) باب: ما يُقال عند الغضب، ومدح من يملك نفسه عنده ٥٩٤
(٢٥) باب: النهي عن ضرب الوجه، وفي وعيد الذين يعذبون الناس ٥٩٧
(٢٦) باب: النهي أن يشير الرجلُ بالسلاح على أخيه والأمر بإمساك السلاح بنصولها ٦٠٠
(٢٧) باب: ثواب من نحّى الأذى عن طريق المسلمين ٦٠٣

(٢٨) باب: عذبت امرأة في هرة ٦٠٥
(٢٩) باب: في عذاب المتكبر والمتألي على الله، وإثم من قال: هلك الناس، ومدح المتواضع الخامل ٦٠٦
(٣٠) باب: الوصية بالجار وتعاهده بالإحسان ٦١٠
(٣١) باب: فضل السعي على الأرملة وكفالة اليتيم ٦١٣
(٣٢) باب: التحذير من الرياء والسمعة ومن كثرة الكلام ومن الإجهار ٦١٥
(٣٣) باب: تغليظ عقوبة من أمر بمعروف ولم يأته، ونهى عن المنكر وأتاه ٦١٩
(٣٤) باب: في تشميت العاطس إذا حمد الله تعالى ٦٢٢
(٣٥) باب: في التثاؤب وكظمه ٦٢٥
(٣٦) باب: كراهية المدح، وفي حثو التراب في وجوه المدّاحين ٦٢٧
(٣٧) باب: ما جاء أن أمر المسلم كله له خير، ولا يُلدغ من جحر مرتين ٦٣٠
(٣٨) باب: اشفعوا تُؤجروا، ومثل الجليس الصالح والسيىء ٦٣٢
(٣٩) باب: ثواب من ابتلي بشيء من البنات، وأحسن إليهن ٦٣٦
(٤٠) باب: من يموت له شيء من الولد فيحتسبهم ٦٣٨
(٤١) باب: إذا أحب الله عبداً حبّبه إلى عباده، والأرواح أجناد مجندة، والمرء مع من أحبّ ٦٤٣
(٤٢) باب: المرء مع مَن أحب، وفي الثناء على الرجل الصالح ٦٤٦

(٣٥) كتاب القدر ٦٤٩
(١) باب: في كيفية خلق ابن آدم ٦٤٩
(٢) باب: السعيد سعيد في بطن أمه، والشقي شقي في بطن أمه ٦٥٤
(٣) باب: كل ميسر لما خُلِق له ٦٥٧
(٤) باب: في قوله تعالى: ﴿ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها﴾.... ٦٦١
(٥) باب: الأعمال بالخواتيم ٦٦٤
(٦) باب: ذكر محاجة آدم موسى ـ عليهما السلام ـ ٦٦٥
(٧) باب: كَتَبَ اللهُ المقادير قبل الخلق، وكل شيء بقدر ٦٦٨
(٨) باب: تصريف الله تعالى إلى القلوب، وكتب على ابن آدم حظّه من الزنى ... ٦٧٢

(٩) باب: كل مولود يولد على الفطرة، وما جاء في أولاد المشركين وغيرهم، وفي الغلام الذي قتله الخضر ٦٧٥
(١٠) باب: الآجال محدودة والأرزاق مقسومة ٦٨٠
(١١) باب: في الأمر بالتقوى، والحرص على ما ينفع، وترك التفاخر ٦٨٢

(٣٦) كتاب العلم ٦٨٤

(١) باب: فضل من تعلم وتفقّه في القرآن ٦٨٤
(٢) باب: كراهة الخصومة في الدين، والغلو في التأويل، والتحذير من اتباع الأهواء ٦٨٩
(٣) باب: كيفية التفقّه في كتاب الله، والتحذير من اتِّباع ما تشابه منه، وعن المماراة به ٦٩٥
(٤) باب: مأثم من طلب العلم لغير الله ٧٠٠
(٥) باب: طرح العالم المسألة على أصحابه ليختبرهم، والتخول بالموعظة والعلم خوف الملل ٧٠١
(٦) باب: النهي عن أن يكتب عن النبي ﷺ شيء غير القرآن، ونسخ ذلك ٧٠٣
(٧) باب: في رفع العلم وظهور الجهل ٧٠٤
(٨) باب: في كيفية رفع العلم ٧٠٧
(٩) باب: ثواب من دعاء إلى الهدى، أو سنّ سُنّة حسنة ٧٠٧
(١٠) باب: تقليل الحديث حال الرواية وتبيانه ٧٠٩
(١١) باب: تعليم الجاهل ٧١٠
(١٢) باب: إقرار النبي ﷺ حجّة ٧١٣